

مُهَاجِرَةٌ مِّنْ تَارِيْخِ خَلْدَوْنَ

رسامي



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

جَامِعُ الْفَقِيلِ

بَيْرُوت - لُبْنَانٌ

مَقْدِسَةِ قَرْبَانٍ حَكَلُوفَنْ

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

دار القلم

بيروت - لبنان - ص. ب ٣٨٧٤



الطبعة الرابعة ١٩٨١

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار القلم ص.ب ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يُلْطِفُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ خَلْدُونَ
الْخَضْرَمِيُّ وَفَقِهُ اللَّهُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبَرُوتُ * وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمُسْكُوتُ * وَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى وَالْأَنْوَاتُ * الْعَالَمُ فَلَا يَغْرِبُ عَنْهُ مَا نُظْهِرَهُ أَوْ يُخْفِيَهُ اللَّهُ كُوْتُ * الْأَقَادِيرُ
فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَغُوْتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسِيًّا * وَأَسْتَعْمَرَنَا
فِيهَا أَجِيَّالًا وَأَمَمًا وَإِسْرَارًا مِنْهَا أَرْزَاقًا وَقَسَماً * تَكَفَّنَا الْأَرْحَامُ وَالْبَيْوُتُ * وَبَكَنَّنَا
الْأَرْزَقُ وَالْقُوَّتُ * وَبَلَّيْنَا الْأَيَّامُ وَالْوُقُوتُ * وَتَعَوَّذَنَا الْأَجَالُ الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابَهَا الْمَوْقُوتُ
وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ * وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ * وَالصَّلَوةُ وَالسَّلَامُ طَلَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدُ الَّذِي الْعَرَبِيُّ الْمَكْتُوبُ فِي التَّوْرَأِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْمُوتُ * الَّذِي تَحْضُنَ لِفَصَالِهِ
الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسَّبُوتُ * وَيَبْلَيْنَ زَحْلَ وَالْيَهُوتَ^(۱) * وَعَلَى الْكِهْرَبَةِ
الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحبَتِهِ وَأَتَبَاعِهِ الْأَثْرَ الْبَعِيدُ وَالْأَصِيدُ * وَاسْتَمْلُ الْجَمِيعُ فِي مُظَاهِرَتِهِ وَلِمَدُودِهِ
الْشَّمْلُ الْشَّيْبُتُ * صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصلَ بِالْإِسْلَامِ جَدَهُ الْمَبْخُوتُ * وَأَنْقَطَعَ
بِالْكُفَّرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ * وَسَلَمَ كَثِيرًا

أَمَا بَعْدُ فَإِنْ فَرَقَ النَّارِ بَيْنَ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَالُهُ الْأَمْ وَالْأَجِيَّالُ وَشَدَّ الْيَهُوتُ
الْأَرْ كَائِبُ وَالرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرَفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ
وَالْأَفْيَالُ * وَتَسَاوِي فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجَهَالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ

(۱) قوله اليهود هو التnon اي المحوت الذي على ظهره الارض السابعة ويسى ايضا لونها كونه المزهد وروح البيان والتجهيز وعلم ان يهود ويهود زحل الذي هو في الفلك السابع بونا بعيدا وفالشهاب المخاجي في خاصيته على البيضاوي انه في اول سورة نون اليهود يفتح المدنه الغربية وسكنها الماء وما شهر من انه بالله الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحتوى ومثله في روح البيان قاله نصر الموردي افرو المصحق الثاني

عَنِ الْأَيَّامِ وَالدُّولِ * وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى * تَسْمُو فِيهَا الْأَقْوَالُ * وَتُفْرِبُ فِيهَا
الْأَمْثَالُ * وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الْأَخْتِفَالُ * وَتُؤْدِي لَنَا شَأنَ الْخَلِيقَةَ كَيْفَ
تَقْبَلَتْ بِهَا الْأَخْوَالُ * وَاتَّسَعَ لِلْدُولِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالنِّجَاعُ * وَعَمَّوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى
بِهِمْ الْأَرْتِحَالَ * وَحَانَ مِنْهُمُ الْزَوَالُ * وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ * وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ
وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ * وَعِلْمٌ يُكَيِّنُ أَوْقَانِعَ وَاسْبَابَهَا عَمِيقٌ فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلُ فِي الْحِكْمَةِ
عَرِيقٌ * وَجَدِيرٌ بِإِنْ يُعَذَّبُ فِي عُلوِّهَا وَخَلِيقٌ * وَإِنْ قُهُولَ الْمُؤْرِخِينَ فِي الْإِسْلَامِ فَدِ
أَسْتَوْعِبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا * وَسَطَرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الْمَدَافِرِ وَأَوْدَعُوهَا * وَخَلَطُهَا
الْمُتَعَلَّمُونَ بِدَسَائِسِ مِنَ الْبَاطِلِ وَهُمُوا فِيهَا وَأَبْتَدَعُوهَا * وَزَخَارِفَ مِنَ الْأَرْوَابِ الْمُضْعَفَةِ
لَفْقُوهَا وَوَضَعُوهَا * وَاقْتَفَى تِلْكَ الْأَثَارَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَتَبْعَوْهَا * وَأَدَّهَا إِلَيْنَا كَمَا
تَسْمُوْهَا * وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَخْوَالِ وَلَمْ يُرَأُوهَا * وَلَا رَفَضُوا ثُرَّهَاتِ
الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا فَلَا تَحْقِيقٌ قَلِيلٌ * وَطَرَفُ التَّقْيِيَّةِ فِي الْأَغَالِبِ كَلِيلٌ * وَالْغَلطُ وَالْوَمْ
لَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ * وَالنَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْأَدَمِيَّينَ وَسَالِمٌ * وَالْأَطْفَلُ عَلَى الْفَنُورِ
عَرِيقٌ طَوِيلٌ * وَمَرَّ عَلَى الْجَهَلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخَيمٌ وَبَلِّيْلٌ * وَالْحَقُّ لَا يُقَوِّمُ سُلْطَانَهُ * وَالْبَاطِلُ
يُهَدِّفُ بِشَهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ * وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ بُمْلِي وَيَنْقُلُ * وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ
إِذَا تَمَكَّلَ * وَالْعِلْمُ يَجْلُو لَمَّا صَفَحَاتِ الْقُلُوبَ وَيَضْقُلُ

هَذَا وَقَدْ دَوَنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا * وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأَمَمِ وَالدُّولِ فِي
الْعَالَمِ وَسَطَرُوا * وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشَّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ الْمُبَشَّرَةِ * وَأَسْتَرَغُوا دَوَّاً وَيَنْ
مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمِ الْمُتَّاخِرَةِ * هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ * وَلَا
سَرَّكَاتِ الْمَوَامِلِ * مِثْلُ أَبْنِ إِسْحَاقَ وَالْطَّبَرِيِّ وَابْنِ أَنْهَكَائِي وَنَحْمَدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ
وَسَيْفِ بْنِ عَمَّوَ الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ * الْمُتَمَيِّزُونَ عَنِ الْجَمَاهِيرِ * وَإِنْ كَانَ
فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثَابَاتِ *
وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الْثِقَاتِ * إِلَّا أَنَّ الْكَافَةَ أَخْتَصُّهُمْ بِقِبْلِ الْأَخْبَارِمْ * وَاقْتَفَاءُ
سُلْطَنِهِمْ فِي الْتَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعِ أَثَارِهِمْ * وَالنَّاقِدَ الْبَصِيرَ قِسْطَاسُ تَفْسِيْهِ فِي تَزْيِيْفِهِمْ فِيهَا يَنْقُلُونَ
أَوْ أَغْتَبَارُهُمْ * فَلِمَرَّانِ طَبَائِعُ فِي أَخْوَالِهِ تُرْجَعُ إِلَيْهَا أَخْبَارُهُ * وَتَحْمَلُ عَلَيْهَا أَرْزِوَابِكَاتُ

وَالآثَارُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهُولَاءِ عَامَةُ الْمَنَاجِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الْمُؤْلِتَيْنِ
صَدَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْأَفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاهُ لَهَا الْبَعِيدُ مِنَ الْفَابِاتِ فِي الْمَاضِ وَالْمَارِكِ
وَمِنْ هُولَاءِ مَنِ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْعِلْمِ مِنَ الدُّولِ وَالْأَمْمِ * وَالْأَمْرِ الْعَمَّ * كَالْمَسْعُودِيِّ
وَمِنْ نَحْنَا مَنْخَاهُ وَجَاهُ مِنْ تَعْدِيمِ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَقَفَتِ فِي الْعُمُومِ
وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الْأَشَاءِ وَالْبَعِيدِ * فَقَيْدَ شَوَّارِدَ عَصْرِهِ * وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَقُطْرِهِ *
وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دُولَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا قَعَلَ أَبُو حَيَانَ مُؤْرِخُ الْأَنْدَلُسِ وَالْمُؤْلِتَةِ الْأَمْوَيَّةِ
بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِ مُؤْرِخُ الْفَرِيقِيَّةِ وَالْمُؤْلِتَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِهِ
هُولَاءِ إِلَّا مُقْلِدٌ * وَبَلِيدُ الْطَّبْعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَتَسْبِحُ عَلَى ذَلِكَ الْمُنْوَالِ * وَيَعْتَدِي
مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيَدْهُلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَخْوَالِ * وَاسْتَبَدَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأَمْمِ
وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّولِ * وَسَكَائِنَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولِيِّينِ * صُورًا
قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنِ مَوَادِهَا * وَصِفَاتِهَا أَنْتُصِيتَ مِنْ أَغْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسْتَكِرُّ لِلْجَهْلِ
بَطَارِفَهَا وَزَلَادِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أَصْوَلُهَا * وَأَنْواعُ لَمْ تُعْتَبِرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تُحَقَّقَتْ
فَصُولُهَا * يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا * أَتَيَاءً لِمَنْ عَيَّنَ مِنْ
الْمُتَقْدِمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغَفِّلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا * بِمَا أَغْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ
تَوْجِهِنَّهَا * فَقَسَّ تَهْجِيمُ صُنْخَنِهِمْ عَنِ يَكِينَهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الْمُؤْلِتَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا *
مُحَاذِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمَا أَوْ صَدْقَا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبَدَائِهَا * وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي
رَفَعَ مِنْ رَأْيِهِمْ * وَأَظْهَرَ مِنْ أَبْيَهِمْ * وَلَا عِلْمَ الْوُقُوفِ عِنْهُ غَایَتِهَا * فَيَبْقَى الْأَنَاظِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدُ
إِلَى افْتِقَادِ الْأَخْوَالِ مَبَادِيِّ الدُّولِ وَمَرَاثِيهَا * مُفْتِشًا عَنِ أَسْبَابِ تَزَاحِمِهَا أَوْ تَعَاقِبِهَا *
بَاخِثًا عَنِ الْعُقْنِعِ فِي نَبَائِيَّهَا أَوْ تَنَاسِيَّهَا * حَسِبَمَا نَذَرَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مُقْدَمَةِ الْكِتَابِ
ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ يَأْفِرُونَ إِلَى الْأَخْتِصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الْأَكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَقْتَصَارِ *
مَقْطُوْعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضِعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيْلَعِيهِمْ بِمَحْرُوفِ الْغَيَارِ * كَمَا قَعَلَ
ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمِنْ أَفْتَقَى هَذَا الْأَثْرَ مِنَ الْعَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبِرُ لِهُولَاءِ
مَقَالٌ * وَلَا يَعْدُ لَهُمْ ثَبُوتٌ وَلَا انتِقالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنْ الْفَوَائِدِ * وَأَخْلَوُا بِالْمَذَاهِبِ
الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤْرِخِينَ وَالْعَوَائِدِ
وَلَمَّا طَالَتْ كُتُبُ الْقَوْمِ * وَسَبَرَتْ غَوَّرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَبَهَتْ عَيْنَ الْقَرِيمَةِ مِنْ

سَنَةِ الْفَلَقَةِ وَالنُّوْمَ * وَسِمَتُ التَّصْنِيفَ مِنْ تَقْسِيٍ وَأَنَا الْمُفْلِسُ أَخْسِنُ السَّوْمَ * فَأَنْشَأْتُ
 فِي الْأَدَارِيجِ كِتَابًا * رَفَعْتُ يَهُ عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ شَهَادَةً مِنْ الْأَجْيَالِ حِجاَبًا * وَفَصَانَتُهُ فِي
 الْأَخْبَارِ وَالْأَعْتِيَارِ بَابًا بَابًا * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأُولَئِكَ الدُّولِ وَالْمُهْرَانِ عَلَلًا وَأَسْبَابًا * وَبَيْتَهُ
 عَلَى أَخْبَارِ الْأَمَمِ الَّذِينَ عَمِرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الْفَوَاحِي
 مِنْهُ وَالْأَمْصَادِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ الدُّولِ الظَّوَالِ أَوِ الْقَصَادِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنْ الْمُلُوكِ
 وَالْأَنْصَارِ * وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا الْجِيلَانُ الَّذِي أُنْعِرِفُ بِالْمَغْرِبِ مَا وَاهِمَا
 وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَخْفَاقِ مَشَاهِمَا * حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ
 أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْأَدَمِيَّينَ سِوَاهُمَا * فَهَذِبَتْ مَنَاجِيَّهُ تَهْذِبَهَا * وَفَرَبَتْ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ
 وَالْمَنَاجِيَّهُ تَقْرِيبًا * وَسَلَكَتْ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبَوِيهِ مَسَالَكًا غَرِيبًا * وَأَخْتَرَ عَنْهُ مِنْ بَيْنِ
 الْمَنَاجِيَّهِ مَذْهَبًا عَجِيبًا * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأَسْلُوبًا * وَشَرَحَتْ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُهْرَانِ وَالْمَهْدَنِ
 وَمَا يَعْرِضُ فِي الْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانيِّ مِنْ الْعَوَارِضِ الْذَاتِيَّةِ مَا يُمْتَلِكُ بِعِلْلِ الْكَوَافِنِ
 وَأَسْبَابِهَا * وَيُعْرِفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّولِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزَعَ مِنَ التَّقْلِيدِ بِدَكَهُ *
 وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَبِّتْهُ عَلَى مُقْدَمَةٍ وَثَلَاثَةَ كُتُبٍ
 الْمُقْدَمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ الْأَدَارِيجِ وَتَعْقِيقِ مَذَاهِيهِ وَالْإِلْمَاعِ بِعَوَالِطِ الْمُؤْرِخِينَ
 الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْمُهْرَانِ وَذِكْرُ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنْ الْعَوَارِضِ الْذَاتِيَّةِ مِنْ
 الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْرِ وَالْعَكْشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِذَلِكَ مِنْ الْعِلْلِ وَالْأَسْبَابِ
 الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْجِيلَيْمِ وَدُولِهِمْ مُنْذُ مَبْدِئِ الْخَلِيلَةِ إِلَى هَذَا
 الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنْ الْإِلْمَاعِ يَعْبُري مِنْ عَاصِرَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدُولِهِمْ مِثْلِ النَّبِيِّ
 وَالسِّرْبَانِيَّينَ وَالْفَرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبْطِ وَالْبُونَانِ وَأَرْسُومِ وَالْتَّرْكِ وَالْإِفْرَنجِيَّةِ
 الْكِتَابُ الْثَالِثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتَهُ وَذِكْرُ أَوْلَيْهِمْ وَآخِيَّهِمْ
 وَمَا كَانَ بِدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمَلَكِ وَالْدُّولِ لِمَ كَانَتِ الرَّجْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ
 لِأَجْتِنَاءِ أَنْوَارِهِ * وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنْنَةِ فِي مَطَافِهِ وَمَرَازِهِ * وَلَوْقُوفِ عَلَى آثارِهِ فِي دَوَارِيَّهِ
 وَأَسْفَارِهِ * فَزِدَتْ مَا نَقْصَنَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجمِ بِتَلْكَ الْدِيَارِ * وَدُوقِلِ الْتَّرْكِ فِيهَا
 مَكْوُهٌ مِنَ الْأَقْطَارِ * وَأَتَبَعَتْ بِهَا مَا كَتَبَتْهُ فِي ثَلَاثَ الْأَسْنَاطَارِ * وَأَدَرَجَتْهَا فِي ذِكْرِ
 الْمُعاصرِينَ لِثَلَاثَ الْأَجْيَالِ مِنْ أَمَمِ النَّوَاحِي * وَمُلُوكِ الْأَمْمَادِ وَالْفَوَاحِي * سَالِكًا سَبِيلَ

الاختصار والتخيسِ مُفتدياً بالمرام السهلِ من العويسِ داخلاً من باب الأسبابِ على العموم إلى الإخبارِ على الخصوص فاستوعبتُ أخبارَ الخليقةَ أشياعاً وذالِّ من الحكمةِ النافرةِ صياغاً وأعطيتُ لحوادثِ الدولِ عللاً وأسباباً فاصبحَ للحكمةِ صواناً وللتاريخِ جواباً

ولما كان مشتملاً على أخبارِ العربِ والبربرِ من أهلِ المدرِ والتبرِ والإنماعِ بين عاصرِهم من الدولِ الكبيرِ وأقصى بالذكرِ والعبرِ في مبتدأ الأحوالِ وما بعدها من أخبارِ سميته كتابَ العبرِ وديوانَ المبتدأ وأخبارِ في أيامِ العربِ والعمَّ والبربرِ ومن عاصرِهم من ذوي السلطانِ الأكبرِ ولم أثرِك شيئاً في أوليةِ الأجيالِ والدولِ وتعاصرُ الأممِ الأولى وأسبابِ التصرفِ والتحولِ في القرونِ الخاليةِ والمملِّ وما يعرضُ في التمرانِ من دولةِ وملةِ ومدينةٍ وحلةٍ وعزَّةٍ وذلةٍ وكثرةٍ وقلةٍ وعلمٍ وصناعةٍ وكسبٍ وإضاءةٍ وأحوالٍ مُقلبةٍ مشاءةٍ وبدو وحضرٍ وواقفٍ ومتظاهرٍ إلا وأستوعبتُ جملةً وأوضحتُ برأسينه وعلمه بقاءً هذا الكتابُ فذا بما ضمنتهُ من العلومِ الغريبةِ والحكمةِ المحبوبةِ القريبةِ وأنامنَ بعدها مُوقنٌ بالقصورِ بين أهلِ العصورِ مُعترفٌ بالعجزِ عنِ المضاءِ في مثلِ هذا القضاءِ راغبٌ من أهلِ اليدِ البيضاءِ والمعارفِ المتيسعةِ الفضاءِ في النظرِ يعينِ الآنيقادِ لا يعنِ الآرتضاءِ وأشتمدَ لما يُثرونَ عليه بالإصلاحِ والإغتسالِ فالفضاءُ بينَ أهلِ العلمِ مُتجاهٌ وألاعترافُ منَ اللومِ متجاهٌ والحسنى منَ الإخوانِ مُتجاهٌ واللهُ أسألُ أن يجعلَ أعمالنا خالصةً لوجيهِ السكريمِ وهو حسيبي ونعمَ الوكيلُ

وبعدَ أنِ أستوفيتُ علاجهُ وأنزَلتُ مشكاةَ المستبصرينَ وأذْكُرتُ سراجةَ وأوضحتُ بينَ العلومِ طريقَ ومنهاجهُ وأذُنتُ في فضاءِ المعارفِ نطاقَهُ وأدرَتُ سياجهُ وأتحفتُ بهذهِ النسخةِ منهُ^(١) خزانةَ مولاناَ السلطانِ الإمامِ المجاهدِ والتاريخِ

(١) قوله أتحفت بهذه النسخة منه المخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله المحنت وبعد قوله وأدرت سراجة ونصها النسبت له الكف الذي يقع بين الاستهصار فنونه . وبالحظ بداركت الشريفة معيار الصناعة وقانونه . ويزير قبة في المعارف عادونه . فسرحت فكري في فضا الوجود . وأجلت نظري لبل التمام والتجدد . بين التهائم والتجدد . في العلم الرفع والتجدد . وإن كلنا أهل الكرم والتجدد . حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الأفكار بوقف الأمال . وظفرت أيدي المساعي والاعمال .

المَاهِدِيْهُ الْمُنْجَلِيْ مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ * وَلَوْتُ الْعَمَائِمِ * بِحِلِّ الْقَانِتِ الْزَاهِدِيْهُ الْمُتَوَسِّعِ
 بِزَكَاءِ الْمَنَافِعِ وَالْحَامِدِيْهُ * وَكَرَمِ الشَّهَادِيْلِ وَالشَّوَاهِدِيْهُ * بِأَجْمَلِ مِنَ الْقَلَائِدِ * فِي تُحُورِ
 الْوَلَائِدِيْهُ الْمُتَنَكُولِ بِالْعَزَمِ الْقَوِيِّ الْسَّايدِيْهُ وَأَجْدَهُ الْمُوَاقِيِّ الْمُسَاعِدِيْهُ وَالْمُجَدِّدِ الْطَارِفِ
 وَالْتَّالِدِيْهُ ذَوَابِيْهِ مُلْكِيْهِمِ الْقَوَاعِدِيْهُ * الْكَرِيمِ الْمَعَالِيِّ وَالْمَصَاعِدِيْهُ جَامِعِ
 اَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِيْهُ وَنَاظِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالْشَّوَارِدِيْهُ وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ الْرَبَانِيَّهُ *
 فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّهُ يُفْكِرُهُ الْأَنَاقِبُ الْأَنَاقِدُ وَرَأَيْهُ الْصَحِيحُ الْمَعَاقِدُ * الْتَّنَيرُ
 الْمَذَاهِبُ وَالْعَقَائِدُ نُورُ اللَّهِ الْوَاضِعُ الْمَرَاشِدُ وَنِعْمَتُهُ الْعَذَبَةُ الْمَوَارِدُ وَلُظْفُهُ الْكَامِنُ
 بِالْمَرَاصِدِ الْشَّدَائِدُ وَرَحْمَتُهُ الْكَرِيمَهُ الْمَقَالِدُ الْأَنَى وَسِعَتْ صَلَاحَ الْزَمَانِ الْفَاسِدِ *
 وَأَسْتَقَامَةُ الْمَائِدِيْهُ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَابِدُ وَخَلَعَتْ عَلَى الْزَمَانِ
 رَوْنَقُ الْشَّبَابِ الْمَائِدِيْهُ وَجَحْتُهُ الْأَنْجَادِ وَلَا شُبَهَاتُ الْمَعَانِدِ (أَمِيرُ
 الْمُؤْمِنِينَ) أَبِي فَارِسِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعَظَمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمِ
 إِبْرَاهِيمَ أَبْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَقْدَسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي الْحَسَنِ أَبْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ
 مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ الَّذِينَ جَدُّوا الدِّينَ وَنَهَجُوا السَّبِيلَ الْمُهَدِّدِينَ وَمَحَوُوا آثَارَ الْبُغَاةِ
 الْمُفْسِدِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْأَمَةِ ظِلَالَهُ وَبَلَغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ وَبَعْثَتُهُ
 إِلَى خَرَانِهِمُ الْمُوْفَقَةُ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرَوِيَّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَاسِ حَاضِرَةِ مُلْكِيْهِمِ
 وَكُرْسِيِ سُلْطَانِهِمُ حَيْثُ مَقْرُبُ الْهُدَى وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خَضِلَةُ النَّدَى وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ

ينتهي المعرف مشرفة فيه غرب الجبال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فاختخت
 مطلي الاتکار في عرصاتها . وجلوت محاسن الانظر على منصاتها . وتحفت بابونها مقاصير ابواها . واطلعته
 كوكباً وقادماً في افق خزانتها وصوانها . ليكون آية للعقلاء يهدون بهاره . ويعرفون فضل المدارك
 الإنسانية في اثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الإمام الجامد . الفاتح الماحد . إلى اخر النعوت المذكورة هنا
 ثم قال الخليفة امير المؤمنين المنوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر القدس
 الى عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين . ابي بجيبي ابي بكر ابن المخلفه الراشد بن . من
 ائمه المؤجدين جددوا الدين . وذهبوا السبيل للمهتدين . ومحوا اثر البغاء للمسددين من الجيسنة
 والمعتددين . سلاه ابي المخلص والفاروق . والتبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور
 المخلالي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته من مودعها الى العلي بجيت مقر المهدى . ورب باض المعرف
 خضلة الندى . الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه .
 النسخة المنشورة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الحج

أَرْبَانِيَّةُ قَسِيقُ الْمَدَى * وَالْإِمَامَةُ الْفَارِسِيَّةُ الْكَرِيمَةُ^(١) الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَتَطَهَّرُ هَا
الشَّرِيفُ وَفَضْلِهَا الْفَقِيرُ عَنِ التَّعْرِيفِ * تَبْسُطُ لَهُ مِنَ الْعِنَاءِ مِهَادًا * وَتَفْسِحُ لَهُ فِي جَانِبِ
الْقَبُولِ أَمَادًا * فَتُوَضِّحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا * فِي سُوقِهَا تَفْقُ بِضَائِعِ الْكِتَابِ
وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعْكِفُ رَكَابُ الْعِلُومِ وَالْأَدَابِ * وَمَنْ مَدَدَ بِصَابِرِهَا الْمُنْيَرَةُ تَائِيُّ
الْقَرَائِبِ وَالْأَلَبَابِ * وَاللَّهُ يُوزِّعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا
وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا * وَيَعْلَمُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْجَهَالِينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفي
عَلَى أَهْلِ إِيمَانِهَا * وَمَا أَوَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالِتِهَا * لِبُوسِ حِمَاتِهَا وَحُرْمَتِهَا *
وَهُوَ سُبْحَانُهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَغْمَانَهَا خَالِصَةً فِي وِجْهِهِنَا * بَرِيشَةُ مِنْ شَوَائِبِ الْفَقْلَةِ
وَشَبَهَتِهَا * وَهُوَ حَسَبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه واللاماع لما يعرض للمورخين
من المغالط وذكر شيء من اسبابها

أَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمِيعُ الْفَوَائِدِ شَرِيفُ النَّفَاهَةِ إِذْ هُوَ يُوقِنُنَا
عَلَى أَخْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأَمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَالْأَنْسَابِ فِي سِيرِهِمْ . وَالْمَلُوكِ فِي دُولِهِمْ
وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى تَمَّ فَائِدَةُ الْاِقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُوْمُهُ فِي أَخْوَالِ الدِّينِ وَالْأَدْيَانِ فَهُوَ
مُخْتَاجٌ إِلَى مَا أَخْدَى مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنَ نَظَرٍ وَثَبَّتَ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِيهِمَا إِلَى
الْحَقِّ وَيُنَهِّكِيَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَاتِ وَالْمَغَالِطِ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا أَعْتَدَتْ فِيهَا عَلَى مُبَرَّدِ
النَّقلِ وَلَمْ تَخْكُمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ الْسِيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَالْأَخْوَالِ فِي الْاجْتِمَاعِ
الْإِنْسَانيِّ وَلَا قِيسَ الْفَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرِ بِالْأَذَافِبِ فَرَبِّمَا لَمْ يُؤْمِنْ فِيهَا مِنْ
الْعُثُورِ وَمَزَّلَةُ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنِ جَادَةِ الصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤْرِخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ
وَأَيْمَانَةُ النَّقلِ مِنَ الْمَغَالِطِ فِي الْحِكَمَاتِ وَالْوَقَائِعِ لِأَعْتَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجْرِدِ النَّقلِ غَيْرًا
أَوْ مَيْنَانِ وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أَصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَّرُوهَا بِمِعْيَارِ الْمُكْنَمَةِ
وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَخْكِيمِ الْنَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ

(١) قوله الفارسية أي المنسوبة الى اي فارس لتقديم ذكره اه

وناهوا في يَدِهِ الْوَهْمُ وَالْغَلَطُ وَلَا سِيَّماً فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَسَاكِيرِ إِذَا
 عَرَضَتْ فِي الْحِكَمَاتِ إِذِ هِيَ مَظَنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطْبَيَّ الْمَهْدَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى
 الْأَصْوَلِ وَغَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْزِخِينَ فِي
 جِيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَأْنَ مُومَى عَلَيْهِ الْسَّلَامُ أَخْصَاهُمْ فِي الْتَّيْهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ
 حَلَّ الْسِّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ أَبْنَ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتَّمِائَةً أَلْفَ اُفْرِيزَ يَدُونَ وَيَذْهَلُ
 فِي ذَلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِهِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجِيُوشِ لِكُلِّ
 مَلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَامِيَةِ تَنْسَعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوَظَائِفِهَا وَتَضْيِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا
 تَشَهِّدُ بِذَلِكَ الْعَوَالِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَخْوَالُ الْمَالُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجِيُوشِ الْبَالِغَةِ
 إِلَى مِثْلِهِ هَذَا الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقْعُدْ يَمْهَأْ زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ إِضِيقٌ سَاحَرَ الْأَرْضَ عَنْهَا وَبُعْدُهَا
 إِذَا أَصْطَفَتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مِرْتَيْنَ أَوْ ثَلَاثَتَيْنَ أَوْ أَرْبَعَتَيْنَ فَكَيْفَ يَقْتَلُ هَذَانِ الْفَرْيَقَانِ
 أَوْ تَكُونُ غَلَبةُ أَحَدٍ الْفَصَفَيْنِ وَمَنْ يُمْنِ جَوَانِيهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخِرِ وَالْحَاضِرِ
 يَشَهِّدُ بِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْأَتِيِّ مِنَ الْمَاءِ يَا الْمَاءِ وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ.
 أَعْظَمُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُكَثِّيرُ يَشَهِّدُ بِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلْبٍ بِمُخْتَصَرِهِمْ وَالْتِهَابِهِمْ
 يَلَادَهُمْ وَأَسْتِيلَاهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبُ يَتِ الْمَقْدِسِ فَاعِدَةُ مَلِيْمِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ
 مِنْ بَعْضِ عَمَالِ مَلَكَةِ فَارِسَ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُ بَنُ الْمَغْرِبِ مِنْ شَعْوِهِمَا وَكَانَتْ
 مَهَالِكُهُمْ بِالْمِرْأَقِينَ وَخُرُّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 يُكَثِّيرُ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جِيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا
 كَانَ جَمْعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعٌ عَلَى مَا نَقْلَهُ صَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا
 فِي أَنْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتِي أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالْزُّهْرِيِّ فَإِنَّ جُمُوعَ دُوْسُمَ الَّذِينَ زَحَفَتْ
 بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
 مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَا تَسْعَ نِطَاقُ مُلُوكِهِمْ وَأَنْسَعَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ
 فِي الدُّولِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قَلْبِهَا وَكَثُرَتِهَا حَسْبَمَا نَبِينُ فِي فَصْلِ
 الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَنْسَعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدُنَ وَفَلَسْطِينَ
 مِنَ الشَّامِ وَبِالْأَدِيدِ يَثْرَبُ وَخَيْرٌ مِنَ الْجِمَاعَ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَإِيْضًا فَالْذِي بَيْنَ مُومَى
 وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ أَبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحْقِقُونَ فَإِنَّهُ مُومَى بْنُ عِمْرَانَ بْنُ يَصْهُورُ

بن قَاهِتَ بَقْتَعَ الْمَاءَ وَكَسَرَهَا أَبْنَ لَأْوِي بِكَسْرِ الْوَادِ وَفَخِّهَا أَبْنَ يَقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ
الله هـ كـذا نـسبـه في التـوزـة وـالـمـدة يـنـهـمـا عـلـى ما نـقلـهـ الـمـسـعـودـيـ قالـ دـخـلـ إـسـرـائـيلـ
مـصـرـ مـعـ وـلـدـهـ الـأـسـبـاطـ وـأـلـادـمـ حـينـ أـتـواـ إـلـى يـوـسـفـ سـبـعـيـنـ نـفـسـاـ وـكـلـ مـقـاـمـهـ بـمـصـرـ
إـلـى إـنـ خـرـجـواـ مـعـ مـوـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ إـلـى إـنـيـهـ مـاـئـيـنـ وـعـشـرـيـنـ سـنـةـ لـتـدـاـوـلـهـ مـلـوكـ
الـقـبـطـ مـنـ الـفـرـاعـنـةـ وـبـعـدـ إـنـ يـتـشـعـبـ النـسـلـ فـي أـزـبـعـةـ أـجـيـالـ إـلـى مـشـلـ هـذـاـ الـعـدـدـ وـإـنـ
زـعـمـواـ أـنـ عـدـدـ تـلـكـ الـجـيـوشـ إـنـمـاـ كـانـ فـي زـمـنـ سـيـمـانـ وـمـنـ بـعـدـهـ فـبـعـيدـ أـيـضـاـ إـذـ لـيـسـ
بـيـنـ سـلـيـمـانـ وـإـسـرـائـيلـ إـلـى أـحـدـ عـشـرـ أـبـاـ فـاـهـ سـلـيـمـانـ بـنـ دـاـوـدـ بـنـ يـسـاـ بـنـ عـوـفـيـدـ
وـيـقـالـ أـبـنـ عـوـفـيـدـ أـبـنـ بـاعـزـ وـيـقـالـ بـوـعـزـ بـنـ سـلـمـونـ بـنـ تـحـشـونـ بـنـ عـمـيـنـوـذـبـ وـيـقـالـ
حـمـيـنـيـاذـابـ بـنـ رـمـ بـنـ حـصـرـوـنـ وـيـقـالـ حـسـرـوـنـ بـنـ بـارـسـ وـيـقـالـ يـهـرـسـ بـنـ يـهـوـذـاـ بـنـ
يـقـوبـ وـلـاـ يـتـشـعـبـ النـسـلـ فـي أـحـدـ عـشـرـ مـنـ الـلـوـلـدـ إـلـى مـشـلـ هـذـاـ الـعـدـدـ الـذـيـ زـعـمـهـ الـلـهـ
إـلـى إـمـيـتـيـنـ وـأـلـلـاـفـ فـرـبـمـاـ يـكـوـنـ وـأـمـاـ إـنـ يـجـاـوـزـ إـلـى مـاـ بـعـدـهـمـ مـنـ عـقـودـ لـأـعـدـادـ
فـبـعـيدـ وـأـعـتـيـزـ ذـلـكـ فـي الـخـاصـيـرـ الـمـشـاهـدـ وـالـقـرـيبـ الـمـعـرـوفـ تـجـدـ زـعـمـهـ بـاـطـلـاـ وـنـقـلـهـ
كـادـ بـاـ وـالـذـيـ ثـبـتـ فـي الـإـسـرـائـيلـيـاتـ أـنـ جـنـوـدـ سـلـيـمـانـ كـانـ أـثـنـيـ عـشـرـ أـلـفـ خـاصـةـ
وـأـنـ مـقـرـبـاتـ كـانـتـ أـلـفـاـ وـأـرـبـعـمـائـةـ فـرـسـ مـرـتـيـطـةـ عـلـى أـبـوـاـيـهـ هـذـاـ هـوـ الـصـحـيـحـ مـنـ
أـخـبـارـهـ وـلـاـ يـلـتـقـتـ إـلـى خـرـافـاتـ الـعـامـةـ مـنـهـمـ وـفـيـ أـيـامـ سـلـيـمـانـ (عـلـيـهـ السـلـامـ) وـمـلـكـهـ
كـانـ عـنـفـوـانـ دـوـلـتـهـ وـأـتـسـاعـ مـلـكـيـهـ هـذـاـ وـقـدـ تـجـدـ الـكـافـةـ مـنـ أـهـلـ الـعـصـرـ إـذـاـ
أـفـاضـوـ فـيـ الـحـدـيـثـ عـنـ عـسـاـكـرـ الـدـوـلـ الـتـيـ لـعـدـهـمـ أـوـ قـرـبـاـ مـنـهـ وـتـقـاوـضـوـ فـيـ الـأـخـبـارـ
عـنـ جـيـوشـ الـمـسـلـمـيـنـ أـوـ الـنـصـارـىـ أـوـ أـخـذـوـ فـيـ إـحـصـاءـ أـمـوـالـ الـجـيـاـكـاتـ وـخـرـاجـ
الـسـلـطـانـ وـنـفـقـاتـ الـمـتـرـفـيـنـ وـبـضـائـعـ الـأـغـنـيـاءـ الـمـوـسـرـيـنـ تـوـغلـوـ فـيـ الـعـدـدـ وـتـجـاـوـزـوـ حـدـودـ
الـعـوـائـدـ وـطـاـوـعـوـاـ وـسـاـوسـ الـإـغـرـابـ فـلـيـذـاـ أـسـتـكـشـفـ أـمـحـابـ الـدـوـلـ وـأـبـنـ عـنـ عـسـاـكـرـ كـرـيمـ
وـأـسـتـقـيـطـتـ أـخـوـالـ أـهـلـ الـزـوـقـ فـيـ بـصـائـعـهـمـ وـفـوـائـدـهـمـ وـأـسـتـجـلـيـتـ عـوـائـدـ الـمـتـرـفـيـنـ فـيـ
نـفـقـاتـهـمـ لـمـ تـجـدـ مـعـشـارـ مـاـ بـعـدـهـ وـمـاـ ذـلـكـ إـلـاـ لـوـلـعـ الـنـفـسـ بـالـفـرـائـبـ وـسـهـولـةـ الـجـاـفـزـ
عـلـ الـلـسـانـ وـالـفـلـةـ عـلـ الـمـتـعـقـبـ وـالـمـتـقـدـ حـتـيـ لـاـ يـحـاسـبـ نـفـسـهـ عـلـ خـطاـ وـلـاـ عـمـدـ وـلـاـ
يـطـالـبـهـ فـيـ الـخـبـرـ بـتـوـسـطـ وـلـاـ عـدـالـةـ وـلـاـ يـرـجـعـهـ إـلـىـ بـحـثـ وـتـقـيـشـ فـيـزـسـلـ عـنـانـةـ وـبـسـيمـ
فـيـ مـرـاتـعـ الـكـنـبـ لـيـسـانـةـ وـيـنـجـدـ آـبـاتـ الـلـهـ هـزـاـ وـبـشـرـيـ لـمـوـ الـحـدـيـثـ لـيـضـلـ عـنـ

سَيِّلَ اللَّهُ وَحْسِبُكَ بِهَا صَفَقَةً خَاسِرَةً وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤْرِخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَةً
 فِي أَخْبَارِ الْتَّابِعَةِ مُلُوكُ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ نَهْمٌ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُوَّاهُمْ بِالْيَمَنِ
 إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ وَالْبَرْزَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِيشَ بْنَ قَبِيسِ بْنَ صَيْفٍ مِنْ أَعْظَامِ
 مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَرَّاً أَفْرِيقِيَّةَ وَأَنْجَنَ فِي
 الْبَرْزَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتِهِمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْزَرَةُ فَأَخْدَدَ
 هَذَا الْإِسْمُ عَنْهُ وَدَعُوا بِهِ مِنْ حِينَئِذٍ وَأَنَّهُ لَدَمَا اتَّصَرَّفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ
 مِنْ حَمِيرٍ فَاقَمُوا بِهَا وَأَخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنَاهَاجَةُ وَكِتَامَةُ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الْطَّبَرِيُّ
 وَالْجَرِجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلَبِيِّ وَالْبَيْلِيِّ إِلَى أَنَّ صَنَاهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ
 وَتَابَاءَ نَسَابَةُ الْبَرْزَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَلِكَ الْإِذْعَارُ مِنْ مُلُوكِهِمُ
 قَبْلَ أَفْرِيقِيشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سَلَيْمانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) غَرَّاً الْمَغْرِبَ وَدَوْخَهُ وَكَذَلِكَ
 ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَامِرَ أَبْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ يَأْغَ وَادِيَ الرَّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
 فِيهِ مَسَلَّكًا لِكَثِيرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبَ
 وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرْسِ الْكَيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذَرَ بِيَحَانَ
 وَأَقَى الْتُرْكَ فِيهِمُوهُمْ وَأَنْجَنَ ثُمَّ غَرَّاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةَ
 مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصَّعْدَى مِنْ بِلَادِ أَمَمِ الْتُرْكِ وَرَاءَ النَّهَرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ
 فَمَلَكَ الْأَوَّلُ الْلِّادَ إِلَى سَمْرَقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى أَصْبَنِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي
 غَرَّاً إِلَى سَمْرَقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَنْجَنَاهُ فِي بِلَادِ أَصْبَنِ وَرَجَعَ حَمِيمًا بِالْفَنَائِمِ وَتَرَكَوا بِبِلَادِ
 أَصْبَنِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرَ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوْخَ
 بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ
 وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْقَصْصِ الْمُوْضَوِّعَةِ وَذَلِكَ أَنَّ مَلَكَ الْتَّابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ يَعِزِيزَةَ الْعَرَبِ
 وَقَرَارَهُمْ وَكُرْسِيِّهِمْ يَصْنَعُهُ الْيَمَنُ. وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثَ جِهَاتِهَا فَيَجْزُءُ
 الْهِنْدَ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْمَاطِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنْ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْنِ
 الْمَاطِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْنِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوَّرِ الْجُنُفرِ إِنَّمَا
 فَلَأَ بَحْدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْبَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْنِ وَالْمَسَلَكُ هُنَالِكَ مَا
 بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْنِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَبَعْدُ أَنْ يَمْرُ بِهَذَا الْمَسَلَكِ

مَلِكُ عَنْلَيْمٌ فِي عَسَاكِرٍ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُمْتَنَّةٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَاكَةُ وَكَنْعَانُ بِالشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصْرِ ثُمَّ مَلِكُ الْعَمَاكَةِ وَضَرَّ وَمَلِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ الْبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هُولَاءِ الْأَمَمِ وَلَا مَلَكُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَبْضَا فَالشَّقَةُ مِنَ النَّجْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةً وَالْأَزُودَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ أَخْتَاجُوهُ إِلَى اِنْتِهَابِ الْأَرْزَعِ وَالنَّعْمِ وَانْتِهَابِ الْمِلَادِ فِيمَا يَمْرُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكُنُّ فِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقْلُوهُ كِفَايَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَنِي لَهُمُ الْرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَإِنْ يَمْرُوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلَّهَا بِأَعْمَالِ قَدْ مَلَكُوكُوهَا وَدَوْخُوهَا لِتَكُونُ الْمِيَرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرِ تَمَرُّ بِهِوَلَاءِ الْأَمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيجُهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ الْمِيَرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ فَذَلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُ أَمْثَنَاءً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارُ وَاهِيَّ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَا وَادِي الْرَّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كُثْرَةِ مَسَالِكِهِ وَمَنْ يَقْصُصُ طُرُوفَهُ مِنَ الرُّكَابِ وَالْقُرْبَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْفَرَابَةِ تَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَا غَرْزُومُ بِلَادِ الشَّرْقِ وَأَرْضَ الْتُرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكَ السَّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشَّقَةَ هُنَا بَعْدُ وَأَمَمَ فَارِسَ وَالْرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ الْتُرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ الْبَابِعَةَ مَلَكُوكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الْرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُعَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَرِّينِ وَالْجِرَيْرِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا يَنْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِذْعَارِ مِنْهُمْ . وَكِبِيكَلَاؤسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْنَافِ أَبِي كَرِبَ وَبَسَّاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَافِيْفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِعْجَاوَرَةَ أَرْضِ فَارِسَ بِالْغَزِيزِ إِلَى بِلَادِ الْتُرْكِ وَالْتَّبَتِ وَهُوَ مُمْتَنَّ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأَمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشَّقَةِ كَمَا مَرَّ فَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَّ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً الْنَّقْلِ أَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا فَكَيْفَتِيْهِ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ وَقَوْلُ أَبْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرَبِ وَالْأَوْسِ وَالْخَرَاجِ أَنَّ تَبَعَ الْأَخْرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَعْمُولاً عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَا بِلَادِ الْتُرْكِ وَالْتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَرْزُومُ إِلَيْهَا بِوَجْهِهِ لِمَا تَقْرَرَ وَلَا تَشْقَى بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ وَتَأْمَلُ الْأَخْبَارَ وَأَغْرِضُهَا عَلَى الْقَوَانِينِ

الصَّحِيحَةُ يَقْعُدُ لَكَ تَحْبِيْصُهَا بِالْحَسْنِ وَجْهُهُ وَاللهُ الْمَادِيُّ إِلَى الصَّوَابِ
فَصَلَّى

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ فِي الْوَنْهَرِ مَا يَتَنَاقِلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى أَمْرُهُ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ يَعْدِي إِرَمَ ذَاتَ الْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لِفَظَةَ إِرَمَ أَسْنَاهُ لِمَدِينَةٍ وَصِفَتَ
بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادَ بْنَ عُوذِنْ بْنَ إِرَمَ أَبْنَانَ هُمَا شَدِيدَ
وَشَدَّادَ مَلَكًا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ نَفَاحُ الْمُلْكِ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَعَ
وَصَنَّتْ أَلْجَنَّةَ فَقَالَ لِابْنِيْنَ مِثْلَهَا فِي بَنَيَّ مَدِينَةِ إِرَمَ فِي صَحَارِيِّ عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَاثَةِ سَنَةٍ
وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعَانَةَ سَنَةً وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ الْذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الْرَّبْرَجَدِ
وَالْبَافُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الْشَّجَرِ وَالْأَنْهَارُ الْمُطَرِّدَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا يَأْهُلُ
مَلَكَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تَعَثَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ السَّمَاءِ
تَهَلَّكُوا كَلِمُهُمْ . ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ وَالثَّمَالِيُّ وَالزَّمَشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ
وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَبَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبٍ إِبْلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ
مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ مُعاوِيَةَ فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَجَثَ عَنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتِ الْعِمَادِ وَسَيَدِنُخْلُلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْفَرُ قَصِيرٌ
عَلَى حَاجِيَهِ خَالٌ وَعَلَى عُنْقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبْلٍ لَهُ ثُمَّ الْتَفَ فَأَبْصَرَ أَبْنَانَ قَلَبَةَ فَقَالَ
هَذَا وَاللهِ ذَلِكَ الْرَجُلُ . وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لِمَا خَبَرُ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ
وَصَحَارَى عَدَنَ تَأْتِي زَعْمَوْا أَنَّهَا بُنِيتَ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ مُشَعَّافِيَا
وَالْأَدِلَّةُ تَقْصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرُهَا أَحَدٌ
مِنَ الْأَخْبَارِيْنَ وَلَا مِنَ الْأَمْمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرْسَتْ فِيهَا دُرْسٌ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهُ إِلَّا
أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمْشَقُ نَاهَ عَلَى أَنَّ قَوْمًا عَادَ مَلَكُوهَا
وَقَدْ بَنَتْهُ هِيَ الْمَدِيَانُ بِعَصْبِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْتَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْرِّيَاضَةِ وَالسِّخْرِ مَرَاعِيُّ
كُلُّهَا أَشْبَهُ بِالْخِرَافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا أَقْتَضَتْهُ صَنَاعَةُ الْأَيْغَرَابِ فِي
لِفَظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمٍ وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَعْلَمَ أَنَّ يَكُونُ بِنَاهُ وَرَسْخَ
لَهُمْ ذَلِكَ فِرَاءُهُ أَبْنَانَ الْزَّبَرِ عَادَ إِرَمَ عَلَى الْأَيْضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ
الْحِسَكَيَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَفَاصِصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَفْرَبُ إِلَى الْكَنْدِبِ الْمَنْقُولَةِ

في عِدَادِ الْمُضْعِكَاتِ وَإِلَّا فَالْعِدَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخْيَةِ بِكُلِّ الْخَيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا
الْأَسَاطِينُ فَلَا يَدْعُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَهْلِ بَنَاءِ وَأَسَاطِينِ عَلَى الْتَّعْوِيمِ بِمَا أَشْتَهَى مِنْ قُوَّتِهِمْ
لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌ فِي مَدِينَةِ مُعِينَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ اضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ أَبْنِ الرَّبِّيرِ فَعَلَى
إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ فُرَيْشُ كِتَانَةَ وَالْيَاسُ مُضَرَّ وَرَيْسَةُ نِزَارِ وَأَيُّ
ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا الْمُحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمْحَلِّتْ لِتَوْجِيهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحَكَابَاتِ الْوَاهِيَةِ
الَّتِي يَنْزَهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعدِهَا عَنِ الْقِعَدَةِ وَمِنْ الْحَكَابَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤْرِخِينَ
مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَةً فِي سَبَبِ نَكَبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ فِصَّةِ الْعَبَاسَةِ أَخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ
بَيْعَيِّ بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقِرَتِهِ إِيمَانُهُمَا أَنْتَهَ أَذْنَ لَهُمَا فِي
عِقدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوقِ حِرْصًا عَلَى أَجْتِياعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَاسَةَ تَعْلَمَتْ عَلَيْهِ فِي
النِّاسِ الْخُلُوقَ بِهِ لِمَا شَفَقَهَا مِنْ حُبَّهِ حَتَّى وَاقْعَهَا (زَعْمَاً فِي حَالَةِ السُّكُرِ) فَهَدَمَتْ وَوْشِيَّ
بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَأَسْتَغْضَبَ وَهَيَّهَاتِ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبُوهَا وَجَلَالِهَا
وَأَنْهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بِيَنْهَا وَيَنْهَا إِلَّا أَذْبَعَهُ رَجَالُهُمْ أَشْرَافُ الْدِرِّينَ وَعُظَمَاهُ
الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَالْعَبَاسَةُ بِنْتُ عَمَدَرِ الْمَهْدِيِّ أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبْيَ جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْمَسْجَدِيِّ أَبْنِ عَلَيٍّ أَبِي الْخَلَفاءِ أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ أَبْنِ الْعَبَّاسِ هُمْ الَّذِي (صلَمَ)
أَبْنَةُ خَلِيفَةِ أَخْتِ خَلِيفَةِ مَحْفُوفَةٍ بِالْمُلْكِ الْعَزِيزِ وَأَخْلَافَ النَّبِيَّ وَمُهْبَةُ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ
وَإِقَامَةُ الْمِلَّةِ وَنُوبُ الْوَحْيِ وَمَهْبِطُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَافِرٍ جَهَانَهَا قَرِيبَهُ عَهْدِ يَدَاهُ دَوَادِهِ الْعُرُوبِيَّةِ
وَسَذَاجَةُ الْدِرِّينَ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَادِ الْتَّرَفِ وَمَرَاثِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيْنَ يُطْلَبُ الصُّونُ وَالْعَفَافُ
إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ الْطَّهَارَةُ وَالْذَّكَاءُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْعُمُ تَسْبِهَا
يَجْعَفَرُ بْنِ بَيْعَيِّ وَتُدَنِّسُ شَرْفَهَا الْعَرَبِيِّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْعَجمِ بِمَكَكَةَ جَدِّهِ مِنْ الْفُرْسِنِ
أَوْ بِوَلَاءِ جَدِّهِ مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ فُرَيْشَ وَغَایَتِهِ أَنْ جَدَّهُ دَوْلَتُهُمْ يَضْبِعُهُ
وَضَبَعُ أَبِيهِ وَآسْتَخَاصُتُهُمْ وَرَفْقُهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوْغُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ
يُصْهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّهِ وَعَظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ
الْعَنْصِفِ وَفَاقَ الْعَبَاسَةَ بِأَبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَا سَتَنْتَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِمْ
بَوْلَى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَأَسْتَنْكَرَهُ وَلَعَجَ فِي تَكْذِيَّبِهِ وَأَيْنَ قَدَرُ الْعَبَاسَةِ
وَالرَّشِيدِ مِنَ النِّاسِ وَإِنَّمَا نَكِبُ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ آسْتَبَادِهِمْ عَلَى الدُّوَلَةِ وَآخْبَارِهِمْ

أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب التيسير من المال فلا يصل إليه فغلبوا على أمره وشاركته في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملوكه فعذبت أثارهم وبعد صيانتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرتوس من ولدهم ومساندهم وأختاروها عنهم سوامن من وزارة وكتابة وقيادة وتجارة وسيف وقلم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زادوا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفاله هارون ولهم عهد وخليفة حتى شب في حبره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا ابنت فتوحة إلا يشار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وأنبسط أجلاء عندم وأنصرت نحوم الوجوه وخضعت لهم الرقاب ونصرت عليهم الآمال وتحطمت إليهم من أقصى النجوم مدايا الملوكي وتحف الأمراء وتسررت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستهلاك أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المتن وكسروا من يوميات الأشراف المعدم وفكوا الغاني وملحوظاً بما لم يدخل به خليفتهم وأسروا لغافتهم الجوازات والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأخذدوا أناخاصة وأغضوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبوا إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو خطبة أحوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لعما وقر في تقويمهم من الحسد عواطف الرسم ولا وزعنهم وأاصير القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم تواسي الغيرة والاستكفار من العجر والأنفة وكان المحقود الذي بعثتها منهم صغار الدالة واحتى بها إلا ضرار على شأنهم إلى كبار الخلافة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الرشيدة أخارج على المنصور ويحيى هنا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الدليم على أمان الرشيد بخطه وبدل لهم فيه ألف درهم على ما ذكره الطبراني ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل أعينه بداره وإلى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخليصه والاستبداد بحمل عقاله حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكميه . وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه فقطن وقال أطلقته فأبدى له وجه

الْأَسْتِحْسَانِ وَأَسْرَهَا فِي تَقْسِيمِ فَأَوْجَدَ السَّبِيلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقُوَّمَهُ حَتَّى ثُلُّ عَرَشِهِمْ
وَالْقِبَطَ عَلَيْهِمْ سَاهُمْ وَخَسَقَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبَدَارُهُمْ وَذَهَبَتِ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلآخَرِينَ أَيَّامُهُمْ
وَمَنْ تَأْمَلَ أَخْبَارَهُمْ وَأَسْتَقْصِي سِيرَ الدُّولَةِ وَسِيرَهُمْ وَجَدَ ذَلِكَ تَحْقِيقَ الْأَثْرِ مُهْبِطَ الْأَسْبَابِ
وَأَنْظَرَ مَا نَقْلَهُ أَبْنَ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفَاوَضَةِ الرَّشِيدِ عَمَّ جَدَ وَدَأْدَ بْنَ عَلَى فِي شَانِ تَكْبِيرِهِمْ
وَمَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الشُّعُرَاءِ فِي كِتَابِ الْعِقْدِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَضْمَعِيِّ لِلرَّشِيدِ وَالْفَضْلِ بْنِ
بِهِيجِيِّ فِي سَمَرِيِّهِ تَقْتِيمِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الْفِيَرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِي الْأَسْتِبْدَادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ قَنَ
دُونَهُ وَكَذَلِكَ مَا تَحْيَلَ يَهُ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبِطَانَةِ فِيهَا دَسْوَهُ لِلْمُغْنِيَّنَ مِنَ الشِّعْرِ أَخْتِيَالًا عَلَى
إِنْهَاءِ الْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْنَا مَا تَعَذَّ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مَا نَجِدَ
وَأَسْتَدَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْمَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَدِ
وَإِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ إِيَّ وَاللَّهِ إِنِّي عَاجِزٌ حَتَّى يَعْثُوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ كَامِنَ غَيْرِهِ
وَهَسْلَطُوا عَلَيْهِمْ بِأَسْ أَنْتِقامِهِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلَبةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ وَأَمَّا مَا تَمَرَّهُ
بِهِ الْخِلَابَةُ مِنْ مُعَاوَرَةِ الرَّشِيدِ أَخْتَمَ وَأَقْرَبَنِ سُكْرِ بِسْكُرِ الْنَّذْمَانِ خَاشَا اللَّهُ مَا
عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَأَنَّهُ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَحْبُبُ لِلنَّصِيبِ الْخِلَافَةُ مِنَ
الَّذِينَ وَالْعَدَالَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صِحَّابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلَيَا وَسَعْوَرَتِهِ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضِ
وَابْنِ الْسِّيَاكِ وَالْعُمَريِّ وَمُكَاتِبَتِهِ سُفِيَّانَ الثُّوْرِيِّ وَبُكَائِهِ مِنْ مَوْعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ
بِهِيَكَةَ فِي طُوَافِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْفَاتِ الصلَواتِ وَشَهُودِ
الصَّبَعِ لِأَوَّلِ وَقِتِهِ حَكَى الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصْلِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةً
نَافِلَةً وَكَانَ يَغْزُو عَامًا وَيَجْمُعُ عَامًا وَلَقَدْ زَجَرَ أَبْنَابِي مَرْمَيْمَ ضَمِنَكِهِ فِي سَمَرِهِ حِينَ تَعَرَّضَ
لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ لِمَا سَمِعَهُ يَقْرَأُ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَفَلَّ وَاللَّهُ مَا
أَدْرِي لَمْ فَمَا تَمَالَكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَمِنَكَ ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيْهِ مُفْضِبًا وَقَالَ يَا أَبْنَابِي مَرْمَيْمَ فِي
الصَّلَاةِ أَيْضًا إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالَّذِينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنْ
الْعِلْمِ وَالسَّذَاجَةِ بِمَكَانِ اِقْرُبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ الْمُنْتَهَلِينَ لِذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ يَتَّهِ وَبَيْنَ
جَهَرَهُ أَبِي جَعْفَرَ بَعِيدُ زَمْنٍ إِنَّمَا خَلَفَهُ عُلَامًا وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرَ بِمَكَانِ مِنَ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ
قَبْلَ الْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ الْمُوسَطَّلِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتُنِي الْخِلَافَةُ فَضَعَ أَنْتَ لِلنَّاسِ
كَيْنَابَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجْعَبُ فِيهِ رُخْصَنَ أَبْنَ عَيَّاسٍ وَشَادَائِدَ أَبْنَ عُمَرَ وَوَطَئَهُ لِلنَّاسِ تَوْطِيَّةً
قَالَ مَالِكُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ أَبْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ
هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُنْسَةِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ يَتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ يَحْجِلُسِيهِ
يُكَاهِرُ الْخَلْبَاطِينَ فِي إِزْفَاعِ الْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَأَسْتَنَكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ
وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُنْسَةُ هُذِهِ الْعِيَالِ عَامَنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ
يَصُدْهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ يَا لَا تَنَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَكِيدُ يَا الرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ
الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيقَةِ وَأَبُو تِهِ وَمَا رُتِبَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هُذِهِ السِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالْتَّحَلُّقِ
بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُعَاهرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنْ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
أَجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنْ الْكَرَمُ شَجَرَتُهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ
مِنْهُمْ وَالْرَّشِيدُ وَأَبَاوْهُ كَانُوا عَلَى يَتِيمِهِ مِنْ أَجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالْتَّغَافِلِ
بِالْحَمَادِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ
فِي فِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَحْرِيْشُوْعَ الطَّبَيْبِ حِينَ أَخْفَرَ لَهُ الْسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَهَمَّاهُ عَنْهُ ثُمَّ
أَمْرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحِمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطَنَ الرَّشِيدُ وَأَرْتَابَ بِهِ وَدَسَ خَادِمَهُ حَتَّى
عَانِيَتْهُ بِتَنَاؤْلُهُ وَأَعْدَادَ أَبْنِ بَحْرِيْشُوْعَ لِلْأَعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطْعَ مِنَ الْسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ
إِحْدَاهَا بِالْخَمْرِ الْمُعَالَجِ بِالْتَّوَابِ وَالْبُقُولِ وَالْبُوَارِدِ وَالْحَلْوَى وَصَبَ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاَهِ مُثْلِجُّا
وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ الْسَّمَكَ
يَغْيِرُهُ أَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ وَقَالَ فِي الْأَنْتَلِ هَذَا طَعَامُ أَبْنِ بَحْرِيْشُوْعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ
حَتَّى إِذَا آتَيْتَهُ الرَّشِيدُ وَأَخْضَرَهُ لِلتَّوْبِيْخِ أَخْفَرَ ثَلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ
قَدْ أَخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّ وَوَجَدَ الْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَ وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ
مَعَذِرَةً وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي أَجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ
وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَّتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهَدَ بِحِبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ أَنْهِمَا كِهِ فِي الْمُعَاوِرَةِ
حَتَّى تَابَ وَأَقْلَمَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ زَيْدَ التَّمَرِ عَلَى مَذَهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَّاوِيهِمْ
فِيهَا مَعْرُوفَةً وَإِنَّمَا الْخَمْرُ الْصِرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدُ الْأَخْبَارُ الْوَاهِيَّةُ فِيهَا
فَلَمْ يَكُنْ الْزَّجْلُ مَحِيثُ يُوَاقِعُ مَخْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أولئكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ يَعْتَنِي مِنْ أَرْتِكَابِ السَّرَفِ وَالْتَّرْفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ
مُتَنَاهِلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ فَمَا
ظَلَّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحُلْقَرِ وَعَنِ الْحَلْلَةِ إِلَى الْحُرْمَةِ وَلَقَدْ اتَّقَى الْمُؤْمِنُونَ
الطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنْ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلُقَاءِ بَنِي أُمَّةٍ وَبَنِي الْعَبَاسِ
إِنَّمَا كَانُوا يَرْكُونَ بِالْحَلِيلِيَّةِ الْمُخْفِيَّةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَالْجُبُرِ وَالسُّرُوجِ
وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةً أَخْدَثَ أَرْكُوبَ بِحَلِيلِ الْدَّهَبِ هُوَ الْمُعَذِّبُ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَانِيَ الْخُلُقَاءِ
بَعْدَ أَرْشِيدِ وَهَذِهِ كَذَا كَانَ حَالَهُمْ أَبْضَا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَلَّكَ بِمَسَارِهِمْ وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ
بِأَنَّمَا مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْ طَبِيعَةَ الْمُؤْمِنَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَّافَةِ كَمَا نَشَرَ فِي
مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَآتَهُ الْمَادِيِّ إِلَى الْصَّوَابِ . وَيَنْسَبُ هَذَا
أَوْ قَرَبُ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْفَمَ قَاضِي الْمَامُونِ وَصَاحِبِهِ وَآنَهُ كَانَ
يُعَاكِرُ الْخُمُرَ وَآنَهُ سَكَرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِيكِهِ فَدُفِنَ فِي الْرِّبَّانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشَدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِيَنِي

أَنِي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِ فَصَبَرْتُنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ

وَحَالُ أَبْنِ أَكْفَمَ وَالْمَامُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ أَرْشِيدِ وَشَرِابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ أَنْتِي
وَلَمْ يَكُنْ عَظُورًا عِنْهُمْ وَأَمَا الْسَّكَرُ فَلَيْسَ مِنْ شَانِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَامُونِ إِنَّمَا كَانَ
خِلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثَبَّتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَتَقُولُ فِي فَضَائِلِ الْمَامُونِ وَحُسْنِ
عِشْرِينِ أَنَّهُ أَنْتَهُ ذَاتَ لَيْلَةِ عَطْشَانَ فَقَامَ بِتَحْسِنِهِ وَبِلَتَّمِسِ الْإِنَاءِ مَخَافَةً أَنْ يُوْفِظَ يَحْيَى
بْنَ أَكْفَمَ وَبَثَّ أَنْهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْمُعَافَرَةِ وَأَبْضَا فَإِنَّ
يَحْيَى بْنَ أَكْفَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَتَنِي عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلِ
وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التَّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعِ وَذَكَرَ الْمَرْنَيُّ الْمَحَافِظُ أَنَّ الْبَغَارِيَّ
رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي تَجْمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبَزُهُ الْمَجَانُ بِالْمَيْلِ
إِلَى الْفَلِمَانِ بِهَنَاكَا عَلَى اللَّهِ وَفِرْيَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَاصِ
الْوَاهِيَّةِ الَّتِي لَعَلَمُهَا مِنْ أَقْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِي كَالِهِ وَخَلِيلِهِ لِلْسُّلْطَانِ وَكَانَ
مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُنْزَهًا عَنِ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلِ مَا يَرْمِيهِ يَهُ
النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَتَنِي

عَلَيْهِ إِيمَانًا بِعِبْدِ الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَرْوَلَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ
بَعْدَ حَدِيبَيْ بَاغِ وَحَاسِدِ وَقَالَ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَكْفَمَ أَبْرَا أَمَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَوَّهٌ
مِمَّا كَانَ يُزَدَّى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْفَلَمَانَ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقْفُ عَلَى سَرَائِرِهِ ثَمَّا جَدَهُ شَدِيدَ الْخُوفِ
مِنْ أَنَّ اللَّهَ لِعْكَيْنَهُ كَانَتْ فِيهِ دُهَابَةً وَحُسْنُ خَلْقِ فَرَمَيَ بِمَا رَأَيَ بِهِ أَبْنَ حَبَانَ فِي الْثَقَاتِ
وَقَالَ لَا يُشْتَغلُ بِمَا يَنْجُوكَيْ عنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصْبَحُ هَنَّهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَمَاتِ
مَا نَقَلَهُ أَبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ مِنْ حَدِيبَتِ الْزِبَيلِ فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْمَامُونِ إِلَى
الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَشَّهِ بُورَانَ وَأَنَّهُ هَرَرَ فِي بَعْضِ الْأَيَّالِ فِي تَطْوِيفِ بِسْكَكَ بَغْدَادَ فِي
ذِبِيلِ مُدَلِّي مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقَ وَجَدَلَ مُغَارَةَ الْفَتْلِ مِنْ أَمْرِ يَرِفَّاقَ اعْتَدَهُ وَتَنَاؤلَ
الْمَعَالِقَ فَاهْتَرَتْ وَذَهَبَ بِهِ صُدُّدًا إِلَى مَجْلِسِ شَانَهُ كَذَا وَوَصَّفَ مِنْ زِيَّةِ فُرْشَهِ وَتَضِيدِ
إِبْيَاهِ وَجَالَ رُؤْيَايَهُ مَا يَسْتَوْفِثُ الْطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ وَأَنَّ أَمْرَأَهُ بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلْلِ
الْسُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةً الْجَمَالِ فَتَانَةً الْمُحَاسِنِ فَهَيْثَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادَمَةِ فَلَمْ
يَرِلْ يُعَاقِرُهَا أَنْجَمَرَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْنَاعِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ أَنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ
جَبَّا بَعْشَهُ عَلَى الْإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَنَّهُ مِنْ حَالِ الْمَامُونِ الْمُعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ
وَعِلْمِهِ وَأَقْتِفَائِهِ سُنَّ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخْذَهِ بِسَيِّرِ الْخَلْفَاءِ الْأَزْبَعَةِ أَذْكَانِ
الْمَيْلَةِ وَمَنَاظِرِهِ الْعُلَمَاءِ وَحِنْظَهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَواتِهِ وَأَخْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصْبِعُ
عَنْهُ أَحْوَالُ النَّاسِ الْمُسْتَهْرِينَ^(۱) فِي الْتَّطَوَافِ بِاللَّيْلِ وَطَرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغَشَّيَانِ الْسَّمَرِ
سَيِّلِ عُشَاقِ الْأَعْرَابِ وَأَبْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ أَبْنَهِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ
يَدَارُ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَفَافِ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَمَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ الْمُؤْرِخِينَ
مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثِ بِهَا أَلَانِهِمَّا كُفِّرُ فِي الْلَّذَّاتِ الْحُرْمَةِ وَهَنْكَ قِنَاعُ
الْمُخْدِرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالْتَّاسِيِّ بِالْقَوْمِ فِيهَا يَا تُونَةً مِنْ طَاعَةِ لَذَّاتِهِمْ فَلَذِلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا
يَلْعَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَنْقِرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصْحِيْهِمْ لِأَوْرَاقِ الدَّوَادِينِ وَلَوْ أَنْتُسَوا بِهِمْ
فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصَنَاتِ الْحِكْمَاتِ الْكَمَالِ الْأَلَانَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةُ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَذَلَتْ يَوْمًا بَعْضَ الْأَمْرَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعْلِمِ
الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَانِكَ وَلَا يَكِيْقُ بِمَنْصِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(۱) المستهرو، الشيء بالمعنى المولع به لا يالي بما فعل فهو وشم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامًا هُذِّهِ الصِّنَاةِ وَرَئِيسَ الْمُفْتَنِينَ فِي زَمَانِهِ
 فَقَالَتْ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَا تَأْسِيْتَ بِإِيمَانِهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ يَأْزِمُهُمْ
 عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَشَاءُ وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِبَةِ مَا
 يَذَهَّبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤْرِخِينَ وَالآثَابِ فِي الْعُيْدِيْنَ خُلُقَاءُ الشِّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ
 وَالْقَاهِرَةِ مِنْ تَقْيِيمِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعنُ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ
 الْأَئْمَامِ أَبْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لِفَقْتِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ
 خُلُقَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَرَلَفَا إِلَيْهِمْ بِالْقَدْحِ فِيمَنْ نَاصِبُهُمْ وَتَفَنَّنَا فِي الشَّهَادَاتِ يَعْتُوْهُمْ حَسْبَمَا
 تَذَكُّرُ بَعْضِ هُذِّهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَقْنُلُونَ عَنِ التَّقْطُنِ لِشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدَلَّةِ
 الْأَخْوَالِ الَّتِي افْتَضَتْ خَلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَأَرْدِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ مُنْفَقُونَ
 فِي حَدِيشِهِمْ عَنْ مَبْدِئِ دَوْلَةِ الشِّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْسِبَ لَمَّا دُعِيَ بِكُنَانَةِ لِلرِّضَى
 مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَأَشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعُلِمَ تَحْوِيْهُ عَلَى عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَأَبْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
 خَشِيَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحْلَ الْخِلَافَةِ وَاجْتَازَا بِمِصْرَ وَأَنْهَمَا خَرَجَا مِنَ
 الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زَيْنِ النُّجَارِ وَنَبَّيَ خَبَرُهُمَا إِلَى عِسَى الْنُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ
 وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَحَ فِي طَلَبِهِمَا أَخْبَالَهُ تَحْتَ إِذَا ادْرَكَاهُمْ حَالُهُمَا عَلَى تَابِعِهِمَا بِمَا
 لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالْأَرْيَيِّ فَأَفْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّ الْمُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغْالِبَةِ أَمْرَاءَ
 أَفْرِيقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِدْرَارِ أَمْرَاءَ سِجْلَمَاسَةَ يَأْخُذُ الْأَفَاقَ عَلَيْهِمَا وَإِذْ كَانَ الْعَيْنُونِ
 فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ الْيَسْعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِدْرَارِ عَلَى خَفْيِ مَكَانِهِمَا بِيَلْدِهِ وَأَعْتَقُلَهُمَا
 مَرْضَاهَ لِلْخَلِيفَةِ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظَهَّرَ الشِّيْعَةُ عَلَى الْأَغْالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا
 كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَا ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ
 وَالشَّامِ وَالْمِجَازِ وَقَاتَلُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَالِكِ الْإِسْلَامِ شَقَ الْأَبْلَمَةَ وَكَادُوا يَلْجُونَ
 عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيُزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتِهِمْ بِيَعْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرُ
 الْبَاسِيْرِيُّ مِنْ مَوَالِيِ الْدِيْلَمِ الْمُتَفَلِّسِينَ عَلَى خُلُقَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضَبَةِ بَرَّتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 أَمْرَاءِ الْعَجمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْصُونَ بِمَكَانِهِمْ
 وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُهُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاهِ الْجَزَرِ يَنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرَبِ مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقْعُ هَذَا كُلُّهُ
 لِدُعِيِّ فِي النَّسَبِ بَسْكُنْبِ في اِنْتِحَالِ الْأَمْرِ وَأَعْتَبَنَ حَالَ الْقَرْمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيَا فِي

أَنْتَسِيَاهُ كَيْفَ تَلَادَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَنْبَاعُهُ وَظَاهَرَ مَرِيعًا عَلَى خُشْبِرْمَ وَمَكْرِمَ فَسَاهَتْ
 عَاقِبَتِهِمْ وَذَاقُوا وَبَالْ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَبْرُ الْعَيْدَيْنَ تَذَلَّكَ لَعْرِفَ وَلَوْ بَعْدَهُ لَهْلَهَ
 وَمَهْمَا بَكَنْ عِنْدَ أَمْرِيَهُ مِنْ خَلِيقَةِ وَإِنْ خَالَوَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُلَمَّ
 فَقَدِ اتَّصَاتْ دَوْلَتِهِمْ نَحْوَهُ مِنْ مَائِذَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةَ وَمَكَوْكَوْا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَمُصَلَّهُ وَمَوْطَنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفَنَهُ وَمَوْقِفَ الْجَعْجَجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ
 ثُمَّ أَنْقَضَ أَمْرُهُمْ وَشَيْعَتِهِمْ فِي ذَلِكَ كُلُّهِ عَلَى أَنْتَمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبُّ
 فِيهِمْ وَأَعْنَفَادِهِمْ يَنْسَبُ الْإِمَامَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرٍ الصَّادِقَ وَلَقَدْ خَرَجُوا مِنْهُمْ بَعْدَ
 ذَهَابِ الدُّوَلَةِ وَدُرُوسِ أَثْرِهَا دَاعِينَ إِلَى يَدِعَتِهِمْ هَافِئِينَ يَا سَمَاءَ صَيْنَانَ مِنْ أَعْقَابِهِمْ
 يَزْعَمُونَ أَسْخَفَاقِهِمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِيَهِمْ يَا لَوْصِيَّهُمْ مِنْ سَافَتْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَيْمَةِ
 وَلَوْ أَرْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَّا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْأَنْتَصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ الْبَذْعَةِ لَا
 يُلْعِسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَيِّهِ فِي يَدِعَتِهِ وَلَا يُكَذِّبُ تَفْسِيَهُ فِيمَا يَتَشَحَّهُ وَالْعَجَبُ مِنْ الْقَادِيِّيِّ
 أَبِي بَكْرِ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخُ الظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ يَعْتَجِرُ إِلَى هَذِهِ الْقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ
 وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الْفَعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْهَادِ فِي الْدِينِ وَالْتَّعْمِقِ
 فِي الْأَرْفَاضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ يَدَافِعُ فِي صَدِرِ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسِبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفُرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَانِ أَبْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِكَ أَنْهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنَ مَا لَيْسَ لَكَ يَهُ عِلْمٌ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِفَاطِمَةَ يَعْظِمُهَا يَا فَاطِمَةُ أَعْمَلَكِي فَلَنْ أُغْيِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عَرَفَ أَمْرُ وَهُوَ قَضِيَّةٌ أَوْ
 أَسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَضْدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي الْأَسْبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا
 فِي مَجَالِ لِظُنُونِ الدُّولِ بِهِمْ وَتَحْتَ رَقْبَتِهِمْ مِنَ الطَّاغَةِ لِتَوْفِرِ شَيْعَتِهِمْ وَأَنْتَشَلَهُمْ فِي الْقَاصِيَّةِ
 وَدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرَّرَ خُروِجُهُمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَادَتْ رِجَالَهُمْ يَا لِلْأَغْنِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا
 يُعْرِفُونَ كَمَا فَلَلَ

فَلَوْ تَسْأَلَ الْأَيَامَ مَا أَسْبَيَ مَا دَرَتْ وَإِنْ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ بِمَكَانِي
 حَتَّى لَقَدْ سَمِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ جَدُّ عَبْيَدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ بِمَهْمَةِ ذَلِكَ
 شَيْعَتِهِمْ لِمَا أَتَفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ حَذَرَا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ طَيِّبِهِمْ فَتَوَحَّلَ شِيَعَةُ فَرِ
 الْعَبَاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الْطَّعنِ فِي نَسَبِهِمْ وَأَرْدَلُوهُمْ بِهَذَا الرَّأْيِ الْقَائِلِ لِلْمُسْتَهْفَعِينَ

من خلفائهم وأُخْبَرَ بِهِ أَوْلِيَاؤُمْ وَأَمْرَاءِ دُولَتِهِمُ الْمُتَوَلُونَ لِحُرُوهِمْ مَعَ الْأَعْذَاءِ بَدْقُونَ
بِهِ عَنْ أَنفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةَ الْجَزِّ عَنِ الْمُقاوَمةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبُهُمْ عَلَى الشَّامِ
وَمِصْرَ وَالْجَهَازِ مِنَ الْبَرَّ السَّكَّاتِمِينَ شِيعَةَ الْعَبَيْدِيَّينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ
الْقُضَاءُ يَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ وَشَهَدَ بِذَلِكَ عِنْهُمْ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخْوَهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِيِّ وَمِنَ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَمِيدِ الْإِسْفِراَئِيلِيِّ
وَالْقَدْوَريُّ وَالصَّيْمَرِيُّ وَابْنُ الْأَلْكَافَانِيِّ وَالْأَيُورَذِيِّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْنَّعْمَانَ فَقِيهُ
الشِّيعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَمِ الْأَمَةِ يَغْدَادُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةُ سِتِّينَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ
فِي أَيَّامِ الْقَادَرِ وَكَانَتْ شَهَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لِمَا أَشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ
يَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الظَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَنَقَلَهُ الْأَخْبَارُ يُونَ كَمَا سَمِعُوا
وَرَوَاهُ حَسَبَمَا وَعَزَّهُ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَانِ عَبَيْدِ اللَّهِ إِلَى أَبْنِ
الْأَغْلَبِ بِالْقِيرَوانِ وَابْنِ مَدْرَارِ بِسِجْلَمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدِهِ وَأَوْضَعُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ
فَالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدَ بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَهْدِ وَالْأَفْوَةِ وَالسُّلْطَانِ سُوقَ الْعَالَمِ بِجَلْبِ إِلَيْهِ
بِضَائِعِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَتَلَمَسَ فِيهِ ضَوَالُ الْحِكْمَ وَتَعْدَى إِلَيْهِ رَكَابُ أَرْزِ وَآيَاتِ
وَالْأَخْبَارِ وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافِفِ فَإِنْ تَرَهَتِ الْأُولَاءِ عَنِ التَّعْسُفِ وَالْمَيْلِ وَالْأَفَنِ
وَالْسُّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ الْتَّنَعُّجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْرِ^(١) عَنْ قَصْدِ السَّيْلِ تَنَقَّى فِي سُوقِهَا أَلِيْزِرِ
الْخَالِصِ وَالْجَعِينِ الْمُصْفَى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْمَحْوُدِ وَمَاجَتْ بِسَهَاسِرَةِ الْعَرَبِ
الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ تَنَقَّى الْبَهْرَجُ وَالْأَرَائِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسُ بِحَثِيدِ زَمِيزَانُ وَمُلْتَمِسِ
وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الظَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بْنِ ادْرِيسَ بْنِ
عَبَيْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحَسَنِ أَبْنِ عَلَيٰ بْنِ ابْي طَالِبٍ (رَضِوانُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الْإِمَامِ
بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَيَعْرِضُونَ تَعْرِيضاً لِلْحَدِيدِ بِالنَّظَنْنِ فِي الْجِنْلِ الْمُخْلَفِ عَنِ
أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ فِي جَهَنَّمِ اللَّهِ وَأَبْعَدُهُمْ مَا أَجْهَلُهُمْ أَمَّا يَعْلَمُونَ أَنَّ
أَدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ اِصْهَارَهُ فِي الْبَرِزَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ عَرَيْقُ فِي الْبَدْوِ وَأَنْ حَالَ الْبَادِيَّةَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَّةٍ إِذْ لَا مَكَانَ لَهُمْ
يَتَأَنَّى فِيهَا أَرْبَيْتُ وَأَحْوَالُ حُرْمَهِمْ أَجْمَعِينَ يَمْرَأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ وَمَسْمَعُهُ مِنْ جَيْرَانِهِنَّ
لِتَلَاصِقِ الْجَدْرَانِ وَتَطَامِنِ الْبُنْيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاضِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَنْوَلُ

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اي لم تمل اه

خلَّمةَ الْمُرْتَمِ أَجْعَمَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ يَمْشَهِدُ مِنْ أَوْلَائِيهِمْ وَشِعْتِهِمْ وَمُرْسَاقَةَ مِنْ كَالْمِتِهِمْ
 وَقَدْ أَتَنْفَقَ بِرَأْيَهُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى عَامَةَ عَلَى يَمْعَادِهِ أَدْرِيسَ الْأَصْفَرِ مِنْ بَعْدِ أَيِّهِ وَأَتَوْهُ
 طَاعَتِهِمْ عَنْ رِضَى وَإِصْفَاقَ وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَخْمَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارَ الْمَنَابِيَّا فِي
 سُرُوبِهِ وَغَزَّ وَاهِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفَسِهِمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّبَيَّةِ أَوْ قُرِعَتْ أَسْمَاعِهِمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوِّ
 كَاشِعِ أَوْ مَنَافِقِ سُرْتَابِ لِتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضِهِمْ كَلَّا وَاللَّهُ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ
 الْكَلَمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ أَفْتَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عَمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةِ وَلَا تِهِمْ
 وَذَلِكَ أَنَّهُ لِمَا فَرَأَ أَدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ قِفْعَةِ بَنْجَ أَوْعَزَ الْمَادِيَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ
 أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيُذْكُرُوا عَلَيْهِ الْعُيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصُوا إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَمَّ
 امْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِعِ مَوْلَاهُمْ وَعَالِمِهِمْ
 عَلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيْسَةِ التَّشِيعِ الْعُلُوِّيَّةِ وَإِدْهَانِهِ فِي نَجْعَةِ أَدْرِيسِ إِلَى الْمَغْرِبِ
 فَقَتَلَهُ وَدَسَ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَيْهُ لِلتَّحِيلِ عَلَى قَتْلِ أَدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْلَّهَاجَّ بِهِ
 وَالْبَرَاهَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ مَوَالِيهِ فَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ أَدْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَهَ الشَّمَاخَ فِي
 بَعْضِ خَلْوَاتِهِ مُهَا أَسْتَهْلِكَهُ بِهِ وَوَقَعَ خَبْرُهُ مَهْلِكَهُ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاعِعِ
 لِمَا وَرَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوِّيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْتِلَاعِ جُرُثُومَتِهَا وَلَمَّا نَادَى
 إِيَّاهُمْ خَبْرُ الْحِمْلِ الْتَّخَلُّفِ لِأَدْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلَّا وَلَا وَإِذَا بِالْدَعْوَةِ قَدْ
 عَادَتْ وَالشِّيَعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ وَدَوْلَتْهُمْ بِأَدْرِيسِ بْنِ أَدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ وَكَانَ الفَشَلُ وَالْمَرْمُ قَدْ نَزَلَ بِدُولَةِ الْعَرَبِ عَنْ
 أَنْ يَسْمُوْنَا إِلَى الْقَاهِيَّةِ فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى أَدْرِيسِ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ
 فَاسِيَّةِ الْمَغْرِبِ وَأَشْتَمَالِ الْبَرَّ عَلَيْهِ إِلَّا لِتَحِيلَ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَزَعُوا
 إِلَى أَوْلَائِهِمْ مِنْ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفَرْجَةِ مِنْ نَاجِيَتِهِمْ وَحَسْنِ الدَّاءِ
 الْمُتَوَقَّعِ بِالْمَوْلَةِ مِنْ قِبْلِهِمْ وَأَفْتِلَاعِ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشَعَّ مِنْهُمْ يَخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خَلْقَاهُمْ فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَرَّتْ بِرَأْيَهُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى أَعْجَزَ
 وَلَمْتُهُمْ مِنْ أَلْزَبُونِ عَلَى مُلُوكِهِمْ أَخْوَجَ لِمَا طَرَقَ الْخِلَافَةَ مِنْ أَنْزَاءِ مَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى
 سُلْطَانِهَا وَأَمْتَطَانِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَتَصْرِيفِهِمْ أَخْكَامَهَا طَوْعَ أَغْرِاصِهِمْ فِي رِجَالِهَا
 وَجَبَائِهِا وَأَهْلِ خِطَطِهِا وَسَائِرِ نَفْسِهِا وَإِنْزَاءِهِا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ

خليفة في نفس بين وصيف وبنها
يقول ما قالا له كما تقول أليها

خشى هؤلاء الأمراء الأغالبة بتوادر السعابات وتلوا بالمعاذير فطورا باختصار المغرب وأهله وطورا بالازهار يشأن أدریس الخارج به ومن قام مقامة من أعقابه يخاطبونهم بتجاوذه حدود التغوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم وهذا أيامه ومزقهم جبابا لهم تعرضا يا سفحالي ونهوايلا يا شداد شوكته وتنظيمها لما دفعوا إليه من مطالبه ويرأسه وتهديدا بقلب الدعوة إن الجئوا إليه وطورا يطعنون في نسب أدریس يمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وافن عقول من خلف من صبية بنى العباس وعمالكم العجم في القبول من كل فائل والسم الكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الأغالبة فقرعت هذه الكلمة الشعاء أسماع الغوغاء وصر عليهم بعض الطاعنين أذنه وأعتقدها ذرعة إلى النيل من خلقهم عند المنافسة وما لهم بقبحهم الله والمدول عن مقاصيد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمعظون وأدریس ولد على فراش أبيه وأولاد الفراش على أن تزبه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان فآللها سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش وأدریس ظاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بمحكم القرآن ومن أعتقد خلاف هذا فقد باه باه ووهج الكفر من باه وإنما أطبقت في هذا الرد سدا لأبواب الرؤيب ودفعا في صدر الحاسدين لما سمته أذنائي من فائده المعتدي عليهم القادر في نسيهم بغيرتهم وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب من انحرف عن أهل البيت وأذناب في الإيمان بسلفهم وإلا فالتحل منه عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكنني جادلت عنهم في المكافأة الدنيا وأرجو أن يجعلوا عنى يوم القيمة ولتعلم أن أكثر الطاعنين في نسيهم إنما هم الحسنة لاعقاب أدریس هذا من منتهم إلى أهل البيت أو دخيل فيهم فإن أدریس هذى النسب الكرييم دعوى شرف عربية على الأم والأجيال من أهل الأفاق فتعرض الشهمة فيه ولما كان نسببني أدریس هؤلاء بمواطنهم من فارس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة وألوضوح مبالغ لا يكاد يتحقق ولا يلمع أحد في

دَرْكِهِ إِذْ هُوَ نَقْلُ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ الْخَلْفِ وَيَتْجَدِّدُ
 أَدْرِيسَ مُخْتَطِطًا فَاسِ وَمُؤْسِسِهَا مِنْ يُوتِهمْ وَمَسْجِدُهُ لِصُقُّ مَحَلَّهُمْ وَدَرْوِبِهِمْ وَسَبِيلِهِ
 مُشَضِّي بِرَأسِ الْمَادِنَةِ الْعَظِيمِ مِنْ قَوَادِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَلَوْزَتْ أَخْبَارُهَا
 حُدُودَ التَّوَاثِيرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحُقُ بِالْعَيَانِ فَإِذَا نَفَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا أَنَّ النَّسَبَ إِلَى
 مَا أَنَّا مُمْلِكُهُمْ مِمَّا عَصَدَ شَرَفُهُمْ الْنَّبِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ لِسَافِهِمْ
 بِالْمَغْرِبِ وَأَسْتَبَقَنَّ أَنَّهُ يَعْزِلُ عَنِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَلْبُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ
 أَمْرِ الْمُشَمِّينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُهُ مُهْدِيُ الشَّوَاهِدِ أَنْ يَسْلِمَ
 لَهُمْ حَالَهُمْ لَاَنَّ النَّاسَ مُصْدِرُهُمْ وَبَوْنُ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظُّنُونِ وَالْيَقِينِ وَالْتَّسْلِيمِ
 فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ تَقْسِيهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّوْهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
 سُوقَةٌ وَضَعَاءٌ ^(١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَأَرْتِكَابِ الْجَحَاجِ
 وَالْبَهْتِ بِعِشْلِهَا هَذَا الْطَّعْنُ الْفَائِلُ وَالْقَوْلُ الْمَكْذُوبُ تَعْلَلًا بِالْمُسَاوَةِ فِي الظُّنُونِ وَالْمُشَابَهَةِ
 فِي تَطْرُقِ الْأَخْتِمَالِ وَهَيَّاهَا لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ غَيْرَهَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِهَا الْبَيْتِ
 الْكَرِيمِ مَنْ يَلْبُغُ فِي صَرَاحَةِ نَسِيَّهُ وَوُضُومِهِ مِبَالَغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ أَلْ
 الْحَسَنِ وَكَبِيرِ الْوَعْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ بْنُ عَمْرَانَ بْنَ قَاسِمَ مِنْ وُلْدِ يَحْيَى الْمَوْطَبِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى
 الْعَوَامِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ تَبَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ هُنَاكَ وَالْأَسَاكُونَ بِيَتِ
 جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمُ الْسِيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَافَةً حَسِيبًا فَذَكُورُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
 الْأَدَارَسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَلْعُقُ بِهِذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَنَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا
 يَسْأَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدْحِ فِي الْإِمَامِ الْمُهَدِّيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ
 الْمُوْسِدِينَ وَأَسْبَتِهِ إِلَى الشَّعُوذَةِ وَالْتَّلَبِيسِ فِيمَا أَنَّاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالْتَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَالنَّعْيِ
 عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ وَنَكْذِبِهِمْ كُلُّمُعْ مُدْعَيَّاهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيهَا يَزْعُمُ الْمُوْحِدُونَ
 اتِّبَاعَهُ مِنْ أَنْتَسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنْمَا حَمَلَ الْفُقَهَاءِ عَلَى نَكْذِبِهِ مَا كَمَنَ فِي نَقْوِسِهِمْ
 مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَانِهِ فَإِنْهُمْ لَهَا رَاوِا مِنْ أَنفُسِهِمْ مُنَاهَضَةً فِي الْعِلْمِ وَالْفُقَيْرِ وَفِي الْقَوْنِ
 يَغْرِيُهُمْ كُمْ أَمْتَازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مُشَبُّعُ الرَّأْيِ مُسْمَوْعُ الْقَوْلِ مَوْطُوْ الْعِقَبِ نَقْسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ
 وَغَضَوا مِنْهُ بِالْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَالْكَذِبِ لِمُدْعَيَّاهِ وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤْنِسُونَ مِنْ

(١) قوله وروضا بضم الواو جمع وضيع اه

ملوك المتنونة أعدائهم بخلة وكمامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة
 وأفعال البريانة فكان حملة العلم يدؤلتهم مكان من الوجاهة والانتصار للشوري
 كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبعوا بذلك شيعة لهم وحراباً بعدوهم ونفعوا على
 المهدي ما جاء به من خلافهم والتربي عليهم والمناصبة لهم تشيع المتنونة وتعصي
 لرؤتهم ومكان الرجل غير مسكنهم وحالة على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نعم
 على أهل الدولة ما نعم على أخواهم وخالف أجتهاده فقاوم فنادي في قومه ودعى إلى
 جهادهم بنفسه فافتتح الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم مما كانت قوة وأشد
 شوكة وأعز أنصاراً وحامية وتساقطت في ذلك من اتباعه نفوس لا يخصيها إلا خالقها
 قد بايعوه على الموت ورقوا بأنفسهم من الملائكة ولقرروا إلى الله تعالى باتفاق
 معجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك المكالمة حتى علت على الكلم ودارت
 بالعدوتين من الدول وهو بحاله من التفشو والحصر والصبر على المكاره والتقليل من
 الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى ولد الذي
 ربما تبغض إليه النفوس وتخادع عن تمنيه فلئت شعرى ما الذي فسد بذلك إن لم
 يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير
 صالح لما تم أمره وأنقضت دعوته سنة الله التي قد خلت في عباده وأماماً إنسكارهم
 نسبة في أهل البيت فلا تعصمه حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه أدعاه وأنسب إليه فلا
 دليل يقون على بطلانه لأن الناس مصدرون في أناسهم وإن قالوا إن الرئاسة لا
 تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتى في الفصل الأول
 من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصادمة ودانوا باتباعه والانتقاد إليه وإلى
 عصابته من هرقة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر
 المهدي يشوقه عليه ولا أتبعه الناس بسيبه وإنما كان اتباعهم له بعصبيه المزغية
 والمعصمية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي تحقيقاً قد
 درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الأول كانه
 أسلخ منه وليس جلدته هولاً وظهر فيها فلا يضره الانساب الأول في عصبيته إذ هو
 مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيراً إذا كان النسب الأول خفيأ وانظر

فِيَّةَ عَرْجَةَ وَجَرِيرَةَ فِي رِئَاسَةِ مجَاهِلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَرْجَةُ مِنَ الْأَزْدِ وَلَمْسَ جِلْدَةَ مجَاهِلَةٍ
 حَتَّىٰ تَكَارَعَ مَعَ جَرِيرَةَ وَرِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمُورِ رَخِيْهِ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذَكُورٌ لِتَفَهُّمِهِ
 وَجَهَ الْحَقِيقَةَ الْمَادِيَ لِلصَّوَابِ وَقَدْ كَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ
 فِي هَذِهِ الْمُغَالِطَةِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ وَالْمُؤْرِخِينَ الْمُفَاظِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
 الْأَحَادِيثِ وَالآرَاءِ وَعَلِقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَنَقَلُهُمْ عَنْهُمُ الْكَافَةُ مِنْ ضَعَفَةِ النَّظرِ وَالْغَفَلَةِ
 عَنِ الْقِبَاسِ وَتَلَقَّوْهُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوْيَةٍ وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ
 حَتَّىٰ صَارَ فِي الْأَنْتَارِيجِ وَاهِمًا مُخْتَلِطًا وَنَاضِرًا مُرْتَبَكًا وَمَدْعُ مِنْ مَنَاجِي الْعَامَةِ فَإِذَا يَعْتَاجُ
 صَاحِبُ هَذَا الْفَنِ إِلَى الْعِلْمِ يَقْوَاعِدُ الْسِّيَاسَةَ وَطَبَائِعَ الْمُوْجُودَاتِ وَالْخِلَافِ الْأَمْمِ
 وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي الْسِّيَرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَانِيدِ وَالْتَّحِيلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَخْوَالِ
 وَالْإِحْاطَةِ بِالْخَاصِّ مِنْ ذَلِكَ وَمُعَالَةِ مَا يَسْتَدِي وَبَيْنَ الْفَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَذْبَونَ مَا يَبْنِهِمَا
 مِنْ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمُتَفَقِّي مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَامِ عَلَىِ اصْرُولِ الدُّولِ وَالْمِيلَ وَمَبَادِيِّ
 ظُهُورِهَا وَاسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوْاعِي كَوْنِهَا وَأَخْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَخَبَارِهِمْ حَتَّىٰ يَكُونَ
 مُسْتَوْعِيًّا لِاسْبَابِ كُلِّ خَبَرِهِ وَجِينِيَّهُ يَعْرِضُ خَبَرَ الْمَنْقُولِ عَلَىِ مَا عِنْدَهُ مِنْ الْقَوَاعِدِ
 وَالْأُصُولِ فَإِنْ وَاقَهَا وَجَرَىٰ عَلَىِ مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَازِيفَةٌ وَأَسْتَفْنَى عَنْهُ وَمَا
 أَسْتَكَبَ الْقُدْمَاءُ عَلِمَ الْأَنْتَارِيجُ إِلَيْهِ الْأَنْتَكَرَ حَتَّىٰ التَّحْلِلُ الْطَّبَرِيُّ وَالْبَغَارِيُّ وَابْنُ إِنْجَاقِ
 مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْدَهُمُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْمِ وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السِّرِّ فِيهِ حَتَّىٰ صَارَ
 اِنْتَهَىٰ مَجَاهِلَةَ وَأَسْنَفَتْ الْعَوَامُ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَسَهْلَتْ وَأَنْتَوْضَنَ
 فِيهِ وَالْغَطَّلَ عَلَيْهِ فَأَخْتَلَطَ الْمَرْءُ بِيَ بِالْمَسْكِ وَالْبَلَابِ بِالْقِشْرِ وَالْصَّادِقِ بِالْكَاذِبِ وَإِلَى
 اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأَمْوَارِ وَمِنْ الْفَلَاطِ الْمُخْيَرِ فِي الْأَنْتَارِيجِ الْذُهُولُ عَنْ تَبَدِيلِ الْأَخْوَالِ فِي الْأَمْمِ
 وَالْأَجْيَالِ يَتَبَدِيلِ الْأَعْصَارِ وَمُرُورِ الْأَيَامِ وَهُوَ دَوَيٌ شَدِيدٌ أَخْفَاءٌ إِذْ لَا يَقْعُدُ إِلَّا
 بَعْدَ أَخْفَاءٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكُونُ لَهُ إِلَّا الْأَحَادِيدُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ
 أَخْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأَمْمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَىِ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جِيَّ مُسْتَقِرٌ
 إِنَّمَا هُوَ أَخْيَالٌ عَلَىِ الْأَيَامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَأَنْتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمَمَّا يَكُونُ ذَلِكَ
 فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقْعُدُ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَفْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَوْلَ
 سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أَمْ الْقُرْمَ الْأَوَّلِ وَالسِّرِّ يَانِيُونَ

وَالنَّبْطُ وَالنَّبَابَةُ وَبَعْدُ إِمْرَائِيلَ وَالقِبْطُ وَكَانُوا عَلَى أَخْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُولَتِهِمْ وَهُمَا الْكِبِيرُ وَهُمَا الْكِبِيرُ وَصَنَاعَتِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَأَصْنَاطِ الْأَحَانِيمْ وَسَائِرُ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جُنْسِهِمْ وَأَخْوَالٍ أَعْتَارِمْ لِلْعَالَمِ تَشَهِّدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ وَتَ بَعْدِهِمْ الْفَرْسُ الْثَّانِيُّ وَالْرُّومُ وَالْعَرَبُ قَبَدَلَتْ تِلْكَ الْأَخْوَالُ وَأَنْقَلَبَتْ بِهَا عَوَادِدُ إِلَى مَا يَحْاصلُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يَبْاينُهَا أَوْ يُبَايدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرِّ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَخْوَالُ أَجْمَعُ أَنْقَلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا كَثُرَهُ مُتَعَارِفٌ لِهُذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ وَأَخْلَفَ عَنِ الْسَّلْفِ ثُمَّ دُرِّسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتِ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَيَّدُوا عِزِّهِمْ وَمَهْدِهِمْ مُلْكَهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَبْدِي سِوَامِهِ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرْسِيَّةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتِ يَنْهَا بِهِمْ أُمُّ وَأَنْقَلَبَتْ أَخْوَالُ وَعَوَادِدُ نَسِيَ شَانِهَا قَأْغَلَ أَمْرُهَا وَالسُّبُّبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَخْوَالِ وَالْعَوَادِدِ أَنَّ عَوَادِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَادِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْمُحَكَّمَةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلِ الْمَلِكِ وَالْسُّلْطَانِ إِذَا أَسْتَوْلَوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدُّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَادِدِ مَنْ قَيَّلُوهُمْ وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَادِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقُولُ فِي عَوَادِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَادِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَرَجَتْ مِنْ عَوَادِدِهِمْ وَعَوَادِدِهِمَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأَوَّلِ أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ الْتَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَتَعَهَّدَ إِلَى الْمُبَايَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ الْأَمْرُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمَلِكِ وَالْسُّلْطَانِ لَا تَرْزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَادِدِ وَالْأَخْوَالِ وَاقِعَةٌ وَالْقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاهُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ الْفَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٌ تَخْرُجُهُ مَعَ الْذَهُولِ وَالْفَقْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوَجُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَتَسْقَطُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَخْوَالِ وَأَنْقَلَابِهَا فَيَغْيِرُهَا لِأَوَّلِ وَهَلَّةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقُولُ فِي مَهْوَاهُ مِنَ الْفَلَطِ فَيَنْ هَذَا الْبَابُ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤْزِرُونَ مِنْ أَخْوَالِ الْحَجَاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعْلَمِينَ مَعَ أَنَّ الْتَّعْلِمَ لِهُذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَاعَاتِ الْمُعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ أَعْتَازَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمُعْلَمَ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِينٌ مُنْقَطِعٌ الْجَذْمُ⁽¹⁾ فَيَتَسَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ الْجَرْفِ وَالصَّنَاعَاتِ

الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتُبِ الَّتِي لَبَسُوا هَذَا يَاهْلِ وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَقَدْ هَبَطُ
 بِهِمْ وَسَاوَهُ الْمَطَامِعُ وَرَبِّمَا أَنْقَطَعَ جَهْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَأِ الْمَلَكَةِ
 وَالْتَّلَفَ وَلَا يَعْلَمُونَ أَسْنَحَالَتِهَا فِي حَقْهِمْ وَإِنَّهُمْ أَهْلُ حِرْفٍ وَصَنَاعَةِ الْمَعَاشِ وَإِنَّ الْتَّعْلِيمَ
 صَدَقَ الْإِسْلَامَ وَالْدُّولَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ
 تَقْلِيَّاً لِمَا سُمعَ مَعَ الشَّارِعِ وَتَعْلِيَّاً لِمَا جُهِلَ مِنَ الدِّرِينِ عَلَى حِبَّةِ الْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ
 الْأَنْسَابِ وَالْعَصِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمُلْكِ هُمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسَنَةَ نِيَّةِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيجِ الْخُبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ الْتَّعْلِيمِ الْصَنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمْ
 الْمُنْزَلُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هُدًى يَا يَاهْلَهُمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ فَاقْتَلُوا عَلَيْهِ وَقْتَلُوا وَآخْتَصُوا
 بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأَمَمِ وَشَرَفُوا فَيَحْرُجُونَ عَلَى تَبْلِيجِ ذَلِكَ وَتَقْبِيَّهِ لِلْأَمَمِ لَا تَصْدُهُمْ عَنْهُ لَا يَمْلأُهُ
 الْكَبَرُ وَلَا يَزَّعُهُمْ عَادِلُ الْأَنْفَةِ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ بَعْثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَبَارَ
 أَصْحَابِهِ مَعَ وُفُودِ الْعَرَبِ يَعْلَمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّرِينِ
 بَعْثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشَرَةِ فَرَأَتْ بَعْدَهُمْ فَمَا أَسْتَقَرَ الْإِسْلَامُ وَوَسَجَّتْ عُرُوقُ
 الْمُلْكَةِ حَتَّى تَنَوَّلَهَا الْأَمَمُ الْبَعِيْدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَآسْنَحَاتِ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَخْوَالُهَا
 وَكَثُرَ اسْتِبْطَاطُ الْأَخْيَامِ الْشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعْدُدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاقُهَا فَأَخْتَاجَ
 ذَلِكَ لِقَائُونَ يَمْحَفَظُهُ مِنَ الْخُطَابِ وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَخْتَاجُ إِلَى التَّعْلِيمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ
 الصَّنَاعَةِ وَالْحِرْفِ كَمَا يَأْتِي ذَكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالْتَّعْلِيمِ وَآشْتَغلَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِالْقِيَامِ
 بِالْمُلْكِ وَالْسُّلْطَانِ فَدُفِعَ لِعِلْمٍ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَآصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَحَّتْ
 أَنُوفُ الْمُتَرَفِّينَ وَآهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصْدِي لِلتَّسْلِيمِ وَآخْتَصَّ أَنْجَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ
 وَصَارَ مُنْتَهِيَّةً مُحْتَقِراً عِنْدَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمُلْكِ وَالْسُّلْطَانِ بْنُ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ
 ثَقِيفِ وَآشْرَافِهِمْ وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَمَنْاهَضَةِ قُرَيْشٍ فِي الْشَّرَفِ مَا عَلِمْتَ وَلَمْ
 يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةُ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا
 كَانَ عَلَى مَا وَصَفَنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْهُ هَذَا الْبَابُ أَيْضًا مَكَيْتَوْهُمْ
 الْمُسْتَصْحُونُ لِكِتْبِ الْتَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَخْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْرِّئَاسَةِ فِي
 الْحُرُوبِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ فَتَرَاهُمْ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْهَمَمِ إِلَى مِثْلِ تَلَكَ الرُّتُبِ يَحْسِبُونَ أَنَّ
 الشَّانِ خِطَّةً الْقَضَاءِ إِهْدَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَيَظْنُونَ بِأَبْنِي أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هشام المستبد عليه وابن عباد میت ملوك الطوائف يا شليلة اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطرون لما وقع في رتبة القضاء میت مخالفة العوائد كما نبینه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن أبي عامر وابن عباد كانوا من قبائل العرب القائمه بالدولة الاموية بالأندلس وأهل عصيتيها وكان مسكنهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطبة القضاء كما هي لهذا العهد بكل إنما كان القضاة في الأمر القديم لأهل العصبية من قبل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدها بالمغرب وانظر خروجهم بالمساكر في الطوائف وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد إلا لم يلة الفتى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويتحمل الآحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفه البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعيار بعيدة يفتقر العرب ودولتهم بها وخر وجوهم عن ملائكة أهل العصبيات⁽¹⁾ من البربر فيقيت أنسابهم العربية محفوظة والأذرعية إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعایا المتخاذلين الذين تبعدهم القبور ورئعوا للعدالة يحسبون ان أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والثبات فتجدهم أهل الحرف والصنائع منهم متصدرين لذلك مائين في نيله فاما من باشر آحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغريبة وكيف يكون الغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويختلطون في اعتباره ومن هذا الكتاب أيضا ما يسلكه المؤذنون عند ذكر الدول وتسقي ملوكها فبذكرون أسماء ونسبه وأباه وآمه ونساءه وأقبه وخاتمه وقاضيه وحاجيه وزيره كل ذلك تقليد للمؤذن خي المؤذنين من غير تقطعن لمقاصدهم وألمؤذنون لذلك العهد كانوا يضعون

(١) المقصية بفتحتين التنصب وهو ان يلب الرجل عن حريم صاحبه ويشرعن ساق المجد في نصره منسوبة الى العصبة بحركة دم اقارب الرجل من قبل ايدي لانهم هم المابون عن حريم من هو مقتولهم وهي بهذا المعنى مدوحة واما العصبية المذكورة في الحديث المتابع الصغير ليس منها من دعا الى عصبية وليس منها من قاتل على عصبية فهي تنصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يفعى من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبية يعني قوم الرجل الذين ينتمون له ولو من غير اقارب به ظالمآ كانوا او مظلومآ وفي النهاية المخربة من موانع قول التهاداة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لاته من بني قлан او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب الحرم ففي الحديث ليس منها من دعى الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه . قاله الاستاذ ابو الوفا انه

نَوَادِيْهُمْ لِأَهْلِ الدَّلَّةِ وَأَبْنَاوْهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَخْوَاهُمْ لِيَقْتَغِيْوا
 أَثَارَهُمْ وَيَنْسِجُوا عَلَى مِنْوَاهِمْ حَتَّى فِي أَصْطِنَاعِ الْزِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ
 الْمُخْطَطِ وَالْمُرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَاعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَالْقُضَاءِ أَبْنَاءَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ ظَهِيرَةِ الدَّلَّةِ
 وَفِي عِدَادِ الْوَزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ فَيَعْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلُّهُ وَآمَّا حِينَ تَابَتِ
 الدُّولَ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ وَوَقَفَ الْغَرْضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْقَاصِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبَ
 الدُّولَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي فُوَّهَتِهَا وَغَلَّتِهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِيْضُهَا مِنَ الْأَمْمِ أَوْ يُقْصِرُ عَنْهَا فَمَا
 النَّائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْقَبْرِ وَالْقَانُونِ
 وَالْوَزَرَيْرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ تَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أُصْوَلُهُمْ وَلَا أَنْسَلُهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ
 إِنَّمَا حَلَّمُهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدِ وَالْفَنَّالَةِ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤْلِفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَالْفَنُولُ عَنْ تَحْرِيْيِ
 الْأَغْرَاضِ مِنَ الْتَّارِيْخِ الْلَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ الْوَزَرَاءِ الَّذِينَ عَظَمُتْ أَثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنِ الْمُلُوكِ
 أَخْبَارُهُمْ سَكَانِ الْجَاهَ وَبَنِي الْمَهْلَبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلٍ بْنِ نُوْمَنْ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ
 قَابِنِ أَبِي حَمِيرِ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ ذِكْرِ الْأَلْمَاعِ يَا بَانِيهِمْ وَالْإِشَادَةُ إِلَى أَخْوَاهُمْ لِاِنْتِظَامِهِمْ
 فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلَنْذُكُرْ هَذَا فَائِدَةَ تَقْتِيمِ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ إِلَيْهَا وَفِي أَنَّ الْتَّارِيْخَ
 إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ فَمَا ذِكْرُ الْأَخْوَالِ الْحَكْمَةِ لِلْأَفَاقِ
 وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَادِ فَهُوَ أُسْنَانُ الْمُؤْرِخِ شَهِيْدُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَبَيَّنَ بِهِ أَخْبَارُهُ
 وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفْرِدُونَهُ بِالْتَّالِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوجِ الْأَزْبَابِ شَرَحَ
 فِيهِ أَخْوَالَ الْأَمْمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الْثَّلَاثَيْنَ وَالثَّلَاثِيْمَائَةِ عَزِيزًا وَشَرِقاً وَذَكَرَ
 مَعْلَمَهُمْ وَعَوَانِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبَلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَسَالِكَ وَالْمُوْلَ وَفَرَقَ شُعُوبَ
 الْعَرَبِ وَالْعِجمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤْرِخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُهُوَ لُونَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ
 مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَسَالِكَ
 خَاصَّةً دُونَ خَيْرِهَا مِنَ الْأَخْوَالِ لِأَنَّ الْأَمْمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِمْ لَمْ يَقْعُ فِيهَا كَثِيرٌ أَنْتِقالٌ
 وَلَا عَظِيمٌ تَقْيِيرٌ وَمَا هَذَا الْعَهْدُ وَهُوَ آخِرُ الْعِيَّاَةِ الثَّامِنَيْهِ فَقَدْ اَنْقَلَبَتْ أَخْوَالُ الْمَغْرِبِ
 الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَبَدَأَتِ الْجَمْلَةِ وَأَعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبَرْزَرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا
 طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَأَنْزَعُوهُمْ مِنْهُمْ
 عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَ كُوْمُ فِيهَا يَقِيَّ مِنَ الْبَلْدَانِ لِمَلَكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمُونَ

شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمة
 وذهب بأهل الجليل وطوى كثيراً من محسن عمران ومحاجها وجاء للدول على حين
 هرمتها وبأوغ الفانية من مدتها فقلص من ظلالها وفل من حدتها وأذهن من سلطانها
 وتداعى إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر
 بغربت الأمصار والمصالح ودرست السبل والمعالم وخلت الدبار والمنازل وضفت
 الدول والقبائل وتبدل الساكن وكان بالشرق قد نزل به مثل ما نزل بالغرب
 لكن على نسبة ومقدار عمرانه وكانت نادى لسان الكون في الهم بالغمول
 والانتقام فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليهما وإذا تبدلت الأحوال
 جملة فكان مما تبدل أخلاق من أصله وتحول العالم بأسره وكان خلق جديد يسوقه
 مستانفة وعالم مختلف فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأحوالها
 والعوائد والتحول التي تبدلت لأهلها ويفوض مسلك المسعودي لمصر ليكون أملاً يقتدي
 به من يأتي من الله وزخين من بعده وأنذاكه في كتابي هذا مما أمكنني منه في هذا
 القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجًا في أخباره وتلويمها لاختصاصه فصريح في
 التأليف الغرب وأحوال أجياله وأمهاته وذكر مما فيه ودوله دون ما سواه من
 الآثار لعدم اطلاعه على أحوال الشرق وأمهاته وإن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه
 مما أريده منه والمسعودي إنما استوفى ذلك بعد رحلته ونقله في البلاد كما ذكر
 في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استثناء أحواله وفوق كل ذي علم
 عليه ومرد العلم كله إلى الله والبشر عاجز فاصله والأعتراف متعمق واجب ومن كان
 الله في عونه تيسر عليه المذهب وأنجحت له المساعي والمطالب وتحعن آخذون
 بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه الشكلان
 وقد يقى علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع المعرف الذي لبس من لفات العرب
 إذا عرضت في كتابنا هذا

إنما أن المعرف في النطق كما يأتي شرحة بعد هي كثيارات الأصوات الخارجة
 من الحنجرة تعراض من تقطيع الصوت يقزع اللهبة وأطراف اللسان مع الحنك والحنق
 والأضراس أو يقزع الشفتين أيضاً فتفاير كثيارات الأصوات يتغير ذلك القزوع

وشُجَعَى الْمَحْرُوفُ مُتَمَكِّيَّةً فِي الْسَّمْعِ وَتَرَكَبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الْدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الْفَهْمَاءِ
 وَلَبِسَتِ الْأَمْوَالُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَّةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْمَحْرُوفِ فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْمَحْرُوفِ مَا
 لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى وَالْمَحْرُوفُ الَّذِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَّةً وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفَتْ
 وَنَجَدُ لِلْعَبْرَانِيَّينَ حُرُوفًا لَمْ يَبْلُغْتِ فِي لُغَتِنَا وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَمْ يَبْلُغْتِ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ
 الْإِغْرِيقُ وَالْتَّزْكُ وَالْبَزَّارُ وَغَيْرُهُؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ
 أَصْنَطَلُهُوا فِي الْدِلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمُ الْمُسْمَوَّعَةِ بِأَوْضَاعٍ حُرُوفٌ مَكْتُوبَةٌ مُتَمَيِّزةٌ بِأَشْخَاصِهَا
 كَوْضُعُ الْفِ وَبَاهَ وَجِيمٍ وَرَاهَ وَطَاهَ إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَّةِ وَالْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ
 الْحُرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ يَقِيْ مُهْمَلاً عَنِ الْدِلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُخْلِلاً عَنِ الْبَيَانِ
 وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكِتَابِ بِشَكْلِ الْحُرْفِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ
 وَلَيْسَ يَكْافِ فِي الْدِلَالَةِ بَلْ هُوَ تَفْيِيرُ الْحُرْفِ مِنْ أَصْلِهِ وَلَمَّا كَانَ كِتَابًا مُشَتمِلاً عَلَى
 أَخْبَارِ الْبَزَّارِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَمْهَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ
 لَمْ يَبْلُغْتِ مِنْ لُغَةِ كِتَابَنَا وَلَا أَصْنَاطِلَاحٍ أَوْ أَضَاعِنَا أَضْطَرْرُنَا إِلَى يَيْانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ
 الْحُرْفِ الَّذِي بِلِيهِ كَمَا قُلْنَاهُ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافِ بِالْدِلَالَةِ عَلَيْهِ فَأَصْنَطَلَهُ فِي كِتَابِيِّهَا
 عَلَى أَنَّ أَضْعَعَ ذَلِكَ الْحُرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدْلُلُ عَلَى الْحُرْفَيْنِ الَّذِيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ لِيَتَوَسَّطَا
 الْقَارِيِّ بِيَأْنَطْقِيْهِ بَيْنَ مَخْرَجِيْ ذَيْنِكَ الْحُرْفَيْنِ فَتَحْصُلُ تَادِيَّتُهُ وَإِنَّمَا أَقْبَسَتْ ذَلِكَ مِنْ
 رَسْمِ أَهْلِ الْمُصْنِفِ حُرُوفَ الْأَشْمَامِ كَالصِّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلَفٍ فَإِنَّ الْنُطْقَ بِصَادٍ وَ
 فِيهِ مُعْجِمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالْأَزَّايِ فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهِ شَكْلَ الْأَزَّايِ
 وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحُرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا دَلَّ حَرْفَ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ
 حُرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطِيِّ عِنْدَ الْبَزَّارِ بَيْنَ الْكَافِ الْصَّرِيمَةِ عِنْدَنَا
 وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ مِثْلَ أَسْمِ بَلْكَيْنِ فَأَضَعُهَا كَافًا وَأَنْقُطُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلِ
 أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقِ أَوْ أَنْتَبِنِ فَيَدْلُلُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكَافِ
 وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ وَهَذَا الْحُرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِدُهُ فِي لُغَةِ الْبَزَّارِ وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى
 هَذَا الْتِبَاسِ أَضْعَعُ الْحُرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حُرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحُرْفَيْنِ مَعًا لِيَعْلَمَ الْقَارِيُّ
 أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطُقُ بِهِ كَذَلِكَ فَنَكُونُ قَدْ دَلَلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرِسْمِ الْحُرْفِ الْوَاحِدِ
 عَنْ جَانِيهِ لَكَنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحُرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا وَغَيْرِنَا

لُغَةُ الْقَوْمِ فَاعْلَمَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ يَعْلَمُهُ وَفَضْلِهِ

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب
والعيش والصنائع والعلوم ونحوها وما بذلك من العلل والأسباب

إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو
عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآثر
والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك
والدول ومراتبها وما ينتجه البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والعيش والعلوم
والصناعات وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال ولما كان الكذب
مطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب لتفصيله فنها التشريعات للرأي والمذاهب فإن
النفس إذا كانت على حال الأعداد في قبول الخبر أعطته حقه من التخييص والنظر
حتى تبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع رأي أو نحيلة قبلت ما يوافقها من
الأخبار لأول وهلة وكان ذلك العميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد
والتخييص فتقع في قبول الكذب وتقوله ومن الأسباب المفترضة للكذب في الأخبار
إضاً الثقة بالناقلين وتخييص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن
المقصود فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ويقول الخبر على ما في
ظنه وتخيصه فيقع في الكذب ومنها توهם أصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكاذيب
من جهة الثقة بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الواقع لاجل ما يدخلها من
الشليس والتصنع فينقلها المخبر كما رأها وهي يا تصنع على غير الحق في تسيه ومنها
نكر الناس في الآثار لاصحاح التعليل والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال
وإشاعة الدهش بذلك ف يستفيض الأخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب
الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الآثار باغرين
في الفضل ولا متناسفين في أهليها ومن الأسباب المفترضة له أيضاً وهي سابقة على
جميع ما تقدم الجهل بطبع الأحوال في العمران فإن كل حادث من الحوادث

ذاتها كان أو فعلًا لا بد له من طبيعة خاصة في ذاته وفما يعرض له من أحواله فإذا
 كان السائع عارفًا بظاهر الحوادث والأحوال في الوجود ومفهوميتها أعاده ذلك في
 تغیص الخبر على تمیز الصدق من الصكّر وهذا أبلغ في التغیص من كُل وجه
 يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقولونها ويتقدرون عليهم
 نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدّه دواب البحر عن بناء الإسكندرية وكيف
 أخذ صندوق الزجاج وغاص في الماء حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي
 رأها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حداه البنيان فركت تلك الدواب حين
 خرجت وعائشتها وتم بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافات مستحيلة من قبل
 اتخاذ التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وما واجه به من قبل أن الماء لا يحمل
 أنفسها على مثل هذا الغرور ومن اعتمله منهم فقد عرض نفسه للهلاك وأنقاض
 العقدة وأجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك اخلاف ولا يستطردون به رجوعه من غروره
 ذلك طرفة عين ومن قبل أن الماء لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها إنما هي
 قادرة على التشكيل وما يذكر من كثرة الروس لما فإنما المراد به البشرة
 والثوبيل لا أنه حقيقة . وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح التحويل لما من
 طريق الوجود أبين من هذا كله وهو أن المتعيس في الماء ولو كان في الصندوق
 يضيق عليه الماء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقتله فيفقد صاحبه الماء
 البارد المعدل لمرماج الريقة والروح القلبية وبذلك مكانه وهذا هو السبب في ملائكة
 أهل الممارات إذا أطيفت عليهم عن الماء البارد والمتدين في الآبار والمعطامير
 العميق المتهوى إذا سخن هواؤها بالغرفة ولم تدخلها الزياح فتخلخلها فإن المتدين
 فيها يهلك لعنه وبهذا السبب يكون موت المحوت إذا فارق البحر فإن الماء لا يكتفي
 في تعديل رئته إذ هو حار يا فرات والماء الذي يعدل له بارد والماء الذي خرج إليه
 حار فيستولي الماء على روحه الحيواني وبذلك دفعه ومنه ملائكة المصروفين وأمثال
 ذلك ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الرززور الذي يرمي
 ثم يجمع إليه الرزازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يخذلون زيتهم
 وأنظر ما أبعد ذلك عن العجزي الطبيعي في اتخاذ الزينة . ومنها بما نقله الحكري

في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثة مراحل وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت لتخصن والأعتماد كما يأني ومهلا خرجت عن أن يعطاها فلما يكون فيها حصن ولا مقصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وإنها مدينة كل بنائهما نحاس وبخمراء سجل ماسة ظفر بها موسى بن نصیر في غزوته إلى المغرب وإنها مقلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من سورها إذا أشرف على الماء صنق ورمي بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحب عادة من خرافات الفحاس وصخراته سجل ماسة قد تفاصها ألة كاب والأدلة ولم يقروا بهذه المدينة على خبرهم إن هذه الأحوال التي ذكرها عنها كلها مستحب عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن وأختلطاتها وأن المعادن غابة موجود منها أن يصرف في الآنية والخزفي^(١) وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستعمال والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتحبيصه إنما هو بمعرفة طبائع القرآن وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تحبيص الأخبار وتبين صدقها من كذبها وهو سابق على التخييص بتعديل الرواية ولا يرجع إلى تعديل الرواية حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتبرير وقد عذر أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلوله اللقط وتأويله بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتبرير هو المعتبر في صحّة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنسانية أوجبت الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحّة الظن الثقة بالرواية بالعدالة والضبط وأما الأخبار عن الواقع فلا بد في صدقها ومحتواها من اعتبار المطابقة فلذلك وجوب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أمراً من التعديل وقدم ما عليه إذ فائدة الأنساء مقتبسة منه فقط وفائدة أخرى منه ومن الخارج بالالمطابقة وإذا كان ذلك فما أقانون في تبيين الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستعمال أن تنظر في الاجتئاع البشري الذي هو القرآن وتبيين ما يتحقق من الواقع لذاته وبمقتضى طبيعته وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعترض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا فأنواعاً في تبيين الحق من الباطل في الأخبار والصدق

(١) المحرث بالضم اثاث البيت اه قاموس

من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحيثنى فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعية في التمران علينا ما تهمكم بقوله مما تحكم بتزيفه وكان ذلك لنا معياراً معييناً يجري به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو التمران البشري والأجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يتحقق من العوارض والأحوال الذاتية واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضياعه كان أذ عقلياً وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة اعتبر عليه البحث وأدى إلى الفوضى ولبس من علم الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استحالة الجمهور إلى راي أو صدم عنده ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاوه فقد خالفت موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكانه علم مستبط النساء والتعمري لم أقت على الكلام في مسحاة لأحد من أخلاقية ما أدرى الغفلتهم عن ذلك وليس الفتن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم أكثر والحكمة في أم النوع الإنساني متعددة وما لم يصل إلينا من العلوم وإنما وصل فابن علوم الفرس التي أمر عمر برضي الله عنه بمحوها عند الفتح وإن علوم الكلدانين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وإن علوم القبط ومن قبلهم وإنما وصل إلينا علوم أمّة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المامون يآخرها من لغتهم وأقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها ولم تقفت على شيء من علوم غيرهم وإذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلاح أن يبحث عمّا يعرض لها من العوارض لذاتها وجّب أن يكون بأغيار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكمة لعلهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالشمرات وهذا إنما شعرته في الأخبار فقط كما رأيت وإن كانت مسألة في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن شعرتها تضليل الأخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه وأله أعلم وما أتيتم من العلم إلا قليلاً وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض

لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بال موضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر معاونون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات الله أن الناس يحتاجون إلى العبادة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع وأن القتل أيضاً مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام ففيها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لما النظر فيها يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المماثلة وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء أخلاقية لكنهم لم يستوفوه فرن كلام المؤذن بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي . أيها الملك إر . الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالعمال ولا سبيل للعمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان . السنة صوب بين أخلاقية نصبة الرب وجعل له قيمة وهو الملك . ومن كلام أنور وان في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالعمال والعمال بالخرج والخرج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بالصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس السكول يا فتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديتها حتى يملأ ولا تملأ . وفي الكتاب المتسوّب لارسطو في السياسة المندلول بين الناس جزء صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومحظوظ بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن المؤذن وأنور وان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله . العالم بستان سياجة الدولة سلطان شهينا به السنة سياسة يسوّها الملك الملك نظام يعده العبد الجند أعون يتكلم المال رزق مجتمع الرعية عليه عيد يكتفهم العدل مالوف ويه قوام العالم بستان ثم ترجع إلى أول الكلام . فهو ثمان

كَلِمَاتٍ حِكْمَيَّةً سِيَاسِيَّةً أَرْتَبَطَ بَعْضُهَا بِعُضُّوٍ وَأَرْتَدَتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَأَنْصَاتَ
 فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ حَارِفَهَا غَرَّ بِشُورِهَا وَعَظَمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأْمَلْتَ
 كُلَّا مَا فِي فَصْلِ الدُّولَ وَالْمَلَكَ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ الْتَّعْصِيمِ وَالْتَّفْهِمِ عَزَّزْتَ فِي أَنْتَاهِهِ
 عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِيجَامِهَا مُسْتَوْقِيًّا بِأَوْعَبِ يَكَانِ وَأَوْضَعِ دَلِيلِ
 وَبُزْهَانِ أَطْلَعْنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرِ تَعْلِيمٍ أَرْسَلْنَا وَلَا إِفَادَةَ وَبِنَدَانَ وَكَذِلِكَ تَجَدُّدُ فِي
 كَلَامِ أَبْنَى الْمَقْعُومِ وَمَا يُسْتَطِرُدُ فِي رَسَائِلِهِ إِنْ ذِكْرُ السِّيَاسَاتِ الْحَكَمِيَّةِ مِنْ مَسَائِلِ
 كَتَابِنَا هَذَا غَيْرَ بُرْهَنَةٍ كَمَا بَرَهَنَاهُ إِنَّمَا يُعْلَمُ بِهَا فِي الَّذِي كُوِّنَ عَلَى مَنْعِي الْخَطَايَاةِ فِي أَسْلَمِ
 النَّرْسُلِ وَبِلَاغَةِ الْمُكَلَّامِ وَكَذِلِكَ حَوْمَ الْقَافِيِّ أَبُو بَكْرِ الطَّرْمَوْشِيِّ فِي كِتَابِ
 مِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوْبَةٍ عَلَى أَبْوَابِ تَقْرُبٍ مِنْ أَبْوَابِ كَتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلِ الْمَكْنَةِ لَمْ
 يُصَادِفْ فِيهِ أَرْتِمِيَّةٌ وَلَا أَسَابِيَّ الشَّاكِلَةِ وَلَا أَسْتَوْقِيَّ الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْتَقِعَ الْأَدَلَةَ إِنَّمَا
 يُبَوِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْتَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقةً
 لِمُكَمَّاءِ الْأَزْمِنِ مِثْلَ بَزَرَجَهَرَ وَالْمَوْبَدَانِ وَجُحْكَاءَ الْمِيزِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ دَائِرَةِ
 وَهَرِمِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الْخَلَاقَةِ وَلَا يُكَشِّفُ عَنِ التَّعْقِيقِ فَنَاعِمًا وَلَا يَرْفَعُ الْبَوَاهِينِ
 الْطَّبِيعِيَّةَ حِجَابًا إِنَّهُ هُوَ تَقْلِيدٌ وَتَرْكِيبٌ شَيْهٌ بِالْمَوَاعِظِ وَكَانَهُ حَوْمٌ عَلَى الْغَرْضِ وَلَمْ
 يُصَادِفْهُ وَلَا تَعْقِيَ قَصْدَهُ وَلَا أَسْتَوْقِيَ مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ اَمْتَنَّ اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ إِلْهَمًا وَأَعْتَدْنَا
 عَلَى عَلَمِهِ جَعَانًا بَيْنَ نُكْرَةَ وَجْهِنَّمَ خَبَرَهُ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَسْتَوْقَيْتَ مَسَائِلَهُ وَمَبَرِّزْتَ عَنْ
 سَائِرِ الصَّنَاعَمِ أَنْظَارَهُ وَأَنْخَاهَهُ مَتْوِيقٌ مِنَ اللَّهِ وَعْدَيْهِ وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ
 وَأَشْبَهْتُ بِغَيْرِهِ فَلِكَلَانِاظِرِ الْمُحْقِقِ إِصْلَاحَهُ وَلِيَ النَّفْلُ لِأَنِّي تَعْجَبْتُ لَهُ السَّيِّلَ وَأَوْضَعْتُ
 لَهُ الْطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ وَنَحْنُ اَلآنَ نَبِيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، كَمَا يَعْرِشُ
 لِلْبَشَرِ فِي أَعْيُّنِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُرْمَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْأُوْمِ وَالصَّنَاعَمِ وَجُوُودِ
 بِرْهَانِيَّةٍ يَتَسَعُ بِهَا التَّعْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَامِسَةِ وَالْعَامِةِ وَتَتَدَفَّعُ بِهَا الْأَذْهَامُ وَتُرْفَعُ
 الْشَّحْكُوكُ ، وَتَقُولُ لَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوانَاتِ بِخَواصِّ أَخْتُهُ فِي بِهَا
 فِنَّهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَاعَمُ الْقَيْرَبُ تَعِيَّجَةُ الْفَكُورِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْجَيْوَانَاتِ وَشُرُفُ بِوَصْفِهِ عَلَى
 الْمَغْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحَكْمَ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُنْكِنُ وُجُودُهُ
 دُونَ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ الْكُلُولِ وَالْجَرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَمَّا

مِثْلُ ذَلِكَ فَيُطْرِيقُ الْمَاهِيَّةَ لَا يُفْكِرُ وَرَوْيَةً وَمِنْهَا السُّعُودُ فِي الْمَعَاشِ وَالْأَغْتِيلَالُ فِي
مَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَأَكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْاِقْتَارَ إِلَى الْغِذَاءِ فِي
حَيَاةِهِ وَبَقَائِهِ وَهَذَا إِلَى التَّسَاءِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَنِي كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا
الْعُرْمَانُ وَهُوَ التَّسَاءُكُ وَالتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةِ الْإِنْسَانِ بِالْعَشِيرَ وَاقْتَضَاهُ الْمُحَاجَاتُ
لَمَّا فِي طَبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبَيَّنَهُ وَمِنْ هَذَا الْعُرْمَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًا وَمَوْهَى
الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّوَاحِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْخَلَلِ الْمُسْتَجَمَّعِ فِي الْقِفَارِ وَأَطْرَافِ الْرِّمَالِ
وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًا وَهُوَ الَّذِي يَا الْأَمْصَارِ وَالْقَرَى وَالْمُدُنِ وَالْمَدَرِ لِلِّاْعْتِصَامِ بِهَا
وَالْمُعْصَنُ يَمْحُدُرُ إِنَّهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَخْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ الْأَجْتِمَاعُ عُرُوضًا
ذَاتِيَّةٌ فَلَا جُرْمَ أَنْخَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأُولُ فِي الْعُرْمَانِ
الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجَمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُرْمَانِ الْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ
الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ الْوَسْعِيَّةِ . وَالثَّالِثُ فِي الْكُوْلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذِكْرِ الْمَرَاتِبِ الْسُّلْطَانِيَّةِ
وَالْأَرْبَعُ فِي الْعُرْمَانِ الْخَضْرِيِّ وَالْبَلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْمَعَاشِ
وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعِلُومِ وَأَكْتِسَابِهَا وَتَعْلِيمِهَا . وَقَدْ قَدَّمَتِ الْعُرْمَانُ
الْبَدَوِيِّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى حَمِيعِهَا كَمَا نَبَيَّنَ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ الْمُلْكِ عَلَى الْبَلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ
وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعَاشِ فَلِلَّهِ الْمَعَاشُ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعْلِمُ الْعِلْمَ كَمَا يُؤْمِنُ أَوْ حَاجِيٌّ وَالْطَّبِيعِيُّ
أَقْدَمُ مِنَ الْكَسَكَالِيِّ وَجَعَلَتِ الصَّنَاعَةَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بَعْضٌ الْوُجُوهُ وَمِنْ
حَيْثُ الْعُرْمَانُ كَمَا نَبَيَّنَ لَكَ بَعْدُ وَاللَّهُ الْمُوْفِقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ

الفصل الأول

من الكتاب الأول

في العرمان البشري على الجملة وفيه مقدمات

الْأُولَى فِي أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعَزِّزُ الْحُكْمَمَاهُ عَنْ هَذَا يَقُولُ لِمَنْ
الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ يَا مَلْمَعٌ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي أَصْنَاطِ الْأَجْهِيمِ
وَهُوَ مَعْنَى الْعُرْمَانِ وَيَتَأَنَّهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصْبِعُ

حِيَاةً وَبَقَوْهَا إِلَّا بِالغِذَاءِ وَهَدَاءُ إِلَى الْأَنْفَاسِ يَنْطَرِتُهُ وَمَا رَكِبَ فِيهِ مِنْ الْقُدْرَةِ عَلَى
 تَعْصِيلِهِ إِلَّا أَنْ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ فَاحِرَةٌ عَنْ تَعْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ
 غَيْرُ مُؤْفِيَ لَهُ بِمَادَةٍ حِيَاةٍ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَفْلَامًا بُمْكِنٌ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّتُ يَوْمَهُ مِنْ
 الْخِنْطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلاجٍ كَثِيرٌ مِنَ الْطَّعْنِ وَالْتَّعْنِ وَالْطَّبْغَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ
 هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْثَّلَاثَةِ يَتَحَاجِجُ إِلَى مَوَاعِينَ وَالآتِ لَا تَنْتَمُ إِلَّا بِصَنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدةٍ مِنْ
 حَدَادٍ وَمَجَارٍ وَفَاخُورِيَّ وَمَبْ أَنَّهُ يَا كُلُّهُ جَمًا مِنْ غَيْرِ عِلاجٍ فَهُوَ أَيْضًا يَتَحَاجِجُ فِي تَعْصِيلِهِ
 أَيْضًا جَمًا إِلَى اَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الْزِرَاءَ وَالْمَصَادِ وَالدَّرَاسِ الَّذِي
 يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّبْلِ وَيَتَحَاجِجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآتِ مُتَعَدِّدةٍ وَصَنَاعَتٍ
 كَثِيرَةٌ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِيِّ يُكَثِّيرُ وَيَسْتَعِيلُ أَنْ تَقِيَّ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ يَعْصِيَ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ
 فَلَا بُدُّ مِنْ أَجْمَاعٍ الْقُدْرَةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ يَحْصُلُ الْقُوَّتُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ
 يَأْتِيَنَّا فَدَرُ الْأَكِيْفَيَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لَا كَثَرَ مِنْهُمْ يَأْسِفُونَ وَكَذَلِكَ يَتَحَاجِجُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكِبَ
 الْطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَةَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمَ
 مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظَرِ الْإِنْسَانِ قُدْرَةُ النَّرْسِ مَثَلًا أَعْظَمُ يُكَثِّيرُ مِنْ قُدْرَةِ
 الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثُّورِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَصْعَافُ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا
 كَانَ الْعَذْوَانُ طَبِيعَيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضُورًا يَتَحَصَّنُ بِسُدَّافَتِهِ مَا
 يَحْصُلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِالْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ الْفِكْرُ وَالْيَدُ فَالْيَدُ مُرْسَلَةٌ
 لِلصَّنَاعَةِ بِخِدْمَةِ الْفَكْرِ وَالصَّنَاعَةِ تَحْصُلُ لَهُ الْآتِ الَّتِي تَنْبُُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ
 الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفاعِ مُثَلَّ الْرِّماحِ الَّتِي تَنْبُُ عَنِ الْقُرُونِ الْأَنْتَمِحَةِ وَالشَّيْوُفِ
 الْأَنَابِيَّةِ عَنِ الْعَخَالِبِ الْجَارِحةِ وَالنَّرَاسِ الْأَنَابِيَّةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَانِسَيَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
 وَغَيْرُهُ إِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَأَلَّا وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ لَا تُقاومُ
 قُدْرَتُهُ قُدْرَةً وَاحِدَةً مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ سِيمَا الْمُفْتَرَسَةُ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحْدَهُ
 بِالْجَمْلَةِ وَلَا تَقِيُّ قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِأَسْتِعْمَالِ الْآتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدُّ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ
 الْتَّعَاوِنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْتَّعَاوِنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّتُ وَلَا غَذَاءٌ وَلَا
 ثَمَّ حِيَاةً لِمَا رَكِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حِيَاةِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا

دفاع عن نفسه لفقدان السلاح. فـيكون فرصة حيوانات ويعاجله الملائكة عن مدى حيائه وينتظر نوع البشر فإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للدفاع وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذاً هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإن لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتبار العالم بهم وأسلافه أيام وهذا هو معنى عمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن لما تفرد في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضاً من الممتنعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفضلهم ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما فرزناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العداوان والظلم وليس السلاح الذي جعل دافعاً لعدوان الحيوانات العجم عليهم كافية في دفع العداون عليهم لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركم وإماماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في التخل والجراد لما اشتقر فيهما من الحشر والانقياد والانبعاث لرئيس من اشتراصها متميز عليهم في خلقه وجهاته إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة راحلانية لا يقتضي الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقة ثم هدى ونزد النلايسنة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقرر زون هذا البرهان إلى غاية وانه لا بد للبشر من الحشر الوارد ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحشر يكون يشرع مفروض من عند الله بما في به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزاً عليهم بما يدع الله فيه من خواصه مداراته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحشر فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف وهذه القضية للحكمة غير برهانية كما نراه إذ الوجود وحياة البشر قد تم من

دون ذلك بما يفرِّضه الحاكم لنفسه أو بالعصيَّة التي يقتدرُ بها على فَهْرِم وَحَمْلِمْ على جادته فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْعُونَ لِلأَنْسِاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسَبةِ إِلَى الْجُنُوبِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّولُ وَالآثَارُ فَضْلًا عَنِ الْمُبَاشَةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْرِفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجُنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُوْتَ وَازْتَغَ لَهُمُ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ النِّبَوَاتِ وَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلٍ وَإِنَّمَا مُدْرِكُهُ الْشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَنْعَبُ الْسَّلَفِ مِنْ الْأُمَّةِ وَأَنَّهُ وَلِيَ التَّوْفِيقِ وَالْمِدَائِيَّةِ

المقدمة الثانية

في قسط المهران من الأرض والاشارة إلى بعض ما فيه

من الأشجار والأنهار والأقاليم

يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكْمَاءِ الْأَنَاظِرِينَ فِي أَخْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرُوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعِنْصَرِ الْمَاءِ كَمَا يَعْنِيهُ طَافِيَّةُ عَلَيْهِ فَأَنْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَابِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَاةِ أَنَّهَا فِيهَا وَعُمْرُهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ أَخْلَافَةٌ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَمَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا الْتَّحْتُ الْطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرُبِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكُومًا وَالْكَمْلُ بِطْلُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْلِ وَمَا عَدَ ذَلِكَ مِنْ جَوَابِهَا وَأَمَا الْمَاءُ الْمُحْبِطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَيَا لِإِضَافَةِ إِلَى جِهَةِ الْأَخْرَى مِنْهُ . وَأَمَا الَّذِي أَنْحَسَرَ عَنِ الْمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرُبِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ حَاطَ الْعَنْصُرُ الْمَاءِيُّ بِهَا مِنْ تَجْمِيعِ جَهَانِهَا بِمَرْأَةِ الْبَرِّ الْمُحْبِطِ وَبِسَمَّيَ أَيْضًا لِبَلَابَهِ بِتَفْعِيمِ الْأَلَامِ الْأَكَانِيَّةِ وَبِسَمَّيَ أَوْفِيَانُوسَ أَمْهَا الْجَمِيَّةَ وَيُقَالُ لَهُ الْبَرُّ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّهُمْ هَذَا الْمُنْكَسِفُ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرانِ فِيهِ الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُهُمْ مِنْ عُمْرَانِهِ وَالْخَلَائِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجُنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُهُمْ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَمِرُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى الْجَنَاحِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسْطَعِ كُرُوِيٍّ يَتَعَيَّنُ مِنْ جِهَةِ الْجُنُوبِ إِلَى خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرُوِيٍّ وَوَرَاءِهِ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعَنْصُرِيِّ الَّذِي

ينتهي سد بآجوج وما بآجوج وعذرا الجبال مائلة إلى جهة المشرق وينتهي من المشرق
 والمغرب إلى عنصر الماء أيضا يقطعن من دائرة الحيطان وهذا المنكشف من
 الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل وأعمور منه مقدار ربعة وهو
 المنقسم بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الأرض بتصنيف من المغرب إلى
 المشرق وهو مول الأرض وأكبر خط في كرهها كما أن منطقة فلك البروج
 ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلاثة وستين
 درجة والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ أثنا عشر ألف
 ذراع والذراع أربعة وعشرون إصبعاً والأصبع سنت حبات شعير مصنوفة ملصق
 بعضها إلى بعض ظهر البطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بتصنيف وتسامى
 خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن
 العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاة لا
 عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاة كلها لشدة الحر كذا
 بين ذلك كله إن شاء الله تعالى ثم إن المغيرين عن هذا العمور وحدوده وعمر
 فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والنهار والقارب والرمال مثل بطليموس في
 كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زخار من بعده تسموا هذا العمور بسبعين أقساماً
 يسمونها الأقاليم السبعة بمحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض
 مختلفة في الطول فالأقليم الأول أطول مما بعده وهكذا الثاني إلى آخر ما فيكون
 السابع أقصى لما افتضاه وفتح دائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كره الأرض
 وكل واحد من هذه الأقاليم عندم منقسم بعشرين جزءاً من المغرب إلى المشرق
 على التوالي وفي كل جزء أخبار عن أحواله وأحوال عمرانه وذكر وأن هذا البحر
 الحيطان يخرج منه من جهة المغرب في الأقليم الرابع البحر الرومي المعروف بهذا
 في خليج متفاقي في عرض الثاني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طبعة وطريق ويسري
 الزفاف ثم يذهب مشرقاً ويتفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء
 الرابع من الأقليم الرابع على ألف فرسخ ومائتين وستين فرسخاً من مبدأه وعلىه هنالك
 سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طبعة عند الخليج ثم

افريقيا ثم برقه إلى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج
 ثم البنادقة ثم روما ثم الافرسنجة ثم الاندلس إلى طربت عند الزقاق فمالة ملحة ويسعى
 هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة ككار مثل افريقيا وفبرص
 وصقلية وميورقة ومزدانية قالوا ويمخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من
 خليجين . أحدهما مسمى للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضائقا في عرض رمية
 السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفع في عرض أربعة أميال
 ويمر في جزء ستين ميلاً ويسعى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهه عزتها سترة
 أميال فيبعد بحر نيطيش وهو بحر يترى من هناك في مذهبها إلى ناحية الشرق فيمر
 بأرض هرقلة وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثمانمائة ميل من فوهته وعليه من
 الجانين أسم من الروم والترك وبُرْجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر
 الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى
 سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاديا
 على ألف ومائة ميل من مبدأه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أسم ويسعى
 خليج البنادقة . قالوا ويساخ من هذا البحر التحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة
 درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلاً حتى ينتهي
 إلى الأفليس الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد
 الجبسة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدأه
 ويسعى البحر الصيني والهندي والجبسي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد
 بوزبر التي ذكرها أرزو القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبلات المغرب
 ثم بلد مقدشويم بلد سفاله وأرض الوفاق وأمم آخر ليس بعدهم إلا القفار وأنملاء
 وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدأه ثم الهند ثم السيد ثم سواحل اليمن من
 الأحقاف وزبيب وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الجبسة . قالوا ويمخرج من
 هذا البحر الجبسي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ
 متضائقاً يمر مستجراً إلى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في
 الجزء الخامس من الأفليس الثاني على ألف وأربعين ميل من مبدأه ويسعى بحر

القلزم وبحر السوين وبيته وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من
 جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وبيلة وفاران عند نهايته ومن
 جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وساكن وزيلع ثم بلاد الجشة عند مبداء
 وأخره عند القلزم يسمى البحر الرومي عند العريش وبينهما نهوض مراحل وما
 زال الملوك في الإسلام قبل يومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك والبحر الثاني من
 هذا البحر الجشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السندي والأحقاف من
 اليمن وينتهي إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبلة من سواحل البصرة
 في الجزء السادس من الأقليم الثاني على أذبعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبداء
 ويسعى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السندي وبستان وكرمان وفارس
 والأبلة وعند نهايته من جهة الغرب سواحل التبرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف
 عند مبداء وفيما بين بحر فارس والقلزم وجزيرة العرب كانها داخلة من البر في البحر
 يحيط بها البحر الجشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق
 وتفضي إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسين ميل بينها وهنالك الكوفة
 والقادسية وبغداد وإنوان كسرى والخيرة ووراء ذلك أمم الأماجم من الترك
 والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبالإضافة
 والتررين وعمان في جهة الشرق منها وبالإضافة في جهة الجنوب منها سواحله على
 البحر الجشي . قالوا وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال
 بأرض الدليم يسمى بحر جران وطبرستان طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل
 في غربه أذر بikan والدليم وفي شرقه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان
 وفي شماليه أرض الخزر واللان . هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل
 الجغرافيا . قالوا وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل
 والفرات ودخلة ونهر ونهر ونهر ونهر المسما بنيون ، فاما النيل فنبعه من جبل عظيم وراء خط
 الأستواء بست عشرة درجة على سمت البحر الرابع من الأقليم الأول وبسمى جبل
 القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في
 بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البحرتين فتصب كلها في بحيرة

قائمة عند خط الاستواء على عشر مساحات من الجبل ويمخرج من هذه البحيرة نهران
 ثعب أحدهما إلى ناحية الشمال على سفه ويعبر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فإذا
 جاوزها شعب متقارب يسمى كل زاحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر
 الرومي عند الإسكندرية ويسعى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقه والواحات
 من غربه وبذهب الآخر منقطها إلى المغرب ثم يمر على سنته إلى أن يصب في
 البحر المتوسط وهو نهر السودان وأمهم كلام عن ضفتينه . وأما الفرات فبداء من
 بلاد أزمنية في الجزء السادس من الأقليم الخامس ويمر جنوباً في أرض الروم
 وملطية إلى منبع ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء
 التي بين البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحشبي وتجib إليه في طريقه
 أنهار كثيرة ويخروج منه أنهار أخرى تصب في دجلة . وأما دجلة فبداءها عين
 بلاد خلاط من أزمنية أيضاً وتمر على سنت الجنوب بالموصل وأذريجان وبغداد
 إلى واسط فتفرق إلى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي إلى بحر فارس وهو
 في الشرق على يمين الفرات وتجib إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيها
 بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل فباتنة الشام من عدواني . الفرات وقبالة
 أذريجان من عدواني دجلة . وأما نهر جيحون فبداءه من لبغ في الجزء الثامن من
 الأقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجib إليه أنهار عظام وبذهب من الجنوب
 إلى آثار إلى بلاد خراسان ثم يخروج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء التاسع من
 الأقليم الخامس فيصب في بحيرة مجرجانية التي ياسفل مدinetها وهي مسيرة شهر في
 مثله و إليها ينصب نهر فرغانة والشاش الذي من بلاد الترك وعلى غربته نهر جيحون
 بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقه بلاد بخارى وترند وسمرقند ومن هناك إلى ما
 وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزجية وأم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس
 في كتابه والشريف في كتاب زخار وصوروا في المغارافيا جميع ما في المعمور من
 الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولأن عنابتنا في
 الأكثـر إنما هي بالغرب الذي هو وطن البربر وألاوطان التي للعرب من
 المشرق والله الموفق

تكميلة لهذه المقدمة الثانية

في ان الرابع الشمالي من الارض اكثرا عمرانا من الرابع الجنوبي

وذكر السبب في ذلك

وتحنن نرسى بالمشاهدة والاخبار المتوافرة ان الاول والثانى من الاقاليم المعمورة اقل عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه في تلك الالهة والقفار والمال والبعض الهندى الذي في الشرق منهما وامم هذين الافقين وناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنها كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والمال كذلك في معدومة وأممها وناسها تجاوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عددا واعمران فيها متدرج ما بين الثالث والسادس والسبعين خلاف كل ذلك وقد ذكر كثير من الحكمة ان ذلك لا فرط في الحز وقلة ميل الشمس فيها عن سمت ازووس فلوضخ ذلك يزهانه ويتبيان منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع . فنقول إن قطبى الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبين في موضعه من الهيئة ان الفلك الأعلى متحركة من المشرق إلى المغرب حرفة يومية يحرث بها سائر الأفلاك في جوفه فهرا وهذه الحركة محسوبة وكذلك تبين ان الكواكب في أولاً كثها حرفة لاهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق وتحتاج آمادها باختلاف حرفة الكواكب في السرعة والبطء ومرات هذه الكواكب في أولاً كثها توازن بها كلها دائرة عظيمة من الفلك الالى تقسم بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثنتي عشر برجا وهي على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول العيزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين بنصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر الشبالة ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول العيزان إلى آخر الحوت وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع توسيع الأرض كان

على سطح الأرض خط واحد يسامي دائره معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسري خط الاستواء وقع هذا الخط بأرض على ما زعموا في مبدأ الأفليم الأول من الأقاليم السبعة والمعزان كلها في الجهة الشمالية يرتفع عن آفاق هذا العمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة ونالك بقطع العزان وهو آخر الأفليم السابع فإذا ارتفع على الأفق تسعمين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية وستة ثمن الأفق وهي الجنوبيه والعمارة فيها بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان مترجلاً بعد الزمان بينما فلما يحصل التكوان فإذا الشمس نسامت الروس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامته إلى رأس السرطان ورأس الجدي ويكون ميلها عن دائرة معدل النهار أربع وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سنت الروس بمقدار ارتفاعه وانخفاض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسني عند أهل الموقيت عرض البلد وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سنت الروس علت عليها البروج الشمالية من درجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبي من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لأنها أقرب إلى الجانبي في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير بعد الشمالية وهو رأس السرطان في سنت الروس وذلك حيث يكون عرض البلد أربع وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن دائرة النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتها فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامته ولا يزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربع وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامته كذلك وأنه ينخفض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوان إلا فراتا البرد والحمد وطول زمانه غير مترج باطنز ثم إن الشمس عند المسامته وما يقاربها تبعث الأشعة قائلة وفيما دون المسامته على زوايا منفرجة وحاده وإذا كانت زوايا الأشعة قائلة عظم الضوء ونشر بخلافه في المنفرجة والحداده فلهذا يكون

الْحَرَّ عِنْدَ الْمُسَامَةَ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرُهُ فِيهَا بَعْدُ لِأَنَّ الصَّوْءَ سَبَبَ الْحَرَّ وَالْتَّسْخِينَ
 ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَةَ فِي خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ تَكُونُ مِنْتَيْنَ فِي السَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتِي الْحَمْلِ
 وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرَّ يَعْتَدِلُ فِي أَخْرِ مِنْهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَّاطَانِ
 وَالْجَدِيِّ إِلَّا إِنْ صَعَدَتْ إِلَى الْمُسَامَةِ فَتَبْقَى الْأَشْعَةُ الْقَائِمَةُ الْزَّوَابِيَا تُلْعَبُ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَفْقِ وَيَطُولُ مُسْكِنُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَسْتَعِلُ الْمُوَاهَ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا
 دَامَتِ الْشَّمْسُ تُسَامِتُ مِنْتَيْنِ فِيهَا بَعْدَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ قَاءِ
 الْأَشْعَةِ مُلْعِنَةً عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ يَقْرِبُ مِنْ الْحَاجِهَا فِي خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ الْحَرَّ
 يَفْعَلُ فِي الْمُوَاهَ تَجْفِيفًا وَيَسْأَمُ بَعْضَهُ مِنَ النَّكْوَيْنِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرَّ جَفَّتِ الْمَيَاهُ
 وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ النَّكْوَيْنُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيْوَانِ وَالْبَنَاتِ إِذَا النَّكْوَيْنُ لَا يَكُونُ
 إِلَّا بِالرُّطُوبَهُ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَّاطَانِ عَنْ سَهْتِ الْأَرْوُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسِ وَعِشْرِينَ
 فَمَا بَعْدَهُ نَزَّلَتِ الْشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ فَيَصِيرُ الْحَرَّ إِلَى الْأَعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا
 قَلِيلًا فَيَكُونُ النَّكْوَيْنُ وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقَلْهَةِ
 الصَّوْءِ وَكَوْنِ الْأَشْعَةِ مُنْفَرِجَةً الْزَّوَابِيَا فَيَنْقُصُ النَّكْوَيْنُ وَيَفْسُدُ يَدَهُ أَنْ فَسَادَ النَّكْوَيْنِ
 مِنْ جِهَهُ شِدَّةِ الْحَرَّ أَعْظَمُهُ مِنْ جِهَهُ شِدَّةِ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ
 مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِي قَلِيلًا وَفِي
 الْأَكْلِثِ وَالْأَرْبَعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِلْأَعْتِدَالِ الْحَرَّ يَنْقُصَانِ الصَّوْءُ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ
 كَثِيرًا لِنَقْصَانِ الْحَرَّ وَأَنَّ كِفَيَةَ الْبَرْدِ لَا تُؤْثِرُ عِنْدَ أَوْلِهَا فِي فَسَادِ النَّكْوَيْنِ كَمَا
 يَفْعَلُ الْحَرَّ إِذَا لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ الْيَسِّرِ كَمَا بَعْدَ
 السَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الْأَرْبَعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَأَنَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هَذَا أَخْدَدَ
 الْحَكْمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاهُ وَأَوْرَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالْمُشَاهَدَةِ
 وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَافِرَةِ فَكَيْفَ يَتَمُّ الْبَرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا أَمْتَانَ
 الْعُمْرَانِ فِيهِ بِالْكَلِيلَةِ إِنَّمَا أَدَمُ الْبَرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ النَّكْوَيْنِ فِيهِ قَوِيٌّ يَأْفُرُ اِفْرَاطِ
 الْحَرَّ وَالْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَامٌ مُتَتَّعِّدٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقْلَيْهُ وَهُوَ كَذِلِكَ فَإِنَّ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ وَالَّذِي
 وَرَاهُ وَأَنَّ كَانَ فِيهِ غَمْرَانٌ كَمَا نُقْلِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًا . وَقَدْ زَعَمَ أَبْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطِّ
 الْأَسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاهُ فِي الْجُنُوبِ يَمْتَابِهُ مَا وَرَاهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكاليف وإنما متنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن النصر الماء عمر وجه الأرض هنالك إلى آخر الذي كان مقابلة من الجهة الشمالية فابلا للنكاليف ولما متنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الأمتناع وأما القول يا متناعه في خط الاستواء فيرده التقل الشوارع وأله أعلم ولترسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسما صاحب كتاب زخار ثم قاخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكمة قسموا هذا العالم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فاقسام العالم من الأرض كلها على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منهاأخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول منها نار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء يحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلام عماره ويکيه من جهة شماله إلا قليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن يتبعه إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الأقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة مدار النهار وأذناف القطب الشمالي عن أفقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك ويتبع طول الليل والنهار في آخر الأقليم الأول وذلك عند حلول الشمس بواسطه الجدي للإيام ويرأس السرطان للنهار كل واحد منها إلى ثلاثة عشرة ساعة وكذلك في آخر الأقليم الثاني مما يلي الشمال فيتشع طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلها الصيفي إلى ثلات عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلها الشتوي بواسطه الجدي ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين ساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكَذِلِكَ فِي آخِرِ الْأَقْلِيمِ ثَالِثٌ مَا يَلِي الشَّمَاءَ أَيْضًا يَتَهَبَانِ إِلَى أَزْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةَ وَفِي
آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَزْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةَ وَنِصْفِ سَاعَةَ وَفِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ
سَاعَةَ وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةِ سَاعَةَ وَنِصْفِ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتَّ
عَشْرَةِ سَاعَةَ وَهُنَّا كُلُّ بَنْقَطَعِ الْمُعْرَافِ فَقَوْتُ هَذِهِ الْأَقْلِيمَ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لِيْلَاهَا
وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ أَفْلِيمٍ يَتَزَابِدُ مِنْ أَوْلَهُ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي
نَاحِيَةِ الشَّمَاءِ مُوزَعَةٌ عَلَى أَجْزَاءِهِ هَذَا الْبَعْدُ. وَأَمَّا عَرْضُ الْبَلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ وَهُوَ
عِبَارَةٌ عَنْ بُعدِ مَا بَيْنَ سَمَتْ رَأْسِ الْبَلْدَةِ وَدَائِرَةِ مُعْدَلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمَتْ رَأْسِ خَطِّ
الْأَسْتِوَاءِ وَيَمْلِئُهُ سِواهُ يَنْقَصُ الْقُطبُ الْجَنُوبيُّ عَنْ أُفْقِ ذَلِكَ الْبَلْدَةِ وَيَرْتَفَعُ الْقُطبُ
الشَّمَائِيُّ عَنْهُ وَهُوَ تَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَّةٌ تُسْعَى عَرْضَ الْبَلْدَةِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ.
وَالْمُتَسَكِّلُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغُورِافِيَّا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ السَّبْعَةِ فِي طُولِهِ
مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرُقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَّةٍ وَيَذْكُرُونَ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ
جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبَلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِيلَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَنَحْنُ
آتَاهُنَّا نُوْجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَهَى كُوْنَهُ مَشَاهِيرَ الْبَلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْجِيلَالِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا
وَنَحْدَدِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نُزُهَةِ الْمُشَتَّاقِ الَّذِي أَلْقَاهُ الْعَلَوِيُّ الْأَدْرِيَّيُّ الْحَمْوَدِيُّ
لِعِلَّكَ صِقْلَيَّةً مِنَ الْأَفْرَسِيجِ وَهُوَ زَحَّارُ بْنُ زَحَّارٍ عِنْدَ مَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلَيَّةٍ بَعْدَ
خُرُوجِ صِقْلَيَّةٍ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةِ وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِكِتَابٍ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ
وَجَمِيعَ لَهُ كُتُبًا جَمِيعًا لِلْمَسْعُودِيِّ وَأَبْنَتْ خَرَادَذِيَّهُ وَالْحَوْقَلِيَّ وَالْقَدْرِيَّ وَأَبْنَ إِسْتَحَاقَ
الْمُنْعَمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ وَبَدَا مِنْهَا بِالْأَفْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِعِنْدِهِ وَفَضْلِهِ

الْأَفْلِيمُ الْأَوَّلُ * وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيَّهُ أَجْزَاءُ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مِنْهَا بَدَا بَطْلِيمُوسُ
بَاخْذِ أَطْوَالِ الْبَلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْأَفْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَغْرِيِّ التَّحْيِيطِ جُزُورُ
مُتَسَكِّلَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا تَلَاثَةٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ مَفَاهِنَ مِنْ
الْأَفْرَسِيجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوْاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَفَاتَلُومُ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَوا وَبَاعُوا بَعْضَ
أَمْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَصَارُوا إِلَى خَدْمَةِ الْسُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا الْلِسَانَ
الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِيرِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَحْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزِّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ

الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْزِيهِمْ وَعِبَشَهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَا شَيْتُهُمُ الْمَعَزُ وَقِتَالَهُمْ بِالْجَهَارِ قَرَوْنَاهَا
 إِلَى خَلْفِهِ وَعِبَادَتِهِمُ السُّجُودُ لِلشَّسْنِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تُلْغِهِمْ دَعْوَةُ
 وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرُ إِلَّا بِالْمُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لَأَنَّ سَفَرَ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ
 إِنَّمَا هُوَ بِالرِّبَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِهِمْ إِلَى أَيْنَ يُوصَلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَسْنَاقَةِ مِنَ
 الْبَلَادِ الَّتِي فِي هَمَرَ ذَلِكَ الْمَهَبُ وَإِذَا أَخْتَلَفَ الْمَهَبُ وَعِلْمُ حَيْثُ يُوصَلُ عَلَى الْأَسْنَاقَةِ
 حُوذِيَّ بِهِ الْقَلْعُ مَحَاذَاهُ يَحْمِلُ السَّفِينَةَ إِلَيْهَا عَلَى قَوَافِنِهِ فِي ذَلِكَ نَحْصَلُ عِنْدَ النَّوَاتِيَّةِ
 وَالْمَلَاحِينَ الَّذِينَ مُرْسَاهُمْ رُؤْسَاهُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبَلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الْأَرْوَاهِيَّةِ
 وَفِي عُدُوتِهِ مَكْتُوبَةً كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلٍ مَا فِي عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا
 فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى قَرَبِهَا وَمَهَابِ الْرِّيَاحِ وَهُمْ أَنَّهَا عَلَى أَخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ
 الْعَصِينَةِ وَيَسْعُونَهَا الْكَبِيْنَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي اسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ
 الْمُجِيطِ فَلَذِكَ لَا تَلْجُ فِيهِ السُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ
 إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَتَعَقَّدُ فِي جَوَهُهَا هَذَا الْبَحْرُ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْغِرَةِ الْمُسَانِعَةِ
 لِلْسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لَيْعِدُهَا لَا تُنْدِرُهَا أَضْوَاهُ السُّفُنِ الْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ
 فَجَلَّلَهَا فَلَذِكَ عَسْرُ الْأَهْتِداءِ إِلَيْهَا وَضَمَّبَ الْأَزْقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزُءُ الْأَوَّلُ مِنْ
 هَذَا الْأَقْلِيمِ فَقِيهِ مَصْبُتُ النِّيلِ الْأَكْيَ منْ مَبْداً وَعِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَعَى
 نِيلَ السُّودَانِ وَيَنْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُجِيطِ فَيَصْبُتُ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولَئِكَ وَعَلَى هَذَا النِّيلِ
 مَدِينَةُ سَلَّا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَلْكَةِ مَلِكٍ مَالِيِّ مِنْ أَمْمِ السُّودَانِ وَإِلَى
 بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تِجَارُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا يَنْتَ شَهَادَتِهِمْ بِلَادُ الْمِعْتُونَةِ وَسَائِرِ
 طَوَافِ الْمُلْكَيْنِ وَمَفَاوِزُ بَيْعَوْنُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِهِ هَذَا النِّيلُ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ
 لِعَلَمٌ وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتُوْنَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالْتَّكْرُورِ يُغَيِّرُونَ
 عَلَيْهِمْ وَيَسْبِونَهُمْ وَيَسْعُونَهُمْ لِلتِّجَارِ فَيَجْلِيْنَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكَلْمِهِمْ عَامَةُ رَقِيقِهِمْ وَلَيْسَ
 وَرَاهُمْ فِي الْجَنُوبِ عَمْرَانٌ يُعْتَدُ إِلَّا أَنَّا يُشَيِّعُ أَفْرَبٌ إِلَى الْجَيْوَانِ الْعُجُمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ
 الْقِيَافِيَّ وَالْكَهْوَفَ وَبِأَكْلُونَ الْعِشَبَ وَالْحَبْوَبَ غَيْرَ مَهِيَّةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
 وَلَيْسُوا فِي عَدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَا كِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا يَنْتَ قُصُورُ صَهْرَاءِ الْمَغْرِبِ مُثِلُ
 تَوَاتِ وَتَكْدِرَارِ بَنَ وَزَكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيهَا يُقَالُ مَلِكُ وَدَوْلَةُ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيَّينَ

يُعرَفُونَ بِيَنِي صَالِحٌ وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ زَخَّارِ إِنَّهُ صَالِحٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ
 الْحَسَنِ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وَلِدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةً لِسُلْطَانِ مَالِي وَفِي شَرْقِهِ هَذَا الْبَلْدُ فِي الْجُزْءِ الْثَالِثِ مِنَ الْأَقْلِيمِ بَلَدُ
 كُوكُو عَلَى نَهْرٍ يَسْعُ مِنْ بَعْضِ الْجَيَالِ هَنَالِكَ وَيَمْرُ مُغْرِبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الْثَانِي
 وَكَانَ مَلِكٌ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَ فِي تَمَلُّكِهِ
 وَخَرَبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذْكُرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مَحَلِّهَا
 مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ وَنِي جَنُوبِيِّ بَلَدِ كُوكُو بِلَادٍ كَاتَمٌ مِنْ أُمَّةِ السُّودَانَ وَبَعْدُهُمْ وَنَفَارَةُ
 عَلَى ضِفَافِ النَّيلِ مِنْ شَاهَالِيَّةٍ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادِ وَنَفَارَةِ وَكَاتَمٌ بِلَادُ زَغَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَصَلِّهَ
 يَأْرضُ التَّوْبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّبَاعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِيهِ يَمْرُ نِيلُ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدَأِهِ
 عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الْرَّوْمَيِّ فِي الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ هَذَا النَّيلُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ
 الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ يَسْتَعْدِدُ عَشْرَةَ دَرَجَاتٍ وَأَخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِهِ هَذِهِ الْأَفْظَةُ فَضَطَطَهَا
 بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْيِمِّ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشَدَّةِ يَبَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْءِهِ وَفِي
 كِتَابِ الْمُشْرِكِ لِيَاقُوتَ بِضمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْيِمِّ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْمِنْدِ
 وَكَذَا ضَبَطَهُ أَبْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عِيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بَحْرَيْهِ
 وَيَنْهُمَا سِتَّةُ أَمْبَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا
 فِي بَطِيجَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبَحْرَيْهِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقُسُ مَا وُهِمَ
 بِقَسْمَيْنِ فَيَمْرُ الغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانَ مُغْرِبًا حَتَّى يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْجِيَطِ وَيَخْرُجُ
 الْشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْجَبَشَةِ وَالْتَّوْبَةِ وَفِيهَا يَنْهُمَا وَيَنْقُسُ فِي أَعْلَى
 أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةُ مِنْ جَدَالِهِ فِي الْبَحْرِ الْرَّوْمَيِّ عِنْدَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ
 وَدِمَياطَ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بَحْرَيْهِ مُلْحَةً قَبْلَ أَنْ يَتَصلَّ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِهِ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 الْأَوَّلُ وَعَلَى هَذَا النَّيلِ بِلَادُ التَّوْبَةِ وَالْجَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَاحَاتِ إِلَى أُسْوَانَ وَحَاضِرَةَ
 بِلَادِ الْتَّوْبَةِ مَدِينَةَ دَنْقَلَةَ وَهِيَ فِي غَربِهِ هَذَا النَّيلُ وَبَعْدَهَا عَلَوَةُ وَبِلَاقُ وَبَعْدَهَا جَبَلُ
 الْجَنَادِيلِ عَلَى سِيَّئَةِ مَرَاحِلِهِ مِنْ بِلَاقٍ فِي الشَّمَالِ وَهُوَ جَبَلٌ عَالٌ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُخْفِضٌ
 مِنْ جِهَةِ التَّوْبَةِ فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيلُ وَيَصُبُّ فِي هَوَى بَعِيدٍ صَبَّا هَائِلًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ
 تَسْلُكَهُ الْمَرَأِيْبُ بَلْ يَحُولُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَأِيْبِ السُّودَانِ فَيَعْمَلُ عَلَى الظَّهَرِ إِلَى بَلَدِ

أُسوانَ قاعدةَ الصعيدِ إِلَى فوْقِ الجِنَادِلِ وَبَيْنَ الجِنَادِلِ وَأُسوانَ أَثْنَا عَشَرَةَ مَرْجَلَةً
وَالْأَوَّلَاتُ فِي غَرْبِهَا عَدْوَةُ النِّيلِ وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَجِهَا آثارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسَطِ
هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادِ الْحَبْشَةِ عَلَى وَادِ يَانِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ
ذَاهِيًا إِلَى أَرْضِ النَّوْبَةِ فَيَصْبُرُ هُنَاكَ فِي النِّيلِ الْمَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ
النَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيلِ الْقَمَرِ وَبَطَلِيسُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجِنْزِرِ اِفِاً وَذَكَرَ أَنَّهُ
يُنَسَّ مِنْ هَذَا النِّيلِ . وَإِلَى وَسَطِ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَتَّهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي
يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الْصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَةَ هَذَا الْأَقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَقِي فِيهِ
عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يَقَالُ تَشَعِي إِلَى الْأَفْ جَزِيرَةٍ
أَوْ فِيَّا عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرْفٌ مِنْ
بِلَادِ الْصِّينِ فِي جِهَةِ الْشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِيهَا
بَيْنَ الْبَحْرِيْنِ الْمَابِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلُزُمَ وَبَحْرُ
فَارِسَ وَفِيهَا يَنْهَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشَتمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الْشِّغْرِ فِي شَرْقِهَا
عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْجَمَارِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهَا كَمَا ذَكَرَهُ فِي
الْأَقْلِيمِ الْأَثَانِيِّ وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِهِ فَبَلَدُ زَالِعَ مِنْ
اِطْرَافِ بِلَادِ الْحَبْشَةِ وَمَجَالَاتُ الْبَعْجَةِ^(١) فِي شَمَالِيِّ الْحَبْشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَاقِ فِي أَعْلَى
الصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقُلُزُمِ الْمَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ
فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلْبِيْجُ بَابِ الْمَنْدَبِ . يَضِيقُ الْبَحْرُ الْمَابِطُ هُنَاكَ بِعَرَاجِهِ جَبَلُ الْمَنْدَبِ
الْمَائِلُ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُمْتَدًا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنْ أَجْنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي
طُولِ أَثَنِي عشرَ مِيلًا فَيَضِيقُ الْبَحْرُ بِسَبِبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ
أَوْ تَحْوِهَا وَيُسْعَى بَابِ الْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُورٌ مَرَّأَكِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السَّوَيْنِ قَرِيبًا
مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقَبَالَةُ مِنْ غَرْبِهِ نَجَالَاتُ الْبَعْجَةِ
مِنْ اِمَّ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ تَهَائِمُ الْيَمَنُ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ
بِلَادُ عَلَيْهِ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِهِ قُرُى
بَرَّ بَرَّ يَتَلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَاكَ مِنْ

(١) وَيَقَالُ أَبْضَا أَبْجَاهَا وَمَا زَالَعُ فِي زَالِعِ رِبْلَعِ ١٠

جهة شرقها بلادُ الرِّيحِ ثمَّ بلادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوْبِيِّ بِلَادُ الْوَقْوَاقِ مُتَصَلَّةً إِلَى آخرِ الْجَزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ . وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَعْظَمِهَا جَزِيرَةُ مَرَنْدِيْبَ مَدْوَرَةُ الشَّكْلِ . وَبِهَا الْجَبَلُ الْمَسْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ جَزِيرَةُ مُسْتَطِيلَةٍ تَبَدَّأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذَهَّبُ إِلَى الْشَّرْقِ مُتَحَوِّلَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرَبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعْلَى الْصِّينِ وَيَحْتَفِظُ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوْبِهَا جَزَائِرُ الْوَقْوَاقِ وَمِنْ شَرْقِهَا جَزَائِرُ الْسِّيَلَانِ إِلَى جَزَائِرَ أُخْرَى فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةُ الْعَدْدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ الْطَّيْبِ وَالْأَفَوِيَّهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الْذَّهَبِ وَالْمُرْدِ وَعَالَمَةُ أَهْلُهَا عَلَى دِينِ الْجُنُوْبِيَّةِ وَفِيهِمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَبِهِذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَمْمَارِ إِنِّي عَجَابٌ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجِنْوَافِيَا وَعَلَى الْأَضْفَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجَزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْبَعْنِ كُلُّهَا فَنِّي جَهَةُ بَحْرِ الْقُلُزُومِ بِلَدُ زَيْدَ وَالْمَعْجَمِ وَتَهَامَةُ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بِلَدُ صَعْدَةَ مَقْرَأُ الْإِمَامَةِ الْزَّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوْبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الْشَّرْقِيِّ وَفِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ وَفِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ وَبَعْدَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَخْفَافِ وَظَفَارٍ وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمُوتَ ثُمَّ بِلَادُ الْشِّخْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوْبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ . وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجَزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْوُسْطَى وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجَزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعْلَى بِلَادِ الْصِّينِ وَمِنْ مُدُنِهِ الْشَّهِيرَةِ خَانِكُو وَقِبَالَتُهَا مِنْ جَهَةِ الْشَّرْقِ جَزَائِرُ الْسِّيَلَانِ وَقَدْ أَقْدَمَ ذَكَرُهَا وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ مُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُ التَّوْفِيقِ بِعَيْهِ وَفَضْلِهِ

الْإِقْلِيمُ الْثَّانِي * وَهُوَ مُتَصَلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جَهَةِ الشَّمَالِ وَقِبَالَةِ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذَكَرُهَا وَفِي الْجَزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قُنُورِيَّةٍ وَبَعْدَهَا فِي جَهَةِ الْشَّرْقِ أَعْلَى أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ بِجَاهَاتِ رِغَاؤَةَ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَفْرَاهُ نِسْرَرَ مُتَصَلَّةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْشَّرْقِ ذَكَرُ مَفَاوِزَ تَسْلُكَ فِيهَا التَّجَارُ مَا بَيْتَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا بِجَاهَاتِ الْمُلْكَمِينَ مِنْ صِنَاعَةِ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلِمُثُونَةَ وَمَسْرَانَةَ وَلِمَطَةَ وَوَرِيْكَةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقاً أَرْضُ فِرَانَ ثُمَّ مَجَالَاتُ أَزْكَارَ مِنْ قِبَائِلِ

المُبَرِّزُ ذَاهِبَةً إِلَى أَعْالَى الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي الْشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ
 وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَاءِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَذَانَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقاً أَرْضُ سِنْغَرِيَّةُ وَتُسَمَّى الْوَاحَاتُ
 الْأَدَاخِلَةُ وَفِي الْجُزْءِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاحَوِيَّينَ ثُمَّ يَعْتَرَضُ فِي وَسْطِهَا
 الْجُزْءُ بِلَادُ الصَّعِيدِ حَافَاتُ النَّيلِ الْمَاهِبِ مِنْ مَبْدَاهِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِي
 الْبَحْرِ فَيَمْرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْمَاهِرَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَبَلُ
 الْمُقْطَمَ مِنْ شَرْقِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلْدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَصَلُّ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى
 أَسْيَوطَ وَقُوسِهِ ثُمَّ إِلَى صُولِّ وَيَفْتَرِقُ النَّيلُ هُنَالِكَ عَلَى شَعْبَيْنِ يَتَسْعَى الْأَلَيْنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا
 الْجُزْءِ عَنْدَ الْأَذْهُونِ وَالْأَيْسَرِ عِنْدَ دِلَاصِ وَفِيهَا يَنْهُمَا أَعْالَى دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الْشَّرْقِ مِنْ
 جَبَلِ الْمُقْطَمِ صَحَارَى عِيدَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَشْعَى إِلَى سَاحِرِ الْشَّوَّبِينِ
 وَهُوَ بَحْرُ الْقُلُومُ الْمَاهِيَّ مِنْ الْبَحْرِ الْمَهْنَدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَاءِ وَفِي عُدُوتِهِ
 الْشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْجَهَازِ مِنْ جَبَلِ بَلَمْلَمَ إِلَى بَلَادِ يَثْرَبَ فِي وَسْطِ الْجَهَازِ
 مَكَّةُ شَرْفَهَا اللَّهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةُ لِقَابِلُ بَلَدِ عِيدَابَ فِي الْعُدُوَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِهِ بِلَادُ تَجْدِي أَعْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَبَالَّهُ وَجْرَشُ إِلَى
 عَكَاظَ مِنَ الشَّمَاءِ وَتَحْتَ تَجْدِي مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْجَهَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الْشَّرْقِ
 بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الْشَّرْقِ أَرْضُ سَبَا وَمَارِبِ
 ثُمَّ أَرْضُ الْشَّخْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْمَاهِيَّ مِنْ الْبَحْرِ الْمَهْنَدِيِّ
 إِلَى الشَّمَاءِ كَمَارَ وَبَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِأَنْجِرافِ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمْرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِهِ
 وَجَوْفِهِ قِطْعَةً مُثُلَّةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْمَكَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ الْشَّخْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ
 بِلَادُ عُمَانَ . ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَبَهْرُ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ
 غَرْبِهِ قِطْعَةً مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَصَلُّ بِالْقِطْعَةِ الْآخِرَى فِي السَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْمَهْنَدِيِّ جَانِبَهُ
 الْأَعْلَى كُلُّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلَادُ السِّنْدِ إِلَى بِلَادُ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانِ وَهِيَ مِنْ
 السِّنْدِ أَيْنَمَا فَيَصِلُّ السِّنْدُ كُلُّهُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحْوِلُ الْمَفَاؤُزُ يَيْنَهُ
 وَبَيْنَ أَرْضِ الْمَهْنَدِ وَيَعْرُثُ فِيهِ نَهْرٌ الْأَكَيِّ مِنْ نَاحِيَّةِ بِلَادِ الْمَهْنَدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْمَهْنَدِيِّ
 فِي الْجَنُوبِ وَأَوْلُ بِلَادِ الْمَهْنَدِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمَهْنَدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ بَلَهْرَا وَتَحْتَهَا
 فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقاً إِلَى الْبَحْرِ الْمَعْبُطِ بِلَادُ الْقَنْوَجِ مَا بَيْنَ

قَسْمِيَّ الدَّاخِلَةِ وَقَسْمِيَّ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْأَقْلِيمِ وَفِي الْجُزْءِ الْأَكْبَعِ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادِ الْمَنْدَى الْأَقْصَى وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْدَاهُ إِلَى الْعَاشِرِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قَطْعَةً مِنْ بِلَادِ الْصِّينِ فِيهَا مَدِينَةٌ شِيفُونَ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِلَادِ الْصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلُّهُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ

الْأَقْلِيمُ الْثَالِثُ * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَاءِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى تَحْوِيَّ الْثَالِثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنٌ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الْشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْتَكِنُ هَذَا الْجَبَلُ مِنْ الْبَرِّ اُمَّ لَا يُخْصِبُهُمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسَبَمَا يَا تَيِّ ذِكْرُهُ وَفِي الْقَطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْأَقْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطٌ مَاسَّةٌ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقاً بِلَادِ سُوسِ وَنَوْلٍ وَعَلَى سَمَّتِهَا شَرْقاً بِلَادِ دَرَنَةِ ثُمَّ بِلَادِ سِجَلْمَاسَةَ ثُمَّ قَطْعَةً مِنْ صَخْرَاءِ نِسْتَرِ الْمَفَازَةِ الَّتِي ذَكَرَتَاهَا فِي الْأَقْلِيمِ الثَّانِي وَهَذَا الْجَبَلُ مُطْلِّعٌ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلُّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ وَهُوَ قَلِيلٌ الْثَنَاءُ بِالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِيَّ وَادِي مَلَوِيَّةٍ فَتَسْكُنُ شَبَابُهُ وَمَسَاكِهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنْهُ اُمَّ الْمَصَادِيدَ ثُمَّ هَنْتَانَةً ثُمَّ تِينَمَلَكَ ثُمَّ كَدْمِيُّهُ ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَادِيدَ فِيهِ ثُمَّ قَبَائِلُ صِنَاهَا كَهَّ وَهُمْ صِنَاهَاجَةُ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَانَةِ وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِهِ جَبَلٌ أَوْ رَاسٌ وَهُوَ جَبَلٌ كُتَّامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ اُمَّهُ أُخْرَى مِنْ الْبَرَابِرَةِ نَذَكُرُهُمْ فِي أَمَا كِتَبِهِمْ ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَنَ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِهِ مُطْلِعٌ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَهُوَ فِي جَوْفِهِ فَيَنْتَهِيَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجُنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادِ مَرَاكِشَ وَأَغْمَاتَ وَنَادِلَا وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطٌ أَسْفَى وَمَدِينَةٌ سَلَا وَفِي الْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَاكِشِ بِلَادُ فَاسِيِّ وَمِكْنَاسَةُ وَتَازَا وَقَصْرُ كُتَّامَةٍ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تَسْعَ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عُرْفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلَدَانُ أَصِيلًا وَالْعَرَائِشِ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقاً بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتْهَا تَلْمُسَانُ وَفِي سَواحلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرَّوْنِيِّ بَلْدُ هَنَيْنَ وَوَهْرَانُ وَالْبَرَائِبُ لَأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرَّوْنِيُّ يَخْرُجُ مِنْ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلْبَعٍ طَبَقَهُ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَخْلِيجِ الْمُتَضَابِقِ عَيْرَ بَعِيدٍ أَنْفَسَعَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْأَقْلِيمِ الْثَالِثِ وَالْخَامِسِ

فلِهَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ الثَّالِثُ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِنْ يَتَعَصَّلُ بِلَادَ
 الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِهَا بِلَادُ بِيْجَابَةَ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرَ
 الْجَزَءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرْجَهِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَمُرْتَقِهَا إِلَى جَنُوبِ
 الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بَلَدُ أَشِيرَ ثُمَّ بَلَدُ الْمَسِيلَةَ ثُمَّ الْأَزَابُ وَقَاعِدَهُ بِسْكَرَةٌ تَحْتَ جَبَلٍ أُورَاسَ
 الْمُتَصَلِّ بِدَرَنَ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجَزَءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجَزَءُ الْكَافِيُّ مِنْ
 هَذَا الْأَقْلِيمِ عَلَى هَيْثَةِ الْجَزَءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنَ عَلَى مَحْوِ الْثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ
 مِنْ غَربِ إِلَى شَرْقٍ فِي قِسْمَةٍ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَغْمُرُ الْبَحْرُ الْأَرْوَمِيُّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ فَإِلَى قِطْعَةِ
 الْجَنُوبِيَّةِ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ غَرَبِهَا كُلُّهُ مَفَاؤِزٌ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدُ عَذَامِسَ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً
 أَرْضُ وَدَانَ الَّتِي بَقَيَّتْهَا فِي الْأَقْلِيمِ الْكَافِيِّ كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ مَا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ فِي الْغَربِ مِنْهَا جَبَلُ أُورَاسَ وَبَسَّةُ وَالْأَوْبَسُ وَعَلَى سَاحِلِ
 الْبَحْرِ بَلَدُ بُونَةَ ثُمَّ فِي سَمْتِهِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقاً بِلَادُ أَفْرِيْقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ
 قُوْنَسَ ثُمَّ السُّوَسَةَ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةَ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنَ بِلَادُ الْجَبَرِ بِدِ
 تَوْزُرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْزاَوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّواحِلِ مَدِينَةُ الْقِيرَوَانِ وَجَبَلُ وَسَدَاتُ وَسَيْطَلَةُ
 وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلُّهَا شَرْقاً بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ وَبِإِرَازِهَا فِي الْجَنُوبِ
 جَبَلُ دُمَرُ وَنَقْرَةُ مِنْ قَبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَصَلَّةٌ بِجَبَلِ دَرَنِ وَفِي مُقَابَلَةِ عَذَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذَكَرُهَا
 فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجَزَءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ أَبْنُ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ
 وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَانَ وَفِي الْجَزَءِ الْكَافِيِّ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ يَمْرُأُ بِضَامَ
 فِيهِ جَبَلُ دَرَنَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ
 فِي الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ وَيُسَمِّي هُنَالِكَ طَرْفَ أَوْثَانَ وَالْبَحْرُ الْأَرْوَمِيُّ مِنْ شَمَالِهِ يَغْمُرُ طَائِفَةَ
 مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَاقِّ مَا يَنْهَا وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنَ فَالَّذِي وَرَاهُ الْجَبَلُ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْغَربِ
 مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَانَ وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زَوِيلَةُ أَبْنُ خَطَابِ ثُمَّ رِمَالُ وَقِفارُهُ إِلَى
 آخِرِ الْجَزَءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَربِ مِنْهُ بَلَدُ صَرَّتُ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ
 خَلَالُهُ وَقِفارُهُ تَجْوُلُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَّةُ ثُمَّ بِرْقَةُ عِنْدَ مَنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى
 الْبَحْرِ هُنَالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتُ هَبَبُ وَرَوَاحَةُ إِلَى آخِرِ الْجَزَءِ
 وَفِي الْجَزَءِ الْأَرْبَعَ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيَّةِ صَحَارَى بَرْفِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا

بلاده هي بـ رواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفة الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء فقاراً يقول فيها العرب وعلى سيفها شرقاً بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعيبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الأقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سيفه شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيره على الشعب الثاني الذي يمر بدلacz من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفرق هذا الشعب أقرانه ثانية من تحت مصر على شعيبين آخرين من شطوف ورنفي وينقسم الآلين بينهما من قرمطي يشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربى من هذا الشعب بلاد الإسكندرية وعلى مصب الوسط بلاد رشيد وعلى مصب الشرقي بلاد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها مشهورة عمراناً وفلقاً وفي الجزء الخامس من هذا الأقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لأنه في مصر مبتدىء من البحر الهندى إلى الشمال ينبع إلى جهة الغرب ف تكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربى منه إلى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوزاء في آخرها ومن هناك ينبع طرابلس إلى الجنوب في أرض التجار كما مر في الأقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربها عليهما الفرماء والعريش وقارب طرفها بلاد القلزم فيضاً ما بينهما من ذلك وبقى شبه الكتاب مفضياً إلى أرض الشام وفي غربه هذا الكتاب فحص النبي أرض جزاده لا تنتهي كانت بخلافاً لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الأقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتصاويف يجري السويس بلاد العريش وهو آخر الديار المصرية وعندقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تحيط هذه القطعة في انعطافها من هناك إلى الأقليم الرابع عند مارابلس وغزة وهناك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه

القِطْعَةُ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي شَرْقِهِ غَزَّةُ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبَاشْعَرِ عَنْهَا إِلَى
 الشَّمَالِ بَلْدُ قِيسَارِيَّةِ ثُمَّ كَذِلِكَ بَلْدُ عَكَاهُ ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صِيدَاءُ ثُمَّ بَنْعَطْفُ الْجَزْرُ إِلَى الشَّمَالِ
 فِي الْأَقْلَمِ الْأَرْبَاعِ وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادُ الْأَسَاحِلِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجَزْءِ جَبَلُ
 عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَبْلَهَ مِنْ بَحْرِ الْقَلْزُومِ وَيَنْهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرٌ فَإِلَى الشَّرْقِ
 إِلَى أَنْ يُجاوِزَ هَذَا الْجَزْءَ وَيُسَمِّي جَبَلَ الْكَامِ وَكَاهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ
 فَفِي طَرْفِيِّ عِنْدَ أَبْلَهَ الْعِقَبَةُ الَّتِي يَمْرُّ عَلَيْهَا الْجَهَاجُ مِنْ لِمَصْرَ إِلَى مَكَةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي
 قَاهِيَّةِ الشَّمَالِ مَدْفَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَّاوةِ يَتَصَلُّ مِنْ عِنْدِ
 جَبَلِ الْكَامِ الْعَدُوكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعِقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ بَنْعَطْفُ قَلِيلًا وَفِي
 شَرْقِهِ هَنَالِكَ بَلْدُ الْجَرْجَرِ وَدِيَارُ ثَمُودَ وَتِيَّاهَ وَدُوْمَةُ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ الْجَهَاجَزِ وَفَوْقَهَا
 جَبَلُ دَضْوَى وَحُصُونُ خَيْرَ فِي جَهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيهَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَّاوةِ وَبَحْرِ الْقَلْزُومِ
 مُنْحَرًا تُوْكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَّاوةِ مَدِينَةُ الْقَدْسِ عِنْدَ جَبَلِ الْكَامِ ثُمَّ الْأَزْدُونُ ثُمَّ
 طَبَرِيَّةُ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الْغَوْرِ إِلَى أَذْرَاعَاتِ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً دُوْمَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا
 الْجَزْءِ وَفِي اَخِرِ الْجَهَاجَزِ وَعِنْدَ بَنْعَطْفِ جَبَلِ الْكَامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجَزْءِ
 مَدِينَةُ دِمْشَقُ مُقَابِلَةُ صَيْداً وَبَيْرُوتَ مِنْ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلِ الْكَامِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمْشَقِ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكَ ثُمَّ مَدِينَةُ حَمْصَ فِي الْجَهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ
 الْجَزْءِ عِنْدَ بَنْقَطَعِ جَبَلِ الْكَامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكَ وَحَمْصَ بَلْدُ تَدْمُرُ وَمَجَالَاتُ
 الْبَادِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ وَفِي الْجَزْءِ الْسَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَغْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدِ
 وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَرْجِ وَالصَّهَانِ إِلَى الْبَعْرَينِ وَبَهْرَ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسَافِلِ هَذَا
 هَذَا الْجَزْءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلْدُ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَابِيْنُ الْفُرُّوْنِ . وَفِيهَا بَعْدَهَا شَرْقاً
 مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجَزْءِ يَتَشَعَّبُ بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَادَانَ وَالْأَبْلَهِ مِنْ أَسَافِلِ الْجَزْءِ
 مِنْ شَمَالِهِ وَيَصْبُ فِيهِ عِنْدَ عَبَادَانَ نَهْرُ دِجَاهَ بَعْدَ أَنْ يَنْقِسِمَ بِجَدَائِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِيفِ
 بِهِ جَدَائِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرُّوْنِ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَادَانَ وَتَصْبُ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ
 الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَعْرِ مُنْسَعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَانِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِهِ وَضِيقَةٌ عِنْدَ مُنْهَا
 مُضَانِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عَدْوَتِهَا الْفَرِّيَّةُ مِنْهُ أَسَافِلُ الْبَعْرَينِ وَبَهْرُ وَالْأَحْسَاءِ وَفِي
 غَربِهَا أَخْطَبُ وَالصَّهَانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى عَدْوَتِهَا الشَّرْقِيَّةُ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أَعْلَامَهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفِ قَدِ امْتَدَ مِنْ هَذَا الْبَعْرِ مُشَرِّفًا
وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقَفْصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحْتَ هِرْمِزِ بِلَادُ فَارِسَ
مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَابَجَزَ وَنَسَا وَإِصْطَغَرَ وَالشَّاهِجَانَ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتْهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادُ
فَارِسَ إِلَى الشَّمَاءِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَعْرِ بِلَادُ خُودَسْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَازُ وَتَسْتُرُ وَصَدَى وَسَابُورُ
وَالسُّوسُ وَرَامَهِرْمِزُ وَغَيْرُهَا وَأَرْجَانُ وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُودَسْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ
وَمَصِلَّةُ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاهَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَى
الْرُّسُومَ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالُ الْقَفْصِ وَيَلِيهَا مِنْ
الْجَنُوبِ وَالشَّمَاءِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمَكْرَانَ وَمِنْ مُدُنِهَا الْرُّودَنُ وَالشِّيرَجَانُ وَجِيرَفتُ وَبَزْدَشِيرُ
وَالْهَرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى الْكَنَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةِ
أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَاهِلِهِ ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ
فَارِسَ أَرْضُ سِجِّسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهَسْتَانَ فِي الشَّمَاءِ غَرْبًا وَيَتَوَسَّطُ
بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِّسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ الْمَفَاؤُزُ الْعَظِيمِ
الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكُ لِصُوعُبَتِهَا وَمِنْ مُدُنِ سِجِّسْتَانِ بَسْتُ وَالْطَّاقُ وَأَمَا كُوهَسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ
خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَفُوهَسْتَانُ آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الْثَّاَمِنِ مِنْ غَرْبِهِ
وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الْجَلْجَلِ مِنْ أَمْ الْتُرْكِ مَتَّصِلَةُ بِأَرْضِ سِجِّسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابِلِ
الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا. وَفِي الشَّمَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْغَورِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتْهَا غَرَّةُ
فُرْضَةُ الْهِنْدِ وَفِي آخِرِ الْغَورِ مِنَ الشَّمَاءِ بِلَادُ أَسْتَراَبَادَ ثُمَّ فِي الشَّمَاءِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاتَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَائِينُ وَفَاسَانُ وَبُوشْنجُ وَمَرْؤُ الْرَّفِيدُ وَالْطَّالِقَانُ
وَأَلْجُوزَجَانُ وَتَشَعِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ
مِنْ غَرَبِهِ مَدِينَةُ بَغْ وَفِي شَرْقِهِ مَدِينَةُ تُرْمِذُ وَمَدِينَةُ بَغْ كَانَتْ كُوُنِيَّ مُلْكَةُ الْتُرْكِ
وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارٍ فِي حُدُودِ بَدْخَشَانَ مَمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ
مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مُغْرِبِهِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ
وَيَسْعِي هُنَالِكَ نَهْرُ خَرَنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَاءِ حَتَّى يَمْرُ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَهْلِهِ
إِلَى أَنْ يَصْبُبَ فِي بَحْرِهِ خُوارَزمَ فِي الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ كَانَذْ كُرُهُ وَيُمْدُدُ عِنْدَ أَنْعَطَافِهِ
فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَاءِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَلَلِ وَالْوَخشِ

مِنْ شَرْقِهِ وَأَنْهَارِهِ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتْمِ مِنْ شَرْقِهِ أَبْصَارًا وَجَزَوَيِّ الْجَبَلِ حَتَّى يَسْعَ
وَيَغْطِمُ بِمَا لَا كَنَاهُ لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْحَسَنَةُ الْمُمِدَّةُ لَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ
الْبَتْمِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ فَيَسْرُ مُغَرَّبًا بِالْفَحْرَافِ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى
أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَزْءِ الْتَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجَزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِ جَبَلٍ عَظِيمٍ
يَمْرُ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجَزْءِ مُشَرِّقًا بِالْفَحْرَافِ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى
الْجَزْءِ الْتَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجَزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ الْبَتْمِ إِلَى الْقَطْعَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجَزْءِ مَوْجِهًـ بَيْنَ التَّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخَنْقَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَالَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ
الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ جَمَلٌ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سُدًا وَبَنِي فِيهِ بَابَا كَسْدَانٌ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ
فَإِذَا خَرَجَ نَهْرٌ وَخَشَابٌ مِنْ بِلَادِ الْبَتْمِ وَأَعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَسْرُ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ
إِلَى أَنْ يَمْرُ فِي بِلَادِ الْوَخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرٍ جَيْهُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْغَةِ ثُمَّ يَمْرُ هَابِطًا
إِلَى التَّرْمِذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجَوْزَجَانِ وَفِي الْشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغَوْرِ فِيهَا يَسِنَةَا وَبَيْنَ
نهْرٍ جَيْهُونَ بِلَادِ النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي الْعُدُوَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنْ النَّهْرِ بِلَادِ الْخَنْقَلِ
وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادِ الْوَخْشِ وَيَعْدُهَا مِنْ جَهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتْمِ يَخْرُجُ مِنْ ظَرَفِ
خُرَاسَانَ غَرْبِيَّ نَهْرٍ جَيْهُونَ وَتَتَحَبَّ مُشَرِّفَةً إِلَى أَنْ يَتَصَلَّ طَرَفُهَا بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي
خَلْقَهُ بِلَادُ الْبَتْمِ وَيَمْرُ تَحْتَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ كَمَا قَلَّنَا فَيَتَصَلَّ عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى
وَيَمْرُ نَهْرٍ جَيْهُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالَيْـ وَأَنْهَارِ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرٌ بِلَادِ الْوَخْشِ يَصُبُّ
فِيهِ مِنَ الْشَّرْقِ تَحْتَ التَّرْمِذِ إِلَى جَهَةِ الشَّمَالِ وَنَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتْمِ مُبَدِّدًا وَعِنْدَ
الْجَوْزَجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيَّهُ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيَّهُ بِلَادُ آمَدَ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي
شَرْقِيَّ النَّهْرِ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ الصَّفِيدِ وَأَسْرُ وَشَنَةَ مِنْ بِلَادِ التَّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ
فِرْغَانَةَ أَبْصَارًا إِلَى آخرِ الْجَزْءِ شَرْقاً وَكُلُّ بِلَادِ التَّرْكِ قَعْدَهَا جِبَالُ الْبَتْمِ إِلَى شَمَاطِهَا وَفِي
الْجَزْءِ الْتَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ الْبَتْمِ إِلَى وَسْطِ الْجَزْءِ وَفِي جَنُوبِهِ بِلَادُ الْمِنْدِ وَفِي
شَرْقِهِـ بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخرِ الْجَزْءِ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجَزْءِ شَمَالًا عَنْ بِلَادِ الْبَتْمِ بِلَادُ
الْمُلْكُولِجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التَّرْكِ إِلَى آخرِ الْجَزْءِ شَرْقاً وَشَمَالًا وَيَتَصَلُّ بِهَا مِنْ غَرْبِهِـ أَرْضُ
فِرْغَانَةَ أَبْصَارًا إِلَى آخرِ الْجَزْءِ شَرْقاً وَمِنْ شَرْقِهِـ أَرْضُ التَّغْرِيْغُـرِ مِنْ التَّرْكِ إِلَى الْجَزْءِ شَرْقاً
وَشَمَالًا . وَفِي الْجَزْءِ الْعَاشرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ تَحِيمَـ بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ

بلادُ التَّغْرِيرُ ثُمَّ شَرْقًا عَنْهُمْ بِلَادُ خَرْبَيْرَ مِنَ التَّرْزِكِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي
 الشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ خَرْبَيْرَ بِلَادُ كُشْمَانَ مِنَ التَّرْزِكِ وَفِي الْتَّرْزِكِ الْمُجِيطِ جَزِيرَةُ
 الْيَاقُوتِ فِي وَسْطِ جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنْفَدَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسْلَكٌ وَالصَّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ مِنْ
 خَارِجِهِ صَعُوبَةٌ فِي الْغَايَةِ وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَّاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَعْتَالُ أَهْلُ
 تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِمَا يَنْهَا مُهَمُّهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْبَلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ النَّاسِعِ وَالْعَاشِرُ فِيهَا
 وَرَاءَهُ خُرَاسَانَ وَالْجِبَالُ كُلُّهَا نَجَالَاتٌ لِلتَّرْزِكِ أَمْ لَا تَعْصُى وَمُمْدُودٌ ذَوَاعِنُ رَحَالَةٌ أَهْلُ إِبْلٍ
 وَشَاهٌ وَبَقَرٌ وَخَيْلٌ لِلنَّاجِ وَأَرْلُوكُبٌ وَالْأَكْنَلُ وَطَوَافُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يَعْصِيهِمُ الْأَ
 خَالِقُهُمْ وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ كَمَا يَلِي بِلَادَ الْمَهْرِ نَهْرٍ يَمْهُونَ وَيَغْزُونَ الْكَنَارَ مِنْهُمُ الدَّائِنِينَ
 بِالْمُجْوِسِيَّةِ فَيَدِيغُونَ رَقِيقَهُمْ لِمَنْ يَكِيْهُمْ وَيَمْغُرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْمَهْرِ وَالْعَرَاقِ
 الْأَقْلِيمُ الْرَّابِعُ * يَتَصِلُّ بِالثَّالِثِ مِنْ جَهَةِ الشَّمَالِ . وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِهِ
 قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمُجِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوْلَهُ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي الْجُنُوبِ
 مَدِينَةٌ طَنْجَةٌ وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُجِيطِ إِلَى الْبَحْرِ الْأَرْوَيِّ فِي خَلْبِيجِ
 مَهَضَّا يَقِيقَ بِمِقْدَارِ آثَنِي عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفٍ وَالْجَزِيرَةِ الْخَفْرَاءِ شَمَالًا وَقَصْرِ الْمَجَازِ
 وَسَبَّتَةَ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً إِلَى أَنْ يَتَعْتَهِي إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 وَيَنْفَسُخُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيجهِ إِلَى أَنْ يَمْرُرَ الْأَزْبَعَةَ الْأَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ الْثَالِثُ وَالْخَامِسُ كَمَا سَنَدَ كُرُوهُ وَيُسَمِّي هَذَا الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيَّ أَيْضًا وَفِيهِ
 جَزَائِيرٌ كَثِيرَةٌ أَغْظَمُهُمَا فِي جَهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةٌ ثُمَّ مَایِزَقَةٌ ثُمَّ مِنْرَقَةٌ ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ صَقْلِيَّةٌ
 وَهِيَ أَغْظَمُهُمَا ثُمَّ بَلْوَنَسُ ثُمَّ أَفْرِيَطِيشُ ثُمَّ قَبْرُصُ كَمَا نَذَكَرُهَا كُلُّهَا فِي أَجْزَاءِهَا الَّتِي وَفَعَتْ
 فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْأَرْوَيِّ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الْثَالِثِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْثَالِثِ مِنَ
 الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلْبِيجُ الْبَنَادَقَةِ يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ
 مِنْ جَوْفِهِ وَيَمْرُرُ مُغْرَبًا إِلَى أَنْ يَتَعْتَهِي فِي الْجُزْءِ الْثَانِي مِنَ الْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي
 آخِرِ الْجُزْءِ الْرَّابِعِ شَرْقاً مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلْبِيجُ الْقُسْطَنْطِيَّةِ يَمْرُرُ فِي الشَّمَالِ
 مُشَفَّا يَقِيقًا فِي عَرَضِ رَمِيَّةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ الْأَقْلِيمِ ثُمَّ يَنْفَضِي إِلَى الْجُزْءِ الْرَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ
 السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى بَحْرِ نَيَطِيشَ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلُّهُ وَنِصْفِ
 السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَكَرُ ذَلِكَ فِي أَمَّا كِيدَهُ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ

الرُّوْبِيُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ فِي خَلْجٍ طَبْجَةَ وَيَنْسَخُ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْثَالِثِ يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ
 عَنِ الْخَلْبِيجِ قَطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةٌ طَبْجَةٌ عَلَى بَعْضِ الْبَحْرِينِ وَبَعْدَهَا
 مَدِينَةٌ سَبَتَةٌ عَلَى الْبَحْرِ الرُّوْبِيِّ ثُمَّ قَطَّاُونُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
 شَرْقاً وَيَخْرُجُ إِلَى الْثَالِثِ وَكُثُرُ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالَ الْخَلْبِيجِ مِنْهُ
 وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْفَرْزِيَّةُ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ وَالْبَحْرِ الرُّوْبِيِّ أَوْلَاهَا طَرِيفُ
 عِنْدَ بَعْضِ الْبَحْرِينِ وَفِي الْشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّوْبِيِّ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ
 مَالِقَةُ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ثُمَّ الْمَرِيْبَةُ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقْرُبَةِ مِنْهُ
 شَرِيشُ ثُمَّ لَبَلَةُ وَقِبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةُ فَادِسَ وَفِي الْشَّرْقِ عَنْ شَرِيشِ وَلَبَلَةِ إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ
 اسْتِبَحَةُ وَقُرْطَبَةُ وَمَدِيْلَةُ ثُمَّ غَرْنَاطَةُ وَجَيَانُ وَابْدَةُ ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسْطَةُ وَتَحْتَ هَذِهِ
 شَنْتَمِرَيَّةُ وَشَابُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ غَرْبًا وَفِي الْشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطَلِيوُسُ وَمَارِدَةُ وَيَابِرَةُ
 ثُمَّ غَافِقُ وَبَرْجَالَةُ ثُمَّ قَاعَةُ رِيَاحَ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ
 بَاكَاجَةَ وَفِي الْشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةُ عَلَى النَّهْرِ الْمَدُوكُورُ ثُمَّ قَنْطَرَةُ الْسَّيْفِ وَيُسَامِتُ
 أَشْبُونَةُ مِنْ جِهَةِ الْشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَا مِنْ الْمَغْرِبِ هَنَالِكَ وَيَذْهَبُ مَشَرِّقًا مَعَ
 أَخْرِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ فَيَتَّهَيُ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيهَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ
 طَلْبِيَّةُ فِي الْشَّرْقِ مِنْ فُورَنَةَ ثُمَّ طَلْبِيَّةُ ثُمَّ وَادِيِ الْجِجَارَقِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوْلِ
 هَذَا الْجَبَلِ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةِ بَلْدُ قَلْمَرِيَّةُ وَمَدِيدُ غَرْبِيِّ الْأَنْدَلُسِ وَأَمَاشِرِيِّ الْأَنْدَلُسِ
 فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّوْبِيِّ مِنْهَا بَعْدَ الْمَرِيْبَةِ قَرْطَاجَةُ ثُمَّ لَفْتَةُ ثُمَّ دَانِيَّةُ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةُ إِلَى
 طَرَطُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شَمَالًا لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ تَلَاخَمَانُ بَسْطَةُ وَقَاعَةُ رِيَاحَ
 مِنْ غَربِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرِيَّةُ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِيَّةُ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةَ شَمَالًا ثُمَّ شَقُورَةُ طَرَطُوشَةُ
 ثُمَّ طَرَكُونَةُ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شَمَالًا أَرْضُ مِنْجَالَةَ وَرِيدَةُ مُتَلَخَّمَانُ لِشَقُورَةَ
 وَطَلْبِيَّةُ مِنَ الْغَربِ ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرَطُوشَةَ وَشَمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الْشَّرْقِ عَنِ مَدِينَةِ
 سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُوبُ ثُمَّ سِرْقَسْطَةُ ثُمَّ لَارْدَةُ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ غَمَرَ الْمَاءَ جَمِيعَهُ إِلَّا قَطْعَةً مِنْ غَرْبِيَّهُ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ الْبُرَنَاتِ وَمَعْنَاهُ
 جَبَلُ الشَّنَابَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنِ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسُ يَبْدَا مِنْ
 الْطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُجِيْطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُ فِي الْجَنُوبِ

يَأْتِيَ اَلشَّرْقُ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْاِقْلِيمِ اَرْبَعَ مُنْحَرَ قَاعِنَ الْجُزْءِ اَلْأَوَّلِ مِنْهُ اِلَى
 هَذَا الْجُزْءِ اَلثَّانِي فَيَقُعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تُفْضِي شَيَاهَا اِلَى الْبَرِّ اَلْمَتَصِلِ وَتَسْعَ اَرْضَ
 غَشْكُونِيَّةً وَفِيهِ مَدِينَةٌ خَرِبَةٌ وَقَرْقُسُونَةٌ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ اَلْرُومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 مَدِينَةٌ بَرْسَلُونَةٌ ثُمَّ اَزْبُونَةٌ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ اَلَّذِي غَمَرَ الْجُزْءِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَالسَّكَيْنِيُّونُ
 مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ اِصْغَرُهَا فِي غَرْبِيَّةٍ جَزِيرَةٌ مِنْزَادَيْنَةٌ وَفِي شَرْقِيَّهُ جَزِيرَةٌ صِقلِيَّةٌ مَتَسْعَةٌ
 اَلْاَفَطَارِ يُقَالُ اِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةٌ مِيلٌ وَبَهَا مَدِينَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا مَرْفُوَسَةٌ
 وَبَلَرْمٌ وَطَرَابِيَّةٌ وَمَازَرٌ وَمَسِينِيٌّ وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ اَرْضَ اَفْرِيقِيَّةَ وَفِيهَا يَنْهَمَا جَزِيرَةٌ
 اَعْدُوشَ وَمَالَطَةٌ وَالْجُزْءُ اَلثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ مَعْمُورٌ اَيْضًا بِالْبَحْرِ اِلَّا ثَلَاثَ قِطْعَةِ
 مِنْ نَاحِيَّةِ اَلشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا اَرْضُ قَلْوَرِيَّةٌ وَالْوَسْطَى مِنْ اَرْضِ اَنْكِبِرَدَةَ وَالشَّرْقِيَّةِ
 مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ . وَالْجُزْءُ اَلرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ مَعْمُورٌ اَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ
 كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي اَلثَّالِثِ وَالْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةٌ بَلُوْنَسَ فِي النَّاحِيَّةِ
 الْغَرْبِيَّةِ اَلشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةٌ اَفْرِيَطِشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ اِلَى مَا بَيْنِ الْجُنُوبِ وَالشَّرْقِ
 مِنْهُ . وَالْجُزْءُ اَلْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مُشَكَّةً كَبِيرَةً بَيْنَ الْجُنُوبِ وَالْغَرْبِ
 يَنْتَهِي الْفَلَقُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا اِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي اَلشَّمَالِ وَيَنْتَهِي الْفَلَقُ الْجُنُوبِيُّ مِنْهَا اِلَى
 مَحْوِيَّ الشَّلَيْنِ مِنَ الْجُزْءِ وَيَقْعُدُ فِي اَجْلَانِ اَلشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ تَحْوِيَّ اَلْثَلَاثَ يَمْرُ اَلشَّمَالِ
 مِنْهَا اِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَاهُ وَفِي اَنْتِفَعِ الْجُنُوبِيِّ مِنْهَا اَسَافِلُ اَلشَّامِ
 وَيَمْرُ فِي وَسْطِهِ جَبَلُ الْكَامِ اِلَى اَنْ يَنْتَهِي اِلَى آخِرِ اَلشَّامِ فِي اَلشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ
 مِنْ هَنَالِكَ ذَاهِبًا اِلَى الْقُطْرِ اَلشَّرْقِيِّ اَلشَّمَالِيِّ وَيُسْعَى بَعْدَ اَنْعِطَافِهِ جَبَلَ السِّلْسِلَةِ وَمِنْ
 هَنَالِكَ يَخْرُجُ اِلَى الْاِقْلِيمِ اَلْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ قِطْعَةً مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ اِلَى
 جِهَةِ اَلشَّرْقِ وَيَقُولُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ مِنْ جِهَةِ اَلْمَغْرِبِ جَبَالٌ مُتَصَلِّهٌ بَعْضُهَا يَبْعَضُ اِلَى
 اَنْ يَنْتَهِي اِلَى طَرَفِ خَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ اَلْرُومِيِّ مُتَاَخِرًا اِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ اَلشَّمَالِ
 وَبَيْنَ هَذِهِ الْجَبَالَيِّ شَيَاهَا تُسَمَّى الدَّرُوبَ وَهِيَ الَّتِي تُفْضِي اِلَى بِلَادِ الْاَزْمَنَ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ
 قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجَبَالَيِّ وَبَيْنَ جَبَلَ السِّلْسِلَةِ فَمَا مِنْ جِهَةِ اَلْجُنُوبِيَّةِ الَّتِي قَدَمْنَا اَنَّ فِيهَا
 اَسَافِلَ اَلشَّامِ وَانَّ جَبَلَ الْكَامِ مُعْتَرِضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ اَلْرُومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنْ
 الْجُنُوبِ اِلَى اَلشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ اَنْطَرَ طُوسَ فِي اَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجُنُوبِ مُتَاخِمَةٌ

لِفَرْقَةَ وَطَرَا بُلْسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْأَوْقَامِ الْثَالِثِ وَفِي شَمَائِلِ أَنْطَرْ طُوسَ جَبَّالَةَ ثُمَّ الْأَذْدِيقَةَ ثُمَّ اسْكَنْدَرُونَةَ ثُمَّ سَلْوِيقَةَ وَبَعْدَهَا شَهَالًا بِلَادُ الْرُّومِ وَأَمَّا جَبَّالُ الْكَامِ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَ الْجُزْءِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِمَحَافَاتِهِ فِي مَاصَابِهِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيَّةِ حُصْنِ الْحَوَانِيِّ وَهُوَ لِلْحَسِيبَةِ الْأَمْنَاءِ عِيلِيَّةً وَيُعْرَفُونَ لِهُنَّا الْعَهْدِ بِالْقِدَارِيَّةِ وَيُسْعَى مِصَبَاتِ وَهُوَ قِبَالَةَ أَنْطَرْ طُوسَ وَقِبَالَةَ هَذَا الْحُصْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدُ سِلَمِيَّةَ فِي الشَّمَالِ عَنْ حِصْنِيِّ وَفِي الشَّمَالِ وَفِي مِصَبَاتِ بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَغْرِ بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَيُقَابِلُهَا فِي شَرْقِ الْجَبَلِ الْمَعَرَّةُ وَفِي شَرْقِهَا الْمَرَاغَةُ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةَ الْمَصِيَّصَةُ ثُمَّ أَذْنَةَ ثُمَّ طَرَسُوسُ آخِرِ الشَّامِ وَيَعْتَدِيهَا مِنْ غَربِ الْجَبَلِ فَتَسْرِينُ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ وَقِبَالَةَ قَنْسَرِينُ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ حَلْبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنْبِعَ آخِرِ الشَّامِ . وَأَمَّا الدُّرُوبُ فَعَرَنْ يَمِنُهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَغْرِ الْرُّومِيِّ بِلَادُ الْرُّومِ الَّتِي هِيَ لِهُنَّا الْعَهْدِ لِلْتَّرْكُمَانِ وَسُلَطَانَهَا أَبْنُ عُشْمَانَ وَفِي سَاحِلِ الْبَغْرِ مِنْهَا بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَالْمَلَادِيَا . وَأَمَّا بِلَادُ الْأَذْمَنِ الَّتِي بَيْنَ جَبَلِ الدُّرُوبِ وَجَبَلِ السِّلَسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدُ مَرْعَشَ وَمَلَطِيَّةَ وَالْمَعَرَّةُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَنْتَرِجُ مِنْ الْجُزْءِ أَخْلَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَذْمَنِ نَهْرُ جِيَحَانَ وَنَهْرُ سِيجَانَ فِي شَرْقِهِ فَيَمُرُّ بِهَا جِيَحَانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاهَوْزَ الدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِالْمَصِيَّصَةِ ثُمَّ يَنْتَهِيَّهُ مَعْنَفِتُ هَابِطَا إِلَى الشَّمَالِ وَمَغْرِبًا حَتَّى يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلْوِيقَةَ وَيَمُرُّ نَهْرُ سِيجَانَ مُوازِيًّا لِنَهْرِ جِيَحَانِ فَيَعْتَدِيُ الْمَعَرَّةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاهَوْزُ جَبَلَ الدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَمْبُوزُ عَنْ نَهْرِ جِيَحَانَ ثُمَّ يَنْتَعِظُ إِلَى الشَّمَالِ مَغْرِبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جِيَحَانَ عِنْدَ الْمَصِيَّصَةِ وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُعِيطُ يَهُوَ امْتَعَطَفُ جَبَلُ الْكَامِ إِلَى جَبَلِ السِّلَسِلَةِ فِي جَنُوبِهَا بَلَدُ الْرَّافِضَةِ وَالرِّفَقَةِ ثُمَّ حُرَّانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَالرَّهَامِ نَصِيبِينُ ثُمَّ سَمِيسَاطُ وَآمِدُ تَحْتَ جَبَلِ السِّلَسِلَةِ وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَهَالِهِ وَهُوَ أَبْصَارًا آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيَّهِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهِ هَذِهِ الْقِطْمَةِ نَهْرُ الْفَرَاتِ وَنَهْرُ دِجلَةَ يَغْرِبُ جَانِ مِنْ آلِفَلِيمِ أَخْلَامِسِ وَيَمْرُكَانِ فِي بِلَادِ الْأَذْمَنِ جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاهَوْزَ جَبَلِ السِّلَسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفَرَاتِ مِنْ غَرْبِيِّ سَمِيسَاطَ وَسَرُوجَ وَيَنْتَرِجُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْرَّافِضَةِ وَالرِّفَقَةِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجلَةَ فِي شَرْقِ آمِدَ وَيَنْتَعِظُ قَرِيبًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْأَيْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَفِي

الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادِ الْعَرَاقِ مُتَّصِلَةً بِهَا تَسْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قُربِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ
 مِنْ آخِرِ الْعَرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلٌ أَصْبَاهَانَ هَايَطَا مِنْ جَنُوبِ الْجُزْءِ مُنْتَرِقاً إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا
 أَتَتْهُ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرِباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ وَيَتَعَصَّلُ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ الْسِّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَيَنْقُطُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ
 بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةً وَشَرْقِيَّةً فِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِهِ مُخْرِجُ الْفَرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهِ
 مُخْرِجُ دِجلَةِ مِنْهُ أَمَّا الْفَرَاتُ فَأَوَّلَ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمْرُ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ
 هُنَالِكَ جَدَوْلٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغْوِصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمْرُ مِنْ
 قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنُوبِ فَيَمْرُ بِقُربِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الْرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ
 مِنْهُ جَدَأَوْلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمْرُ جَنُوباً وَيَبْقَى حَصَنَيْنِ فِي غَرْبِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقُسُ
 شُعُوبٍ فَيَمْرُ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ أَبْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَمُخْرِجٌ جَمِيعاً فِي
 جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى الْأَيْقَلِيمِ الْثَالِثِ فَيَغْوِصُ هُنَالِكُ فِي شَرْقِ الْجَزِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ
 الْفَرَاتُ مِنَ الْرَّحْبَةِ مُشَرِّقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهِ يَمْرُ إِلَى الْأَزَابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ
 جَنُوبِهِمَا ثُمَّ يَصْبُرُ فِي دِجلَةِ عِنْدَ بَغْدَادَ وَأَمَّا نَهْرُ دِجلَةِ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 إِلَى هَذَا الْجُزْءِ يَمْرُ بِجَزِيرَةِ أَبْنِ هَبِيرَةَ ثُمَّ يَمْرُ عَلَى شَمَالِهِمَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِبَتْ وَيَتَسْتَهِي
 إِلَى الْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالْأَزَابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ
 وَيَمْرُ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوباً وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَتَسْتَهِي إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ بِالْفَرَاتِ
 ثُمَّ يَمْرُ جَنُوباً عَلَى غَرْبِ جَرَاجِيَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْأَيْقَلِيمِ الْثَالِثِ فَتَنْتَشِرُ
 هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَأَوْلُهُ ثُمَّ يَجْمِعُ وَيَصْبُرُ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسِ عِنْدَ عَبَادَانَ وَفِيهَا بَيْنَ
 نَهْرِ الْمَدِجلَةِ وَالْفَرَاتِ قَبْلَ تَجْمِعِهِمَا يَبْغِدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجلَةِ بَعْدَ
 مُفَارِقَتِهِ يَبْغِدَادَ نَهْرَ آخَرَ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَتَسْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرِ وَانَّ
 قُبَالَهُ بَغْدَادَ شَرْقاً ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوباً وَيَخْتَلِطُ بِدِجلَةِ قَبْلَ خُروِجهِ إِلَى الْأَيْقَلِيمِ الْثَالِثِ وَيَبْقَى
 مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعَرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بَلْدُ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلْدَ حَلْوانَ
 وَصَيْمَرَةُ وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَا مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشَرِّقاً
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلَ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 الْصَّغِيرَى بَلْدُ خَوْنَجَانَ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَاهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلْدَ الْمَلُوس

وفي وسطها بلد نهاؤند وفي شمالها بلد شهر زور غرباً عند ملتقى الجبلين والدينور شرقاً
 عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أزمنية قاعدها المراغة
 والذى يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مسأكين لا كراد ولا زاب الكبير
 والصغير الذى على دجلة من وراءه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذر يungan
 ومنها تبريز والبيدقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطشن
 وهو بحر آخر وفي الجزء السابع من هذا الأقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس
 وفيها همدان وقزوين وبقيتها في الأقليم الثالث وفيها هنالك أصبان ويعطي بها من
 الجنوب جبل يخرج من غربها ويعود إلى الأقليم الثالث ثم ينطفئ من الجزء السادس إلى
 الأقليم الرابع ويحصل بجبل العراق في شرقه الذي مر ذكره هنالك وإنه عبطة
 بلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويبعد هذا الجبل الخيط بأصبهان من الأقليم
 الثالث إلى جهة الشمال ويتخرج إلى هذا الجزء السابع فيحيط بلاد الهلوس من شرقها
 وتحته هنالك قاشان ثم وينطفئ في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم
 يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنه إلى الشمال حتى يتخرج إلى الأقليم الخامس
 ويستعمل على منطفئه واستدارته على بلد الرى في شرقه وبهذا من منطفئه جبل
 آخر يمر غرباً إلى آخر هذا الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبيه الشمالي
 وجانب جبل الرى المتصل معه ذاهباً إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى
 الأقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان
 ويدخل من الأقليم الخامس في هذا الجزء في نحوتصف من غربه إلى شرقه ويعترض
 عند جبل الرى وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سنته مشرقاً وبآخر اف
 قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه وبقى بين جبل الرى وهذا
 الجبل من عند مبدأهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها سطاماً ووراء هذا الجبل
 قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفارزة التي بين فارس وخراسان وهي في شرق قашان
 وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحافات هذا الجبل من شرقه إلى آخر الجزء
 بلاد نيسابور من خراسان في جنوب الجبل وشرق المفارزة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان
 آخر الجزء وفي شاهله وشرق جرجان بلد هرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً

وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادٍ نَّسَاءٍ يَجْعِلُ بَيْهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجُزُءَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَفَاوِزٌ مُعَطَّلَةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِي غَرَبِهِ نَهْرٌ جَيْجُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي عُدُوتِهِ الْغَرَبِيَّةِ رَمْ وَأَمْلُ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْجَرْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ خُوازِمَ وَيَجْعِلُ بِالْزَّاوِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أَسْتَرَابَادَ الْمُعْتَرَضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرَبِهِ وَيَجْعِلُ بِهِذِهِ الْزَّاوِيَّةِ وَفِيهَا بَقِيَّةِ بِلَادِ هَرَاتَةِ وَأَجَوْزَخَانِ حَتَّى يَتَصِلَّ بِجَبَلِ الْبَتْمَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَّا لَكَ وَفِي شَرْقِهِ نَهْرٌ جَيْجُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بَخَارَى تَمَّ بِلَادُ الصَّعْدَى وَقَاعِدَتْهَا سَمَرْقَانْدَ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأَشْنَهُ وَمِنْهَا خَجَنَّدَةُ الْآخِرِ الْجُزْءِ شَبْرَقَاوِيُّ الْشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَانْدَ وَسَرْدَارَا وَأَشْنَهُ أَرْضُ إِيلَاقَ^(١) تَمَّ فِي الْشَّمَالِ عَنْ إِيلَاقَ أَرْضِ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقَا وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرَغَانَةِ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمْرُ مُعْتَرِضاً فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَ فِي نَهْرٍ جَيْجُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيلَاقِ نَهْرٍ يَاتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْثَالِثِ مِنْ تِنْغُومِ بِلَادِ الْبَتْمَ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرٌ فَرَغَانَةُ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلُ جَبَرَاغُونَ يَبْدَا مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقاً وَمُنْهَرِقاً إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ تَحْيِطَاً بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيَجْعِلُ بِالْشَّاشِ وَفَرَغَانَةِ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْأَقْلِيمِ الْثَالِثِ وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ وَطَرَفِ هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِهِ هَذَا الْجُزْءُ بِلَادُ فَارَابَ وَيَبْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بَخَارَى وَخُوازِمَ مَفَاوِزٌ مُعَطَّلَةٌ وَفِي زَاوِيَّةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ خَجَنَّدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِمْبِيجَابَ وَطَرَازُ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي غَرَبِهِ بَعْدَ أَرْضِ فَرَغَانَةِ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزْلِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الْشَّمَالِ وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلُّهُ أَرْضُ الْكِبَامَكِيَّةِ وَبَتَّصِلُ فِي الْجُزْءِ الْعَاشرِ كُلُّهُ إِلَى جَبَلٍ قُوْفِيَا آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَعَلَى قِطْعَةِ مِنْ الْبَعْرِ الْمُجْعِلِ هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلٌ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهَذِهِ الْأَمْ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ الْتُرْكِ . اتَّهَى الْأَقْلِيمُ الْخَامِسُ * الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَفْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ وَشَرْقِهِ لَأَنَّ الْبَعْرَ الْمُجْعِلَ بِهِذِهِ الْجِهَةِ الْغَرَبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ

(١) فِي المُشَرِّكِ الْأَقْلِيمِ إِيلَاقَ مُنْصَلٌ بِالْأَقْلِيمِ الشَّاشِ لَا فَصْلٌ بَيْنَهُمَا وَهُوَ بَكْرِ الْمُهَزَّةِ وَسَكُونِ الْبَا بَعْدَهُما .

وَالسَّابِعُ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَقْلَيمِ فَمَا أَنْتَشَرَ فِي هَذِهِ قَطْعَةِ عَلَى شَكْلٍ مُثُلِّثٍ مُتَصَلِّثٍ مِنْ هَنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُعَيَّنُ بِهَا الْبَرُّ مِنْ جِهَتِينَ كَانُوهُمَا ضَامِنَ مُجِيبَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثُلِّثِ فَعِيَّاهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَربِ الْأَنْدَلُسِ سَعَيْوُرُ عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَربِ وَسَامَنَكَةً شَرْقاً عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَوْرَةٌ وَفِي الشَّرقِ عَنِ سَلَمَنَكَةَ أَيْلَةٌ أَخْرَى الْجَنُوبِ وَأَرْضٌ قَسْتَالِيَّةٌ شَرْقاً عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةٌ شَقُونِيَّةٌ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضٌ لِيُونَ وَبَرَغَشَتْ ثُمَّ وَرَاهُمَا فِي الشَّمَالِ أَرْضٌ جَلِيقِيَّةٌ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الْفَلَقِ الْغَرَبِيِّ بَلْدُ شَنْتِيَّاُو وَمَعَنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقٍ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةٌ شَطَلِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقاً عَنِ قَسْتَالِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَبَنْبُلُونَةٌ عَلَى سَاحِفَتِهَا شَرْقاً وَشَمَالًا وَفِي غَربِ بَنْبُلُونَةِ قَسْطَالَةَ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فِيهَا يَنِيمَا وَبَيْتَ بَرَغَشَتْ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضَّامِعِ الشَّمَالِيِّ الْشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ وَبَتَّصَلُّ بِهِ وَبَطَرَقَ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبُلُونَةَ فِي جَهَةِ الْشَّرقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ بَتَّصَلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ فِي الْأَقْلَيمِ أَرَبَاعٍ وَيَصِيرَ حِجْرَاً عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جَهَةِ الْشَّرقِ وَثَنَاءِهِ لَهَا أَبْوَابٌ تَقْفِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةِ مِنْ أَمْمِ الْفَرَسِيجِ فِيهَا مِنَ الْأَقْلَيمِ أَرَبَاعٌ بَرَشْلُونَةٌ وَأَرْبُونَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ وَخَرِيدَةٌ وَفَرْقُسُونَةٌ وَرَاهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْأَقْلَيمِ الْخَامِسِ طَلْوَسَةٌ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَمَا أَنْتَشَرَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جَهَةِ الْشَّرقِ فَقطْعَةٌ عَلَى شَكْلٍ مُثُلِّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَّتُهُ الْحَادَةُ وَرَاهُ الْبُرَنَاتِ شَرْقاً وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُعْيَطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي بَتَّصَلُّ بِهَا جَبَلُ الْبُرَنَاتِ بِلَدُ نِيُونَةٍ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الْشَّرْفِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضٌ بَنْطُو مِنَ الْفَرَسِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْفَرَسِيجِيَّةِ مِنْهُ أَرْضٌ غَشْكُونِيَّةٌ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضٌ بَنْطُو وَبَرَغَشَتْ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا وَفِي شَرقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةِ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةٌ أَرْضٌ مِنَ الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالْفِرِزِسِ مَائِلَةً إِلَى الْشَّرقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةٍ فِي غَربِهَا دَاخِلَةً فِي جُونِ مِنَ الْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنُونَةٍ وَعَلَى سَمِنَهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلٌ بَيْتُ جُونَ وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمِنَهِ أَرْضٌ بَرَغُونَةٌ وَفِي الْشَّرقِ عَنْ طَرَفِ جَنُونَةِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الْأَرْوَمِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى يَنِيمَا جُونُ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَربِيَّةِ نِيشُ وَفِي شَرْقِيَّةِ مَدِينَةِ رُومَةِ

الْعَظِيمَ كُرْسِيَ مَلِكِ الْأَفْرِنجِيَةِ وَمَسْكِنِ الْبَابَا بَطْرَ كِهْمِ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي
 الْفَخْسَفَةِ وَالْمَيَاكِيلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا
 الْنَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ الْمَشْرُقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعِدٌ يَلْأَطِ النَّحَاسِ وَفِيهَا
 كِنِيسَةٌ بُطْرُوسٌ وَبُولُسٌ مِنَ الْخَوَارِيَّينَ وَهُمَا مَدْفُونَ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بَلَادِ
 رُومَةِ بِالَّادِ أَفْرَنْصِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَعَلَى هَذَا الْطَّرَفِ مِنَ الْبَعْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ
 رُومَةِ بِالَّادِ نَابِلَ فِي الْجَانِبِ الْشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَصَّلَةٌ بِبَلَادِ قَلُورِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْفَرْسِيَّ وَفِي شَمَائِلِهَا
 طَرَفٌ مِنْ خَلْيَجِ الْبَنَادِيقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الْثَالِثِ مُغَرَّبًا وَمُعَاذِيَا لِلشَّمَالِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَأَنْتَهَى إِلَى تَحْوِيَّ الْأَثَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِيقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا
 الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيهَا يَنْهَى وَبَيْنَ الْبَعْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَائِلِهِ بِالَّادِ إِنْكِلَادِيَّةَ فِي الْأَقْلِيمِ
 السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ الْثَالِثِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادِ قَلُورِيَّةٍ بَيْنَ خَلْيَجِ الْبَنَادِيقَةِ
 وَالْبَعْرِ الْرُّومِيِّ يَمْحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِهِ يَصِلُّ مِنْ بَرِّهَا فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَعْرِ الْرُّومِيِّ
 فِي جُونِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَعْرِ عَلَى سَمَتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِ بِلَادِ
 قَلُورِيَّةٍ بِالَّادِ إِنْكِيرَدَةَ فِي جُونِ بَيْنَ خَلْيَجِ الْبَنَادِيقَةِ وَالْبَعْرِ الْرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفُهُ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُونِ فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَعْرِ الْرُّومِيِّ وَيَمْحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ خَلْيَجُ
 الْبَنَادِيقَةِ مِنَ الْبَعْرِ الْرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمَتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَربِ مُعَاذِيَا لِلآخرِ
 الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمَتِهِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلُ سَطَنِيمُ يَوَازِيَهُ وَيَذْهَبُ مَعَهُ
 إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرِبُ مَعَهُ فِي الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّقَ فِي الْأَلَّا خَلْيَجٌ فِي شَمَائِلِهِ
 فِي بِلَادِ إِنْكِلَادِيَّةَ مِنْ أَمْمِ الْأَلْمَانِيَّينَ كَمَا نَذَرْكُ وَعَلَى هَذَا الْخَلْيَجِ وَيَنْهَى وَبَيْنَ هَذَا
 الْجَبَلِ مَادَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادِ الْبَنَادِيقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ فِيهِمَا بِلَادِ
 حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادِ الْأَلْمَانِيَّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلْيَجِ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 قَطْعَةٌ مِنَ الْبَعْرِ الْرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ مُضْرَسَةً كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنْ
 الْبَعْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ فِرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ الْبَعْرِ فِي الْجُونِ يَنْهَى
 وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً قِطْعَةٌ مِنَ الْبَعْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ خَلْيَجُ الْقُسْطَنْطُنْيَّةِ يَخْرُجُ
 مِنْ هَذَا الْطَّرَفِ الْجَنُوبيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمَتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلُ فِي الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ
 وَيَنْعَطِفَ مِنْ هُنْكِلَاتَ عَنْ قُوبٍ مُسْرِقاً إِلَى بَعْرٍ يُطَشَّ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضِ الرَّابِعِ

قبلة وأساد من بعده من الأقليم السادس كمان ذلك وبلد القسطنطينية في شرق هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كونيقيا صرفة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثُرت عنه الأحاديث والقطعة التي ما بين البحر الروي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها أبتداء ملوكهم وفي شرق هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للنزاع كمان وبها ملك ابن عثمان وقادته بها برصدة وكانت من قبليهم للروم وغلبهم عليها الام إلى أن صارت للزعيم كمان وفي الجزء الخامس من هذا الأقليم من غربه وجنوبيه أرض باطوس وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عموريه وفي شرق عموريه نهر قبائب الذي يمتد الفرات ويمخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى مصر في الأقليم الرابع وهنالك في غربه آخر الجزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر حيحان غربه الذاهبين على سنته وتد مر ذكرهما وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سنته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي المزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد مياوارين ونهر قبائب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما فعلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قبائب أرض عموريه كما فعلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عموريه من وراء جبل قبائب وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد حرشة وفي المزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطشن الذي يمده خليج القسطنطينية وفي الجزء السادس من هذا الأقليم في جنوبه وغربه بلاد أزمينية متصلة إلى أن يتبعا وسراط الجزء إلى جانب الشرق وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تقليس ودبيل وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم يرددان في جنوبها يأنحراف إلى الشرق مدينة أزمينية ومن هنالك مخرج بلاد أزمينية إلى الأقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراجعة في شرق جبل الأكراد المسمى بارمي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتبع بلاد أزمينية في هذا الجزء وفي الأقليم

الْرَّابِعُ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَذْرِيْحَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ ارْدَيْلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسَتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْرُ طَبَرْسَتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمُ الْتُرْكُومَانُ وَيَدِأُهُمْ مِنْ عَنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَصَلُّ بَعْضُهَا بَعْضًا عَلَى سَمَتِ الْغَرْبِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبَلْدٍ مَيَافَارِقِينَ وَيَغْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْرَّابِعِ عِنْدَ آمِدَ وَيَتَصَلُّ بِجَبَلِ الْسَّلَاسَةِ فِي أَسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَصَلُّ بِجَبَلِ الْلِّسَكَامِ كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَاءً كَلَابُوَابٍ تَنْهَى فِي مِنْ الْجَانِبَيْنِ فَفِي جَنُوبِهِ بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَصَلَّةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرْسَتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ وَيَتَصَلُّ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِهِ بِبَلْدٍ أَزْمِينَةَ وَبَيْنَهُمَا فِي الْشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَذْرِيْحَانَ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْزَّابِ مُتَصَلَّةٌ إِلَى بَحْرِ طَبَرْسَتَانَ وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَربِهَا حَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الْأَزَوِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَّةِ الْجُزْءِ كُلُّهُ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيَطِشَ الَّذِي يُعْلَمُ خَلْيَجُ الْقُسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحْفَظُ بِهِذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ نِيَطِشَ بِلَادُ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلْدٌ أَطْرَابِيَّةَ وَيَتَصَلُّ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَتَتَّهِي شَرْقاً إِلَى جَبَلِ حَاجِزٍ يَنْهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعَنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولُ وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهَى إِلَى الْأَزَوِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسَتَانَ وَآخِرُ الْجُزْءِ شَمَالًا . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةُ كُلُّهُ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرْسَتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الْرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا هُنَالِكَ أَنْ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبَرْسَتَانَ وَجِبَالَ الدَّبِيلِ إِلَى قَزوِينَ وَفِي غَربِيِّ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَصَلَّةً بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْرَّابِعِ وَيَتَصَلُّ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضًا وَيَسْكُنُ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصْبُبُ فِيهَا نَهْرٌ أَثْلَى فِي هَذَا الْبَحْرِ وَيَقْنَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتُ الْغَرْبِ مِنْ أَمْمِ الْتُرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتُ الْغَرْبِ مِنْ أَمْمِ الْتُرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَأْخِلٌ فِي الْجُزْءِ الْأَثَامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلْأِيَ بَحْرَ طَبَرْسَتَانَ فَيَعْتَثِرُ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ

ثم ينعتطف مع طرفه ويفارقه وينتهي هنالك جبل سياه ويدهب مغرباً إلى الجزء السادس من الأفلام السادس ثم يرجع جنوباً إلى الجزء السادس من الأفلام الخامس وهذا الطرف منه وهو الذي اعتراض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر وأنسلت بآرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسماى جبل سياه كما سيأتي . والجزء الثامن من هذا الأفلام الخامس كلها مجالات للغز من أمم الترك وفي الجهة الجنوبيه الغربية منه بمحيره خوارزم التي يصب فيها نهر حيحون دورها ثلاثة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقيه منه بمحيره عزون دورها أربعمائة ميل وما لها حلول وفي الناحيه الشمالية من هذا الجزء جبل مرجان ومعناه جبل الشاع لانه لا يذوب فيه وهو متصل باخر الجزء وفي الجنوب عن بمحيره عزون جبل من المجر الصالد لا ينبع شيئاً يسمى عزون وبه سهليات بمحيره وينجذب منه ومن جبل مرجان شمالي البحيره أنهار لا تتعصى عدتها فتصب فيها من الجانبيين . وفي الجزء التاسع من هذا الأفلام بالأد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغرب وشرق بلاد الكيميا كيه ويحث به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقا المعيب بيأجوج وما جوج بعرض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعتطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الأفلام الرابع قبله وأخفف هنالك بالبحر المعيب إلى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الأفلام الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا بلاد الكيميا كيه ثم خرج إلى الجزء العاشر من الأفلام الخامس فذهب فيه مغرباً إلى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيميا كيه ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً إلى الشمال وذهب على سهليه إلى الجزء التاسع من الأفلام السادس وفيه السد هنالك كما نذر كره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب وهي من بلاد ياجوج وما جوج وفي الجزء العاشر من هذا الأفلام أرض يا جوج متصلة فيه كلها الأقطعة من البحر عمرت طرفاً في شرقه من جنوبيه إلى شماله إلا القطعة التي يفصلها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قوقا حين مر فيه وما

سِوَى ذَلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَاءُ جُوجَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
الْأَقْلِيمُ السَّادِسُ. فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمْرُ الْبَعْرُ أَكْثَرُهُ مِنْ نِصْفِهِ وَأَسْتَدَارَ شَرْقًا
مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ وَأَتَشَعَّ قَرِيبًا مِنَ النَّاحِيَةِ
الْجَنُوَيْةِ فَأَنْكَشَفَ قَطْعَةً مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةً بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ وَفِي
الْأَزَوِيَّةِ الْجَنُوَيْةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَعْرِ الْمُحِيطِ كَلْجُونُ فِيهِ وَيَنْفَسِعُ طُولًا وَعَرْضًا وَهِيَ
كُلُّهَا أَرْضٌ بِرِّيَّاتِيَّةٍ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ وَفِي الْأَزَوِيَّةِ الْجَنُوَيْةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ يَلَادُ صَافِسَ مُتَصَلَّهَ يَلَادُ بِنْطُو الْقِيَّ مَرْ ذَكْرُهُ مَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقْلِيمِ
الْأَخْلَامِ. وَالْجُزْءُ الْثَّانِي مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ دَخَلَ الْبَعْرِ الْمُحِيطِ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَنَّ غَرْبَهُ
قَطْعَةً مُسْتَطِيلَهُ أَكْبَرُهُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِهِ أَرْضٌ بِرِّيَّاتِيَّةٌ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ
وَأَنْصَلَتْ بِهَا الْقَطْعَةُ الْآخِرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَأَنْفَسَتْ فِي النِّصْفِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضَ الشَّيْءِ وَفِيهِ هَذَا الْكَفَّ قَطْعَةً مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلَتِرَا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَهُ
مُشَتَّلَهُ عَلَى مُدُنٍ وَبَهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقَطْعَهُ
وَحَرَزَ يَرِتَهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ يَلَادُ أَرْمَنْدِيَّهُ وَبِلَادُ أَنْلَادَشَ مُتَصَلِّيَنْ بِهَا
ثُمَّ يَلَادُ إِفْرَنِيَّهُ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَبِلَادُ بِرَغُونِيَّهُ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لَامَهُ
الْأَفْرَنجِيَّهُ وَبِلَادُ الْلَّمَائِيَّنِ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ جَنُوبَهُ يَلَادُ أَنْكِلَاهِيَّهُ ثُمَّ
بِلَادُ بِرَغُونِيَّهُ شَهَالَامَهُ أَرْضُ لَمَوِيَّكَهُ وَشَاطَوِيَّهُ وَعَلَى قِدَامِهِ الْبَعْرِ الْمُحِيطِ فِي الْأَزَوِيَّةِ
الْشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضٌ أَفْرِيرَهُ وَكُلُّهَا لَامَ الْلَّمَائِيَّنِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا
الْأَقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ يَلَادُ مَرَاتِيَّهُ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطَوِيَّهُ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ
الْشَّرْقِيَّةِ يَلَادُ أَنْكُوَيَّهُ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَكُونِيَّهُ فِي الشَّمَالِ يَعْتَرِضُ يَنْهَمَا جَبَلُ بَلْوَاطَ
دَاخِلًا مِنَ الْجُزْءِ الْرَّابِعِ وَيَمُرُّ مُغْرِبًا يَأْخِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقْفَ في بِلَادِ
شَطَوِيَّهُ آخِرِ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ . وَفِي الْجُزْءِ الْرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضٌ جَنُولِيَّهُ وَتَعْتَهَا
فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْرُّوسِيَّهُ وَيَفْصِلُ يَنْهَمَا جَبَلُ بَلْوَاطَ مِنْ أَوْلِ الْجُزْءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ
يَقْفَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَنُولِيَّهِ بِلَادُ جُرْمَانِيَّهُ وَفِي الْأَزَوِيَّةِ الْجَنُوَيْهُ
الْشَّرْقِيَّهُ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِيَّهُ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْمُلْكِيَّجِ الْمُخَارِجِ مِنَ الْبَعْرِ الْرُّوسِيِّ وَعِنْدَ
مِدْفَعَهِ فِي بَعْرِ نِيَطْشَ فَيَقْعُ قَطْعَهُ مِنْ بَعْرِ نِيَطْشَ فِي أَعْلَى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّهُ مِنْ هَذَا

الجزء ويعدها الخليج وينهها في الزاوية بلد مسيناه وفي الجزء الخامس من الأإقليم السادس ثم في الواجهة الجنوبيّة عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج من سنته مشرقاً فيمُر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدأه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبيّة من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بحسب مُستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض البيقان من الأإقليم الخامس وفي شرقه بلاد الالانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غرباً أرض ترخان وشرقها بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاط الروسية محطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الأإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الأإقليم . وفي الجزء السادس في غربه بقية بحر نيطش وينعرف قليلاً إلى الشمال ويبقى بينه هناك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد فاكية وفي جنوبه منقسمة إلى الشمال بما أمرف هو كذلك بقية بلاد الالانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض بزطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبيّة أرض ببحر يجوزها هناك فطعة من جبل سياكوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعد مفارقته مغرباً فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الأإقليم الخامس فيتصل هناك بجبل الأبواب وعليه من هناك ناحية بلاد الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الأإقليم في الناحية الجنوبيّة ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو فطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها وراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض بزطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحر وبخناك وهم أم الترك . وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبيّة منه كلها أرض الجونج من الترك في الناحية الشمالية غرباً والأرض المعنونة وشرق الأرض التي يقال إن ياجوج وما جوچ خرباها قبل بناء السد وفي هذه الأرض المعنونة مبدأ نهر الأاثل من أعظم أنهار العالم ومرأه في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الأإقليم

الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الأرض الممتدة من ثلاثة بنايات تجتمع في نهر واحد ويمر على سنت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم فينعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفة عين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويدهب مغرباً غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويمر بـ منتصفه إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغرباً ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق فيبلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب وينفذ في جبل سباء ويمر في بلاد الخزر ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هناك في بحر طبرستان في القمة التي انكسرت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية والجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خشان من الترك وهم قبائل وبلاد السركس منهم أيضاً وفي الشرق منه بلاد ياجوج يفصل بينهما جبل قوقيا الحبيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر الحبيط في شرق الإقليم الرابع ويدهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ويفارقه مغرباً وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس فيرجع إلى سنته الأولى حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماليه بانحراف إلى المغرب وفي وسطه هنا السيد الذي بناء إلا سكندر ثم يخرج على سنته إلى الإقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقى البحر الحبيط في شماليه ثم ينعطف معه من هناك مغرباً إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه فيصل هناك بقطعة من البحر الحبيط في غربه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السيد الذي بناء إلا سكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبد الله بن خرد آذبة في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كان السيد اتفتح فاتحة فزعاً وبعث سلاماً إلى زمانه فوقف عليه وجاء بخبره ووصفيه في حكایة طویلة لم يست من مقاصد كتابنا هذا وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد ماجوج متعلقة فيه إلى آخره على قطعة من هناك من البحر الحبيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعرضه بعض الشيء في الشرق

الأإقليم السابع * والبحر المحيط قد عمر عامته من جهة الشمال إلى سطح الجزء الخامس حيث يحصل بمحبلي قوقياً المحيط بياجوج وما جوج . فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما اكتشف من جزيرة أزكليتا التي معظمها في الثاني وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الأإقليم السادس وهي مدورة هناك وتحاذي منها إلى البر في هذه القطعة سعة أثني عشر ميلاً ووازنه هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق . والجزء الثالث من هذا الأإقليم مغمور أكثره ببحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه واتساعها فيها هنالك متصل أرض فلوبية التي مر ذكرها في الثالث من الأقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتنصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلوبية وفي شمالها جزيرة برقاقبة (وفي نسخة بوقاعة) مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق . والجزء الرابع من هذا الأإقليم شمال كلة مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منتشر وفي غربه أرض فيما ذكر من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلاان إلى آخر البر شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمراً أنها قليل وبتصل بلاد الروسية في الأإقليم السادس وفي الجزء الرابع وأخاميس منه وفي الجزء السادس من هذا الأإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقياً كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على من هذا الجزء وهي عذبة تشجّب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض الشتارة من الترك (وفي نسخة التركان) إلى آخره . وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبيّة متصل بلاد القمانية وفي وسط الناحية بحيرة عذبة تشجّب إليها أنهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائمًا لشدة البرد إلا قليلاً في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانية بلاد

الروسيّة التي كان مبدأها في الأقليم السادس في الناحيَة الشرقيَّة الشماليَّة منَ الجُزء الخامس منه وفي الناحيَة الجنوبيَّة الشرقيَّة منَ هذا الجُزء بقِيَة أرض بلغر الذي كان مبدأها في الأقليم السادس وفي الناحيَة الشرقيَّة الشماليَّة منَ الجُزء السادس منه وفي وسْطِه هذه القطعة منَ الأرض بلغر ينبعُ نهر أهل القطعة الأولى إلى الجنوب كما مرَّ وفي آخر هذا الجُزء السادس من شماله جبل قُوقيا متصلٌ من غربه إلى شرقه وفي الجُزء السابع منَ هذا الأقليم في غربه بقِيَة أرض يتناكَ من أمم الترك وكان مبدأها منَ الناحيَة الشماليَّة الشرقيَّة منَ الجُزء السادس قبله وفي الناحيَة الجنوبيَّة الغربيَّة منَ هذا الجُزء وينتَجُ إلى الأقليم السادس من فوقه وفي الناحيَة الشرقيَّة بقِيَة أرض سُخَرَت ثم بقِيَة الأرض المُنْتَهَى إلى آخر الجُزء شرقاً وفي آخر الجُزء من جهة الشمال جبل قُوقيا المحيط متصلًا من غربه إلى شرقه وفي الجُزء الثامن منَ هذا الأقليم في الجنوبيَّة الغربية منه متصلُ الأرض المُنْتَهَى وفي شرقها الأرض المحفورة وهي من الجحائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوئ فسبح الأفطار مُمتنع الوصول إلى قعره يستدلُ على عمره بـ يادخان في النهار والنيران في الليل تُضيء وتختفي وربما رُويَ فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال وفي الناحيَة الشرقيَّة منَ هذا الجُزء البلاد المتراب المُناكمة للست وَ في آخر الشمال منه جبل قُوقيا متصلًا من الشرق إلى الغرب وفي الجُزء التاسع منَ هذا الأقليم في الجحائب الغربية منه بالآد خفسان وهم فبحق يجوزها جبل قُوقيا حين ينبعُ من شماله عند البحر المحيط ويدهب في وسْطِه إلى الجنوب يانحراف إلى الشرق فيخرج في الجُزء التاسع منَ الأقليم السادس ويمتدُ مترضاً فيه وفي وسْطِه هنالك سد ياجوج وماجوج وقد ذكرناه وفي الناحيَة الشرقيَّة منَ هذا الجُزء أرض ياجوج ورها جبل قُوكيا على البحر فليلة العرض مستعملة أباطئ به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر بجميَّة هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خلق السموات والأرض وأختلاف الليل والنهار لآيات العالمين

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمغزف وتأثير الماء في الوان البشر والكثير في احوالهم

قد يَبَرُّنا أنَّ المعمورَ مِنْ هَذَا الْمُتَكَبِّرِ شَفَّ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسْطُهُ لِإِفْرَاطِ
الْحَرَقِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الْشَّمَالِ . وَلَمَّا كَرِنَ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ
مُتَضَادَيْنِ مِنْ أَخْرَى وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كُلِّهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَكَرِنَ
مُعْتَدِلًا فَالْأَقْلَيمُ الْأَرْبَعُ أَعْدَلُ الْمُهْرَانِ وَالَّذِي حَافَّاهُ مِنَ الْأَثَاثِ وَآخَاهُ مِنْ أَفْرَقَهُ إِلَى
الْأَعْتِدَالِ وَالَّذِي يَكِيْهُمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْأَعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ
أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَاعَةُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَفْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ
وَالْحَيْوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَبَّرُ فِي هَذِهِ الْأَقْلَيمِ الْثَلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مُخْصُوصَةٌ بِالْأَعْتِدَالِ
وَسَكَانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَوْانًا وَأَخْلَاقًا وَأَدِيَانًا حَتَّى الْنَّبُوَاتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ
فِي أَلْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعْثَةً فِي الْأَقْلَيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ
الْأَنْسِيَاءَ وَالرَّسُولَ إِنَّمَا يَعْتَصِمُ بِهِمْ أَكْمَلُ التَّنْوُعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ نَعَالِيَ كُلُّهُمْ
خَيْرٌ أَمْ أَخْرَجَتِ النَّاسَ وَذَلِكَ لِيَتَمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْسِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَهْلِ
هَذِهِ الْأَقْلَيمِ أَكْمَلُ لِوَجْدِ الْأَعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجَدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَائِكِهِمْ
وَمَكَالِسِهِمْ وَأَفْوَاتِهِمْ وَصَنَاعَتِهِمْ يَتَحَذَّلُونَ الْبَيْوتَ الْمُنْجَدَّةَ بِالْجَمَارَةِ الْمُسْقَةَ بِالصَّنَاعَةِ
وَبَنَانِغُونَ فِي أَسْبَحَادَةِ الْأَبَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَهُمْ
الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحْاسِ وَالرِّصَاصِ وَالْقِصْدِيرِ
وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْمَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْأَنْجِرافِ فِي عَامَةِ أَخْوَالِهِمْ
وَهُولَاءِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْجَمَارِ وَالْمِنَنِ وَالْمِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّفِ
وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرْسَجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيَّينَ وَمَنْ كَانَ
مَعَ هُولَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقْلَيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلُ
هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسْطُهُ مِنْ جَمِيعِ الْجَهَاتِ . وَأَمَّا الْأَقْلَيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْأَعْتِدَالِ مِثْلَ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالْأَخْرَى فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْأَعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَخْوَالِهِمْ فَيَنَاظِرُهُمْ بِالظَّيْنِ

وَالْقَصَبِ وَأَفْوَاتِهِمْ مِنَ الْذَرَةِ وَالْعِشْبِ وَمَلَابِسِهِمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ
أَوْ الْجَلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ عَرَابِيَاً مِنَ الْلِبَاسِ وَفَوَّا كَهْ بِالْأَدِيمِ وَأَدَمَهَا غَرِيبَةُ التَّحْكُمِينَ مَائِلَةً
إِلَى الْأَنْحرَافِ وَمُعَامَلَاتِهِمْ بِغَيْرِ الْحَجَرِينَ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحْسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جَلُودَ
يَقْدِرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقِهِمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ حَتَّى لِيُنْقَلَ
عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانَ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنْهُمْ يَسْكُنُونَ الْكُبُوفَ وَالْغَيَاضَ
وَبِاً كُلُونَ الْعِشْبَ وَأَنْهُمْ مُتَوَحِشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَا كُلُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا الصَّقَالَةَ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنْهُمْ لِيُعْدِمُونَ عَنِ الْأَعْتِدَالِ يَقُولُ عَرَضُ أَمْزِجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ
عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ وَيَعْدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَعْقِدُونَ ذَلِكَ وَكَذِلِكَ أَخْوَالُهُمْ فِي
الْدِيَانَةِ أَيْضًا فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ يَشْرِيعَةَ إِلَّا مِنْ قَرْبِهِمْ مِنْ جَوَانِبِ
الْأَعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلَى النَّادِرِ مِثْلَ الْجَبَشَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ
فِيهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلَ أَهْلِ مَالِيٍ وَكُوُكُوكَ وَالْمُجَاوِرِينَ
لِازْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنْهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ
وَمِثْلَ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أَمْمِ الْصَّقَالَةِ وَالْأَفْرَنجِيَّةِ وَالْمُرْزِكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمِنْ سَوْيِ
هُوَ لَا إِمَامَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقْالِيمِ الْمُنْخَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَالَّذِينَ مُجْهُولُونَ هُنْ دِهْمُ وَالْعَلَمُ مَفْقُودُ
بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَخْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَخْوَالِ الْأَنَامِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَخْوَالِ الْبَهَائِيَّةِ وَيَخْلُقُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِوُجُودِ الْيَمَنِ وَحَضْرَمُوتَ وَالْأَحْقَافَ وَبِلَادِ
الْمَجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنْ جَزِيرَةَ
الْعَرَبِ كُلُّهَا أَحْاطَتْ بِهَا الْبَحَارُ مِنَ الْجِهَاتِ الْثَلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثْرٌ فِي
رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذَلِكَ مِنَ الْيَسِ وَالْأَنْحرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرَقُ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ
الْأَعْتِدَالِ يَسَبِّبُ رُطُوبَةَ الْبَغْرِيِّ وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ النَّسَابِينَ مِنْ لَا عِلْمَ لِدِينِهِ بِطَبَائِعِ
الْكَسَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وُلْدُ حَامِ بْنُ نُوحٍ أَخْتَصُوا بِلَوْنِ الْسَّوَادِ لِدَعْوَتِهِ كَانَ عَلَيْهِ
مِنْ أَيْمَهُ ظَهَرَ أَثْرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيهَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْأَرْقِ فِي عَقِيَّهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذَلِكَ حِكَابَةَ
مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَدُعَاءَ نُوحٍ عَلَى أَبْنَيْهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ
الْسَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَاءُهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلُدُّهُ عَيْدَادًا لَوْلَدٌ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُهُ وَفِي الْقَوْلِ بِنَسْبَةِ
الْسَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفَلَةٌ عَنْ طَبَيْعَةِ الْحَرَقِ وَالْبَرْدِ وَأَثْرِهِمَا فِي الْأَهْوَاءِ وَفِيهَا يَسْكُونُ فِيهِ

من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقليم الأول والثاني من مزاج موائمه للحرارة المتصاعدة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرئيتين في كل سنة قريبة إحداها من الأخرى فتطول النسامة عامه الفضول فيكثر الضوء لاجلها ولمنع القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لا فرات آخر ونظير هذين الأقليمين مما يقابلهما من الشمال الأقليم السابع والحادي عشر شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج موائهم للبرد المفترط بالشمال إذ الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامة ولا ما قرب منها فيضعف آخر فيها ويتدنى البرد عامه الفضول فتبين ألوان أهلها وتنتهي إلى الظُّرُورَةَ ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفترط من ذرقة العيون وبشرش الجلود ودمهوبية الشعور وتوسعت بينهما الأقاليم الثلاثة الخامسة والرابعة والثالث فكان لها في الأعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر وأربع بلغها في الأعتدال غابة لنهائته في المتوسط كما قدمناه فكان لأهلها من الأعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم ونوعه من جانبيه الثالث وأ الخامس وإن لم يتلفا غایة التوسط لم يليل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار وهذا قليلاً إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيَا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الازبعة مترفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فال أول والثاني للحر والسوداد والسابع للبرد والبياض ويسعى سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني باسم الجلسة والزنج والسودان اسماء متداقة على الأمم المشتيرة بالسوداد وإن كان أسم الجلسة مختصاً منهم يعن تحاه مكة واليمن والزنج يعن تحاه بحر الهند وليس هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره وقد يجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المترافق إلى البياض فتبين ألوان أعقابهم على التدریج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج المواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطيب

بالزنج حر غير الأجساد حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسب البياضا حتى عدت جلودها بصاصا

وَأَمَا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسْمِوْ بِأَعْتِبَارِ الْوَافِرِ لَأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ الْفَلَقَةِ
 الْوَاسِعَةِ لِلْأَدْمَنَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِبَارِهِ
 وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ الْتُّرْكِ وَالصَّقَالِبِيَّةِ وَالظُّغَرُ غُرْ وَالْخَزَرُ وَاللَّانُ وَالكَثِيرُ مِنَ الْإِفْرِنجِ
 وَبِالْجُوْجَ وَمَا جُوْجَ أَمْهَأَ مُتَفَرِّقَةً وَاجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسْمَيْنَ يَأْسِمَهُ مُتَوَّعَةً وَأَمَا أَهْلُ
 الْأَقَالِيمِ الْثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْأَعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَسَيِّرِهِمْ وَكَافَةِ الْأَحْوَالِ
 الْطَّبِيعِيَّةِ لِلْأَعْتِمَادِ لِدِينِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِنِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْعِلُومِ وَالرَّئَاسَاتِ
 وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمِ النَّبُوَاتُ وَالْمُلْكُ وَالْدُّولُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعِلُومُ وَالْبَلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ
 وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَاعَةُ الْفَانِيَّةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي
 وَقَفَنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ الْسَّنَدِ
 وَالْمِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّاسُوْنَ آخْتِلَافَ هَذِهِ الْأَمْمَ بِسِيَاهِهَا وَشَعَارَهَا حَسِبُوا ذَلِكَ
 لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ بَعَدُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلُّهُمْ الْسُّودَانَ مِنْ وَلْدِ حَامٍ وَأَرْتَابُوا فِي الْوَافِرِ
 فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَمَةِ الْوَاهِيَّةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ مِنْ وَلْدِ
 يَافِثَ وَأَكْثَرُ الْأَمْمَ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُنْتَهَى لِلْعِلُومِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْمِيلَ
 وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وَلْدِ سَامٍ وَهَذَا الْزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقُّ فِي أَنْتِسَابِ
 هُوَلَاءَ فَلَبِسَ ذَلِكَ بِقِيَاسِ مُطْرِدِ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ
 بِالْسُّودَانِ وَالْجُنُشَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ . وَمَا أَدَمُ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ
 إِلَّا أَعْتَقَادُهُمْ أَنَّ التَّمَيِّزَ بَيْنَ الْأَمْمَ إِنَّمَا يَقْعُدُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذِلِكَ فَإِنَّ التَّمَيِّزَ
 لِلْجَنْحِيلِ أَوْ الْأَمْمَ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ وَيَكُونُ
 بِالْجِهَةِ وَالسِّيَّمَةِ كَمَا لِلرِّزْنِجِ وَالْجَبَشَةِ وَالصَّقَالِبِيَّةِ وَالْسُّودَانِ وَيَكُونُ بِالْعَوَادِيَّ وَالشِّعَارِ
 وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأَمْمِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمِيزَهُمْ
 فَتَعَيِّنُ الْقَوْلُ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعِيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبِ أَوْ شَمَالِ يَانِهِمْ مِنْ وَلْدِ فُلَانِ الْمَعْرُوفِ
 لِمَا شَكَلُوهُمْ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَّةٍ وُجِدَتْ لِتِلْكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِبِ الَّتِي أَدْقَعَ
 فِيهَا الْفَفَلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَسْكُونَ وَالْجِهَاتِ وَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا تَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَبْعِدُ
 أَسْتَمْرَأُهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبَدِّلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِعِيَّهِ
 وَأَحْسَنُهُمْ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الْمَرْءُ وَرَوْفُ الْرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في ثرو الماء في اخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كلِّ توقيعٍ موصوفين بالتحمُّق في كل قطرٍ والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني ونشيئه وطبعه الحزن بالعكس وهو انفاسه وتنفسه . وتقرر أن الحرارة مفسحة للهواء والبخار مخللة له زائدة في كميته ولنبدأ بحمد المنشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يدخل بخار الروح في القلب من حرارة الغرينية التي تبعثر سورة الحمر في الروح من مزاجه فيتشي الروح وتجهي طبيعة الفرح وكذلك نجد المتعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها وانتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخن بذلك حدث لهم فرح وربما أتيحت الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور . ولما كان السودان ساكنين في الأقليم الحار واستولى الحر على أمر جتهم وفي أصل تكونيهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبةً بذاته وأقلهمهم فتكون أزواجهم بالقياس إلى أزواج أهل الأقليم الرابع أشد حرًا فتكون أكثر تقسيماً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً وتجهي الطيش على أثر هذه وكذلك يتحقق بهم قليلاً أهل البلاد البحريّة لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينبع من عليه من أضواء بسيط البحر وأشعاته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح وأخلفه موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد بسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزرية من الأقليم الثالث لتتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأزياف والتلول وأعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم وأخلفه والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرُون أقوات سنتهم ولا شهرين وعاماً ما كلهم من سواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب

الْخِنْطَةِ وَبِمَا كَرِهِ الْأَسْوَاقَ لِشَرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةً أَنْ يُرِزاً شَيْئاً مِنْ مُدْخَرِهِ وَتَبَعَ ذلكَ فِي الْأَقَالِيمِ وَالْبِلْدَانِ تَجَدُّ فِي الْأَخْلَاقِ أثْرًا مِنْ كَيْفِيَاتِ الْمُوَاءِ وَاللهُ أَخْلَاقُ الْعَلِيمِ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلِّبْحَثِ عَنِ السَّبِبِ فِي خِفَةِ السُّودَانِ وَطَبَشِيهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيَّهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِضُعْفِ ادْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضُعْفٍ عُقُولِهِمْ وَهَذَا كَلَامٌ لَا يُحْصَلُ لَهُ وَلَا يُرْهَانُ فِيهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى حِرَاطِ مُسْتَقِيمِهِ

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجرع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر وآخلاقهم

إِعْلَمُ أَنَّ هُنَّ الْأَقَالِيمُ الْمُعْتَدَلَةُ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا الْخُصُبُ وَلَا كُلُّ شَكَّانِهَا فِي رَعْدِيَّ مِنَ الْعِيشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبٌ الْعِيشُ مِنَ الْحَبُوبِ وَالْأَدَمِ وَالْخِنْطَةِ وَالْفَوَّاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ وَأَعْنَدَالِ الْطَّينَةِ وَفُورِ الْعَمَرَانِ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْخَرَةُ الَّتِي لَا تُنْتَ زَرْعاً وَلَا عَشْبًا يَا لِجَمْلَةِ فَسَكَانِهَا فِي شَطَفِ مِنَ الْعِيشِ مِنْ أَهْلِ الْجِبَارِ وَجَنَوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلِ الْمُلْشَمِينَ مِنْ صِنَاعَةِ الْأَسَاكِينَ بِصَخْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الْأَرْمَالِ فِيهَا بَيْنَ الْبَرِّ وَالْسُّودَانِ فَإِنَّهُؤُلَاءِ يَقْدِمُونَ الْحَبُوبَ وَالْأَدَمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَهُمْ وَأَقْوَاتُهُمْ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحَبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحَابِينَ وَتَحْتَ رِبْقَةِ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الْأِقْلَالِ أَقْلَلَهُ وَجَدِيَّهُ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِ الْخَلَةِ أَوْ دُونَهَا فَضْلًا عَنِ الرَّغْدِ وَالْخُصُبِ وَتَجَدُّهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَخْوَاهُمْ عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعْوِظُهُمْ مِنْ الْخِنْطَةِ احْسَنَ مَعَاضِي وَتَجَدُّهُمْ مَعَ ذَلِكَ هُوَلَاءِ الْفَاقِدِينَ لِلْحَبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَخْرَى حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ الْمُنْقَمِسِينَ فِي الْعِيشِ فَإِنَّهُمْ أَضَفُّ وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمْ وَأَحْسَنَ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنْ الْأَنْجَافِ وَأَذْهَانُهُمْ اثْقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْأَدْرَاكَ هَذَا أَمْرٌ تَشَهَّدُ لَهُ الْتَّجَربَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرِّ فِيهَا وَصَنَاعَةُ وَبَيْنَ الْمُلْشَمِينَ وَأَهْلِ التَّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ خَبَرَةِ

والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوبتها تؤدي في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بعد افطارها في غير نسبة وتبعد ذلك انتكاسة الألوان وقبع الأشكال من كثرة الالعقم كما قلناه وتُعطي الرطوبات على الأذنان والأفخار بما يصعد إلى الدماغ من التغيرات الارادية تشنجي البلادة والفالقة والانحراف عن الأعياد بالجملة وأعتبر ذلك في حيوان القرد ومواطنه الجدب من الغزال والنعام والسمان والزرافة والحمور الوحشية والبغاء مع أمثالها من حيوان الثلول والأذناف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مدارها فـ الغزال أخو الماعز والزرافة أخو البعير والسمان والقرد أخو الحمار والقرد والبون بينها ما رأيت وماذاك إلا لأجل أن الخصبة في الثلول فعل في أبدان هذين من الفضلات الارادية والأخلاط الفاسدة مما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القرد سبب في خلقها وأشكالها ما شاء وأعتبر ذلك في الأدميين أيضا فإنما تجد أهل الأقاليم الخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والقواكه يتصرف أهلها غالبا بالبلاد في أذنائهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنتميين في الأدم والخطة مع المتقطعين في عيشهم المقتصر بن على الشعير أو الذرة مثل المصاداء منهم وأهل غماره والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسدهم وكذلك أهل بلاد المغرب على الجملة المنتميين في الأدم والبر مع أهل الاندلس المفقود بأرضهم أسمى حملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذلك أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأصار فإن الأمصار وإن كانوا يكثرون مثلهم من الأدم وشخص بين في العيش إلا أن أسماعهم إيهما بعد العلاج بالطبع والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب بذلك غالظها ويرق قواها وعامة ما كلامهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات بذلك في أغذتهم ويغاث ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الارادية فلذلك تجد جسم اهل الأمصار الطف من جسم البادية الخشنين في العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسدهم غليظة ولا لطيفة وأعلم

أَنْ أَتَرَ هَذَا الْخُصُبُ فِي الْبَدْنِ وَأَخْوَاهُ يَظْهَرُ حَتَّىٰ فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَتَجِدُ
 الْمُتَقْسِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوِ الْحَاضِرِ وَمِنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالْجَافِي عَنِ الْمَلَازِفِ
 أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَىِ الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخُصُبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الْوَرَىْنِ قَلِيلِينَ
 فِي الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْقَسَّاوةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَصَلِّهِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْغُمَانِ
 وَالْأَدَمِ وَلِبَابِ الْبَرِّ وَيَعْتَصِشُ وَجُودُ الْعِبَادِ وَالْزَهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقْسِفِينَ فِي عِذَابِهِمْ مِنْ
 أَهْلِ الْبَوَادِي وَكَذَلِكَ نَجِدُ هُؤُلَاءِ الْمُخْصِبِينَ فِي الْعِيشِ الْمُنْقَسِمِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ
 الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْخَوَافِرِ وَالْأَمْصَارِ إِذَا تَرَكْتُمْ بِهِمْ أَسْنُونَ وَأَخْذَتُمُ الْمَجَامِعَاتِ
 بِسُرِيعِ وَبِيَهِمِ الْمَلَاكُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسِ وَمِصْرَ
 فِيهَا يَتَلْعَنُ لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلَ الْقَفْرِ وَالصَّخْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبٌ
 عَيْشُهُمُ الْتَّمْرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ لِهُدَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبٌ عَيْشُهُمُ الشَّعِيرُ وَالْأَرْيَتُ
 وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبٌ عَيْشُهُمُ الْنَّدَرَةُ وَالْأَرْيَتُ فَإِنَّ هُؤُلَاءِ وَإِنْ أَخْذَتُمُ أَسْنُونَ
 وَالْمَجَامِعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أُولَئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمِ الْمَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا
 يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُنْقَسِمِينَ فِي الْخُصُبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ
 وَالسَّمْنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوَقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةُ الْمِزَاجِيَّةُ
 حَتَّىٰ تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَتْ بِهَا الْعَادَةُ يَقْلُلُ الْأَقْوَاتُ وَفِقدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِعمالِ
 الْأَنْسِنِ غَيْرِ الْمَالُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعَايِضِ وَالْأَنْكَاشِ وَهُوَ ضَعِيفُ فِي
 الْفَنَابَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرْضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمَقَانِيلِ فَالْمَالِكُونَ فِي
 الْمَجَامِعَاتِ إِنَّمَا قَتَلُوكُمُ الْشَّيْعَ الْمُعْتَادُ الْسَّابِقُ لَا جُوعَ أَخَادُثُ الْلَّاْحِقُ وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ
 يَقْلُلُ الْأَدَمِ وَالسَّمْنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدَّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ
 وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقْعُدُ فِي مَعَامِهِ بِتَبَدُّلِ الْأَغْذِيَّةِ يَبْسُ وَلَا أَنْعَرَافُ
 فَيَسْلَمُونَ فِي الْفَالِبِ مِنِ الْمَلَاكِ الَّذِي يَعْرِضُ لِغَيْرِهِمْ بِالْخُصُبِ وَكُثْرَةِ الْأَدَمِ فِي
 الْمَكَّا كُلِّيٌّ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَّةَ وَأَنْتِلَافُهَا أَوْ تَرَكُكَمَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ
 فَمَنْ عَوَدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَا هُمْ تَنَوَّلُهُ كَانَ لَهُ مَالُوفًا وَصَارَ الْخُروجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَأْهَمًا
 مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْفِداءِ بِالْجُمْلَةِ كَالْسُّمُومِ وَالْبَيْتُوْعِ^(۱) وَمَا أَفْرَطَ فِي الْأَنْجِرافِ

۱ قال في القاموس البتونع كصور او توريات له ابن دار - مهل عرق منقطع والمتعبور منه سبة

فَمَا مَا وُجِدَ فِيهِ الْتَّغْذِيَ وَالْمَلَأَمَةُ فَيَصِيرُ غَذَاءَ مَالُوفًا بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخْدَى الْإِنْسَانَ
 نَفْسَهُ بِاَسْتِعْمَالِ الْبَيْنِ وَالْبَقْلِ عَوَضًا عَنِ الْحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دِينَدَنًا فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ
 غَذَاءَ وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنِ الْحِنْطَةِ وَالْحِبْوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍ وَكَذَا مَنْ عَوَدَ نَفْسَهُ الصَّبَرَ عَلَى
 الْجُوعِ وَالْأَسْتِغْذَاءِ عَنِ الطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنِ اَهْلِ الرِّيَاضِيَاتِ فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ
 أَخْبَارًا غَرِيَّةً بَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَفَتَ
 شَيْئًا صَارَ مِنْ جَبَلَتِهَا وَطَبَعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ الْتَّلُوْنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا أَعْتِيَادُ الْجُوعِ
 بِالْتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبَيعِيَّةً لَهَا وَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْأَطْبَابُ مِنْ أَنَّ
 الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَبَسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حُمِّلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَقُطِعَ عَنْهَا الْغَذَاءُ
 بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّهُ خَيْرَيَّهُ بِتَحْسِيمِ الْمَعَاكِ وَبِنَالُهُ الْمَرْضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الْمَلَاكُ وَأَمَّا إِذَا
 كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً يُفَلَّلُ الْغَذَاءَ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا يَفْعُلُهُ الْمُتَصَوِّفُ
 فَهُوَ يَمْعَزِلُ عَنِ الْمَلَاكِ وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الْرِّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ
 فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغَذَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خَيَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَلَاكُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا
 بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالْتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَصَالَ
 وَأَكْثَرَ . وَحَفَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرًا تَانَ مِنْ أَهْلِ
 الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَرَنَدَةَ حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ مِنْيَنَ وَشَاعَ أَمْرُهُمَا
 وَوَقَعَ أَخْتِبَارُهُمَا فَسَعَ شَانِهِمَا وَأَتَصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَا تَانَ وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ
 أَخْتِبَارِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلَبِ شَاءَ مِنَ الْمَعَزِ بِلَقْمٍ ثَدِيهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ
 الْإِفْطَارِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غَذَاءُهُ وَاسْتَدَامٌ عَلَى ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ
 وَلَا يُسْتَكِرُ ذَلِكَ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلُهُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ لِمَنْ
 قَدَرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى الْأَيْفَلَلِ مِنْهَا وَإِنَّ لَهُ أَثْرًا فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا
 كَمَا قُلْنَاهُ وَأَعْتَدْنَا ذَلِكَ بِإِثْنَارِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي تُحَصَّلُ عَنْهَا فِي الْجَسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَدِّيَنَ
 بِالْحُومِ الْحَيْوَانَاتِ الْفَارِخَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَثَمَانَ تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ وَهَذَا مُشَاهَدَةٌ فِي أَهْلِ
 الْبَادِيَّةِ مَعَ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَدِّدُونَ بِالْبَيْانِ الْأَيْلِلِ وَلَحُومِهَا أَيْضًا مَعَ مَا يُؤْثِرُ فِي

الشَّرْمِ الْلَّاعِيَةِ وَالْعَرْطَشِيَّةِ وَالْمَهْوَدَانَةِ وَالْمَازِرِيَّةِ وَالْفَلْجَلَشَتِ وَالْعَشَرِ وَكُلِّ الْبَوْعَاتِ إِذَا اسْتَعْمَلَتْ فِي
 غَيْرِ وَجْهِهَا مُلْكَتْ ۱۰

أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الصَّبَرِ وَالْأَخْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى تَحْمِلِ الْاِتْنَالِ الْمَوْجُودِ ذَلِكَ لِلْأَيْلِ
وَتَنَشَّأُ أَمْعَاوُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الْأَيْلِ فِي الصَّفَحةِ وَالْفَلَظِ فَلَا يَطْرُفُهَا إِلَوْهَنْ وَلَا
يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرُهُمْ فَيَشْرُبُونَ الْيَتَوْعَاتِ لِأَسْتِطْلَاقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ
مَحْجُوبَةِ كَالْمَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَالْدِرْزِ يَامِ وَالْفَرِيزِيُونَ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاوُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ تَوْ
تَنَوَّلُهَا أَهْلُ الْخَضْرِ الْرَّعِيقَةُ أَمْعَاوُهُمْ بِمَا نَشَأْتُ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْمَلَائِكُ
أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْسُّمِّيَّةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا
ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفِلَاحِ وَشَاهِدَهُ أَهْلُ التَّجَرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا عُذِّيَ بِالْمَحْبُوبِ الْمَطْبُوخَ
فِي بَعْرِ الْأَيْلِ وَأَتَخِدَ يَقْصُدُهَا ثُمَّ حَضَنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَقْدِيرِهِمْ وَطَبَخُ الْمَحْبُوبِ يُطْرَحُ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْيَقْنِ الْمُحْضَنِ فَيَعْجِي
دَجَاجُهَا فِي غَيْرِهِ الْعَظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْاِتَّارَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِي
الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَ أَنَّ الْجُوعَ أَيْضًا أَثَارَ فِي الْأَبْدَانِ لَأَنَّ الْفِدَنِينَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي
الْتَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي تَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الْزِيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّثُوبَاتِ
الْمُخْتَلِطَةِ الْخُلْلَةِ بِالْجَسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْفِدَاهَ مُؤْثِرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجَسْمِ
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركيين من البشر بالفطرة او الرباضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرواية

اعلم أن الله سبحانه أصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته
وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده يعرفوهم بمعاصихهم ويحرر ضوئهم على مدائهم
واباخذون بمحجز انهم عن النار ويدللونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقه اليهم من
ال المعارف ويظهره على أسمائهم من الخوارق والأخبار السказيات المغيبة عن البشر
التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بواسطتهم ولا يعلمونها إلا بتعلم الله أيام قال
صلى الله عليه وسلم لا أعلم إلا ما علمني الله وأعلم أن خبرهم في ذلك من
خاصيته وضرورته الصدق لما يتبعن ذلك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف

من البشر أن تُوجَد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كانها غشى أو إغماه في رأي العين ولنست منها في شيء وإنما هي في الحقيقة أستغرق في لقاء الملك الروحاني بإذراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتَّرَّزُ إلى المدارك البشرية إما سماع دوي من الكلام فيفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تتجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما أتي إليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سُئلَ عن الوحي أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّ على فرضِ عني وقد وعيت ما كان وأحياناً يتشمل لي الملك رجلاً في كلامي فأعي ما يقول ويدركه أثناه ذلك من الشدة والغطرس ما لا يعبر عنه في الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيضم عنه وإن جعلته ليتصدق عرقاً وقال تعالى إنما سنلي عليك قوله أثقيلاً ولاجل هذه الغاية في تنزيل الوحي كان المشركون يرموا الأنبياء بالجحود ويقولون له ربُّنا أو نَّا بِنَّا من الجن وإنما ليس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال ومن يضل الله فما له من هاد ومن علماتهم أبضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والآزار كاء ومحابية المذومات والازجرن أجمع وهذا هو معنى الفضحة وكأنه مقطور على التزه عن المذومات والمنافرة لها و كانوا منافية لجيشه وفي الصحيح أنه تحمل الحرارة وهو غلام مع عميه العباس لبناء الكعبة فعملها في إزاره فانكشف فسقط مغشي عليه حتى استتر بإزاره ودعى إلى مجتمع وليمة فيها هرون ولعب فاصابة غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه بجيشه يتزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقيل له في ذلك فقال إنني أناجي من لا تناجون وأنظر لمن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما بعاته وأرادت أخباره فقالت أجعلني يبنك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت إنه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سأله عن أحب الكتاب إليه أن يأتيه فيها فقال البياض والخضراء فقالت إنه الملك يعني أن البياض والخضراء من ألوان الخير والملائكة والسوداء من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا دُعَاؤُمُ إِلَى الَّذِينَ وَالْعِبَادَةُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدْ
أَسْتَدَلَتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُوبَكَرٌ وَلَمْ يَعْتَاجَا فِي
أَمْرٍ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيفَةِ أَنَّ هَرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابٌ
الْأَنْجِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُعْوَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَخْضَرَ مَنْ وَجَدَ بِيَدِهِ مِنْ قُرْبَشٍ وَفِيهِمْ
أَبُوسَفِيَانَ لِيَسَأَلُهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيهَا سَأَلَ أَنْ قَالَ يَمِّ يَا مَوْلَكَ فَقَالَ أَبُوسَنِيَانَ
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعِفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ
حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلُكُ مَا تَعْتَقَدُ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ وَالْعِفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هَرَقْلُ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ
فَأَنْظَرَ كَيْفَ أَخْذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الَّذِينَ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ
يَعْتَجِ إِلَى مُعْجِزَةٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا
ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيفَةِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةِ
أَخْرَى فِي شَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ أَسْتَدَرَ كَمَ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيفَيْنِ وَفِي مَسْأَلَةِ هَرَقْلِ لَابِي
سَفِيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيهِمْ فَقَالَ أَبُوسَفِيَانَ هُوَ فِينَا دُوْحَسْبٌ فَقَالَ
هَرَقْلُ وَالرَّسُولُ تَبَعَثُ فِي أَهْسَابِ قَوْمِهَا وَمِنْهَا أَنْ تَكُونُ لَهُ عِصْبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ
عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يُبَارِعَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُتَمَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ
عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا وُقُوعُ الْخُوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا
فَسُكِّيَّتْ بِذَلِكَ مُعْجِزَةً وَلَيَسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقْعُ في غَيْرِ مُعْلَمٍ قُدْرَتِهِمْ
وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْيَاءِ خَلَافَ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى
الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَاتِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَفْعُلُ النَّبِيُّ وَإِنْ كَانَ أَفْعَالُ
الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَنْعَالِهِمْ وَلَيَسَنَ
لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِيدِيُّ بِهَا يَأْذِنُ اللَّهُ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
الَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وُقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مَدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مِنْزَلَةِ الْقَوْلِ
الصَّرِيْحِيِّ مِنَ اللَّهِ يَا أَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دِلَالَتِهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعَيْهَ فَالْمُعْجِزَةُ الْدَّالَّةُ
يَعْجِمُوْعُ الْخُارِقِ وَالْتَّحْدِيدِيِّ وَلَذِكَّرَ كَمَ الْتَّحْدِيدِيُّ جُزُّاً مِنْهَا وَعِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةٌ
نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لَا نَهُ وَمَعْنَى الْذَّاكِرِيِّ عِنْهُمْ وَالْتَّحْدِيدِيُّ هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

وَالسِّرْعَ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وُجُودَ لِالتَّحْدِيدِيِّ إِلَّا إِنْ وُجِدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ
وَقَعَ التَّحْدِيدِيُّ فِي الْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجْبِيْهَا وَكَانَتْ لَمَّا دَلَّتْ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ
غَيْرُ النَّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَّا مَنْعَ الأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ وَقُوَّةُ الْخَوَارِقِ كَرَامَةٌ فِرَارًا مِنَ
الْأَلْتِيسِ يَا النَّبُوَّةِ عِنْدَ التَّحْدِيدِيِّ بِالْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَبَّنَاكَ الْمُغَافِرَةَ يَتَّهِمُهَا وَإِنَّهُ يَتَعَدَّى
يَغْتَرِيْهَا مَا يَتَعَدَّى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا تَبْسُ عَلَى أَنَّ النَّقْلَ عَنِ الْأَسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيْحًا
وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْسَكَارِ لِأَنَّ تَقْعُ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ نَاهٌ عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ
الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَالْمَكَانِيْعُ مِنْ وَقْعَ الْكَرَامَةِ عِنْدَمُ أَنَّ الْخَوَارِقَ
لَيْسَتْ مِنَ الْعَالَمِ الْعَبَادِ وَأَفْعَالِهِمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقٌ وَأَمَّا وَقْعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلِيسَا
فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلَمَّا صِفَتْ نَفْسُ الْمُغَيْرَةِ التَّصْدِيقُ وَالْمِدَابَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ
بِمُخَلَّفِ ذَلِكَ أَنْقَلَبَ الدَّلِيلُ شَبَهَةً وَالْمِدَابَةُ ضَلَالَةً وَالْتَّصْدِيقُ كَذِبًا وَاسْتِخَالَتْ الْمُقَائِقُ
وَأَنْقَلَبَتْ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضٍ وَقْعُهُ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُنْكَرًا وَأَمَّا عِنْدَ
الْمُعْتَزِلَةِ فَلَمَّا وَقَعَ الدَّلِيلُ شَبَهَةً وَالْمِدَابَةُ ضَلَالَةً فَيَبْعِيْعُ فَلَا يَقْعُ مِنْ أَنَّهُ . وَأَمَّا الْحُكْمَاءَ
فَالْخَارِقُ عِنْدُمُ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ بَعْلِ الْقُدرَةِ بَنَاهُ عَلَى مَذَهِبِهِمْ فِي
الْأَبِيجَابِ الْذَّانِيِّ وَوَقْعُ الْخَوَادِتِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ
الْمُحَادَثَةُ مُسْتَنْدَةٌ أَخِيرًا إِلَى الْوَاحِدِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا يَأْلِمُ الْأَخْتِيَارُ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبُوَّةَ
عِنْدُمُهُمْ خَوَاصٌ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ يَقْدِرُهُ وَطَاعَةُ الْعَنَاصِيرِ لَهُ فِي الْتَّكُونِينِ
وَالنَّبِيُّ عِنْدُمُهُمْ مُجِبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ مِنْهَا تَوَجَّهُ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهُ بِهَا جَعَلَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدُمُهُ يَقْعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاهُ كَانَ لِلتَّحْدِيدِيِّ أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ
بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتِهِ عَلَى تَصَرُّفِ الْذِي فِي الْأَكْوَانِ الْذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِ النَّفْسِ
الْنَّبُوَّةِ لَا بِإِنَّهُ يَتَنَزَّلُ مِنْزَلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيعِ بِالْتَّصْدِيقِ فَلَذِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتِهِ عِنْدُمُهُ
قِطْعَيْهِ كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِيدِيُّ جَزَّا مِنَ الْمُغَيْرَةِ وَلَمْ يَصُحْ
فَارِقاً لَهَا عَنِ السِّرْعَ وَالْكَرَامَةِ وَفَارِقاً عِنْهُمْ عَنِ السِّرْعَ أَنَّ النَّبِيَّ مُجِبُولٌ عَلَى أَفْعَالِ
الْخَبِيرِ مَصْرُوفٌ عَنِ أَفْعَالِ الشَّرِّ فَلَا يُلْمِمُ الْشَّرِّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الْفَسَدِ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا
شَرُّ وَفِي مَقَاصِدِ الْكُرْسِ وَفَارِقاً عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مُخْصُوصَةٌ كَالصَّعُودِ إِلَى
السَّمَاءِ وَالنُّفُوذِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالظَّيْرَانِ

في المَوَاء وَخَوارقُ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثُرَتْ كِبِيرَ الْفَلِيلِ وَالْمُدِيدِ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقِيلِ
وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاعِدٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْسِيَاء وَبِأَنَّهِ الْنَّبِيُّ يَحْمِلُعِ خَوارقِهِ وَلَا يَقْدِرُهُ
عَلَى مِثْلِ خَوارقِ الْأَنْسِيَاء وَقَدْ قَرَرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيهَا كَتِبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِ وَلُقْبُوهُ عَمَّا
أَخْبَرُوهُمْ وَإِذَا لَقَرَرَ ذَلِكَ فَأَعْلَمُ أَنَّ أَعْظَمَ الْدُجُوزَاتِ وَأَتْسِرَفَهَا وَأَذْفَحَهَا دِلَالَةُ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْخَوارقَ فِي الْفَالِبِ تَقْعُ
مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَاقَهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُجْزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ
الْوَحْيُ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارقُ الْمُجْزَعُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَقْتَرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ
كَسَائِرِ الْدُجُوزَاتِ مَعَ الْوَسْخِ فَهُوَ أَوْضَعُ دِلَالَةً لِلْمُتَعَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا
مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْسِيَاء إِلَّا وَأَنَّهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ
أَمَّنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتَيْتُهُ وَجْهًا أُوحِيَ إِلَيْيَ فَإِنَّا أَزْجَوْنَاكُونَ أَكْثَرَهُمْ
تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشَيرُ إِلَى أَنَّ الْمُجْزَةَ مَنْ كَانَ يَهْدِهِ الْمَثَابَةُ فِي الْأُوضُوحِ وَقُوَّةُ
الْدِلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهُمَا نَفْسَ تَوْحِيدِ كَانَ الصِّدِيقُ لَهَا أَكْثَرَ لِوْضُوْحِهِمَا فَكَثُرَ الْمُصَدِّقُ
الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابُعُ وَلَا مَةٌ

ولنذكر الان تقسيم حقيقة النبوة على ما شرحه كثيرون من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكمانة ثم الروايات ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إِعْلَمُ . أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَا نُشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ إِمَّا فِيهِ مِنَ الْعَجْلُوقَاتِ كُلُّهَا عَلَى هَيَّةِ
مِنَ الْتَّرْتِيبِ وَالْإِخْكَامِ وَرَبَطَ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ وَأَنْصَالِ الْأَسْوَانِ بِالْأَسْوَانِ
وَأَسْتَخَالَةِ بَعْضِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضُ بَعْجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَنْتَهِي غَایَاتُهُ وَابْدَأَ
مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجَنْمَانِيِّ وَأَوْلَى عَالَمِ الْعَنَادِيرِ الْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ تَدْرِجُ صَاعِدًا
مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْمَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَصَلًا بَعْضُهَا بَعْضٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
مُسْتَعِدٌ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَهِيلُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ
مِنْهَا الْطَّفُّ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى عَالَمِ الْأَفْلَاكِ وَهُوَ الْطَّفُ مِنْ الْكُلُّ عَلَى
طَبَقَاتِ اَتَصَلَ بَعْضُهَا بَعْضٌ عَلَى هَيَّةٍ لَا يُدْرِكُ الْحِسْبُ مِنْهَا إِلَّا الْمُرَكَّاتُ فَقَطْ وَبِهَا

يَهْتَدِي بِعَضُّهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الْذَّوَاتِ الَّتِي لَمْ
هُذِّهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ أَنْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ أَبْتَدَى مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ
الْحَيَّانِ عَلَى هِيَئَةِ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرًا فِي الْمَعَادِنِ مُتَصِّلٌ بِأَوْلَى أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلِ
الْخَسَائِشِ وَمَا لَا يَذَرُ لَهُ وَآخِرًا أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مُتَصِّلٌ بِأَوْلَى أَفْقِ
الْحَيَّانِ مِثْلَ الْحَلْزُونِ وَالصَّدْفِ وَلَمْ يُوجَدْ لَهُمَا إِلَّا قُوَّةُ الْأَمْسِ فَقَطْ وَمَعْنَى الْإِتْصَالِ
فِي هَذِهِ الْمُكَوَّنَاتِ أَنَّ آخَرَ أَفْقِهِنَا مُسْتَعْدِثٌ بِالْأَسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ لِأَنَّ يَصِيرَ أَوْلَى
الرُّفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَأَتْسَعَ عَالَمُ الْحَيَّانِ وَتَعَدَّتْ أَنْوَاعُهُ وَأَنْتَهَى فِي تَدْرِيجِ الْكَوَافِرِ
إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفَكْرِ وَالرَّوْيَةِ تَقْفَعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ الَّذِي أَجْتَمَعَ فِيهِ الْجِنُّ
وَالْإِدْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَى الرَّوْيَةِ وَالْفَكْرِ بِالْفَعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى أَفْقِهِنَا
بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شَهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى أَخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَوْعِدَةً فِي عَالَمِ الْجِنِّ
آثَارُهُ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِيرِ وَفِي عَالَمِ الْكَوَافِرِ آثَارُهُ مِنْ حَرَكَةِ النُّبُوٰ وَالْإِدْرَاكِ
تَشَهِّدُ كُلُّهَا بِأَنَّهَا مُوْثِّرًا مُبَايِنًا لِلْأَجْسَامِ فَهُوَ رُوْحَانِيٌّ وَيَتَصِّلُ بِالْمُكَوَّنَاتِ لِوُجُودِ
إِتْصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرَكَةُ وَالْمُحْرَكَةُ وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ
وُجُودِ آخَرٍ يُعْطِيهَا فَوْرَى الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَصِّلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاهِهً إِدْرَاكًا
صِرْفًا وَتَعْلُمُ لَا تَخْضُعًا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ أَسْتِعْدَادُ
لِلْأَنْسَابِ الْأُخْرَى مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لِيَصِيرَ بِالْفَعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقَدَا مِنْ
الْأَوْقَاتِ فِي لَفْحَةٍ مِنَ الْمَحَاجَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمِلَ ذَاهِهَا الرُّوْحَانِيَّةُ بِالْفَعْلِ كَمَا
تَذَكَّرَهُ بَعْدُ وَيَكُونُ لَهَا اِتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَاءَ الْمُوْجُودَاتُ الْعَرَبَيَّةُ كَمَا
قَدَّمَنَاهُ فِلَلَّهَا فِي الْإِتْصَالِ جِهَتَاهُ الْعُلوُّ وَالْسُّنُنُ وَهِيَ مُتَصِّلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِهِنَا وَتَكْتَسِبُ
بِهِ الْمَدَارِكَ الْجِنِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعْدِثُ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعْقُلِ بِالْفَعْلِ وَمُتَصِّلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى
مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَهُنْ كَنْسِيَّةٌ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْغَيْرِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْحَوَادِثِ
مُوْجُودٌ فِي تَعْقِلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدَّمَنَاهُ مِنْ الْتَّرْتِيبِ الْمُعْكَمِ فِي الْوُجُودِ
بِإِتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقُوَّاتِهِ بَعْضِهَا بَعْضٌ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْأَإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةٌ عَنِ الْعِيَانِ
وَآثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَانَهُ وَجْهِيًّا أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعٌ وَمُفْتَرِقٌ أَلَاتُ لِلنَّفْسِ وَلِقُوَّاتِهِ
أَمَّا الْفَاءِلِيَّةُ فَالْبَطَشُ بِالْيَدِ وَالْمَشَيُ بِالْزِجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكَلِيلَيَّةُ

بالبدن متدافعاً وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتفعة إلى القوّة
 العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقية فقوى الحسن الظاهرة بالآلة من
 السمع والبصر وسائرها يرتفق إلى الباطن وأوله الحس المشترك وهو نوع تدركه
 المحسوسات مبصرة وسموعة وملموعة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوّة
 الحسن الظاهر لأن المحسوسات لا تزدهر عليها في الوقت الواحد ثم يوديه الحسن
 المشترك إلى الخيال وهي قوّة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن
 المواد الخارجية فقط والله هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ
 مقدمة للأولى ومؤخرة للثانية ثم يرتفق الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لا إدراك
 المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمر ورحمة الآب وافتراض
 الذنب والحافظة لإيداع المدركة كلها بخيلة وهي لها كلجزانة تحفظها لوقت
 الحاجة إليها والله هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ أوله للأولى
 ومؤخره للأخرى ثم ترتفق جميعها إلى قوّة الفكر والله البطن الأوسط من الدماغ وهي القوّة
 التي يقع بها حركة الروحية والتوجّه نحو التعلّم فتحرك النفس بها دائمًا لما يكتب فيها
 من النزوع للتخلص من درك القوّة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج إلى الفعل
 في تعقلها متشبهة بالعقل الأعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في
 إدراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متخرجة دائمًا ومتوجهة نحو ذلك وقد تسلّخ
 بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب
 بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك والنفس البشرية على ثلاثة
 أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول فيقطع بالحركة إلى الجهة السفلية نحو
 المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين مخصوصة
 وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها
 خيالي محصر ب نطاقه إذ هو من جهة مبدأه ينتهي إلى الأوليات ولا يتتجاوزها وإن
 فسد فساد ما بعدها وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي
 مدارك العلماء وفيه ترسّخ أفدامهم وصنف متوجّه بذلك الحركة الفكرية نحو العقل
 الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد

لِذِكْرِ فَيَسْعُ نِطَاقُ إِذْرَاكِ عَنِ الْأَوْلَىٰتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ
وَيَسْرُعُ فِي فَضَاءِ الْمُشَاهَدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا نِطَاقٌ لِمَا مِنْ مَبْدَأِهَا وَلَا مِنْ
مُنْتَهَاهَا وَهُنْدِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلَىٰءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الْدِينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الْإِلَيَّانِيَّةِ وَهِيَ
الْمَحَصِّلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرْزَخِ وَصِنْفٌ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ
الْبَشَرِيَّةِ جُمِلَةٌ جِسْمَانِيَّتَهَا وَرُوحَانِيَّتَهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعُلَىٰ لِيَصِيرَ فِي لَعْنَةِ
مِنَ الْأَمْحَانِ مَلَكًا يَا لِلْفِعلِ وَيَحْصُلُ لَهُ شَهُودُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعُلَىٰ فِي أَفْقِهِمْ وَمَمَّا يَكَلِّمُ
الْفَسَانِيِّ وَالْمُطَابِ الْإِلَمِيِّ فِي ذَلِكَ الْلَّعْنَةِ وَهُوَ لَأَهْلِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِسْلَامَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْلَّعْنَةِ وَهِيَ حَالَةُ الرَّحْمَةِ فِي طَرْفِهِمْ فَطَرَهُمُ اللَّهُ
عَلَيْهَا وَجِيلَةٌ صَوْرَهُمْ فِيهَا وَتَرَكُهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَانِقِهِمْ مَا دَامُوا مُلَاسِينَ لَهَا يَا لِلْبَشَرِيَّةِ
بِمَا رُكِّبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالْأَسْتِقْمَةِ الَّتِي يَعْمَدُونَ بِهَا ذَلِكَ الْوِجْهَةَ وَرُكِّزَ فِي
طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تُكَشَّفُ بِتِلْكَ الْوِجْهَةِ وَتُسْيَغُ نَعْوَهَا فِيهِمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ
الْأَفْقِ بِذَلِكَ التَّوْزِعِ مِنَ الْإِسْلَامِ مَتَى شَاهُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا لَا يَا كِتَابَ
وَلَا صِنَاعَةٌ فِي ذَلِكَ تَوَجَّهُوا وَاتَّسَلُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعُلَىٰ مَا يَتَلَقَّوْنَهُ
عَابُوا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزَلَّا فِي قُوَّاهَا لِحَكْمَةِ التَّبَلِيجِ لِلْعِبَادَةِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيَا
كَانَهُ رَمْزٌ مِنَ الْكَلَامِ يَا أَخْذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي أُنْقِي إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيُّ إِلَّا وَقَدْ
وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُنْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فِي كَلِمَتِهِ وَيَعِي مَا يَقُولُهُ
وَالْتَّلَقَى مِنَ الْمَلَكِ وَالْرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهِمُهُ مَا أُنْقِي عَلَيْهِ كَلِمَهُ كَانَهُ فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَغْرِي الْبَصَرِ لَا نَهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا تَقْعُدُ جَمِيعًا فَيَظْهَرُ
كَانَهَا سَرِيعَةً وَلِذِكْرِ تَمْكِيتِهِ وَحِيَا لِأَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْلُّغَةِ الْإِسْرَاعُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَوَّلَ وَهِيَ
حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَةُ وَهِيَ حَالَةُ تُمَثَّلُ
الْمَلَكَ رَجُلًا يُخَاطِبُ هِيَ رُتبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَلِذِكْرِ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأَوَّلِ وَهَذَا
مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَرَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّحْمَةَ لِمَا سَأَلَهُ الْخَارِثُ بْنُ
هِشَامٍ وَقَالَ كَيْفَ يَا أَنْتِكَ الرَّحْمَةُ فَقَالَ أَحْيَانًا يَا أَنْتِي مِثْلَ صَلَصلةِ الْجَرْسِ وَهُوَ أَشَدُهُ
عَلَيَّ فَيُفَصِّمُ عَيْنِي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فِي كَلِمَتِي فَأَعِي مَا يَقُولُ
وَإِنَّمَا كَانَتِ الْأَوَّلَى أَشَدَ لِأَنَّهَا مَبْدَأُ الْخُروجِ فِي ذَلِكَ الْأَتِصالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

فيُعسر بعض العُسرِ ولذلك لَمَّا عاجَ فيها على المَدَارِكِ البَشَرِيَّةِ أَخْتَصَتْ بِالسَّمْعِ وَصَبَرَ مَا سِوَاهُ وَعِنْدَ مَا يَشَكِّرُ الْجَهْنَمُ وَبِكُثُرِ التَّلْقِي يَسْهُلُ ذَلِكَ الاتِّصالُ فَعِنْدَ مَا يُعرِجُ إِلَى المَدَارِكِ البَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا الْأَوْضَعُ مِنْهَا وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ وَفِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَعْنَى فِي الْأَوَّلِ يُصِيغُهُ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ يُصِيغُهُ الْمُضَارِعُ لَطِيفَةً مِنَ الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مُجَبِّيَّ التَّمَثِيلِ لِحَالَيِ الْوَحْيِ فَمِثْلَ الْحَالَةِ الْأَوَّلِ يَالْمَدِيَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارِفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَعْنَى يَتَبَعَهُ غَيْرُ اِنْقِضَائِهِ فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ اِنْقِضَائِهِ وَأَنْفَسَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَعْنَى بِالْمَاضِي الْمُطَابِقِ لِلْإِنْقِضَاءِ وَالْإِنْقِطَاعِ وَمِثْلَ الْعَلَكَ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ يَرْجُلُ يَخَاطِبُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ يُسَاوِفُهُ الْوَعْنَى فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّعَدُّدِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلُّهَا صُعُوبَةً عَلَى الْجُمْلَةِ وَشَدَّةً قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا وَقَالَتْ عَائِشَةَ كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً وَقَالَتْ كَانَ يَنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرِدِ فَيَفْصُمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَيْنَةً لِيَتَفَصَّدُ عَرَقًا . وَلِذَلِكَ كَانَ يَجْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطَّيْطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَزَنَا مُفَارِقَةً لِلْبَشَرِيَّةِ إِلَى المَدَارِكِ الْمَكَيَّةِ وَتَلَقَّي كَلَامُ النَّفْسِ فَيَجْدُثُ عَنْهُ شِدَّةً مِنْ مُفَارِقَةِ الدَّازِنَاتِ ذَاتِهَا وَأَنْسِلَاخِهَا عَنْهَا بِنِ اِنْفَهِنَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخِرِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغَطَّرِ الَّذِي عَبَرَ بِهِ فِي مِبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِي الْجَهْدِ ثُمَّ أَرْسَانِي فَقَالَ أَفْرَأَقْلَتُ مَا أَنَا بِقَارِيٌّ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يُفْضِي الْأَعْتِيَادُ بِالْتَّدْرِيجِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَدَّمَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزَلُ بِجُمُونِ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ وَآيَهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَفْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِيَّةِ وَانْظُرْ إِلَى مَا نَقَلَ فِي تُرْزُولِ سُورَةِ بَرَاءَةَ فِي غَزَوةِ تَبُوكَ وَإِنَّهَا نَزَّلَتْ كُلُّهَا أَذَا كَثُرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يَنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ فِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَقْتٍ وَيَنْزَلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا تُرْزُلَ بِالْمَدِيَّةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّولِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ آيَةُ الدِّينِ تُرْزُلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالْذَّارِيَاتِ وَالْمُدَثَّرِ وَالْضَّحْيَ وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا وَأَعْتَزَ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَكَيَّيِّ وَالْمَدِيَّيِّ مِنَ السُّورِ وَالآيَاتِ وَاللهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ هَذَا مُحَصَّلٌ أَمْرٌ الْبُوْءَةُ وَأَمْا الْكَهَانَةُ فَهِيَ أَبْصَرًا

من خواصِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقْدَمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنْتَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْتَعْدَادًا لِلْأَنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوَّقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لَعْنَةً لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْسِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقْرَرُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ وَلَا أَسْتِعْانَةٍ يَشْئِيُّهُ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ الْتَّصَوُّراتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرْكَةً وَلَا يَأْمُرُ مِنَ الْأَمْوَارِ إِنَّمَا هُوَ أَنْسِلَاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكَيَّةِ بِالْفَنْطَرَةِ فِي لَخْنَةٍ أَفْرَبَ مِنْ لَعْنَةِ الْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ أَسْتَعْدَادُ مَوْجُودًا فِي الطَّبَيْعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطِي التَّقْسِيمَ الْعُقْلِيَّ وَإِنْ هُنَّا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَافِعًا مَوْجُودًا فِي الْطَّبَيْعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطِي التَّقْسِيمَ الْعُقْلِيَّ وَإِنْ هُنَّا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَافِعًا مَوْجُودًا فِي الْطَّبَيْعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطِي التَّقْسِيمَ الْعُقْلِيَّ وَإِنْ هُنَّا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَسْعَرَكَ قُوَّتُهُ الْعُقْلِيَّةُ حَرَكَتُهَا الْفِكْرَيَّةُ بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَبْعُثُهَا النَّزُوعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَافِعَةٌ عَنْهُ بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْعِجزُ عِنْ ذَلِكَ تَشَبَّثُ بِأَمْوَارِ جُزِئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيلَةٍ كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَّانَاتِ وَسَبَبِعَ الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَّانَ فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّخَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْأَنْسِلَاخِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَالْمُشْيَعِ لَهُ وَهُنْدِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مُبَدِّدًا لِذَلِكَ الْإِدْرَاكِيِّ فِي الْكَهَانَةِ وَلِكُونِ هَذِهِ النُّفُوسِ مَفْطُورَةً عَلَى النَّفْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ الْكَمَالِ كَمَّا كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي الْجُزَيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْمُتَخَيَّلَةُ فِيهِمْ فِي غَایَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا أَلَّا تَجْزَيَّاتٍ فَشَفَدَ فِيهَا نَفُوذًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْنَاطَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةً عَيْنَكَهَا مُتَخَيَّلَةً وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةُ تَنْتَظِرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقُولُ الْكَاهِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ لَأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَزْفَعَ أَحْوَالَ هَذَا الصِّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّبَبُ وَالْمُوَازِنَةُ لِيُشَغِّلَ بِهِ عَنِ الْخَوَاسِ وَيَقُولُ بَعْضُ الْشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْأَنْتَصَالِ النَّافِصِ بِيَعْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي يُشَعِّبُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لَأَنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرِ الْأَجْنَبِيِّ عَنِ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمُبَاهِنِ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَغُرِّضُ لَهُ الْصِّدْقُ وَالْكَذِبُ حَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثِقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْرَغُ إِلَى الظُّنُونِ وَالْتَّخَمِينَاتِ حِزْصًا عَلَى الظَّفَرِ بِالْإِدْرَاكِ بِزُغْمَهُ وَثَوِيهَا عَلَى السَّائِلَيْتِ وَأَسْخَابِهِ هَذَا السَّبَبُ - هُمْ

الْخَصُوصُونَ بِاسْمِ الْكَهَانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرَ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِهِ هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكَهَانِ بَعْلَ السَّجْعِ مُخْتَصًا بِهِمْ بِمُقْتَضِيِ الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ صَيَّادِ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ يَا الْأَخْبَارِ كَيْفَ يَا تَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ قَالَ يَا تَيْكَ صَادَ فَوَكَادَ بَا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ النُّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا الصِّدْقُ فَلَا يَعْرِيْهَا الْكَذِبُ بِمَحَالٍ لِأَنَّهَا اِتَّصَالٌ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشَيْعٍ وَلَا أَسْتِعَانَةٌ بِأَجْنِيَّةٍ وَالْكَهَانَةُ أَمَّا اِحْتِاجَ صَاحِبِهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِالْتَّصُورَاتِ الْأَجْنِيَّةِ كَانَتْ دَأْخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَالْتَّبَسَتْ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي يَعْلَمُ تَوْجِهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفَهُ الْكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْكَهَانَةِ حَالَةُ السَّجْعِ لَأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخْنَثَ مِنْ سَائِرِ الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْمَرَئَاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ وَتَدْلُّ خَفَّةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ اِلَّا اِتَّصَالٍ وَالْإِدْرَاكِ وَالْبَعْدُ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكَهَانَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ مِنْذَ زَمْنِ النُّبُوَّةِ إِمَّا وَقَعَ مِنْ شَاءَ رَجْمُ الشَّيَاطِينِ بِالشَّهْبِ بَيْنَ يَدَيِ الْبَعْثَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمُتَعَيمِ مِنْ خَيْرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَهَانَةُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَّلَتِ الْكَهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُولُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ لَأَنَّ عُلُومَ الْكَهَانَةِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ قُوَّسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَرْنَاهُ وَأَيْضًا فَالْأَبَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مُشَعِّ الْشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَعْثَةِ وَلَمْ يَتَعَلَّمَا مِمَّا مِوَى ذَلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْانْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ فَقَطْ وَلَعِلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ كُلُّهَا تَخْمَدُ فِي زَمْنِ النُّبُوَّةِ كَمَا تَخْمَدُ الْكَوَاكِبُ وَالسَّرْجُ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ لَأَنَّ النُّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفِي مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَدْهَبُ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءُ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطُ وَهَكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لَأَنَّ وُجُودَ النُّبُوَّةِ لَا يَدْلُهُ مِنْ وَضْعٍ فَلَكِيْ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَعَامِ ذَلِكَ الْوَضْعِ تَعَامِ ذَلِكَ النُّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقْصُ ذَلِكَ الْوَضْعِ عَنِ التَّعَامِ بِقَتْضِيِ وَجْدَ طَبِيعَةِ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَرْنَاهُ فَقَبْلَ أَنْ يَتَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَاهِنُ يَقْعُدُ الْوَضْعُ الْنَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وَجْدَ الْكَاهِنِ إِمَّا وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وَجْدُ الَّذِي يَكْتَمِلُهُ وَأَنْقَضَتِ الْأَوْجَاعُ

الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ وَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ
 الْفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ اَثْرٍ وَهُوَ غَيْرُ مُسْلِمٍ فَلَعَلَّ الْوَضْعَ اِنْمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ اَلْاثَرَ بِهِشَّهُ
 اَخْلَالِصَّةِ وَلَوْ نَقْصَنَ بَعْضُ اَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لَا اِنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ اَلْاثَرَ نَافِصًا كَمَا
 قَالُوا ثُمَّ اِنَّ هُوَلَاءُ الْكَهْنَانَ اِذَا عَاهَرُوا زَمْنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ بَعَارِفُونَ يَصِدِّقُ النَّبِيُّ وَدَلَالَةُ
 مُعْجزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوِجْدَانِ مِنْ اَمْرِ النُّبُوَّةِ كَمَا يَكُلُّ اِنْسَانٌ مِنْ اَمْرِ الْيَوْمِ
 وَمَعْقُوبَيَّةُ تِلْكَ النِّسْبَةِ مَوْجُودَةُ لِلْكَاهْنَ يَا شَدَّ مِمَّا لِلنَّاسِمْ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقَعُهُمْ
 فِي الْكَذِبِ اِلَّا فُوَّةُ الْمَطَامِعِ فِي اَنْهَا نُبُوَّةُ لَهُمْ فَيَقْعُونَ فِي اَعْنَادٍ كَمَا وَقَعَ لِامْبِيَّةُ
 بَنِ اَبِي الْصُّلَّتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ اَنْ يَتَبَعَّدَ وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا
 غَلَبَ اَلْإِيمَانُ وَأَنْقَطَعَتْ تِلْكَ الْآمَانِيُّ اَمْنُوا اَحْسَنَ اِيمَانًا كَمَا وَقَعَ لِطَبِيعَةِ اَلْاسَدِيِّ
 وَسَوَادِ بْنِ فَارِبَ وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفُتوْحَاتِ اِلِّيْسَلَامِيَّةِ مِنْ اَلْاَثَارِ اَشَاهِدَةٌ بِحُسْنِ
 اَلْإِيمَانِ . وَأَمَّا اَرْرُؤُبَا فَهُقَيْقَتِهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ الْذَّاكِرَةِ فِي ذَاتِهَا اَرْوَاحَانِيَّةُ لَحْةٌ مِنْ صُورِ
 اَلْوَاقِعَاتِ فَاِنْهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُورُ اَلْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةٌ بِالْفِعْلِ كَمَا
 هُوَ شَأْنُ الْذَّوَاتِ اَرْوَاحَانِيَّةٌ كَلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً يَا اَنْ تَبْجُرَدَ عَنِ الْمَوَادِ اَلْجَمِيَّانِيَّةِ
 وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَتَدْيَقُ هَذَا دَلِيلُ لَحْةٍ يَسْبِبُ النَّوْمَ كَمَا تَذَكَّرُ فَتَقْتَسِسُ بِهَا عِلْمٌ مَا
 يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنْ اَلْاَمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكَهَا فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ اَلْاقْتِبَاسُ
 ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْحَمَاكَةِ وَالْمِثَالِ فِي الْخَيَالِ لِتَخَلُّصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ اَجْلِ هَذِهِ الْعَمَاكَةِ
 إِلَى التَّغْيِيرِ وَقَدْ يَكُونُ اَلْاقْتِبَاسُ قَوِيًّا يُسْتَغْنِي فِيهِ عَنِ الْحَمَاكَةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَغْيِيرِ
 اِخْلُوصِيهِ مِنْ اَلْمِثَالِ وَالْخَيَالِ وَالسَّبَبِ فِي وُقُوعِ هَذِهِ الْلَّغْعَةِ لِلنَّفْسِ اَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ
 بِالْقُوَّةِ مُسْتَكْتَلَةٌ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتِهَا تَعْقِلًا خَضْرًا وَبَكْمُلَ وُجُودَهَا
 بِالْفِعْلِ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً مَدَرِكَهُ بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْاَلَّاتِ الْبَدَنِيَّةِ اِلَّا اَنَّ
 تَوْعَهَا فِي اَرْوَاحَانِيَّاتِ دُونَ تَوْعِيَةِ الْمَلَائِكَةِ اَهْلِ الْاَفْقِ الْاَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا
 ذَوَاتِهِمْ يَشَئُ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ فَهَذَا اَلْاَسْتِعْدَادُ حَاصلٌ لَمَا مَا دَامَتِ فِي الْبَدَنِ
 وَمِنْهُ خَاصٌ كَالذِّي لِلْأَوْلَيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ اَمْرُ اَرْرُؤُبَا . وَأَمَّا الذِّي
 لِلْاَنْبِيَاءِ فَهُوَ اَسْتِعْدَادٌ بِالْاِسْلَامِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ اِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْعَحْضَةِ الَّتِي هِيَ اَعْلَى
 اَرْوَاحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هَذَا اَلْاَسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الْوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يُعرِّجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا بَقَعَ مِنَ الْإِدْرَاكِ شَيْئًا بِحَالِ النَّوْمِ شَبَهًا
 بِشَكَارَةِ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَدْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلِأَجْلِ هَذَا الشَّبَهِ عَبَرَ الشَّارِعَ عَنْ الْأَرْوَاهِ
 بِأَنَّهَا جُزُءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعينَ جُزُءًا مِنَ النَّبُوَّةِ وَفِي رِوَايَةِ ثَلَاثَةِ وَأَرْبَعينَ وَفِي رِوَايَةِ
 سَبْعِينَ وَلَيْسَ الْعَدْدُ فِي تَحْمِيلِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمَرْادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاقُتِهِ
 الْمَرَاتِبِ بِدَلِيلٍ ذِكْرِ الْسَّبْعِينِ فِي بَعْضِ طُرُوفِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا دَهَبَ
 إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِتَّةِ وَأَرْبَعينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَأِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ
 وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ وَمَدْعَةُ النَّبُوَّةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ
 مِنْهَا جُزُءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعينَ فَكَلَامُ بَعِيدٍ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلَّذِي صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنْ هَذِهِ الْمَدْعَةُ وَقَعَتْ لِغَنْوَرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا
 يُعْطِي نِسْبَةَ زَمْنِ الرُّؤْيَا مِنْ زَمْنِ النَّبُوَّةِ وَلَا يُعْطِي حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوَّةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ
 لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوْلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْأَسْتِعْدَادِ الْأَوَّلُ الشَّاملُ
 لِلْبَشَرِ إِلَى الْأَسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
 إِذْ هُوَ الْأَسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًا فِي الْشَّرِّ وَمَعَهُ عَوَائِقٌ وَمَوَانِعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ
 حُصُولِهِ بِالْفَعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْخَواشِ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى أَرْتِقَاعِ
 حِجَابِ الْخَواشِ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبِيلٌ لَهُمْ فَتَشَعَّرُضُ النَّفْسُ عِنْدَ أَرْتِقَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
 مَا تَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتَدْرُكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لِعَجَّةٍ يَكُونُ فِيهَا الظَّفَرُ
 بِالْمَطَلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ
 قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحةُ يَرَاهَا أَرْجُلُ الصَّالِحِ أَوْ تُرْسِي لَهُ
 وَمَا مَبَبُ أَرْتِقَاعِ حِجَابِ الْخَواشِ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَحِصَهُ لَكَ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقةَ
 إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيْوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بِخَارٌ لَطِيفٌ مِنْ كُزُوهِ الْجَنِّيِّ
 الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيعِ بِجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ وَيَنْبَعِثُ مَعَ الدَّمِ فِي
 الْشَّرِيكَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطِي الْحِسْنَ وَالْحُرْكَةَ وَسَائرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةَ وَيَرْتَقِعُ لَطِيفَهُ إِلَى
 الْدَّمَاغِ فَيُعَدِّلُ مِنْ بَرْدِهِ وَتَنَمُّ أَفْعَالُ الْقُوَى الَّتِي فِي بُطُونِهِ فَالنَّفْسُ النَّاطِقةُ إِنَّمَا تُدْرُكُ
 وَتَعْقُلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبَغَارِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقةٌ بِهِ لِمَا أَفْضَلَهُ حِكْمَةُ النَّكْوِينِ فِي أَنَّ
 الْلَّطِيفَ لَا يُؤْمِنُ فِي الْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطَفَ هَذَا الرُّوحُ الْحَيْوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِ الْبَدَنِيَّةِ

صارَ مَحَلًا لِآثَارِ الْذَّاتِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جَسْمِهِ أَكْثَرَهُ وَهُوَ النَّفْسُ الْأَنْجِلَقَةُ وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدْنِ بِوَاسْطَتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ إِدْرَاكَهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِدْرَاكَهَا بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكَهَا بِالْبَاطِنِ وَهُوَ الْقُوَى الْوَمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكُ كُلُّهُ صَارِفٌ لِمَا عَنِ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَاسُ الْظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً كَانَتْ مُعْرَضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفَشَلِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ الْتَّعَبِ وَالْكَلَالِ وَتَغْشَى الرُّوحُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ تَخَاقَ اللَّهُ لِمَا طَلَبَ الْأَنْجِلَقَمَ لِتَجَرِدُ الْإِدْرَاكُ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِأَنْخِنَاسِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِ الظَّاهِرِةِ كُلِّهَا وَرُجُوعُهُ إِلَى الْحِسْنِ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشِي الْبَدْنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ الْمُرْتَازَةُ الْغَرِيزَةُ أَعْمَاقَ الْبَدْنِ وَتَذَهَّبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشَيْعَةً مَرْكَبَهَا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَنْخَنَسَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِ الْظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ وَخَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَّاغِلُ الْحِسْنِ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثِّلُ مِنْهَا بِالْتَّزْكِيبِ وَالْتَّحْلِيلِ صُورَةُ خَيَالِهِ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهِدَةِ قَرِيبًا ثُمَّ يَنْزَلُهَا الْحِسْنُ الْمُشَتَّرُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ فَيُدْرِكُهَا عَلَى أَنْجَاءِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرُبَّمَا تَقْتَلَتِ النَّفْسُ لَفْتَةً إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةِ تَدْرِكُهُ إِدْرَاكَهَا الرُّوحَانِيِّ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ وَتَقْتَلُهُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُهُ الْحَيَالُ تِلْكَ الصُّورَ الْمُدْرَكَةَ فَيُمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوَ الْحَمَاكَةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعَهُودَةِ وَالْمُحَاكَةِ مِنْ هَذِهِ هِيَ الْمُحْتَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصْرِيفِهَا بِالْتَّزْكِيبِ وَالْتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تَدْرِكَهُ مِنْ تِلْكَ الْلَّعْنَةِ مَا تُدْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ فِي الْصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْوَيَا ثَلَاثَ رُؤُيَا مِنَ اللَّهِ وَرُؤُيَا مِنَ الْمَلَكِ وَرُؤُيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَهَذَا التَّفَصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَأَجْلِي مِنَ اللَّهِ وَالْحَمَاكَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلَكِ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا باطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوُ الْبَاطِلَ هَذِهِ حَقِيقَةُ أَرْوَيَا وَمَا يُسَبِّبُهَا وَيُشَعِّبُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُ النَّفْسِ الْأَإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَإِنْسَانِيِّ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ

لَهُ فِي يَقْضَتِهِ مِرَايَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَّلَ لَهُ عَلَى الْقُطْعَ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرَكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ وَلَا بُدُّ وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَسِعُ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْأَخْوَالِ لِأَنَّ الْأَنَّاتَ الْمُدْرَكَةَ وَاحِدَةٌ وَخَوَاصُهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَاللَّهُ الْمَادِيُّ إِلَى الْحَقِّ بِهِ وَفَضْلُهُ

فَصْلُ * وَوُقُوعُ مَا يَقْعُدُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا فُدْرَةٍ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقُولُ لَمَّا يَتَلَكَّ الْأَنْجَحَةُ فِي النَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَيْ ذَلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْفَاتِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْرِّيَاضَيَّاتِ ذَكَرَ أَسْمَاءَ تُذَكَّرُ عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا أَرْثُرُويَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُسْوِنَهَا الْمَحَالُومِيَّةُ وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةً فِي كِتَابِ الْفَاتِيَّةِ حَالُومَةَ الطَّبَاعِ الْتَّامِ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السِّرِّ وَصِحَّةِ التَّوْجِهِ هُذِهِ الْمُكَلِّمَاتُ الْأَبْجَمِيَّةُ وَهِيَ تَمَانِسُ بَعْدَ أَنْ يَسْوَدَ وَغَدَاسُ نُوفَنَا غَادَسُ وَيَذَكُرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرْسِي الْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي النَّوْمِ * وَحُكِيَ إِنَّ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةِ لِيَالٍ فِي مَا كَلَمَ وَذَكَرَهُ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَاعُكَ الْتَّامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَأَةٌ عَجِيبَةٌ وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَشَوْفُ عَلَيْهَا مِنْ أَخْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤُوْيَا يَعْدِيهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ الْمَحَالُومَاتُ تُعْدِي إِلَيْهَا أَسْتِعْدَادًا فِي النَّفْسِ لِوُقُوعِ الرُّؤُوْيَا فَإِذَا قَوَىَ الْأَسْتِعْدَادُ كَانَ أَفْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعْدِدُ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْأَسْتِعْدَادِ مَا أَحَبُّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ الْمُسْتَعْدَدِ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْأَسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ وَتَدَبَّرُهُ فِيمَا تَحْدُدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

فصل * ثُمَّ إِنَّا تَحْدُدُ فِي النَّوْمِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَقْوِعِهَا بِطَبِيعَةِ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ وَلَا يَسْتَدِلُونَ عَلَيْهِ يَا شَرِّ مِنَ النَّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا يَجِدُ مَدَارَ كُلُّهُ فِي ذَلِكَ بِمُقْنَضَى فِطْرَتِهِمْ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَافِينَ وَالنَّاظِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْمَرَاجِيَا وَطِسَاسِ الْمَاءِ وَالنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الْزَّجْرِ فِي الطَّبَرِ وَالسِّبَاعِ وَأَهْلِ الْطَّرْقِ بِالْحَصَى وَالْمُحْبُوبِ مِنَ الْخِنْطَةِ وَالنَّوْى وَهَذِهِ كُلُّهَا مُوَجَّدةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسْعُ أَحَدًا بِجَهْدِهَا وَلَا إِنْكَارُهَا وَكَذِلِكَ الْمُجَانِينُ يُلْقَى عَلَى الْسِّنَثِيْمِ

كَلِمَاتٌ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمُبَتَّلُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ
 بِالْغَيْبِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكٌ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَيِّلِ
 الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ . وَمَنْعِنُ الْآنَ تَكَلُّمُ عَنْ هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ كُلُّمَا وَبَتَدَئِيْهِ مِنْهَا
 بِالْكَهَانَةِ ثُمَّ نَأَتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا وَنَقْدِمُ عَلَى ذَلِكَ مُقْدَمةً فِي أَنَّ النَّفْسَ
 الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُ لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَا هَا وَذَلِكَ أَنَّهَا
 ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ مُوْجُودَةٌ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ بِالْبَدْنِ وَأَحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُذَرَّكٌ لِكُلِّ
 أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ . وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي يَهَا يَمْ وَجُودُهَا هُوَ عَيْنُ
 الْإِدْرَاكِ وَالْتَّعْقُلِ فَهِيَ تُوجَدُ أَوْلًا بِالْقُوَّةِ مُسْتَعِدَةً لِلِإِدْرَاكِ وَقِبْلُ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ
 وَالْجُوْنِيَّةِ ثُمَّ يَمْ نُشُرُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفَعْلِ بِمُصَاحِبَةِ الْبَدْنِ وَمَا يَعُودُهَا بِوُرُودِ مُذَرَّكَاتِهَا
 الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا وَمَا تَنْتَزَعُ مِنْ تِلْكَ الْإِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ
 مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكُ وَالْتَّعْقُلُ بِالْفَعْلِ فَتَتَمَّ ذَاتِهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ
 كَالْهَيْوَى وَالصُّورَ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ يَمْ حَدُّ الصَّيْيِّ في أَوَّلِ
 شَأْنِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا يَنْوِمُ وَلَا يَكْشُفُ وَلَا يَغْيِرُهَا وَذَلِكَ
 أَنْ صُورَتِهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهِيَ الْإِدْرَاكُ وَالْتَّعْقُلُ لَمْ تَمْ بَعْدَ بَلْ لَمْ يَمْ لَهَا اِنْتِزَاعُ
 الْكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّ ذَاتُهَا بِالْفَعْلِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدْنِ نَوْءَكِنِ مِنَ الْإِدْرَاكِ
 إِدْرَاكُ الْآلاتِ الْجِسمِ تُؤْدِيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ وَإِدْرَاكُ بَذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ
 وَهِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْأَنْفُسِ فِي الْبَدْنِ وَالْحُواَسِنِ وَبِشَوَّاغِلِهَا لِأَنَّ الْحُواَسَنَ أَبْدَأَ جَاذِبَةً
 لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ أَوْلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْغِمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ
 إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفَعُ حِجَابُ الْبَدْنِ لَحْظَةً إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
 مِثْلَ النَّوْمِ أَوْ بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِبعضِ الْبَشَرِ مِثْلَ الْكَهَانَةِ وَالْطَّرْقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ
 مِثْلَ أَهْلِ الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلَقَّفَتْ حِينَئِذٍ إِلَى الْذَوَاتِ الَّتِي فَوَقَفَهَا مِنَ الْمَلَأِ
 لِمَا بَيْنَ أَفْقَهَا وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْاِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَزَنَا قَبْلَ وَتِلْكَ الذَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ
 وَهِيَ إِدْرَاكٌ مُحْضٌ وَعَقُولٌ بِالْفَعْلِ وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فِيَتَجَلَّ
 فِيهَا شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَلَقْتِسُ مِنْهَا عُلُومًا وَرُبَّمَا دُفِعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمُدَرَّكَةُ إِلَى
 الْخَيَالِ فَيَصِرِفُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ الْحِسْنَ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا بِمَرْجَدًا أَوْ فِي

قَوْالِيَهُ فَتَخْبِرُ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحٌ أَسْتَعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْفَيْبِيِّ وَلِنَزْجَعِ إِلَى
 مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيْانِ أَصْنَافِهِ . فَمَا الْمُنَاظِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ مِنَ الْمَرَابِيَّا وَطَسَاسِ
 الْمَيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَّوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الْطَّرقِ بِالْحَصْنِ وَالثَّوَى فَكَلِمُهُمْ مِنْ
 قَبْلِ الْكَهَانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَضْعَفُ زَبَّةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ السَّكَاهَنَ لَا يَحْتَاجُ فِي
 رَفْعِ حِجَابِ الْمُعْسِنِ إِلَى كَثِيرٍ مُعَانَاهُ وَهُوَ لَا يُعَانُونَهُ بِالْمُنَحَّارِ الْمَدَارِ الْحَسِيبِ كُلِّهَا فِي
 نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعْكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَدْرَكُهُ
 الَّذِي يَخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظْنُنُ أَنَّ مُشَاهَدَةَ هُولَاءِ لِمَا يَرَوْنَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمَرَآءِ وَلَيْسَ
 كَذَلِكَ بَلْ لَا يَرَوْنَ يَنْظَرُونَ فِي سَطْحِ الْمَرَآءِ إِلَى أَنْ يَغْبَيَ عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْدُو فِيهَا بَيْنَهُمْ
 وَبَيْنَ سَطْحِ الْمَرَآءِ حِجَابٌ كَانَهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ هِيَ مَدَارُهُمْ فَيُشَبِّرُونَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ تَقْيِيٍّ أَوْ إِثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى مَخْرُومًا
 ادْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمَرَآءُ وَسَا يُدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يُدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَا
 لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوْعُ الْأَخْرُ مِنِ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنِ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ
 يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرَكُ الْنَّفْسَانِيُّ الْحَسِيبُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لِلْمُنَاظِرِينَ
 فِي قُلُوبِ الْحَيَّوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلْمُنَاظِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالْطَّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ
 شَاهَدْنَا مِنْ هُولَاءِ مَنْ يُشْغِلُ الْحَسِيبُ بِالْبَحْرِ فَقَطْ ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلْأَسْتَعْدَادِ ثُمَّ يُغْبِرُ كَمَا
 أَدْرَكَ وَبَرَّ عَمَونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخَّصَةً فِي الْمَوَاءِ شَوْكِيَّ لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ
 إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَغَيْرِهِ هُولَاءِ عَنِ الْحَسِيبِ أَخْفَثُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ
 أَبُو الْغَرَائِبِ . وَأَمَّا الْأَرْجُوُّ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنِ الْكَهَانَةِ بِالْغَيْبِ عِنْهُ
 سُنُوحٌ طَائِرٌ أَوْ حَيَّوَانٌ وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغْيِبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبَعَثُ عَلَى الْحِرْبَصِ
 وَالْفِكْرُ فِيهَا زَجْرٌ فِيهِ مِنْ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ فُؤَدَّهُ الْمُخْتِلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَوْيَةً
 فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِنًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّي بِهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِهِ مَا كَمَا تَقْعُلُهُ الْقُوَّةُ
 الْمُخْتِلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَامِ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَنَجْمَعَهُ
 مَعَ مَا عَقْلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الْجَوَانِينَ فَنَفْوُهُمْ الْمَنَاطِقَ ضَعِيفَةُ التَّعْلُقِ بِالْبَنِينَ
 لِفَسَادِ أَمْرِ جَهَنَّمِ . غَالِبًا وَضُعُفَ الْرُّوحُ الْحَيَّوَانِيُّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرُ مُسْتَغْرِفَةٍ فِي
 الْحَوَامِ وَلَا مُنْفَحِسَةٌ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلْمٍ الْنَّفْسِ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَانَهَا عَلَى

التعلق به روحانية أخرى شيطانية تثبت به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه
التخطي فإذا أصابة ذلك التخطي إما فساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاجة من
النفوس الشيطانية في تعلق غاب عن حسي جملة فأدرك لمحه من عالم نفسه وأنطبع
فيها بعض الصور وصرفها أنيفال وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة
النطق وإدراكه هو إلا كلام مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال
وإن فقدوا الحسن إلا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما فرقناه ومن ذلك يجيء
الكتاب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم
ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن
والتحميم بناء على ما يتوصلون به من مباديء ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك
معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليه المسعودي
في مروج الذهب فما صادف تحييقا ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان
بعيدا عن الوسوخ في المعرفة فينقل ما سمع من أهلها ومن غير أهله وهذه الإدراكات
التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العَرَب يغزون إلى آلهان
في تعرف الحوادث ويتناقرُون إليهم في الخصومات ليعرفُون بالحق فيها من إدراك
غيرهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك وأشهر منهم في الجاهلية شقيق بن أنمار
بن ترار وسطيغ بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا
الجحمة ومن مشهور الحكايات عنهم تأويل زؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به
ملك الجنة للبيعن وملك مصر من بعدهم وظهور النبوة الحمدية في قريش ورؤيا
المُؤيدان التي أولها سطيغ لما بعث الله بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة
وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذا إدراك العرافون كان في العرب منهم كثير
وذكره في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنك إن داوتني لطيف
وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمة
وعراف تجد إن هما شفيفي
فقالا شذاك الله والله ما لنا
بما حملت منك الضلوع يدان

وَعَرَافُ الْيَمَامَةِ هُوَ رَبَاحُ بْنُ عَجْلَةَ وَعَرَافُ نَجْدَ الْأَبْقَى الْأَسْدِيُّ . وَمِنْ هُنْدِ الْمَدَارِكِ الْفَيْئِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَالْتِبَاسِ بِالنَّوْمِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ وَالَّذِي يَتَسَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقْعُدُ ذَلِكُ إِلَّا فِي مَبَادِيِّ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْأَخْتِيَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَمَا يَعْبُولُ عَلَى الْنُّطُقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْعَهُ وَيَفْهَمُهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الدَّقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ زُوْرِسِهِمْ وَأَوْسَاطِ اَبْنَائِهِمْ كَلَامٌ يُعْثِلُ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَأْغَنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنْهُمْ قَتَلُوا مِنْ شُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوْقَبَ أَمْرِهِمْ فِي أَنْقِسِهِمْ فَأَعْلَمُهُمْ بِمَا يُسْتَشْبِعُ . وَذَكَرَ مَسَلَّمَةً فِي كِتَابِ الْقَاتِلَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ اَدْمِيَا اِذَا جُعِلَ فِي دَنْ مَمْلُؤُ بِدِهْنِ الْسِّتْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ اَزْبَعَنَ يَوْمًا بُعْدَى بِالْتِينِ وَالْجَوْزِ حَتَّى يَذَهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ اِلَّا عَرُوقٌ وَشَوْوَنٌ رَأْسِهِ فَيَسْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْدِهْنِ فَيَغْيِثُ عَلَيْهِ الْمَوَادِيْمِ يُجْبِيْعُ عَنْ . كُلُّ شَيْءٍ يُسَأَّلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَمْرِ اَخْتَاصَةً وَالْعَامَةِ وَهَذَا فِعْلُ مِنْ مَنَّا كَبِيرٌ اَفْعَالِ السُّخْرَةِ لِكِنْ يَفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَعَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمَدَرَكِ الْفَيْئِيِّ بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا يَا مَاكَةً حَيْثُعُ . الْقُوَى الْبَدَنِيَّةُ ثُمَّ مَحْوُ اَثَارَهَا الَّتِي تَلوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْذِيَتْهَا بِالَّذِي كَرِي لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نُشُّثِهَا وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجَمْعِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ اَنَّهُ اِذَا نَزَّلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحِسْنُ وَسَجَابُهُ وَأَطَعَمَتِ النَّفْسُ عَلَى الْمُفْسِدَاتِ وَمِنْ هُوَلَاءِ اَهْلِ الْرِّيَاضَةِ السُّخْرِيَّةِ يَوْمَ تَاَضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْاَطْلَاءُ عَلَى الْمُفْسِدَاتِ وَالْتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالَمِ وَكَثِيرٌ هُوَلَاءُ فِي الْاَقَالِيمِ الْمُتَخَرِّفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِالْاَدْهِنِيَّةِ وَيَسْمُونَ هَنَالِكَ الْحُوكَيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كِيفِيَّةِ هَذِهِ الْرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْاَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَآمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتِهِمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ . هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَدْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْصُدُونَ جَمْعَ الْهِمَمِ وَالْاِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكَلِيلِيَّةِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ اَذْوَاقُ اَهْلِ الْعِزَّةِ وَالْتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجَمْعِ التَّغْذِيَّةِ بِالَّذِي كَرِي فِيهَا لَهُمْ وَجْهَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ اِذَا نَشَّأَتِ النَّفْسُ عَلَى الَّذِي كَرِي كَانَتْ اَفَرَبَ إِلَى الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عَرِيَتْ عَنِ الَّذِي كَرِي كَانَتْ شَبَطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْفَيْضِ وَالْتَّصَرُّفِ لِهُوَلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ اِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَفْصُودًا مِنْ اُولِي

الْأَمْرُ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَلِكَ كَانَ الْوِجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ وَالْأَطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرُ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ أَثْرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ يَا الثَّانِي فَهُمْ يَقْصُدُونَ بِوْجَهِهِمْ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِواهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَعْصُلُ فِي الْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْرُءُ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَعْلَمُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَبِسْمِهِ مَا يَقْعُدُ لَهُمْ مِنْ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْخُوااطِرِ فِرَاسَةٌ وَكَشْفًا وَمَا يَقْعُدُ لَهُمْ مِنْ التَّصَرُّفِ كَرَامَةٌ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يُنَكِّرُ فِي حَقِيقَتِهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِنْجِنْ أَلْإِسْفِرِيَّيْنِ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدِ الْمَالِكِيِّ فِي آخَرِيْنِ فِرَارًا مِنِ الْتَّبَاسِ الْمُعْجِزَةُ بِغَيْرِهَا وَالْمَعْوَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّفَرِقةِ بِالْتَّحْدِيدِ فَهُوَ كَافٌ وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَمَّدَ ثَيْنَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُمَرٌ وَقَدْ وَقَعَ الصِّحَّاَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفٌ تَشَهَّدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زَئِنِيمِ كَانَ فَائِدًا عَلَى بَعْضِ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعَرَاقِ أَيَّامَ الْفَتوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْتَرِكِينَ فِي مُعَرَّكَةٍ وَهُمْ بِالْأَنْهَازَامِ وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحِيزُ إِلَيْهِ فَرَفِعَ لِعَمَرَ ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ وَالْقَصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مُثْلُهُ أَبْضَانًا لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ أَبْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَانِ مَا نَحْكُمُهَا مِنْ أُوسَقِ التَّمَرِ مِنْ حَدِيقَتِهِ ثُمَّ نَبَهَهَا عَلَى جَذَادَهِ الْمَحْوَرِهِ عَنِ الْوَرَثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا أَخْوَالُكَ وَأَخْتَارُكَ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَمْهَالٌ فَمَنْ الْأُخْرَى فَقَالَ إِنَّ ذَاهِبَنِيْنَ بَنَتْ خَارِجَةٌ أَرَاهَا جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي الْمُوْطَأِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنِ النَّحْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ الْوَقَائِعِ كَثِيرَهُ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدُهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَهْلَ الْأَقْتِدَاءِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ التَّصَوُّفِ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقُولُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحُضُورِ النَّبِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبِيُّ يَسْلُبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يُفَارِقُهَا وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا الْهِدَايَةَ وَيُرِيدُنَا إِلَى الْحَقِّ

وَمِنْ هُؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفِينَ قَوْمٌ بِهَا يَلِيلٌ مَعْتَوْهُنَّ أَشْبَهُ بِالْمَجَانِينَ مِنَ الْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْأَوْلَايَةِ وَأَخْوَالُ الْصِّدِيقِينَ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ

أَخْوَالِهِمْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّوْقَ مَعَ أَنْهُمْ غَيْرُ مُسْكَلَفِينَ وَبَقْعُ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ
عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ بِعِجَابٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقْبِدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلَقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَبِأَنْوَنَ مِنْهُ
بِعِجَابٍ وَرُبَّمَا يُنْكِرُ الْفُقَاهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ
الْتَّكَلِيفِ عَنْهُمْ وَالْوِلَايَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنْ فَضَلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مِنْ
يَشَاءُ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوِلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرُهَا وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ
ثَابَتَةً الْوُجُودِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْصُهَا مَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهُوَ لَوْلَاءُ الْقَوْمُ لَمْ تَعْدَمْ نُفُوسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ سَخَالُ الْمَجَانِينَ وَإِنَّمَا فَقِدَ لَوْمُ الْعَقْلِ الَّذِي يُنَاطِّلُ بِهِ أَنْكَلِيفِ
وَهِيَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ وَهِيَ عِلْمٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ يَسْتَدِّدُ بِهَا نَظَرَهُ وَبَعْرِفُ أَخْوَالِ
مَعَاشِهِ وَأَسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ وَكَانَهُ إِذَا مَيَّزَ أَخْوَالَ مَعَاشِهِ وَأَسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُذْرٌ
فِي قَبْوِ الْتَّكَالِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مِنْ فَقِدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدِ الْنَّفْسِ وَلَا ذَاهِلٌ
عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودًا الْحَقِيقَةُ مَعْدُومٌ الْعَقْلُ الْمَكْلَفُونِيُّ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ
وَلَا أَسْنَحَالَةُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ أَصْطَفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْتَّكَالِيفِ
وَإِذَا صَعَّدَ ذَلِكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَسِسُ حَالٌ هُوَ لَوْلَاءُ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ تَفَسَّدْ نُفُوسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَيَلْتَعِقُونَ بِالْبَهَائِمِ وَلَكَ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٌ مِنْهَا أَنَّ هُوَ لَوْلَاءُ الْبَهَائِلِ لَا يَجِدُ لَهُمْ
وَجْهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلِقُونَ عَلَى الْبَلَهِ مِنْ وَلِ نَشَأْتُهُمْ وَالْمَجَانِينُ يَعْرُضُونَ لَهُمْ
الْجُنُونُ بَعْدَ مَدَةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَارِضِ بَدَائِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نُفُوسُهُمْ
النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَيْبَةِ وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ
عَلَى إِذْنِ لِعَدَمِ الْتَّكَلِيفِ فِي حَقِيقَهِمْ وَالْمَجَانِينُ لَا تَصَرُّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ أَنْتَهَى بِنَا
الْكَلَامُ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ

وَقَدْ يَرْزَعُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَّا مَدَارِكَ لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةِ عَنِ الْحَسْنِ فَيُنْهِمُ
الْمُنْجِمُونَ الْقَاتِلُونَ بِاللَّدَّلَالَّاتِ الْجَنْوِيَّةِ وَمَقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَاثِ وَآثَارِهَا فِي الْعَنَادِيرِ
وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَمْتَرَاجِ بَيْنَ طَبَاعِهَا بِالْتَّنَاظُرِ وَيَتَادِي مِنْ ذَلِكَ الْمَرَاجِ إِلَى الْهُوَاءِ
وَهُوَ لَوْلَاءُ الْمُنْجِمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هُنَّ ظَنُونٌ حَذَسِيَّةٌ وَتَخْيِيَاتٌ مَبْنِيَّةٌ
عَلَى الْأَكْثَرِ الْجَنْوِيَّةِ وَحُصُولُ الْمَرَاجِ مِنْهُ لِلْهُوَاءِ مَعَ مَزِيدٍ حَدَسٍ يَقْفُلُ بِهِ الْتَّنَاظُرُ عَلَى
تَفَصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بُطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِهِ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْثَبَتْ فَقَائِمَةً حَدْسُهُ وَتَخْمِينُهُ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَا هُوَ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ
 هُوَلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَةِ أَسْتَبَطُوا لِأَسْتِغْرِاجِ الْغَيْبِ وَتَعْرُفُ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَوَهَا خَلَطَ
 الْرَّمْلَ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَيَحْصُلُونَ هَذِهِ الْعِنَاجَةَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
 مِنَ النَّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَزْبَعٍ مَرَاتِبٍ مُخْتَلِفٍ بِاِخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الْزُّفْجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ
 وَأَسْتِوَانِهَا فِيهَا فَكَانَتْ سِتَّةً عَشَرَ شَكَلًا لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَزْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا
 كُلُّهَا فَشَكَلَانِ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَزْبَعَةً أَشْكَالَ وَإِنْ
 كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةً أَشْكَالَ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثَ مَرَاتِبٍ فَأَزْبَعَةً أَشْكَالَ
 جَاءَتْ سِتَّةً عَشَرَ شَكَلًا مَيْزُونًا كُلُّهَا يَأْسَانُهَا وَأَنْواعُهَا إِلَى سُودَ وَنَحْوِينَ شَانَ
 الْكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةً عَشَرَ يَسْنَامَ طَبَيْعَةً بِزَعْمِهِمْ وَكَانَهَا الْبُرُوجُ الْأَلْأَنْمَاءُ عَشَرُ الَّتِي
 لِلْفَلَكِ وَالْأَوْنَادِ الْأَزْبَعَةِ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكَلٍ مِنْهَا يَسْنَامَ وَخُطُوطًا وَدَلَالَةً عَلَى مِنْفِ
 مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعَنَاقِيرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَأَسْتَبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنَا حَادِّوْا بِهِ فَنَّ الْجَامِةِ
 وَتَوْعَ فَضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ الْجَامِةِ مُسْتَنِدَةٌ إِلَى أَوْضَاعِ طَبَيْعَةِ كَمَا يَزْعُمُ تَطْلِيمُوسُ
 وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنِدَهَا أَوْضَاعٌ تَحْكِيمِيَّةٌ وَأَهْوَاءٌ اِنْفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ يَقُولُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا
 وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوتَ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالَ أَوْ
 إِلَى أَدْرِيسَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا شَانَ الْصَنَاعَةِ كُلُّهَا وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّهَا وَيَخْتَجُونَ
 يَقُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُو فَمَنْ وَاقَعَ خَطْهُ فَذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ
 عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطْرِ الْرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَنِيهِ لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ
 نَبِيٌّ يَخْطُو فِيَّا تِيهِ الْوَحْيِ عِنْدَ ذَلِكَ أَخْطَرٌ وَلَا أَسْخَالَةَ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ
 الْأَنْسَيَاءِ فَمَنْ وَاقَعَ خَطْهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَلِكَ أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ أَخْطَرِهِمْ عَصَمَهُ
 مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيُّ الَّذِي كَانَ عَادَتْهُ أَنْ يَأْنِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ أَخْطَرٍ وَأَمَّا إِذَا أَخْدَ
 ذَلِكَ مِنَ الْخَطْرِ بِمُرْجَدًا مِنْ غَيْرِ مَوْافَقَةِ وَحْيٍ فَلَا وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَإِذَا
 أَرَادُوا أَسْتِغْرِاجَ مَغِيبٍ بِزَعْمِهِمْ عَمَدُوا إِلَى قِرْطَاسٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النَّقْطَ
 مَسْطُورًا عَلَى عَدَدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرُوا ذَلِكَ أَزْبَعَ مَرَاتِبٍ فَجَجُوا سِتَّةً عَشَرَ
 سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ النَّقْطَ أَزْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا يَقْيَ مِنْ كُلِّ سَطْرٍ زَوْجًا كَانَ أَوْ فَرْدًا
 فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى الْتَّرْتِيبِ فَشَجَعُوا أَزْبَعَةً أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرٍ مُتَتَالِيَّةٍ ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْهَا

أَزْبَعَةَ أَشْكَالِ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْعَرَضِ بِأَعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابِلُهَا مِنَ الشَّكْلِ الَّذِي يَأْرَأِيهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَّةً أَشْكَالًا مَوْضُوعَةٍ فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَمَا بِأَعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَزْبَعَةَ أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُولَدُونَ مِنَ الْأَزْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهَا ثُمَّ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ الْأَخْمَسَ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السَّتَّةِ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى الْخُطْرِ كُلِّهِ بِمَا أَفْتَضَهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّعُوسَةِ بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْمُحْلُولِ وَالْمِنْزَاجِ وَاللَّدَلَلَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكِيمًا غَرِيبًا وَكَثُرَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي الْعُمْرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّأْكِيفُ وَأَشْتَهَرَ فِيهَا الْأَذَلَامُ مِنَ الْمُتَقْدِمِينَ وَالْمُتَأْخِرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتُ تَحْكِيمًا وَهَوَى وَالْتَّحْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْبَ فِكْرِكَ أَنَّ الْفَيْوَبَ لَا تُدْرِكُ بِصِنَاعَةِ الْبَتَّةِ وَلَا سَيِّلَ إِلَى تَعْرِفَهَا إِلَّا الْخَوَاصُ مِنَ الْبَشَرِ الْمُفْطُورُ بَيْنَ عَلَى الرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْجِنِّ إِلَى عَالَمِ الرُّشُوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمِّي الْمُنْجِمُونَ هَذَا الصِّنْفَ كُلُّهُمْ بِالْأَزْهَرِ بَيْنَ نِسْبَةِ إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَلَالَةُ الْأَزْهَرِ بَيْنَ عِنْدِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيْدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فَأَنْلَطَ وَغَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّاظِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصَيَّةِ وَقَدَّ بِهَذِهِ الْأَمْوَارِ الَّتِي يَنْتَظِرُ فِيهَا مِنَ النَّقْطَةِ أَوِ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْجِنِّ لِلِّتَرْجِعَ الْجِنِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوْحَانِيَّاتِ لِخَظَّةِ مَا فَهُوا مِنْ بَابِ الْطَّرْقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ الْحَيَّاتِ وَالْمَرَاسِيَا الْسَّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَدَّ مَعْرِفَةُ الْغَيْبِ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تَفِيدُ ذَلِكَ فَهَذِهِ مِنَ الْقُولِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَالْعَلَمَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوْجِهِهِمْ إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ يَعْتَرِفُونَ خُروجُهُمْ عَنْ حَالَتِهِمُ الطَّبِيعَةِ كَالْتَّشَاؤُبِ وَأَنْمَطَطِ وَمَبَادِيِّ الْفِيَّةِ عَنِ الْجِنِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضُّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَمَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعِ فِي تَنَفِيقِ كَذِيهِ

وَمِنْهُمْ طَوَافِيْنَ يَفْسَعُونَ قَوَانِينَ لِاِسْخَرَاجِ الْغَيْبِ لَيَسْتَ مِنَ الْطَّوْرِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَدَارِكِ الْجِنِّ الرُّوْحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْجِنِّ الْمَبْنَى عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا

زَعْمَهُ بِطَلِيسُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالْتَّخْمِينِ الَّذِي يُعَاوَلُ عَلَيْهِ الْعَرَافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطٌ
يَجْعَلُونَهَا كَالْمَعَانِيدِ لِأَمْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ
الْمُصَنَّفُونَ وَقَدْ يَوْلَعُ بِهِ الْخَوَاصُ فَنَّ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابُ الَّذِي يُسَوِّنُهُ حِسَابُ النِّيَمِ وَهُوَ
مَذْكُورٌ فِي آخِيرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمُنْسُوبِ لِأَرْسَطُو يُعْرَفُ بِهِ الْفَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي
الْمُتَحَاوِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تَعْسِبَ الْمُحْرُوفَ الْقِيَ فِي أَسْمَ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمْلِ
الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَبْيَادِهِ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْآلَفِ آحَادًا وَعَشَرَاتَ وَمَئِينَ وَالْوَفَاءَ
فَإِذَا حَسِبَتِ الْأِسْمَ وَتَعَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدْ فَأَخْسِبْ أَسْمَ الْآخَرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ
وَاحِدِهِمَا تِسْعَةَ تِسْعَةَ وَاحِدَةً بِقِيَمِهِ هَذَا وَبِقِيَمِهِ هَذَا ثُمَّ اتَّنْظُرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ
مِنْ حِسَابِ الْأَسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدُ أَنْ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ
فَرَدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْآلَفِ مِنْهُمَا هُوَ الْفَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرَدًا
فَصَاحِبُ الْآلَافِ كُثُرٌ هُوَ الْفَالِبُ وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَيْنِ
فَالْمَغْلُوبُ هُوَ الْفَالِبُ وَإِنْ كَانَا مَعًا فَرَدَيْنِ فَالْفَالِبُ هُوَ الْفَالِبُ وَيُقَالُ هَنَالِكَ يَتَّسَكَّنُ فِي
هَذَا أَنْهَمَ أَشْتَهِرَا بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا

أَرَى الْزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسُوُّ أَقْلَاهُمْ . وَأَكْثَرُهُمَا عِنْدَ التَّحَالُفِ غَالِبٌ
وَيُغْلِبُ مَطْلُوبَهُ إِذَا الْزَّوْجُ يَسْتَوِي . وَعِنْدَ أَسْتِوَاءِ الْفَرَدِ يُغْلِبُ طَالِبٌ
ثُمَّ وَضَعُوا الْمَعْرِفَةَ مَا يَقْيِي مِنَ الْمُحْرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهِ تِسْعَةَ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْهُمْ فِي طَرْحِ
تِسْعَةَ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْمُحْرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعَ وَهِيَ (١)
الْدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ(٢) الْدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشَرَاتِ وَ(٣)
الْدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمَئِينَ وَ(٤) الْدَّالَّةُ عَلَى الْآلَفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ
فِي مَرْتَبَةِ الْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْآلَفِ عَدْ يَدْلُ عَلَيْهِ بِالْمُحْرُوفِ لِأَنَّهُمْ هُنَّ الْشَّيْنَ هِيَ آخِرُ
حُرُوفِ أَبْيَادِهِ ثُمَّ رَبِّوْهُ الْآخِرَفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسْقِ الْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهُمَا كَلِمةٌ
رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ابْقَشْ) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْمُحْرُوفِ الْدَّالَّةِ عَلَى أَثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الْثَّلَاثَ
وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْآلَافِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفَ أَبْيَادِهِ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ
الْأَثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الْثَّلَاثَ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الْدَّالَّةُ عَلَى أَثْنَيْنِ فِي الْآهَادِ
وَ(ك) الْدَّالَّةُ عَلَى أَثْنَيْنِ فِي الْعَشَرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ وَ(ر) الْدَّالَّةُ عَلَى أَثْنَيْنِ فِي الْمَئِينَ

وهي مائتان وصيروها كلاماً واحدةً ثلاثة على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حزوف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الأحادي وهي ايقش بكر جلس دمت هنت وصحن زعد حفظ طضع مرتبة على تواли الأعداد ولكن كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فاتواحد الكلمة ايقش وألثنان الكلمة بكر والثلاثة الكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طضع فتكون لها التسعة فإذا أرادوا طرح الأسم بنسعه نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الأسم فإذا كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وإنما أخذوها كما هو معم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا بين وذلك أن الباقى من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كانوا آحاد فلا فرق بين الآتين والعشرين والمائتين والالفين وكلها أثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الأعداد على التواли دالة على أعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الأحادي والشرين والمئين والالوف (١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدده كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا نرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسع مكان هذه ومتوايله كانوا إليها ويفعلون بها في الطرح بنسعه مثل ما يفعلونه بالخرى سواء وهي هذه ارب يسكن جزلط مدوس هف تحدن عش خم تضظر تسع كلمات على تواли العدد ولكن كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثنائي والرباعي والثنائي ولبيست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا يقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيماء وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه أن العمل بهذه

(١) قوله الالوف فيه طاء لأن الحروف ليس فيها ما يبرر عن الالف كما سبق في الكلام

الكلمات في طرح حساب النسخ من العمل بكلمات ابشع والله يعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير معروفة إلى أرسنطون عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد ذلك بذلك تصنفه إن كفت من أهل الرشوخ له . ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيب فيما يزعمون الزايزجة المسماة بزايزجة العالم المعروفة إلى أبي العباس بيبيدي أحمد السقير بن أعلام المتضوفة بال المغرب كان في آخر العادة السادسة يمر أكشن ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة وكثير من الخواض يولعون بإفاده الغيب منها عملياً المعروف الملفوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضيه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلان العناصر والملائكة و الروحانيات وغيرها ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسمة بأقسام فلكلها إما البروج وإما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمعونها الأوتار وعلى كل وتر حروف متساوية موضوعة فنها يرشوم ^(١) الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدوادر والحساب بال المغرب لهذا العهد ومنها يرشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايزجة وبين الدوادر اسماء العلوم ومواضع الاكتوان وعلى ظاهر الدوادر جدول متغير البيوت المتقاطعة طولاً وعرضًا تستعمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة وواحد وثلاثين في الطول جواب منه معمورة البيت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجواب خالية البيت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الحالات وحافات الزايزجة آيات من عروض الطويل على روين اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايزجة إلا أنها من قبيل الإلغاز في عدم التوضيح والجلاء وفي بعض جواب الزايزجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكبر أهل الحدثان بال المغرب وهو مالك بن وهب من علماء الشيشية كان في الدولة الممتوذنة وتصنف البيت سؤال عظيم أخلق حرث فصن إذن غرائب شكي ضبطه الجدد مثلاً وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايزجة

(١) قوله يرشوم أي موضوعة بضم راء جمع رشم باشين المحبة له

وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعه حروفًا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من برج الفلك ودرجهها وعمدوا إلى الزايزجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله مارًا إلى العزكر ثم إلى محيط الدائرة قبلة الطالع فأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما وبصائرها حروفًا بحساب الجمل وقد ينقلون أحادها إلى العشرات وعشرينها إلى المئتين وبالعكس فيما كما يقتضيه قانون العمل عندم ويسعونها مع حروف السؤال وينصيرون إلى ذلك تجميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى العزكر فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول وينصيرونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندم وهو يمت مالك بن وهب المتقدم ويسعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أصل البرج وأسله عندم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الألس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندم البعد عن أول المراتب ثم يضربوه في عدد آخر يسمونه الألس إلا كبير والدوز الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في يوم الجدول على فوانيش معروفة وأعمال مذكوره والأدوار معدودة ويسخر جون منها حروفًا ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطروحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويسخر جون في كل دوز الحرف الذي ينتهي عنده الدوز ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتتألف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو يمت مالك ابن وهب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايزجة وقد رأينا كثيراً من الخواص يتفاقتون على استخراج الغيب منها بذلك الأعمال ويخسرون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليلاً على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لأن قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون

الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال وفروع ذلك في هذه الصناعة في تكسير الحروف
 المجتمعية من السؤال والأوتار والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعية من خرب
 الأعداد المفرومة وأسخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى وعاودة
 ذلك في الأدوار المعدودة ومقابلة ذلك كلـه بحـروف الـبيـت على التـوالـي غير مـشـكـر
 وقد يـقـع الأطـلـاع بـين بعض الأـذـكـاء عـلـى تـنـاسـب بـين هـذـه الأـشـيـاء فـيـقـع لـه مـعـرـفـة
 الـمـجـهـولـ فـالـتـنـاسـب بـين الأـشـيـاء هـوـ سـبـبـ الـمـحـصـولـ عـلـى الـمـجـهـولـ مـنـ الـمـعـلـومـ الـخـاصـلـ
 لـلـنـفـسـ وـطـرـيقـ الـحـصـولـ مـيـمـا مـنـ أـهـلـ الـرـياـضـةـ فـاـنـهـا تـفـيدـ الـقـلـ قـوـةـ عـلـى الـقـيـاسـ وـزـيـادـةـ
 فـي الـفـكـرـ وـقـدـ مـرـ تـعـلـيلـ ذـكـ غيرـ مرـةـ وـمـنـ أـجـلـ هـذـا الـمـعـنـيـ يـتـسـبـونـ هـذـهـ الـرـايـزـجـةـ
 فـي الـغـالـبـ لـأـهـلـ الـرـياـضـةـ فـهـيـ مـنـسـوـبـةـ لـلـسـبـيـ وـلـقـدـ وـقـفـتـ عـلـى أـخـرـىـ مـنـسـوـبـةـ لـسـهـلـ
 بـنـ عـبـدـ اللهـ وـلـعـمـريـ إـنـهـاـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـغـرـبـةـ وـالـمـعـانـاـةـ الـعـجـيـبـةـ وـالـجـوـابـ الـذـيـ
 يـخـرـجـ مـنـهـاـ فـالـسـيـرـ فـيـ خـرـوجـ مـنـظـومـاـ يـظـهـرـ لـيـ إـنـمـاـ هـوـ الـمـقـابـلـ بـحـروفـ ذـكـ الـبـيـتـ
 وـلـهـذـاـ يـكـوـنـ الـنـظـمـ عـلـىـ وـزـنـهـ وـرـوـيـهـ وـيـدـلـ عـلـيـهـ أـنـاـ وـجـدـنـاـ أـعـمـالـأـخـرـىـ لـهـمـ فـيـ مـيـثـلـ
 ذـكـ أـسـقـطـوـاـ فـيـهـاـ الـمـقـابـلـ بـاـلـبـيـتـ فـلـمـ يـخـرـجـ الـجـوـابـ مـنـظـومـاـ كـمـاـ تـرـاهـ عـنـ الـكـلـامـ
 عـلـىـ ذـكـ فـيـ مـوـضـعـهـ وـكـثـيرـ مـنـ النـاسـ تـضـيقـ مـدـارـكـهـمـ عـنـ الـتـصـدـيقـ بـهـذـاـ الـعـمـلـ وـتـقـوـدـهـ
 إـلـىـ الـمـطـلـوبـ فـيـنـكـرـ صـحـتهاـ وـيـخـسـبـ إـنـهـاـ مـنـ الـتـخـيـلـاتـ وـالـإـيمـامـاتـ وـإـنـ صـاحـبـ
 الـعـمـلـ بـهـاـ يـثـبـتـ حـرـوفـ الـبـيـتـ الـذـيـ يـتـنـظـعـهـ كـمـاـ يـرـيدـ بـيـنـ أـثـنـاءـ حـرـوفـ السـؤـالـ وـالـأـوتـارـ
 وـيـفـعـلـ تـلـكـ الـصـنـاعـاتـ عـلـىـ غـيـرـ نـسـبـةـ وـلـاـ فـانـوـنـ شـمـ يـجـيـعـ بـاـلـبـيـتـ وـيـوـهـمـ أـنـ الـعـمـلـ جـاءـ
 عـلـىـ طـرـيقـ مـنـضـيـطـةـ وـهـذـاـ الـحـسـبـانـ تـوـسـعـ فـاسـدـ حـمـلـ عـلـيـهـ الـقـصـورـ عـنـ فـهـمـ الـتـنـاسـبـ بـيـنـ
 الـمـوـجـودـاتـ وـالـمـعـدـومـاتـ وـالـتـفـاوـتـ بـيـنـ الـمـدـارـكـ وـالـعـقـولـ وـلـكـنـ مـنـ شـائـنـ كـلـ
 مـدـرـكـ إـنـكـارـ مـاـ لـيـسـ فـيـ طـوـقـهـ إـدـرـاكـهـ وـيـكـفـيـنـاـ فـيـ رـدـ ذـكـ مـشـاهـدـةـ الـعـمـلـ بـهـذـهـ
 الـصـنـاعـةـ وـالـخـدـسـ الـقـطـعـيـ فـاـنـهـاـ جـاءـتـ بـعـمـلـ مـطـرـدـ وـقـانـوـنـ صـحـيحـ لـأـمـرـيـةـ فـيـهـ عـنـدـ مـنـ
 يـبـاشـرـ ذـكـ مـيـمـنـ لـهـ ذـكـ كـاـءـ وـحـدـسـ وـإـذـاـ كـانـ كـثـيرـ مـنـ الـمـعـاـيـاـةـ فـيـ الـعـدـ الـذـيـ هـوـ
 أـوـضـعـ الـوـاـضـحـاتـ يـعـسـرـ عـلـىـ الـفـهـمـ إـدـرـاكـهـ بـعـدـ الـنـسـةـ فـيـهـ وـخـفـائـهـ فـمـاـ ظـنـكـ بـعـثـلـ
 هـذـاـ مـعـ خـفـاءـ الـنـسـةـ فـيـهـ وـغـرـابـهـاـ فـلـنـذـ كـرـ مـسـتـلـةـ بـنـ الـمـعـاـيـاـةـ يـتـضـعـ لـكـ بـهـاـ شـيـئـ مـاـ
 ذـكـرـنـاـ مـيـثـاـلـ لـوـقـيلـ لـكـ خـدـ عـدـاـ مـنـ الـدـرـاـمـ وـأـجـعـلـ بـإـزاـءـ كـلـ دـرـهمـ ثـلـاثـةـ مـنـ

الفلوس ثم أجمع الغلوس التي أخذت وأشار بها طائرا ثم أشار بالدرارم كلها طيورا
 بسغر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراء بالدرارم بجواهه أن تقول هي تسعه لأنك
 تعلم أن فلوس الدرارم اربعة وعشرون وأن الثلاثة شمعها وأن عده أثمان الوحد
 ثمانية فإذا جمعت الشمع من الدرارم إلى الثمن الآخر فكان كله شمع طائر وهي
 ثمانية طيور عده أثمان الوحد ويزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشترى بما فلوس
 الماخوذة أولاً وعلى سعره أشتريت بالدرارم فتكون تسعه فانت ترى كيف خرج
 لك الجواب المضرر يسر التناصب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي
 إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظاهر أن التناصب
 بين الأمور هو الذي يخرج بجهولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقع الحالقة في
 الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها
 خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعه
 في الزاينجه كلها إنما هي في استخراج الجواب من الفاظ السؤال لأنها كما رأيت
 استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف يعنيها على ترتيب آخر ويسرك ذلك إنما
 هو من تناصب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناصب تيسر عليه
 استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع
 الأفاظه وتراكيمه على وقوع أحد طرق السؤال من تقي أو إثبات وليس هذا من
 المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى
 معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محبوبون عنه وقد استأنف الله يعلمه والله
 يعلم وانتم لا تعلمون



الفصل الثاني

في العمران البدوي والام الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه نصوص وتحميدات

الفصل الاول

في ان احيال البدو والحضر طبيعية

اعلم أن اختلاف الاجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحالتهم من المعاش فـإن اجتماعهم إنما هو للتتعاون على تحصيله وأبتداء ما هو خارجي منه ونشيط قبل الحاجي والستمائي فـنه من يستعمل الفعل من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتفع القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنجوال الدود لتناولها واستخراج فضلاً عنها وهو لاء القائمون على الفعل والحيوان تدعوه الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحوادث من المزارع والفنون والمسارح للحيوان وغير ذلك فـكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضروريًا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشرتهم وعمريائهم من القوت والذيفان إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المتنقلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفاه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقواف والملابس والتأنق فيها وتوسيعة البيوت وأختطاط المدن والأمساك للحضر ثم تزيد أحوال الرفاه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة وبالغها في التأنق في علاج القوت وأسجدادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنحيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها فيستخدمون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صراحها وبالغون في تنحيدها ويختلفون في أسدجدة ما يتخذونه لمعاشرتهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو مأupon وهو لاءهم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمساك والبلدان ومن هؤلاء من ينتفع في معاشه الصنائع ومنهم من ينتفع التجارة

وَتَكُونُ مَكَانِيْهِمْ أَنْتَ وَأَرْفَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لَأَنَّ أَخْوَاهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضروريِّ
وَمَعَاشِهِمْ عَلَى نِسْبَةٍ وَجَدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحُضْرِ طَبِيعَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الحلقة طبيعى

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُنْتَهَلُونَ لِلِّمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ أَلْفَلْعِ
وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنْهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضروريِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجَيِّيْنِ أَوْ كَمَالِيْنِ يَتَّخِذُونَ
الْبَيْوَتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوِ السُّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْجَاهَزَةِ غَيْرِ مُنْجَدِّدَةِ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ
الْأَسْتِظْلَالِ وَالْكِنْ كَمَّا وَرَاهُهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ وَالْكَهْفِ وَأَمَّا أَقْوَاتِهِمْ
فَيَتَّنَاهُونَ بِهَا بِسِيرًا يَعْلَاجُ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجِ الْبَلَةِ إِلَّا مَا مَسْتَهُ النَّازِ فَمِنْ كَانَ مَعَاشَهُ مِنْهُمْ
فِي الْزِرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفَلْعِ كَانَ الْمَقْامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الْفَطْعَنِ وَهُوَ لَاءُ سُكَانِ الْمَدَرِ
وَالْقُرَى وَالْجَيَالِ وَهُمْ عَامَةُ الْبَرَبِّ وَالْأَعْاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشَهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلُ الْفَنَمِ
وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظَعُونُ فِي الْأَغْلَبِ لِأَرْتِيادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَاةِ أَنْهُمْ فَالْتَّقْلِبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَعُ بِهِمْ وَيُسْمَونَ شَاوِيَّةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُعْدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِفَقَدَانِ الْمَسَارِحِ الْطَّبِيعِيِّ وَهُوَ لَاءُ مِثْلِ الْبَرَبِّ وَالْتُرْزِكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ الْتُرْكُمانِ وَالصَّفَالِيَّةِ
وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشَهُمْ فِي الْأَيْلِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَفَّرًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ بِمَجَالًا لَا مَسَارِحَ
الْتَّلُولِ وَبَنَاتِهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِي بِهَا الْأَيْلِلُ فِي قَوَامِ حَيَاةِهَا عَنْ مَرَاعِيِّ الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ
وَوَرَودِ مِيَاهِهِ الْمَلِحَةِ وَالْتَّقْلِبِ فَصَلَّ الْشِنَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَذَى الْبَرَدِ إِلَى دَفَعَهِ
هَوَانِهِ وَطَلَبَ لِمَا خِضَ الْنِتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذَا الْأَيْلِلُ أَصْبَعُ الْحَيَوانَ فِصَالًا وَخَاضًَا
وَأَخْوَجَهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّرِفِ فَأَضْطَرُوا إِلَى إِبعادِ النَّجْعَةِ وَرَبَّمَا زَادَتْهُمُ الْحَمَامِيَّةُ عَنِ
الْتَّلُولِ أَيْضًا فَلَا وَغَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفَرَةً عَنِ الْمُضِعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوْحِشًا
وَيَنْزَلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَافِيرِ مَنْزَلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمَفْتُرِسِ مِنَ الْحَيَوانِ
الْعَجمِ وَهُوَ لَاءُهُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظَعُونُ الْبَرَبِّ وَزَنَاتَهُ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادُ وَالْتُرْكُمانُ
وَالْتُرْزِكُ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ بَعْجَةً وَأَشَدُ بَذَاوةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُونَ بِالْقِيَامِ عَلَى

الإِيلَى فَقَطْ وَمُؤْلَأً يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشَّيَاءِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ
الْمُبِيِّعِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْعِمَرَانِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في أن البدو اقدم من الحضر سابق عليه وأن البدوية أصل العمران
والامصار مدد لها

فَدَّ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدْوَمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الْفَرُورِيِّ فِي أَخْوَالِهِمْ الْمَاجِزُونَ عَمَّا
فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فِي أَخْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا
شَكَّ أَنَّ الْفَرُورِيِّ أَقْدَمُ مِنَ الْمُجَاهِيِّ وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقُ عَلَيْهِ وَلَا الْفَرُورِيِّ أَصْلُ
وَالْكَمَالِيِّ فَرْعَ نَاثِيٌّ عَنْهُ فَالْبَدْوُ أَصْلُ الْمَدْنِ وَالْحَضَرُ وَسَابِقُ عَلَيْهِمَا لَأَنَّ أَوْلَ
مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الْفَرُورِيُّ وَلَا يَتَشَعَّبُ إِلَى الْكَمَالِ وَالْتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْفَرُورِيُّ
حَاصِلًا فِي خُسُونَةِ الْبَدَأَوَةِ قَبْلَ رِقَةِ الْمُخَضَّارَةِ وَلِهَذَا نَجَدُ التَّمَدْنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَتَعَرِّي إِلَيْهَا
وَيَتَشَعَّبُ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الْرِيَاضِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَخْرَالُ
الْتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجِلًا إِلَى الدَّعَةِ وَأَمْكَنَ تَفْسِهُ إِلَى قِيَادَةِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَانُ الْقَبَائِلِ
الْمُبَدِّرَيَّةِ كُنْهِمْ وَالْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَعَّبُ إِلَى أَخْوَالِ الْبَادِيَّةِ إِلَّا لِفَرُورَةِ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا
أَوْ لِتَقْصِيرِ عَنِ الْأَخْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشَهِّدُ لَنَا أَنَّ الْبَدْوَ أَصْلُ الْحَضَرِ وَمَتَقَدِّمُ
عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشَنَّا أَهْلَ مَصْرِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أُولَئِيَّةَ أَكْثَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ الَّذِينَ
بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالْتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ يَدْلُلُ عَلَى أَنَّ
أَخْوَالَ الْمُخَضَّارَةِ نَاسِيَّةٌ عَنِ الْأَخْوَالِ الْبَدَأَوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَفَهَّمُهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ
وَاحِدٍ مِنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ مُشْفَاقُ الْأَخْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ فَرُوبٌ حَيْ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقِيلَةٌ
أَعْظَمُ مِنْ قِيلَةٍ وَمَصْرُ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُهُمْ أَنَا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ
وُجُودَ الْبَدْوِ مَتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا يَسِّماً أَنَّ وُجُودَ الْمَدْنِ
وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ الْتَّرَفِ وَالْدَّعَةِ الَّتِي هِي مَتَّخِرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الْفَرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببيه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متيبة لا يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فما بواه به ودانه أو ينصرانه أو يحسنه وقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين بعد عن الآخر وبصعب عليها أكتسابه فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملائكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوايد الترف والأقبال على الدنيا والجحود على شهواتهم منها وقد تلوّنت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومساكله وقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الخسنة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقدعون في أقوال الفحشاء في مجالسيهم وبين كبرائهم وأهل محارفهم لا يصدّهم عنه وازع الخسنة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قوله وعملاً وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا آلة في المقدار الضروري لأن في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات والذات ودوايعها فعوايدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وبعد عمما ينطبع في النفس من سوء الملائكت بكثرة العوائد المذمومة وقبعها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد يتوضأ فيما بعد أن الخضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين ولا يعارض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلامة بن الأسود وقد بلغه أنه خرج إلى سكني البدوية فقال له أزتدت على عقبيك تعرّبت فقال لا ولحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو فاعلم أن العجزة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حلّ من المؤاطن ينصرونه ويظاهرونها على أمره ويحرر سونه ولم تكون واجهة على الأغراض

أهل الْبَادِيَةِ لَأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَعْسُمُونَ مِنْ عَصَمِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظَاهَرَةِ
 وَالْمُحَرَّسَةِ مَا لَا يَعْسُمُ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَغْرِابِ وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِذُونَ بِاللَّهِ
 مِنَ الْتَّرْبُّ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لَا تَجِعُ الْهُجُرَةُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
 حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاسٍ عَنْ مَرْضِهِ بِمَكَّةَ أَلَّا هُمْ أَمْضُ لِأَعْتَابِهِ هُجُورَهُمْ وَلَا
 تَرْدُمُ عَلَى أَعْتَابِهِمْ وَمَنْهَا أَنْ يَوْنِفُهُمْ لِلْمُلَازِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ الْمُشُولِ عَنْهَا فَلَا يَرْجِعُوا
 عَنْ هُجُورِهِمْ أَلَّا أَبْتَداً وَهُوَ مِنْ يَاكِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقِبِ فِي السُّنْنِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ
 الْأَوْجُوهِ وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهُجُرَةِ
 لِقَلْةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا مَبْعَدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَأَعْزَوُا وَتَكَبَّلَ اللَّهُ تَبَارَكَ
 بِالْعَصْمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهُجُرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا هُجُرَةَ بَعْدَ
 الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ إِنْ شَاءُهَا عَمَّنْ يُسْلِمُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وُجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ
 قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْمُكَلُّ بِمُجْمِعِهِ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ سَاقِطَةٌ لَأَنَّ الصَّحَابَةَ أَفْتَرَوْا مِنْ يَوْمِئِذٍ
 فِي الْأَفَاقِ وَأَنْقَشَرُوا وَلَمْ يَقِنُ إِلَّا فَضَلَّ الشَّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجُرَةٌ فَقَوْلُ الْعَجَاجِ
 يَسْلَمُهُ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ أَرْتَدَتْ عَلَى عَقَبَيْكَ تَعْرِبَتْ نَعْنَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ الشَّكْنَى
 بِالْمَدِينَةِ مَا لَا إِشَارةَ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ الَّذِي قَدَّمَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرْدُمُ عَلَى أَعْتَابِهِمْ
 وَقَوْلُهُ تَعْرِبَتْ إِشَارةً إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَغْرِابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلَمَةُ
 بِإِنْكَارِ مَا أَزْمَمَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ
 ذَلِكَ خَاصًا بِهِ كَشَهَادَةٌ خُزِيمَةٌ وَعَنَاقٌ أَبِي بُرْدَةَ أَوْ يَكُونُ الْعَجَاجُ إِنَّمَا نَعْنَى عَلَيْهِ
 تَرْكَ الشَّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعِلْمِهِ يَسْقُطُ الْهُجُرَةُ بَعْدَ الْوَفَاءِ وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّ
 اغْتِنَامَهُ لِأَذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَفْضَلُ فَمَا أَثْرَهُ بِهِ وَأَخْتَصَهُ إِلَّا لِمَعْنَى
 عِلْمِهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَرَ عَنْهُ بِالْتَّرْبُّ لَأَنَّ
 مَشْرُوعِيَّةُ الْهُجُرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْرَاسَتِهِ
 لَا مَذْمَةُ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى تَرْكِهِ هَذَا أَلْوَاحِبُ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمَةِ الْتَّرْبُّ وَأَنَّ اللَّهَ
 سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك ان اهل الحضر اقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة والتمسو في النعيم والترف ووكلوا امرهم في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحاكمية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسور التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيبة ولا يتفرّ لهم صيد فهم عازون آمنون قد القوا السلاح وتواتت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على ابي مشواهم حتى صار ذلك خلقا ينزل منزلة الطبيعة واهل البدو لفردتهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدم عن الحماية وانتباذهم عن الاسور والابواب فائمون بالمدافعة عن انفسهم لا يتكلونها الى سواهم ولا يتقدون فيها بغيرهم فهم دائمآ يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطريق ويعاقبون عن التهوع الا غرارة في التجالس وعلى الرحال وفوق الاقناب ويتجسسون للبنات والهبات ويتفردون في القرى والبيداء مدلين بياسمهم واثقين بانفسهم قد صار لهم الباس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع او استدرهم صارخ واهل الحضر مهما خالطوم في البداية او صاحبوم في السفر عيال عليهم لا يمكنون معهم شيئا من امر انفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشاريع السبيل وسبب ذلك ما شرحته واصله ان الانسان ابن عواده وما لوفه لا ابن طبيعته ومزاجه قال الذي انت في الاحوال حتى صار خلطا وملكا وعاده تنزل منزلة الطبيعة والجلالة واعتبر ذلك في الادميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر للادلة مفسدة للباس فهم ذاهبة بالمنفعة منهم وذلك انه ليس كل احد مالك امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لا امر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغائب ان يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فما كان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان الناس من تحت

يَدِهَا مُذْلِّينَ بَهَا فِي أَنفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنَ وَأَثْقَنَ بِعَدَمِ الْوَازِعِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ
 الْإِذْلَالُ جَبْلَةً لَا يَعْرِفُونَ سُوَاهَا وَأَمَا إِذَا كَانَتِ الْمَلَكَةُ وَأَحْكَامُهَا يَا لِلْقَهْرِ وَالسُّطْنَوَةِ
 وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِمْ وَتُذَهِّبُ الْمُنْعَةَ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنْ
 الْكَاسِلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَهَدَةِ كَمَا يُنِيبُهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرٌ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ
 مِثْلِهَا لَمَّا أَخْذَ زَهْرَةَ بْنَ حَوْبَةَ سَلَّبَ الْجَالِنُوسَ وَكَانَتْ قِيمَتُهُ خَمْسَةَ وَسَبْعَيْنَ الْفَلَانِ مِنْ
 الْذَّهَبِ وَكَانَ أَتَيَ الْجَالِنُوسَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَقُتِلَهُ وَأَخْذَ سَابِهَ فَأَنْزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ
 لَهُ مَلَّا أَنْتَظَرْتَ فِي اتِّبَاعِهِ إِذْنِي وَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ تَعْمَدُ إِلَيْ
 مِثْلِ زَهْرَةِ وَقَدْ صَلَّى بِهِ وَبَقَيَ عَلَيْكَ مَا بَقَيَ مِنْ حَرَبِكَ وَتَكْسِرُ فُوقَهُ وَتُفْسِدُ
 قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَابِهَ وَأَمَا إِذَا كَانَتِ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فَمُذْهَبَةٌ لِلْبَأْسِ يَا لِلْكَلْبَةِ
 لَآنَ وُقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْ تَقْسِيمِ مُسْتَكْبِهِ الْمَذَلَّةِ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِ
 بِلَا شَكٍ وَأَمَا إِذَا كَانَتِ الْأَحْكَامُ تَأْدِيْبَةً وَتَعْبِيَّةً وَأَخْتَى مِنْ عَهْدِ الصِّبَا أَثْرَتَ
 فِي ذَلِكَ بَعْضَ الْذَّيْءِ لِمَرْبَاهُ عَلَى الْعَخَافَةِ وَالْأَنْقِيَادِ فَلَا يَكُونُ مُذِلًا بِيَأْسِهِ وَلِهُدَا تَبَّاجِدُ
 الْمُتَوَحِشِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْسًا مِنْ تَأْخِذَهُ الْأَحْكَامُ وَتَنْهَى أَيْضًا الَّذِينَ
 يُعَاقِبُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَّكَتْهَا مِنْ لَذْنِ مَرْبَاهُمْ فِي التَّأْدِيبِ وَالْتَّعْلِمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْعُلُومِ
 وَالْتَّوْبَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنفُسِهِمْ عَادِيَّة
 بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُتَخَلِّبِينَ لِلقراءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْعَشَائِيجِ
 وَالْأَيْمَةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِمِ وَالْتَّأْدِيبِ فِي مَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالْهَمَيَّةِ فِيهِمْ هُذِهِ الْأَحْوَالُ
 وَذَاهَبُهَا بِالْمُنْعَةِ وَالْبَأْسِ وَلَا تَسْتَكِرُ ذَلِكَ بِهَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِالْأَحْكَامِ
 الَّذِينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا لَآنَ الشَّارِعِ
 صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخْذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا
 تَلَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالْتَّرْهِيبِ وَلَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّمُ صَنَاعَيِّ وَلَا نَادِيَ تَعْلِيمِي إِنَّمَا
 فِي أَحْكَامِ الَّذِينِ وَآدَابِهِ الْمُتَلَقَّاهُ نَقْلًا بِأَخْذِهِنَّ أَنْفُسِهِمْ بِهَا يَمْارِسُونَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ
 الْإِيمَانِ وَالْتَّصْدِيقِ فَلَمْ تَرْلِ سَوْرَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَكْبِهَ كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْدِشْهَا أَظْفَارُ
 التَّأْدِيبِ وَالْحُسْنَى قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤْدِيْهُ الشَّرْعُ لَا أَدْبِهُ اللَّهُ حِرْصًا
 عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَازِعُ لِكُلِّ أَخْدِيْنَ نَفْسِهِ وَبِقِيَّاً يَا لَآنَ الشَّارِعُ أَعْلَمُ بِعَصَاحِ الْعِيَادِ

وَلَمَّا تَنَافَصَ الْدِرِّيْنُ فِي النَّاسِ وَأَخْذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالْتَّعْلِمِ وَالنَّادِبِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْخَسَارَةِ وَخُلِقَ الْأَنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سُوْرَةُ الْبَاسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالْتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَاسِ لَاَنَّ الْوَازِعَ فِيهَا ذَاتٌ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالْتَّعْلِيمِيَّةَ مِمَّا تُؤْثِرُ فِي أَهْلِ الْمَوَاضِيرِ فِي ضَعْفِ تَفْوِيهِمْ وَخَضْدِ الشُّوَكَّةِ مِنْهُمْ بِمَا تَهْمِمُ فِي وَلِيْدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ وَالْبَدْرِ يَمْعَزِلُ مِنْ هَذِهِ الْمُتَزَلَّةِ لِبَعْدِهِمْ عَنِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالْتَّعْلِمِ وَالْأَدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي الْأَحْكَامِ الْمُعْلَمِيَّ وَالْمُتَعَلِّمِيَّ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَعْوِدِ بِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّابِيَّانِ فِي الْتَّعْلِمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ تَقْلِهُ عَنْ شُرَبَيْنِ الْقَاضِيِّ وَأَخْتَمَ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْمَوْحِيِّ مِنْ شَأْنِ الْفَطْرِ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنَ الْفَطْرِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ بِعْدِهِ عَنِ الْتَّعْلِمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهُ أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ الْخَيْرِ

الفصل السابع

فِي أَنْ سَكَنَى الْبَدْرِ لَا تَكُونُ لَا يَقْبَلُ الْأَهْلُ الْعَدْدِ

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكِبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَبَنَاهُ الْمُجَدَّدُينَ وَقَالَ فَمَا أَنْهَمَهَا فِجُورَهَا وَنَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبَ الْخَلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمَلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدِهِ إِلَيْقِدَاءِ بِالْدِرِّيْنِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجُمُمُ الْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَقَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمْ الظُّلْمُ وَالْعُدُوانُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ أَمْتَدَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَنَاعِيْهِ فَقَدْ أَمْتَدَتْ يَدُهُ إِلَى أَخْدِهِ إِلَّا أَنْ يَعْدِهِ وَازِعُ كَمَا قَالَ

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَمْجِدْ ذَا عِفَّةِ فَلَعِلَّهُ لَا يَظْلِمُ وَمَا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدُوانٌ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكْمَ وَالْمَوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَبِدِيِّ مِنْ تَحْتِهِمْ مِنْ الْكَافَةِ أَنْ يَمْتَدَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُ عَلَيْهِ فَهُمْ مُكْبِحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالْسُّلْطَانِ عَنِ التَّنَظَّلِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَمَا الْعُدُوانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْفَقَلَةِ أَوْ الْغَرَقِ إِلَّا أَوْ أَنْجَزَ عَنِ الْمَقَاؤِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ أَرْدِيَادُ الْحَامِيَّةِ مِنْ أَغْوَانِ الْمَوْلَةِ عِنْدَ الْأَسْتِعْدَادِ وَالْمَقَاؤِمَةِ وَمَا أَخْيَاهُ الْبَدْرُ فَيَرْجِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكُبَرُاؤُهُمْ بِمَا وَفَرَّ فِي

تُؤْسِي الْكَافَةَ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالْتَّجَلَةِ وَأَمَا حَالَهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةً
 الْأَلْيَى مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمْ الْمُعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُى دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ
 إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَيَّةً وَأَهْلَ نَسْبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشَدُّدٌ شَوْكَتْهُمْ وَيُخْسِي جَانِبَهُمْ
 إِذْ نُعَرَّةٌ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى نَسْبِهِ وَعَصَبَتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ
 وَالنُّعَرَةِ ^(١) عَلَى ذَوِي أَزْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مُوجُودَةٌ فِي الْطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُونَ
 الْتَّعَاهُدُ وَالْتَّنَاءُورُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَأَعْتَزُزُ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنِ الْأُخْرَةِ
 يُوْسُفُتْ عَلَيْهِ الْسَّرَّامُ حِينَ قَالُوا لِأَيْهِ لَئِنْ كَلَّهُ الدَّنَبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاهِسِرُونَ
 وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتُوَهِّمُ الْعُدُوُانَ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعِصَبَةِ لَهُ وَأَمَا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي
 أَسَابِيهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعَرَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ الْجُوَاثُ بِالثَّرَّ يَوْمَ
 الْحَرْبِ تَسَلَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَغْيِي النَّجَاهَ لِنَفْسِهِ خِفَةً وَأَسْتِيحاً مِنَ الْتَّخَاذِلِ فَلَا
 يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقُفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُمْ مِنَ
 الْأَنْمَامِ سِوَامِمٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي يَتَعَاجِلُ لِلنُّدَافَةِ وَالْحِمَايَةِ فَيَمْثُلُهُ
 يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَعْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلَكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلوغُ
 الْفَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَتَمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْأَسْتِعْصَاءِ وَلَا
 بُدُّ فِي الْقِتَالِ مِنْ الْعَصَبَيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَنِّفَا فَأَتَخَذِهُ إِمَامًا لِتَقْتِدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ
 بَعْدَ وَاللَّهُ الْمُؤْمِنُ بِالصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية اما تكون من الاتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنْ صَلَةَ الرَّحْمِ طَبَيعَةٌ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَلْفَلِ وَمِنْ صِلَتِهَا النُّعَرَةُ عَلَى ذَوِي
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالُهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبُهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَعِدُ فِي تَفْسِيرِ
 غَصَّاصَةٍ مِنْ ظُلْمٍ قَرِيبٍ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوْدُ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ
 وَالْمَهَاكِلَ تَرْتَعَةٌ طَبَيعَةٌ فِي الْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ النَّسْبُ الْمُتَوَاضِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاسِرِينَ
 قَرِيبًا جِدًا بِجِيَثٍ حَصَلَ بِهِ الْأَتَهَادُ وَالْأَتَحَامُ كَانَتِ الْوَصْلَةُ ظَاهِرَةً فَأَسْتَدَعَتْ ذَلِكَ
 بِعْجَرَدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعْدَ النَّسْبِ بَعْضَ الشَّيْءِ فَرَبِّمَا تُوْسِيَ بَعْضُهَا وَيَقْبَقَ مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النُّعَرَةُ وَالنَّعَارُ بِالْمَصْرُ فِيهِمَا وَالْعِيرُ الْمَرْأَةُ وَالصِّيَاحُ فِي حَرْبٍ أَوْ شُرُكَاءُ كَمَا فِي الْقَامُوسِ

فَتَحْمِلُ عَلَى النَّصْرَةِ لِنَوْيِ نَسَبَهُ بِالْأَمْرِ الْمُشَهُورِ مِنْهُ فَوَارًا مِنَ الْفَضَادَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي
نَسَبِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْدٍ وَمَنْ هَذَا الْبَابُ الْوَلَاءُ وَالْخِلْفُ إِذْ نُعْرَةٌ كُلُّ
أَحَدٍ عَلَى أَهْلٍ وَلَائِهِ وَحَلْفِهِ لِلْلَّالِفَةِ الَّتِي تَلْعُقُ النَّفْسَ مِنْ أَهْتِضَامٍ جَارِهَا أَوْ قَرِيبَهَا أَوْ
نَسِيبَهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وُجُوهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ الْتَّحْمِمِ الْمَحَاصلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لَحْمَةِ النَّسَبِ
أَوْ قَرِيبَهَا مِنْهَا وَمَنْ هَذَا تَقْهِيمٌ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْلَمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا
تَصْلُونَ بِهِ أَزْحَامَكُمْ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْأَنْتِحَامُ الَّذِي يُوجَبُ حِيلَةً
الْأَزْحَامِ حَتَّى تَقْعُدَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَغْنَى عَنْهُ إِذْ النَّسَبُ أَمْرٌ وَسَمِيُّ
لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَقْعَدُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوُصْلَةِ وَالْأَنْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضْحَى حَمَلَ
النُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا فُلِنَاهُ وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفَ
فِيهِ الْوَسْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّفُلُ بِهِ مَجَانًا وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ وَالْعَنْتَهِي عَنْهُ وَمِنْ
هَذَا الْأَعْتِيَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهَالَةٌ لَا تُفْرِزُ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا
خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعِلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَسْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَأَنْتَفَتِ
النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْحَصْبَيَّةَ فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انا يوجد للتتوحشين في القفر من العرب
ومن في معناهم

وَذَلِكَ لِمَا أَخْتَصُوا بِهِ مِنْ تَكْدِ الْبَيْشِ وَشَظَفَ الْأَخْوَالِ وَسُوءَ الْمَوَاطِنِ حَمَلُتُهُمْ
عَلَيْهَا الْفَسَرُوَرَةُ الَّتِي عَيْنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْفِسْمَةَ وَهِيَ لَمَّا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَوْبِلِ
وَتِنَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْأَوْبِلُ تَدْعُوْمٌ إِلَى التَّوْحِشِ فِي الْقَفْرِ لِرَعِيَّهَا مِنْ شَجَرَهُ وَتِنَاجِهَا فِي
رِمَالِهِ كَمَا تَقْدَمَ وَالْقَفْرُ مَكَانٌ أَشَظَفَ وَالسَّفَرُ فَصَارَ لَهُمْ إِلَفًا وَعَادَةً وَرَبِيتَ فِيهِ
أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِلَةً فَلَا يَنْزَعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَمْمَانِ أَنْ يُسَاهِمُهُمْ فِي
حَلَمِهِمْ وَلَا يَأْنِسُهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدًا مِنْهُمْ السَّيْلَ إِلَى الْفَرِسَارِ مِنْ
حَالِهِ وَأَمْكَنَهُ ذَلِكَ لَمَّا تَرَكَهُ فِيؤْمَنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ أَخْتِلَادِهِ أَنْسَابِهِمْ وَفِسَادِهِ
وَلَا تَرْزَالُ بِيَنْهُمْ مَحْفُوظَةً صَرِيحَةً وَأَعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي مُضَرِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِبَانَةَ وَثَقِيفَ وَبَنِي
أَسَدٍ وَهَذِيلٍ وَمَنْ جَاَوْرُهُمْ مِنْ خُزَاعَةَ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَظَفَ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ ذَرْعٍ

وَلَا خَرَعْ وَبَعْدُوا مِنْ أَزْيَافِ الشَّامِ وَالْمَرْاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ وَالْجُوبِ كَيْفَ كَانَتْ
أَسَابِيهِمْ صَرِيقَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلُهَا أَخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ
كَانُوا بِالثَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخَصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعِيشِ مِنْ حِمِيرٍ وَكَلَانَ مِثْلَ لَخْمٍ وَجَذَامَ
وَغَسَانَ وَطَيَّ وَقَضَاءَ وَإِيَادَ فَأَخْتَلَطَتْ أَسَابِيهِمْ وَتَدَاخَلَتْ شَعُوبُهُمْ فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
يُوتِهمْ مِنْ الْخَلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرَفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعِجمِ وَمَخَالِطَتِهِمْ
وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمَحَافَظَةَ عَلَى النَّسَبِ فِي يُوتِهمْ وَشَعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ .
قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا تَبْطِيلَ السَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ
عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْبَةٍ كَذَّا هَذَا أَيْ مَا لَحِقَ هُوَلَاءُ الْعَرَبَ أَهْلَ الْأَزْيَافِ مِنْ الْأَزْدَحَامِ
مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الْطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيبَةِ نَكَرُ أَخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلُ الْأَسَابِ
وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْأَتْسَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدُ قَنْسُرِينَ جُنْدُ
دِمْشِقَ جُنْدُ الْعَوَامِيْمِ وَاتَّقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لَأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرَ النَّسَبِ
وَإِنَّمَا كَانَ لِأَخْتِصَارِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةً
زَائِدَةً عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرِ كَاهِنِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ أَخْتِلَاطُ فِي الْحَوَادِيرِ مَعَ الْعِجمِ
وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتْ الْأَسَابِ بِالْجُمْلَةِ وَفَقَدَتْ شَعُورُهُمْ مِنَ الْعَصِيبَةِ فَأَطْرَحَتْ ثُمَّ تَلَاثَتْ
الْقَبَائِلُ وَدُثِّرَتْ فَدُثِّرَتِ الْعَصِيبَةُ بِدُثُورِهَا وَبَقَيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إِعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْبَيْنِ أَنْ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ
إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وَلَاءً أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِعِنَابَةٍ أَصَابَهَا فَيَدْعِي بِنَسَبٍ هُوَلَاءُ وَيَعْدِدُ
مِنْهُمْ فِي شَعْرَاتِهِ مِنَ الْشَّعْرَةِ وَالْقَوْدِ وَتَحْمِلُ الْدَّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَخْرَاجِ وَإِذَا وُجِدَتْ شَعْرَاتُ
النَّسَبِ فَكَانَهُ وُجْدٌ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هُوَلَاءِ وَمِنْ هُوَلَاءِ إِلَّا جَرِيَانٌ أَحْكَامِهِمْ
وَأَخْوَاهِهِمْ عَلَيْهِ وَكَانَهُ التَّعْمَ بِهِمْ ثُمَّ أَنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبُ الْأَوَّلَ يَطُولُ الْزَّمَانَ وَيَذَهَبُ
أَهْلُ الْعِلْمِ يَهُ فَيَنْفَعُ عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ الْأَسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَهِمْ
قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعِجمِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ

آل المنذر وغيرهم يتبعين ذلك شيء من ذلك ومهنة شأن بيعيله في عزبة بن هاشمة لمن ولاد عمر عليهم فسألوه إلا عناء منه وقالوا هو فيما زيق أي دخيل ولصيق وطلبو أن يولي عليهم جريحا فسأل الله عمر عن ذلك فقال عزبة صدقوا يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأزد أصبت دمًا في قومي ولحقت بهم وإنظر منه كيف اختلط عزبة بيعيله وليس حلستهم ودعني بنسبيهم حتى ترسيخ للرئاسة عليهم لولا علم بعضهم بواشيه ولو غفلوا عن ذلك وأمتد الزمن لتوصي بالجملة وعد منهم يكمل وجهه ومذهب فاهمه وأعتبر سر الله في خلائقه ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهد والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

(١) الفصل الحادي عشر

في ان الرئاسة لا نزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

اعلم أن كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنِي مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عَصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ الْعَامِ فَفِيهِمْ أَيْضًا عَصَبَيَاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُ الْتَّحَمَّامَا مِنَ النَّسَبِ الْعَامِ لَهُمْ مِثْلَ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلَ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْرَوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي أَلْمَ الْأَفْرَيْنِ أَوْ الْأَبْعَدِيْنَ فَهُوَلَاءُ أَقْعُدُ بِنَسَبِهِمِ الْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مِنْ سِوَامِ الْعَصَابِ فِي النَّسَبِ الْعَامِ وَالثَّرَّةُ تَقْعُدُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمِ الْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُ اِقْرَبِ الْجُمْهُورَةِ وَالرِّئَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلُّ وَلَمَّا كَانَتِ الرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلْبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبَيَةً ذَلِكَ النِّصَابُ أَفْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَابِ لِيَقْعُدَ الْغَلْبُ بِهَا وَتَمَّ الرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَرَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ الْمَخْصُوصِ يَأْهُلُ الْغَلْبِ عَلَيْهِمْ إِذَا لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَابِ الْأُخْرَى النَّازِلَةُ عَنْ عَصَابِهِمْ فِي الْغَلْبِ لَمَّا تَمَّ لَهُمُ الرِّئَاسَةُ فَلَا تَرَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ مُتَنَافِلَةً مِنْ فَرْعَعِ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعَعِ وَلَا تَشَقِّلُ إِلَّا إِلَى أَفْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا فُلَنَاهُ مِنْ بَنِي الْغَلْبِ لَأَنَّ الْاجْتِمَاعَ وَالْعَصَبَيَةَ يُمَثَّلُهُ الْمِزَاجُ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِزَاجُ فِي الْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْنُلُ إِذَا تَكَافَأَتْ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخة الفارسية موجود في النسخة الفرنسية وأثناء أول ابطابق كلام

العنادِيرُ فَلَا بُدُّ مِنْ غَلَبٍ أَحَدِهَا وَإِلَّا مِمَّا يَمْكُرُ فَهَذَا هُوَ مِثْرَاطِ الْغَلْبِ فِي
الْعَصَبَيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ أَسْتِهْرَارُ الْرِّئَاسَةِ فِي النِّصَابِ الْمُخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَزَنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وَذَلِكَ أَنَّ الْرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْغَلْبِ وَالْغَلْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبَيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ
فَلَا بُدُّ فِي الْرِّئَاسَةِ عَلَى الْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبَيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبَيَّاتِهِمْ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ
لِأَنَّ كُلَّ عَصَبَيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَخْسَتْ بِغَلْبِ عَصَبَيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ أَفْرَوْا بِالْأَذْعَانِ وَالْأَتْبَاعِ
وَالْأَسَاطِيفُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصَبَيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مَلْصَقٌ لِرَيْقِ
وَغَایَةِ النَّعْصَبِ لَهُ بِالْوَلَاءِ وَالْحِلْفِ وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلْبَةً عَلَيْهِمْ الْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ
قَدِ التَّعَمَ بِهِمْ وَأَخْتَلَطَ وَتَسْوِيَ عَهْدَهُ الْأَوَّلُ مِنْ الْأَلْتِصَاقِ وَلَيْسَ جَلْدَهُمْ وَدُعْيَ
بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ الْرِّئَاسَةُ قَبْلَ هَذَا الْأَلْتِحَامِ أَوْ لَأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَالْرِّئَاسَةُ عَلَى الْقَوْمِ
إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَافِلَةً فِي مَنْتِبَتِ وَاحِدٍ تَعَيَّنُ لَهُ الْغَلْبُ بِالْعَصَبَيَّةِ فَالْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَا
الْمَلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا النِّصَابُ مِنْ غَيْرِ شَكٍ وَمَنْعَهُ ذَلِكَ الْأَلْتِصَاقُ مِنَ الْرِّئَاسَةِ حِينَئِذِ
فَكَيْفَ تُنْوِيَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ الْأَلْتِصَاقِ وَالْرِّئَاسَةُ لَا بُدُّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْرُوثَةً عَنْ
مُسْخَقِهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ الْتَّغْلِبِ بِالْعَصَبَيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنْ الْرُّؤَسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَابَاتِ إِلَى أَنْسَابِ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ
شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ أَتَفَقَ فَيَزِّعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ وَيَتَرَكُونَ بِالْدَّعْوَى فِي
شُعُورِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوَقِّعُونَ فِيهِ أَنفُسِهِمْ مِنَ الْقَدْحِ فِي رَئَاسَتِهِمْ وَالْطَّعْنِ فِي شَرْفِهِمْ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَنِنْ ذَلِكَ مَا يَدْعِيهِ زَنَاتَةُ جُمْلَةٍ أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْهُ
أَدِعَاءُهُ أَوْ لَادَ رَبَّابَتِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْحِجَازِ بَيْنَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُغْبَةِ أَنَّهُمْ مِنْ
بَنِي سَلِيمٍ مِمَّنِ الشَّرِيدِ مِنْهُمْ لِحَقِّ جَلْدِهِمْ بَيْنِ بَنِي عَامِرٍ بَنِي مَجَارًا يَصْنَعُ الْمِرْجَانَ^(۱) وَأَخْتَلَطَ
بِهِمْ وَالْتَّعَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَازِيَّةَ . وَمِنْ ذَلِكَ أَدِعَاءُ بَنِي عبدِ
الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ تُوْجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا
النَّسَبِ الْشَّرِيفِ وَغَلَطَا بِاَسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

(۱) قوله المرجان بكر الماء جمع حرج بفتحين نعش الموى .

من العَبَاسِيَّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوْلَى دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعَلَوِيَّينَ أَعْدَاهُمْ
 مِنَ الْأَدَارَسَةِ وَالْعَبَادِيَّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعَلَوِيَّينَ . وَكَذَلِكَ
 مَا يَدْعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ مُلُوكُ تَلْمُسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ بْنِ
 ادْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا أَشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمْ الْزَّنَاتِيُّ
 أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيْ بْنُ الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدْعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ ادْرِيسَ أَوِ الْقَاسِمُ
 بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ ادْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَغَایَةُ الْقَاسِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ
 سُلْطَانِهِ مُسْتَحِيرًا بِهِمْ فَكَيْفَ تَمَّ لَهُ الْرِئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَّهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قَبْلِ
 أَسْمَ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ الْوُجُودُ فِي الْأَدَارَسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ فَاسِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَمُمْ
 غَيْرُ مُخْتَارِينَ لِذَلِكَ فَإِنَّ مَنَ الْهُمُ الْمُلْكُ وَالْعِزَّةُ إِنَّمَا كَانَ بِعَصَبَيَّهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَأْدِعَهُ
 عَلَوِيَّةً وَلَا عَبَاسِيَّةً وَلَا شَيْئًا مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هَذَا الْمُتَقْرَبِ بُونَ إِلَى الْمُلُوكِ
 بِعَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهِرُ حَتَّى يَبْعَدَ عَنِ الرَّوَدِ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَغْرِاسِنَ بْنَ زَيَّانَ
 مُؤْتَلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بِلُغَتِهِ الْزَّنَاتِيُّ مَا مَعْنَاهُ أَمَّا الْدِينِيَا
 وَالْمُلْكُ فَنَلَنَاهُمَا يُسِيُّوفِنَا لَا بِهِنَا النَّسَبُ وَأَمَّا تَفَعُّمُهَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى اللَّهِ
 وَأَغْرَضَ عَنِ التَّقْرِبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَدْعِيهِ بْنُو سَعْدٍ شِيُوخُ بَنِي يَزِيدَ
 مِنْ زُغْبَةِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَحِيمٍ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شِيُوخُ بَنِي يَدَلَّلَنَّ
 مِنْ تُوجِينِ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَالزَّوَادَةِ شِيُوخُ رِبَاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَّا
 بِنُو هَنَّا أَمْرَاً بَطَىٰ بِالْمَشْرِقِ يَدْعُونَ فِيهَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ
 وَرِئَاسَتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنْ أَدَعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تَعْيَنُ أَنْ يَكُونُوا
 مِنْ صَرِيجِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبَيَّهِ فَأَعْتَدَهُ وَاجْتَبَى الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ
 هَذَا الْبَابِ إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ الْمُوْحَدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْتَ
 الْرِئَاسَةِ فِي هَرَثَمَةِ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَدُخُولِ
 قَبَائِلَ الْمَصَاصِيَّةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعَنَائِبِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ
 عَلَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل العصبية

و يكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بخلال ومعنى البيت أن بعد الرجل في أبائه أشرافاً ما تكون له بولادتهم إيمان وانتساب إليهم تجعله في أهل جلدته لمن وقر في تقويمهم من تجعله سلفه وشرفهم بخلاف لهم والناس في شرائهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام فإذا فقروا فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب وقد يبينا أن شرارة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للشرارة والتلاصق بحيث تكون العصبية مرهوبة والمنتسب فيها زكي يتحملي تكون فائدة النسب أوضاع وشرارة أقوى وتعديل الأشراف من الآباء زائد في فائدتها فيكون الحسب والشرف أصلين في أهل العصبية لوجود شرارة النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لأنها سرها ولا يكون للمفتردين من أهل الامصار بيت إلا بالمجاز وإن توهنه فزخرفه من الدعاوى وإذا اعتبرت الحسب في أهل الامصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع الرؤون إلا العافية ما استطاع وهذا مغایر لسر العصبية التي هي شرارة النسب وتعديل الآباء لستة بطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديل الآباء المتعاقبين على طريقة واجهة من الخير ومسالكه وليس حسباً بالحقيقة وعلى إلا طلاق وإن ثبت أنه حقيقة فيما بالوضع الغوي فيكون من المشتكك الذي هو في بعض مواضعه أولى وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية وخلال ثم ينسليخون منه لنهائهما بالخسارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى في تقويمهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير من أهل الامصار الذين في بيوت العرب أو العجم لا أول عهدهم موسوسون بذلك وأكثر ما رسمه الوسوس في ذلك لبني إسرائيل فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمبنية أولى لما تعدد في سلفهم من الآنساء والرجلين من الدين إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانية وما

أقام الله بها من العلوك الذي وعدهم به ثم أسلحوه من ذلك أجمع وضررت عليهم
الذلة والمسكمة وكتب عليهم الجلام في الأرض وانفردوا بالاستبعاد للكفر
الآفأ من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا
من نسل يوشع هذا من عقب كليب هذا من سبط يهودا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل
فيهم منذ أحقاب مططاولة وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنفسهم
عن العصبية يذهب إلى هذا المديان وقد غلط أبو الوليد بن رشيد في هذا لما ذكر
الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول والحسب هو أن يكون من
 القوم قد لهم نزيلهم بالمدينة ولم يتعرضن لما ذكرناه وليت شعرى ما الذي يدفعه
قدم نزيلهم بالمدينة إن لم تكون له عصابة يرحب بها جانبه وتحمّل غيرهم على القبول
منه فكانه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استعماله من
قوتهم واستعماله وهم أهل الحال والعقد وأمام من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا
يقدر على استعمال أحد ولا يستعمال هو وأهل الأمصار من الخضر بهذه المثابة إلا
أن ابن رشيد ر بما في جبل وبكل وهم يمارسو العصبية ولا انسو آخرها فبقي في أمر
اليت وحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم يراجع فيه
حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله يسكن شيء علم

الفصل الرابع عشر

في أن البت والشرف للموالي واهل الاصطناع إنما هو بموالיהם لا بآنساتهم
وذلك أننا قدمنا أن الشرف بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا أصطنع
أهل العصبية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي واتّهموا به كما قلناه
ضرب معهم أولئك الموالي والمصطمعون بنسبهم في تلك العصبية وليسوا جلدتها
كأنها عصبيتهم وحصل لهم من الانشمام في العصبية مسامحة في نسبها كما قال صلى الله
تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف
وليس نسب ولا دته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مبادنة لذلك النسب وعصبية ذلك
النسب مفقودة لذهاب سرها عند اتحاده بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها
فيصير من هو إلا ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له نسبهم

شَرْفٌ وَيَتَّسِعُ عَلَى نِسَابِهِ فِي وِلَايَتِهِمْ وَأَصْطَنِعُوهُمْ لَا يَتَجَاهَوْزُهُ إِلَى شَرْفِهِمْ كُلُّ يَكُونُ
أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا شَانُ الْمَوَالِيِّ فِي الدُّولَةِ وَالْخَدْمَةِ كُلُّهُمْ فَإِنَّهُمْ أَنَّهَا
يَشْرُفُونَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَايَةِ الدُّولَةِ وَخَدْمَتِهَا وَتَعْدُدُ الْاِبَاءِ فِي وِلَايَتِهَا الْآثَرَى إِلَى مَوَالِيِّ
الْآثَرَاتِ كِفَى دَوْلَةٍ بَنِي الْعَبَاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَغْتَ كِيفَ أَدْرَكُوا
الْيَتَّى وَالشَّرْفَ وَبَنَوْا الْمَجْدَ وَالْأَصَالةَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَايَةِ الدُّولَةِ فَكَانَ جَعْفُرُ بْنُ يَحْيَى
بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ يَتَّسِعُ شَرْفُهُ بِالْاِنْتِسَابِ إِلَى وِلَايَةِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لَا يَأْلِمُهُ
فِي الْفَرْسِ وَكَذَا مَوَالِيِّ كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدْمَهَا إِنَّهَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ
فِي وِلَايَهَا وَالْأَصَالَةِ فِي أَصْطَنِعَاهُمْ وَيَضْحَجِّلُ نِسَبَهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نِسَبِهِ وَيَقْنُو مُلْفَى لَا
عِزَّةَ بِهِ فِي أَهَالِتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّهَا الْمُهْبَرُ نِسَبَةُ وِلَايَتِهِ وَأَصْطَنِعَاهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصَبَيَّةِ
الَّتِي يَهَا الْبَيْتُ وَالشَّرْفُ فَكَانَ شَرْفُهُ مُشَنَّقاً مِنْ شَرْفِ مَوَالِيِّهِ وَبَنَاؤُهُ مِنْ بَنَائِهِمْ فَلَمْ
يَنْفَعْهُ نَسَبُ وَلَادِهِ وَإِنَّهَا بَنِي مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدُّولَةِ وَلَعْنَةُ الْأَصْطَنِعَاءِ فِيهَا
وَالْتَّرْبِيَّةِ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لَحْمَةِ عَصَبَيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَادُهُ
وَأَصْطَنِعَاهُ فِي أَخْرِيِّ لَمْ تَنْفَعْهُ الْأَوَّلُ لِذَهَابِ عَصَبَيَّتِهِ وَأَنْفَعَ بِالثَّانِيَّةِ لِوُجُودِهَا وَهَذَا
حَالٌ بَنِي بَرْمَكَ إِذَا تَنْقُولُهُمْ كَانُوا أَهْلَ يَتَّسِعَ فِي الْفَرْسِ مِنْ مَدَنَةِ يَوْتِ الْنَّارِ عِنْهُمْ
وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وِلَايَةِ بَنِي الْعَبَاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ أَغْبَارٌ وَإِنَّهَا كَانَ شَرْفُهُ مِنْ حَيْثُ
وَلَا يَتَّهِي فِي الدُّولَةِ وَأَصْطَنِعَاهُمْ وَمَا سَوَى هَذَا فَوْنُومُ تُوسُوسُ بِهِ النُّفُوسُ الْجَمَاعَةُ وَلَا
حَقِيقَةَ لَهُ وَلَوْجُودُ شَاهِدٍ بِمَا قُلْنَاهُ وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

أَعْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْعَنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَخْوَالِهِ
فَالْمُحْكَوَنَاتُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَالْبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوانَاتِ الْأَنْسَانُ وَغَيْرُهُ كَائِنَةُ فَاسِدَةُ
بِالْمُعَايِنَةِ وَكَذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَخْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ فَالْعِلُومُ تَنْشَأُ مِنْ
تَدْرِسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْلَّادِمِينَ فَهُوَ كَائِنٌ
فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيَسْ يُوجَدُ لَا حَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرْفٌ مُتَصَلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ
إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةُ بِهِ وَجِيَاطَةُ عَلَى السِّرِّ فِيهِ

وأول كُلُّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٍ كَمَا قيلَ وَهِيَ الْخَرُوجُ عَنِ الْرِّئَاسَةِ وَالشَّرْفِ إِلَى الْضَّعَفِ
 وَالْأَبْتَدَالِ وَعَدَمِ الْحُسْبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسْبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَانٌ كُلُّ
 مُحدثٌ ثُمَّ إِنْ نِهايَتَهُ فِي أَزْبَعَةِ آبَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ بَانِيَ الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بَنَائِهِ وَنَعْفَافَ
 عَلَى أَخْلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَآبَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرًا لِأَيِّهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ
 وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقْصِرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرٌ أَسَامِعِ يَا لِشَنِيُّ عَنِ الْمَعْانِي لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ
 ثَالِثُ كَانَ حَظُّهُ الْأَقْتِفَاءُ وَالْتَّقْلِيدُ خَاصَّةً فَقَصَرَ عَنِ الْأَمَانِي تَقْصِيرَ الْمُقْلَدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ
 ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنْ طَرِيقِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ أَخْلَالَ الْحَافِظَةِ لِبَنَاءِ مجْدِهِمْ
 وَأَخْتَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبُنْيَانَ لَمْ يَكُنْ بِمُعَايَنَةٍ وَلَا تَكَلُّفٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ
 لَهُمْ مِنْذُ أَوْلَى النَّشَأَةِ بِعِجَادِ اتِّسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعَصَابَةٍ وَلَا بِخَلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْتَّجَلَّةِ
 بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حَدُوثُهُمْ وَلَا سَبَبُهُمْ وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ فِي زَيْنَبِ اِنْفُسِهِ
 عَنِ اَهْلِ عَصَبَتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِ دُوْثُوقًا بِمَا زَيَّ فِيهِ مِنْ اَسْتِبَاعِهِمْ وَجَهَلًا بِمَا
 أَذْجَبَ ذَلِكَ الْأَسْتِبَاعَ مِنَ أَخْلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُعُ لَهُمْ وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ
 فَيَعْتَرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْفَضُونَ عَلَيْهِ وَيَخْتَرُونَهُ وَيُدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ اَهْلِ ذَلِكَ الْمُنْتَتِ
 وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقْبِ لِلْأَذْعَانِ لِعَصَبَتِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ بَعْدَ الْوَثْقَ بِمَا يَرَضُونَهُ
 مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُهُذَا وَتَذَوِي فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهِمُ بِنَاءُ يَتِيهِهِذَا فِي الْمُلُوكِ
 وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأَمْرَاءِ وَاهْلِ الْعَصَبَةِ أَجْمَعُهُمْ فِي بُيُوتِ اَهْلِ الْأَمْصَارِ
 إِذَا اَخْحَضَتْ بُيُوتَ نَشَاتِ بُيُوتِ اُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ إِنْ يَشَاءُ بِذَهَبِهِمْ وَبِيَاتِ
 بِخَلْقِ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَأَشْتَرَاطُ الْأَزْبَعَةِ فِي الْأَخْسَابِ اِنَّمَا هُوَ فِي
 الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ يَدْشُرُ الْبَيْتُ مِنْ دُونِ الْأَزْبَعَةِ وَيَنْلَاشِي وَيَنْهِمُ وَقَدْ يَتَصِلُّ أَمْرُهُمَا إِلَى
 الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَنْهِاطَاطِ وَذَهَابِ وَأَعْتِبَارِ الْأَزْبَعَةِ مِنْ قَبْلِ الْأَجْيَالِ
 الْأَزْبَعَةِ بَانَ وَمُبَاشِرُهُ وَمُقْلِدُ وَهَادِمُهُ وَهُوَ أَقْلَ مَا يُمْتَكِنُ وَقَدِ اَعْتَرَتِ الْأَزْبَعَةِ فِي
 نِهَايَةِ الْحُسْبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالشَّاءِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِنَّمَا الْكَرِيمُ اَبْنُ
 الْكَرِيمِ اَبْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ اِبْرَاهِيمَ اِشَارةً
 إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ النِّيَاهَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَاهِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ طَائِقٌ غَيْرُهُ مُطَالِبٌ
 بِذُنُوبِ الْأَبَاءِ لِلَّذِينَ عَلَى الشَّوَّالِ وَالرَّوَابِعِ وَهَذَا يَدْلُلُ عَلَى أَنَّ الْأَزْبَعَةِ الْأَعْقَابُ غَلَّةٌ

في الأنساب والحسب . وفي كتاب الأغاني في أخبار عزيف الغواني أن كسرى قال
لِلنَّعْمَانَ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبْيلَةٌ تَنْتَرِفُ عَلَى قَبْيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ
ثَلَاثَةُ آبَادٌ مُّوَالِيَّةٌ وَوَسَامٌ ثُمَّ أَنْصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الْرَّابِعِ فَأَلَيْتُ مِنْ قَبْلِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ
فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفِزَارِيِّ وَهُمْ يَتُّقِيسُونَ وَآلِ ذِي الْجَدَنِ يَتُّقِيسُونَ
شَيْبَانَ وَآلِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَبِيسٍ مِنْ كَنْدَةَ وَآلِ حَاجِبٍ بْنِ زِرَارَةَ وَآلِ قَبِيسٍ بْنِ عَاصِمٍ
الْمُتَنَقْرِيِّ مِنْ بَنِي غَمِّ جَمِيعَ هُولَاءِ الْرَّهْطَ وَمَنْ تَبَعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمْ
الْحُكْمَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَبِيسٍ لِقِرَابَتِهِ مِنَ النَّعْمَانِ ثُمَّ
يَسْطَامُ بْنُ قَبِيسٍ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زِرَارَةَ ثُمَّ قَبِيسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ
كُسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَ هُدُوِّ الْبَيُونَاتِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ
بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعْهُمْ يَتُّقِيسُونَ الْأَشْيَانَ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ الْيَمَنِيِّ وَهَذَا كُلُّهُ يَدْلِي
عَلَى أَنَّ الْأَزْبَعَةَ الْأَبَاءَ يَنْهَا يَةً فِي الْحُسْبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الام الوحشية اقدر على التغلب من سواها .

إعلم أنه لما كانت البداؤة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لا
جرم كان هذا الجيل الوحشى أشد شجاعة من الجيل الآخر فهو أقدر على التغلب
وانتزاع ما في أبيدي سواهم من الأم . بل الجيل الواحد مختلف آخر الله في ذلك
باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأزياف وتفنعوا النعيم والفوائع وانقضى في
المعاش والنعيم تقصى من شجاعتهم بمقدار ما تقصى من توحشهم وبداواتهم وأعتبر
ذلك في الحيوانات العم يدواجن الطياء والبقر الوحشية والحمري إذا زال توحشها
بعخلة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاء والشدة حتى في
مشيتها وحسن أدبها وكذلك الآدمي المتواحش إذا أنس وآلف وسببه أن تكون
السجاجيما والطبائع إنما هو عن المأمولات والعواائد وإذا كان القلب للألم إنما يكون
بلا إقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أغرق في البداؤة وأكثر توحشا
كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقارب بما في العدد وتكافأا في القوة المصيبة وأنظر
في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السايقين إلى الملك والنعيم ومع

رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّنِينَ أَزْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقَى مُضَرُّ فِي يَدَوْهُمْ وَنَقْدِهِمْ اَلْآخَرُونَ
إِلَى خَصْبِ الْعِيشِ وَغَصَارَةِ النَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَقَ الْبِداوَةَ حَدَمْ فِي التَّغْلِبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى
مَا فِي أَيْتِيهِمْ وَأَنْزَعُوهُمْ مِنْهُمْ وَهَذَا حَالُ بَنِي طَيْرٍ وَبَنِي عَامِرٍ بْنِ صَعْصَمَةَ وَبَنِي سَلِيمٍ
بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدُهُمْ لَمَّا تَأْخَرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرٍّ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا
بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِداوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُفْهَا مَذَاهِبُ
الْتَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَكُلُّ نَعِيمًا وَعِيشًا
خَصِيبًا دُونَ أَلْحَىِ الْأَلْحَىِ فَإِنَّ أَلْحَىِ الْمُبَتَدِيِّ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَفْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَ
فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الفانية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْجِمَاهَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ
يَحْتَمِلُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدَمِيَّينَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ اِجْتِمَاعٍ إِلَى
وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَرْعِي بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَفَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصِيَّةِ
وَإِلَّا لَمْ تَمْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَانَهُ عَلَى الْأَرْثَاثَةِ لِأَنَّ
أَرْثَاثَةً إِنَّمَا هِيَ سُؤُدَّ وَصَاحِبُهَا مَتَّبِعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قُوَّةٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمْأَلِهِ
فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مَتَّبِعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قُوَّةٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمْأَلِهِ
الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتبَةِ طَلَبِ مَا فَوْقَهُ
فَإِذَا بَلَغَ رُتبَةَ السُّؤُدَّ وَالْأَتَابَعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ لَا يَنْزَكُهُ لِأَنَّهُ
مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتَمَّ أَقْتَدَرُهُمَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتَّبِعًا فَإِنَّ التَّغْلِبَ الْمُلْكَيِّ
غَايَةُ الْعَصِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ إِنَّ الْقَيْلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ بَيْوَاتٌ مُفْتَرَّةٌ وَعَصِيَّاتٌ
مُتَعَدِّدةٌ فَلَا بدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَبِعُهَا وَتَأْتِمُهَا جَمِيعُ الْعَصِيَّاتِ
فِيهَا وَتَصِيرُ كَانِهَا عَصِيَّةً وَاحِدَةً كُبِرَى وَإِلَّا وَقَعَ الْأَفْرَاقُ الْمُفْضِيُّ إِلَى الْاِخْتِلَافِ
وَالْتَّنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا لِفَسَدَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلِبُ
بِتِلْكَ الْعَصِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبِيعَهَا التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنَّ
كَافَّتِهَا أَوْ مَا نَعْتَهَا كَانُوا أَفْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى حَوْزَتِهَا

وَقَوْمِهَا شَانَ الْقَبَائِلَ وَالْأَمَّ الْمُفْتَرِقَةَ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَأَسْتَبَعَتْهَا الْحَمَّةَ بِهَا أَيْضًا
وَزَادَتْ قُوَّةَ فِي الْغَلْبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ الْغَلْبِ وَالْحَكْمِ أَعْلَى مِنَ الْفَاتِحَةِ
الْأُولَى وَأَبْعَدَ وَهُمْ كَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكَافِي بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدُّولَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا
مُمَانَعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدُّولَةِ أَهْلِ الْعَصَبَيَاتِ أَسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا وَأَنْزَعَتْ الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ
الْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِنْ أَنْتَهَتْ قُوَّتِهَا وَلَمْ يُقَارِنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدُّولَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتِهَا
إِلَى الْأَسْتِظْهَارِ يَا أَهْلِ الْعَصَبَيَاتِ أَنْتَظَمَتْهَا الدُّولَةُ فِي أَوْلِيَاءِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَعِنُّ مِنْ
مَقَاصِدِهَا وَذَلِكَ مَلِكٌ أَخْرُدُونَ الْمُلْكِ الْمُسْتَقِدِ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتَّرْكِ فِي دُولَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَأَصْنَهَا جَاهَةً وَزَنَاتَةً مَعَ كُتَّامَةَ وَلَبَنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشِّيَعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَاسِيَّةِ
فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصَبَيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمُلْكُ
إِمَّا بِالْأَسْتِبْدَادِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسْبِ مَا يَسْعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَلِكَ وَإِنْ عَاقَمَ
عَنْ بُلُوغِ الْفَاتِحَةِ عَوَائِقٌ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتِي مَقَامَهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانفاس القبيل في النعيم

وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبَيَّهَا بَعْضَ الْغَلْبِ أَسْتَوَلَتْ عَلَى النِّعَمَةِ بِمِقْدَارِهِ
وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَأَنْخَصَتِ فِي نِعَمِهِمْ وَخَصَبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعْهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَبِيلِهِمْ وَحَصَّةَ
بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَأَسْتِظْهَارِ الدُّولَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ الدُّولَةُ مِنَ الْقُوَّةِ يَحْيَثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ
فِي أَنْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارِكَتِهَا فِيهِ إِذْعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلَ لِوَلَا يَنْهَا وَالْقُنُوْنُ بِمَا يُسْوِغُونَ
مِنْ نِعَمِهَا وَيُشَرِّكُونَ فِيهِ مِنْ حِبَابِهَا وَلَمْ تَسْمُ أَمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَلَا
أَسْبَابِهِ إِنَّمَا هِمْ مِنْ النِّعَمِ وَالْكَسْبِ وَخَصَبِ الْعِيشِ وَالسُّكُونِ فِي ظَلِيلِ الدُّولَةِ إِلَى
الْدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمُلْكِ فِي الْمَبَانِي وَالْمَلَائِسِ وَالْأَسْتِكْنَاتِ مِنْ ذَلِكَ
وَالثَّانِي فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرَّيَاضِ وَالترَّفِ وَمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذَهَّبُ
خُشُونَةُ الْبَداوةِ وَتَضَعُفُ الْعَصَبَيَّةُ وَالْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنَشَّأُ
بِنُوْهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفِ عَرَّتْ خِدْمَةُ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةُ حَاجَاتِهِمْ
وَيَسْتَذَكِّرُونَ عَنْ سَائِرِ الْأَمْرِ الضرُورِيَّةِ فِي الْعَصَبَيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ
وَسَجْنَيَّةً فَتَنَفَّصُ عَصَبَيَّهُمْ وَبَسَاطَتِهِمْ فِي الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقِبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقِرَ ضَرَّ الْعَصَبَيَّةِ

فيما ذُنون بالانحرافِ وَعَلَى قَدْرِ تَرْفِهِمْ وَنَهْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ فَإِنْ عَوَارِضَ التَّرَفِ وَالْفَرَقِ فِي النَّعِيمِ كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصَيَّةِ الَّتِي بِهَا الْتَّغْلِبُ وَإِذَا أَنْقَرَضَتِ الْعَصَيَّةُ قَصَرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَابَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ وَأَنْهَمَتِهِمُ الْأَمْمُ مُسَاوِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَةَ وَالْأَنْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصَيَّةِ وَشِدَّهَا فَإِنْ أَنْقِيَادُهُمْ وَمَذَلَتُهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فِقْدَانِهِمَا فَمَا رَئَيْهُمَا لِلْمَذَلَةِ حَتَّى يَعْجِزُوهُمَا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوْلَى أَنْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنِ الْمُقاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَأَعْتَبَنِ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهُمْ كَيْفَ يَعْجِزُوهُمَا عَنِ ذَلِكَ وَقَالُوا إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوهُمْ مِنْهَا أَيِّ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبِ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصَيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَّمَ عَلَيْهِمْ تَجْوِيْهًا وَأَرْتَكُبُوا الْعِصَيَّانَ وَقَالُوا لَهُ أَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أَنْسَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَلْعَجَزِ عَنِ الْمُقاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ وَمَا يُؤْثِرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْأَنْقِيَادِ وَمَا رَئَيْهُمَا مِنَ الدُّلُلِ الْقُبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصَيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْأَيْمَانَ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالَةَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْرِيُهُمْ فَرِيسَتِهِمْ بِمُحْكَمٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ قَدْرَهُ لَهُمْ فَاقْفَرُوا عَنِ ذَلِكَ وَعَجِزُوا تَعْوِيْلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَلْعَجَزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَةِ وَطَعَنُوا فِيهَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمْرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالْأَنْتِيَهِ وَهُوَ أَنْهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَزْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمْرَانَ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَصَهُ الْقُرْآنُ لِغَلْظَةِ الْعَمَالَةِ بِالشَّامِ وَالْقُبْطِ بِمِصْرِ عَلَيْهِمْ يَعْجِزُهُمْ عَنْ مُقاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيَظْهُرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومُهُمْ أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ الْتَّيْهِ مَقْصُودَهُ وَهِيَ فَنَاءُ الْجَلِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قِبْضَةِ الدُّلُلِ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصَيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ الْتَّيْهِ جَيلٌ آخِرٌ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَخْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصَيَّةٌ أُخْرَى أَفْتَدَرُوا بِهَا

عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالْتَّغْلِبِ وَيَظْهُرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَزْبَعِينَ سَنَةً أَقْلَى مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاهَ
جِيلٌ وَأَشَاءَ جِيلٌ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَعُ دَلِيلٍ عَلَى شَانِ الْعَصَبَيَّةِ
وَأَنَّهَا فِي الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمُقَاوَمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَإِنْ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ
عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَبِلِحْقِهِ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَذَلَّةُ لِلْقَبِيلِ شَانِ الْمَغَارِمِ
وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْمَغَارِمِينَ مَا أَعْطَوْا أَبْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لَأَنَّ
فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَخْسِمُهَا النُّفُوسُ إِلَّا إِذَا أَسْتَهْوَتَهُ عَنِ الْقَتْلِ
وَالْتَّلَفِ وَإِنْ عَصَبُوهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَ عَصَبَيَّةً لَا
قَدْفَعَ عَنْهُ الْضَّيْمَ فَكَيْفَتَ لَهُ بِالْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْأَنْقِبَادُ لِلْذُلِّ وَالْمَذَلَّةُ
عَائِقَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَانُ الْحَرَثُ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ
الْمَحِرَّاثِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلُوكُمْ أَنْتُمْ فَهُوَ دَلِيلٌ
صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغَارِمَ مُوجِبٌ لِلْذُلِّ هَذَا إِلَى مَا يَضْعِبُ ذُلُّ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ
وَالْخَدِيَّةِ بِسَبِبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رَبْقَةِ مِنْ الْذُلِّ فَلَا
تَطْمَئِنُ لَهَا بِعُلُوكِ آخرِ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَرْعَمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِالْمَغَرِبِ
كَانُوا شَاوِيَّةً يُؤَدِّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا
رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَّا أَسْتَبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَتَّ لَهُمْ دُوَلَةٌ وَانْظُرْ فِيهَا قَالَهُ شَهْرُ بِرَازُ
مُلْكُ الْكِبِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبْنَ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرُ بِرَازُ أَمَانَةً عَلَى أَنْ
يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَرَرِي مَعَكُمْ فَمَرَحَّبَا بِكُمْ وَبَارَكَ
اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزَّيْتُنَا إِلَيْكُمُ النَّصْرُ لَكُمْ وَالْقِيَامُ إِنَّمَا تَحْبِبُونَ وَلَا تُنْدِلُونَا بِالْجِزَّيَّةِ فَتُوْهُونَا
لِعَدُوِّكُمْ فَأَعْتَبِرُ هَذَا فِيهَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحيدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَيِّبًا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَجْمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ نِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ الْنَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ
لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قَبْلِ الْقُوَّى الْحَيْوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ
إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَالْمُلْكُ وَالْسِيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

للإنسان خاصة لا يحيوان فإذا خلأ الخير فيه هي التي تُناسب السياسة والملك إذ
 الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن التجدد له أصل يبني عليه وتحقق به
 حقيقته وهو العصبية والعشرين وفرع يتم بوجوده وبكميله وهو خلل وإذا كان
 الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتماماتها وهي خلل لأن وجوده دون متماماته
 كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهور عزىانا بين الناس وإذا كان وجود العصبية
 فقط من غير انتقال خلل الحميد ت versa في أهل البيوت والاحساب فما ظنك
 بأهل الملك الذي هو غاية لشكل بعد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك
 هي كفالة للخلق وخلافة الله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه
 وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر إنما
 هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فإنه قادر للخير والشر مما
 ومقدره مما إذا لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكافية بالقدرة وأنست منه
 خلل الخير المناسب لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيا للخلافة في العباد وكفالة
 للخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أو ثق من الأول واضح مني فقد
 بين أن خلل الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فإذا نظرنا في
 أهل العصبية ومن حصل لهم من القلب على كثير من النوادي والأم توعدناهم
 يتنافسون في الخير وخلاله من المكر والعنو عن الزلات والاحتمال من غير القدرة
 والقرى للضيوف وحمل الشكل وكسب المقدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد
 وبذل الأموال في صون الأعراض وتنظيم الشريعة وإجلال العلماء المحامين لها
 والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الفتن بهم واعتقاد أهل الدين
 والبروك بهم ورغبة الدعاة منهم وألحباء من الأكابر والمشايخ وتوقيعهم وإجلالهم
 والانتقاد إلى الحق مع الداعي إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والبذل في
 أحوالهم والانتقاد للحق والتواضع للمسكين واستئصال شركى المستغاثين والذين
 بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الفدر والمكر والخدع
 ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلوق السياسة قد حصلت لتبنيهم واستحقوا بها
 أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم

مناسبٍ لِعَصَيْتُهُمْ وَغَلَبَهُمْ وَلَيَسَ ذَلِكَ سُدًّى فِيهِمْ وَلَا وُجْدٌ عَبَّا مِنْهُمْ وَالْمُلْكُ أَنْسَبَ
 الْمَرَابِ وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَيْتُهُمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأْذَنَ لَهُمْ بِالْمُلْكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ
 وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ بِأَنْقِرَاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ حَلَّهُمْ عَلَى أَرْتِكَلِ
 الْمَذْمُومَاتِ وَالْتَّحَالِ الْرَّذَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا فَنَفَقَ الْفَضَائِلُ الْسِّيَاسِيَّةُ مِنْهُمْ جُمَلَةً وَلَا
 نَزَالٌ فِي أَنْقَاصِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَامُ لِيَكُونَ نَعْيَا
 عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدَّ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَنْجَى
 أَرْدَنَا أَنْ تَهْلِكَ قَرْيَةً أَمْ رَنَا مُتْرِفَيَّا فَسَقَوْا فِيهَا حَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلَ فَدَمَرَ نَاهَمَا تَدْمِيرًا وَأَسْقَرَى
 ذَلِكَ وَتَبَعَّهُ فِي الْأَمْمَ السَّابِقَةِ تَجَدُّ كَثِيرًا مِمَّا فُلِنَاهُ وَرَسَمَنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
 وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي بَتَّافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ الْوَعَصَبِيَّةُ وَتَكُونُ شَاهِدَةً
 لَهُمْ بِالْمُلْكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ وَأَصْنَافُ الْتِجَارِ
 وَالْفُرَبَاءِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْعَصَبَيَّاتِ وَالشَّائِرِ
 لِمَنْ يَنْاهِيُهُمْ فِي الْشَّرْفِ وَيَجَادِهُمْ حَبْلُ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَيُشَارِكُهُمْ فِي اَتِساعِ
 الْجَاهِ أَمْرٌ طَبَيعِيٌّ يَعْمَلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرَّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوْ الْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمٍ
 الْمُكْرَمُ أَوْ التَّمَاسُ مِثْلَهَا مِنْهُ فَأَمَّا أَمْثَالُ هُؤُلَاءِ مِنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ فَتَقَى وَلَا جَاهَ
 وَيُسْبِحُ فَيَسْدِفُ الْشَّكُوكَ فِي شَانِ كَرَامَتِهِمْ وَيَسْمَعُونَ الْقَصْدَ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ وَالْتَّحَالِ
 الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِبْنَالِ عَلَى الْسِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لَأَنَّ إِكْرَامَ اَنْتَالِهِ وَأَمْثَالِهِ
 ضَرُورِيٌّ فِي الْسِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبَيلَهُ وَنُظُرَائِهِ وَإِكْرَامُ الْطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ
 وَالْخُصُوصَيَّاتِ كَعَالٌ فِي الْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلَّذِينَ وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَاهِيِّيِّيْنَ فِي
 إِقَامَةِ مَرَاسِمِ الْشَّرِيعَةِ وَالْتِجَارِ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعَمَّ الْمَنْفَعَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْفُرَبَاءِ مِنْ
 مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنْ الْإِنْصَافِ وَهُوَ مِنْ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ
 ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبَيَّتِهِ أَتَسْمَاؤُهُمْ لِلْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الْمُلْكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّ تَأْذَنَ بِوُجُودِهَا
 فِيهِمْ لِوُجُودِ عَلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوْلُ مَا يَذَهَبُ مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلَ الْمُلْكِ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ
 تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامٌ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ
 مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأَمْمِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الْذَهَابِ عَنْهُمْ وَأَرْتَقَبَ زَوَالَ الْمُلْكِ
 مِنْهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُولُ سُوْهَا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملوكها اوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب وأاستبدلوا حكماء قلناه وأستعباد الطوائف
لقد ذرتهم على معابر الامم سوادم ولا نهم يتذرون من الأهلين منزلة المفترس من
الحيوانات العجم ومولاه مثل العرب وزناته ومن في معناهم من الأسكندر والتركمان
وأهل الشام من صنهاجة وأيضا فهو لأه المتصحسنون ليس لهم وطن يرتكبون منه ولا
بلد يعيشون فيه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهذا لا يقتصرؤن على
ملكة قطريم وما جاورهم من البلاد ولا يقرون عند حدود أفقهم بل يظفرون إلى
الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية وأنظر ما يحكي في ذلك عن عمر رضي
الله عنه لما بُويع وقام يحرض الناس على العراق فقال إن الحجاز ليس لكم يدار
ولا على الشعمة ولا يقوى عليه أهل إلا بذلك أين القراء المهاجرؤن عن موعد الله
سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهرة على
الذين كلهم ولو كره المشركون وأعتبر ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل
التبايعة وتحير كيف كانوا يعطون من اليمن إلى المغرب مرجة وإلى العراق والهند
أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم وكذا حال الملقبين من المغرب لما
نزعوا إلى الملك طغروا من الأقليم الأول ونجا لهم منه في جوار السودان إلى
الأقليم الرابع وأخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأمم
الوحشية فلذلك تكون دوافعها أوسع نطاقاً وأبعد من مرآكيرها نهاية وأ الله يقدر
الليل والنهر وهو الواحد القهار لا شريك له

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من

عوده الى شعب آخر منها ما دامت لم المصيبة

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سوره الغلب وألا ذعان لهم من
سائر الأمم سوادم فيتعين منهم المباشرون للأمر الحاملون سرير الملك ولا يكون

ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحمة والغيرة التي تجدهم أنوفاً كثيرة من المنطادلين للرثبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة أنفسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف واللذات واستبعدوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبيها وبيقي الذين بعدوا عن الأمر وكم يحيوا عن المساركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبتهم وبمنجاة من الهرم بعدهم عن الترف وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غضراءهم الهرم فقطبختهم الدولة وكل الدهر عليهم وشرب بما أرهق النعيم من حدهم واستقرت غريزة الترف من مأثيرهم وبأغافل غایتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي (شعر)

ك Dodd القرى يسجع ثم يغنى يمر كرن نسجده في الانكسار

كانت حينئذ عصبية الآخرين موقرة وسورة عليهم من الكايسير محفوظة وشارتهم في القلب معلومة فتسمو أمالهم إلى الملك الذي كانوا متوزعين منه بالقوة الفالية من جنس عصبيتهم وترتفع المنازة لما عرف من غلتهم قيستلون على الأمر وبصير إليهم وكذا يتفق فيهم مع من يقى أيضاً منيذآ عنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملعمآ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفني سائر عشائرها سينة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وأفتيز هذا بما وقع في العرب لما انقرض الملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود ومن بعدهم إخوانهم العمالقة ومن بعدهم إخوانهم من حمير أيضاً ومن بعدهم إخوانهم الشابة من حمير أيضاً ومن بعدهم الآذواه كذلك ثم جاءت الدولة لمصر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تاذن الله يأنقرا عليهم أجمع بالإسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملشميين من بعدهم ثم من يقى من شعوب زناته وهكذا سنة الله في عباده وخلفه وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الأجيال والملك يخلقها الترف ويدفعها كما سند كرمه بعد فإذا انقرضت دولة فـ إنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد وأويس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك إنما يوجد

في النسب القريب منهم لأن تفاوت العصبية يحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى إذا وقع في العالم تبدل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من فدراته فينتزد بخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبدل كما وقع لمضر حين غلوا على الأمة والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبّحين عنه أحقاباً

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه
وخلته وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غالبها وانتقاداً إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تغاظط به من أن انتقادها ليس لقلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب فإذا غالبت بذلك واتصل لها اعتقداً فانتقلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غالب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتقلت من العوائد والمذاهب تغاظطاً أيضاً بذلك عن قلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملمسه ومركته وسلامه في انتقادها وأشكلها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في البناء مع آبائهم كيف تجدهم متباينين بهم دائماً وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كل قطع من الأقطار كيف يغلب على أهل زيجي الخامسة وجنده السلطان في الآكثرين لهم الغالبون لهم حتى أنه إذا كانت امة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أم الجلاجلة فإنك تجدهم يتباينون بهم في ملائسيهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماضيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يشعر من ذلك الناظر بغير الحكمة أنه من علامات الاستيلاه والأمر لله وتأمل في هذا مير قوتهم العامة على دين الملك فإنه من بايه أذ الملك غالب لمن تحت يده وأروعه مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقد البناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

الفصل الرابع والعشرون

فِي أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا غَلَبَتْ وَصَارَتْ فِي مَلَكَتِهِ مَا يَعْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَتْهَا مِنْهَا عَلَيْهَا
وَالسَّبِبُ فِي ذَلِكَ شَوَّالُهُ أَعْلَمُ مَا يَعْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَتْهَا مِنْهَا عَلَيْهَا
وَصَارَتْ بِالْأَسْتَعْبَادِ إِلَهًا لِسُوَامَّهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمْلُ وَيَضُعُ النَّاسُ وَالْأَعْيُّانُ
إِنَّمَا هُوَ عَنِ جِدَّ الْأَمْلِ وَمَا يَجْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمْلُ
بِالْتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْوَالِ وَكَانَتِ الْعَصِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْفَاقِبِ الْحَاصلِ
عَلَيْهِمْ تَنَافَصَ عُمُرَانِهِمْ وَتَلَاقَتْ أَكَابِسُهُمْ وَسَاعِيَهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ
أَنفُسِهِمْ بِمَا خَفَدَ الْفَلْبُ مِنْ شَوَّوكَتِهِمْ فَاصْبَحُوا مُغْلَيْنَ لِكُلِّ مُتَغلِّبٍ وَظَاهِرَةً لِكُلِّ
آكِلٍ وَسَوَادٍ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا وَفِيهِ وَاللهُ أَعْلَمُ سِرْرَ آخرٍ
وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَئِيسٌ يُطْبَعُ بِعِطْبَتِهِ يُعْتَصِمُ بِالْأَسْتَخْلَافِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ وَأَرَى نَسْرًا إِذَا غَلَبَ عَلَى
رَئَاسَتِهِ وَكَبِيعَ عَنِ غَايَةِ عِزَّهُ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنِ شَيْءٍ بَطَنَهُ وَرَيَّ كَبِيرًا وَهُنَّا مَوْجُودُونَ فِي
أَخْلَاقِ الْأَنَامِيِّ . وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسْأَدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ
فِي مَلَكَةِ الْأَدْمِينَ فَلَا يَرَى إِلَّا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَافُصِ وَأَخْتِيمَلَالِ
إِلَى أَنْ يَأْخُذُهُمُ الْفَنَاءَ وَالْبِقَاءُ لِللهِ وَحْدَهُ وَأَعْتَبَ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ الْفُرْسَ كَيْفَ كَانَتْ قَدَّمَلَاتِ
الْعَالَمَ كَثِيرَةً وَلَمَّا فَتَتْ حَامِيَتِهِمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ يَقِيَّ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ
يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَخْصَى مَا وَرَاهُ الْمَدَائِنَ فَكَانُوا مِائَةَ الْفِيَ وَسَبْعَةَ وَثَلَاثَينَ الْمَفَأَةَ مِنْهُمْ
سَبْعَةَ وَثَلَاثُونَ الْفَارِبِ بَيْتٌ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةَ الْقَبْرِ لَمْ يَكُنْ
بِقَوْمِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَدُشْرُوا كَانَ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَعْسِنُوا أَنْ ذَلِكَ لَظُلْمٌ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عَذَّوْانِ
شَهَلُمُ . فَلَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْفَدْلِ مَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَيِّعَةُ الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ
عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ إِلَهًا لِغَيْرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُذَعِنُ لِلرِّزْقِ فِي الْفَالِبِ أَمْ السُّودَانِ لِنَقْصِ
الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقُرْبَهُمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُعْجَمِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِالْنِّظامِ
فِي رِبْقَةِ الْرِّزْقِ حُصُولَ رِثْبَةَ أَوْ إِفَادَةَ مَالَ أَوْ عَزَّ كَمَا يَقْعُدُ لِمَالِكِ الْتُرْزِكِ بِالْمَشْرِقِ
وَالْمَلْوَجِ مِنَ الْجَلَالِيَّةِ وَالْإِفْرَنجِيَّةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَّةٌ بِاسْتِخْلَاصِ الدُّولَةِ لَوْمَ . فَلَا يَأْنَفُونَ
مِنَ الْرِّزْقِ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرِّثْبَةِ بِأَصْطِفَاءِ الدُّولَةِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
وَهُوَ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغابون الا على البساط

وذلك انهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاك وعيب ينتهيون ما قدروا عليه من غير مغایلة ولا رُكوب خطر ويفرون إلى متعتهم بالقفر ولا يذهبون إلى العزاجفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن تقسيم فكّل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم يا ذمار الجبال بمنجاة من عيشهم وفسادهم لأنهم لا يتسمون إليهم المضام ولا يرثون الصداق ولا يخالون الخطر وأما البساط فمتى أفتداهوا عليها بفقدان الحماية وضعف الدولة فهي تهـب لهم وطعمة لا كلهم يرددون عليها الغارة والنـهـب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاونونـهمـ باختلاف الأيدي وأختلاف السياسة إلى أن ينقرض عمـانـهمـ والله قادر على خلقـهـ وهو الواحد القـهـار لا ربـ غيرـهـ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

والسبـبـ في ذلك انهم امة وحشية ياستـحـكام عـوـاـئـدـ التـوـحـشـ وـأـسـبـابـهـ فيـهمـ فـصـارـ لهمـ خـلـقاـ وـجـيـلةـ وـكـانـ عـنـدـهـ مـلـذـوذـاـ لـمـافـيهـ مـنـ خـرـوجـ عـنـ رـبـقـةـ الـحـكـمـ وـعـدـمـ الـاتـقيـادـ لـلـسـيـاسـةـ وـهـذـهـ الـطـبـيـعـةـ مـنـافـيـةـ لـلـعـمـرـانـ وـمـنـافـيـةـ لـهـ فـيـاـيـةـ الـأـخـوـالـ الـعـادـيـةـ كـلـهاـ عـنـدـهـ الـزـحـلـةـ وـالـتـغـلـبـ وـذـلـكـ مـنـافـيـضـ لـلـسـكـونـ الـذـيـ يـهـ الـعـمـرـانـ وـمـنـافـ لـهـ فـاـلـحـمـرـ مـثـلاـ إـنـسـاكـ حاجـتهمـ إـلـيـهـ لـنـصـبـهـ أـثـافـ الـقـدـرـ فـيـنـقـلـونـهـ مـنـ الـمـبـانـيـ وـيـخـرـبونـهـ عـلـيـهـ وـيـعـدـونـهـ لـذـلـكـ وـأـلـحـشـبـ إـيـضاـ إـنـمـاـ حاجـتهمـ إـلـيـهـ لـيـعـمـرـوـاـ يـهـ خـيـامـهـ وـيـتـخـذـوـاـ الـأـوـتـادـ مـنـهـ لـبـيوـنـهـ قـيـخـرـبـونـ السـقـفـ عـلـيـهـ لـذـلـكـ فـصـارـتـ طـبـيـعـةـ وـجـودـهـ مـنـافـيـةـ لـلـبـنـاءـ الـذـيـ هـوـ أـصـلـ الـعـمـرـانـ هـذـاـ فـيـ حـالـهـمـ عـلـيـهـمـ وـأـيـضاـ قـطـيـعـتـهـمـ اـنـتـهـابـ مـاـفـيـ آـيـهـ الـنـاسـ وـأـنـ رـزـقـهـمـ فـيـ ظـلـالـ رـمـاحـيـمـ وـلـيـسـ عـنـدـهـمـ فـيـ أـخـذـ أـمـوـالـ الـنـاسـ حـدـ يـتـهـونـ إـلـيـهـ بلـ كـلـمـاـ أـمـتـدـتـ أـعـيـهـمـ إـلـيـ مـالـ أـوـ مـتـاعـ أـذـ مـاعـوـتـ أـنـتـهـبـهـ فـإـذـاـمـ أـفـتـارـهـمـ عـلـيـ ذـلـكـ يـأـتـيـنـهـ وـالـمـلـكـ بـطـلـتـ الـسـيـاسـةـ فـيـ حـفـظـ أـمـوـالـ الـنـاسـ وـخـرـبـ الـعـمـرـانـ وـأـيـضاـ فـلـانـهـ

يُكْلِفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَاعَةِ وَالْحِرْفِ أَغْمَالُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةَ وَلَا
 قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالُ كَمَا سَنَدَ كُرْهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَابِ وَحَقِيقَتُهَا
 وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ بِجَانِا ضَعْفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكَابِ وَأَنْقَبَتِ الْأَيْدِي
 عَنِ الْعَمَلِ وَأَبْذَعَهُ الْسَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمَرَانُ وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَبَسَتْ لَهُمْ عِنَابَةً بِالْأَخْكَامِ
 وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدِفاعٌ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ
 أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحْمَلُوا عَلَيْهِ أَغْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ
 مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبُّهَا
 فَرَضُوا الْعُقوباتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجِيَاهَةِ وَالْأَسْتِكَارِ مِنْهَا
 كَمَا هُوَ شَانُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ يَمْفُنُ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجَرِ الْمُتَعَرِّضِ لِهَا بَلْ يَكُونُ
 ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاستِهَالِ الْغُرُمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبَقَّى الرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ
 كَمَّا فَوْضَى ^(١) دُونَ حُكْمٍ وَالْفَوْضَى مُهْلِكَةً لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةً لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
 أَنْ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبَيعَةُ الْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَيْهَا
 وَتَقْدِمَ ذَلِكَ أَوْلَى الْفَصْلِ وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرَّئَايَةِ وَقَلَّ أَنْ يَسْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ
 أَلْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَيْرَ عَشِيرَتِهِ إِلَيْهِ أَلَّا فِي الْأَقْلَلِ وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ
 أَجْلِ الْجِيَاهِ فَيَتَعَدَّ الْحُكَامُ مِنْهُمْ وَالْأُمَرَاءُ وَمُتَكَلِّفُ الْأَيْدِي عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي الْجِيَاهَةِ
 وَالْأَخْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمَرَانُ وَيَنْتَقِضُ فَقَالَ الْأَغْرَابِيُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلَكِ لَمَّا
 سَأَلَهُ عَنِ الْحَجَاجِ وَأَرَادَ الشَّنَاءَ عَلَيْهِ عَنْدَهُ بِخُسْنِ الْسِيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ بِظَلَمٍ
 وَحَدَّهُ وَأَنْظَرْتُ إِلَيْهِ مَا مَلَكُوهُ وَتَقْلِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأُوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْغَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوِيَّ
 عُمَرَانُهُ وَاقْفَرَ سَاكِنَهُ وَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا
 فَلِيَلَا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرَبَ عُمَرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِيِّ اجْمَعَ
 وَالشَّامُ لِهَا الْعِهْدُ كَذَلِكَ وَافْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بْنُ هَلَالٍ وَبَنُو سَالِيمٍ مِنْذُ
 أَوْلَى الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَرَكُوا بَيْهَا إِنْكَالًا ثَمَائِيَّةً وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينِ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ
 بَسَائِطُهُ خَرَابًا كَلَّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرَّوِيِّ كَلِيلٌ عُمَرَانًا تَشَهَّدُ
 بِذَلِكَ آثارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَهَالِمِ وَمَمَاثِيلِ الْبَنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِّيِّ وَالْمَدَرِّيِّ وَاللهُ

يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولادة
او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم خلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم أنياباً بعضهم
بعض للغلوطة والانفحة وبعد المحبة والمنافسة في الرئاسة فقلما مجتمع أهواهم فإذا
كان الذين يأتون بالنبوة أو الولادة كان التوارث لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر
والمنافسة منهم فسهل أنيبادهم وأجتمعا بهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب
للغلوطة والانفحة الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الوالي الذي
يعيشهم على القيام بما أمر الله به يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها
ويؤلف كلماتهم لإظهار الحق تم أجتمعا بهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع
ذلك أسرع الناس قولاً للحق والهداي لسلامة طبائعهم من عوج الملائكة وبراءتها
من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاونة المتهيء لقبول
الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعد عمما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد
وسوء الملائكة فإن كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب بعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بدأوة من سائر الأمم وأبعد مبالغاً في القفر
وأغنى عن حاجات التلوك وحبوها لأعيادهم الشفط وخشونة العيش فاستغنوا عن
غيرهم فصعب أنيباد بعض لإيلائهم ذلك وللتوحش ورئيسهم يحتاج إليهم
غالباً للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراعتهم
لثلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكه وسياسة الملك والسلطان
تقضي أن يكون السائس وزاعماً بالقهر وإن لم تستقيم سياسته وأيضاً فإن من
طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عمّا سوى ذلك من

الأحكام ينهم ودفع بعضهم عن بعض فإذا ملأوا أمة من الأمم بجعلوا
 غابة ملوكهم الارتفاع يأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام ينهم
 وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرضاً على تكثير الجبابات وتعصيل
 الفوائد فلا يكون ذلك وازعاً وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد
 وأستهانة مما يعطي من ماله في جانب غرضه فتشمل المفاسد بذلك ويقع تحريف
 القرآن فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطللة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم
 لها عمران وتحريف سر يعشاً في الفوضى كما قدمناه فبعد طبائع العرب بذلك كلهم
 عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصفة دينية
 تحوذ ذلك منهم وتحول الواقع لهم من أنفسهم وتحولهم على دفاع الناس ببعضهم
 عن بعض كما ذكرناه وأعتبر ذلك بدولتهم في الملة أمّا شهد لهم الدين أمر
 السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح القرآن ظاهراً وباطناً وتتابع فيها
 الخلاف عظيم حينئذ ملوكه وقوى سلطنه لكن دوست إذا رأى المسلمين
 يجتمعون للصلوة يقول كل عمر كيدي يعلم الكلاب الآداب ثم إنهم بعد ذلك
 انقطعت منهم عن الدولة أجيال بذروا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا
 شأن عصيته مع أهل الدولة يبعدون عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا كما
 كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من حسن الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب
 أمر الخلافة وأُخْبِي رسالتها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلبت عليهم العجم دونهم
 وأقاموا في بادبنة قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسة بل قد يجهل الكثير منهم أنهم
 قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لا أحد من الأمم في الحقيقة ما كان
 لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعالقة وحمير والتبايعة شاهدة بذلك لم
 دولة مضر في الإسلام بنى امية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما
 نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداؤة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غالب
 على الدول المستضعف كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته إلا تحريف
 ما يستولون عليه من القرآن كما قدمناه والله يوثق ملوكه من يشاء

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والمعاصي مغلوبون لأهل الأنصار

قد تقدم لنا أن عمران البدوية تacious عن عمران الحوافير والأنصار لأن الأمور الضرورية في عمران ليس كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلاح وموادها معروفة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية من نجارة وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقumen لهم ضروريات معاشهم في الفلاح وغيره وكذا الدنانير والدراءم مفقودة لديهم وإنما باليديهم أغراضها من مثل الزراعة وأغذى الحيوان أو فضلاً عنه البناء وأذكاراً وأشعاراً وإيمانها يحتاج إليه أهل الأنصار فيوضونهم عنه بالدنانير والدراءم إلا أن حاجتهم إلى الأنصار في الضروري وحاجة أهل الأنصار إليهم في الحاجي والكلالي فهم يحتاجون إلى الأنصار بطبيعة وجودهم فما داموا في البدوية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاؤ على الأنصار فهم يحتاجون إلى أهلها ويتصررون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوه إلى ذلك وطالبوا به وإن كان في مصر ملك كان خصوصهم وطاعتهم لقب الملك وإن لم يكن في مصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونزع استبداد من بعض أهله على الباقين وإلا انقض عمرانه وذلك الرئيس يتحملهم على طاعته والسعى في مصالحه إما طوعاً يبذل المال لهم ثم يهدى لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصر فيستقيم عمرانهم وإما كرها إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتجريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى لأن كل الجهات معمورة بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرها فلابد هو لآباء مجاهلاً لا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأنصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الأحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتانات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انا يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك انا فرقنا في الفصل الأول ان المغالية والممانعة إنما تكون بالعصبية لـ ما فيها من النعرة والتذكرة واستئناف كل واحد منهم دون صاحبه . ثم إن الملك منصب شريف ملدوذ يستعمل على جميع الخيرات الدينية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلم أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقم المنازعة وتفضي إلى الحزب والقتال والمغالية وهي منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفاً وهذا الأمر بعيد عن أفهم الجمود بالجملة ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرباهم في الخضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم . ووقع التسليم لهم وألاستفهام عن العصبية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله وما لقي أولهم من المتابعين دونه وخصوصاً أهل الاندلس في نسيان هذه العصبية واثرها لطول الأمد وألاستغاثتهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطُنِّهم وخالاً من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الإنقیاد لها إلا بقوتها قوية من الغلب للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملوكها ولا اعتادوه فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية وأستحکمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسبخ في العقائد دين الإنقیاد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم

عَلَى أَمْرِهِمْ فَيَا لَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرٍ عِصَابَةٍ
بَلْ كَانَ طَاعُتُهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا يُبَدِّلُ وَلَا يُعَمِّ خِلَافَةً وَلَا أَمْرٍ مَا يُوضَعُ الْكَلَامُ فِي
الْإِمَامَةِ آخِرِ الْكَلَامِ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ كَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ عَقُودِهَا وَيَكُونُ أَسْتَظْهَارُهُمْ
حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ إِمَامًا بِالْمَوَالِيِّ وَالْمُضْطَهَنِينَ الَّذِينَ نَشَادَا فِي
ظِلِّ الْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَامًا بِالْعَصَابَاتِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِي وَلَا يَنْتَهَا وَمِثْلُ
هَذَا وَقَعَ لِبْنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبَيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَأَبْنِهِ
الْوَاثِقِ وَأَسْتَظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِيِّ مِنَ الْعَجَمِ وَالْتَّرْكِ وَالْدَّيْلِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ
وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَقْلِبَتِ الْعَجَمُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى النَّوَاحِي وَتَقْلِصَ ظِلِّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُوا أَعْمَالَ
بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الْدَّيْلِ وَمَلَكُوهَا وَصَارَ الْخَلَاقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ
وَمَلَكَ الْسُّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ الْتَّارِ
فَقَتَلُوكُمْ الْخَلَاقَةَ وَمَحَوْا دَسَمَ الدَّوْلَةِ وَكَذَا صَنَّهَا جَهَةُ بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبَيَّتِهِمْ مِنْذُ الْمَائَةِ
الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَأَسْتَمِرَتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقْلِصَةً الظَّلِيلَ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَاهَةِ وَالْقَلْعَةِ
وَسَائِرِ شَغُورِ الْفَرِيقِيَّةِ وَرُبَّمَا انتَزَى بِشَلَكِ الشَّغُورِ مِنْ نَازِعِهِمُ الْمَلَكُ وَأَعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ
وَالْمُلَكُ مَعَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِأَنْقَرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوْحِدُونَ بِقُوَّةٍ
قوَيَّةٍ مِنَ الْعَصَبَيَّةِ فِي الْمَصَادِمَةِ فَعَحْوا أَثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أَمِيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ
عَصَبَيَّتِهِمَا مِنَ الْعَرَبِ أَسْتَوَى مُلُوكُ الْطَّوَافِ عَلَى أَمْرِهَا وَأَفْتَسَمُوا خِلْطَهَا وَتَنَافَسُوا بِنَهْمِهِمْ
وَتَوَزَّعُوا بَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَأَنْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وَلَا يَنْتَهُ وَشَمَخَ بِأَنْفُهُ وَبَاهَمُ
شَانُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلَكِ وَلَيْسُوا شَارِتَهُ وَأَمْنُوا مِنْ يَنْقُضُ
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لَا تَأْتِي الْأَنْدَلُسَ لِيَسْ بِدَارِ عَصَابَتِ وَلَا قَبَائِلَ كَمَا سَنَدَ كُوَّةٌ
وَأَسْتَمَرَ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ أَبْنُ شَرْفِ

مَا يُرْهِدُنِي فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ

الْقَابُ مَمْلَكَةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا

فَأَسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِيِّ وَالْمُضْطَهَنِينَ وَالْطَّرَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوِّ
مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَانَةَ وَغَيْرِهِمْ أَفْتَدَاهُ بِالْدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الْأَسْتَظْهَارِ بِهِمْ حِينَ
ضَعَفتْ عَصَبَيَّةَ الْعَرَبِ وَأَسْتَبَدَ أَبْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُولٌ عَظِيمَةٌ

استبدت كل واحيدة منها بمحابي من الأندلس وحظى كثيرون من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزاوا في سلطانهم ذلك حتى جاز إليهم البعير المرايطون أهل العصبية القوية من لمنونة فاستبدوا بهم وأزالوهم عن مرافقهم وسمعوا أشارهم ولم يقتدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فيهذه العصبية يكون تمهد الدولة وخاتمتها من أولها وقد ظن الطروشي أن حامية الدول بإطلاقهم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سمى سراج الملك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحکام الصبغة لأهلها فما رجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جديتها ورجوها إلى الاستئثار بالموالي والصنائع ثم إلى المستخدمين من وزرائهم يا لأجر على المدافعة فإنه إنما أدرك دولة الطوائف وذلك عند اختلالبني امية وأنقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في إبالة المستعين بن هود وأبنية المظفر أهل سرقة ولم يكن بي لهم من أمر العصبية شيء لا سيلاه الترف على العرب منذ ثلاثة مائة من السنين وهلا كفهم ولم يرى إلا سلطاناً مستبداً بالملك عن عشائره فد استحکمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينزع فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة فأطلق الطروشي القول في ذلك ولم يتطرق لحقيقة الأمر منذ أول الدولة وإن لا يتم إلا لأهل العصبية فتفطن أنت له وأفهم سر الله فيه والله يُؤتي ملکكه من يشاء

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية وذلك أنه إذا كان لعصبية غالب كثيرة على الأمم والأجيال وفي قوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعن لهم وانتقاد فإذا تنزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقرب ملکكه ومنتسب عزه أشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصايه وتناوله الأمر من يد أغبيائه وجذابه لهم على مظاهرته بأصنافائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية تغير ولا يطمئنون في مشاركته في شيء من سلطانه تسللها لعصبيته وانتقادا لما استحکم له ولقومه من

صَبْغَةُ الْقَلْبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةُ إِيمَانِيَّةٍ أَسْتَرْكَتْ فِي الْأَذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَأَوْهَا مَعَهُ أَذْدَوْنَهُ تَرَزَّلَتْ الْأَرْضُ زِلَّ الْمَاءُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلَّادَارَسَةِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَالْعَبِيدِيَّينَ بِإِفْرِيقِيَّةِ وَمِصْرَ لَمَّا أَتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَّةِ وَأَبْتَدُوا عَنْ مَقْرَبِ الْخِلَافَةِ وَسَمُوا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ أَسْتَحْمَكَتْ الصِّبَغَةُ لِبَنِي عَبْدِ الْمَالِكِ لِبَنِي أَمْيَةَ أَوْلَى ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمَ مِنْ بَعْدِهِمْ نَفَرُجُوا بِالْقَاصِيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَا مَنَافِ لِبَنِي أَمْيَةَ أَوْلَى ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمَ مِنْ بَعْدِهِمْ نَفَرُجُوا بِالْقَاصِيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَا لِلْقَسِيمِ وَقَامَ يَا مُرِيزِ الْبَرَابِرَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَبَهُ وَمَغْلِلَةُ الْلَّادَارَسَةِ وَكُنَانَةُ وَصَنْهَاجَةُ وَهَوَازَةُ لِلْعَبِيدِيَّينَ فَشَدُّوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَدُوا بَعْصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَأَقْطَعُوا بَيْتَ مَالِكِ الْعَبَّاسِيَّينَ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ إِفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَرْزِلْ ظَلُّ الدُّوَلَةِ يَتَقَاضُ وَظَلَّ الْعَبِيدِيَّينَ يَمْتَدُ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْمَحْجَازَ وَقَاسِمَهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ شَقَّ الْأَبْلُمَةَ وَهُوَلَاءُ الْبَرَابِرَةُ الْقَائِمُونَ بِالْدُّوَلَةِ مَعَ ذَلِكَ كَلِمُهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِيَّينَ لَمْرَقُمْ مُذْعِنُونَ لِمَكِيَّهُمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّثْبَةِ عِنْدُهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيَّهُمْ لِمَا حَصَلَ مِنْ صَبْغَةِ الْمُلْكِ لِبَنِي هَاشِمَ وَلَمَّا أَسْتَحْمَكَهُ مِنَ الْقَلْبِ افْرَيْشَ وَمُضَرَّ عَلَى سَائِرِ الْأَمْمِ فَلَمْ يَرْزِلِ الْمُلْكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنْ اتَّقَرَّضَتْ دُوَلَةُ الْعَرَبِ يَا مُرِيزِهَا وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَا يُعَذِّبُ لِحُكْمِهِ

الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة املك اصلها الدين

اما من نبوة او دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْتَّفْلُكِ وَالْتَّفْلُكُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَالْتَّفَاقِ الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعْنَوَةِ مِنَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرَّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَّا الْخِلَافُ وَإِذَا أَنْصَرَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتِ الْدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَنْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ أَتَعَدَّتْ وَجَهَتْهَا فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَ الْخِلَافُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالْتَّعَاصُدُ وَأَتَسْعَ نِطَاقَ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ قَعَدَمْتِ الدُّوَلَةُ كَمَا نَبَيَّنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبَبِ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية

التي كانت لها من عددها

والأسباب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاد الذي في أهل العصبية وتفيد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهذا مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فاغراضهم متباعدة بالباطل وتخاذلهم لتنمية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يتغلبون عليهم ويواجههم الفناء بما فيهم من الترف والذلة كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين ياقاديسية واليزموك بضعة وثلاثين ألفاً في كل مسكن وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً ياقاديسية وجموع هرقل على مقاله أو اقديمي أربعمائة ألف فام يقف للعرب أحد من الجنانين وهزمونهم وغابوهم على ما يذبحون وأعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين كان فقد بالمغرب من القبائل كثيرة من يقاومون في العدد والعصبية أو يشفى عليهم إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوته عصبيتهم يا الاستبصار والاشتاتة كما قلناه فلما يقف لهم شيء وأعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف يتوقف الأمر ويصير القلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يديها من العصائب المكافحة لها أو الزائدة القوية عليها الذين غلبوهم بعصبيتهم لما كانت زناته أبدى من المصادمة وأشد توحيداً وكان المصادمة الدعوة الدينية باتباع المهدي فليسوا صيغتها وتضاعفت قوته عصبيتهم بها فغلبوا على زناته أو لا وأستبعوهم وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منه فلما خلوا من ذلك الصبغة الدينية انقضت عليهم زناته من كل جانب وغابوهم على الأمر وانتزعوه منه والله غالب على أمره

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا ثم
وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تُحمل عليه الكافية فلا بد له من العصبية وفي
الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه فإذا كان هذا في
الأنبياء وهم أولى الناس بخراق العوائق فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في
القلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلم المتعلين
في التصوف ثار بالأندلس داعيا إلى الحق وسيجي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة
المهدي فاستتب له الأمر فليلاً لأشغل المتونة بما دمهم من أمر الموحدين ولم تكن
هناك عصائب ولا قائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على
المغرب أن أذعن له ملوك ودخل في دعوتهم وتاب لهم من معقله بمحض أزكش وأمنهم
من شغره وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين
ومن هذا الكتاب أحوال الثوار القائمين بغير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيراً
من المتعلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجوز من
الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والتنبيه عنه والأمر بالمعروف رجاء في التواب
عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتلذذون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرفون أنفسهم
في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل مأذورين غير ماجورين لأن
الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى
الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسانيه فإن لم
يستطع فقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا
المعطالية القوية التي من ورائها عصبية القبائل والمشائخ كما قدمناه وهذا كان
حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم
المؤيدون من الله بالكون كلهم لوجهه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة
والله حكيم عليه فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققاً فصر به
الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الملائكة وأماماً إن كان من المتليسين بذلك في

طَلَبَ الْرِّئَاسَةَ فَاجْدَرُ أَنْ تَعُوقَهُ الْعَوَاقِقُ وَتَنْقِطُ بِهِ الْمَهَالِكُ لَا نَهُ أَمْرُ اللَّهِ لَا يَتَمَّ إِلَّا
 بِرِضَاهُ وَإِعْانَتِهِ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ وَالنِّصِيبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَأِ
 فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوْلُ أَبْتِدَاءٍ هُذِهِ التَّزَعَةُ فِي الْمُلْمَةِ يَغْدَادُ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِيرٍ
 وَقُتِلَ الْأَمِينُ وَأَبْطَأَ الْمُؤْمِنُ بِخِرَاسَانَ عَنْ مَقْدِمِ الْعَرَاقِ ثُمَّ عَهِدَ لِعَلَى بْنِ مُوسَى
 الْرَّضَى مِنْ آلِ الْحُسَينِ فَكَسَّفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ الْكَبِيرِ عَلَيْهِ وَنَدَاعُوا لِلْقِيَامِ
 وَخَلَمَ طَاعَةَ الْمُؤْمِنِ وَالْأَسْتِبْدَالُ مِنْهُ وَبُويعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْمُرْجُ
 يَغْدَادُ وَأَنْطَلَقَتْ أَيْدِي الْزَّعْرَةِ بِهَا مِنَ الشَّطَارِ وَالْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَّةِ وَالصَّونِ
 وَقَطَّعُوا السَّيِّلَ وَأَمْتَلَاتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ نَهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا عَلَانِيَّةً فِي الْأَسْوَاقِ وَأَسْتَهَنَّ
 أَهْلَهَا الْحُكْمَ فَلَمْ يَعْدُوْهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّرَنِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنْعِ الْفُسَاقِ وَكَفَّ
 عَادِيَّةَ وَقَامَ يَغْدَادُ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدَّرْبُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَأَجَابَهُ خَاقُ وَفَانَّ أَهْلَ الْزَّعْرَةِ فَغَابُوهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُمْ فِيهِمْ
 بِالْفَرَبِ وَالْتَّشْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ أَخْرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادِ يُعْرَفُ بِسَهْلِ
 أَبْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ وَبِهِكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَقَ مُصْحَفًا فِي عَنْقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنْنَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فَأَتَبَعَهُ النَّاسُ كَافَةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفِ وَوَضِيعِ مِنْ بَنَى هَاشِمٍ ثُمَّ دُونُهُمْ وَنَزَّلَ قَصْرَ
 طَاهِيرٍ وَأَتَخَذَ الدَّرِيَّانَ وَطَافَ يَغْدَادُ وَمَنْعَ كُلَّ وَرَتْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنْعَ الْخِفَارَةَ
 لَا وَلِكَ الْشَّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدَّرْبُوسُ أَنَا لَا أَعِبُّ عَلَى السَّلَطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلُ لَكْنَى
 أَفَاتَلَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنْنَةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةً إِحْدَى وَمَائِتَيْنِ
 وَجَهَزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَغَابَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْجَلَ أَمْرَهُ مَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَّا
 بِنَفْسِهِ ثُمَّ أَقْتَدَى بِهَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُوْسُوْسِينَ يَا خَذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُقْرِ
 وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْحَصِيرَةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِهِ أَمْرِهِ وَمَالِ
 أَخْوَاهُ لَهُمْ وَالَّذِي يَعْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرٍ هُوَ لَأَءِ اِمَّا الْمُدَّاواةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنُونِ وَإِمَّا
 الْتَّشْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوِ الْفَرَبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَا عَاهَهُ الْسُّخْرِيَّةُ مِنْهُمْ وَعَدُهُمْ
 مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بِعَضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُسْتَظْرِيِّ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ
 لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَخَلِينَ لِمِثْلِ هَذَا

تُجْهِدُهُمْ مُؤْسِسِينَ أَوْ بُحَاجَنِينَ أَوْ مُلْبِسِينَ يَطْلَبُونَ بِمَثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً أَمْتَلَّتْ
بِهَا جَوَافِعُهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ التَّوْصِلِ إِلَيْهَا يَشَيُّهُ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا
مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِ إِلَى مَا يُؤْمِلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُمُ فِيهِ مِنْ
الْمَلَكَكَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُحِدِّثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسُوهُ مَاقِيَّةُ مَكْرِهِ وَفَدَ كَانَ
لِأَوْلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالشُّوْسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّوبَدْرِيُّ عَمِدَ إِلَى
مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَالِكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُسْتَنْظَرُ تَكِيسًا عَلَى الْمَامَةِ هُنَالِكَ
بِعِكَامَلَهُ لُوْبِهِ مِنَ الْمَحَدَّثَانِ بِاَنْتَظَارِهِ هُنَالِكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ
فَتَهَافَتَ عَلَيْهِ طَوَافِيفُ مِنْ عَامَةِ الْبَزَرِيِّ تَهَافَتَ الْفَرَاشُ ثُمَّ خَشَيَ زُوسَاؤُهُ أَسْيَاعَ
نَطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَادِمَةِ بِوَمَضِيِّ عُمُرِ السَّكِنِيُّوْيِّ مِنْ قَتْلَهُ فِي
فِرَاسِيَهِ وَكَذِلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَبْضَانًا لِأَوْلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَيَّاسِ
وَأَدْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَةَ الْأَرْذُلُونَ مِنْ سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِ
وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَنْصَارِهِ وَدَخَلَهَا عَنْوَةً ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظَهُورِ
دَعْوَتِهِ وَمَذَى فِي الْمَالِكِيَّنِ الْأَوَّلِيَّنِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْغَلْطُ فِيهِ مِنَ الْفَقْلَةِ
عَنِ اعْتِباَرِ الْعَصَيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا أَنْ كَانَ النَّلِيسُ فَأَخْرَى أَنْ لَا يَتَمَّلَهُ أَمْرُهُ وَأَنْ
يَبُوْهُ يَوْمَهُ وَذَلِكَ جَزَاهُ الظَّالِمِينَ وَأَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبَعَةِ
وَلَا مَبُودُ سِوَاهُ

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حمة من المالك والوطن لا تزيد عليها
والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقوتها القائمة بها المعمدين لها لا بد من
توزيعهم حصصا على الممالك والشغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من
العدو وأبقاء أحكام الدولة فيها من جهادية وردع وغير ذلك فإذا توفرت العصائب
كلها على الشغور والممالك فلا بد من تقاد عددها وقد بالغت الممالك حينئذ إلى
حد يكون شرعا للدولة وتحتها لوطنها ونطاقها لمراكز ملكها فإن تكفلت الدولة بعد
ذلك زيادة على ما يديها يعني دون حامية وكان موضعا لأنتهاز الفرصة من العدو
وأن التجاوز ويُعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاوز وخرق سياسة المحبة

وَمَا كَانَتِ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدِ عَدُودُهَا فِي تَوزِيعِ الْمُحْصَصِ عَلَى الشُّغُورِ وَالنَّوَاحِي بَقِيَ فِي الدُّولَةِ قُوَّةً عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْفَاِيَةِ حَتَّى يَنْسَعَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبَيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَّى الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ فَشَاهَنَّهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدُّولَةُ فِي مَرْكُزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الْطَّرَفِ وَالنِّطَاقِ وَإِذَا أَنْتَهَتِ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْفَاِيَةُ عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَانَ الْأَشْعَةَ وَالْأَنْوَارِ إِذَا أَنْبَثَتْ مِنَ الْمَرَاكِزِ وَالدَّوَائِرِ الْمُنْقَسِعَةِ عَلَى مَطْحَنِ الْمَاءِ مِنْ النَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَرَى الْمَرْكُزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَادَنَ اللَّهُ بِأَنْقَرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً فَيُنْثَيَ يَكُونُ أَنْقَرَاضُ الْمَرْكُزُ وَإِذَا غُلِبَ عَلَى الدُّولَةِ مِنْ مَرْكُزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنِّطَاقِ بَلْ تَضَمَّنُهُ لِوَقْتِهَا فَإِنَّ الْمَرْكُزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي تَبَعِثُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غُلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلِكَ الْمَهْرَمَ جَمِيعُ الْأَطْرَافِ وَأَنْظُرْهُ هَذَا فِي الدُّولَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكُزُهَا الْمَدَائِنَ فَلَمَّا غَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ أَنْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعَ وَلَمْ يَنْفَعْ يَرْدَجُزَدَ مَا يَقِيَ يَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمْلِكَتِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الدُّولَةُ الْرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكُزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَغَابُوهُ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ تَحِيزُوا إِلَى مَرْكُزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَصْرُهُمُ انتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمُ فَلَمْ يَزِلْ مَلِكُهُمْ مُتَصَلِّيًّا بِهَا إِلَى أَنْ تَادَنَ اللَّهُ بِأَنْقَرَاضِهِ وَأَنْظُرْهُ أَبْنَاءَ شَانَ الْعَربِ أَوْلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَ عَصَابَهُمُ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاؤَهُمْ مِنْ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَاعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاءُزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السَّنَدِ وَالْجَبَشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَاصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالشُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَّةً وَنَفَدَ عَدُودُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوزِيعَاتِ أَفْصَرُوا عَنِ الْفُتوَحَاتِ بَعْدَ وَأَنْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ قَلَمْ يَتَجَاءَزُ تِلْكَ الْمُحِدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدُّولَةُ حَتَّى تَادَنَ اللَّهُ بِأَنْقَرَاضِهِ وَكَذَا كَانَ حَالُ الدُّولِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلُّ دُولَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ وَعِنْدَ تَفَادِ عَدُودِهِمْ بِالتَّوزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْأَسْتِيلَادُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها
في الفلة والكثرة

والأسباب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بملك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبلها وأهل عصيتها أكثر كانت أقوى وأكثر مالك وأوطاناً وكل ملك لها أوضح لذلك وأعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما أنت الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرين ألف من مصر وتحطان ما بين فارس وراجيل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة فلما توجهوا طلب ما في أيدي الأئم من الملك لم يكن دونه حمى ولا ورر فاستيقع حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعدهم والترك بالشرق والفرنجية والبربر بالغرب والقوط بالأندلس وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيدين قبلهم لما كان كتامة القائمين بدولة العبيدين أكثر من صنهاجة ومن المصاصدة كانت دولتهم أعظم فملكتها إفريقية والغرب والشام ومصر والحجاج ثم انظر بعد ذلك دولة زناته لما كان عددهم أقل من المصاصدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدده المصاصدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناته بنى مرین وبني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى . يقال إن عدده بني مرین لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وإن بني عبد الواد كانوا لفلا إلا أن الدولة بالرغم وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد المغوليين لأول الملك يمكن اتساع الدولة وقوتها وأماماً طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة لأن عمر الحادث من قوته مزاج الدول إنما هو بالعصبية فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصبية إنما هي بكثرة العدد ووفره كما قلناه وأسباب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يندو في الدولة من

الاطراف فاًذَا كَانَتْ مَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَيْدَةً عَنْ مَرْكِزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ
نَقْصٍ بَقَعَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكُثُرُ أَزْمَانُ النَّقْصِ الْكَثِيرَةُ الْمَمَالِكُ وَأَخْتِصَاصُ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَبَخْكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّولَ لَا بُنُوَّ الْعَبَاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ
وَلَا بُنُوَّ أُمَّةِ الْمُسْتَيْدِونَ بِالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْفُضْ أَمْرُهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَزْبَعِمَائِةِ مِنْ
الْهُجْرَةِ وَدَوْلَةُ الْعَبَادِيَّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَنْهَاجَةِ
وَنَوْنَمِ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزَّ الدُّولَةِ أَمْرَاً فِي رِيقَيَّةِ الْمَكَنِيَّينَ بْنِ زِيرِيِّ فِي سَنَةِ ثَمَانِ وَخَمْسِينَ
وَثَلَاثِيَّاتِهِ إِلَى حَيْنِ أَسْتِيلَاءِ الْمُوَحَّدِينَ عَلَى الْقَاعِمَةِ وَيَعَايَةَ سَنَةِ سِعْ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِيَّاتِهِ
وَدَوْلَةُ الْمُوَحَّدِينَ لِهُنَا الْعَهْدُ تَاهَزُّ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَكَذَا نَسْبُ الدُّولِ فِي
أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ يَهَا سَنَةُ اللَّهِ الْأَقِيْقِيَّةِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادَةِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والمعاصي قل ان تستحكم فيها دولة
والأسباب في ذلك اخلاق اراء وآهواه وآن وراء كل رأي منها وموئلي
عصبية تمانع دونها في كثرة الاتفاقيات على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن
كانت ذات عصبية لأن كل عصبية من تحت يدها تطن في نفسها منعة وقوة وأنظر
ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه
الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغدو عليهم الغلب الأول الذي كان لأن
أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجية شيئاً وعادوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد
آخر وعظم الآتون من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة
والخروج والأخذ بدين المخوارج مرّات عديدة قال ابن أبي زيد أزتَدَتِ الْبَرَابِرَةُ
بِالْمَغْرِبِ أَثْنَتِيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعِوْدِهِ وَلَابَةِ مُؤْمِنِي
بِنْ نُصَيْرِ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُغَرَّفَةَ إِقْلَوْبَ أَهْلَبَا إِشَارَةَ
إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثِيرَةِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِلِ الْحَامِلَةِ لَمْ عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْإِنْقِيَادِ وَلَمْ
يَكُنْ الْعِرَاقُ لِلِّيْلَكَ الْعَهْدِ بِتَلَكَ الصِّنَّةِ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَ حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ
وَالرُّومِ وَالْكَافَّةِ دَهْمَاءَ أَهْلِ مَدْنَ وَمَصَارِ فَلَمَّا غَلَبُوهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْتَزَعُوهُ
مِنْ أَيْتَيْهِمْ لَمْ يَقُلْ فِيهَا مُعَانِعٌ وَلَا مُشَاقٌ وَالْبَرْبُرُ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

شخصي وكلهم باديه واهل عصائب وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى
 مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمكيد الدولة بوطرس
 أفريقيا والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهدبني إسرائيل كان فيه من قبائل
 فلسطين وكتعان وبني عصوببني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكرنوس
 والنبطي من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على
 بني إسرائيل تمكيد دولتهم ورفسوخ أمرهم وأضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى
 وسرى ذلك الخلاف إلى يوم فاختلقو على سلطائهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك
 موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند اجتلاه
 والله غالب على أمره وبعثت لهداياه أخلاقه من العصبيات يسهل تمكيد
 الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة المهرج والانتقام ولا تحتاج الدولة فيها إلى
 كثير من العصبية كما هو شأن في مصر والشام لهذا العهد إذ هي خارج من القبائل
 والعصبيات كان لم يكن الشام عذرا لهم كما فعلناه فلذلك يضر في غاية الدعة والرفسوخ
 لقلة الخوارج واهل العصائب إنما هو سلطان ورعينة ودولتها قائمة بملك الترك
 وعصائيم يتغلبون على الأمر واحدا بعد واحد وبانتقال الأمر فيهم من منتدى إلى منتدى
 وأخلاقه مسماة العباسية من أعقاب أخلفاء بغداد وكذلك شأن الأندلس لهذا العهد فإن
 عصبية ابن الأخر سلطانها لم تكون لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات إنما يكون
 أهل منتدى من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القليل وذلك أن أهل
 الأندلس لما انفرضت الدولة العربية منهم وملوكهم البربر من لمعونة والموحدون
 شيموا ملوكهم وقتلوا وطأتهم عليهم فاشربت القلوب بغضائهم وأمكن الموحدون
 والساسة في آخر الدولة كثيرا من المحصنون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم
 من تمكنت الحضرة مرآكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادين
 من بيوت العرب تجاف بهم المنتدى عن الحاضرة والأنصار بعض الشيء ودخلوا في
 العصبية مثل ابن هود وابن الأخر وابن مردنس وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر
 ودعى بدعوة الخلافة العباسية بالشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدون
 فنبذوا إليهم العهد وأخرج جوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن

الآخر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعى هو لأبن أبي حنفه صاحب أفريقية من المُوحدين وقام بالأمر وتناوله بعصابة قريبة من قرابة كانوا يسمون الروساء ولم يتحقق لا كثرة منهم لقلة العصائب بالأندلس وإنما سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يعبد إله البحرين أعياد زناة فصاروا معه عصبة على المتناغرة والشياطين مما يصاحب من ملوك زناة أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعياد عصابة ابن الآخر على الامتناع منه إلى أن تأثر أمره ورسخ وألفته النقوص ومحجز الناس عن مطالبه وورثة أعقابه لهذا العهد فلا تخفي أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدأ عصابة إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يعني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله عزيز عن العالمين

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصير لها جميعاً في ضمها وبذلك يكون الاجتماع والقلب على الناس والدول وسيره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكبرين والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متساكفة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالية على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصير لها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمها وتلك العصبية الكبترى إنما تكون أقىهم أهل بيت ورئيسة فيهم ولا بد من أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغافب متنبه لجميعها وإذا تعين له ذلك فمن طبيعة الحيوانية خلق الكبير والانفة فيما نسب حيئذ من المساعدة والمساعدة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجيئ خلق التاله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحكم افساد الكل بخلاف الحكم لو كان فيها الله إلا الله نسفت قبده حيئذ أنوف العصبيات وتقلع شكاهم عن أن يتسموا إلى مشاركته في التحكم

وَتُقْرِعُ عَصَبَيْهِمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفِرِدُ بِهِ مَا أَسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتَرَكَ لِأَحَدٍ مِّنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا
نَاقَةٌ وَلَا جَمَّا لَا فَيَنْفِرُ بِذَلِكَ الْجَهْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتَمَّ ذَلِكَ لِلْأَوَّلِ
مِنْ مُلُوكِ الدُّولَةِ وَقَدْ لَا يَتَمَّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُعْنَانَةِ الْعَصَبَيَّاتِ وَفُورَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ
أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدُّولَةِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغْلَبَتْ وَمَلَكَتْ مَا يَأْبِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِبَاشُهَا
وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاهَوْزُونَ ضَرُورَاتِ الْعِيشِ وَخُشُونَتُهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِفَقَتِهِ
وَرِبَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى أَتِيَّاعٍ مَّا قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَخْوَاهِهِمْ وَتَصِيرُ لِنَلْكَ النَّوَافِلِ عَوَائِدُ
خَرَوْرِيَّةٍ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِفَقَةِ الْأَخْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ
وَالْأَنْوَشِ وَالْأَنْيَةِ وَيَتَفَخَّرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِّنَ الْأَمْمَ في أَكْلِ الْطَّيْبِ
وَلُبْسِ الْأَنْيَقِ وَزَكُوبِ الْفَارِهِ وَبِنَاغِي خَلْفِهِمْ فِي ذَلِكَ سَلْفِهِمْ إِلَى آخِرِ الدُّولَةِ وَعَلَى قَدْرِ
مُلَكِّيَّهُمْ يَكُونُ حَظْهُمْ مِّنْ ذَلِكَ وَتَرَفُّهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَلْفُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَایَةَ الَّتِي لِلْدُولَةِ
إِلَى أَنْ تَبْلُغُهَا بِحَسْبِ فُورَتِهَا وَعَوَائِدِهِمْ مَمْنَ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكن

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ غَايَةُ الْقُلُبِ وَالْمُلْكُ
وَإِذَا حَصَلتَ الْغَايَةَ أَنْقَضَتِ الْسَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِيزُتْ لِسَعْيِ الْدَّهْرِ يَنِي وَيَنِهَا فَلَمَّا أَنْقَضَتِ مَا يَنِينَا سَكَنَ الْدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَفْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِبِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَأَثْرُوا الْرَّاحَةَ
وَالسُّكُونَ وَالدَّهَرَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنْ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ
فَيَنْتَنُونَ الْقُصُورَ وَيَجْرُونَ الْمَيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الْرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِأَخْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ
الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِبِ وَيَتَأَقْوُنُونَ فِي أَخْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْأَنْيَةِ وَالْفُرُشِ مَا
أَسْتَطَاعُوا وَيَا لَفْنَوْنَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَمْنَ بَعْدِهِمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزايدُ فِيهِمْ

إِنْ يَأْذَنَ اللَّهُ بِإِمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

فِي لِنَهِ إِذَا تَحْكَمَ طَبِيعَةُ الْمَلَكِ مِنَ الْاِنْقِرَادِ بِالْجُنُودِ وَحْصُولِ التَّرَفِ وَالدُّعَةِ

أَقْبَاتِ الدُّولَةِ عَلَى الْمَرْءِ

وَبِيَانِهِ مِنْ دُجُونِهِ . الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِيُ الْاِنْقِرَادَ بِالْجُنُودِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهْمَا كَلَّتِ
الْجُنُودُ مُشْتَرِكًا بَيْنَ الْعِصَابَةِ وَكَانَ سَعِيهِمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَ هِمْهُمْ فِي التَّغْلِبِ عَلَى الْغَيْرِ
وَالثَّالِثُ عَنِ الْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا وَرَمَاهُمْ إِلَى الْعَزِيزِ جِيمًا يَسْتَطِيُّونَ
الْمَوْتَ فِي يَنَاءِ تَعْدِيمِهِ وَيُؤْثِرُونَ الْمُلْكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا أَنْقَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْجُنُودِ
قَرَعَ عَصَبَيْهِمْ وَكَجَعَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَأَسْتَأْثَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ الْفَزْوِ وَفَشَلُ
رُبُّهُمْ وَرَأَيُّهُمْ الْمُذَلَّةُ وَالْأَسْتِبَادُ ثُمَّ زَوَّجَ الْجِيلَ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَعْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ
مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَابَةِ وَالْمَعْوَنَةِ لَا يَبْغِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ
أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ وَهُنَّا فِي الْدُّولَةِ وَخَضَدَا مِنْ الشُّوَكَةِ
وَنُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاكِيِّ الْفُضُفُ وَالْمَرْءِ لِفَسَادِ الْعَصَبَةِ يَذَهَّبُ الْبَأْسُ مِنْ أَهْلِهَا . وَالْوَجْهُ
الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلَكِ تَقْتَضِيُ التَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَا فَتَكَثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ
عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَنِي دَخْلُهُمْ بِمَخْرَجِهِمْ فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالْمُتَرِفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ
يَتَرَفَّهُ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ الْمُتَّاخِرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ
وَعَوَائِدُهُ وَنَفَقَاتُهُمُ الْحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمُ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْفَزْوِ وَالْمُرْوُبِ فَلَا
يَجِدُونَ وَلِيَجِدُهُمْ عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمُ الْعُقوَباتِ وَبَيْتَرِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ
بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءِهِمْ وَصَنَاعَتِ دَوْلَتِهِمْ فِي ضُغْفِهِمْ لِذَلِكَ عَنِ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ
وَيَضُعُفُ صَاحِبُ الْدُّولَةِ بِضُعُفِهِمْ . وَأَيْضًا إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الْدُّولَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ
مُقْصِرًا عَنِ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ اِحْتَاجَ صَاحِبُ الْدُّولَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الْزِيَادَةِ
فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسْدُدَ خَلْلَهُمْ وَيُزِيَّحَ عَلَيْهِمْ وَالْجِيَابَةَ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا
تَنْفَضُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدِثُ مِنَ الْمُكَوْسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الْزِيَادَةِ عَدُودًا
فَإِذَا وُزِّعَتِ الْجِيَابَةُ عَلَى الْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا الْزِيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ
نَفَقَاتِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَفَضَ عَدَدُ الْجِيَابَةِ حِتَّى يَنْبَغِي عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يَعْلَمُ التَّرَفُ وَتَكْثِيرُ مَقَادِيرِ الْأَعْطِيَاتِ لِذَلِكَ فَيَقْصُنُ عَدْدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى
 أَنْ يَعُودَ الْمَسْكُرُ إِلَى أَقْلَى الْأَعْدَادِ فَتَضَعُفُ الْحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدُّولَةِ وَيَتَجَاهِزُ
 عَلَيْهَا مَنْ يَجَاوِزُهَا مِنَ الدُّولَةِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدِيهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْمَهَاجِرِ وَيَأْذَنُ اللَّهُ
 فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ وَإِنْضَمَ فَالْتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلْخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ
 الْوَانِ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ وَعَوَانِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ الْحِضَارَةِ فَتَذَهَّبُ مِنْهُمْ خَلَالُ
 الْأَخْيَرِ الَّتِي كَانَتْ عَالِمَةً عَلَى الْمُلْكِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَيَتَصَفُّونَ بِمَا يَنَافِضُهَا مِنْ خَلَالِ الشَّرِّ
 فَيَكُونُ عَالِمَةً عَلَى الْإِدْبَارِ وَالْأَنْقَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ وَتَأْخُذُ
 الدُّولَةُ مَبَادِئَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعُفُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزَلُ بِهَا أَمْرَاضُ مُرْمِنَةٍ مِنَ الْمَرْمَمِ إِلَى أَنْ
 يُقْضَى عَلَيْهَا. الْوَجْهُ الْ ثَالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الْدُّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَا وَإِذَا أَمْهَذُوا
 الْدُّعَةَ وَأَرَاهُمْ مَا لَفَّا وَخُلِقُوا صَارُ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِلَّهُ شَانُ الْعَوَانِدِ كُلُّهَا وَإِلَيْهَا
 قَرَبَى أَجِيَالُهُمُ الْخَادِثَةُ فِي غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالْدُّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ الْتَّوْحِشِ
 وَيَنْسَوْنَ عَوَانِدَ الْبِداوَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا الْمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعُودُ الْأَنْقَاضُ وَرُوكُوبُ
 الْبَيْدَاءِ وَهِدَاءُ الْقُمَرِ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْشَّوَّفَةِ مِنْ الْحَضَرِ إِلَّا فِي الْقَنَافِذِ وَالشَّارِقَةِ
 فَتَضَعُفُ حِجَابُهُمْ وَيَذَهَبُ بِأَسْهُمْ وَتَنْخَضُ شَوْكُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدُّولَةِ بِمَا
 تَلْبِسُ مِنْ ثِيَابِ الْمَرْمَمِ لَا يَرَوْنَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَانِدِ التَّرَفِ وَالْحِضَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالْدُّعَةِ
 وَرِقَةِ الْحَاشِيَةِ فِي حَمْعِ أَهْرَامِهِمْ وَبَنَغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِداوَةِ
 وَالْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَبَّيَّا فَشَبَّيَّا وَبَنَسُونَ خُلُقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ
 حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا عَلَى حَامِيَةِ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَأَعْتَزَ ذَلِكَ فِي الدُّولَةِ الَّتِي أَخْبَارُهَا
 فِي الْعُصُنِ لِدَلِيلَ تَجَدَّدِ مَا قَلَتُهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رِبَّهِ وَرُبُّهُ مَا يَحْدُثُ فِي الدُّولَةِ
 إِذَا طَرَقَهَا هَذَا الْمَرْمَمُ بِالْتَّرَفِ وَالْأَرَاحَةِ أَنْ يَتَغَيِّرَ صَاحِبُ الدُّولَةِ أَنْصَارًا وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ
 جَلَسَتِهِمْ مِنْ تَعُودَ الْخُشُونَةِ فَيَتَخَذُونَ جُنَاحًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحُزْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَانَاهِ
 الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشَّظْفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلْدُولَةِ مِنَ الْمَرْمَمِ الَّذِي عَسَاهُ أَنْ
 يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوَاءِ التُّرْزِكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنْ غَالَبَ
 جُنَاحُهَا الْمَوَالِيَ مِنَ التُّرْزِكِ فَتَسْتَخِيرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أُولَئِكَ الْمَمَالِكِ الْمُجْلُو بَيْنَ إِيَّاهُمْ فُرْسَانًا
 وَجُنَاحًا فَيَكُونُ أَجْرًا عَلَى الْحُزْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى الشَّظْفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ

كأنوا قبلهم وربوا في ماء النعم والسلطان وظلوا وكذلك في دولة الموحدين بأفريقية فـإن صاحبها كثيراً ما يتغذى الجناده من زنانه والعرب ويستهلكون منهم ويتزوج أهل الدولة المتعودين للترف فـتستعد الدولة بذلك عمرًا آخر مالما من المهرم والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجعون مائة وعشرون سنة وهي سبعو القمر الكبوري عند العنجعين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القراءات فيزيد عن هذا وينقص منه فـتكون أعمار بعض أهل القراءات مائة تامة وبعضاً خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقضيه أدلة القراءات عند الناظرين فيها وأعمار هذه العملية ما بين ستين إلى سبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من ذلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأما أعمار الدول أيضاً وإن كانت تختلف بحسب القراءات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال وجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنضوء إلى غايته قال تعالى حتى إذا بلغ أشدته وببلغ أربعين سنة وهذه قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيد هذه ماذ كرناه في حكمه التي الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الآباء ونشأة جيل آخر لم يعودوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعود في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم يزاوا على خلق البداؤة وخشوتها وتواحشتها من شظف العيش والبساطة والأفتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فـخدمهم مرهف وجاههم مزهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني مهول حاهم بالملك والترف من البداؤة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومرت الأشتراك في المجد إلى انفرد الواحد به وكسل البافين عن

السعي فيه ومن عز الأستطاله إلى ذل الأستكانه فتنكسر سورة العصبية بغير
 الشيء وتتواء منهن الممانه والخضوع ويفيق لهم الحكيم من ذلك بما أدرى كوا الجيل
 الأول وباشروا أخوه لهم وشاهدوا اعتراضاً وسعهم إلى التجدد ورائهم في المدافعة
 والحياة فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء
 من مراجعة الأحوال التي كانت لبعيل الأول أو على ظن مت وجودها فيهم وأما
 الجيل الثالث فينسون عهده البداؤة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز
 والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر وينبغى فيهم الترف غائبه بما تبنقه من النعيم
 وغضارة العيش فيصيرون عبala على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين
 المدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسرف الحياة والمدافعة والمطالبة
 ويلسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يعودون بها وهم
 في الأكثراً أجيال من النساء على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا
 مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواءٍ من أهل التجدة ويستكثر
 بالموالي ويضطجع من يغنى عن الدولة بعض النساء حتى يتاذن الله يأنقاضها فتذهب
 الدولة بما حملت فهو كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة ومختلفها
 ولمنا كان أنقاض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن التجدد والحسبي إنما هو
 أربعة آباء وقد اتبناك فيه بزهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من
 المقدمات فتأمله فلن تدع وجه الحق إن كنت من أهل الإنفاق وهذه الأجيال
 الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تدع الدول في الغالب هذا العمر يتقارب
 قبله أو بعده إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون المرم حاصلاً
 مسؤولياً والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجده مدافعاً فإذا جاءهم
 لا يستأذرون ساعة ولا يستقدموه فهذا انصر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد
 إلى من الوقوف ثم إلى سين الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن
 عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتزه وأخذ منه فأنواعاً يُصحح لك عدد الآباء في
 عمود النسب الذي تربده من قبل معرفة السنين الماضية فإذا كنت قد أشربت في
 عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم حصلة لديك فعد يكمل مائة من السنين

ثلاثة من الآباء فإن تقدّمت على هذا القياس معه فهو صحيح وإن نقصت عنه
يميل فقد غلط عددهم بز يادة واحدة في عمود النسب وإن زادت بعده فقد سقط واحد
وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان مقصلاً لديك فتأمله تجده في الغالب
محبباً والله يقدر الليل والنهر

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداءة إلى الحضارة .

اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول فإن القلب الذي يكون به الملك إنما هو
بالعصبية وبما يتبعها من شدة البناء وتعود الأقواس ولا يكون ذلك غالباً إلا مع
البداءة فطور الدولة من أولها يداوة ثم إذا حصل الملك بعده الرفه وأتساع الأحوال
والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحکام الصنائع المستعملة في وجهه ومذاهبه
من المطابخ والملابس والعباني والفرش والأثاثة وسائر عوائده المنزلي وأحواله
فلكل واحد منها صنائع في استعداداته والتالي فيه تختص به ويشمل بعضها بعضاً
ويتشكل باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملذات والتعميم يأخذ
الترف وما تتلوّن به من عوائده فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداءة
ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة
وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا
وقع للعرب لما كان الفتح وملكون فارس وأرثوم واستخدموه بنائهم وأبنائهم ولم
يكونوا بذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حُكِي أنه قدم لهم المُرقق فكانوا
يحببونه رقاء وغدوا على الكافور في خزان كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ومثال
ذلك كثيراً استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنيهم وحاجات مثاليهم
واختاروا منهم الهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام
على عمله والتلفن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية
في ذلك وتطوروا يطور الحضارة والترف في الأحوال واستعداد المطاعم والمشارب
والملابس والعباني والأسلحة والفرش والأثاثة وسائر الماءون وأنه ثم كذلك
أحوالهم في أيام المباهاة والولائم ولباقي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية وأنظر

ما نقله المسعودي والعلبري وغيرهما في أغراض المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بدل أبوها لخاشية المأمون حين وفاته في خطبته إلى داره فهم الصالح وركب إليها في السفين وما اتفق في أملاكه وما تحملها المأمون وأتفق في عرسها تفت من ذلك على العجب فنه أن الحسن بن سهل ثغر يوم الأملاء في الصنف الذي حضره حاشية المأمون فثار على الطبقة الأولى منهم بحادق الديك ما شوشه على أرفاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في بيده يقع بكل واحد منهم ما أداء إليه الاتفاق والبحث وفرق على الطبقة الثانية بدر الدناير في كل بدر عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدرهم كذلك بعد أن اتفق على مقامة المأمون بداره اضطر ذلك ومنه أن المأمون أعطاهما في ثغرها ليلة زفافها ألف حصان من اليافوت وأ وقد شموع العبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلاثون (١) وبسط لما فرشا كان الخصير منها مسوجا بالذهب بكللا بالدر واليافوت وقال المأمون حين رأه قاتل الله أبا نواس كاته أبصر هذا حيث يقول في صنة انظر كان صغيرا وكثيرا من فواعها حصنه در على أرض من الذهب وأحد بدار الطبع من الخطب لليلة الوليمة نقل ما زار بين بخلاف مدة عامه كاملا ثلاثة مرات في كل يوم وفي الخطب لليلتين وأقروا الجريدة يصبون عليه الرزق وأذعر إلى النواية باحضار السفن لا جازة الخواص من الناس بدخلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت المراقات (٢) الـ مدة لذلك ثلاثين ألفاً أجاز وناس فيها أخرىات مهاريم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذي القعدة بطيطة نقله ابن سام في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداؤة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعهم في غصاناتهم وسداجتهم يذكر أن العجاج أولم في اختيار بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين بسالم عن ولاية الفرض وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرايا به كسرى وقد صنع لأهل

(١) قوله وثلاثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقبل وطلان ولم يوجد في النسخة التونسية للذهان

(٢) المراقات بالفتح جمع حرافة مفيدة فيها مرادى نار يرمى بها الغدوام مختار

فَارسَ صَبِيعاً أَخْضَرَ فِيهِ صَحَافَ الْذَّهَبِ عَلَى أَخْوِينَةِ الْفِضَّةِ أَزْبَعَا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ أَزْبَعٌ وَصَائِفٌ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَزْبَعَةُ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعَمُوا أَتَبْعَثُمُ أَزْبَعَتِهِمُ الْمَائِدَةَ بِصَحَافِهَا وَوُصَافِهَا فَقَالَ الْجَاجَاجُ يَا عُلَامُ اَنْهَرِ الْجَزَرِ وَأَطْعَمِ النَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُ بِهِذِهِ الْأَبْيَهِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَعْطِيَةُ بَنِي أُمِّيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهُمَا الْأَئِيلَ أَخْذَاهُ يَمْدَاهِبُ الْعَرَبِ وَبَدَأُوهُمْ ثُمَّ كَانَ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبَّادِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَخْمَالِ الْمَالِ وَتَخْوِيتِ الشِّيَابِ وَإِعْدَادِ الْجَنِيلِ بِمَرَّاً كِبِيرًا وَهَذِكَذَا كَانَ شَانُ كُتَّامَةَ مَعَ الْأَغَالِيَةِ يَا فَرِيقَيَّةَ وَكَذَا بَنِي طَفْحَ يَمِضِرَ وَشَانُ لِمَتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الْطَّوَافِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوَحِّدِينَ كَذَلِكَ وَشَانُ زَنَاتَةَ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ وَهُمْ جَرَّأُ تَنَقِّلُ الْخِضَارَةِ مِنَ الدُّولِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّولِ الْخَالِفَةِ فَأَنْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الْفَرْسِ لِلْعَرَبِ بَنِي أُمِّيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي أُمِّيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَزَنَاتَةَ لِهِذَا الْعَهْدِ وَأَنْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الْدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى الْتُّرْكِيَّةِ إِلَى الْسَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى الْتُّرْكِيَّ الْمَمَالِيكِ يَمِضِرَ وَالْتَّرَ بِالْعِرَاقِيَّنِ وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ شَانُهَا فِي الْخِضَارَةِ إِذَا أَمْوَرُ الْخِضَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ الْتَّرَفِ وَالْتَّرَفُ مِنْ تَوَابِعِ الْتَّرَوَةِ وَالْتَّرَقَةِ وَالْتَّرَوَةِ وَالْتَّرَقَةِ مِنْ تَوَابِعِ الْمَلَكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ فَعَلَى نِسْبَةِ الْمُلْكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَأَعْتَبَرَهُ وَتَفَهَّمَهُ وَتَامَّهُ تَجَدُّهُ وَتَحْيِيَّهَا فِي آنُمْرَانِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثَيْنَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَالُ وَالْتَّرَفَ كَثُرَ الْتَّنَاسُلُ وَالْتَّوْلُدُ وَالْعُوْمِيَّةُ فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَأَسْكَنُرُوا أَيْضًا مِنَ الْمَوَالِيِّ وَالصَّنَاعَيْ وَرَبِّيَّتْ أَجِيَّالَهُمْ فِي جَوِّ ذَلِكَ النَّعِيمِ وَالرَّفَهِ فَازْدَادُوا بِمِعْدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَفُوْهَةَ إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْعِصَابَةِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجَنِيلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخْدَتِ الدَّوْلَةِ فِي الْمَرْءِ لَمْ تَسْتَقِلْ أَوْلَيَّ الصَّنَاعَيْ وَالْمَوَالِيِّ يَأْتِسِيَّهُمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلَكِّهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعْوَنَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرعُ بِالرُّسُوخِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلاشَى وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا

من القوّة وأعتبر هذا بما وقع في الدولة العرّبية في الإسلام كان عدّ العرب كما قلنا
أعهد النبوة وأخلافة مائة وخمسين ألفاً وما يقاربها من مصر وقطران ولما بلغ التّرف
مبالغة في الدولة وتوفّر نوّهم بتوفر القمة وأستكثّر المخالفه من الموالي والمنائع
بلغ ذلك العدد إلى أضعافه يقال إن المقصّم نازل عموريّة لما افتتحوا في تسعمائة
ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحّحاً إذا اعتبرت حاميّتهم في الشّعور الدّاني
والفاصلية شرقاً وغرباً إلى الجندي الحاملين سرير الملك والموالي والمقطوعين وقال
السعودي أحصى بنو العباس ابن عبد المطلب خاصّة أيام العامون للاتفاق عليهم
فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث فانتظر مبالغه هذا العدد لأقل من مائة سنة
واعلم أن نسبة الرّفّه والنّعيم الذي حصل للدولة وربّي فيه أجيالهم وإلا فعدد العرب
لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه والله أخلائق العليم

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار
اعلم أن الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متعددة ويكتب القائمون
بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لأن
الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعدد في
الغالب خمسة اطوار . الطوز الأول طوز الظفر يا بغية وغلب المدافع والمنع
والأستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة في هذا الطوز أسوة قومه في
أنفسهم العجّيد وجبارية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا يفرد دونهم شيء
لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها . الطوز الثاني
طوز الاستيلاد على قومه والأنفراد دونهم بالملك وتجهم عن التّطاول المساهمة
والمشاركة و يكون صاحب الدولة في هذا الطور معيناً باضطئاع الزجاج وامتحاذ
الموالي والمنائع والاستكشاف من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشرينه المقادرين
له في نسبة الضاربين في الملك بمثل مهمته فهو يدافعهم عن الأمر وبصدّهم عن
موارده ويردهم على اعتبارهم أن يخلصوا إليه حتى يقرّ الأمر في نصايه وبفرد أهل
عصبيته بما يبني من مجده ويعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب

الأمر أو أشد لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهرا لهم على مدافعتهم. أهل المصيبة ياجمعهم وهذا يدافع الأقارب لا يظاهر على مدافعتهم إلا الأقل من الأبعد فيزكي صعبا من الأمر. الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تزوج طبائع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت يستقرغ وسعة في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصار النعمات والقصد فيها وتشديد الباقي المخالفة والمصالح العظيمة والأمسار المتعددة وأهلا كل المزعنة وجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبشـ المـعـرـوفـ فيـ أـهـلـهـ هـذـاـ معـ التـوـسـعـ عـلـ صـنـاعـهـ وـحـاشـيـتـهـ فيـ أحـوالـهـ بـالـمـالـ وـالـجـاءـ وـأـعـرـاضـ جـنـودـهـ وـادـارـهـ أـرـزـاقـهـ وـأـنـصـافـهـ فيـ أـعـطـيـاـتـهـ اـسـكـلـ هـلـالـ حـتـيـ يـظـهـرـ أـثـرـ ذـلـكـ عـلـيـهـمـ فيـ مـلـاسـيـمـهـ وـشـكـبـهـ وـشـارـاتـهـ يـوـمـ أـلـزـيـنـةـ قـيـاميـ بـهـمـ الـدـوـلـ الـمـسـالـمـةـ وـيـرـبـ الـدـوـلـ الـمـعـارـبةـ وـهـذـاـ الطـورـ آخـرـ أـطـوـارـ الـأـسـبـدـادـ مـنـ اـنـجـابـ الـدـوـلـةـ لـأـنـهـمـ فيـ هـذـوـ الـأـطـوـارـ كـلـهـمـ مـسـتـقـلـوـنـ بـأـرـابـيـهـ بـأـنـوـنـ لـعـزـيـهـ مـوـضـحـوـنـ الـطـرـقـ لـمـ بـعـدـهـمـ الـطـورـ آرـايـعـ طـوـرـ القـنـوعـ وـالـمـسـالـمـةـ وـيـكـوـنـ صـاحـبـ الـدـوـلـةـ فيـ هـذـاـ قـانـعـ بـعـاـبـقـ أـوـلـهـ سـلـمـاـ لـأـنـظـارـهـ مـنـ الـمـلـوـكـ وـأـفـتـالـهـ مـقـلـداـ لـلـمـاضـيـنـ مـنـ سـلـفـهـ فـيـتـبعـ آـثـارـهـ حـدـوـ الـنـعـلـ بـالـنـعـلـ وـيـقـتـفيـ طـرـقـهـ يـاـ خـسـنـ مـنـاهـجـ الـأـقـيـدـاءـ وـيـرـىـ أـنـ فـيـ الـخـروـجـ عـنـ تـقـلـيـدـهـ فـسـادـ أـمـرـهـ وـأـنـهـمـ أـبـصـرـ بـمـاـ بـنـواـ مـنـ مـجـدـهـ الـطـورـ آـنـهـامـ طـوـرـ الـأـسـرـافـ وـالـتـبـذـيرـ وـيـكـوـنـ صـاحـبـ الـدـوـلـةـ فيـ هـذـاـ الطـورـ مـتـلـقاـ لـمـاحـعـ أـوـلـهـ فـيـ سـيـلـ الشـهـوـاتـ وـالـمـلـاذـ وـالـسـكـرـمـ عـلـ بـطـائـتـهـ وـفـيـ بـحـالـيـهـ وـاصـطـنـاعـ أـخـدـانـ السـوـءـ وـخـضـرـاءـ الـدـمـنـ وـتـقـلـيـدـهـ عـظـيـمـاتـ الـأـمـوـرـ الـتـيـ لـأـسـتـقـلـوـنـ بـحـمـلـهـ وـلـأـبـغـوـنـ مـاـ يـأـتـونـ وـبـذـرـوـنـ مـنـهـاـ مـسـتـفـدـ الـكـبـارـ الـأـوـلـاءـ مـنـ قـوـمـهـ وـصـنـائـعـ سـلـفـهـ حـتـيـ يـغـنـواـ عـلـيـهـ وـيـتـخـاذـلـوـاـ عـنـ نـصـرـتـهـ مـضـيـهـ مـنـ جـنـدوـ بـمـاـ أـشـقـ مـنـ أـعـطـيـاـتـهـ فـيـ شـهـوـاتـهـ وـجـبـ عـنـهـمـ وـجـهـ مـيـاـشـرـتـهـ وـنـقـدـهـ فـيـكـوـنـ غـرـبـاـ لـمـاـ كـانـ سـلـفـهـ يـوـسـسـوـنـ وـهـادـمـاـ لـمـاـ كـانـواـ يـبـنـونـ وـفـيـ هـذـاـ الطـورـ تـحـصـلـ فـيـ الـدـوـلـةـ طـبـيـعـةـ الـفـرـمـ وـيـسـتوـلـيـ عـلـيـهـ الـمـرـضـ الـمـزـ منـ الـذـيـ لـأـسـكـادـ تـغـلـصـ مـنـهـ وـلـأـيـكـوـنـ لـهـ مـعـهـ بـرـثـاءـ لـهـ أـنـ تـقـرـخـ كـمـاـ نـيـنـهـ فـيـ الـأـخـوـالـ الـتـيـ نـسـرـدـهـاـ وـأـهـهـ خـيـرـ الـوـارـثـيـنـ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر فمن ذلك مبنى الدولة وهي كلها عظيمة فانما تكون على نسبة قوته الدولة في أنها لأنها لا يتم إلا بكتلة الفعلة وأجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الصلة وأرعاها كان الفعلة كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأفطاراتها فتم العمل على أعظمها كلها لأنها إلى مصالح قوم عاد وئود وما قصه القرآن عنهم وأنظر المشاهدة إيوان كسرى وما افتقد في الغرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريجه فشكأه عنه وسرع فيه ثم أدركه العجز وقصة انتشارته ليجيئ ابن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف تقدير دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وأنظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى أمية بقرطبة والقطرة التي على واديها وكذلك بناء الخانات الجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الراكيحة عليها وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الهمائمة للعيان يعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف وأعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بانهدام وأجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها في ذلك شيدت تلك إليها كل والمصالح ولا تفهم ما توهّم العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافهم وأفطاراتها فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجد بينهما كل والآثار ولع القصاص بذلك وتناولوا فيه وسطراً واعن عاد وئود وأعمالقة في ذلك أخباراً عربية في الكذب من أغربها ما يحكى عن عوج بن عناق⁽¹⁾ رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويسوّيه إلى الشمسم ويزيدون إلى جهنهم يا حوال البشر الجهل يا حوال الكواكب لما اعتقادوا أن الشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون

(1) قوله ابن عناق الذي في الموس في باب الجسم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس

عن النون ذله نصر الموريقي

انَّ الْحَرَّ وَالْفُسُونَ وَانَّ الْفَوْنَهُ فِيمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ لِأَنَّ كَاسِ الْأَشْعَةِ
 مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ يُمْقَابِلَهُ الْأَضْوَاءَ فَتَضَاعَفُ الْحَرَارَهُ هُنَّا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتِ
 مَطَارِحَ الْأَشْعَهِ الْمُنْعَكِسَهُ فَلَا حَرَّ هُنَّاكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ بَجَارِيَ السَّحَابَ
 وَانَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَهُ وَلَا بَارِدَهُ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِطٌ مُضِيٌّ لَا مَزَاجٍ لَهُ
 وَكَذِلِكَ عُوجُّ بْنُ عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِيقَةِ أَوْ مِنَ الْكَنَعَانِيَّينَ الَّذِينَ
 كَانُوا فَرِيسَهَ بَنَى إِسْرَائِيلَ عِنْدَ قَعْدِهِمِ الشَّامَ وَأَطْوَالُ بَنَى إِسْرَائِيلَ وَجِسْمَهُمْ لِذَلِكَ
 الْعَهْدِ قَوِيهَهُ مِنْ هِيَآ كَلَّا يَشَهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ
 وَجُدِيدَتْ لَمْ تَزَلِ الْمُحَافَظَهُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاؤُتُ بَيْنَ
 عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ أَسْتَعْظِمُوا آثَارَ
 الْأَمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّولِ فِي الْأَجْتِمَاعِ وَالْتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهُنْدَامِ مِنَ
 الْآثَارِ الْعَظِيمَهُ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّهِ الْأَجْسَامِ وَشَدَّتِهَا بِعِظَمٍ هِيَآ كُلُّهَا وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذِلِكَ
 وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ وَنَقْلَهُ عَنِ الْفَلَاسِفَهِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَندَ لَهُ إِلَّا الْتَّعَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ
 الْطَّبِيعَهُ الَّتِي هِيَ جَبَلَهُ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي قَمَامِ الْكُرْهَهُ وَنِهايَهُ الْقُوَّهُ
 وَالْكَمَالُ وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَالْأَجْسَامُ أَفْوَيِ الْكَمَالِ تِلْكَ الْطَّبِيعَهُ فَإِنْ طُرُوهُ
 الْمَوْتُ إِنَّمَا هُوَ بِاِنْخِلَالِ الْقُوَّى الْطَّبِيعَهُ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيهَهُ كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَزِيدَ فَكَانَ
 الْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَهُ نَسَأَتْهُ تَامَ الْأَعْمَارِ كَامِلَ الْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقُصُ لِنُقْصَانِ الْمَادَهُ
 إِلَى أَنْ يَلْغَى إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَرْزَالُ يَتَنَاقُصُ إِلَى وَقْتِ الْانْخِلَالِ
 وَانْقِرَاضِ الْعَالَمِ وَهُدَى رَأَيُّ لَا وَجَهَ لَهُ إِلَّا الْتَّعَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عَلَهُ طَبِيعَهُ
 وَلَا سُبْبُ بُزْهَانِيُّ وَنَحْنُ نَشَاهِدُ مَا كَنَّ الْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابِهِمْ وَطُرُوقَهُمْ فِيهَا أَحْدَاثُهُ مِنْ
 الْبَنِيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالْمَسَاجِدِ كَمَا كَنَّ كَدِيرَاءِ ثُمَّ أَمْنَحُوهُتِهِ فِي الْصَّلَدِ مِنَ الْمَصْرِيُّوَتِيَّا
 صِفَارَاً وَأَبْوَابِهَا ضَيْقَهُ وَقَدْ أَشَارَ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ اسْتِعمالِ
 مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عِجَنَ بِهِ وَأَهْرَقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوا مَا كَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفَسَهُمْ إِلَّا
 أَنْ تَكُونُوا بِاِكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَكَذِلِكَ أَرْضُ عَادَ وَمِصْرَ وَالشَّامِ وَسَائِرِ
 بِقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَربًا وَالْحَقُّ مَا قَرَرْنَاهُ وَمِنْ آثَارِ الدُّولِ أَيْضًا حَالُهَا فِي الْأَغْرَاسِ
 وَالْوَلَائِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيْمَهُ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْمُجَاجَجِ وَأَبْنِ ذِي الْئُونِ وَقَدْ مَرَّ

ذلك كله ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأثناها تكون على نسبتها وبظاهر ذلك
 فيها ولو أشرف على الهرم فإن المهم التي لأهل الدولة تكون على نسبة قوة ملوكهم
 وغليهم للناس وأظمهم لا تزال مصاحبة لهم إلى انفراض الدولة وأعتبر ذلك بمحاجة
 ابن ذي يزن لوفدي قريش كيف أعطائهم من أطال الذهب والفضة والأعبد
 والوصائف عشرًا عشراً ومن كريش الغبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله
 لعبد المطلب وإنما ملوكه يومئذ فرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وإنما حمله
 على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التباعية من الملك في الأرض والقلب على الأهم
 في العراقين والهند والمغرب وكان الصنائعون بأفريقية أيضًا إذا أجازوا الوفد من
 أمراء زناته الوفادين عليهم فائتما بعطائهم المال أحوالاً والكتابات تحوّلوا
 وأخmalat حنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك
 كان عطاء البرامكة وجوازهم وتفاقتهم وكأنوا إذا كسبوا معدماً فإنما هو الولاعة
 والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستفاده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك
 كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوازه الأصلي الكاتب
 قائد جيش العبيدين لما أزعجت إلى قمع مصر استعد من القير وان بالف حمل من
 المال ولا تستوي اليوم دولة إلى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن
 عبد الحميد عمل بما يحمل إلى يت المال يغداد أيام العامون من جميع التواحي
 نقلته من جراب الدولة (غلات السود) سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين
 وثمانمائة ألف درهم ومن الحال التجارى مائتا حلقة ومن طين الختم مائتان وأربعون
 رطلًا (كقر) أحد عشر ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم (كورد جلة)
 عشرون ألف ألف درهم وثمانمائة درهم (حلوان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين
 وثمانمائة ألف درهم (الاهواز) خمسة وعشرون ألف درهم مرتين ومن السكر ثلاثة
 ألف رطل (فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثة ألف
 قارورة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل (كرمان) أربعة آلاف ألف
 درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتعانى العمانى خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون
 ألف رطل (مسکران) أربعمائة ألف درهم مرتين (السند وما يليه) أحد عشر ألف

الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَخَمْسَائِةُ الْفَ دِرْهَمٌ وَمِنَ الْعُودِ الْبَنْدِيِّ مَائَةُ وَخَمْسُونَ رِطْلًا
 (سبستان) أَرْبَعَةُ الْأَلَافِ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الشِّيكَابِ الْمُعْيَنَةِ ثَلَاثَائِةُ شَوْبٍ وَمِنَ
 الْقَانِيْدِ عِشْرُونَ رِطْلًا (خراسان) سَمَانِيَّةُ وَعِشْرُونَ الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَمِنْ نَقْرَ
 الْفِضَّةِ الْفَالْفَارْقَرَةِ وَمِنَ الْبَرَادِيْنِ أَرْبَعَةُ الْأَلَافِ وَمِنَ الْرَّقِيقِ الْفَ رَاسٌ وَمِنَ الْمَتَاعِ
 عِشْرُونَ الْفَ شَوْبٍ وَمِنَ الْإِهْمَالِيَّاجِ ثَلَاثُونَ الْفَ رِطْلٌ (جرجان) أَثْنَا عَشَرَ الْفَ
 الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الْأَبْرِيْسِمِ الْفَ شَقَّةٌ (قوس) الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَخَمْسَائِةُ
 مِنْ نَقْرَ الْفِضَّةِ (طبرستان والروبان ونهاوند) سِيَّةُ الْأَلَافِ الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ وَثَلَاثَائِةُ الْفَ
 وَمِنَ الْفَرْشِ الْطَّبَرِيِّ سِيَّةُ قِطْعَةٍ وَمِنَ الْأَكْسِيَّةِ مِائَانٌ وَمِنَ الشِّيكَابِ خَمْسَائِةُ شَوْبٍ
 وَمِنَ الْمَنَادِيلِ ثَلَاثَائِةُ الْجَامَاتِ ثَلَاثَائِةُ (الري) أَثْنَا عَشَرَ الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ
 مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الْعَسَلِ عِشْرُونَ الْفَ رِطْلٌ (همدان) أَحَدَ عَشَرَ الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ
 مَرْكَتَيْنِ وَثَلَاثَائِةُ الْفَ وَمِنْ رُبْ أَرْشَانَ الْفَ رِطْلٌ وَمِنَ الْعَسَلِ أَثْنَا عَشَرَ الْفَ رِطْلٌ
 (ما بين البصرة والمكوفة) عَشْرَةُ الْأَلَافِ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَسَبْعَائِةُ الْفَ دِرْهَمٌ
 (ما بين ماسدان والدينار^(١)) أَرْبَعَةُ الْأَلَافِ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ (شهر زور) سِيَّةُ الْأَلَافِ
 الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَسَبْعَائِةُ الْفَ دِرْهَمٌ (الموصل وما إليها) أَرْبَعَةُ وَعِشْرُونَ الْفَ
 الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الْعَسَلِ الْأَبْيَضِ عِشْرُونَ الْفَ الْفَ رِطْلٌ (اذريجان) أَرْبَعَةُ
 الْأَلَافِ الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ (الجزيرة وما إليها من أعمال الفرات) أَرْبَعَةُ وَثَلَاثُونَ الْفَ
 الْفَ دِرْهَمٌ مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الْرَّقِيقِ الْفَ رَاسٌ وَمِنَ الْعَسَلِ أَثْنَا عَشَرَ الْفَ زَقٌ وَمِنَ
 الْبَزَّاءِ^(٢) عَشَرَةُ وَمِنَ الْأَكْسِيَّةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةُ عَشَرَ الْفَ الْفَ دِرْهَمٌ
 مَرْكَتَيْنِ وَمِنَ الْبَسْطِ^(٣) الْمَعْفُورِ عِشْرُونَ وَمِنَ الْزَّقَمِ خَمْسَائِةُ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا وَمِنَ
 الْمَسَابِيجِ الْسُّورِ مَا هي عَشَرَةُ الْأَلَافِ رِطْلٌ وَمِنَ الصُّونَاجِ عَشَرَةُ الْأَلَافِ رِطْلٌ وَمِنَ
 الْبِغَالِ مِائَانٌ وَمِنَ الْمَهَرَةِ ثَلَاثُونَ (قشم بن) أَرْبَعَائِةُ الْفَ دِينَارٍ وَمِنَ الْزَّيْتِ الْفَ
 حِمْلٌ (دمشق) أَرْبَعَائِةُ الْفَ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ الْفَ دِينَارٍ (الأردن) سَبْعَةُ
 وَتِسْعُونَ الْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثَائِةُ الْفَ دِينَارٍ وَعَشَرَةُ الْأَلَافِ دِينَارٍ وَمِنَ

(١) قوله والدينار والظاهر إنما الدينار وفي الترجمة التركية ماسدان ورمان اه (٢) قوله ومن

الهزارة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة الفاط

الْزَّيْتُ ثَلَاثَيْنَ الْفِ دِينَارٍ وَسِعْمَائِهِ الْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ
 الْفِ دِينَارٍ (برقة) الْفِ دِينَارٍ مِرْكَبَيْنَ (أفريقية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ الْفِ دِينَارٍ
 مِرْكَبَيْنَ وَمِنَ الْبَسْطِ مَا نَهَى وَعِشْرُونَ (اليمن) ثَلَاثَيْنَ الْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ الْفِ دِينَارٍ
 سَوْيَ الْمَتَاعِ (المجاز) ثَلَاثَيْنَ الْفِ دِينَارٍ أَنْتَهَى . وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ فَإِذَا ذَكَرَهُ
 الْثِقَاتُ مِنْ مُؤْرِخِيهَا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنَ النَّاصِرَ خَانَ فِي يُوْنُتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلَافَ الْأَلَفِ
 الْفِ دِينَارٍ مُسْكَرَّةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَكُونُ جُمِلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ سِعْمَائِهِ الْفِ دِينَارٍ .
 وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى يَتِ الْمَالِ فِي أَيَامِهِ سَبْعَةَ آلَافِ
 قَنَاطِيرَ وَسِعْمَائِهِ قَنَاطِيرٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَأَعْتَبْرُ ذَلِكَ فِي نِسْبَ الْدُّولِ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ وَلَا
 تَكَرَّرَ مَا لَيْسَ بِمَعْوِدٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضِيقَ حَوْصَلَتَكَ عِنْدَ مُلْقَطِ
 الْمُمْكِنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْخُواصِ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ الْدُّولِ السَّالِفَةِ
 يَادُرُّ بِالْأِذْكَارِ وَلَبَسَ ذَلِكَ مِنَ الْأَصْوَابِ فَإِنَّ أَخْرَالَ الْوُجُودِ وَالْعُمَرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ وَمِنَ
 أَدْرِكَ مِنْهَا رِثَةٌ سُنْلَى أَوْ وُسْطَى فَلَا يَحْصُرُ الْمَدَارِكَ كُلُّهَا فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا أَعْتَبْرُنَا مَا
 يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمِّيَّةِ وَالْعِيَادِيَّةِ وَنَاسِبُنَا الصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي
 لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي أَشَاهِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْدُّولِ الَّتِي هِيَ أَقْلَى بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا يَنْهَا بَوْنَا
 وَهُوَ لِمَا يَنْهَا مِنَ التَّفَاقُتِ فِي أَصْلِ فُوْتِهَا وَعُمْرَانِ مَالِكِهَا فَالْأَثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى
 نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا يَسْعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ
 الْأَخْرَالِ فِي غَایَةِ الشَّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا مَا يُلْعَقُ بِالْمُسْتَفِيضِ وَالْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا
 الْمُعَايِنُ وَالْمُشَاهِدُ مِنْ آثارِ الْبَنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخَذْ مِنَ الْأَخْرَالِ الْمَنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الْدُّولِ
 فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضُعُفِهَا وَضَخَّامِهَا أَوْ صِفَرِهَا وَأَعْتَبْرُ ذَلِكَ بِمَا نَقْصَهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْمَلِكَاتِ
 الْمُسْتَظْرَفَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَّانَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ
 رَجُلٌ مِنْ مَشِيقَةِ طَنْبَةِ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطْوَةَ (١) كَانَ رَجَلًا مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا
 إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعَرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دَهْلِي حَاضِرَةَ مَلِكِ
 الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهٌ وَأَتَصَلَ بِكَسِيَّهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزَ جُوهُرُ وَكَانَ لَهُ مِنْهُ
 مَكَانٌ وَأَسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ يَعْذَبُ الْمَالِكَيَّةَ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ أَنْقَلَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ

(١) كَانَ ابْنَادَهُ رَحْلَةُ ابْنِ بَطْوَةِ سَنَةٍ ٢٥٤ وَانْتَهَى أَوْهَاسَنَةٍ ٢٥٥ وَفِي عَجِيبَةِ وَمُختَصِّرَهَا ٧ كَرَارٌ بَنْ اه

وَأَنْصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عَنَانَ وَكَانَ يُعْدِثُ عَنْ شَأنَ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنْ الْجَاءِبِ
 بِعِمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُعْدِثُ عَنْ دُولَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَاوَيْتِي مِنْ أَخْوَالِهِ
 بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ السَّاعِدُونَ مِثْلُ أَنَّ مَالِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّفَرِ أَحْقَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ
 مِنْ أَلْرِجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوَلَادَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سَتَةِ أَشْهُرٍ تَدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَإِنَّهُ
 عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَةً إِلَى مَحْرَاءِ الْبَلْدِ
 وَيَطْوُفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنْجَنِيقَاتُ عَلَى الظَّاهِرِ تُرْتَبَى بِهَا شَكَارُ
 الْدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِبْوَانَهُ وَأَمْثَالَ هُدُوْهِ الْحَكَابَاتِ فَتَنَاهَى
 النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَبَامَيْدِي وَزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ الْبَعِيدِ الْصِّبَتِ
 فَقَوَاضِتُهُ فِي هَذَا الشَّأنِ وَأَرْبَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الْرَّجُلِ لِمَا أَسْتَنَاضَ فِي النَّاسِ
 مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي أَلْوَزِيرُ فَارِسُ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنَكِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَخْوَالِ الدُّولَ
 بِمَا أَنْكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَابِنَ الْوَزِيرِ النَّاشِيءِ فِي السِّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا أَعْتَقَهُ
 سُلْطَانُهُ وَهَبَكَتَ فِي السِّجْنِ مِنْيَنَ رَبِيَّ فِيهَا أَبْنُهُ فِي ذَلِكَ الْحَجَسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ
 سَأَلَ عَنِ الْأَلْحَمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَدَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْفَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْفَنَمُ فَيَصِفُهَا
 لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاطِنِهَا وَنَعْوِتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيَنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْفَنَمُ
 مِنَ الْفَارِ وَكَذَا فِي الْحَمْ الْأَيْلِ وَالْبَقْرِ إِذَا لَمْ يَعَايِنْ فِي تَحْسِيِهِ مِنَ الْحَيَوانَاتِ إِلَّا الْفَارِ
 فَيَخْسِبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءِ جِنْسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِهِمْ
 الْوَسَاسُ فِي الْزِيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْأَغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلَيَرَجِعُ
 الْإِنْسَانُ إِلَى أُصُولِهِ وَلَيَكُنْ مُهِمِّنَا عَلَى تَقْسِيمِهِ وَمُمِيزَنَا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُنْكَرِ وَأَنْتَمْتَعُ
 بِصَرِيرِهِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فَطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْأَنْجَانِ قَبْلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ فَنَفَضَهُ
 وَلَيَسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانُ الْعُقْلِيُّ الْمُطْلَقُ ثَانٌ نِطَاقُهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفْرِضُ حَدَّا بَيْنَ
 الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانُ بِحَسْبِ الْمَادَةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرَنَا أَصْلَ الشَّيْءِ
 وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَقِدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَخْوَالِهِ
 وَحَكَمْنَا بِالْأَمْتَنَاعِ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الْرَّاجِحِينَ
 وَاللَّهُ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين
 أعلم أنَّ صاحبَ الدُّولَةِ إِنَّمَا يَتَمَّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ فَهُمْ عَصَابَتُهُ وَظَاهَرَاؤُهُ
 عَلَى شَانِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ الْخُوارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقْلِدُ أَعْمَالَ مُمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ
 وَجِيَابَةَ أَمْوَالِهِ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى الْفَلْبَ وَشُرَكَاؤُهُ فِي الْأَمْرِ وَمُسَاهِمُهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ
 هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ الْثَّانِي وَظَاهَرَ الْأَسْتِدَادُ
 عَنْهُمْ وَالْأَنْفَرَادُ بِالْمَجِدِ وَدَافِعُهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَاجِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ
 أَغْدَائِهِ وَأَحْتَاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدَّهُمْ عَنِ الْمُشَارَكَةِ إِلَى اُولَئِكَ الْآخَرِينَ مِنْ
 غَيْرِ جَلَدِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِهِمْ
 وَأَخْصُّ بِهِ فُرْبَا وَأَصْطَنَاعَا وَأَذْلِي إِبْلَارَا وَجَاهَا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَهِمُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ
 قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّبَّةُ الَّتِي أَغْوَمَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ
 الدُّولَةِ وَيَخْصُهُمْ بِمِزْيِدِ الْكَرِمَةِ وَالْإِبْلَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِكَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ وَيَقْلِدُهُمْ
 جَلِيلُ الْأَعْمَالِ وَالْأَوْلَائِياتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجِيَابَةِ وَمَا يَخْتَصُ بِهِ لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ
 خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ الْقَابِ الْمُمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ اُولَاءُ الْأَقْرَبُونَ وَنَصَّاوَهُ
 الْخُغَاصُونَ وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِاَهْتَضَامِ الدُّولَةِ وَعَلَامَةُ عَلَى الْمَرَضِ الْمُزِمِّنِ فِيهَا الْفَسَادُ
 الْهَصِيدَةُ الَّتِي كَانَ بِنَاهُ الْفَلْبُ عَلَيْهَا وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدُّولَةِ حِينَئِذٍ مِنْ الْأَمْتِهَانِ وَعَدَاؤُهُ
 الْسُّلْطَانِ فَيَضْطَغُونَ عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرِ وَيَعُودُ وَبِالْ ذَلِكَ عَلَى الدُّولَةِ وَلَا يُطْمَعُ
 فِي بُرْئَاهَا مِنْ هَذَا الدَّاءِ لَأَنَّهُ مَا مَضَى بِقَاتَ كَذُ في الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يُذْهِبَ رَسْمَهَا وَأَعْتَرَ
 ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمِّيَّةِ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلَائِهِ أَعْمَالِهِمْ
 بِرِجَالِ الْعَرَبِ مِثْلِ عُمَرَ وَبْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذِيَادٍ بْنِ أَبِي سَفِيَانَ
 وَالْحَجَاجَ بْنِ يُوسَفَ وَالْمُهَبَّ بْنِ أَبِي صَفَرَةَ وَخَالِدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيَّ وَأَبْنَ هَبِيرَةَ
 وَمُومِيَّ بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالَ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَنَصْرَ بْنِ سَيَارَ وَأَمْثالِهِمْ
 مِنْ رِجَالِاتِ الْعَرَبِ وَكَذَا صَدَرَ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ كَانَ الْأَسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا
 بِرِجَالِاتِ الْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ الدُّولَةُ الْأَنْفَرَادُ بِالْمَجِدِ وَكَبُحَ الْعَرَبُ عَنِ التَّظَاوُلِ
 لِلْأَوْلَائِياتِ صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعِجَمِ وَالْأَصْنَاعِ مِنَ الْبَرَامِيَّةِ وَبَنِي سَهْلٍ بْنِ نُوْبَختَ وَبَنِي

ظاهرٌ ثم بني بُونَه وموالي الترذك مثل بغا ووصيف والتمش وبانكاك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فـ^كوْنُ الدَّوْلَةُ لغيرِ مَنْ مَهَدَهَا وَالْعَزُّ لغيرِ مَنْ أَجْتَبَهُ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الانتحام بصاحب الدولة بتفاوت قدتهم وحديثهم في الانتحام بصاحبيها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمعاقبة إنما يتم بالنسبة لأجل التناصر في ذوي الأزحاف والقربي والبعدي في الأجانب والبعداء كما قدمناه ولوالية والمخالطة بالرقة أو بالحلف تنزل منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعيا فإنما هو وهبي والمعنى الذي كل به الانتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربي والضراء وسائر أحوال الموت والحياة فإذا حصل الانتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس وأعتبر مثله في الأصطناع فإنه يحدث بين المصطنع ومن أصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه منزلة وتوكل اللحمة وإن لم يكن نسب فشمر أن النسب موجودة فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أوضح وعلاقتها أجمع وتبسها أمر سرح لو وجهين أحدهما أنهم قبل الملك أسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فينزلون منهم منزلة ذوي القرابة وأهل الأزحاف وإنما أصطنعوه بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن الموالى ولأهل القرابة عن أهل الولاية والأصطناع لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتشير إلى حالهم ويتنزلون منزلة الأجانب ويكون الانتحام بينهم أضعف والتناصر بذلك أبعد وذلك أن نفس من الأصطناع قبل الملك، أوجهة الثاني أن الأصطناع قبل الملك يبعد عنهه عن أهل الدولة بطول الزمان ويختفي شأن تلك اللحمة ويظن بها في الأكثريات النسب فيقوى حال العصبية وإنما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته إلا كثرة تقبيل اللحمة وتشير عن النسب فتضيق العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل

الدُّولَةِ وَأَعْتَبَ ذَلِكَ فِي الدُّولَ وَالرِّئَاسَاتِ تَجَدُّدًا فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَصْطَنَاعَهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُضْطَنْعِهِ تَجَدُّدًا أَشَدَّ التَّحَمَّامَا بِهِ وَاقْرَبَ قِرَابَةَ إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مُنْزَلَةً أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِيهِ وَمَنْ كَانَ أَصْطَنَاعَهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُضْطَنْعِهِ لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقِرَابَةِ وَالْلَّهُمَّ مَا لِلْمُؤْلِفِينَ وَهَذَا مُشَاهَدٌ يَا لِلْعَيَانِ حَتَّى إِنَّ الدُّولَةَ فِي آخِرِ عُمُرِهَا تَرْجِعُ إِلَى أَسْتِعمالِ الْأَجَانِبِ وَأَصْطَنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنِي لَهُمْ بَعْدَ كَمَا بَنَاهُ الْمُضْطَنْعُونَ قَبْلَ الدُّولَةِ لِقُرْبِ الْعِهْدِ حِينَئِذٍ يَا وَلِيَتِهِمْ وَمُشَارَفَةَ الدُّولَةِ عَلَى الْأَنْقَرَاضِ فَيَكُونُونَ مُنْخَطِّينَ فِي مَهَاوِي الْفَسَعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ الدُّولَةِ عَلَى أَصْطَنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَاءِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَاعَهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مِنَ الْعَزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدُّولَةِ وَقَلَّةِ الْخُصُوصِ لَهُ وَنَظَرِهِمْ يَنْتَظِرُهُ بِهِ قَبِيلَهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لَتَأَكِيدُ الْلَّهُمَّ مِنْذُ الْعَصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ يَا لِلْمَرْتَبِي وَالْأَنْتِصَالِ يَا بَائِهِ وَسَلَفِ فَوْمِهِ وَالْأَنْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَعْصُلُهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةَ عَلَيْهِ وَأَعْتَازُ فِي نَافِرِهِمْ يُسَبِّبُهَا صَاحِبُ الدُّولَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى أَسْتِعمالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدًا أَسْتِغْلَالِهِمْ وَأَصْطَنَاعِهِمْ فَرِيدًا فَلَا يَلْفُغُونَ رُتبَ الْمُجَدِّدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَانُ الدُّولَ فِي أَوْلَى هَذِهِ وَأَكْثَرِ مَا يُطْلَقُ أَمْمُ الصَّنَاعَةِ وَالْأَوْلَيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هُؤُلَاءِ الْمُعْدُثُونَ فَهُمْ بَعْدَمُ وَأَغْرَانُ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا أَسْتَقَرَ الْمُلْكُ فِي نِصَابِ مُعِينٍ وَمَنِيتَ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدُّولَةِ وَأَنْقَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَأْوَلَهُ بَنُوُهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَحْسَبُ التَّرْشِيعَ فَرِبَّمَا حَدَثَ التَّعْلُبُ عَلَى الْمَعْصِبِ مِنْ وُزْرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبِيلِهِ فِي الْأَكْثَرِ وَلِيَةِ صَيْيَ صَغِيرٍ أَوْ مُضَعَّفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنِيتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَيْهِهِ أَوْ بِتَرْشِيعِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْتَسُ مِنْهُ الْعَزَّزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُولُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَزَرَاءِ أَيْهِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُؤْرِي بِحْفِظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْتَسَ مِنْهُ الْأَسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرْبَعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجِبَ الصَّبَّيَ عنِ النَّاسِ وَيُعَوِّدَ إِلَيْهَا تَرَفُّ أَخْوَالِهِ وَيَسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهِ مَتَّى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظرَ فِي الْأُمُورِ الْسُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبَدَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَا عَوَدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنْ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّنْفَةِ وَخُطَابُ التَّهْوِيلِ
وَالْقَوْدُ مَعَ النِّسَاءِ خَلَفَ الْحِجَابَ وَأَنَّ الْحَلْ وَالرَّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّفْيَ وَمُبَاشَرَةُ الْأَخْوَالِ
الْمُلُوكَةَ وَتَفَقَّدَهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثَّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي
ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبَغَةُ الرِّئَاسَةِ وَالْأَسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْثِرُ
بِهِ عَشِيرَتَهُ وَآبَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبْنِي بُوْيَهِ وَالْتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ
بِالْمَشْرِقِ وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَلِكَ الْمُحْجُورُ الْمُغْلَبُ لِشَانِهِ
فَيَحَاوِلُ عَلَى الْخُروْجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَبْرِ وَالْأَسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ
عَلَى أَيْدِي الْمُتَعَلَّمِينَ عَلَيْهِ إِنَّمَا يُقْتَلُ أَوْ يُرْفَعُ عَنِ الرِّئَاسَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْنَّادِرِ
الْأَقْلَلِ لِأَنَّ الدُّولَةَ إِذَا أَخْدَتْ فِي تَفْلِقِ الْوَزَرَاءِ وَالْأُولَاءِ أَسْتَمَرَ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ
يَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَخْوَالِ الْتَّرَفِ وَنَشَأَ آبَاءُ الْمُلْكِ
مُنْفَسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسَوا عَهْدَ الرَّجُولَةِ وَأَلْفُوا أَخْلَاقَ الدَّاِيَاتِ وَالْأَظَارِ وَرَبَوا عَلَيْهَا
فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةِ وَلَا يَعْرُفُونَ أَسْتِبْدَادًا مِنْ تَفْلِقِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقَنْوَعِ يَا لِلْأَبْهَةِ
وَالْأَنْفُسِ فِي الْأَلْذَاتِ وَأَنْواعِ الْتَّرَفِ وَهَذَا التَّفْلِقُ يَكُونُ لِلْمَوَالِيِّ وَالْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ
أَسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمُلْكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرِهِمْ بِهِ دُونُهُمْ وَهُوَ عَارِضُ الدُّولَةِ خَرُورِيُّ
كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا مَرْضَانِ لَا يُرُونَ لِلْدُولَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلَلِ الْنَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَا يَشَاءُ
مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

في أن المغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوْلِيهِ مُذْ أَوْلَ الدُّولَةِ بِعَصَبَيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبَيَّةِ
الَّتِي أَسْتَبَعْتُهُمْ حَتَّى أَسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبَغَةُ الْمُلْكِ وَالْتَّفْلِقِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بِاُبَقِيَّةِ
وَبِهَا اُنْحَفَظَ رَسْمُ الدُّولَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَذَا الْمُتَفْلِقُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبَيَّةِ مِنْ قَبِيلِ
الْمُلِكِ أَوِ الْمَوَالِيِّ وَالصَّنَاعَمِ فَعَصَبَيَّةُ مُنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبَيَّةِ أَهْلِ الْمُلِكِ وَتَابِعَةُ لَهَا وَلَيْسَ
لَهُ صِبَغَةُ فِي الْمُلْكِ وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي أَسْتِبْدَادِهِ أَنْزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّفْيِ
وَالْحَلْ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّفْضِ بِوَهْمِ فِيهَا أَهْلُ الدُّولَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنِ سُلْطَانِهِ
مُنْقَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَخْسَكَاهُ فَهُوَ يَتَعَاجَفُ عَنْ سِهَاتِ الْمَلَكِ وَشَارَاتِهِ

وَالْقَابِهِ جُنْدَهُ وَيُبَعِّدُ نَفْسَهُ عَنِ التَّهْمَهِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْأَسْبِدَادُ لَا هُمْ مُسْتَشِرُونَ فِي أَسْبِدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي خَرَبَهُ السَّلَطَانُ وَأَوْلُوهُ عَلَى أَفْسُوسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْذُ اَوْلَ الدَّوْلَةِ وَمُغَالِطَهُ عَنْهُ بِالنِّيَابَهِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَنَفْسَهُ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبَهِ وَقَبِيلِ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْأَسْتِشَارَ بِهِ دُونَهُ لَا هُنْ لَمْ تَسْتَخِنُوكُمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبَغَهُ تَحْمِلُهُمْ عَلَى النَّسَامِ لَهُ وَالْأَنْقِيَادِ فِيهِلَكُ لَاوَلَ وَهَلَهُ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِيرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِبْنَ سَهَّا إِلَى مُشَارَكَهُ هِشَامٌ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَهِ وَلَمْ يَقْنِعْ بِمَا قَنَعَ بِهِ أَبُوهُ وَآخُوهُ مِنْ الْأَسْبِدَادِ بِالْحُلُولِ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَاسِيمِ الْمُتَابِعَهُ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيقَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَهِ فَنَفَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بُنُورَ وَانَّ وَسَائِرُ فُرْنِيشِ وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِ الْخِلِيفَهِ هِشَامِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْجَبَارِ بْنِ النَّاصِيرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ خَرَابُ دَوْلَهِ الْعَامِرِ بَيْنَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدُ خَلِيقَتِهِمْ وَأَسْتَبْدَلَ مِنْهُ سُوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ الدَّوْلَهِ إِلَى آخِرِهَا وَأَخْتَلَتْ مَرَاسِيمُ مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثَينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبَيعِي لِلْإِنْسَانِ لَا نَقْدِ يَسِّنَا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِأَجْتِيَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَظَرُورَيَّاتِهِمْ وَإِذَا أَجْتَسَعُوا دَعَتْ الْفَرْوَرَهُ إِلَى الْمُعَامَلهِ وَأَقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ بِاِخْدَهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي الْطَّبَيعَهِ الْحَيَوَانِيَّهِ مِنَ الظُّلُمِ وَالْعُدُوانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِيَمَانِهِ الْآخَرِ عَنْهَا يَمْقُتنَى الْغَضَبُ وَالْأَنْفَهُ وَمُقْتَضَى الْقُوَّهُ الْبَشَريَّهُ فِي ذَلِكَ فَبَقَعَ التَّنَازُعُ الْمُفْضِي إِلَى الْمُقاَلَهِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْهُرْجِ وَسَفَكِ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى أَنْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّ الْبَارِي بِسُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَهِ فَأَسْتَهْلَكَ بَقَاؤُهُ فَرَوَاهُ دُونَ حَاكِمٍ يَزْعُعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَأَحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَازِعِ وَهُوَ الْحاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَمْقُتنَى الْطَّبَيعَهُ الْبَشَريَّهُ الْمُلْكُ الْقَاهِرُ الْمُتَكَبِّرُ وَلَا بُدُّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَصَبَهِ لِمَا قَدَّ مِنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالَبَاتِ كُلُّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَمْ إِلَّا بِالْعَصَبَهِ وَهَذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَخْوَهُ الْمُطَالَبَاتِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ وَلَا تَمْ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عابو الشيء كفرج لم يره أهلاً له ك في القاموس

من ذلك إلا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة وكل عصبية فلها تحكمه وتغلب على من يليها من قوتها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعيد الرعية ويتحيى الأموال ويبعث البووث ويتحمي الشفاعة ولا تكون فوق بيده بد قاهرة وهذا منه الملك وحقيقة في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حمایة الشفاعة أو جباية الأموال أو بعث البووث فهو ملك ناقص لم يتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصبيته أيضاً عن الأستاذ على جميع العصبيات والضرر على سائر الأيدي وكان فرقه حسنه غيره فهو أيضاً ملك ناقص لم يتم حقيقته وهو لأد مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتنعة النطاق أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيدتين وزنانة مع الأمويين نارة والعبيدتين قارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بنى العباس ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء اعتبره تحدده والله القاهر فوق عباده

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاf الحمد ضر بالملاك وفسد له في الاكثر

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وحسنها من حسن شركاته أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان أنه الملك للرعاية القائم في أمرهم عليهم فاسلطان من له رعية والرعاية من لها سلطان والصفة التي له من حيث إضافته إليهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملك لهم فإذا كانت هذه الملكة وتابعتها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على آخر الوجوه فإنهما إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وإن كانت مبتلة متغيرة كل ذلك ضرراً عليهم ولا كالهم ويعود حسن الملكة إلى الرفق فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقلاً عن عورات الناس وتعديل ذنبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمحكر

والخداع فتخلقوها بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وزرموا خذلوا في مواطن المزوب
 والمدافعت فسدت الحماية بفساد النبات وزرموا أنجعوا على قتلوا ذلك ففسد الدولة
 وينغرب السياج وإن دام أمره عاليه وقهره فسدت العصبية لآفاناه أو لا وفسد السياج
 من أصله بالعجز عن الحماية فإذا كان رفيقاً لهم متجاوزاً عن ميثاقهم أمنناوا إليه
 ولاذوا به واشربوا عبته واستهتوا دونه في محاربة أعدائهم فاستقام الأمر من كل
 جانب وأما توابع حسن المحاكمة فهي النعمه عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها
 تثبت حقيقة الملك وأما النعمه عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر
 لهم في ما ياشهم وهي أصل كبير من التجرب إلى الرعية وأعلم أنه فلما تكون ملائكة
 الرفق في من يكون يقطن شديداً الذي كان من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في
 الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في البقظ لانه يكفل الرعية فوق طاقتهم لنفوذ
 نظره فيما وراء مدار كرم واطلاعه على عوائب الأمور في مبارتها بالمعية فيه تكون
 لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير أضعافكم ومن هذا الباب أشترط الشارع
 في المحاكم قلة الإفراط في الذي كان وأخذه من قصة زياد ابن أبي سفيان لما عزله
 عمر عن العراق وقال له لم عزلتني يا أمير المؤمنين العجز أم الخيانة فقال عمر لم
 أغزلك لواحدة منه ولو كنتي كرهت أن أحمل فضل عقلتك عن الناس فأخذت من
 هذه أن المحاكم لا يكون مفترطاً الذي كان والكسس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو
 بن العاص لما يتبع ذلك من التحشى وسوء المحاكمة وحمل الوجود على ما ليس في
 طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرئ من هذا أن الكسس
 والذي عيب في صاحب السياسة لأنه إفراط في الفكير كما أن البلاد إفراط في
 الجمود والطرفة من مذمومات من كل صفة إنسانية وأنه هو التوسط كما في الكرم
 مع التبذير والبعيل وكما في الشجاعة مع الموج والجبن وغير ذلك من الصفات
 الإنسانية ولهذا يوصى الشديد بالكسس بصفات الشيطان فيقال شيطان وتمشيطان
 وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو عالم القدير

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الفروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر والذان هم من آثار الغضب والحيوانية كانت حكماء صاحبها في الغالب جائزة عن الحق مجحفة بمن تحت يديه من الخلائق في أحوال دنياهم تحمله أيامهم في الغالب على ما ليس في طوقيهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتفسر طاعته لذلك وتجبي العصبية المفضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلم بها الكافية بمقادون إلى حكمها كما كان ذلك لغيرهم وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائهم كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله يشارع بغيرها ويشرعاها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عباد وباطل إذ غايتها الموت والنهاية والله يقول أحسبتم إنما خلقناكم عباد فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فجاءت الشريائع بحملهم على ذلك في تجمع أحوالهم بين عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الذين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع فما كان منه يقتضي القهر والتغلب وإهانة القوة العصبية في مرجعاها فجور وعدوان ومدموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه يقتضي السياسة وأحكامها قدموم أيضاً لأن نظره لا يغير نور الله ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور لأن الشارع أعلم بصالح الكافية فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ثرثرة عليكم وأحكام السياسة إنما تطبع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخريهم فوجب يقتضي الشرائع حمل الكافية

عَلَى الْأَخْكَامِ الشَّرِيعَةِ فِي أَخْوَالِ دُنْيَاْمُ وَآخِرَتِهِمْ وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَمْلِ الشَّرِيعَةِ وَمُمْمَلُ الْأَنْسِيَاءِ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامَهُمْ وَمُمْمَلُ الْخُلُفَاءِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ وَأَنَّ الْمَلْكَ الْطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَرَضِ وَالشَّهْوَةِ وَالسِّيَاسَيِّيَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الْعُقْلِيِّ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَدَفْعِ الْمَفَارِدِ وَالْخِلَافَةِ هِيَ حَمْلُ الْكَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الشَّرِيعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمُ الْأُخْرَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الْأُجْمَعَةِ إِلَيْهَا إِذَا أَخْوَالُ الدِّينِ تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّارِعِ إِلَى أَعْتِيَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خَلَاقَةٌ عَنْ صَاحِبِ الْشَّرِيعَ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدِّينِ يَهُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ وَأَعْثِرَهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِ وَاللهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ يَبَأُ حَقِيقَةً هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ يَبَأُ عَنْ صَاحِبِ الْشَّرِيعَةِ فِي حِنْظِ الَّذِينَ وَسِيَاسَةَ الدِّينِ يَهُ تَسْمَى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَالْقَائِمَ يَهُ خَلِيفَةً وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَقَسْتَبِيهَا بِإِمَامِ الْأَصْلَافِ فِي اِتْبَاعِهِ وَالْأَقْتَدَاءِ يَهُ وَلِهَا يُقَالُ الْإِمَامَةُ الْكُبُرَى وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يَخْلُفُ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ وَأَخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةُ اللهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمُ اَفْتَابَاً مِنْ الْخِلَافَةِ الْعَامَةِ الَّتِي لِلْأَدَمِيَّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَمَنْعَ الْجُمُورُ مِنْهُ لَأَنَّ مَعْنَى الْأَيَّةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَسْتُ خَلِيفَةً اللهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَأَنَّ الْأَسْخَلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حِقْقَةِ الْغَائِبِ وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا تَمَّ إِنْ نَصَبَ الْإِمَامَ وَاجِبٌ قَدْ بُرُوتَ وُجُوبُهُ فِي الْشَّرِيعَ بِإِجْمَاعٍ أَصْحَابَةٍ وَالْتَّابِعِينَ لَأَنَّ اِمْتِحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى تَبَعَّهُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ النَّظرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَّا فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَمْ تُرْكِ النَّاسُ فَوْقَهُ فِي عَصْرٍ مِنْ الْأَعْصَارِ وَأَسْتَقْرَرَ ذَلِكَ بِجَمِيعِهِ دَائِرًا عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ الْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرِكَ وُجُوبِهِ الْعَقْلُ وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجَبَ بِالْعَقْلِ لِضَرُورَةِ الْإِجْمَاعِ لِلْبَشَرِ وَأَسْتِحْالَةِ حَيَاَتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُنْفِرِ دِينَ وَمِنْ ضَرُورَةِ

الأَجْتِمَاعُ التَّنَازُعُ لِأَزْدِحَامِ الْأَغْرِيَاضِ فَمَا لَمْ يَكُنْ الْحَاكِمُ الْوَازِعُ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى
 الْمُرْجِ الْمُؤْذِنِ بِهِلَالِ الْبَشَرِ وَأَنْقِطَاعُهُمْ مَعَ أَنْ حِفْظَ النَّوْعِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ
 الْفَرْوَرِيَّةِ وَهَذَا الْمَعْنَى يُعْنِيهُ هُوَ الَّذِي لَحْظَهُ الْحَكَمُ فِي وُجُوبِ النَّبُوَاتِ فِي الْبَشَرِ
 وَقَدْ نَبَهْنَا عَلَى فَسَادِهِ وَأَنَّ إِحْدَى مُقَدَّمَاتِهِ أَنَّ الْوَازِعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِشَرْعٍ مِنْ اللَّهِ تَسْلِمُ
 لَهُ الْكَافَةُ تَسْلِمُ إِيمَانُ وَأَعْتِقَادُ وَهُوَ غَيْرُ مُسْلِمٍ لَأَنَّ الْوَازِعَ قَدْ يَكُونُ بِسَطْوَةِ الْمَلِكِ
 وَقَهْرِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ وَلَوْلَمْ يَكُونْ شَرْعًا كَمَا فِي أُمَّ الْمُجُوسِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ لَيْسَ لَهُ
 كِتَابٌ أَوْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ أَوْ تَقُولُ بِكَفِيٍّ فِي رَفْعِ التَّنَازُعِ مَعْرِفَةً كُلَّ وَاحِدٍ بِتَحْرِيرِ
 الظَّلْمِ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْعُقْلِ فَإِذَا عَلِمُوا أَنَّ ارْتِفَاعَ التَّنَازُعِ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُجُودِ الشَّرْعِ
 هُنَّاكَ وَنَصْبُ الْإِمَامِ هُنَّا غَيْرُ صَحِيحٍ بَلْ كَمَا يَكُونُ بِنَصْبِ الْإِمَامِ يَكُونُ بِوُجُودِ
 الْرُّؤْسَاءِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ أَوْ بِاِمْتِنَاعِ النَّاسِ عَنِ التَّنَازُعِ وَالْتَّظَالُمِ فَلَا يَنْهَى دَلِيلُهُمْ
 الْعُقْلِ الْمُبْنَىٰ عَلَى هَذِهِ الْمُقْدِمَةِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَدْرِكَ وُجُوبِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالشَّرْعِ وَهُوَ
 الْإِجْمَاعُ الَّذِي قَدَّمْنَا وَقَدْ شَدَّ بَعْضُ النَّاسِ فَقَالَ يَعْدَمُ وُجُوبُ هَذَا النَّصْبِ رَأْسًا لَا
 بِالْعُقْلِ وَلَا بِالشَّرْعِ مِنْهُمْ الْأَصْمُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَعْضُ الْخُوارِجِ وَغَيْرِهِمْ وَالْوَاجِبُ
 عِنْدَهُو لَا إِنَّمَا هُوَ إِمْضَاءُ الْحَكَمِ لِلشَّرْعِ فَإِذَا تَوَاطَّأَتِ الْأُمَّةُ عَلَى الْعَدْلِ وَتَنْفَيِذِ
 أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَنْتَجِ إِلَى إِمَامٍ وَلَا يَجِدُ نَصْبُهُ وَهُوَ لَا يَحْجُرُونَ بِالْإِجْمَاعِ
 وَالَّذِي حَمَاهُمْ عَلَى هَذَا الْمَذَهَبِ إِنَّمَا هُوَ الْفَرِارُ عَنِ الْمُلْكِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْأَسْتِطَالَةِ
 وَالنَّفَلُ وَالْأَسْتِمَاعُ بِالدُّنْيَا لَمَّا رَأَوْا الْشَّرِيعَةَ مُمْتَلَّةً بِذَمِّ ذَلِكَ وَالْنَّعْيِ عَلَى أَهْلِهِ
 وَمُرْغَبَةً فِي رَفْضِهِ وَأَعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَذْمِمْ الْمُلْكَ لِذَاهِبٍ وَلَا حَظَرَ الْقِيَامِ بِهِ وَإِنَّمَا ذَمَّ
 الْمَفَاسِدَ النَّائِشَةَ عَنْهُ مِنَ الْقُهْرِ وَالظَّلْمِ وَالْتَّمَتُعِ بِاللَّذَّاتِ وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي هَذِهِ مَفَاسِدَ
 مَحْظُورَةً وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ كَمَا أَثْنَى عَلَى الْعَدْلِ وَالنَّصْفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَاسِمِ الدِّينِ وَالذَّبَّ
 عَنْهُ وَأَوْجَبَ بِإِذَا زَانَهَا الْثَّوَابِ وَهِيَ دَلِيلًا مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ الْذَّمِّ لِلْمُلْكِ
 عَلَى صِفَةِ وَحَالِ دُونِ حَالِ أُخْرَى وَلَمْ يَذْمِمْ لِذَاهِبٍ وَلَا طَلَبَ تَرْكَهُ كَمَا ذَمَّ الشَّهْوَةَ
 وَالْفَضْبَتَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ لِدِعَائِيَّةِ الْفَرْوَرَةِ إِلَيْهَا وَأَمَّا
 الْمُرَادُ تَصْرِيفُهُمَا عَلَى مَقْتَضَى الْحَقِّ وَقَدْ كَانَ لِدَاؤُدَ وَسُلَيْمانَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
 عَلَيْهِمَا الْمُلْكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمَا وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ

ثم تقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يُنفيكم شيئاً لأنكم
 موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكه
 والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام وهو عين ما قررتم
 عنه فإذا تقررت أن هذا النصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجح
 إلى اختيار أهل العقد والحل فتعين عليهم نصب ويجب علىخلق جميعاً طاعة القوله
 تعالى أطیعوا الله وأطیعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأما شروط هذا المنصب فهي
 أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يوثق في الرأي
 والعمل وأختلفت في شرط خامس وهو النسب القرشي فاما اشتراط العلم ظاهر لانه
 إنما يكون مذفداً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها وما لم يعلمه لا يصح تقادمه
 لها ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص وألامامة تستدعي
 الكمال في الأوصاف والأحوال وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر
 المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه
 بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفاءها بالبدع الاعتقادية
 خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود وأفخام الحروب بصيراً
 بها كفياً يحمل الناس عليها عارفاً بالعصبية وأحوال الدعاء قوياً على معاناة السياسة
 ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاز العدو وإقامة الأحكام وتدبر
 المصالح وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم
 وأخرس وما يوثق فقده من الأعضاء في العمل كفقد الدين وألزم جلتين والاثنتين
 فتشرط الإسلام منها كلها لتأشير ذلك في تمام عمله وفيما جعل إليه وإن كان
 إنما يشين في المنظر فقط كفقد إحدى هذه الأعضاء فشرط الإسلام منه شرط
 كمال وبمعنى فقدان الأعضاء المتن من التصرف وهو ضرر ضرر يتحقق بهذه في
 اشتراط الإسلام منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه
 وضرر لا يتحقق بهذه وهو الحجز باستثناء بعض أغواته عليه من غير عصيان ولا مشافة
 فينتقل النظر في حال هذا المسؤول فإن جرى على حكم الدين والعدل وحيده
 السياسة جاز قراره ولا استنصر المسلمين من يقضى بيده عن ذلك ويدفع عليه

حتى ينعدم فعل الخليفة وأما النسب القرشي فلأجمعان الصحابة يوم السقيفة على ذلك
 وأخربت قريش على الانصار لما همّوا يومئذ ببيعة سعد بن عيادة وقاموا منا أمير
 ومنكم أمير يقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه
 وسلم أو صاناً بأن نحسن إلى محسنكم وتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الإمارة فيكم
 لم تكن الوصية بحكم فجروا الانصار ورجعوا عن قولهم هنا أمير ومنكم أمير
 وعدلوا عما كانوا همّوا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا
 الأمر في هذا المعنى من قريش وأمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه لما ضفت أمر
 قريش وتلاشت عصيتم بما نالتم من الترف والنعيم وبما انتقتم الدولة فيسائر
 أقطار الأرض عجزوا بذلك عن تحمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحال
 والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى تبني اشتراط القرشية
 وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم آمنوا وأطيعوا وإن ولي
 عليكم عبد جبشي ذو زيبة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فإنه خرج مخرج التمثيل
 والغرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مؤل حذيفة
 حياً لوليته أو لما دخلتني فيه أظنه وهو أيضاً لا يزيد ذلك لما علمت أن مدحه
 الصحابي ليس بمحنة وأيضاً فمعنى القوم منهم وعصيهم الولاء حاصلة لسالم في قريش
 وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها
 مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيدة
 للعصبية كما نذكر ولم يبن إلا صراحة النسب فرأه غير محتاج إليه إذ الفائدة
 في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حزقاً من عمر رضي الله
 عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تتحقق فيه لائمه ولا عليه فيه عهدة
 ومن القائلين ببني اشتراط القرشية القاهري أبو بكر الباقلاني له أدركة عليه عصبية
 قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم من الخلفاء فسقط شرط
 القرشية وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي
 الجمود على القول بأشتراطها وصحبة الإمامية للقرشية ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور
 المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الشكفاية التي يقوى بها على أمره لأنه إذا ذهبت

الشوكه بذهب العصبية فقد ذهبت السكينه وإذا وقع الإخلال بشرط الكفائية
 تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين وسقط اعتبار شرط هذا المنصب وهو خلاف
 الاجتماع ولذلك كلما أتى في حكمه اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه
 المذاهب فنقول إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل
 عليها وتشريع لأجلها وتحمّل إذا بحثنا عن المحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقدم
 الشارع منه لم يقتصر فيه على التبروك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في
 المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبروك بها حاصل لكن التبروك ليس من
 المقاصد الشرعية كما علمنا فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي
 المقصودة من مشروعيتها وإذا سببنا وقسمنا لم نجد لها إلا اعتبار العصبية التي تكون
 فيها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والنفرة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن
 إليه الهمة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن رئيسا كانوا عصبة مضر وأذلهم
 وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف
 فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك وبشكلينون لغتهم فلو جعل الأمر في سواهم
 لتُوقع افتراق الكلمة به خالفتهم وعدم انتقادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر
 أن يردهم عن الخلاف ولا يحتملهم على الكراهة فتشتت الجماعة وتختلف الكلمة
 والشارع محدث من ذلك حر بصن على انتقادهم ورفع النازع والشئون بينهم لتحقق
 الملة والعصبية وتحسن الجماعة بخلاف ما إذا كان الأمر في رئيس لأنهم قادرُون
 على شوق الناس بعصا الذائب إلى ما يريدونهم فلا يخشى من أحدٍ من خلاف عليهم
 ولا فرق لائهم كفiliون حينئذ يدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي
 في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق
 الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلها مضر أجمع فإذا عن لهم
 سائر العرب وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام العلة ووطئت جنودهم قاصية الياد
 كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضطهد أمر الخلافة
 وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان يقرّيش من الكثرة والتفاعل على بطون مضر
 من مارس أخبار العرب وسيرهم ونقطن بذلك في آخر الهم وقد ذكر ذلك ابن إسحاق

في كتاب السير وغيرها فاًذ ثبتَ أنَّ اشتراطَ القرشيةِ إنَّما هوَ لدفعِ النَّازعِ بما كانَ لهُدُمِ منَ العصَايَةِ وَالْغَلْبِ وَعلَمَنَا أنَّ الشَّارِعَ لا يخُصُّ الْأَحْكَامَ بِجَهْلِهِ وَلَا أَمْمَةً عَلَمَنَا أنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكَفَافِيَةِ فَرَدَدْنَا إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلْمَةَ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقَرْشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصَايَةِ فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولَئِي عَصَايَةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ تَلَى مَنْ مَعَهُمْ لِعَصِيرِهَا لِيَسْتَبِعُوا مَنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يُعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقَرْشِيَّةِ إِذَ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ كَانَتْ عَامَةً وَعَصَايَةً الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَّةً بِهَا فَغَلَبُوا سَائِرَ الْأُمُمِ وَإِنَّمَا يُخْصُّ هَذِهِ الْعِهْدَ كُلُّ قُطْرٍ يَمْنَعُ تَكُونَ لَهُ فِيهِ الْعَصَايَةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ تَعْدُ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخِلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ عِبَادِهِ لِيَخْمَلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَبِرُدُّهُمْ عَنْ مَضَارِهِمْ وَهُوَ مُخَاطِبٌ بِذَلِكَ وَلَا يَخْاطِبُ بِالْأَزْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ الْأَتَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمامُ أَبْنُ الخطيب^(١) فِي شَانِ النِّسَاءِ وَانْهَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْشَّرِعِيَّةِ جُعِلَنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْخُطَابِ بِالْأَوْضُعِ وَإِنَّمَا دَخَلَنَ عَنْهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَامِينَ عَلَيْهِنَّ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَاعِدٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخَطَا بِهِنَّ فِيهَا بِالْأَوْضُعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ بِأَمْرِ امْرَأَةٍ أَوْ جَيْلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الْشَّرِعِيُّ مُخَالِفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إِعْلَمُ أَنَّ الشِّيَعَةَ لَهُنَّ أَصْنَبُ وَالْأَتَابُ وَبُطْلَاقُ فِي عُزْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلْفِ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَبَنَيَهُ رَبِّيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذَهَبَهُمْ جَمِيعًا مُتَفَقِّينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ الَّتِي تَفُوضُ إِلَيْهَا نَظَرُ الْأَمَمِ وَيَتَعَينُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْقِيْبِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنُ الَّذِينَ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِشَيْءٍ إِغْفَالُهُ وَلَا تَفْوِيْضُ إِلَيْهَا الْأَمَمَةُ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَعْصُومًا مِنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنَّ

(١) قوله الإمام ابن الخطيب هو المغر الرازي قاله نصر

عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَنْهُ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنِصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُوَلُّونَهَا
 عَلَى مُقْتَضَى مَذَهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جَهَانِدَهُ الْسُّنَّةُ وَلَا نَقْلَهُ الْشَّرِيعَةُ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ
 أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرَيْقِهِ أَوْ يَعِدُهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهِمُ الْفَاسِدَةُ وَتَنَقَّسُهُمْ هَذِهِ النَّصُوصُ عِنْهُمْ إِلَى
 جَلَّ وَخَلَقَ فَالْجَلِيلُ مِثْلُ قَوْلِهِ مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَيْهِ مَوْلَاهُ قَالُوا وَلَمْ تُطَرَّدْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ
 إِلَّا فِي عَلَيِّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ أَفَضَّاكُمْ عَلَيِّ
 وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا أَقْضَاهُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرْسَادُ بِأَوْلِ الْأَمْرِ الْوَاجِبَةُ طَاعَتْهُمْ
 بِقَوْلِهِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ وَأَوْلِ الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَالْمَرَادُ الْحَكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا
 كَانَ حُكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيمَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ مَنْ يَبَايِعُ فِي عَلَيِّ
 رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيُّ وَوَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَلَمْ يَبَايِعْ إِلَّا عَلَيِّ وَمِنْ أَنْخَنِي عِنْهُمْ بَعْثَ
 الَّذِي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ اقْرَاءَةً سُورَةَ بُرَاءَةَ فِي الْمَوْمِنِ حِينَ أُنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعْثَ
 بِهَا أَوْلَأَ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ لِيَبَلِّغَهُ رَجُلٌ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعْثَ عَلَيْهَا لِيَكُونَ
 الْقَارِئُ الْمُبْلِغُ قَالُوا وَهَذَا يَدْلِلُ عَلَى تَقْدِيرِهِ عَلَيِّ وَأَيْضًا فَلَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى
 عَلَيِّ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدْمَ عَلَيْهِمَا فِي غَزَّاتِيْنَ أَسَامِةَ بْنَ زَبِيدٍ مَرَّةً وَعُمَرَ بْنَ الْعَاصِ
 الْخَرْسَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلَيِّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فِيهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ
 وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النَّصُوصُ تَدْلِلُ عَلَى تَعْيِينِ عَلَيِّ
 وَتَشْخِيصِهِ وَكَذَلِكَ تَتَنَقَّلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدِهِ وَهُوَ لَاءُهُمُ الْإِمَامَيْهُ وَيَتَبرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخِيْنِ
 حَيْثُ لَمْ يَقْدِمُوا عَلَيْهَا وَبَابِيْعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النَّصُوصِ وَبَغْمِصُونَ فِي إِمَامَتِهِمَا وَلَا يُلْتَفَتُ
 إِلَى نَقْلِ الْقَدْحِ فِيهِمَا مِنْ غُلَامِهِمْ فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ
 الْأَدَلةُ إِنَّمَا أَفْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلَيِّ بِالْوَصْفِ لَا بِالْشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقْصِرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضْعُوا
 الْوَصْفَ مَوْضِعَهُ وَلَا هُمُ الْزَّبِيدَيْهُ وَلَا يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخِيْنِ وَلَا يَغْمِصُونَ فِي إِمَامَتِهِمَا مَعَ
 قَوْلِهِمْ يَا أَنْ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْهُمْ لِكَنْهُمْ يَجْوِزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ ثُمَّ
 أَخْتَلَفَتْ نَقْوِلُ هُوَ لَاءُ الْشِّيْعَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلَيِّ فِيهِمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وَلْدِ فَاطِمَةَ
 بِالْنَّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدِهِ عَلَى مَا بَذَكَرُوْهُ بَعْدَ وَهُوَ لَاءُ يَسْمُونَ الْإِمَامَيْهُ نِسْبَةً إِلَى
 مَقَالَتِهِمْ يَا شَتِّرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيْمَانِ وَهِيَ أَصْلُ عِنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا
 فِي وَلْدِ فَاطِمَةَ لِكِنْ يَا لِاَخْتِيَارِ مَعَ الشَّيْوخِ وَيُشَرَّطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِيًّا

زَاهِدًا جَوَادًا شَجَرًا وَيَغْرُجَ دَاعِيًّا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهُوَ الْأَوَّلُ مِنْ نِسْبَةِ إِلَى صَاحِبِ
الْمَذَهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلَيٍّ بْنُ الْحُسَينِ السَّبِطِ وَقَدْ كَانَ يُنَاظِرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى
أَشْرِاطِ الْخُرُوجِ فِي الْأَئِمَّا مَفْلِزَمَهُ الْبَاقِرُ أَنَّ لَا يَكُونُ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِمامًا
لَأَنَّهُ لَمْ يَغْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَنْعِي عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَخْذَهُ
إِيَّاهُمَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاظَرَ الْأَئِمَّا مَيَّهَ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ وَرَأَاهُ يَقُولُ
بِإِيمَانِهِمَا وَلَا يَتَبَرَّا مِنْهُمَا رَفِضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَبِذَلِكَ سُمِّوَا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ
مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلَيٍّ وَأَبْنِيهِ السَّبِطَيْنِ عَلَى أَخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِمَا مُحَمَّدَ بْنَ الْخَنْفِيَّةِ
ثُمَّ إِلَى وُلَيْهِ وَهُمُ الْكَبْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الظَّوَائِفِ أَخْتِلَافَاتٌ
كَثِيرَةٌ تَرَكَنُهَا أَخْتِصَارًا وَمِنْهُمْ طَوَّافُ يُسَدُّونَ الْفُلَّا مَجَاوِزًا وَحَدَّ الْعَقْلَ وَالْإِيمَانِ
فِي الْقَوْلِ بِالْأَوْهِيَّةِ هُوَ الْأَوَّلُ الْأَئِمَّةُ إِمَامًا عَلَى أَنْهُمْ بَشَرٌ أَتَصْنَوُ بِصَفَاتِ الْأَوْهِيَّةِ أَوْ أَنَّ
الْإِلَهَ حَلَّ فِي دَاهِهِ الْبَشَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْحَالُولِ يُوَافِقُ مَذَهَبَ النَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَواتُ
اللهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلَيْ رَذِيقِ اللهِ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَمَنْخَطَ
مُحَمَّدُ بْنُ الْخَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عَبْدِيِّ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلَعْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةِ
مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفُورُ الصَّادِقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْأَئِمَّا مَلَكُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ أَتَتَقْلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ
لَيَكُونَ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْتَّنَاسُخِ وَمِنْ هُوَ الْأَوَّلُ الْفُلَّا مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ
مِنَ الْأَئِمَّةِ لَا يَتَجَاوِزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسْبِ مَنْ يُعِينُ لِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ الْأَوَّلُ الْفُلَّا
فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمْتَ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَهِدُونَ لِذَلِكَ
بِقِصَّةِ الْخُضْرِ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي عَلَيِّ رَذِيقِ اللهِ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي الْسَّجَابِ وَالرَّعْدُ صَوْتُهُ
وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلُهُ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْخَنْفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضُوِّي مِنْ أَرْضِ
الْجِبَارِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

الْأَيَّانُ الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرْيَشٍ
وَلَأَةُ الْحَقِّ أَزْبَعَةُ سَوَاءٌ
هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَافٌ
عَلَيٍّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ
فَسَبِطُ سَبِطٍ إِيمَانٍ وَبَرٍ
وَسَبِطُ غَيْثَةٍ كَزْبَلَاهُ
يَقُودُ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ الْأَلْوَاهُ

تَقْبِيْبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عَنْهُ عَسَلُ وَمَا هُوَ
وَقَالَ مِثْلَهُ غُلَامُ الْأَمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْأَثْنَا عَشَرَيْهِ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْثَانِي عَشَرَ مِنْ
أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ وَبِلْقُوبَتِهِ الْمَهْدِيُّ دَخَلَ فِي سِرْدَابِ بَدَارِهِمْ
فِي الْحِلَّةِ وَتَقْبِيْبَ حِينَ اَعْتَقَلَ مَعَ اُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ الْزَمَانِ فِي مِلَادِ الْأَرْضِ
عَدَلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ وَمُمْ إِلَى
الآن يَسْتَظِرُونَهُ وَيَسْمُونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقُولُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاتِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ
هَذَا السِرْدَابِ وَقَدْ قَدَمُوا مَرْكَبًا فِيهِنَّوْنَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَكَ النَّجُومُ
ثُمَّ يَنْفَضُونَ وَيَرْجِعُونَ الْأَمْرَ إِلَى الْلَّيْلَةِ الْآتِيَّةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُهُمْ هُوَلَاءُ
الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَيَسْتَشِهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا
وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قَصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَيْهِ وَقُتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمْرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْخُوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى
طَرِيقِ الْمُغْبَرَةِ وَلَا يَصِحُّ الْأَسْتِشَهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا. وَكَانَ مِنْ هُوَلَاءِ الْسَّيِّدِ
الْحَمِيرِيِّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

وَعَلَّهُ الْمَوَاطِطُ بِالْخَضَابِ إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالُ
فَقُمْ يَاصَاحِ بَنِكِ عَلَى الشَّبَابِ فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى
إِلَى دُنْيَاهُ قَبْلَ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ تُشَوِّبُ النَّاسُ فِيهِ
إِلَى أَحَدِي إِلَى يَوْمِ الْأَوْيَابِ فَلَبِسَ بَعَائِدِي مَا فَاتَ مِنْهُ
وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي أَرْتِيَابِ أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقِّ
كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنِ النَّاسِ حَيْوًا مِنْ بَعْدِ دَرْسِ فِي الْتُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْنَةً هُوَلَاءُ الْفُلَّاَةِ أَئِمَّةُ الشِّيَعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُبْطِلُونَ أَخْتِجَاجَهُنَّهُمْ
عَلَيْهَا وَأَمَا الْكِسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْأَمَامَةَ مِنْ بَعْدِ تُحَمِّدَ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى أَبْنِهِ أَبِي هَاشِمِ
وَهُوَلَاءُهُمُ الْمَاضِيَّةُ ثُمَّ أَفْرَقُوا فِيهِنُّمْ مِنْ سَاقِهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّثُمْ إِلَى أَبْنِهِ الْحَسَنِ
أَبِنِ عَلِيِّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمَ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَّاقِ مُنْصَرِفًا مِنْ الشَّامِ
أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٍ إِلَى أَبْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفَ
بِالْأَمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثَيَّةِ الْمُلْقَبِ بِالْسَّفَاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبْيَ جَعْفَرِ الْمُكَبِّ يَا الْمَنْصُورِ وَأَنْتَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالْأَنْصَنِ وَالْعَمْدِ وَاحِدًا
 بَعْدَ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذَهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ الْقَائِمَينَ بِدُولَةِ بَنِي الْعَبَاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ
 أَبُو مُسْلِمٍ وَمُلَيْمَانُ بْنُ كُشَيْرٍ وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَالِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شِيعَةِ الْعَبَاسِيَّةِ وَرُبُّهُمْ
 يَعْضُدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَصِلُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ
 الْوَفَاءَ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصَبَيَّةِ الْمُهُومَةِ وَأَمَّا الْزَيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
 فِيهَا وَإِنَّهَا يَا خَتِيارَ أَهْلِ الْحَلْلِ وَالْعَقْدِ لَا بِالْأَنْصَنِ فَقَالُوا يَا إِمَامَةَ عَلَيِّ ثُمَّ أَبْنِي الْحَسَنِ ثُمَّ
 أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ أَبْنِي زَيْدِ بْنِ عَلَيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذَهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًّا
 إِلَى الْإِمَامَةِ فُقِتِلَ وَصُلِّبَ بِالْكِتَاسَةِ وَقَالَ الْزَيْدِيَّةُ يَا إِمَامَةَ أَبْنِي يَعْيَى مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى
 إِلَى خُرَاسَانَ وَقُتِلَ بِالْجُوزَجَانَ بَعْدَ أَنْ أَوْدَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
 الْحَسَنِ الْسَّيْطِ وَيُقَالُ لَهُ الْنَّفْسُ الْزَّكِيَّةُ بَخْرَجَ بِالْمِجَازِ وَتَاقَبَ بِالْمَهْدِيِّ وَجَاءَ تَهْعَسًا كَوْ
 الْمَنْصُورِ فُقِتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصَرَةِ وَمَعَهُ عَلَيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلَيٍّ
 فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرًا كُوْهُ فَهَزَّمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمَ وَعَيْسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ أَخْبَرَهُمْ
 بِذَلِكَ كُلَّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي تَرَاتِيْفِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ حَمْدِ
 أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْنَّفْسِ الْزَّكِيَّةِ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلَيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدٍ
 ابْنِ عَلَيٍّ بَخْرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالظَّالِقَانِ فَقَضَى عَلَيْهِ وَسِيقَ إِلَى الْمُعْتَصَمِ بِحَيَّاتِهِ
 وَمَاتَ فِي جَنَسِيَّهُ وَقَالَ آخَرُونَ مِنِ الْزَيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ يَعْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ
 عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَنَقْلُوا الْإِمَامَةَ فِي عَقِيَّهُ
 وَإِلَيْهِ اتَّسَبَ دَعْيَيُ الْزَّنْجِ كَمَا نَذَرَ كُوْهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنِ الْزَيْدِيَّةِ إِنَّ
 الْإِمَامَ بَعْدَ حَمْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ أَدْرِيسُ الَّذِي فَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَالِكَ
 وَقَامَ يَا مِرِهِ أَبْنُهُ أَدْرِيسُ وَأَخْتَطَ مَدِينَةَ فَاسَّ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقْبَيْهُ مُلُوكًا بِالْمَغْرِبِ
 إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَرَ كُوْهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَبَقَى أَمْرُ الْزَيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْظَمٍ
 وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِنْهَا عِيلَ
 ابْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عَلَيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْسَّيْطِ وَأَخْوَهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهَذِهِ الدُّعَوَةِ
 فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرِ الْأَطْرُوشِ مِنْهُمْ وَأَسْلَمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلَيٍّ بْنِ الْحَسَنِ
 ابْنِ عَلَيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ أَخُو زَيْدٍ بْنِ عَلَيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بَطْرَسْتَانَ دُولَةً وَتَوَصَّلَ

الْدِيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمُكَلِّفِ وَالْأَسْبَابُ عَلَى الْخَلْفَاءِ بِغَدَادَ كَمَا نَذَرَ كُوْنُ فِي الْخَبَارِمْ.
 وَأَمَّا الْإِمَامَيْهُ قَسَّاُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلَيْهِ الْرَّضَى إِلَى أَبْنَهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ
 الْحُسَينِ ثُمَّ إِلَى أَبْنَهِ عَلَيْهِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى أَبْنَهِ مُحَمَّدِ الْبَافِرِ ثُمَّ إِلَى أَبْنَهِ جَعْفَرِ
 الْصَادِقِ وَمِنْ هُنَّا أَفْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةُ سَاقُوهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرُفُونَهُ بِيَنْهُمْ بِالْإِمَامِ
 وَهُمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّهُ وَفِرْقَةُ سَاقُوهَا إِلَى أَبْنَهِ مُوسَى الْكَاظِمِ وَهُمُ الْإِثْنَا عَشَرِيَّهُ لِيُوقِفُوهُمْ
 عِنْدَ الْثَانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّهِ وَقَوْلِهِمْ يَغْبِيَنَّهُ إِلَى آخِرِ الْزَمَانِ كَمَا رَأَى فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّهُ
 فَقَالُوا بِإِيمَامَهُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ بِالنَّصْرِ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ وَفَائِدَهُ النَّصْرُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنَّ
 كَانَ قَدَّمَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بِقَاهُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِيَّهُ كَفِيَّهُ كَفِيَّهُ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَواتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ أَنْتَكَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى أَبْنَهُ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ
 الْأَئِمَّهُ الْمُسْتُورِيْنَ لَأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوَّكَهُ فَبَسْتَرَ وَتَكُونُ دُعَائُهُ
 ظَاهِرِيْنَ إِقَامَهُ لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوَّكَهُ ظَاهِرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ
 مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ أَبْنَهُ جَعْفَرُ الْصَادِقُ وَبَعْدَهُ أَبْنَهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ الْمُسْتُورِيْنَ
 وَبَعْدَهُ أَبْنَهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُهَدِّيِّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كُتُبَامَهُ وَتَنَابُعَ
 النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْتَقَلِهِ بِسِعْلَامَهُ وَمَالَكَ الْقِيرَوَانَ وَالْمَغْرِبَ وَمَلَكَ
 بَنُوَهُ مِنْ تَدْمِيرِ مصرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَعِي هُوَ لَأَءَ نِسْبَهُ إِلَى الْقَوْلِ بِإِيمَامَهُ
 إِسْمَاعِيلَ وَيُسْعَونَ أَيْضًا بِالْبَاطِلِيَّهُ نِسْبَهُ إِلَى فَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِيِّ أَيِّ الْمُسْتُورِ وَبِسَمْوَنَ
 أَيْضًا الْمُلْعُودَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَهُ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَهُ
 دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمَائِدَهُ الْخَامِسَهُ وَمَلَكَ حُصُونَا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
 قَلَمْ تَزَلَّ دَعْوَتَهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا الْهَلَكَ بَيْنَ مُلُوكِ الْتُرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ الْمَنْتَرِ بِالْعِرَاقِ
 فَأَنْقَرَضَتْ وَمَقَالَهُهَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَهُ فِي كِتَابِ الْمَلِلِ وَالْمُنْجَلِ لِلشَّهْرِ سَتَانِي *
 وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشَرِيَّهُ فَرَبِّمَا خُصُوا بِاسْمِ الْإِمَامَهُ عِنْدَ الْمَتَّاخيرِ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِيمَامَهُ
 مُوسَى الْكَاظِمِ بْنِ جَعْفَرِ الْصَادِقِ لِوَفَاهُ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا
 جَعْفَرِ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَهُ مُوسَى هَذَا ثُمَّ أَبْنَهُ عَلَيْهِ الرَّضَا الَّذِي عَهَدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَمَاتَ
 قَبْلَهُ فَلَمْ يَتَمَّ لَهُ أَمْرُهُ ثُمَّ أَبْنَهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ أَبْنَهُ عَلَيْهِ الْهَادِيُّ ثُمَّ أَبْنَهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنُ
 الْمَسْكَرِيُّ ثُمَّ أَبْنَهُ مُحَمَّدُ الْمُهَدِّيِّ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي قَدَّمَنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَهِ مِنْ

هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهيم ومن اراد
استهانها ومحط انتها فعليه بكتاب العدل والنحل لأن حزم والشهرستاني وغيرهما فيهما
بيان ذلك والله يفضل من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس قوته عندها بالختيار إنما هو بضرورته
الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحتمل عليه
الجمهور فلا بد فيه من العصبية إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه . فـ العصبية
ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا إلا في منعة
من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى أطراحها وتركيها فقال إن الله
ذهب عنكم عيبة ^(١) الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بني آدم وادم من تراب وقال
تعالى إن أكرمكم عند الله أنتم بكم ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونعي
على أهله أخوه لهم من الاستمتاع بالخلاف والإسراف في غير القصد والتشكيب
عن حسراط الله وإنما حض على الألفة في الدين وحدّر من الخلاف والفرقة * وأعلم
أن الدنيا كلها وأخوها مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده
فيها ينهي عنه أو يدمه من أفعال البشر أو ينطبع إلى تركه إعماله بالشكية أو
افتلاعه من أصله وتطبيل القوى التي بنشأ عليها بالشكية إنما قصده تصريفها في
أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحدى الوجهة كما
قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهو هجرة إلى الله ورسوله
ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة يتزوجها فهو هجرة إلى ما هاجر إليه فلم يذم
الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار
للحق وبطل الجهد وإلا كلام الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الدمية
فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً فإذا كان الغضب في الله والله كان مذوهاً وهو
من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالشكية
فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه وإنما المراد تصريفها فيما أيعن له يا شيماليه

(١) عيبة بضم العين وكسره وكسر الموندة شديدة وتشدداً المشهادة الخيبة الكبر والغدر والخروءه قاموس

على المصالح يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَّصِرًّا فَأَطْوَعُ الْأَوْامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصَبَيَّةُ حَيْثُ
 ذَمَّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَزْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ
 الْعَصَبَيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَخْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخَرَّبَهَا أَذْهَقَ
 عَلَى أَحَدٍ لَأَنَّ ذَلِكَ تَحْانٌ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ أَلَّا يَهِيَ دَارُ الْفَرَارِ
 فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْعَصَبَيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةُ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الْشَّرَائِعُ
 إِذْ لَا يَتَسَمُّ قِوَامُهَا إِلَّا بِالْعَصَبَيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلٍ وَكَذَا الْمَلَكُ لِمَادَمَهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذْدُمْ
 مِنْهُ الْغَلَبَ بِالْحَقِّ وَقَهَرَ الْكَافَّةَ عَلَى الْدِينِ وَنُرَأَاهُ الْمَصَالِحَ وَإِنَّمَا ذَمَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ
 الْتَّكْبِلِ بِالْبَاطِلِ وَتَصْرِيفِ الْأَدَمِيَّنَ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالْتَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَوْ كَانَ
 الْمَلَكُ مُخْلِصًا فِي غَلَبِهِ لِلْعَالَمِ أَنَّهُ لِلَّهِ وَلَحْمَلُهُمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ
 ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
 بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعاوِيَةَ
 عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَبْهَةِ الْمُلَكِ وَزِيَّهُ مِنَ
 الْعَدِيدِ وَالْعَدَدِ أَسْتَكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَكِسْرَوِيَّةٌ يَا مُعاوِيَةُ نَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَنَا فِي شَغْرِ تِجَاهِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مُبَادَأَتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يُخْطِئْهُ
 إِنَّمَا أَخْتَجَ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ هَقَاصِ الْحَقِّ وَالْدِينِ فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَأْنَقَ الْمُلَكِ مِنْ
 أَصْلِهِ لَمْ يُقْنِعْهُ الْجَبَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وَأَنْجَالِهَا بَلْ كَانَ يَعْرِضُ عَلَى خُروْجِهِ عَنْهَا
 بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسٍ فِي مَأْكُومِهِمْ مِنْ
 أَرْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَمُلُوكِ سُلَيْمَانَ وَالْفَلَةِ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ مُعاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ
 بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةً فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ فَسَكَتَ * وَهَذَا
 كَانَ شَانُ الْصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمُلَكِ وَأَخْوَالِهِ وَنِسَيَانِ عَوَانِيَّهُ حَذَرًا مِنْ اتِّبَاعِهَا بِالْبَاطِلِ
 فَلَمَّا أَسْتَخْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَخَلَفَ أَبَا بَكْرَ عَلَى الْصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَمْ
 أُمُورُ الدِّينِ وَأَرْتَفَاهُ النَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجِدْ
 لِلْمُلَكِ ذِكْرًا لِمَا أَنَّهُ مَظْنَنَةُ الْبَاطِلِ وَنَحْلَةُ يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ
 بِذَلِكَ أَبُو بَكْرَ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّعِمًا سَنَنَ صَاحِبِهِ وَفَاقِلًا أَهْلَ الرَّذْدَةِ حَتَّى أَجْتَمَعَ الْعَرَبُ
 عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهِدَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْتَلَ أَثْرَهُ وَفَاقِلَ أَلَامَ فَغَلَبُوهُمْ وَأَذْنَ لِلْعَرَبِ بِاِنْتِزَاعِ

ما يأذن لهم من الدنيا والملك فقل لهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي رضي الله عنهم والكل متبرئون من الملك من يكون عن طريقه وأك ذلك لدتهم ما كانوا عليه من غضاضة لا إسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمة عن أحوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم ولا من حيث بدوا لهم وما اطاعهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي الفوه فلم تكن أمة من الأمم أسفت عيشاً من مصر لما كانوا بالحجارة في أرض غير ذات زرع ولا ضرع و كانوا ممنوعين من الأزياف وحبوبها بعدها واحتياطها بمن ولهم من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون إلى خصيتها ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والحنافس ويخرجون بما كل العثرة وهو وبر الأبل يعمونه بالحجارة في الدم ويطيخونه وقرباً من هذا كانت حال قريش في مطاعهم ومساكنهم حتى إذا اجتمعوا عصبية العرب على الذين بما أكرهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا إلى أمم فارس والروم وطلبوا مما كتب الله لهم من الأرض بوعده الصدق فابتزوا ملوكهم واستباحوا دنياه فخرجت بحارة الرفه لدتهم حتى كان الفارس الواحد يقسم الله في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذوا الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرتفع ثوبه بالجلد وكان علي يقول بما صفتكم وبما يخصكم غيري وكان أبو موسى يتجاهق عن أكل الدجاج لأنه لم يعهد لها العرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وإنما يأكلون الحنطة بمخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم قال المسعودي في أيام عثمان أقتني الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بواudi القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف إيلاداً وخيلاً كثيرة وبلغ الشمن الواحد من متوك المزير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحه من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراقة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس والله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متوك بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر

يَا لَهُو وَسِعَيْرَ مَا خَلَفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْفِتَنِ^١ بِمِائَةِ الْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الْزَّبِيرُ دَارَةً
 بِالْبَصَرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ وَالإِنْكَدْرِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَةً
 بِالْكُوفَةِ وَشَيْدَ دَارَةً بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجُصْنِ وَالْأَجْرِ وَالسَّاجِ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي
 وَقَاصِ دَارَةً بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ مِنْهُ كَبَّا وَأَوْسَعَ فَضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرُفَاتٍ وَبَنَى
 الْمِقْدَادُ دَارَةً بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا نِجْعَصَةَ الظَّاهِرِ وَالْمَبَاطِنِ وَخَلَفَ لِعَلَى بْنِ مُنْعِيَةِ تَحْسِينَ
 الْفِ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثَ مِائَةٍ الْفِ دِرْهَمٍ إِهْ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ
 فَكَانَتْ مَكَابِسُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنْعِيَةً عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَنْوَالٌ
 حَلَالٌ لِأَنَّهَا غَنَائمٌ وَفِيَوْمٍ وَلَمْ يَكُنْ تَصْرُفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى تَصْدِيفِ
 أَخْوَاهُمْ كَمَا قَاتَاهُ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَقَادِحٌ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْأَسْتِكْشَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَدْهُومًا
 فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشْرَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُروجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ
 حَالُهُمْ قَصْدًا وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْأَسْتِكْشَارُ عَوْنَانًا لَهُمْ عَلَى
 طُرُقِ الْحَقِّ وَأَكْتَسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبِدَاوَةُ وَالْفَضَاضَةُ إِلَى زَيَّانِهَا
 وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلَكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبَيَّةِ كَمَا ظَلَّنَا وَحَصَلَ التَّغَابُ وَالْقُبْرُ كَانَ
 حُكْمُ ذَلِكَ الْمُلَكِ عِنْهُمْ حُكْمُ ذَلِكَ الرَّفِيقِ وَالْأَسْتِكْشَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا
 ذَلِكَ التَّغْلِبَ فِي بَاطِلٍ وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنِ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتِ
 الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلَيْهِ وَمَعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَهَدَيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْأَجْتِهَادُ وَلَمْ
 يَكُونُوا فِي نُخَارِ بَثِّهِمْ لِغَرَضِ دُنْيَوِيِّ أَوْ لِإِبْشَارِ بَاطِلٍ أَوْ لِأَسْتِشَارِ حِقْدِيٍّ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ
 مَتَوَهَّمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ وَإِنَّمَا أَخْتَلَفَ أَجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَهَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ
 صَاحِبِهِ بِأَجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلَيْهَا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةَ قَائِمًا
 فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقِّهِمْ
 أَفَتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمُلَكِ الْأَنْقَرَادَ بِالْأَجْمَدِ وَأَسْتِشَارَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةِ أَنْ
 يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصَبَيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَأَسْتَشَرَتْهُ بَنْوَةُ مَيَّةٍ وَمَنْ
 لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةِ فِي أَفْتِنَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتَابِعِهِمْ فَأَعْصَمُوهُمْ عَلَيْهِ وَأَسْتَعَنُوا
 دُونَهُ وَلَوْ حَمَاهُمْ مُعَاوِيَةٌ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الْطَّرِيقَةِ وَخَالَفُهُمْ فِي الْأَنْقَرَادِ بِالْأَمْرِ لِوُقُوعِهِ فِي
 أَفْرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمَعَهَا وَتَأْلِفَهَا أَمْمَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرٌ مُخَالَفَةٌ

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الأمر شيء لو أتيته أخلاقه ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الخلق والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لشلاء تقع الفرقه وهذا كلها إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفة في مذهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهمما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به و كانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهده معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بتوأميه لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلعوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحًا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد إليه وهو بعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان ابن الحكم وأبنته وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغى إنما كانوا متجرين لمقاصد الحق جزدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خيبة افتراق الكلمة الذي هو لهم من كل مقصد يشهد بذلك ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء وما علم السلف من أحوالهم وممقاصدهم فقد اجتمع مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأمام مروان فكان من الطبقات الأولى من التابعين وعد التهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الذين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطتهم عمر بن عبد العزيز فنزاع إلى طريقة الخلفاء الازبعة والصحابية جزده ولم يهم ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدينية ومقاصدهم وتسوا ما كان عليه سلفهم من شعرى القصد فيها وأعتمد الحق في مذهبها فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم فأفعلنهم وادعوا بالدعوة العباسية منهم ورأي رجالها الأمر فكانوا من العدالة يسكنون وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذهبهم ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكانت منهم الصالح والطالع ثم أقضى الأمر إلى بنائهم فأعطوا الملك والترف حقه وانعموا في الدنيا وباطلوا ونبذوا الذين وراءهم ظهرياً فتاذن الله بمحررهم وارتفاع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم والله لا

يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك وأختلافهم في تحريري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكاه المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكرروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أغور بين عميakan وكان رجل القوم هشام قال ولم يزال بتو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسلیمهم معاليه الامور ورؤسهم دنیاهم حتى افضى الأمر إلى ابنيائهم المترفين فكان همهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا يا سند راجه وأمنا لمكره مع اطرافهم ضيائة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسم، الذل ونفي عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله^(١) بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فارا أيام السفاح قال أقمت مليا ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فوش ذات قيمة قلت ما منعت عن القعود على ثيابنا فقال أي ملك وحق لك كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محمرة عليكم في كتابكم قلت أجزر على ذلك عيذنا وابتاعنا قال فلم تطئون الزرع بدوايكم والفساد محروم عليكم قلت فعل ذلك عيذنا وابتاعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الذي يجاج والذهب والحرير وهو محروم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسو ذلك على الكروه منا فا طرق إلى وقال ليس كما ذكرت بل انت قوم استحللت ما حرم الله عليكم وابتعم ما عنك نهيتكم وظلمتم فيما ملكتكم فسلبكم الله العز والبسم الذل بذوبكم والله نعمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا خائف ان يجعل لكم العذاب وانت بيلدي فيما بيكم وانما الضيافة ثلاثة فتزود ما احتجت اليه وازتعلي عن ارضي فتعجب المنصور واطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وان الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين و كانوا يوشرون على امور دنياهم وإن افضت إلى

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الدارمية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصوينا قال الله إندر

هَلَا كُمْ وَهَدْهُمْ دُونَ السَّكَافَةِ فَهَذَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحَسِينُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ وَابْنُ جَعْفَرَ وَامْتَالُهُمْ يُرِيدُونَ الْمُدَافَعَةَ عَنْهُ فَأَبَى وَمَنَعَ مِنْ سَلُوكِ السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مُخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِفْظًا لِلِّا لِفَةِ الَّتِي يَهَا حِفْظُ الْكَلْمَةِ وَلَوْ أَدِيَ إِلَيْهَا كَهْ وَهَذَا عَلَيْهِ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغَيْرَةُ لِأَوَّلِ لَوْلَيْهِ بِاسْتِبْقاءِ الْزَّبَيرِ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلَعَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى يَعْتِيهِ وَتَتَقَوَّلُ الْكَلْمَةُ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ مِنْ أَمْرٍ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ فَأَبَى فَرَارًا مِنَ الْغِشِّ الَّذِي يُنَافِي إِلَيْهِ إِسْلَامُ وَعَدَهُ عَلَيْهِ الْمُغَيْرَةُ مِنَ الْفَدَاءِ فَقَالَ لَقَدْ أَشَرْتَ عَلَيْكَ بِالْأَمْسِ بِمَا أَشَرْتَ ثُمَّ عَدَتُ إِلَيْهِ نَظَرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتُهُ أَنْتَ فَقَالَ عَلَيْهِ لَا وَاللَّهِ بِلَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَصْحَّحَنِي بِالْأَمْسِ وَغَشَّتِنِي الْيَوْمَ وَلَكِنْ مَنْعِنِي مِمَّا أَشَرْتَ يَهُ زَائِدُ الْحَقِّ وَهَذَا كَانَ أَخْوَاهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ بِفَسَادِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ نُرْقَعُ دُنْيَانَا بِشَمْرِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرْقَعُ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ الْمُلْكَ وَبَقَيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَعْزِيزِ الَّذِينَ قَمَدَاهُمْ وَأَلْجَرَيْهِمْ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهُرْ الْغَيْرُ إِلَّا فِي الْوَازِعِ الَّذِي كَانَ دِينًا ثُمَّ أَنْتَلَبَ عَصَبَيَّةً وَسَيْفًا وَهَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعِهْدِ مُعَاوِيَةَ وَمَرْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِ الْمُلْكِ وَالصَّدِرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلُفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضِ فُلُولِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْمَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بِحَتْنَاهَا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ الْتَّغَابُ إِلَيْهَا وَأَسْتَعْمَلَتْ فِي أَغْرِيَاهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالْتَّقْلِبِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادَ وَهَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِوَلِدِ عَبْدِ الْمُلْكِ وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَسْمَمْ الْخِلَافَةَ بِأَفْيَاءِ فِيهِمْ لِبَقاءِ عَصَبَيَّةِ الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ فِي الْطَّوْرَيْنِ مُلْتَسِسًا بَعْضُهُمَا بَعْضًا ثُمَّ ذَهَبَ زَمْنُ الْخِلَافَةِ وَأَثْرَهَا بِذَهَابِ عَصَبَيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلَاشِي أَخْوَاهُمْ وَبِقِيَّ الْأَمْرِ مُلْكًا بِحَتْنَاهَا كَمَا كَانَ الثَّانُ فِي مُلُوكِ الْعِجمِ يَا الْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخِلَافَةِ تَبَرُّكًا وَالْمُلْكُ يُجْمِيعُ الْقَابِيَّهِ وَمَنَاجِيَهِ لَهُمْ وَلَيْسَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاتَهُ بِالْمَغْرِبِ مُثِلَّ صَنَبَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيَّينَ وَمَغْرِبَوَةَ وَبَنِي يَقْرُبَنَ أَيْضًا مَعَ خُلُفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعُبَيْدِيَّينَ بِالْقِبْرِيَّانَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلْكِ أَوْ لَا تَمَّ التَّبَسَّتُ مَعَانِيهِمَا وَأَخْتَلَطَتْ ثُمَّ أَنْفَرَدَ الْمُلْكُ حَتَّى أَفْرَقَتْ عَصَبَيَّتَهُ مِنْ عَصَبَيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ

فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ الْمُلْكَ وَبَقَيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَعْزِيزِ الَّذِينَ قَمَدَاهُمْ وَأَلْجَرَيْهِمْ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهُرْ الْغَيْرُ إِلَّا فِي الْوَازِعِ الَّذِي كَانَ دِينًا ثُمَّ أَنْتَلَبَ عَصَبَيَّةً وَسَيْفًا وَهَذَا كَانَ الْأَمْرُ مُلْكًا بِحَتْنَاهَا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ الْتَّغَابُ إِلَيْهَا وَأَسْتَعْمَلَتْ فِي أَغْرِيَاهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالْتَّقْلِبِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادَ وَهَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِوَلِدِ عَبْدِ الْمُلْكِ وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَسْمَمْ الْخِلَافَةَ بِأَفْيَاءِ فِيهِمْ لِبَقاءِ عَصَبَيَّةِ الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ فِي الْطَّوْرَيْنِ مُلْتَسِسًا بَعْضُهُمَا بَعْضًا ثُمَّ ذَهَبَ زَمْنُ الْخِلَافَةِ وَأَثْرَهَا بِذَهَابِ عَصَبَيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلَاشِي أَخْوَاهُمْ وَبِقِيَّ الْأَمْرِ مُلْكًا بِحَتْنَاهَا كَمَا كَانَ الثَّانُ فِي مُلُوكِ الْعِجمِ يَا الْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخِلَافَةِ تَبَرُّكًا وَالْمُلْكُ يُجْمِيعُ الْقَابِيَّهِ وَمَنَاجِيَهِ لَهُمْ وَلَيْسَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاتَهُ بِالْمَغْرِبِ مُثِلَّ صَنَبَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيَّينَ وَمَغْرِبَوَةَ وَبَنِي يَقْرُبَنَ أَيْضًا مَعَ خُلُفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعُبَيْدِيَّينَ بِالْقِبْرِيَّانَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلْكِ أَوْ لَا تَمَّ التَّبَسَّتُ مَعَانِيهِمَا وَأَخْتَلَطَتْ ثُمَّ أَنْفَرَدَ الْمُلْكُ حَتَّى أَفْرَقَتْ عَصَبَيَّتَهُ مِنْ عَصَبَيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ

مُقْدِرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة^(١)

اعلم أنَّ البيعة هي العهد على الطاعة كأنَّ المبايع يعاهد أميره على أنَّه يُسلِّم له، لِتَنظَّرَ في أمرِ نفسه وأمورِ المسلمين لا ينزعُه في شيءٍ من ذلك وَيُطْبِعُه فِيهَا بِكَلْفَةٍ به من الأمر على المنشط والمُنكَرِ وَكَانُوا إِذَا بَأْيَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا أَيْدِيهِمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَلِكَ فَعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشَتَّرِي فَسُمِّيَّ بَيْعَةً مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتْ الْبَيْعَةُ مُصَالَّحةً بِالْأَيْدِيِّ هَذَا مَذْلُولُهَا فِي عُرْفِ الْأَلْفَةِ وَمَعْهُودِ الشَّرْعِ وَهُوَ الْمُرْادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَلَهُ الْعَقْبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ وَحِينَما وَرَدَ هَذَا الْفَظْوَ وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخَافِقَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخَلْفَاءُ يُسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَّ هَذَا الْأَسْتِيَاعَ أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِكْرَامُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَامِ أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِنْهُ أَلِيَّامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمُشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحْيَةُ الْمُلُوكِ الْكَسْرُوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوِ الْرِّجْلِ أَوِ الْذِيلِ أَطْلَقَ عَلَيْهَا أَسْمَ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا كَانَ هَذَا الْخَضْوعُ فِي التَّحْيَةِ وَالْتِزَامِ الْأَدَابِ مِنْ تَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفَيَّةً وَأَسْتَغْنَى بِهَا عَنْ مُصَالَّحةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ لِمَا فِي الْمُصَالَّحةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُلِ وَالْأَبْتِذَالِ الْمُتَافِيَّنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْزِ الْمُنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَيْهِ فِي الْأَقْلَمِ مِنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعُ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَا خُذْ بِهِ تَسْهِيْلًا مَعَ خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَأَفْهَمُ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَشًا وَبَعْنَانًا وَأَعْتَزُ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللهُ أَكْوَبُ الْعَزِيزِ

(١) البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شبيهة بسكون الباء فيها فهي معد النصارى ١٠

الفصل الثالثون

في ولادة العهد

إعلم أنَّا قدْ نَادَيْناكَ كَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَمَشَرُوْعِيْتَهَا إِيمَانًا فِيهَا مِنَ الْمَصَاحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا
لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأَمَّةِ لِرِبَّنَاهُمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهُوَ وَإِيمَانُهُمْ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي
حَيَاتِهِ وَيَتَبعُ ذَلِكَ أَنَّ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتَهُ وَيُقْيِمُ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّ أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ
يَتَوَلَّهُمْ وَيَشْقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلَ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ
بِإِجْمَاعِ الْأَمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْعِقادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمرِ
يَمْحُضِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَارُوهُ وَأَزْجَبُوهُ عَلَى أَنفُسِهِمْ يَهُ طَاعَةً عَرَرَ رَذْيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ
وَكَذَلِكَ عَهْدَ عُمُرٍ فِي الشَّوَّرَى إِلَى السِّنَّةِ بَقِيَّةِ الْعَشَرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ
فَفَوْضَ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَنْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَاجْتَهَدَ وَنَاظَرَ
الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدُهُمْ مُتَفَقِّينَ عَلَى عُشَّمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ فَأَشَرَّ عُشَّمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمَوْافِقَتِهِ
إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْأَقْتِداءِ بِالشَّيْخِينِ فِي كُلِّ مَا يَعْنِي دُونَ أَجْتِهَادِهِ فَأَنْعَدَ أَمْرُ عُشَّمَانَ
لِذَلِكَ وَأَزْجَبُوهُ طَاعَتَهُ وَالْمَلَأُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَافِرُونَ لِلْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ
مِنْهُمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَفَقِّونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشَرُوْعِيْتِهِ وَإِلَاجْمَاعِ شَجَةٍ
كَمَا عَرَفَ وَلَا يَتَّهِمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهَدَ إِلَى أَيْهِ أَوْ أَبْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ
عَلَى النَّظَرِ لَهُ فِي حَيَاتِهِ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَعْتَمِلَ فِيهَا تَبَعَّةً بَعْدَ مَمَاتَهُ خَلَافَ الْمَرْدَنِ قَالَ
يَأْتِهِمْ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خَصَّنَ التَّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ
الظَّنَّةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِبَبًا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُ إِلَيْهِ مِنْ إِبْشَارِ مَصْلِحَةٍ أَوْ
تَوْقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَهِي الظَّنَّةُ فِي ذَلِكَ رَأْسًا كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ
كَانَ فَعْلُ مُعاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حِجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعاوِيَةَ لِإِبْشَارِ أَبْنِهِ يَزِيدَ
بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مُرَاةُ الْمَصْلِحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَإِنْفَاقِ أَهْوَاهِهِمْ
بِإِنْفَاقِ أَهْلِ الْحُلُولِ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أَمِيمَةِ إِذْ بَنُوا مَيْدَانَ يَوْمَئِذٍ لَا يَرْتَضُونَ سِوَاهُمْ
وَهُمْ عَصَابَةُ قَرْيَشٍ وَأَهْلُ الْمَلَلِ أَجْمَعُ وَأَهْلُ الْغَلْبِ مِنْهُمْ فَأَشَرَّهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ
بِظَنِّهِ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصًا عَلَى الْإِنْفَاقِ وَاجْتِمَاعِ
الْأَهْوَاءِ الَّذِي شَانَهُ أَهْمَمُهُ عِنْدَ الشَّارِعِ وَإِنْ كَانَ لَا يُظْهِرُ بِمُعاوِيَةَ غَيْرِهِ هُذَا فَعَدَ الْمَهْ

وَسُجْنَتْ مَائِنَةً مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَخُضُورًا كَبِيرًا لِلصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُونُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ
 عَلَى انتِفَاءِ الْرَّيْبِ فِيهِ فَلَيْسُوا مِنْ يَأْخُذُونَ فِي الْحَقِّ هُوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةً مِنْ تَأْخِذُ
 الْعِزَّةُ فِي قَبْوِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ مَائِنَةً هُنَّ وَفَارُ عَبْدُ اللَّهِ
 أَبْنَ عَمْرٍ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَسْمُولٌ عَلَى تَوْزِيعِهِ مِنَ الْسُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْوَالِ مُبَاحًا
 كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخُلُفَافَهُ لَهُذَا الْعَهْدُ الَّذِي أَتَقْرَ
 عَلَيْهِ الْجُمُهُورُ إِلَّا أَبْنَ الْزَّبِيرِ وَنَدُورُ الْمُخَالَفِ مَعْرُوفٌ مِنْ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ
 مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلُفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَخْرُونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَالِكِ وَسَلِيمَانَ
 مِنْ بَنِي أَمِيَّةَ وَالسَّفَاحِ وَالْمَتَصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَأَرْشِيدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ
 عُرِيقَتْ عَدَالَتِهِمْ وَحَسْنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِيشَارَ أَبْنَاهِهِمْ
 وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنْنِ الْخُلُفَاءِ الْأَزْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَسَانِهِمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلَئِكَ
 الْخُلُفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينِ لَمْ تَحَدُّ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوَازِعُ دِينِيَا فَعِنْهُ كُلُّ
 أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعِدَهُوا إِلَيْهِ مِنْ يَرْتَضِيهِ الَّذِينَ فَقَطْ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلَّ
 مَنْ يَسْتُمُوا إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَسَكَانَتِ الْعَصِيَّةُ قَدْ
 أَشْرَقَتْ عَلَى غَائِبِهَا مِنَ الْمَلِكِ وَالْوَازِعِ الَّذِيْنِيْ قدْ ضَعَفَ وَأَخْتَيَّرَ إِلَى الْوَازِعِ السُّلْطَانِيِّ
 وَالْعِصَابَانِيِّ فَلَوْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرَدَتْ ذَلِكَ الْعَهْدُ وَأَنْتَقَضَ أَمْرُهُ
 مَرِيعًا وَصَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْأَخْتِلَافِ سَأَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ رَفِيْقُ اللَّهِ عَنْهُ مَا بَالُ
 الْمُسْلِمِينَ أَخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِيهِ بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لَآنَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ
 كَانَا وَالَّذِينَ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالَّذِيْ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الَّذِينَ أَفْلَأَ تَرَى إِلَى
 الْأَمَّاْمَوْنِ لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلَيْيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَهَّاءَ أَلَّرِّ مَا كَيْفَ أَنْكَرَتِ
 الْعَبَاسِيَّةُ ذَلِكَ وَنَقْضُوا يَسْعَتْهُ وَبَأَيْعُوا لِعَمِيِّ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنْ الْهَرْجِ
 وَالْخِلَافِ وَأَنْقِطَاعِ السُّبْلِ وَتَعَدَّ الْثَوَارُ وَالْخَوَارِجُ مَا كَدَّ أَنْ يَصْنَعُوا الْأَمْرُ حَتَّى بَادَرَ
 الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَ أَمْرُهُ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ اغْتَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ
 فَالْعُصُورُ تَخْلِفُ بِاِخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبَاتِ وَتَخْلِفُ
 بِاِخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَغْصُهُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ يُعَكِّدُهُ وَأَمَّا أَنْ
 يَكُونَ اللَّهُ صَدُّ بِالْعَهْدِ حِفْظَ الْتِرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْدِينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ

مِنَ اللَّهِ يَخْصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَتَسْبِيْغِي أَنْ تُمْحَسِّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمْكَنَ خَوْفًا مِنَ
 الْعَبْثِ بِالْمَنَاصِبِ الْدُّنْيَيَّةِ وَالْمُلْكُ لِلَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو
 الْفَرْوَةُ إِلَى يَيْكَانِ الْحَقِّ فِيهَا * فَلَا لَأُولُو مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفَسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ
 فَإِيَّاكَ أَنْ تَظْنُنَ بِمَعَاوِيَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَامَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْدُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَيَّاعِ الْفَنَاءِ وَيَنْهَا عَنْهُ وَهُوَ أَقْلَمُ مِنْ ذَلِكَ
 وَكَانَ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلَفَةٌ وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الْفَسْقِ أَخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ
 حِينَئِذٍ فِي شَانِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقْضَ يَعْتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ
 الْحَسَنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْزَّبِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ يَلَا
 فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لَأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ
 عِصَابَةُ بْنِي أَمِيَّةَ وَجَهْرُ أَهْلِ الْحَلْلِ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَبِعُ عَصَابَةً مُضَرَّ أَجْمَعَ وَهِيَ
 أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقاومَتُهُمْ فَاقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبِّ ذَلِكَ وَاقْفَامُوا عَلَى
 الْدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَانَ جَهْرُ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُلُّ جَهَدُونَ وَلَا
 يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَحْرِي الْحَقَّ مَعْرُوفَةً وَفَقَنَ اللَّهُ
 لِلْأَفْتَدَاءِ بِهِمْ * وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَانُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدْعِيهِ
 الْشِّيَعَةُ مِنْ وَصْبَتِهِ لِعَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَبْرَاهِيمَ لَمْ يَصُحْ وَلَا نَقْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْنَّقْلِ
 وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاهِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ التَّوْصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ
 مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَلَا يَصُحُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْعُدْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعنَ وَسُئِلَ
 فِي الْعَهْدِ فَقَالَ إِنَّ أَعْزَىهُ فَقَدْ عَهَدَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنَّ أَتْرُكَ فَقَدْ تَرَكَ
 مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْزِزْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلَيِّ الْعَبَاسِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلِّدْخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسَأِلَانِهِ عَنْ
 شَانِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ
 وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلَيَّاً عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِي وَلَا عَهَدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبِهَ الْإِمَامَيْةُ فِي ذَلِكَ
 إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ
 الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَانِهَا
 شَانَ الْصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا أَسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الْصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْهِرُ

كما أشتهر أمر الصلاة وأختجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قوله لهم أزتقواه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدیننا أفلأ نزضاه لدیننا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعتيد بها لم يكن منها كما هو اليوم و شأن العصبية المراءاة في الاجتماع والافتراق في بخاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الأعتبر لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تلقي عليهم فلم يتحقق إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانتقاد والإذعان وما يستفزهم من تتبع المغزيات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعية والملائكة المتردة التي وجوهها منها ودهشوا من تتبعها فكان أمر الخلافة والملك والعتيد والعصبية وسائر هذه الأنواع متدرجًا في ذلك القبيل كما وقع فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المغزيات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحال ذلك الصبغة قليلاً وذهب بخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبرت أمر العصبية وبخاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمقاصد وأصبح الملك والخلافة والعتيد بعها مما من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعتيد الذي صلى الله عليه وسلم غير مهيءة فلم يعتد فيها ثم تراجعت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في أحبابه وألحاده وشأن الردة والفتحات فكانوا ياخذون بالذرائع في الفعل والتزكى كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للإلفة على أحبابه والقيام بالصالح فأعتبرت فيها العصبية التي هي سر أو ازعاج عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والأمر الثالث شأن العروبة الواقعية في الإسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الأختلاف في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمعجته دون إذا اختلفوا فإن قلنا إن الحق في المسائل الأجهادية واحدة من الطرفين ومن لم يصادفه فهو خطئ فإن وجهته لا تتعين بجماع فيبقى السائل على اختيار الإصابة ولا بمعنى الخطئ

منها والتائيم مدفوع عن الكل إجماعاً وإن قلنا إن الكل حق وإن كل مجتهد
 مصيب فآخر ينفي الخطأ والتائم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتائمين أنه
 خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الإسلام
 إنما هو واقعة على مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع يزيد
 وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فاما واقعة على فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان
 مفترقين في الأنصار فلم يشهدوا بيعة على والذين شهدوا فهم من بايع ومنهم من
 توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامه بن زيد
 والمعيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب
 بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت وسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم
 من كبار الصحابة والذين كانوا في الأنصار عدوا عن بيته أيضا إلى الطلب بدم
 عثمان وتركوا الأمر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلني
 هؤادة في الشكوت عن نصر عثمان من قاتله لا في الملالة عليه حاش لله من ذلك
 ولقد كان معاوية إذا صرخ يملأ مائه إنما يوجهها عليه في سكنته فقط ثم اختلفوا
 بعد ذلك فرأى علي أن بيته قد انعقدت ولزمه من تأخر عنها الاجتماع من اجتمع
 عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في
 المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك
 ورأى الآخرون أن بيته لم تتعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالافق ولم
 يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد
 من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم وإن المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون
 أو لا بد من عثمان ثم يجتمعون على إمام وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص
 وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وأبنه محمد وسعد وسعيد
 والنعسان بن بشير وعاوية بن خديج ومن كان على رأيه من الصحابة الذين
 تختلفوا عن بيته على بالمدينة كما ذكرنا إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم
 اتفقوا على انعقاد بيضة على ولو منها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب
 إليه وتغيير الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة

وأَلْزَبَرُ لِأَنْتَقَاهُمَا عَلَى بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيهَا قُلَّ مَعَ دَفْعِ الْأَثَاثِمِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
 كَالشَّانِ فِي الْجُنُحِيَّدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدٍ قَوْلِي أَهْلِ
 الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفَيْنَ
 فَقَالَ وَالَّذِي تَقْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُنَّ أَحَدٌ مِنْ هُوَ لَاءٌ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشَبِّهُ إِلَى
 الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ الْطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقْعُنُ عِنْدَكَ رَبِيبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحٌ فِي
 شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَفْوَاهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتِهِمْ
 مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ
 أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرَتْ بَعْنِ الْإِنْصَافِ عَذَرَتْ النَّاسُ أَجْمَعِينَ فِي شَأنِ
 الْأَخْتِلَافِ فِي عُشَّانَ وَأَخْتِلَافِ الْصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِ وَعْلَمَتْ أَنَّهَا كَانَ فِتْنَةً أَبْثَلَ اللَّهَ
 بِهَا الْأَمَةَ يَسِّمُ الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوُّهُمْ وَمَلَكُوهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارُهُمْ وَتَرَلُوا
 الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ يَا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ
 نَزَلُوا هُذِهِ الْأَمْصَارَ جُنَاحَةً لَمْ يَسْتَكِنُوكُمْ مِنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا
 أَرْتَاضُوا بِمُخْلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنْ الْجَنَاحِيَّةِ مِنْ الْجُنَاحِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْتَّفَاخِرِ وَالْبَعْدِ عَنِ
 سَكِينَةِ الْأَيْمَانِ وَإِذَا يَهُمْ عِنْدَ أَسْتِحْمَالِ الدُّولَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلِكَةِ الْمُهَاجِرِينَ
 وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَنَانَةَ وَتَقِيفَ وَهَذَيلَ وَأَهْلِ الْجِهَازِ وَيَرِبَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ
 إِلَى الْأَيْمَانِ فَآمَنُوكُنُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَصُوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ التَّقْدِيمِ بِأَنْسَابِهِمْ
 وَكَثُرَتْهُمْ وَمَصَادَمَهُ فَارِسٌ وَالْرُّومُ مِثْلُ قَبَائِلِ بَكْرِيَّ بْنِ وَائِلَ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ
 وَقَبَائِلِ كَدَّةَ وَالْأَزْدِ مِنْ الْيَمَنِ وَتَمِيمٌ وَقَبَيْسٌ مِنْ مُضَرَّ فَصَارُوا إِلَى الْفَضْيَّ مِنْ قُرَيْشٍ
 وَقَبَائِلِ كَدَّةَ وَالْأَزْدِ مِنْ الْيَمَنِ وَتَمِيمٌ وَقَبَيْسٌ مِنْ مُضَرَّ فَصَارُوا إِلَى الْفَضْيَّ مِنْ قُرَيْشٍ
 وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ وَالْتَّمَرِيْضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالثَّعَلَلِ فِي ذَلِكَ بِالْتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالْأَسْتِعْدَاءِ
 عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السُّوَيْدَةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوَيْدَةِ وَفَسَّتَ الْمَقَالَةُ
 بِذَلِكَ وَأَنْتَهَتْ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُشَّانَ فَبَعْثَ إِلَى الْأَمْصَارِ
 مِنْ يَكْسِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعْثَ أَبْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلِمَةَ وَأَسَمَّةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ
 يَكْسِفُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَأَدَدُوا ذَلِكَ كَمَا عَلِمْوْهُ فَلَمْ يَنْقُطِعْ
 الْطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الْشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرَسِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقِيْةَ وَهُوَ عَلَى
 الْكُوفَةِ يُشَرِّبُ الْخَمْرَ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُشَّانُ وَعَزَّلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ

من أهل الأضمار يسألون عزلاً العمال وشكوا إلى عائشة وآلي وأذبيه وطلمعة وعزلاً لهم عثمان بعض العمال فلم تقطع بذلك السننهم بل وقد سعيد بن العامي وهو على الكوفة فلما رجع اعرضه بالطريق وردوه معزولاً ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة وتعموا عليه أمتاعه من العزل فأبى إلا أن يكون على جزحة ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متسلك بالاختهار وهم أيضا كذلك ثم تجمع قوم من المغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة وأذبيه وطلحة وغيرهم يحاولون تسريح الأمور ورجوع عثمان إلى رأيه وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا فليلاً ثم رجعوا وقد ليسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامليه إلى عامل مصر لأن يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا حكينا من مروان خانة كاتب خافت مروان فقال ليس في الحكم أكثر من هذا فاعتبروه بدارو ثم يشوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانتفع بباب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يرضعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع وأجتهدوا والله مطاع على أحواتهم وعالم بهم وتحن لا نظن بهم إلا خيراً لما شهدت به أحواتهم ومقالات الصادق فيهم وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعث شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته فاما الأهلية فكانت كما ظن وز يادة وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لأن عصبية مضر كانت في فريش وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية تعرف بذلك لهم فريش وسائر الناس ولا ينكرونها وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من التهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين فاغفلوا أمر عوائهم وذهبوا عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيا ولهم ييق إلا العصبية الطبيعية في الجماعة والدفاع يتتفق بها في إقامة الدين وجهاد المشركين وأئمدين فيها محكم والمادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهمولة تراجع المحكم بعض الشيء للعوايد

فعادت العصبية كـما كانت ولم يـكنـت مـصرـاً أـطـوـعـ لـبـنـيـ أـمـيـةـ منـ سـوـاـهـ
 بما كان لهم من ذلك قبل فقد تـبـينـ لـكـ غـلـطـ الـحـسـنـ إـلـاـهـ فيـ أـمـرـ دـيـنـيـ لـأـ يـضـرـهـ
 الغـلـطـ فـيـهـ وـأـمـاـ الـحـكـمـ الشـرـعيـ فـلـمـ يـغـلـطـ فـيـهـ لـأـهـ مـنـوطـ بـظـنـهـ وـكـانـ ذـئـنـهـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ
 ذـلـكـ وـلـقـدـ عـذـلـهـ أـبـنـ الـعـبـاسـ وـأـبـنـ الـزـبـيرـ وـأـبـنـ عـمـرـ وـأـبـنـ الـخـفـيـةـ أـخـرـهـ وـغـيـرـهـ
 فـيـ مـسـيـرـهـ إـلـىـ الـكـوـفـةـ وـعـلـمـواـ غـلـطـهـ فـيـ ذـلـكـ وـلـمـ يـرـجـعـ عـمـاـ هـوـ يـسـيـلـهـ لـمـاـ أـرـادـهـ
 اللهـ وـأـمـاـ غـيـرـهـ الـحـسـنـ مـنـ الـصـحـابـةـ الـذـيـنـ كـانـواـ بـالـحـجـازـ وـمـعـ يـزـيدـ بـالـشـامـ وـالـعـرـاقـ وـمـنـ
 الـتـائـيـعـنـ لـهـمـ فـرـأـواـ أـنـ الـخـرـوجـ عـلـىـ يـزـيدـ وـإـنـ كـانـ فـاسـقـاـ لـأـ يـجـوزـ لـمـاـ بـنـشـأـ عـنـهـ مـنـ
 الـهـرـجـ وـأـلـدـمـاءـ فـاـقـصـرـواـ عـنـ ذـلـكـ وـلـمـ يـتـابـعـواـ الـحـسـنـ وـلـأـ أـنـكـرـواـ عـلـيـهـ وـلـأـ أـثـمـوهـ
 لـأـنـهـ مـجـتـهدـ وـهـوـ أـسـوـةـ الـمـجـتـهـدـيـنـ وـلـأـ يـذـهـبـ بـكـ الغـلـطـ أـنـ لـقـولـ يـتـأـشـمـ هـوـلـاـ بـعـخـالـفـةـ
 الـحـسـنـ وـقـعـودـهـ عـنـ نـصـرـهـ فـاـنـهـمـ أـكـثـرـ الـصـحـابـةـ وـكـانـواـ مـعـ يـزـيدـ وـلـمـ يـرـوـاـ الـخـرـوجـ
 عـلـيـهـ وـكـانـ الـحـسـنـ يـسـتـشـهـدـ بـهـمـ وـهـوـ يـكـرـبـلـاـ عـلـىـ فـصـلـهـ وـحـقـهـ وـيـقـولـ سـلـوـ جـابرـ بـنـ
 عـبـدـ اللهـ وـأـبـاـ سـعـيـدـ الـخـدـرـيـ وـأـنـسـ بـنـ مـالـكـ وـمـهـلـ بـنـ سـعـيـدـ وـزـيدـ بـنـ أـرـقـ وـأـمـثالـهـمـ
 وـلـمـ يـنـكـرـ عـلـيـهـمـ قـعـودـهـ عـنـ نـصـرـهـ وـلـأـ تـعـرـضـ لـذـلـكـ لـعـلـمـهـ أـنـهـ عـنـ أـجـتـهـادـ وـإـنـ
 كـانـ هـوـ عـلـىـ أـجـتـهـادـ وـيـكـونـ ذـلـكـ كـمـاـ يـعـدـ الـشـافـعـيـ وـالـمـالـكـيـ وـالـخـنـفـيـ عـلـىـ شـرـبـ
 الـبـيـذـ وـأـعـمـ أـنـ الـأـمـرـ لـيـسـ كـذـلـكـ وـقـتـالـهـ لـمـ يـكـنـ عـنـ أـجـتـهـادـ هـوـلـاـ وـإـنـ كـانـ خـلـافـهـ
 عـنـ أـجـتـهـادـهـ وـإـنـمـاـ أـنـقـرـدـ بـقـتـالـهـ يـزـيدـ وـأـصـحـابـهـ وـلـأـ تـقـولـ إـنـ يـزـيدـ وـإـنـ كـانـ فـاسـقـاـ
 وـلـمـ يـجـزـ هـوـلـاـ الـخـرـوجـ عـلـيـهـ فـاـفـاعـهـ عـنـهـمـ صـحـيـحـةـ وـأـعـمـ أـنـهـ إـنـمـاـ يـنـفـذـ مـنـ أـعـمـالـ
 الـفـاسـقـ مـاـ كـانـ مـشـرـوـعـاـ وـقـتـالـ الـبـغـاءـ عـنـهـمـ مـنـ شـرـطـهـ أـنـ يـكـونـ مـعـ الـإـمـامـ الـعـادـلـ
 وـهـوـ مـفـقـودـ فـيـ مـسـلـلتـنـاـ فـلـاـ يـجـوزـ قـتـالـ الـحـسـنـ مـعـ يـزـيدـ وـلـأـ لـيـزـيدـ بـلـ هـيـ مـنـ فـعـلـاتـهـ
 الـمـوـكـدـ لـفـسـقـهـ وـالـحـسـنـ فـيـهـ شـهـيدـ مـشـابـ وـهـوـ عـلـىـ حـقـ وـأـجـتـهـادـ وـالـصـحـابـةـ الـذـيـنـ
 كـانـواـ مـعـ يـزـيدـ عـلـىـ حـقـ أـيـضاـ وـأـجـتـهـادـ وـقـدـ غـلـطـ الـقـافـيـ أـبـوـ بـكـرـ بـنـ الـعـربـيـ الـمـالـكـيـ
 فـيـ هـذـاـ فـقـالـ فـيـ كـيـتـابـهـ الـذـيـ سـمـاهـ بـالـعـوـاصـمـ وـالـقـوـاصـمـ مـاـ مـعـنـاهـ إـنـ الـحـسـنـ قـتـالـ
 بـشـرـعـ جـدـيـ وـهـوـ غـلـطـ حـمـلـتـهـ عـلـيـهـ الـغـفـلـةـ عـنـ أـشـرـاطـ الـإـمـامـ الـعـادـلـ وـمـنـ أـعـدـلـ مـنـ
 الـحـسـنـ فـيـ زـمـانـهـ فـيـ إـمـامـيـهـ وـعـدـالـتـهـ فـيـ قـتـالـ أـهـلـ الـأـرـاءـ وـأـمـاـ أـبـنـ الـزـبـيرـ فـإـنـهـ رـأـيـ
 فـيـ مـنـامـهـ مـاـرـأـهـ الـحـسـنـ وـظـنـ كـمـاـ ظـنـ وـغـلـطـهـ فـيـ أـمـرـ الـشـوـكـةـ أـعـظـمـ لـأـنـ بـنـيـ أـسـدـ

لَا يُقاومُونَ بَنِي أُمَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٌ وَالْقُولُ يَتَعَيَّنُ الْخَطَاءُ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلَيْ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ لَأَنَّ الْإِجْمَاعَ هَذَا كَقْضَى لَنَا يَهُ وَلَمْ نَجِدْهُ هَاهُنَا. وَأَمَّا يَرِيدُ فَعِينَ خَطَأَهُ فِسْقَهُ وَعَبْدُ الْمَكَ صَاحِبُ أَبْنِ الْزَّبَيرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيَكَ بِعَدَالَتِهِ أَخْتِجاجُ مَالِكَ بِفَعْلِهِ وَعَدُولُ أَبْنِ عَبَّاسٍ وَأَبْنِ عُمَرَ إِلَى يَعْتِيهِ عَنْ أَبْنِ الْزَّبَيرِ لَمْ تَنْعَدِ لَأَنَّهُ لَمْ يَعْضُرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَأَخْلَى كِبِيْعَةَ مَرْوَانَ وَأَبْنِ الْزَّبَيرِ عَلَى خَلَافَ ذَلِكَ وَالْحَكْلُ مُجْتَهِدُونَ مُحْمَلُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي جِهَةِ مِنْهُمَا وَالْقُولُ الَّذِي نَزَّلَ يَهُ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَرْنَاهُ يَجْعَلُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفَقْهِ وَقَوَاعِدِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ بِثَابِتٍ بِأَعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحْرِيَّهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَبْغِي أَنْ تَعْمَلَ عَبَّادَهُ أَفْعَالُ الْسَّلَفِ مِنْ الْصَّحَابَةِ وَالنَّابِعِينَ فَهُمْ خَيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلتَّقْدِيرِ فَمَنْ الَّذِي يَغْتَصِّ بِالْعَدَالَةِ وَالَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيَارُ النَّاسِ قَرْنَيْ قَرْنَيْ الَّذِينَ يَلُونُهُمْ مَرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَاتَيْنِ يَفْشُوُ الْكَذِبُ بِفَعْلِ الْخَبِيرَةِ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِالْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّذَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ الْتَّعَرُضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يُشَوَّشَ قَلْبُكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالْتَّسِيسُ لَهُمْ مَذَاهِبَ الْحَقِّ وَطُرُقُهُ مَا أَسْتَطَعْتُ فَهُمْ أَذْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ يَقِنَّةٍ وَمَا قَاتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَأَعْنَدُهُمْ ذَلِكَ أَنَّ أَخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَّةً وَدَلِيلَهُ فَآفَهُمْ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَنَّ كُوَانِيهِ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ الْمَلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخَلَافَةِ نِيَابَةً عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الْتَّوْرِينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصْرِفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الْدِينِ فَيَمْقُتَضِي التَّكَالِيفِ الشَّرِعِيَّةِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِغِهَا وَتَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَيَمْقُتَضِي رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمْرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لَتَلَا بِفَسْدِ إِنْ أَهْمَلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلَكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٌ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَ بِالْأَخْتِكَامِ الشَّرِعِيَّةُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهِذِهِ

المصالح فقد صار الملك يندر بمنصب أخلاقياً ويكون من توابعها وقد يفرد إذا كانت في غير المملكة ولهم على كل حال مراتب خادمة وظائف تابعة تتبع خططاً وتنزاع على رجال الدولة وظائف فيقوم بكل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عاليه عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الأخلاقي وإن كان الملك يندر بمنصب أخلاقي بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الذي يختص بخططاً ومراتب لا تعرف إلا للخلافاء والإسلاميين فلذلك كرآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونزاع إلى الخطط الملوكيه السلطانية فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسنة كلها مندرجة تحت الإمام الكبرى التي في الخلافة فكانها الإمام الكبير والأصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها العموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال المملكة الدينية والدينوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فاما إماماً الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك أستدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه بما سخلاقه في الصلاة على استخلاصه في السياسة في قوله أرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أولاً نرضاه لدينا فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صنع الفياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الفاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مخصصة يقوم بأذنحة ولديس للصلوات العامة فاما المساجد العظيمة فامرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو من وزير أو قاضي فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والحسوفين والاستفاء وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والآنسنان ولهم بفاتات الرعابا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً وأما المساجد المختصة يقوم بأذنحة فامرها راجع إلى الحبران ولا تحتاج إلى نظر الخليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسطة في كتب الأحكام السلطانية للمأوزدي وغيره

فَلَا نُطْوِلُ بِذِكْرِهَا وَأَقْدَمْ كَانَ الْخُلُفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يُقْلِدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَأَنْظُرْ
 مِنْ طُعْنَ مِنَ الْخُلُفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَصَّدُهُمْ لِذَلِكَ فِي أَوْقَانِهَا
 يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا وَكَذَا كَانَ رَجَالُ
 الْأُولَاءِ الْأُمُوَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ أَسْتَشَارَاً بِهَا وَأَسْتَعْظَامًا لِرُتْبَتِهَا بُعْكَيْ عنْ عَبْدِ الْمَلِكِ
 أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِهِ قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةَ يَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ
 بِالثَّالِثِ خَيْرَ وَاللَّاذِنَ بِالصَّلَاةِ دَاعِ إِلَى اللَّهِ وَالْبَرِيدِ فَإِنَّهُ فِي تَاهِيَرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةَ
 فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالْتَّرْفَعِ عَنْ مُسَاوَةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ
 وَدِينِهِمْ أَسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْتِرُونَ بِهَا فِي الْأَخْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ
 كَالْعَيْدَيْنِ وَالْجَمْعَةِ إِشَارَةً وَتَنْوِيَةً فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلُفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبْدِيَّيْنَ
 صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ وَأَمَّا الْفَتِيَّا فِي الْخَلِيفَةِ تَصْفُحُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْتَّدْرِيسُ وَرَدُّ الْفَتِيَّا إِلَى مَنْ
 هُوَ أَهْلُهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مِنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ
 الْمُسْلِمِيْنَ فِي أَدِيَانِهِمْ فَتَجْبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاةُهَا لِشَلَّا يَتَعَرَّضُ لِذَلِكَ مِنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضَلِّ
 النَّاسَ وَلِلْمُدَّرِّسِ الْأَنْتِصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَشِّهِ وَالْجَلوْسُ لِذَلِكَ فِي الْمَمَاجِدِ فَإِنَّ كَانَتْ
 مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعَظَامِ الَّتِي لِلْسُّلْطَانِ الْوَلَابَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَيْمَانِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدُّ مِنْ
 أَسْتَشَانَهُ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِ عَلَى اللَّهِ
 يَبْنِي أَنَّ يَكُونَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتَنِينَ وَالْمُدَرِّسِينَ ذَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ
 الْتَّصَدِيِّ لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضَلِّ بِهِ الْمُسْتَهْدِيِّ وَيُضَلِّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ وَفِي الْآثَرِ
 أَجْرًا كُمْ عَلَى الْفَتِيَّا أَجْرًا كُمْ عَلَى جَرَائِيمِ جَهَنَّمَ فِي هُنْمَانِ فِي هُنْمَانِ فِي هُنْمَانِ
 مَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْ رَدٍّ وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنْ الْوَظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ
 الْخِلَافَةِ لَأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسَنًا لِلتَّدَاعِيِّ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا
 أَنَّهُ بِالْأَخْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِ
 الْخِلَافَةِ وَمُنْدَرِجًا فِي عُمُومِهَا وَكَانَ الْخُلُفَاءُ فِي صَدَرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَهُ يَا تَقْسِيمِهِ وَلَا
 يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَأَوْلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوْضَهُ فِي هُمْ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ فَوَلَى أَبَا الْدَرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَى شُرْبَنًا بِالبَّصَرَةِ وَوَلَى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ
 بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَشْهُورَ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ

وَهِيَ مُسْتَوْفَاهُ فِيهِ يَقُولُ أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيفَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسَنَةٌ مُتَبَعَةٌ فَأَفْهَمْ
إِذَا أَدْلَى إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلِمُهُ بِحِقْقَةٍ لَا تَفَادَهُ وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَنَجْلِسِكَ
وَعَدَلَكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حِجْنَكَ وَلَا يَتَائِسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدَلَكَ الْبَيْنَةُ عَلَى مَنْ
أَدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصَّدْعُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحْلَّ حَرَامًا أَوْ
حَرَمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاهُ قَضَيْتَهُ أَمْسِ فَرَاجَتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ
لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجِعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِيِّ فِي
الْبَاطِلِ الْغَيْرِ مِنْهُمْ فِيمَا يَتَلَبَّلُجُ فِي صَدْرِكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سَنَةٌ ثُمَّ أَغْرِفُ الْأَمْثَالَ
وَالْأَشْبَاهَ وَقِسْنَ الْأَمْوَارِ بِنَظَائِرِهَا وَاجْمَلُ لِمَنْ أَدْعَى حَقًا غَائِبًا أَوْ يَنْهَا أَمْدَانًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ
فَإِنَّ أَخْضَرَ يَنْتَهِي أَخْدَتَ لَهُ بِحِقْقَةٍ وَلَا أَسْتَعْلَلُتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ
وَأَجْلَى لِلْعَيْنِ الْمُسْلِمُونَ عُدُولَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مُجْلِودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجْرَى عَلَيْهِ
شَهَادَةً زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ
بِالْبَيْنَاتِ وَإِيَّاكَ وَالْقُلُقَ وَالضَّجَرَ وَالنَّافِثَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ أَسْتِرْفَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ
الْحَقِّ يُعَظِّمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ وَيُخْسِنُ بِهِ الْذِكْرَ وَالسَّلَامُ إِنْتَهَى كِتَابُ عُمَرٍ وَإِنَّمَا
كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِذِيْرِهِمْ فَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالْسِيَاسَةِ الْعَامَةِ وَكَثِيرٌ
أَشْفَالُهُمْ مِنَ الْجِهَادِ وَالْفُتوحَاتِ وَسَدِّ الشُّفُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُ بِهِ
غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَایَةِ فَأَسْتَحْقَوْا الْقَضَاءَ فِي الْوَاقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَأَسْتَخْلَفُوْهُ فِيهِ مِنْ يَقُولُ
بِهِ تَخْفِيقًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ أَنَّمَا يُقْلِدُونَهُ أَهْلَ عَصَبَتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوَلَاءِ
وَلَا يُقْلِدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَخْحَكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَفِرْوَطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ
فِي كِتَابِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا كِتَابِ الْأَخْحَكَامِ الْسُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ
فِي عَصْرِ الْخُلُفَاءِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْوَالُ أَخْرَى عَلَى
الْتَّدْرِيجِ بِمَحْسَبِ أَشْتَفَالِ الْخُلُفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِالْسِيَاسَةِ الْكُبْرَى وَأَسْتَقْرَرَ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ
آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى اللَّهِ يَعْلَمُ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ أَسْتَيْفَاءً بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَةِ
لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أَموَالِ الْمُحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ
الْسَّفَهِ وَفِي وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ الْأَبَامِ عِنْدَ قَدْ أَذْلِيَّهُ عَلَى رَأْيِهِ مِنْ
رَأْهُ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْطَّرُقَاتِ وَالْأَبْنِيَّةِ وَتَصْفِحِ الشَّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنَّوَابِ وَأَسْتَيْفَاءِ

أَعْلَمُ وَالْخَبْرَةُ فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرْحِ لِيَحْصُلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا
 مِنْ تَعْلِقَاتٍ وَظِيفَتِهِ وَتَوَابِعِهِ وَلَا يَتَّهِي وَقَدْ كَانَ الْخُلُفَاءُ مِنْ قَبْلٍ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيَ النَّظرَ
 فِي الْمُظَالَّمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُعْتَزِّةٌ مِنْ سُطُورِ السُّلْطَانِيَّةِ وَنَصْفَةُ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلوٍّ
 بَدِّ وَعَظِيمٍ رَهْبَةٌ تَقْعُدُ الظَّالِمُ مِنَ الْخَصْمَيْنِ وَتَرْجُرُ الْمُتَعَدِّيَ وَكَانَهُ يُمْضِي مَا عَجَزَ
 الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرَةُ فِي الْبَيْنَاتِ وَالتَّفَرِيرِ وَأَعْتَادَ الْأَمَارَاتِ
 وَالْفَرَائِينِ وَتَأْخِيرُ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِحْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمْلِ الْخَصْمَيْنِ عَلَى الصَّالِحِ وَاسْتِحْلَافِ
 الْشَّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِيِّ ≠ وَكَانَ الْخُلُفَاءُ الْأَوَّلُونَ يُبَاشِرُونَهَا بِأَنفُسِهِمْ
 إِلَى أَيَّامِ الْمُهَنْدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرَبِّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقُضَايَاهُمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيِّ أَبِي أَدْرِيسِ الْخُولَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ الْمَامُونُ يَحْيَى بْنُ أَكْسَمَ
 وَالْمُعْتَصِّمُ لِأَخْمَدَ بْنِ أَبِي دَاؤِدَ وَرَبِّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيِّ قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَكِرِ
 الْطَّوَافِ وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْسَمَ يَغْرُجُ أَيَّامَ الْمَامُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الْرُّومِ
 وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْتَّاوسِيِّ مِنْ بَنِي أُمَيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوْلِيَةُ
 هَذِهِ الْوَظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلُفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفْوَضٍ أَوْ
 سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ
 وَالْأُمُوَّرَةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعِيَدِيَّيْنِ بِمَصْرِ وَالْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الْشُّرُطَةِ وَهِيَ
 وَظِيفَةُ اخْرَى دِينِيَّةٍ كَانَتْ مِنَ الْوَظَائِفِ الْشَّرِعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدُّولَ تَوْسِعُ النَّظَرَ فِيهَا عَنْ
 أَحْكَامِ الْقَضَاءِ فَلَيْلًا فَيَجْعَلُ لِلتَّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ بَجَالًا وَيَفْرِضُ الْعَقُوبَاتِ الْأَجَرَةَ قَبْلَ
 ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَبُقْيِمُ الْحُدُودَ الثَّالِثَةَ فِي مَحَالِهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوْدِ وَالْقِصَاصِ وَيَقِيمُ
 الْتَّعْزِيزَ وَالْتَّادِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْجَرِيَّةِ ثُمَّ تَوْسِيَ شَانِهَاتِينَ الْوَظِيفَتَيْنِ
 فِي الدُّولَيْنِ الَّتِي تَوْسِيَ فِيهَا أَمْرُ الْخَلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمُظَالَّمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَانَ
 لَهُ تَقْوِيَّصٌ مِنْ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الْشُّرُطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا
 وَظِيفَةُ الْتَّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حِيثُ بَشَّعَ
 وَنَصَبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدُّولَ حَاكِمٌ فِيهَا بِمُوجَبِ الْسِيَاسَةِ دُونَ رُجَاعَةِ
 الْأَحْكَامِ الْشَّرِعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِاسْمِ الْشُّرُطَةِ وَيَقِيَ قِسْمُ
 الْتَّعَازِيرِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الْثَالِثَةِ شَرِيكًا فَجَمِيعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِيِّ مَعَ مَا نَقَدَمْ وَصَارَ

ذلك من توابع وظيفة ولائيه وأسفرت الأمر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لأن الأمر إنما كان خلافة دينية وهذه الخلطة من مسام الدین فكانوا لا يُلوّن فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب وماليهم بالخلاف أو بالرق أو بالأصنفاع معن يوثق بكتابته أو غناه فيها بدفع إليه ولما انفرض شأن الخلافة وظهورها وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً صارت هذه الخلطة الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من القاب الملوك ولا مسامهم ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسوام من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخلطة الخلافية بعداً عنهم بمعناها وعصبيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم وأن الذي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه مختلفون بين الأمم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك إنما يُلوّنها جانبها من التعظيم لما دأبوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصبيتهم معن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالبة وكان أولئك المتأهلون بما أخذهم ترف الدول منذ مئتين من السنين قد نسوا عهده الديادة وخشونتها والتبسوا بالخضار في عوائده ترفيهم ودعائهم وفلاة المماعنة عن تقسيم وصارت هذه الخلطة في الدول الملوكيه من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار وتزول أهلها عن مراتب العزة لنقد الأهلية بآنساتهم وما هم عليه ويت الخضار لتعقيهم من الاختفار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعدة عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل فيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة لاما أنهم الحاملون للأحكام المقيدة بها ولم يكن إشارتهم في الدولة حينئذ إكراماً لذواتهم وإنما هو لما يتبع من التجمل بمكانتهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من العمل والعقد شيء وإن حضروه فحضوره رسمي لا حقيقة وراءه إذ حقيقة العمل والعقد إنما هي لأمل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم وتنافي الفتوى منهم فتم والله ألم وفق وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وأن فعل الملك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاء من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن

ذلكَ لِنَسْ كَمَا ظَاهِرٌ وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا أَقْتَضَيهِ طَبِيعَةُ الْعِزْمَانِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ الْعِزْمَانِ فِي هُوَلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَأَنَّ الشَّوَّرَى وَالْحُلُولَ وَالْعَدْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصَبَيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلِّ أَوْ عَقْدِ أَوْ فِعْلِ أَذْتَرْكَى وَأَمَّا مَنْ لَا عَصَبَيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلُكُ مِنْ أَمْرٍ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ حِيَاةِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٌ لَهُ فِي الشَّوَّرَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُونَ إِلَى أَعْتِبَارِهِ فِيهَا أَللَّاهُمَّ إِلَّا شَوَّرَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَخْكَامِ الشَّرِعِيَّةِ فَمَوْجُودَةُ فِي الْأَسْتِفْنَاءِ خَاصَّةً وَأَمَّا شَوَّرَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِغَدَانِهِ الْعَصَبَيَّةُ وَالْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ أَخْوَالِهَا وَأَخْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِحَمِيلِ الْأَعْتِقَادِ فِي الَّذِينَ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ أَنْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَا فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَقَهَاءِ فِي الْأَغْلَبِ لِهُذَا الْعَهْدِ وَمَا أَخْفَى بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمُعَامَلَاتِ يَنْصُونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هَذِهِ غَايَةُ أَكَبَرِهِمْ وَلَا يَتَصَدَّونَ إِلَّا بِالْأَقْلَى مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَخْوَالِ وَالسَّلْفِ رُضُوانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاهْلُ الَّذِينَ وَالْوَرَاعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَتِصَافًا بِهَا وَتَحْقِيقًا يَمْذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا أَتِصَافًا وَتَحْقِيقًا دُونَ تَقْلِيلٍ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثَيْنَ مِثْلِ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقُشَّيْرِيِّ وَمَنْ أَجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالَمُ وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فَقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلْفِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَزْبَعَةِ وَمَنْ أَفْتَنَ طَرَيْقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثْرِهِمْ وَإِذَا أَنْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْمَةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بِصِفَةِ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ شَيْئًا إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَفْوَالٍ يَنْصُبُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَاتِ الْعَمَلِ وَهُوَلَاءِ أَكْثَرُ فَقَهَاءِ عَصْرِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَفَلِيلٌ مَا هُمْ

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْفَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِهِ تَصْرِيفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ الْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ الْقَاضِيِّ بِالْشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمِلًا عَنْهُمُ الْإِشْهَادُ وَأَدَاءُهُ عِنْدَ الْتَّنَازُعِ وَكَتْبَاهُ فِي السِّجْلَاتِ تَحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَاكُهُمْ وَدِيُونُهُمْ وَسَائِرُ مُعَامَلَاتِهِمْ وَشَرْطُ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ الْأَيْتِصَافُ بِالْمُعْدَالَةِ الشَّرِيعَةِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْتَّجْزِيجِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكَتْبِ السِّجْلَاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَأَنْظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ

جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها يحتاج حينئذ إلى ما يتبعه بذلك من الفقه ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران^(١) على ذلك والمدارسة له أخْرُجَ ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مخصوصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح آخر اليم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهم ذلك لما يتبعه عليه من حفظ حقوق الناس فالمعنة عليه في ذلك كلها وهو ضامن دركه وإذا تعين هو إلا لهذه الوظيفة عممت الفائدة في تعين من تخفي عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار وأشتباؤ الآحوال وأضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبنات الموثقة فيعونون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف وأ لهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتناهون أصحاب المعاملات للأشهاد وتقيده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرudge وقد يتواتر دان وبفتر قان والله تعالى أعلم

الحساب والسلكة

إذا أخذت الحسبة وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً لـه فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأذون على ذلك ويبحث عن المذكرات ويعزز ويدرب على قدرها ويتحمل الناس على المصالحة العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرق ومنع الحماليين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهذه وإزالة ما يتوقع من ضررها على السايلة والضرب على أبدى المتعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضررهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استدراك بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويزفع إليه وليس له إضفاء الحكم في الدعوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتزوير في المعاش وغيرها في المكاتب والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنفاق وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع يسأله ولا إنفاذ حكمه وكأنها أحكام

(١) المران يكرر الميم القمر واعتبار على الشيء

يَنْزَهُ الْقَاضِيُّ عَنْهَا لِعُمُورِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرِاهُهَا فَتَدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوَضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةَ لِلنَّصْبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الدُّولِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلِ الْعُبَيْدِيَّةِ بِهِ مَصْرَرًا وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمْوَيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُورِ وَلَايَةِ الْقَاضِيِّ يُوَلِّ فِيهَا يَا خَتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا أَنْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ الْسُّلْطَانِ عَنْ أَخْلَافِهِ وَصَارَ نَفَرَةُ عَامًا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ أَنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأَفْرَدَتْ بِالْوِلَايَةِ

وَأَمَّا السِّكَّةُ فَهِيَ النَّفَرُ فِي النَّقُودِ الْمُتَعَامِلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا يُدَأْخِلُهَا مِنَ النَّفَشِ أَوِ النَّفَصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامِلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَاقِبُ بِذَلِكَ وَيُوَصَّلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْنَابَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ الْأَمَمِ الْسُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ النَّقُودِ بِالْأَسْبَاجَةِ وَالْخُلُوصِ بِرَمْمَنِ ذَلِكَ الْعَلَمَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ أَتَخْذِذُ لِذَلِكَ وَنَقْشَ فِيهِ نَقْوشُ خَاصَّةٍ يَهُ فِي وَضْعِ عَلَى الْمَرْبِينَارِ بَعْدَ أَنْ يَقْدَرَ وَيُضَرِّبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْمَمَ فِيهِ ذَلِكَ النَّقْوشُ وَتَكُونُ عَلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسْبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عَنْهَا السِّكَّةُ وَالْتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ الْقُطْرِ وَمَذَاهِبِ الْأَدْوَلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السِّكَّةَ وَالْتَّخْلِيصَ فِي النَّقُودِ لَا يَقِفُ عَنْهُ غَايَةً وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتَهُ إِلَى الْأَجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أُفْقٍ أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةِ مِنَ الْتَّخْلِيصِ وَقَفُوا عَنْهَا وَسَمَّوهَا إِمَاماً وَعِبَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نَقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثِلَتِهِ فَإِنْ تَقَصَّ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَبَناً وَالنَّفَرُ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الْأَعْتَابِ فَتَنَدَّرَ بِهِ شَحَّتْ أَخْلَافُهُ وَقَدْ كَانَتْ تَنَدَّرَجُ فِي عُمُورِ وَلَايَةِ الْقَاضِيِّ ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَا أَعْهَدَ كَمَا وَقَعَ فِي الْجَبَشَةِ هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوَظَائِفِ الْأَخْلَافِيَّةِ وَبَقَيَّتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَآخِرِيٍّ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوَظِيفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحُرْبِ وَالْخُرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَكَامِلُ عَلَيْهَا فِي أَمَّا كَنِّيَّهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ الْجِهَادِ وَوَظِيفَةِ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِيُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِّنَ الدُّولِ يُمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ عَالِيَّاً فِي السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى أَخْلَافُهُ أَوِ الْحُقُوقِ فِي بَيْتِ الْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ أَخْلَافِهِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ أَنْدَرَجَتْ رُسُومُ أَخْلَافِهِ وَوَظَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمَلِكِ وَالْسِّيَاسَةِ فِي سَائرِ الدُّولِ لِهَا الْعَهْدُ وَاللَّهُ مُصْرِفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بامداد المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محمدث منذ عهد الخلفاء وذلك انه لاما بُويع أباً وبذكر رضي الله عنه و كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك فلما بُويع لعمر بعده كأنوا يدعونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم و كانوا ما شقلا هذا اللقب بذكره و طول إضافته وأنه يتزايد فيها بعد دائما إلى أن ينتهي إلى العجنة و يذهب منه التمييز بعدد الإضافات و كثرتها فلا يعرف ف كانوا يغدوون عن هذا اللقب إلى ما مساواه مما يناسبه و يدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعث باسم أمير وهو فعيل من الإمارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وفاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفقا أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين فاستحسن الناس واستصوبوه ودعوه به يقال إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمر بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيل برؤس جاء بالفتح من بعض البعث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير المؤمنين وسمعها أصحابه فأستحسنوه وقالوا أصبنت والله أنت وإنما وآلة أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقبا له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعديه سمه لا يشار لهم فيما أحد سواهم إلا سائر دوله بني أمية ثم إن الشيعة خصوا عليا باسم الإمام تعلمه بالإمامه التي هي اخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في أنه أحق بـإمامه الصلة من أبي بكر لما هو مذهبهم ويدعونه بخصوصه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده ف كانوا كلهم يسمون بالإمام ما دأموا يدعون لهم في الخلفاء حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيما بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فلأنهم مازالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاع له وعقدوا الرأيات للغرب على أمره فلما هلك دعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين وكذلك الراية يا فرقيا فإنهم مازالوا يدعون أئمتهم من ولد إماماً قبل بالإمام حتى

أَتَسْعَى الْأَمْرُ إِلَى عَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلَأْبْنِهِ أَبِي القَاسِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا آتَوْتُهُمُ الْأَمْرَ دُعُوا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَّا الْأَدَارَةَ
 بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يُلْقِيُونَ أَدْرِيسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَهُ أَدْرِيسَ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَكَذَّا شَانَهُ
 وَتَوَارَثَ الْخُلُفَاءُ هَذَا اللَّقْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سَمَةً لِمَنْ يَمْلُكُ الْحِجازَ وَالشَّامَ
 وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَّاكِزُ الدُّولَةِ وَأَهْلُ الْمِلَةِ وَالْفَتْحِ وَأَزْدَادَ
 لِذَلِكَ فِي عَنْفُوانِ الدُّولَةِ وَبَذْخِرَا لَقْبَ أَخْرٍ لِلْخُلُفَاءِ يَتَمْيِيزُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَشْتِراكِ بَيْنَهُمْ فَأَسْتَحْدَثُ لِذَلِكَ بَنُو الْعَبَّاسِ حِجَابًا لِأَمْنِهِمْ
 الْأَعْلَامِ عَنِ امْتِهَانِهِمَا فِي الْسِنَةِ السُّوقَةِ وَصَوْنَاهُمَا عَنِ الْأَبْتِدَالِ فَتَلَقَّبُوا بِالسَّنَاحِ وَالْمَنْصُورِ
 وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِيِّ وَالرَّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدُّولَةِ وَاقْتَنَى أَثْرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْعَيْدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةِ
 قَمِصَرَ وَتَجَافَ بَنُو أُمِّيَّةِ عَنِ ذَلِكَ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ الْفَضَاضَةِ وَالسَّدَاجَةِ لِأَنَّ
 الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تُفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحِضَارَةِ
 وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسْلَفَهُمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنِ ذَلِكَ بِالْقُصُورِ
 عَنِ مُلْكِ الْحِجازِ أَمْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الْعَصَبَيَّةِ
 وَأَنْهُمْ إِنَّمَا مَتَّعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاسِمَيْةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَمْدَى
 أَبْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوْلِ الْمِائَةِ الْرَّابِعَةِ وَأَشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةُ بِالْمَشْرِقِ
 مِنَ الْعَجَبِ وَأَسْتَبَدَ الدُّوَالِيُّ وَعِيشُهُمْ فِي الْخُلُفَاءِ بِالْعَزْلِ وَالْأَسْبَدَالِ وَالْقُتْلِ وَالسُّلْطَنِ
 ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنُ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلُفَاءِ بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَتَسْعَ
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ وَأَخْدَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةً وَمَذَهَبَ لِقَنْ عَنْهُ
 وَلَمْ يَكُنْ لِآكِلِهِ وَسَلَفُ قَوْمِهِ وَأَسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَنْقَرَضَتْ عَصَبَيَّةُ
 الْعَرَبِ أَجْمَعَ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَلَقَّبَ الدُّوَالِيُّ مِنْ الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصَّنَاعَةِ
 عَلَى الْعَيْدِيَّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاعَةَ عَلَى أُمَّرَاءِ أَفْرِيقِيَّةِ وَزَنَاتَةَ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكَ
 الْطَّوَافِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمِّيَّةِ وَأَقْسَمُوهُ وَأَفْرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَأَخْتَلَفَتْ
 مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْأَخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَوَّلُهُمْ جَمِيعًا
 بِاسْمِ السُّلْطَانِ . فَمَا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلُفَاءُ يَخْصُونَهُمْ بِالْأَلْقَابِ

شِرِيفَيْهِ حَتَّى يُسْتَشَرَّ مِنْهَا أَنْقِادُهُمْ وَطَاعُتْهُمْ وَحْسُنْ وَلَا يَتَّهِمُ مِثْلَ شَرْفِ الدُّوَلَةِ وَعَضْدِ الدُّوَلَةِ وَرُكْنِ الدُّوَلَةِ وَمُعِزِّ الدُّوَلَةِ وَاصْبِرِ الدُّوَلَةِ وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَبَهَاءِ الدُّوَلَةِ وَذَخِيرَةِ الْمُلْكِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبْدِيُّونَ أَيْضًا يَخْصُونَ بِهَا أَمْرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا أَسْتَدَدُوا عَلَى الْخِلَافَةِ قَنَعُوا بِهِيَهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَاهَوْا عَنِ الْأَلْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْبَارًا مَعَهَا وَعُدُولًا عَنِ سَيَّاهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنَ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَدِيدِ بِهَا كَمَا قَلَّنَاهُ وَنَزَعَ الْمُتَّا خِرُونَ أَعْاجِمُ الْمَشْرِقِ خِينَ قَوَى أَسْتَدَادُهُمْ عَلَى الْمُلْكِ وَعَلَى كُبُّهُمْ فِي الدُّوَلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَّا شَتَّ عَصِيَّةَ الْخِلَافَةِ وَأَضْمَعَتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْإِنْتَهَى الْخَاصَّةِ بِالْمُلْكِ مِثْلَ الْأَنْصَارِ وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةَ عَلَى الْأَلْقَابِ يَخْصُونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتَهَى مُشْعِرَةً بِالْغُرُوحِ عَنِ رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالْأَصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطْ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ الدِّينِ أَسْدُ الدِّينِ نُورُ الدِّينِ وَأَمَّا مُلُوكُ الْطَّوَافِيفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْأَلْقَابَ الْخِلَافَةِ وَتَوزَّعُهَا لِقُوَّةِ أَسْتَدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبِيلِهَا وَعَصَيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا بِالْأَنْصَارِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَدِلِ وَالْمُظْفَرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ أَبْنُ أَبِي شَرْفٍ يَنْعِي عَلَيْهِمْ

مَا يَرَهُدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْهَمَ مُعْتَدِلٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
الْأَلْقَابُ مُكْلِكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَاهْرٌ يَحْكِي أَنْتَفَاخًا صُورَةَ الْأَسْدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَ الْخَلَفَاءُ الْعَبْدِيُّونَ يُلْقِبُونَ بِهَا لِتَنْوِيهِهِ مِثْلَ نَصِيرِ الدُّوَلَةِ وَمُعِزِّ الدُّوَلَةِ وَأَنْصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبْدِيَّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَاسِيَّينَ ثُمَّ بَعْدَ أَشْقَةِ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسْوَاعِهَا قَنَسُوا هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَاقْتَصَرُوا عَلَى أَسْمَ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مِغْرِبِيَّةِ الْمَغْرِبِ لَمْ يَشْحُلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ إِلَّا أَسْمَ السُّلْطَانِ جَرِيَا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِداوةِ وَالْغَضَاضَةِ وَلَمَّا مُحِيَّ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ يُوسُفُ بْنُ نَاشِفِينَ مَلِكُ لِمِتُونَةِ فَمَلَكَ الْعُدُوَّاتِيَّ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَيْرِ وَالْأَقْتِدَاءِ تَرَعَتْ بِهِ هِمَةُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاءَ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلًا لِعَرَامِمِ دِينِهِ تَفَاظِبَ الْمُسْتَظْهِرِ الْعَبَاسِيِّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ يَعْتَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْعَرَبِيِّ وَأَبْنَهُ الْقَاضِيِّ أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيقَةِ اِشْبِيلِيَّةِ يَطْلُبُانِ تَوْلِيَتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيَّهُ ذَلِكَ فَأَنْقَلَبُوا إِلَيْهِ بِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَأَسْتَشْعَارِ زَيَّهُمْ فِي لُبُوسِهِ وَرُشْبَتِهِ وَخَاطِبَهُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَأَخْتِصَاصًا فَأَتَخْذَهَا لَقَبًا وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ دُعِيَ لَهُ يَا مِيرِ

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدْبَأَ مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَايَطُونَ مِنْ اِنْتِحَالِ
الَّذِينَ وَاتَّبَاعُوا سُنَّةَ وَجَاهَةَ الْمَهْدِيِّ عَلَى أَثْرِهِمْ دَاعِيَّا إِلَى الْحَقِّ أَخْدَى بِمَذَاهِبِ
الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًّا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ الْسَّلَفِ فِي تَرْكِ الْتَّأْوِيلِ
لِظَّوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يَوْلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ اِتِّبَاعِ الْجَسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذَهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ
وَسَمِّيَ أَتِبَاعَهُ الْمُوْحَدِينَ تَعْرِيضاً بِذَلِكَ النَّكِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي
الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا يَبْدِي مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُعْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظامٌ هَذَا الْعَالَمُ فَسَيَّ
بِالْإِمَامِ لِمَا فُلِنَاهُ أَوْلَأَ مِنْ مَذَهَبِ الشِّعْيَةِ فِي الْقَابِ خُلُقَائِهِمْ وَأَرْدَفَ بِالْمَعْصُومِ
إِشَارَةً إِلَى مَذَهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْهُ اِتِّبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخْدَى
بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَشْيَعِهِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوَلَدَانِ مِنْ أَعْقَابِ
أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ اِنْتَهَى عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيَعْهُدُ اللَّهُبَ يَا مِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلُقَاهُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَآلِ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ أَسْتِشَارَاً بِهِ
عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شِيَخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلَيَاوَهُ مِنْ
بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لِاتِّفَاءِ عَصَبَيَّةِ فَرِيشَ وَتَلَادِيَّهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ وَلَمَّا
أَنْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ وَأَنْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ذَهَبَ أَوْلَهُمْ مَذَاهِبَ الْبَداوةِ وَالسَّذَاجَةِ وَأَتَبَاعَ
لِمُتَوَّنَّةِ فِي اِنْتِحَالِ اللَّهُبِ يَا مِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدَبَأَ مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا
لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوْلَأَ وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ تَرَعَ الْمُتَاخِرُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهُبِ
يَا مِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَهَاوُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَتَسْبِيمًا لِمَذَاهِبِهِ
وَسِيَّاهَتِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكومن عند اليهود

إِعْلَمُ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا يَبْدِي لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْتَمِلُهُمْ عَلَى أَخْسَاكِهِمْ وَشَرَائِعِهِمْ
وَيَكُونُ كَلْخَلِيقَةٌ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيهَا جَاءَ بِهِ مِنَ النَّكَالِيفِ وَالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَيْضًا بِمَا
تَقْدَمَ مِنْ ضَرُورَةِ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ لِلْأَجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا يَبْدِي لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْتَمِلُهُمْ عَلَى
مَصَالِحِهِمْ وَيَرْعَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمُلْكِ وَالْمَلَهُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا
كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُومُ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ الْكَافَةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ

كُنُوكَهَا أَتَعْذِذَتْ فِيهَا أَخْلَاقَهُ وَالْمُلْكُ لَتَوَجَّهُ الشَّوَّكَهُ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا يَتَهَمَّمُهُ وَأَمَّا
 مَا سِوَى الْمِلَّةِ إِلَّا إِسْلَامِيَّهُ فَلَمْ تَكُنْ دَعَوْتُهُمْ عَامَهُ وَلَا أَجْهَادُهُمْ مَشْرُوعًا إِلَّا
 فِي الْمُدَافَعَهُ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَهُ الْمُلْكِ وَإِنَّمَا
 وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلَا مُرِّغَهُ غَيْرَ دِينِيٍّ وَهُوَ مَا أَفْتَضَهُ لَهُمُ الْعَصِيَّهُ لَهُمْ
 فِيهَا مِنَ الْطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالْطَّبَعِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالْتَّغلِيبِ عَلَى الْأَمَمِ
 كَمَا فِي الْمِلَّةِ إِلَّا إِسْلَامِيَّهُ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَهُ دِينِهِمْ فِي خَاصِّهِمْ وَلَذِلِكَ يَقِيَّ
 بِتُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا تَحْمَوْهُ أَزْبَعَمَاهَهُ سَنَهُ لَا يَعْتَنُونَ
 بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُمْ إِقَامَهُ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ يَنْهِمْ يُسْمِي
 الْكُوَهُنَّ كَانُهُ خَلِيفَهُ مُوسَى صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُقْيمُ لَهُمْ أَمْرَ الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَشَرِّ طُونَ
 فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرَيْهُ هَارُونَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا تَ مُوسَى لَمْ يَعْقِبْهُمْ أَخْتَارُوا
 لِإِقَامَهُ الْسِيَاسَهُ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالْطَّبَعِ سَبْعينَ شَيْئًا كَانُوا يَتَلَوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَهُ
 وَالْكُوَهُنُّ أَعْظَمُهُمْ رُتبَهُ فِي الْدِينِ وَبَعْدَهُ عَنْ شَغَبِ الْأَحْكَامِ وَأَتَصَلَّ ذَلِكَ فِيهِمْ
 إِلَى أَنْ أَسْتَحْكَمَتْ طَبَيْعَهُ الْعَصِيَّهُ وَتَمَحَضَتْ الشَّوَّكَهُ لِلْمُلْكِ فَغَلَبُوا الْكُنَاعَانِينَ عَلَى
 الْأَرْضِ الَّتِي أَوْرَهُمُ اللَّهُ يَسَّرَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاءَهَا كَمَا يَبَيَّنَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى
 صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ خَارَجَتْهُمُ أُمُّ الْفَلَسْطِينِ وَالْكُنَاعَانِينَ وَالْأَرْمَنَ وَأَزْدُونَ وَعَمَانَ
 قَعَارِبَ وَرَئَاستِهِمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَهُ إِلَى شَيْوِخِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ تَحْمَوْهُ مِنْ أَزْبَعَمَاهَهُ
 سَنَهُ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَهُ الْمُلْكِ وَضَبْحَرَ بُنُو طَالُوتَ وَغَلَبَ الْأَمَمُ وَقُتِلَ جَالُوتُ مَلِكُ
 الْفَلَسْطِينِ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاؤِدُهُ سَلِيمَانُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَأَسْتَفْحَلَ مُلْكَهُ وَأَمْدَدَ
 إِلَى الْجِهَازِ ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الْرُّومِ ثُمَّ أَفْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ
 سَلِيمَانَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَيِ الْعَصِيَّهُ فِي الْدُولِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتِيْنِ كَانَتْ
 إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَهُ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَهُ وَالْأُخْرَى بِالْقَدِسِ وَالشَّامِ لِبَنِي هَرُودَا
 وَبَنِيَامِينَ ثُمَّ غَلَبُوهُمْ بَعْثَ نَصْرُ مَلِكٍ بِأَيْلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ الْمُلْكِ أَوْلَى الْأَسْبَاطِ
 الْعَشْرَهُ ثُمَّ ثَانِيَهَا بَنِي هَرُودَا وَيَسَّرَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اِتَّصَالِ مُلْكِهِمْ تَحْمَوْهُ أَلْفَ سَنَهُ وَخَرَبَ
 مَسْجِدَهُمْ وَأَخْرَقَ تَوْرَاتِهِمْ وَأَمَاتَ دِينِهِمْ وَنَقْلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ
 رَدُّهُمْ بَعْضُ مُلْوِكِ الْكِيَانِيَّهُ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى يَسَّرَ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعينَ سَنَهُ مِنْ

خروجهم فبنوا المسجد وقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك
 للفرس ثم غابت الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملوكهم ثم
 فشل أمر اليونانيين فاعتزل اليهود عليهم يا العصبية الطبيعية ودفعهم عن الآسياء
 عليهم وقام بملوكهم الكهنة الذين كانوا فيهم منبني حشمناي وقاتلوا يونان حتى
 انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها
 بنو هيرودس أخباربني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصرتهم مدة ثم اقتحموا عنوة
 وأخذوا في القتل والهدم والتخريب وخرموا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى روما وما
 وراءها وهو آخراب الثاني للمسجد وبسميه اليهود بالجلود الكثبي فلم يقم لهم
 بعدها ملك لقدان العصبية منهم وبقاء بعد ذلك في مملكة الروم من بعدهم يقيم
 لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسيحي بالكون ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه
 عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ بعض أحكام التوراة وظهرت على يديه أخواترق
 العجيبة من إبراء الأكماء والأبرص وإحياء الموتى وأجتماع عليه كثيرون من الناس
 وأموابه وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا أثني عشر وبعث منهم رسولًا إلى
 الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس
 ملك اليهود الذي انتزع الملك منبني حشمناي أخباره فحصد اليهود وكذبوا
 وكانت هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغري به فاذن لهم في قتيله
 ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافتراق الحواريون شيئاً ودخل أكثرهم بلاد الروم
 داعين إلى دين النصرانية وكان يطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم
 كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخة أربع على اختلاف
 رواياتهم فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي
 منهم إلى اللسان الآتيني وكتب لوقا منهم إنجيله بالآتيني إلى بعض أكبر الروم
 وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب يطرس إنجيله بالآتيني ونسبة
 إلى مرفاق تلميذه وانختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها
 وحينا صرفاً بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ
 وقصص وأحكام فيها قليلة جداً وأجتمع الحواريون الرسل بذلك العهد برومة

وَضَعُوا قَوَانِينَ الْمُلْهَةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَصَبَرُوهَا يَدِ أَفْلِيمَنْطُسَ تِلْمِيدِ بَطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا
 عَدَدَ السَّكَتِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا فِينَ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ النُّورَةَ وَهِيَ خَمْسَةُ
 أَسْنَارٍ وَكِتَابٌ يُوشَعَ وَكِتَابٌ الْقُضَايَا وَكِتَابٌ رَاعُوتَ وَكِتَابٌ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ
 أَزْبَعَةُ وَسَنَرُ بِنِيَامِينَ وَكِتَابُ الْمَقَابِيَّنَ لَأَنَّ كِرْبَلَةَ ثَلَاثَةُ وَكِتَابٌ عَزْرَا الْإِمَامِ
 وَكِتَابٌ أَوْشِيرَ وَفِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابٌ أَبُوبَ الصِّدْرِيقِ وَزَامِيرُ دَاؤُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكِتَابٌ
 أَبْنَةَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةُ وَنِبْوَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكَبَارُ وَالصَّغَارِ ستَةُ عَشَرَ وَكِتَابٌ
 يَشْعَعَ بْنُ شَارِخَ وَزِيرِ سَاعِيَمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَلَاقَةُ مِنْ
 الْحَوَارِيَّينَ نَسْخَةُ الْإِنْجِيلِ الْأَزْبَعَ وَكِتَابُ الْقِتَالِيَّقُونَ سَبْعُ دَسَائِلَ وَثَانِيَّنَا الْأَبْرِيَكْسِيسُ
 فِي قِصَصِ الرَّسُولِ وَكِتَابٌ بُولُسَ أَزْبَعَ عَشَرَةُ رِسَالَةٍ وَكِتَابٌ أَفْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ
 وَكِتَابٌ أَبُو غَالِمِيسَ وَفِيهِ رُؤْبَا بُو حَنَّا بْنُ زَبَدِي وَأَخْتَلَفَ شَانُ الْقِبَاصِرَةُ فِي الْأَخْذِ
 بِهِذِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرَكَهَا أُخْرَى وَالنَّسَاطُ عَلَيْهِمْ بِالْقُتْلِ وَالْبَغْيِ إِلَى
 أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخْذَ بِهَا وَأَسْتَمَرُوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الْتَّرِينَ وَالْمُقِيمُ
 لِمَرَاسِيمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرَكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمُلْهَةِ عِنْدُهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ
 نُوَافَّةً وَخَلْفَاكَاهُ إِلَى مَا بَعْدِهِ مِنْ أَنْمَاءِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأَسْقُفَ أَيْ نَائِبَ الْبَطْرَكِ
 وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يُقِيمُ الصَّوَاتِ وَبُقْتِهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقِسِيسِ وَيُسَمُّونَ الْمُنْقَطِعَ
 الَّذِي جَاءَ نَفْسَهُ فِي الْخُلُوَّةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خَلْوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ
 بَطْرُسُ الرَّسُولُ رَأْسُ الْحَوَارِيَّينَ وَكَبِيرُ الْتَّلَامِيزِ بِرُومَةِ يُقِيمُ بِهَا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى
 أَنْ قُتِلَهُ نِيُونُ خَامِسُ الْقِبَاصِرَةِ فِيمَنْ قُتِلَ مِنْ الْبَطَارِقِ وَالْأَسَاقِفَةِ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي
 كُرُنْيَيِّ رُومَةِ آرِيُوسَ وَكَانَ مَرْقَاسُ الْإِنْجِيلِيُّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ دَاعِيَا
 سَبْعَ سِنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَعَ بِالْبَطْرَكِ وَهُوَ أَوَّلُ الْبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ
 أَثْنَيْ عَشَرَ قِسًا عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرَكُ يَكُونُ وَاحِدًا مِنَ الْأَثْنَيْ عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَغْتَارُ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ إِلَى الْقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا
 وَقَعَ الْأَخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قِوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَاجْتَمَعُوا بِنِيَّيَّةِ أَيَّامِ قُسْطَنْطِينَ
 لِتَحْرِيرِ الْحَقِّ فِي الْدِينِ وَاتَّفَقُوا ثَلَاثَةِ وَثَمَانِيَّةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيِ وَاحِدِهِ فِي
 الْدِينِ فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ الْإِمَامَ وَصَبَرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيمَا كَتَبُوهُ أَنَّ

البطريرك القائم بالذين لا يرجع في تعينه إلى اختيار الأقسي كاما فرجه حنانيا تلميذ مرقاس وأبغضوا ذلك رأي وإنما يقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبني الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبني الأمر فيها على ذلك وانصل فيما زباب الأسفاف عن البطاركة وكان الأسفاف يدعون البطريرك بالآباء أبناء تعظيمًا له فأشتبه الأسم في أعياد مطابولة يقال آخرها بطريركية هرقل باسكندرية فارادوا أن يميزوا البطريرك عن الآلقن في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الأسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسني الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمه عليه حتى الان ثم اختلف النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقوا واستظروا بملك النصرانية كل على صاحبه فاختلت الحال في العصور في ظهور فرق دون فرق إلى أن استقرت لهم ثلاثة طوائف هي فرقهم ولا يلتقيون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختصت كل فرق منهم ببطريرك روما اليوم المسمى بالبابا على رأي الملوكية ورومة لافرنجية وملكيتهم فام بذلك الناحية وبطريرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرازيم والجبلة يديرون بدينهن وببطريرك مصر فيهم أسفاف ينوبون عنه في إقامته دينهم هناك واحتضن اسم البابا ببطريرك روما لهذا العهد ولا تسمى العاقبة بطريركهم بهذا الأسم وضبط هذه اللفظة بباباين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذهب البابا عند الإفرنجية أنه يحفهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم وأجتمعهم تحرجاً من افتراق الكلمة ويشعرى به المصلحة التي لا فرقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الإمبرذور^(١) وحرفة الوسطيين النازل والظاء المعمّعين وبمباشرة يضع الناج على رأسه لبشرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الإمبرذور وهذا

(١) المشهور قدماً إمبراطور بالطه المحلة والفرنسي يقول إمبروز ومعناها عدم ملك الملك

مُنْخَصٌ مَا أَوْرَدَنَاهُ مِنْ شَرْحٍ هَذِينِ الْأَسْمَيْنِ الَّذِينِ هُمَا الْبَابَا وَالْكُوْهِنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقبابها

اعلم أنَّ السُّلْطَانَ فِي تَقْسِيمِ ضَعْفٍ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَسْتِعَانَةِ بِإِبْنَاءِ
جِنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةٍ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِيهِ^(١) فَمَا ظَنَّكَ سِيَاسَةً نَوْعَهُ
وَمَنْ أَسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حَمَامَةِ الْكَافَةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِالْمُدَافَعَةِ
عَنْهُمْ وَإِلَى كَفَتِ عَدُوِّهِنَّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي اِنْقُسْمَمْ بِإِمْضَاءِ الْأَخْكَامِ الْوَازِعَةِ
فِيهِمْ وَكَفَتِ الْعُدُوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَالِتَهُمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ بِهِ الْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَامِلَاتِهِمْ مِنْ تَفْقِيدِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَابِيلِ وَالْمَوَازِينِ
حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظَرِ فِي الْسِكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامِلُونَ بِهَا مِنَ الْغِشِّ
وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَنْقِيادِ لَهُ وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَأَنْقِادِهِ
بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْفَایِةِ مِنْ مَعْانَاتِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْحُكَمَاءِ لَمَعْانَاهُ نَقْلُ الْجَبَالِ مِنْ أَمَّا كَثِيرًا أَهُونُ عَلَيَّ مِنْ مَعْانَاهُ قُلُوبُ الْرِّجَالِ مِمَّا
إِنَّ الْأَسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوِ التَّرْزِيَّةِ أَوِ الْأَصْطَنَاعِ
الْقَدِيمِ لِلْدُّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ إِلَمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ فَتَمَّ الْمُشَارِكَةُ
فِي الْأَسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدَّ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرَكَهُ فِي أُمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلْمَهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ
أَوْ بِمُجَاهِدِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُشَغِّلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ أَوْ يَدْفعَ النَّظَرَ
فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَائِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ وَأَضْطِلَاهُ فَلَذِكَ قَدْ تُوجَدُ فِي رَجُلٍ
وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَرَّقُ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَشْرُعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلْمَ
يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلْمَ أَرَّ سَائِلَ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلْمَ الْأَصْكَوْكِ وَالْأَقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلْمِ الْمُحَاسَبَاتِ
وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَالَيَّةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانُ الْجَيْشِ وَكَالْسِيفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَزْبِ

(١) المنه الخدمة وجهم امهن بكر المليم

وَصَاحِبُ الْشُّرْطَةِ وَصَاحِبُ الْبَرِيدِ وَوِلَايَةُ الشُّغُورِ ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ الْوَظَائِفَ الْسُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمُلْكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدَرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الَّذِينَ وَالَّذِينَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْأَخْكَامُ الْشَّرْعِيَّةُ مُتَعَاقِدَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ إِكْلِيلٌ وَاحِدَةٌ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُومِ تَعْلُقِ الْحُكْمِ الْشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهِ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمُلَكِ وَالْسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا أَنْتَبِدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ أَوْ تَعْوِيضاً مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوَزَارَةِ عِنْهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَخْكَامِ وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ الْسِّيَاسَاتِ مُطْلِقاً أَوْ مُقيَداً وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمُلَكِ وَالْسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوَظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمُلَكِ وَالْسُّلْطَانِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جِيَابَةٍ أَوْ وَلَايَةٍ لَا بُدُّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنْسَحَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الْشَّرْعِيَّةِ فِي الْمُلْكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتبَةِ الْمُلَكِ وَالْسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ الْمُلَكِ وَالْسُّلْطَانِ وَرُتبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمْرَانِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ لَا بِمَا يَخْصُهَا مِنْ أَخْكَامِ الْشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابَنَا كَمَا عَلِمْنَا فَلَا مُنْتَاجٌ إِلَى تَفْصِيلِ أَخْكَامِهَا الْشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاهُ فِي كُتُبِ الْأَخْكَامِ الْسُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَوَازِدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفَقِيهِ فَإِنَّ أَرَدْتَ أَسْتِيْفَاهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالِعَتِهَا هُنْكَالِكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمُنَا فِي الْوَظَائِفِ الْخِلَافَيَّةِ وَأَفْرَدَنَاها لِيُمْيِّزَنِّهَا وَبَيْنَ الْوَظَائِفِ الْسُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَخْكَامِهَا الْشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابَنَا وَإِنَّمَا تَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَأَنَّهُ الْمُوْفِقُ

الْوَزَارَةُ * وَهِيَ أُمُّ الْخُطَطِ الْسُّلْطَانِيَّةِ وَالرِّئَاسَةِ الْمُلُوكِيَّةِ لَاَنَّ اسْمَهَا يَدْلُلُ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوَزَارَةَ مَا يُخُوذُهُ إِمَّا مِنَ الْمُؤَازِّةِ وَهِيَ الْمَعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ التَّقْلُلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفْكَلَتِهِ أَوْ زَارَةٍ وَأَنْقَالَةٍ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كَذَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَخْوَالَ الْسُّلْطَانِ وَتَصْرِفَاتِهِ لَا تَعْدُ أَزْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَنْدِ وَالسِّلاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْجِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارِفُ فِي الدُّولَ الْقَدِيمَةِ بِالْمَشْرِقِ وَلِهُنَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ تَخَاطُبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي

أمورِ جِبَايَةِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَخَبْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةِ وَصَاحِبِ
 هَذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ وَهُوَ الْمُسْمَى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِمَامًاً أَنْ
 يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُشْغِلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهَذَا
 رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْجِبُهُ فَلَا تَعْدُ أَخْوَاهُ هَذِهِ الْأَزْبَعَةَ بِوَجْهٍ وَكُلُّ خَطْطَةٍ
 أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رَتْبِ الْمَلِكِ وَالْسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنَّ الْأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَ الْإِعَانَةُ
 فِيهِ عَامَةٌ فِيمَا تَحْتَ بِدِ الْسُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصِّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ الْسُّلْطَانِ دَائِمًاً
 وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَخْوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَامًاً كَانَ خَاصًاً بِعَضِ النَّاسِ أَوْ
 بِعَضِ الْجَمَاعَاتِ فَيَكُونُ دُونَ أَرْتَبَةِ الْأُخْرَى كِبِيرَةً تَغْرِي أَوْ لَاءَةً جِبَايَةً خَاصَةً أَوْ
 الْنَّظَرِ فِي أَمْرٍ خَاصٍ كَحِسْبَةِ الْطَّعَامِ أَوْ الْنَّظَرِ فِي السَّكِينَةِ فَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا نَظَرٌ فِي
 أَخْوَالٍ خَاصَةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا بِمَا لَأْمَلَ النَّظَرِ الْعَامَ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْوُوفَةً لِأَوْلَئِكَ
 وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الْدُّولَ فَبَلَ الْإِسْلَامِ مَكْنَدًا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ خَلَافَةً
 فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطْطَةُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِي مِنْ الْمُعَاوَنةِ بِالْأَيِّ
 وَالْمُفَاؤَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يُشَارُرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مُهِمَّاتِهِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ وَيَخْصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرَ
 وَمُخْصُوصَيَاتِ الْأُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّولَ وَأَخْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَبْصَرَ
 وَالنَّجَاشِيَّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرَ وَزَيْرَةً وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ
 رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَذَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمُرُهُ مَعَ أَبِي بَكْرَ وَعَلَيْهِ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمُرِهِ وَأَمَّا
 حَالُ الْجِبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْجِسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدُهُمْ رُتْبَةٌ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أَمِينِينَ
 لَا يَحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا
 مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ
 لِأَنَّ الْأَمِيَّةَ كَانَتْ صِفَتُهُمُ الَّتِي امْتَازُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ
 تَكُنْ عِنْدُهُمْ رُتْبَةٌ خَاصَةٌ لِلْأَمِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَالْأَمَانَةُ الْعَامَةُ فِي كَثِيرَمَا الْقَوْلِ
 وَتَأْدِيَتِهِ وَلَمْ تَخْرُجْ الْسِّيَاسَةُ إِلَى أَخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَبَسْتَ مِنَ السِّيَاسَةِ
 الْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنْ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِخَلِفَةٍ أَخْسَنَهَا لِأَنَّ
 الْكُلُّ كَانُوا يَعْبُرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ يَا بَلْغَ الْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا خِطْطٌ فَكَانَ الْمُخْلِفَةُ

يَسْتَنِيبُ فِي كِتَابِهِ مَتَى عَنْ لَهُ مَنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَا مُدَائِعَهُ ذَوِي الْخَاجَاتِ عَنْ أَبْوَاهِهِمْ فَكَانَ تَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعُلُوهُ فَلَمَّا أَنْقَلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ السَّلْطَانِ وَالْقَابِهِ كَانَ أَوْلُ شَيْءٍ بُدِئَ بِهِ فِي الدُّولَةِ شَأنَ الْبَكْ وَسَدَهُ دُونَ الْجُهُورِ بِهَا كَانُوا يَخْسِنُونَ عَنْ أَنفُسِهِمْ مِنْ أَغْنِيَالِ الْخُوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرِ وَعَلِيٍّ وَمُعاوِيَةِ وَعُمَرَ بْنِ الْعَامِي وَغَيْرِهِمْ مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَزْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمُهِمَّاتِ فَأَنْفَذُوا مَنْ يَقُولُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمِوَهُ الْخَاجَةَ وَقَدْ جَاءَ أَنْ عَبْدُ الْمُلْكَ لَمَّا وَلَى حَاجِبَةَ قَالَ لَهُ قَدْ وَلَيْكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ الْمُؤْذِنِينَ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِيَ اللَّهِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ فَأَمْرَهُ مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِتَلَاقِهِ فَسُدَّ ثُمَّ أَسْتَفْعَلَ الْمُلْكُ بَعْدَ ذَلِكَ فَظَاهَرَ الْمُشَائِرُ وَالْمُعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَأَسْتَلَافِهِمْ وَاطَّافَ عَلَيْهِ أَسْمُ الْوَزِيرِ وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْعَوَالِي وَالْذَّمِينَ وَأَتَخْذَ لِلسِّجْلَاتِ كَاتِبٌ مُخْصُوصٌ حَوْظَةً عَلَى أَسْرَارِ السَّلْطَانِ أَنْ تَشَتَّرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْتِيجَ لَهُ مِنْ حِيثُ الْخُطُّ وَالْكِتَابِ لَا مِنْ حِيثُ الْلِسَانِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ إِذَا الْلِسَانُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتِ الْوِزَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ فِي سَائِرِ دُولَةِ بَنِي أُمِّيَّةِ كَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًا فِي أَحْوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمُفَادَّاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَابَاتِ وَالْمُطَالِبَاتِ وَمَا يَتَبَعُهُ مِنْ الْنَّظَرِ فِي دِيوَانِ الْجُنْدِ وَفَرَضَ الْعَطَاءَ بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دُولَةُ بَنِي الْعَبَاسِ وَأَسْتَفْعَلَ الْمُلْكُ وَعَظَمَتْ مَرَاتِبُهُ وَأَرْتَفَعَتْ وَعَظَمَ شَأنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتِ الْهُنْدِيَّةُ فِي اِنْفَادِ الْخَلْقِ وَالْعَقْدِ تَعِينَتْ مَرَاتِبُهُ فِي الدُّولَةِ وَعَنَتْ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الْرِقَابُ وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيوَانِ الْحِسْبَانِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قُسْمٍ الْأَعْطَابِاتِ فِي الْجُنْدِ فَأَخْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمِيعِهِ وَتَفْرِيقِهِ وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلْمَ وَالْتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السَّلْطَانِ وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لِمَا كَانَ الْلِسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ أَجْمَعِهِ وَجُعِلَ أَخْتَامًا لِسِجْلَاتِ السَّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الْذِيَاعِ وَالشَّيْاعِ وَدُفِعَ إِلَيْهِ فَصَارَ أَمْرُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِخِطَّتِي السَّيْفِ وَالْقَلْمَ وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوِنَةِ حَتَّى أَقْدَدْدُعِي جَعْفَرَ بْنَ يَعْمَيِ بِالسَّلْطَانِ أَيَّامَ الْأَشْيَادِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَفِيَامِهِ بِالدُّولَةِ وَلَمْ يَغْرُجْ عَنْهُ مِنْ الْوَتْبِ السَّلَطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَكْ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِأَسْتِنِكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي

الْمَلَوِّهُ الْعَبَاسِيَّ شَانُ الْأَسْتِبْدَادُ عَلَى السُّلْطَانِ وَتَعَاوَرَ فِيهَا أَسْتِبْدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً وَالسُّلْطَانُ
 أُخْرَى وَصَارَ الْوِزِيرُ إِذَا أَسْتَبَدَ مُتَكَبِّرًا إِلَى أَسْتِنَابَةِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذَلِكَ لِتَصْبَحَ الْأَخْكَامُ
 الْشَّرْعِيَّةُ وَتَبْعِيَّهُ عَلَى حَالِهَا كَمَا نَقَدَتْ فَإِنْ قَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وِزَارَةٍ تَفْعِيلٍ وَهِيَ
 حَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ فَائِمًا عَلَى تَفْسِيْهِ وَإِلَى وِزَارَةٍ تَفْوِيْضٍ وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ الْوِزِيرُ
 مُسْتَبِدًا عَلَيْهِ ثُمَّ أَسْتَمَرَ الْأَسْتِبْدَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمَلْوِلِ الْمُجْمِعِ وَتَعَطَّلَ رَمْمُ الْمُنْلِافَةِ وَلَمْ
 يَكُنْ لِأُولَئِكَ الْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَتَحَلَّوْا الْقَابَ الْخَلِيفَةِ وَأَسْتَنَكُفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ الْوِزَارَاءِ
 فِي الْأَقْبَلِ لَأَنَّهُمْ خَوْلُ لَهُمْ فَتَسَوَّلُوا إِلَيْهِمُ الْمَازِرَةُ وَالسُّلْطَانُ وَكَانَ الْمُسْتَبِدُ عَلَى الدُّولَةِ يُسْعِ
 أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يَعْلَمُهُ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ الْفَاقِيْهِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْقَابِهِمْ
 وَتَرَكُوا أَسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّهُمْ لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّانُ عِنْدَهُمْ إِلَى
 آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ الْلِسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صَنَاعَةُ يَنْتَهِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ
 فَأَمْثَلَتْ وَتَرَفَعَ الْوِزَارَاهُ عَنْهَا لِذَلِكَ وَلِأَنَّهُمْ عَمِّمُوا وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ فِي الْمَقْصُودَةِ مِنْ
 لِسَانِهِمْ فَتَغَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الْطَبَقَاتِ وَأَخْتُصَتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوِزِيرِ وَأَخْصَصَ
 أَسْمَ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنُودِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَّةً عَلَى أَهْلِ
 الْأَرْتَبِ وَأَمْرَهُ نَافِذَةً فِي الْكُلِّ إِمَامًا نِيَابَةً أَوْ أَسْتِبْدَادًا وَأَسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا ثُمَّ جَاءَتْ
 دَوْلَةُ التَّرْكِيَّةِ آخِرًا بِمِصْرَ فَرَأَوا أَنَّ الْوِزَارَةَ قَدْ أَبْتَدَلَتْ بِتَرَاعٍ أَوْ أُولَئِكَ عَنْهَا وَدَفَعُهَا لِمَنْ
 يَقُولُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْمُجْمُورِ وَنَظَرَهُ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَقِّبٌ بِنَظَرِ الْأَمِيرِ فَصَارَتْ مَرْوُوسَةً نَافِذَةً
 فَأَسْتَنَكَفَ أَهْلُ هَذِهِ الْرَّبَّيَّةِ الْعَالِيَّةِ فِي الدُّولَةِ عَنْ أَسْمِ الْوِزَارَةِ وَصَارَ صَاحِبُ
 الْأَخْكَامِ وَالنَّظَرِ فِي الْجُنُودِ يُسْعِي عِنْدَهُمْ بِالنَّايبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبِقِيمَةِ أَسْمِ الْمَاجِبِ فِي
 مَدْلُولِهِ وَأَخْصَصَ أَسْمَ الْوِزِيرِ عِنْدَهُمْ بِالنَّظَرِ فِي الْجَيَاحِيَّةِ وَأَمْمَادَ دَوْلَةِ بَنِي أَمِيمَةِ بِالْأَنْدَلُسِ
 فَأَتَيْفُوا أَسْمَ الْوِزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ أَوْلَ الدُّولَةِ ثُمَّ قَسَ وَأَخْطَطَهُ أَصْنَافًا وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ
 صِنْفٍ وَزِيرًا بِقَعْدَلِ الْمَحْسِبَانِ الْمَالِ وَزِيرًا وَلِلْتَرْسِيلِ وَزِيرًا وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ الْمُتَظَلِّلِينَ
 وَزِيرًا وَلِلنَّظَرِ فِي أَخْوَالِ أَهْلِ الشَّغُورِ وَزِيرًا وَجِيلَ لَهُمْ بَيْتُ يَمْجِلُسُونَ فِيهِ عَلَى فُرُشٍ
 مَنْضَدَّةٍ لَهُمْ وَيَنْقِذُونَ أَمْرَ السُّلْطَانِ هُنَاكَ كُلُّ فِيمَا جُعِلَ لَهُ وَأَفْرِدَ لِلْتَرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 الْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَرْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةِ السُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَأَرْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ

مجالسيم وخصوصه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فما زلت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف يتعلمون لقبها فما كثر لهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان القائرين بها رسوخ في البداوة فاغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح اسمها كما تراه في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً البداوة ثم صارت إلى انتقال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مطلعه ثم أتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذهب السلطان وأختاروا اسم الوزير لمن ينجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخليين على السلطان عند الحدود في تحصيهم خططائهم والأداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاهدوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد وأماماً في دولة الترك بالشرق فيسدون هذا الذي يقف بالناس على حدود الأداب في المقاء والتخييم في مجلس السلطان والتقدير بالوفود بين يديه الدويدار ويفسرون إليه استثناء كاتب السر وأعضايب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالخاصية وبالخوازنة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الأمور لمن يشاء

(الحجابة) * قد قدمنا أن هذا اللقب كان خصوصاً في الدولة الأموية والعباسية لمن ينجب السلطان عن العامة ويتعلق به دونهم أو يتحقق له على قدره في مواقفه وكانت هذه منزلة يوماً عن الخطط مرؤوسه لها إذ الوزير متصرف فيها بما يشاء وهذه كانت سائر أيام بنى العباس وأماماً هذا العهد فهي يصرّ مرؤوسه أصحاب الخطط العليا المسئي بالنائب * وأماماً في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن ينجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم وفيها غالباً كما تراه في أخبارهم كابن حميد وغيره من حجاجهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة ليشرفهم فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدأوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتزكوا لقبها كانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتقال القاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب الذي الوزارتين

يُعنونَ بِهِ السيفَ والقلمَ ويدلُّونَ بِالْجَاهَةِ عَلَى حِجَابِهِ الْسَّاطِنِ عَنِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ وَيَدِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنِ جَمِيعِ لِشَائِرِ السيفِ والقلمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دُولَةِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ذُكْرُهُ لَهُذَا الْاسْمِ الْمِدَاءُ الَّتِي كَانَ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعُسْدِيَّينَ بِعِصْرِهِ أَسْتِعْظَامَهَا وَحَضَارَهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحَدِينَ لَمْ تَسْتَمِكِنْ فِيهَا الْخِضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى اِتِّحَادِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخِطَطِ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَمْهَارِ إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ الرُّتبِ إِلَّا الْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوْلَاءِ يَخْصُونَ بِهِذَا الْاسْمِ الْكَاتِبُ الْمُتَصَرِّفُ الْمُشَارِكُ لِلْسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَانُوا عَطِيَّةً وَعَبْدِ الْسَّلَامِ الْكُوُنِيِّ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ أَسْمُ الْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُوحَدِينَ كَانُوا جَامِعِ وَتَغْيِيرِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَسْمُ الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُوَّابِي حَفْصِ بِأَفْرِيقِيَّةِ فَكَانَتِ الْرِئَاسَةُ فِي دَوْلَتِهِمْ أَوْلَاءِ وَالْتَّقْدِيمُ لِوَزِيرِ وَرَأِيِّ وَالْمَشْوَرَةُ وَكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شِيخِ الْمُوحَدِينَ وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْوِلَايَاتِ وَالْعَزْلِ وَقَوْدِ الْعَسَكَرِ وَالْحُرُوبِ وَأَخْتُصُّ الْمُسْبَكَانُ وَالْمَدِيْنَةُ يَوْمَ بِرُتبَةِ أَخْرَى وَيُسَمِّي مُتَوَلِّهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمُطَاقِ فِي الْدَخْلِ وَالْخُرْجِ وَيُحَاسِبُ وَيَسْتَخَصِّ الْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّغْرِيبِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُوحَدِينَ وَأَخْتُصُّ عِنْدَهُمُ الْقلمُ أَيْضًا يَمْنُ يُعِيدُ الْتَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمِنُ عَلَى الْأَسْرَارِ لَأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُتَحَلَّ الْقَوْمِ وَلَا الْتَّرْسِيلُ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ يُشَرِّطْ فِيهِ النَّسَبُ وَأَخْتَاجَ السُّلْطَانُ لِاِتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُرْتَزِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرِ مَانِ خَاصِّ بِدَارِهِ فِي أَحْوَالِهِ يُعْرِيْهَا عَلَى قَدَرِهَا وَتَزَبِّبِهَا مِنْ رِزْقِ وَعَطَاءِ وَكُسوَةِ وَنَفَقَةِ فِي الْمَطَابِعِ وَالْإِضْطَبَلَاتِ وَغَيْرِهَا وَحَصْرِ الدَّخِيرَةِ وَتَفْيِذِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْجَيَّابِ فَخَصُوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى السِّجَلَاتِ إِذَا أَتَقَقَّ أَنَّهُ يُحْسِنُ صَنَاعَةَ الْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لِغَيْرِهِ وَأَسْتَمِرَ الْمُزَوِّ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَ السُّلْطَانُ تَفْسِهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هَذَا الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّشَّابِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جَمَعَ لَهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ السِّيفِ وَالْحُرُوبِ ثُمَّ الرَّأْيِ وَالْمَشْوَرَةِ فَصَارَتِ الْخِطَطُ أَرْفَعَ الرُّشَّابِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخِطَطِ ثُمَّ جَاءَ الْأَسْبَدَادُ وَالْجَبَرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الْثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ ثُمَّ أَسْبَدَ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدَهُ السُّلْطَانُ أَبُو العَبَاسِ عَلَى تَقْسِيمِهِ وَأَذْهَبَ آثارَ الْجَبَرِ

وَالْأَسْبِدَادُ يَا ذَهَابَ خِطَّةِ الْجَمَاهِيرَ الَّتِي كَانَتْ سُلْطَانًا إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ
آسِيَانَةٍ يَا حَدِيدًا وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهُذَا الْمَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ فَلَا أَثْرَ لِأَسْمِ الْمَاجِبِ عِنْهُمْ
وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَزْبِ وَالْمَسَاكِيرُ فَهُمْ لِلْوَزِيرِ وَرَبِّهِ الْقَلْمَرِ فِي الْخِسْبَانِ وَالْمَسَائِلِ رَاجِعُهُ
إِلَيْهِ مَنْ يُخْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ أَخْتَصَتْ بِعَضِ الْبَيُوتِ الْمُسْطَبَمِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ
يُجْمِعُ عِنْهُمْ وَقَدْ تُفْرَقُ وَأَمَّا بَابُ الْسُّلْطَانِ وَجَبَّهُ عَنِ الْعَامَةِ فَهُمْ رَبِّهِ عِنْهُمْ فَيُسَعِ
صَاحِبَهَا عِنْهُمْ بِالْمِزَوارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقْدَمُ عَلَى الْمُعَنَّادِرَةِ الْمُتَسَرِّ فِي بَابِ الْسُّلْطَانِ فِي
تَنْفِيزِهِ أَوْ أَمْرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقوَبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سُطُوَاتِهِ وَحَفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيفُ
عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَبَابُهُ وَأَخْذُ النَّاسِ بِالْتُّوقُوفِ عِنْهُمْ الْحَدُودُ فِي دَارِ الْعَامَةِ رَاجِعُ
إِلَيْهِ فَكَانَهَا وَزَارَةُ صُفْرَى وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَثْرَ عِنْهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَنْوَابِ وَلَا تَمْيِيزُ الْخِطَطِ لِيَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِأَسْمِ الْمَاجِبِ فِي
بعضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِ بِالْسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ
يُجْمِعُونَ لِهِ الْخِسْبَانَ وَالْمَسَاعِلَ كَمَا كَانَ فِيهَا حَامِمٌ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي
تَبِعِيهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوْلَى أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهُذَا الْمَهْدِ فَالْمُخْصُوصُ عِنْهُمْ بِالْخِسْبَانِ وَتَنْفِيزِ حَالِ الْسُّلْطَانِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ بِسَمْوَنَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُعْنِي لَهُ التَّرْزِيلُ
وَالْسُّلْطَانُ عِنْهُمْ يَضْعِفُ خَطَّهُ عَلَى الْمُحَلَّاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا يَغْيِرُهُمْ مِنَ الدُّوَلِ.
وَأَمَّا دَوْلَةُ الْتَّرْزِكِ بِمِصْرَ فَأَسْمَمَ الْمَاجِبِ عِنْهُمْ مَوْضِعَهُ كَمَّهُ مِنْ أَهْلِ الشَّوَّكَةِ وَمُمْمَلِ الْتَّرْزِكِ
يُنْفَذُ الْأَخْكَامُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَمُمْتَدِدُونَ وَمَذْدِهِ الْوَظِيفَةُ عِنْهُمْ تَحْفَتُ وَظِيفَةُ
النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الْمَوْلَةِ وَفِي الْعَامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوَافِيَّةُ وَالْعَزْلُ
فِي بَعْضِ الْوَظَائِفِ عَلَى الْأَخْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلُ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَبِيَتِهَا وَتَنْفِذُ أَوْامِرُهُ
كَمَا يُنْفَذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ الْسُّلْطَانِ وَالْمُجَالِبُ الْحُكْمُ فَقَطَّ
فِي طَبَقَاتِ الْعَامَةِ وَالْجَنْدِ عِنْهُ تَرَافُعُ الْيَمِيمِ وَإِجْبَارٌ مِنْ أَبِدِ الْأَنْقِبَادِ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ
تَحْفَتُ طَوْرُ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرِ فِي دَوْلَةِ الْتَّرْزِكِ هُوَ صَاحِبُ جِيَابِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى
أَخْتِلَافِ أَسْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْنِسٍ أَوْ جِزِيَّةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

أو الجِرایات المُقدَّرة وله مع ذلك التَّولیة والعزل في سائر الاعمال المُباشرین لهدو
الجِبایة والتَّنفیذ على اختلاف مراتبهم وتبان اصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا
التوزیر من صنف القبط القائمين على ديوان الحساب والجِبایة لاختصاصهم بذلك في
مصر منذ عصور قديمة وقد يواليها السلطان بعض الآخيان لأهل الشوكة من رجالات
الترزك أو أبناءهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصر فيها محكمته لا إله
إلا هو رب الأولين والآخرين

ديوان الاعمال والجِبایات

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال
الجِبایات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء المساقير باسمائهم وتقدير
ازارتهم وصرف أعطيائهم في إباناتها وأرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرت بها قومة
ذلك الأعمال وقراقرة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في
الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل
ذلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمل
المُباشرین لها * ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كتاب
ديوانه وهم يحسبون على أبنائهم كانوا يعادون فقال ديوانه أي عجائب بلغة الفرس
قسيمي موضعهم بذلك وحدقت العاه لكثره الاستعمال تفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا
الأسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن القوانين والحسابات وقيل إنه أسم
الشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعته فozهم في قيم الأمور ووفورهم على
الجلبي منها والجنبي وجمعهم لما شد وفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال
وعلى هذا فتناول أسم الديوان كتاب الرسائل ومحكان جلوسيه يباب السلطان على ما
يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناطر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفرد
كل صنف منها بناطر كما يفرد في بعض الدول النظر في المساقير وإقطاعياتهم
والحساب أعطيائهم أو غير ذلك على حسب مصلحة الدولة وما فرجه أولوها . وأعلم
أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكث الغلب والاستيلاء والنظر في
اعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر

رَبِّيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرِينَ فَأَسْتَكْثَرُوهُ
 وَتَعْبُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمِعُوا إِلَى إِخْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَخَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحُقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ
 الْوَلِيدِ بِالْدِيَوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ بُدَوْنَ فَقِيلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بْنُ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ
 الْمِرْمَازَانُ لَمَّا رَأَاهُ بَعْثَ الْبَعُوثَ بِغَيْرِ دِيَوَانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ بِهِ لَمْ يَغِيبْ مِنْهُمْ
 فَإِنَّ مَنْ تَغَلَّفَ أَخْلَقَ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبِطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيَوَانًا وَسَأَلَ
 عُمَرَ عَنِ اسْمِ الدِّيَوَانِ فَعَبَرَ لَهُ وَلَمَّا أَجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَخَرْمَةَ
 أَبْنَ نُوفَلَ وَجَبَيرَ بْنَ مَطْعَمٍ وَكَافُورَ مِنْ كِتَابِ قُرْيَشٍ نَسَكَتُبُوا دِيَوَانَ الْعَسَكَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدِأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ
 فَالْأَقْرَبُ هُكْمًا كَانَ أَبْنَادَهُ دِيَوَانَ الْجَيشِ وَرَوَى الْزَّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْمُسِيبِ
 أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْحُرُمَةِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَآمَّا دِيَوَانُ الْخِرَاجِ وَالْجَيَّابَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَهُ
 الْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ دِيَوَانِ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَوَانِ الشَّامِ بِالْرُّومِيَّةِ
 وَكِتَابِ الدَّوَادِينِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحْمَالُ
 الْأَمْرِ مُلْكًا وَأَنْتَلَ الْقَوْمَ مِنْ غَصَاصَةِ الْبِداوةِ إِلَى رَوْنَقِ الْخِضَارَةِ وَمِنْ سَنَاجِةِ
 الْأُمَيَّةِ إِلَى حِذْقِ الْكِتَابَةِ وَظَاهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهْرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْجِسْبَانِ
 فَأَمْرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَلِيمَانَ بْنَ سَعِيدٍ وَالِي الْأَزْدُونَ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَوَانَ الشَّامِ إِلَيْهِ
 الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةَ مِنْ يَوْمِ أَبْنَادِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ
 لِكِتَابِ الرُّومِ أَطْلُبُوا الْعِيشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعْمَا اللَّهُ عَنْكُمْ . وَآمَّا دِيَوَانُ
 الْعِرَاقِ فَأَمْرَ الْجَيَّاجِ كَاتِبُهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ
 وَلَقِنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُونَخَ كَاتِبُ الْجَيَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 أَبْنَ الْأَشْعَثِ أَسْتَخَلَفَ الْجَيَّاجَ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمْرَهُ أَنْ يَنْقُلَ دِيَوَانَ الْفَارِسِيَّةِ
 إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغَمَ لِذَلِكَ كِتَابَ الْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لَهُ دَرَرُ
 صَالِحٌ مَا أَعْظَمَ مِنْتَهَهُ عَلَى الْكِتَابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ فِي دُوَلَةِ بَنِي الْعَبَاسِ
 مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ الْنَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَانُ بْنِي بَرْمَكَ وَبَنِي مَهْلِ بْنِ نُوبَتْ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَّارَاءِ الدُّوَلَةِ . وَآمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْوَظِيفَةِ مِنَ الْأَخْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ يَمْعَأ
 يَخْتَصُ بِالْجَيَّشِ أَوْ يَسْتَهِنُ بِالْمَالِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَتَمْيِيزِ النَّوَاحِي بِالصَّلْعِ وَالْعُنُوَّةِ وَفِي تَقْلِيدِ

هذِهِ الْوَظِيفَةِ لِمَنْ يَكُونُ وَشْرُوطِ النَّاظَارِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ وَقَوَافِينِ الْحِسْبَانَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ
 إِلَى كُتُبِ الْأَخْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفِي مَسْطُورَةِ هُنَالِكَ وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابَنَا وَإِنَّمَا تَكُلُّ
 فِيهَا مِنْ حَيْثُ طِبِيعَةِ الْمُلْكِ الَّذِي تَخْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ فِيهِ وَهَذِهِ الْوَظِيفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ
 الْمُلْكِ بَلْ هِيَ ثَالِثَةُ أَزْكَانِهِ لِأَنَّ الْمُلْكَ لَا يَبْدُلُهُ مِنْ الْجَنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ
 فَأَحْتَاجُ صَاحِبَ الْمُلْكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ الْسَّيفِ وَأَمْرِ الْقَلْمَ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيُنَفَرِّدُ
 صَاحِبَهَا لِذَلِكَ يَجِزُّ مِنْ رِئَاسَةِ الْمُلْكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَيِّنِي أُمِيَّةِ الْأَنْدَلُسِ
 وَالْطَّوَافَ بَعْدُهُمْ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ فَكَانَ صَاحِبَهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ
 يَسْتَقْلُ بِالْأَنْظَرِ فِي أَسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمِيعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعْقِبُ نَظَرُ الْوِلَاةِ وَالْعَوَالِ فِيهَا
 ثُمَّ تَفْعِيلُهَا عَلَى قَدْرِهَا وَفِي مَوَاقِيْتِهَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّما يَلْبِيْهَا
 فِي الْجَهَاتِ غَيْرِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ يَحْسِنُهَا. وَلَمَّا أَسْتَبَدَ بِنَوَّابِي حَفْصِ يَافِرِيقِيَّةَ وَكَانَ شَانِ
 الْجَالِيَّةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِيمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ
 مِثْلَ بَنِي سَعِيدٍ أَصْنَابُ الْقَلْمَعَةِ حِواَرَ غَرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بَنِي أَبِي الْحَسَنِ فَأَسْتَكْفُوا بِهِمْ
 فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ الْنَّظرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَدَأْلُوا فِيهَا يَتَهَمُّ وَبَيْنِ
 الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ أَسْتَقْلَ بِهَا أَهْلُ الْحِسْبَانِ وَالْكُتُبِ وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ كَمَا
 أَسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَقْدَ أَمْرُهُ فِي كُلِّ شَانِ مِنْ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ تَعَطَّلَ هَذَا الْأَرْسِنُ
 وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرْءُوسًا لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمِلَةِ الْجَمِيعِ وَذَهَبَتْ تِلْكَ أَرْتَاسَةُ الْمُؤَسَّسَةِ الَّتِي كَانَتْ
 لَهُ فِي الدَّوْلَةِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَخِسْبَانُ الْعَطَاءِ وَالْخَرَاجِ مُجْمُوعٌ لِوَاحِدٍ
 وَصَاحِبُهُ هُذِهِ الرِّثْبَةُ هُوَ الَّذِي يُصْحِحُ الْحِسْبَانَاتِ كُلُّهَا وَيَرْجِعُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَنَظَرِهِ
 مُعَقِّبٌ بِنَظَرِ الْسُّلْطَانِ أَوِ الْوَزِيرِ وَخَطِطُهُ مُعْتَدِلٌ فِي صَحَّةِ الْحِسْبَانِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ
 هُذِهِ أَصْوُلُ الرِّتَبِ وَالْخِطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ الرِّتَبُ الْعَالِيَّةُ الَّتِي هِيَ عَامَةُ النَّظَرِ وَمُبَاشِرَةُ
 لِلْسُّلْطَانِ. وَأَمَّا هُذِهِ الرِّثْبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ فَمُشْتَوِّعَةٌ وَصَاحِبُ دِيَوَانِ الْعَطَاءِ يُعْرَفُ
 بِنَاظِرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبِ الْمَالِ مُخْصُوصٌ بِاِسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ النَّاظِرُ فِي دِيَوَانِ الْجَيْشِ الْعَالِيَّةِ
 لِلْدَّوْلَةِ وَهُوَ أَعْلَى رُتْبِ النَّاظِرِينَ فِي الْأَمْوَالِ لِأَنَّ النَّظرَ فِي الْأَمْوَالِ عِنْهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى
 رُتْبٍ كَثِيرَةٍ لِاِنْفِسَاحِ دَوْلَتِهِمْ وَعَظِيمَةِ سُلْطَانِهِمْ وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ وَالْجَيْشَاتِ عَنْ
 أَنْ يَسْتَقْلُ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ وَلَوْ بَعْدَ فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ فَتَعَيَّنَ لِلنَّظرِ الْعَامَ

منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك ردف لموالي السلطان وأهل عصيته وارباب السيف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظاره ويعتبر جنده في متابعته ويسمى عندم استاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجندي وأن باب السيف وينبع هذه الخلطة خطط عندم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبيان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر المخاص و هو الباشر للأموال السلطان الخاصة به منقطاعاته أو سنهاته من أموال الخراج وبالإدعيابة بما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير استاذ الدار وإن كان الوزير من الجندي فلا يمكن لاستاذ الدار نظر عليه ونظر المخاص تحت يد خازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاصه وظيفتها يحال السلطان المخاص . هذا بيان هذه الخلطة بدولة الترزي بالشرق بعد ما قدمه من آرها بال المغرب والله مصروف **الأمور لا رب غيره**

ديوان الرسائل والكتابة

هذه توافية غير ضرورية في العلاج لاستثناء كثير من الدول عنها وأساساً كما في الدول العربية في اليداعة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استعظام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يُؤدي كنه الحاجة بما يبلغ من العبارة الإنسانية في الأكابر وكلن الكاتب للأمير يكون من أهل نسيه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء العصابة بالشام والعراق لعظم أمرائهم وخلوص أمرائهم فلما نسَّ اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنها وكانت عندبني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر الدخولات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يقسم في طين آخر مذاب بالماء ويسمى طين الخصم ويطبع به على طرق السجل عند طيبة وأصحابه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكتاب فيها علامته أولاً أو آخر على حسب الاختيار في عملها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخلطة بأرباع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو أسبدار وزير عليه تصريح علامه هذا الكتاب ملفاً للحكيم

يعْلَمَةُ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُ بِهَا فِي كِتَبِهِ صُورَةً عَلَامَةً الْمَعْهُودَةِ وَالْحُكْمَ لِعَلَمَةِ ذَلِكَ
 الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدُّوَلَةِ الْخَفْسِيَّةِ لِمَا أَرْتَقَ شَأنَ الْعِيَابَةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّغْرِيبِ
 ثُمَّ أَلَّا سَيَنْدَادَ صَارَ حُكْمَ الْعَلَمَةِ الَّتِي لِكَاتِبِهِ مُلْقَى وَصُورَتُهَا ثَانِيَةً إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا
 فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِكَاتِبِهِ اِمْضَاهَ كَتَابَهُ ذَلِكَ بِخَطَّ يَصْنَعُهُ وَيَتَغَيَّرُ لَهُ مِنْ صِفَةِ الْإِنْفَادِ
 مَا شَاءَ لِيَا تَسْرُّ الْكَاتِبُ لَهُ وَيَضْعُمُ الْعَلَمَةُ الْمُعْتَادَةُ وَقَدْ يُغْتَصِّ الْسُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ يَوْضُعُ
 ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَدِدًا بِأَمْرِهِ فَأَنِّي مَا عَلَى نَفْسِهِ قَيْرَمُ الْأَمْرُ لِكَاتِبِهِ لِيَضْعُمَ عَلَامَتُهُ وَمِنْ
 خِطْطِ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبَ بَيْنَ يَدَيِ الْسُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ
 وَفَصِيلِهِ وَيُوَقِّعُ عَلَى الْقِصْمِ الْمَرْفُوعَ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْمُصْلِحُ فِيهَا مُتَلَقَّاهُ مِنَ السُّلْطَانِ يَاْوَبِزَرِ
 لِفَظٍ وَأَبْلَغَهُ فَإِنَّمَا أَنْ تَصْدَرَ كَذِلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَعْدُ الْكَاتِبُ عَلَى مِثَالِهَا فِي سِيلٍ يَكُونُ يَدَهُ
 صَاحِبُ الْقِصْمِ وَيَحْتَاجُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبِلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ وَقَدْ كَانَ
 جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يَوْقِعُ فِي الْقِصْمِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَرْمِي بِالْقِصْمِ إِلَى صَاحِبِهَا
 فَكَانَتْ تَوْقِيعَانُهُ بِتَنَافِسِ الْبَلَفَاهِ فِي تَحْصِيلِهَا لِلِّوْقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَابِبِ الْبِلَاغَةِ وَقُوَّتها
 حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلُّ قِصْمٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهُوَ كَذِلِكَ كَمَا شَانَ الْتَّوْلِ * وَأَعْلَمُ
 أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخُلْطَهُ لَا يَدْرِي أَنْ يَتَغَيَّرَ أَرْتَقَ طَبَقَاتُ النَّاسِ وَأَهْلُ الْمَرْوَهِ
 وَالْحِشْمَهُ مِنْهُمْ وَذِيَادَهُ الْعِلْمِ وَعَارِضَهُ الْبِلَاغَهُ فَإِنَّهُ مُعْرَضٌ لِلنَّظرِ فِي أُصُولِ الْعِلْمِ لِمَا
 يَعْرَضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَامِهِ أَخْحَكَاهُمْ مِنْ أَمْتَالِ ذَلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عِشرَهُ
 الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالْتَّعَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ
 مَقَامِهِ الْحَكَلَامِ مِنَ الْبِلَاغَهِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ أَرْتَهُ فِي بَعْضِ الْتَّوْلِ مُسْتَدِدَهُ
 إِلَى أَرْبَابِ السُّبُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبَقَهُ الْمَوْلَهُ مِنَ الْبُعدِ عَنْ مَعْنَاهِ الْعِلْمِ لِأَجْلِ سَذَاجَهُ
 الْعَصَيَّهُ فَيُغْتَصِّ الْسُّلْطَانُ أَهْلَ عَصَيَّهُ بِخِطْطِ دَوْلَتِهِ وَسَائِرِ رُتبَهِ فَيُقْلِدُ الْمَالَ وَالسَّيفَ
 وَالْكِتَابَهُ مِنْهُمْ فَإِنَّمَا رَتَبَهُ السَّيفُ فَتَسْتَغْفِي عَنْ مَعْنَاهِ الْعِلْمِ وَإِنَّمَا الْمَالُ وَالْكِتَابَهُ
 فَيُضْطَرُ إِلَى ذَلِكَ الْبِلَاغَهُ فِي هَذِهِ وَالْمُسْبَانِ فِي الْآخِرَهِ فَيَغْتَارُونَ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْطَّبَقَهِ
 مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الْفَرْوَهُ وَيُقْلِدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَسْكُونُ يَدُ أَخْرَى مِنْ أَهْلِ الْعَصَيَّهِ غَالِبَهُ
 عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرَهُ مُنْصَرِفًا عَنْ نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَهُ الْمُزَلَّهُ لِهُذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
 فَإِنَّ الْكِتَابَهُ عِنْدَهُمْ وَإِنَّ كَانَ إِصَاحِبُ الْإِشَادَهِ إِلَّا أَنَّهُ تَعْتَدُ يَدُ أَمْيَنِهِ مِنْ أَهْلِ

تَعْصِيَّةُ السُّلْطَانِ يُعْرَفُ بِالْمُدَوِّدَارِ وَتَعْوِيلُ السُّلْطَانِ دَوْثُوقُهُ بِهِ وَاسْتَنَامَةُ فِي غَالِبِ
 أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْأَخْرِيِّ فِي أَحْوَالِ الْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكَشْمَانُ الْأَسْرَارِ
 وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَآمَّا الشَّرُوطُ الْمُتَبَرَّةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرَّثْبَةِ الَّتِي يَلْأَمِظُهَا
 السُّلْطَانُ فِي أَخْتِيَارِهِ وَأَنْتِقَائِهِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ فَعِيَ كَثِيرَةً وَأَحْسَنَ مَنْ أَسْتَوْعَبَهَا
 عَبْدُ الْحَمِيدُ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكِتَابِ وَهِيَ أَمَا بَعْدُ حَفِظَكُمْ وَاللَّهُ يَا أَهْلَ
 صَنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطَكُمْ وَوَقَّكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ
 الْأَنْيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمُكَرَّمِينَ
 أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءٌ وَمَرْفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمُحَاوَلَاتِ
 إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعْشَرَ الْكِتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجَهَاتِ
 أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرَّازَانَةِ بِكُمْ بِتَنَظِيمِ الْخِلَافَةِ شَحَاسِنَهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا
 وَشَحَائِكُمْ بَصْلَعُ اللَّهِ لِلْخَالِقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمَرُ بِلَادَهُمْ لَا يَسْتَغْنِي الْمَلَكُ عَنْكُمْ وَلَا
 يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنْ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ
 وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا يُبَصِّرُونَ وَالسِّنَمِ الَّتِي بِهَا يَنْطَقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطَشُونَ فَأَمْتَعْكُمُ
 اللَّهُ يَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صَنَاعَتِكُمْ وَلَا تَرْعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ
 وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلُّهُ أَخْرَجَ إِلَى أَجْتِمَاعٍ خَلَالَ أَخْلِيَرِ الْحَمْدُودَةِ وَخِصَالِ
 الْفَضْلِ الْمَذَكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيْهَا الْكِتَابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا
 الْكِتَابِ مِنْ صِنَاعَتِكُمْ فَإِنَّ الْكِتَابَ يَعْتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَعْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَشِيقُ
 بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهِيَ فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مِقدَامًا
 فِي مَوْضِعِ الْأَقْدَامِ شَعْحِمًا فِي مَوْضِعِ الْإِجْمَاعِ مُؤْثِرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
 كَتُومًا لِلْأَسْرَارِ وَفِيَا عِنْدَ السَّدَائِدِ عَالِمًا بِهَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ يَصْبَعُ الْأَمْوَارَ مَوَاضِعَهَا
 وَالْطَّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنِّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحَكِّمْهُ أَخْذَ
 مِنْهُ بِعِقْدَادِ مَا يَكْتُنِي بِهِ يَعْرُفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدْبَرِهِ وَفَضْلِ بَحْرِهِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ
 وَرُوْدِهِ وَعَاقِبَةِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صَدْرِهِ فَيَعْدُ لَكُلِّ أَمْرٍ عَدَتْهُ وَعَتَادَهُ وَيَهْيِي لِكُلِّ وَجْهٍ هَيَّتَهُ
 وَعَادَتْهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ الْكِتَابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ وَتَقْفَهُوا فِي الْمَدِينَ وَأَبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ
 اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهَا ثِقَافَةُ الْسِّنَمِ كُمْ ثُمَّ أَجْبَدُوا الْخَلْقَ فَإِنَّهُ حَلِيمَةٌ

كُتُبَكُمْ وَأَرْوَاهُ الْأَشْعَارَ وَأَغْرِفُوا غَرَبَيْهَا وَمَعَانِيهَا وَأَيَامَ الْعَرَبِ وَالنَّجَمِ وَأَحَادِيثَهَا
 وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مَعْنَى أَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ وَلَا تُفْسِدُونَ النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ
 فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتُبِ الْخَرَاجِ وَأَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَيِّهَا وَدَنِيَّهَا وَسَنَسَافِ
 الْأَمْوَالِ وَمَحَاوِرِهَا فَإِنَّهَا مُذِلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِكُتُبِكَ وَنَزَّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدِّنَاءَ
 وَأَرْبَأُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السِّعَادَةِ وَالنِّسِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ وَإِيَّاكمْ وَالْكَبِيرِ
 وَالسَّخْفَ وَالْعَظَمَةَ فَإِنَّهَا عَدَاؤُهُ تَعْتِيلَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَشَابُوا فِي أَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ
 وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَيْقُولُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلْفِكُمْ وَإِنْ بَنَى الْزَّمَانُ
 يَرْجُلُ مِنْكُمْ فَأَعْطَفُوا عَلَيْهِ وَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ وَيَثْوَبُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ
 أَحَدًا مِنْكُمْ أَلَّا كَبِيرٌ عَنْ مَكْنِسِهِ وَلَقَاءِ أَخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظِيمُوهُ وَشَازُوهُ وَأَتَظَهِرُوا
 بِفَضْلِ تَبَرِّتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلِيَكُنْ أَرْجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَأَسْتَظْهِرَ بِهِ لِيَوْمٍ
 حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَخْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخْيِهِ فَإِنْ عَرَضْتَ فِي الْشُّغْلِ مُحَمَّدةً فَلَا يَصِفُهَا إِلَّا إِلَى
 صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضْتَ مَذَمَّةً فَلَيَحْمِلُهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَيَعْتَذِرُ الْسَّقْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ
 الْخَالِ فَإِنَّ الْعِبَتَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْكُتُبِ أَمْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْقُرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ
 عَلِمْتُمْ أَنَّ أَرْجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَذْلِلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاحِبُ
 عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَأَحْمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيبِهِ وَكِتْمَانِ سِرَّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ
 مَا هُوَ جَزَءٌ مِنْ حَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالَهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالاضْطِرَارِ إِلَى مَا لَدِيهِ فَأَسْتَشْعِرُوا
 ذَلِكَ وَفَقَدَكُمْ دُوَّالُهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الْرِّحَاءِ وَالشِّدَّةِ وَالْحِرْمَانِ وَالْمُؤَاسَةِ وَالْإِحْسَانِ
 وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ فَتَنَعَّمُتِ النِّسِيمَةُ هَذِهِ مِنْ وُسْمِ بَهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا
 وَلِيَ أَرْجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صِيرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلَيَرْأِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيُؤْثِرَ
 طَاعَتَهُ وَلِيَكُنْ عَلَى الْأَضْعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَجْبَرُهُمْ إِلَيْهِ
 أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفَقِيرِ مُؤْفِرًا وَلِلْبَلَادِ
 عَامِرًا وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنِ الْأَذَمِ مُتَخَلِّفًا وَلِيَكُنْ فِي بَعْلَسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِمًا وَفِي سِحْلَاتِ
 خَرَاجِهِ وَأَسْتَفْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا إِذَا صَحَبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلَيَخْتَبِرَ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ
 حُسْنَهَا وَقَبَحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنْ الْحَسْنِ وَأَخْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنْ الْقَبْعِ
 بِالْأَطْفَلِ حِيلَةٌ وَأَجْمَلِ وَسِيلَةٌ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا

أَنَّمَا مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَ رَمُوحًا لَمْ يَجِدْهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَ شَبُوْبَا أَنْقَاهَا
 مِنْ بَيْنِ يَدِيهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُودًا تَوَفَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْمَهَا وَإِنْ كَانَ حَرْوَنًا قَمَعَ
 بِرِيقِهِ هَوَاهَا فِي طَرْقِهَا فَإِنْ أَسْتَرَغَتْ عَطْفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادُهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ
 مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَائِلُ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَالَمُهُمْ وَجَرَبَهُمْ وَدَأْخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ بِفَضْلِ
 أَدِيهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يَعَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاظِرُهُ وَبِفَهْمِ
 عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سُطُوتَهُ أَوْ أَنْ يَأْرِقَ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَانِهِ وَتَقْوِيمِهِ أَوْ دِرَهُ مِنْ سَائِسِ الْبَرِيمَةِ
 الَّتِي لَا تُحِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَقْهِمُ خِطَابًا لِأَنَّهُ يَقْدِرُ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا
 أَرْكَبَ عَلَيْهَا أَلَا فَأَرْقَوْا وَسَمِّكُمْ أَللَّهُ فِي الْأَنْظَرِ وَأَعْمَلُوا مَا أَنْكَنْتُمْ فِيهِ مِنْ
 أَرْوَى وَالْفَكْرِ تَأْمُنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ صَحْبَتُهُ النَّبِيَّةَ وَالْأَسْتِقْنَالَ وَالْجَنَوَةَ وَيَصِيرُ
 مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافِقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمُوَاخَافَةِ وَالشُّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يُعَاوِزَنَّ
 أَرْجُلُ مِنْكُمْ فِي هِيَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلَبِسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرِبِهِ وَبَنَائِهِ وَخَدَمَهِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ مِنْ فُنُونٍ أَمْرٌ قَدْرَ حَقِّهِ فَإِنْكُمْ مَعَ مَا فَضَّلْتُمْ أَللَّهُ يَدُهُ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدَمَهُ
 لَا تُحْمِلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحْفَظَهُ لَا تُحْتَمِلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالْبَذِيرِ
 وَأَسْتَعِنُو بِالْعَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَّهُتُهُ عَلَيْكُمْ وَأَخْذَرُوا
 مَتَّالِفَ السَّرَّافِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإِنْهُمْ بِعُقَبَانِ الْفَقْرِ وَيَذِلُّانِ الْقَابِ وَيَفْسَحُانِ الْأَهْلَمَّا
 وَسَيِّدَ الْكُتُبِ وَأَرْبَابَ الْأَدَابِ وَاللِّامُورَ أَشَبَّاهُ وَبَعْثَاهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضِ فَاسِدِهِمُوا عَلَى
 مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَبَرُّكُمْ ثُمَّ أَسْلَكُوا مِنْ مَسَالِكِ الْأَنْذِيرِ أَوْ فَهُمْ
 مَحْجُونَ وَأَصْدَقُهَا حِجَّةٌ وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةٌ وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلِّفةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاغِلُ
 لِصَاحِبِهِ عَنِ اِنْتَنَادِ عَلَيْهِ وَرَوِيَتِهِ فَلِيَقْصُدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِيِّ مِنْ
 مَنْطَقَتِهِ وَلَيُوجِزَ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلَيَأْخُذَ بِعِجَامِ حِجَّجِهِ فَإِنْ ذَلِكَ مَصَاحَةٌ لِنَعْلَمِ
 وَمَدَفَّةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنِ اِسْكَنَارِهِ وَلِيَضْرِعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَةِ تَوْفِيقِهِ وَأَمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ وَمَعْفَافَهِ
 وَقُوَّتِهِ فِي الْفَلَطِ الْمُفْسِرِ بِيَدِنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدِيهِ فَإِنَّهُ إِنْ فَلَانَ مِنْكُمْ فَلَانُ أَوْ فَلَانَ قَائِلُ إِنَّ
 أَلَّذِي بَرَزَ مِنْ حَمْبِلِ صَنْعَتِهِ وَفُوْرَةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ
 تَرَكَنَ بِطَنِهِ أَوْ مَقَاتَهُ إِلَى أَنْ يَسْكُلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى تَقْسِيهِ فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ
 كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأْمَلُهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلُّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأَمْوَالِ وَأَحْمَلُ

لعنة التذبیر من مرافقہ فی صناعته و مصاحبه فی خدمته فاین اعقل الرجُلین عند ذوی الالباب من رعنی بالعجب و راء ظاهر و رأی ان اصحابه اعقل منه و احمد فی طریقتہ و علی کل و احد من القریبان ان یعرف فضل نعم الله جل شکرہ ان غير اغتوار برایہ ولا تزکیۃ لنفسہ ولا يکافر علی أخيه او نظیره و صاحبہ وعشیره و حمد الله واجب علی الجمیع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بضمته وانا اقول في كتابی هذا ما سبق به المثل من تلزمہ النصیحة يلزمہ العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة کلامیه بعد الذي فيه من ذکر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممه به تولانا الله ويا کم يا مبشر الطلبة والكتبة بما یشود به من سبق علمه یاسعاده وارشاده فما ذلک إلیه ویده والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته (الشرطه) * ویسی صاحبها لهذا العهد یافریقیة الحاکم وفی دولة اهل الاندلس صاحب المدینة وفی دولة الترک الوالی وفی وظیفة مرؤوسه لصاحب السيف فی الدولة وحکمها نافذ فی صاحبها فی بعض الاختیان وکان اصل وضعیتها فی الدولة العباسیه لمن یقم بحكم الجرائم فی حال استبدادها اولاً ثم المحدود بعد استیفاءها فما ذلک القسم یتعرض فی الجرائم لانظر الشروع الا فی استیفاء حدودها وللسياسة الضرر فی استیفاء موجباتها یاقرار یکرھ علیه الحاکم اذا احتفت به القرآن لما یوجیه المصلحة العامة فی ذلك فكان الذي یقوم بهما الاستبداد وبامتناع المحدود بعده اذا تنزع عنه القاضی یسی صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فی المحدود بالدعا یاطلاق وفردوها من نظر القاضی ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها کبار القواد وعظاماء الخاصۃ من مواليهم ولم تکن عامة التنفيذ فی طبقات الناس ائما کار حکمهم على الدھماء وامل الرب و الفرزب علی ایندی الرعاع والقبرة فی عظماء بناهتما فی دولة بني امية بالأندلس ونوعت إلی شرطۃ کبری وشرطۃ صغیری وجعل حکم الحکبڑی علی الخاصۃ والدھماء وجعل له الحکم علی اهل المراتب السلطانية والفرزب علی ایندیهم فی الظلماں وعلی ایندی اقاریبهم ومن ایهم من اهل الجماد وجعل صاحب الصغری مخصوصا بالعامة ونسب لصاحب الحکبڑی کرمی بباب دار السلطان ورجال يتکونون المقاعد بين بدینه فلا یترکون عنها الا فی تصریفه وکانت

ولَا يَتَّهِى لِلأَكْبَرِ مِنْ رِجَالَاتِ الدُّوَلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيْحًا لِلْوَزَارَةِ وَالْجَمَاهِيرَةِ
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلُمُوهَا
عَامَةً وَكَانَ لَا يَلْكِمُهَا إِلَّا رِجَالَاتُ الْمُوَحِّدِينَ وَكُبُرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ اِتِّحَادٌ عَلَى أَهْلِ
الْمَرَاتِبِ الْسُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبَهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ
لَا يَتَّهِى لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنْ الْمُصْطَنِعِينَ. وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرِينَ لِهَا الْعِهْدُ بِالْمَشْرِقِ
فَلَا يَتَّهِى فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ أَصْطَنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ الْتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالَاتِ
الْتُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ الدُّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ الْتُّرْكِ يَتَّخِيدُونَهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ يَمَا يَظْهُرُ مِنْهُمْ
مِنَ الْصَّلَابَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَخْكَامِ اِقْطَعَ مَوَادِ الرَّفَادِ وَحَسْنَمِ أَبْوَابِ الدَّعَارَةِ وَتَغْرِيبِ
مَوَاطِنِ الْفَسُوقِ وَتَقْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا لَقَتْهُمْ بِرَعَايَةِ
الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللهُمَّ قُلْ لَلَّيلُ وَالنَّهَارُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ
(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدُّوْلَةِ وَخِطْطَهَا فِي مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَافْرِيقِيَّةِ

وَمَرْؤَسَةِ اِصَاحِبِ السَّيفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْوَالِ وَيُسَعِّ صَاحِبَهَا فِي
عُرُوفِهِمُ الْبَلْمَنْدَ بِتَخْيِيمِ الْلَّامِ مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنجِيَّةِ فَإِنَّهُ أَمْتَهَا فِي أَصْطَلَاحِ لِغَتِهِمْ
وَإِنَّمَا أَخْتَصَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ بِعُلُوكِ اِفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا عَلَى ضِفَافِ الْبَحْرِ
الْرُّوْبِيِّ مِنْ جَهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عِدْوَتِهِ الْجَنُوَيَّةِ بِلَادِ الْبَرْبَرِ كُلُّهُمْ مِنْ سَبَّتَةِ إِلَى
الشَّامِ وَعَلَى عِدْوَتِهِ الشَّهَائِلَيَّةِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنجِيَّةِ وَالصَّقَالِيَّةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ
الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَعِّ الْبَحْرُ الْرُّوْبِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّاهَائِلِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عِدْوَتِهِ وَالسَّاكِنُونَ
بِسَيفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عِدْوَتِهِ يُعَاوِنُونَ مِنْ أَخْوَالِهِ مَا لَا تُعَاوِنُهُ أُمَّةٌ مِنْ أَمَمِ
الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتِ الْرُّومُ وَالْإِفْرَنجِيَّةُ وَالْقُوَّطُ بِالْعِدْوَةِ الشَّهَائِلَيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْرُّوْبِيِّ
وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهَرَةً فِي رُكُوبِهِ وَالْحَرْبِ فِي
أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسْفَتَ مَنْ أَسْفَتَ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعِدْوَةِ الْجَنُوَيَّةِ مِثْلَ الْرُّومِ إِلَى اِفْرِيقِيَّةِ
وَالْقُوَّطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوكُوهَا وَتَغْلِبُوا عَلَى الْبَرْبَرِ بِهَا وَأَنْتَزَعُوا
مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمُدُنُ الْحَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجَةَ وَسَيِّطَلَةَ وَجَلُولَةَ وَمِرْنَاقَ
وَشِرْشَالَ وَطَنِيَّةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ
الْأَسَاطِيلَ لِحَرِبَةِ مَشْحُونَةِ بِالْمَسَارِكِ وَالْعِدَادِ فَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ

أَسَاكِنَ حَفَافِهِ مَعْرُوفَةً فِي الْقَدِيمِ وَالْمُحَدِّثِ وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عَمَرُ
 ابْنُ الْخَطَابِ إِلَى عَمَرٍ وَبْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفَ لِي الْبَحْرَ كَتَبَ إِلَيْهِ
 إِنَّ الْبَحْرَ خَلْقُ عَظِيمٍ يَزِيزُ كُبَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عُودٍ فَأَوْزَعَ حِينَذَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ
 مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكِبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ أَفْتَاتَ عَلَى عَمَرٍ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ
 عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرَفةَ جَمَادِيَّةَ بْنِ هَرَشَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ بَعِيلَةِ لَمَّا أَغْزَاهُ عَمَانَ فَبَلَغَهُ غَزْوَةُ
 فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَذَفَهُ أَنَّهُ رَكَبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا
 كَانَ لِعَهْدِ مُعاوِيَةَ أَذْنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبُّ فِي ذَلِكَ
 أَنَّ الْعَرَبَ لِبَدَاقِتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُهَرَّةً فِي ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ وَأَرْشُومُ وَالْإِفْرَنجِ لِمَارَسُوهُمْ
 أَحْوَالَهُ وَمَرَبَّاهُمْ فِي التَّقَبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرِنُوا عَلَيْهِ وَأَخْسَكُوا الْدَّرَابِيَّةَ بِثِقَافَتِهِ فَلَمَّا
 أَسْتَقَرَ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَتَّمَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمُّ الْعَجَمِ خَوْلًا لَهُمْ وَتَحْتَ أَبْدِيهِمْ
 وَلَقَرَبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ يُمْبَلَغُ صَنَاعَتِهِ وَاسْتَهْدَوْا مِنَ النَّوَاتِيَّةِ فِي حَاجَاتِهِمْ
 الْبَحْرِيَّةِ أَمْمًا وَتَكَرَّرَتْ مَهَارَسُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتِهِ وَاسْتَهْدَوْا بُصَرَاءَ بِهَا فَشَرَهُوا إِلَى
 الْجِهادِ فِيهِ وَأَشَأُوا السُّفُنَ فِيهِ وَالشَّوَّانِيَّ وَشَنُونَا الْأَسَاطِيلَ بِالْجَالِ وَالسِّلاحِ وَامْطَوْهَا
 الْعَسَكِرِ وَالْمُقَاتَلَةِ لِمَنْ وَرَأَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَّةِ الْكُفَّرِ وَأَخْتَصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَعَالِكِهِمْ
 وَشُوْرِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
 وَأَوْزَعَ الْخَلِيلَةَ عَبْدَ الْمَلِكِ إِلَى حَسَانَ بْنِ النَّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةِ بِالْتَّغَازِ دَارِ صَنَاعَةِ
 بِتُونِسِ لِإِنْشَاءِ الْآلاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا إِلَى مَرَاسِمِ الْجِهادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقَلِيَّةِ أَيَّامِ
 زِيَادَةِ اللَّهِ الْأَوَّلِ أَبْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَعْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ شَيْخِ الْفَتَيَا وَفَتْحُ
 قُوْصَرَةِ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعاوِيَةَ بْنُ حَدِيجَ أَغْزَى صِيقَلِيَّةَ بَامَ مُعاوِيَةَ بْنِ
 أَبِي سُفَيْفَانَ فَلَمْ يَفْتَحْ اللَّهُ عَلَى يَدِيهِ وَفَتَحَتْ عَلَى يَدِ أَبْنِ الْأَعْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ
 وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دُوَلَةِ الْعُبَيْدِيَّينَ وَالْأَمْوَيَّينَ تَعَاقَبَ
 إِلَى بِالْأَدِهْمَاءِ فِي سَيِّلِ الْفَتَنَةِ فَتَجْعُونُ خَلَالَ السَّواحلِ بِالْأَفْسَادِ وَالْتَّغْرِيبِ وَأَنْتَهُ
 أَسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَائِتَيِّ مَرَّكَ أَوْ نَحْوُهَا وَأَسْطُولُ
 أَفْرِيقِيَّةِ كَذَلِكَ مَثَلَهُ أَوْ قَرِيبَاهُ مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ أَبْنُ دُمَاحِسَ
 وَمَرْفَاهَا لِلْجَطَّ وَالْإِفْلَاعِ بِجَاهِيَّةِ وَالْمِرْيَةِ وَكَانَ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْمَالِكِ

مِنْ كُلِّ بَلْدَيْ لَتَخَذُ فِيهَا السُّفْنُ أَسْطُولٌ يُوجِّهُ نَظَرَهُ إِلَى قَائِمَيْ مِنَ الْوَاتِيَّةِ يُدْبِرُ أَمْرَ حَرَبِهِ
وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَرَئِسِهِ يُدْبِرُ أَمْرَ جَرِبَتِهِ يَأْتِي بِهِ أَوْ بِالْجَادِيفِ وَأَمْرَ إِزْسَائِهِ فِي
مَرْفَقِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِغَزْ وَمُحْشَفَلُ أَوْ غَرَضِ سُلْطَانِيِّ مِنْهُمْ عَنَكَرَتْ بِعَرْقِهَا
الْمَعْلُومِ وَشَخَنَهَا السُّلْطَانُ يُرِيجَهُ وَأَنْجَادَ عَسَكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعْلُهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرِ وَاحِدٍ
مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمَلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلَّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسْرِحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ
أَيَّابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْفَيْمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعِهْدَةِ الدُّولَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَذَغَلُوا عَلَى هَذَا
الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِيهِ وَعَظَمَتْ صَوْلَاهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلأَمْمِ الْنَّصَارَى
قَبْلُ يَاسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِيهِ وَأَمْتَهَوا ظَهَرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمْ
الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْفَيْمَةِ وَمَلَكُوكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطَعَةِ عَنِ الْمَوَاحِلِ
فِيهِ مِثْلَ مَيُورَقَةَ وَمَنْوَرَقَةَ وَبَيَاسَةَ وَسَرْدَانِيَّةَ وَصَفْلَيَّةَ وَقَوْصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَفْرِيَطِيشَ
وَقَبْرُسَ وَسَائِرَ مَمَالِكِ الْرُّومِ وَالْأَفْرَنجِ وَكَانَ أَبُو الْفَاسِمِ الشَّيْعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ
أَسَاطِيلِهِمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنَقَّبُ بِالظَّفَرِ وَالْفَيْمَةِ وَأَفْسَحُ نُعَاهِدُ الْعَامِرِيَّ
مَهَاجِبُ دَانِيَّةِ مِنْ مُلُوكِ الْطَّوَافِيْفِ جَزِيرَةَ سَرْدَانِيَّةِ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ
وَأَرْبَعِمِائَةِ النَّصَارَى لِوَقْتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خَلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَفَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ جُلُّهُ هَذَا
الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَّةً وَذَاهِيَّةً وَالْعَسَكِرُ الْإِسْلَامِيُّ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي
الْأَسَاطِيلِ مِنْ صَفْلَيَّةِ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لِمَا مِنَ الْعُدُوَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قَوْفَعْ مُلُوكِ
الْأَفْرَنجِ وَتُشَخِّنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحَسِينِ مُلُوكِ صَفْلَيَّةِ الْقَائِمِينَ
فِيهَا يَدْعُونَ الْعَبَدِيَّينَ وَأَنْجَازَتْ أَمَمُ الْنَّصَارَى يَاسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الْشَّرْقِيِّ
مِنْهُ مِنْ مَوَاحِلِ الْإِفْرَنجِيَّةِ وَالصَّفَالِيَّةِ وَجَزَائِرِ الْرُّومَانِيَّةِ لَا يَعْدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ
قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ الْأَسْدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَكْثَرُ مِنْ بَسِطِ هَذَا الْبَحْرِ
عَدَّةً وَعَدَّا وَأَخْتَلَتْ فِي طُرُقِهِ سَلْمًا وَحَرَبًا فَلَمْ تَظْهُرْ لِلنَّصَارَى فِيهِ أَنْوَاحُهُ حَتَّى إِذَا
أَدْرَكَ الْدُّولَةُ الْعَبَدِيَّةُ وَالْأَمُوَّيَّةُ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ وَطَرَقَهَا أَلْأَعْتِلَالُ مَدَ النَّصَارَى أَيْدِيهِمْ
إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ مِثْلَ صَفْلَيَّةِ وَأَفْرِيَطِيشِ وَمَالِطَةِ فَمَلَكُوكُهَا شَمَ الْمَوَاعِدَ وَمَوَاحِلِ الشَّامِ
فِي تِلْكَ الْفَتَرَةِ وَمَلَكُوكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَاءَ وَأَسْتَولَوا عَلَى جَمِيعِ الْغُورِ
بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى يَسْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنَوا عَلَيْهِ كَيْسَةَ لِمَظَاهِرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

يَقْبَلُ خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسْ ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمُ الْجِزِيرَةَ ثُمَّ مَلَكُوا الْمُهَدِّيَةَ مُقْرَنَ
 مَلْوِكُ الْعُبَدِيَّينَ مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بَلْكِينَ بْنِ زِيرِي وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ
 الْحَكْرَةُ بِهَذَا الْبَحْرِ وَضَعُفَ شَانُ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ إِلَى أَنْ انْقَطَعَ وَلَمْ
 يَعْتَنِوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدُّولَةِ الْعُبَدِيَّةِ عِنَيَّةٌ تَعَاوَزَتْ
 الْمَدَّ سَكَمًا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْأَخْبَارِ مِنْ قَبْلَ رَسْمٍ هُوَ الْوَظِيفَةُ هُنَاكَ وَبَقِيَتْ
 بِالْفَرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَةً بِهَا وَكَانَ الْجَانِبُ الْفَرِيقِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ الْقُوَّةَ لَمْ يَشْحِفْ عَدُوًّا وَلَا كَانَ لَهُمْ بِهِ كُرْكَةٌ نَكَانَ فَائِدُ
 الْأَسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ الْمُتُوْنَةِ بَنِي مِيمُونَ زُوَّاسَاهُ جَزِيرَةٌ فَادِسٌ وَمِنْ أَنْدِيهِمْ أَخْذَهَا
 عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتْهُمْ وَأَنْتَهُ عَدُدُ اسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ
 الْعُدُوَّيْنِ جَمِيعًا * وَلَمَّا أَسْتَعْمَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحَّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَمَلَكُوا
 الْعُدُوَّيْنَ أَقَامُوا خَطَّةً هَذَا الْأَسْطُولِ عَلَى أَنْتَمْ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عُهِدَ وَكَانَ فَائِدُ
 أَسْطُولِهِمْ أَخْدَدَ الْصَّقْلَى أَصْلُهُ مِنْ صَدَ غِيَارَ الْمُوْطَنِينَ بِمِيزَرَةٍ سَرْوِكَشَ أَسْرَهُ الْنَّصَارَى
 مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِّيَ عِنْدَهُمْ وَأَسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صَقْلَى وَأَسْتَكَنَاهُ ثُمَّ هَلَكَ وَوَلَيَّ أَبْنَهُ
 فَأَسْخَطَهُ بِعَضُ الْنِّزَاعَاتِ وَخَسَيَ عَلَى نَسِيَّهِ وَلَمَّا حَقَقَ بِتُونِسَ وَنَزَلَ عَلَى السَّيْدِ بِهَا مِنْ بَنِي
 عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَاكِشَ فَتَلَقَاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَبَرَّةِ
 وَالْكَرَامَةِ وَاجْزَلَ الْعِصْلَةَ وَقَلَدَهُ أَمْرُ اسَاطِيلِهِ بَغْلَى فِي جِهَادِ أَمْمِ النَّصَارَى وَكَانَتْ
 لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذَكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحَّدِينَ * وَأَنْتَهَتْ اسَاطِيلِ
 الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْحَكْرَةِ وَالْإِسْجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَا بَعْدُ فِيهَا
 عَهْدَنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ يَا سِنْزِ جَاعَ
 شُغُورُ الشَّامِ مِنْ يَدِ أَمْمِ النَّصَارَى وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَابَعَتْ اسَاطِيلِهِمْ بِالْمَدَدِ
 لِتِلْكَ الشُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانُوا قَدِ أَسْتَوْلَوا عَلَيْهِ فَأَمْدُودُمْ
 بِالْعَدَدِ وَالْأَفْوَاتِ وَلَمْ تُقاومُهُمْ اسَاطِيلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِأَسْتِمْرَارِ الْقُلُبِ لَهُمْ فِي ذِلِكَ
 الْجَانِبُ الشَّرْقِيُّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدَّ اسَاطِيلِهِمْ فِيهِ وَضَعُفَ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانِ طَوَيْلِ
 عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشَرَّنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوَحَّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذِهِ مِنْ بَنِي مُنْقِذِهِ

مُلُوكَ شَيْرَ وَكَانَ مَلِكًا مِنْ أَبْنَيْهِمْ وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ قَبْعَثَ عَبْدَ الْمُسْتَرِّيمِ مِنْهُمْ
 هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ لِتَحُولَ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ
 وَبَيْنَ مَرَاسِيهِمْ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ يُشْعُورُ الشَّامَ وَأَصْحَابَ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ
 الْفَاضِلِ الْبَيْسَانِيِّ يَقُولُ فِي أَفْتَاحِهِ فَتَحَ اللَّهُ لِسِيدِنَا أَبُوَابَ الْمَنَاجِعِ وَالْمِيَامِنِ حَسْبَمَا
 نَقْلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَنَقَمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَحَافِيْهِمْ عَنْ
 خِطَابِهِ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي تَفْسِيرِهِ وَحَمَاهُمْ عَلَى مَنَاجِعِ الْبَرِّ وَالْمَكَارِمِ وَرَدَهُمْ
 إِلَى مُرْسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبَهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ
 بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِالْنَّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الْشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْأَسْتِطْالَةِ وَعَدَمِ
 غَنَائِيَّةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَانِ الْأَسَاطِيلِ الْبَغْرِيَّةِ وَالْأَسْتِعْدَادِ
 مِنْهَا لِلْدُوَلَةِ وَلَمَّا هَلَّ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَاعْتَدَتْ دُوَلَةُ الْمُوَحَّدِينَ وَأَسْتَوَتْ أُمُّ
 الْجَلَالِقَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَهَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ الْبَغْرِ وَمَلَكُوا
 الْجَزَائِرَ الَّتِي يَا لِلْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الْرُّومِيِّ قَوَيَّتْ رِيعَهُمْ فِي بَسِطِ هَذَا الْبَغْرِ وَأَشَدَّتْ
 شَوَّكَتْهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاقَةِ مَعَهُمْ
 كَمَا وَقَعَ لِعِهْدِ الْسُّلْطَانِ أَبِي الْخَسْنِ مَلِكِ زَنَاتَةِ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ
 مَرَامِيهِ الْجَهَادِ مِثْلَ عُدَدِ الْنَّصْرَانِيَّةِ وَعَدَيْدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ الْأَصْعَفِ الْدُوَلَيَّةِ وَنِسْبَانِ عَوَادِيِّ الْبَغْرِ بِكَثِيرَةِ الْعَوَادِيِّ الْبَدُوَيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَأَنْقِطَاعِ
 الْعَوَادِيِّ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجَعَ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمْ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدَّرْبَةِ فِيهِ وَالْمَرْانِ
 عَلَيْهِ وَالْبَصَرِ بِالْحَوَالِهِ وَغَلَبَ الْأَمْمَ فِي لِجَتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَضَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ
 إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمَرْانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثَرَةً بِنَ الْأَنْصَارِ
 وَالْأَغْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدُّوَلَةِ تَسْتَعِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتُوضِّعُ لَهُمْ فِي هَذَا الْفَرَضِ مَسْلَكًا
 وَبَقِيَّتْ أَرْثَاثُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدُّوَلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةً وَأَرْتَمَ فِي مَعَانِيَ الْأَسَاطِيلِ يَا لِإِنْشَاءِ
 وَالْأَلْوَكِ بِمَعْنُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُوهُ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ الْسَّلَطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ
 الْبَغْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهِونُ أَلْرِيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَقَنَ الْمُشْتَهِرُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 عَنْ كُتُبِ الْحَدَّثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكَسْرَةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَأَفْتَاحِ
 الْبَغْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرِنجِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ

حسَبْنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف وانقل في الدول

إعلم أنَّ السيفَ والقلمَ كلاهما آلةُ اصَاحِبِ الدُّولَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ
الْحَاجَةَ فِي أَوْلِ الدُّولَةِ إِلَى السيفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِ أَشَدُّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى
القلمِ لِأَنَّ القلمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنْفَذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالْسِيفُ شَرِيكٌ فِي
الْمَعْوِنَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدُّولَةِ حَيْثُ تَضَعُتْ عَصَبَتِهِمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِيلُ أَهْلُهَا يَمَا
يَنَالُهُمْ مِنْ الْمُرْمَمِ الَّذِي قَدْ مَنَاهُ فَتَعْتَاجُ الدُّولَةُ إِلَى الْأَسْتِظْهَارِ بِأَزْبَابِ السِّيفِ وَتَقْوِي
الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدُّولَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّانُ أَوْلَى الْأَبْرِيزِ فِي تَمْهِيدِهَا
فَيَكُونُ لِلْسِيفِ مَرِيَّةً عَلَى القلمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَزْبَابُ السِيفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهَاهَا
وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَاسْتَنْفَطَ أَفْطَاءً وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدُّولَةِ فَيَسْتَغْفِي صَاحِبُهَا بَعْضَ الشَّئْءِ عَنِ
الْسِيفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَقِنْ هُمْ إِلَّا فِي تَعْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنْ الْجِنَاحِيَّةِ
وَالْفَبْطِ وَمِبَاهاةِ الدُّولَ وَتَنْفِيذِ الْأَخْكَامِ وَالقلمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْظُمُ الْحَاجَةُ
إِلَى تَصْرِيفِهِ وَيَكُونُ السِّيفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَغْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَّا بَتْ نَائِيَّةً أَوْ
دُعِيتُ إِلَى سَدِيرِ فُرْجَةِ وَمِمَّا سَوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَزْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي
هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهَاهَا وَأَعْلَى رُتبَةَ وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَتَرَوَةً وَأَفْرَبَ مِنْ السُّلْطَانِ بِمَجِلِّسِهِ
وَأَكْثَرُ إِلَيْهِ تَرَدُّداً وَفِي خَلْوَاتِهِ نَجِيَّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ الْمُلْكُ الَّذِي يَهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَعْصِيلِ
ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَالنَّظَرُ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَشْقِيفُ أَطْرَافِهِ وَالْمِبَاهاةِ بِأَخْوَالِهِ وَيَكُونُ
الْوَزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السِّيفِ مُسْتَغْفَنِي عَنْهُمْ مُبَعِّدِينَ عَنْ بَاطِنِ السُّلْطَانِ حَذِيرَيْنَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمُنْصُورِ حِينَ أَمْرَهُ
بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَائِباً الْفُرْسِ أَخْوَفُ مَا يَكُونُ الْوَزَرَاءُ إِذَا
سَكَنَتِ الدُّهْمَاءُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعلم أنَّ لِلْسُلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَخْوَالًا تَقْتَضِيهَا الْأَبْرَهَةُ وَالْبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

يَأْتِيَنَا عَنِ الرُّؤْيَا وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤْسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَمْ يَكُنْ مَا هُوَ مُشْهَرٌ مِنْهَا
 يُمْلِغُ الْمَعْرِفَةَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٍ
 الْآلَةُ * فَإِنْ شَارَاتِ الْمَلَكِ أَتَخَادُ الْآلَةَ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوَيَةِ وَالْأَرَائِيَاتِ وَقَرْعِ الْطَّبُولِ
 وَالنَّفْخِ فِي الْأَبْوَاقِ وَالْقَرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرْسَطُوا فِي الْكِتَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي الْسِّيَاسَةِ
 أَنَّ الْسَّرَّ فِي ذَلِكَ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْمَاهِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ
 بِالرَّوْعَةِ وَالْعُمْرِي إِنَّهُ أَمْرٌ وَجْدَانِي فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ تَفْسِيهِ وَهَذَا
 السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرْسَطُوا إِنْ كَانَ ذَكْرَهُ فَهُوَ مُخْبِحٌ يَعْضُلُ الْأَعْتِباَتِ * وَأَمَّا
 الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النَّفَرِ وَالْأَصْوَاتِ يُدْرِكُهَا الْفَرَحُ وَالْطَّرَبُ بِلَا
 شَكٍ فَيُصِيبُ زِيَاجَ الرُّوحِ نَشَوةً يَسْتَبْهِلُ بِهَا الصَّبَبُ وَيَسْتَهِمُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ
 الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَّاتِ الْمُجْمَعِ يَأْتِيَنَا الْأَيْلِ بِالْحِدَاءِ وَالْجَلِيلِ
 بِالصَّنِيرِ وَالصَّرِيعِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبةً كَمَا
 فِي الْفِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِيَّهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ تَتَعَذَّذُ الْعِجمُ فِي
 مَوَاطِنِ حُرُودِهِمُ الْآلَاتُ الْمُوْسِيقِيَّةُ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بُوقًا فَيُحَدِّقُ الْمُغْنِونَ بِالسُّلْطَانِ فِي
 مُوكِبِهِ بِالْأَتِيَّهِمْ وَيَغْنُونَ فِي حَرَقَ كُونَ نُفُوسَ الشَّجَاعَانِ يَضَرِّهِمْ إِلَى الْأَسْتِمَانَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي
 حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنِّي أَمَامَ الْمَوْكِبِ بِالشِّعْرِ وَيُطَرِّبُ فَتَجِيشُهُمُ الْأَبْطَالُ بِمَا فِيهَا
 وَيُسَارِعُونَ إِلَى نَجَالِ الْحَرْبِ وَيَتَبَعِثُ كُلُّ قَرْنٍ إِلَى قِرْنِهِ وَكَذَلِكَ زَنَاتَهُ مِنْ أَنْهِ الْمَغْرِبِ
 بِتَقْدِيمِ الشَّاعِرِ عِنْهُمْ أَمَامَ الصُّوفِ وَيَتَغَنِّي فِي حِرَكَتِهِ الْجِبَالَ الْرَّوَاسِيَّ وَيَبْعَثُ عَلَى
 الْأَسْتِمَانَةِ مَنْ لَا يَظْنُنُ بِهَا وَيُسْمِونَ ذَلِكَ الْفِنَاءَ تَاصُوكَاتٍ وَأَصْلَهُ كُلُّ فَرَحٍ يَحْدُثُ فِي
 النَّفْسِ فَتَبَعِثُ عَنْهُ الْبَجَاءَ كَمَا تَبَعِثُ عَنِ النَّشَوةِ الْمُحْمِرِ بِمَا حَدَثَ عَنْهَا مِنْ الْفَرَحِ وَاللهُ
 أَعْلَمُ وَأَمَّا تَصْكِيَّهُ الْأَرَائِيَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتِهَا فَأَنْقَصَدُهُ إِلَى التَّهْوِيلِ لَا أَنْزَلَ وَرَبَّهُ مَا يَحْدُثُ
 فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةً فِي الْأَقْدَامِ وَأَحْوَالِ النُّفُوسِ وَتَلْوِينَاتِهَا غَرَبِيَّةً وَاللهُ أَخْلَاقُ
 الْعَلِيِّ * ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالْأَدْوَلَ يَخْتَلِفُونَ فِي أَتَخَادِهِ هُذِهِ الشَّارَاتُ فِيهِمْ مُكْثُرٌ وَمِنْهُمْ
 مُقْلِلٌ يَحْسَبُ أَتِسَاعَ الدُّوَلَةِ وَعِظَمَهَا فَأَمَّا الْأَرَائِيَاتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيقَةِ

(١) فُولَةٌ موسيقِيَّةٌ فِي نُحْفَةِ الْمُوْسِيقَارِ؛ وَهِيَ صِحَّةٌ لِأَنَّ الْمُوْسِيقَ بِكَرِ القَافِ بَيْنَ الْمُهَمَّيْنِ اسْمَ الْنَّفَرِ
 وَالْمُحْمَرِ وَتَوْفِيقُهَا وَيَقَالُ فِيهَا مُوسِيَّرٌ وَيَقَالُ لِضَارِبِ الْآلَةِ مُوسِيَّارٌ انْظُرْ أَوْلَ سَيِّدَةِ الشِّعْفِ مُحَمَّدَ شَهَابَ

وَلَمْ تَزُلِ الْأَمْمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحَرُوبِ وَالْغَزَّاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُخْلَفَاءِ * وَأَمَا قَرْعُ الْطَّبُولِ وَالْمَفْخُونُ فِي الْأَبْوَاقِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ
 الْمُلَمَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنَزُّهًا عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ وَرَفْضًا لِأَخْوَاهُ وَاحْتِقارًا لِأَهْبَتِهِ الَّتِي لَبَسَتْ
 مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ هُنَّتِي إِذَا أَنْتَلَبَتِ الْخِلَافَةَ مُلْكًا وَتَبَحْرُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا وَلَا بَسْمُ
 الْمَوَالِيِّ مِنَ الْفُرْسِ وَالشُّوْرِمِ أَهْلِ الدُّوَلِ الْأَسَافِفِ وَأَرْوُهُمْ مَا كَانَ أَوْلَئِكَ يَتَحَلَّوْنَهُ مِنْ
 مَذَاهِبِ الْبَذْخِ وَالْتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا أَسْتَخِسَنُوهُ اتَّخَادُ الْأَلَّةِ فَأَخْذُوهَا وَأَذْنُوا لِعَمَالِهِمْ
 فِي اتَّخَادِهَا تَنْوِيهِمَا بِالْمُلْكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الْغَنْمِ أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ
 يَعْقِدُهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْعَبَاسِيِّينَ أَوِ الْعَبَيْدِيِّينَ لِوَاهِهِ وَيَخْرُجُ إِلَيْهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ
 الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوْكِبِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَرَابَاتِ وَالآلاتِ فَلَا يُمِيزُ بَيْنَ مَوْكِبِ الْعَامِلِ
 وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْأَلْوَاهِ وَفَلَتِهَا أَوْ بِمَا أَخْتُصَنَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ الْأَلْوَانِ لِرَابِتِهِ كَالْسَّوَادِ
 فِي رَأْيَاتِ بَنِي الْعَبَاسِ فَإِنْ رَأَيْكُمْ كَانَتْ سُودًا حَزِنًا عَلَى شَهَدَائِهِمْ مِنْ نَبِيِّ هَاشِمٍ وَنَعِيمًا
 عَلَى بَنِي أَمِيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذَلِكَ سَمِّوَا الْمُسْوَدَةَ * وَلَمَّا أَفْتَرَقَ أَمْرُ الْهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ
 الْطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصَرَ ذَهَبُوا إِلَيْهِ مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ فَأَخْذَوْا
 أَرَابَاتِهِمْ يَضْرِبُونَهُمْ وَسُمِّوَا الْعُيْضَةَ لِذَلِكَ - ثَاثَرَ أَيَّامُ الْعَبَيْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ الْطَّالِبِيِّينَ فِي
 ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ كَالْدَاعِيِّ بِطَبَرِيَّةِ سَكَانَ وَدَاعِيِّ صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ بِدُعَةِ الْأَرْفَاضِ
 مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرْأَمِيَّةِ وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ الْسَّوَادِ وَشَعَارِهِ فِي دُوَلَتِهِ عَدَلَ إِلَيْهِ
 لَوْنِ الْمُخْفَرَةِ فَجَعَلَ رَأْيَتَهُ خَفْرًا وَأَمَا الْأَسْنَةُ كَثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ حَدٌّ وَقَدْ كَانَ
 آتَاهُ الْعَبَيْدِيِّينَ آمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَيْهِ فَتَحَمَّلَ الشَّامُ خَمْسِيَّاتَهُ مِنَ الْبَنُودِ وَخَمْسِيَّاتَهُ مِنَ
 الْأَبْوَاقِ وَآمَّا مُلُوكُ الْبَرِّ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنَاهَاجَةَ وَغَيْرُهَا فَلَمْ يُخْتَصُوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ
 وَشَوَّهُهَا بِالْذَّهَبِ وَأَخْذَوْهَا مِنْ الْحَرَيرِ أَخْلَالِهِ مُلَوَّنَةً وَأَسْتَعْرُوا عَلَى الْإِذْنِ فِيهَا لِعَمَالِهِمْ
 حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوَلَةُ الْمُوْحَدِينَ وَمَنْ بَعْدُهُمْ مِنْ زَنَاتَهُ قَصَرُوا أَلَّةَ مِنْ الْطَّبُولِ وَالشُّودِ
 عَلَى السُّلْطَانِ وَحَفَرُوهَا عَلَى مَنْ سَوَاهُمْ مِنْ عُمَالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِبًا خَاصًا يَتَبعُ أَثَرَ السُّلْطَانِ
 فِي مَسِيرِهِ يَسْعِي الْأَسَاقَةُ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكَثَّرٍ وَمُقْلَلٍ بِالْخِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ
 فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةِ مِنَ الْعَدَدِ تَبَرُّ كَمَا يَأْسِبُهُ كَمَا هُوَ فِي دَوَلَةِ الْمُوْحَدِينَ وَبَنِي
 الْأَخْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَلَغَّلُ الْعَشَرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَهُ وَقَدْ بَلَغَتِ فِي

أَيَّامُ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ فِيمَا أَذْرَكَنَاهُ مِائَةً مِنَ الْطَّبُولِ وَمِائَةً مِنَ الْبَنُودِ مُلْوَثَةً
بِالْخَرَبِ مُتَسُوجَةً بِالْذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَبَا ذُنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْقُوَادِ فِي
أَتَخَازِ رَأْيَةِ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْإِسْكَانِ يَنْضَاءُ وَطَبَلْ صَغِيرٌ أَيَّامَ الْحَزَبِ لَا يَجُوازُونَ
ذَلِكَ وَأَمَا دَوْلَةُ التَّرْكِ لِهَا الْعَهْدُ بِالْمَشْرِقِ فَيَتَخَذُونَ رَأْيَةَ وَاحِدَةَ عَظِيمَةَ وَفِي رَأْسِهَا
خُصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشِّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالِشَ وَالْجَنَرَ وَهِيَ شَعَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّ
الرَّأْيَاتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاجِقَ وَاحْلَمُهَا سَبُعَقَ وَهِيَ الْرَأْيَةُ بِلِسَانِهِمْ . . وَأَمَا الْطَّبُولُ فِي بَيْلَالِغُونَ
فِي الْأَسْتِكْشَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُبِحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدٍ عَنْكَرِ أَنْ
يَتَخَذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجَنَرَ فَإِنَّهُ خَاصٌ بِالْسُّلْطَانِ . . وَأَمَا الْجَلَالِقَةُ لِهَا الْعَهْدُ مِنْ
أَمْمَ الْإِفْرَنجِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ أَتَخَازِ الْأَلْوَيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي الْجَوَّ صُدُّدًا
وَمَعْهَا قَرْنَعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الْعَطَنَابِرِ وَتَفْنِغُ الْغَيْطَاتِ يَذَهَبُونَ فِيهَا مَذَهَبُ الْفَنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ
حُرُوبِهِمْ هُكَّذَا يَلْعَنُونَ عَنْهُمْ وَعُمْنَ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آبَاتِهِ خَلَقُ الْسَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ الْسِنَتِكُمْ . . وَأَلْوَانِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِي لِلْعَابِنِ

(السرير) . . وَأَمَا الْسَّرِيرُ وَالْمِنْبَرُ وَالثِّنْتُ وَالْكُرْسِيُّ فَهِيَ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ
مُنْضَدَّةٌ جَلْوَسُ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ بَيْلَالِهِمْ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الْصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ
ذَلِكَ مِنْ سِنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دُولِ الْجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ عَلَى أَسْرَةِ الْذَّهَبِ
وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنَ دَاؤِدَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا أَوْسَأَ سَلَامُهُ كُرْبِيَّ وَسَرِيرَهُ مِنْ عَاجٍ مُفْسَنِيِّ بِالْذَّهَبِ
إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الْتَّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتَخْفَالِ وَالْتَّرَفِ شَانَ الْأَبْهَةِ كُلُّهَا كَمَا قُلْنَا
وَأَمَا فِي أَوَّلِ الدُّوَلَةِ عِنْدَ الْبِداوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ . . وَأَوَّلُ مَنْ أَتَخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ
مُعَاوِيَةً وَأَسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدِينْتُ فَأَذْنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ
الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأَبْهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عُمَرُ وَبْنُ الْعَامِيِّ يَمْضِرُ يَجْلِسُ
فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقْوَقُسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنْ الْذَّهَبِ
مَعْهُ لَا عَلَى الْأَيْدِيِّ يَجْلِسُ شَانَ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاهُ لَهُ
بِمَا أَعْتَدَ مَعْهُمْ مِنْ الْذِمَّةِ وَأَطْرَاحَا لِأَبْهَةِ الْمُلُكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبْنِي الْعَمَاسِ
وَالْعَيْدِيَّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقاً وَغَربَاً مِنْ الْأُسْرَةِ وَالْمَنَابِرِ وَالثِّنَّوَتِ مَا عَنَّا عَنَّ
الْأَكَاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّهُ مُقْلِبُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(السلة) وهي آخرتم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديدي ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسم تلك النقش عليها ظاهرة مستقيمة بعدها يعبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير اشخاص الدرهم والدنانير يوزن معين صحيح يصطفع عليه فيكون التعامل بها عددًا وإن لم تقدر اشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولهذه السكة كان أنها للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقش المائلة على الدنانير والدرهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علمًا عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في القود عند المعاملات ويتقون في ملامتها الغش بختمه السلطان عليها بذلك النقش المعروفة وكان ملوك العجم يتذدونها وبنقوش فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعيدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أميرهم . ولما جاء الإسلام ألغى ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراماتهم بين أيديهم ويرذونها في معاملتهم إلى الوزن وبتصارفون بها بينهم إلى أن تقاضش الغش في الدنانير والدرهم لفقدة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدرهم وتتميز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفيها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولـي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك بجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدرهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولـي الحجاز وكتب عليها في أحد أوّل جهين بركة الله وفي الآخر أسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك سنة وكتب عليها أسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام سنة دوائق والمتقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها أثنا عشرة
ومنها عشرة فلما أتيتني بقدره في الرسالة أخذ الوسيط وذلك أثنا عشر قيراطاً
فكان المثقال دزهماً وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها البغلي ثمانيه دوانق
والطبراني أربعة دوانق والمغربي ثمانيه دوانق واليماني ستة دوانق فامر عمر أن ينظر
الأخضر في الشعاعي فكان البغلي والطبراني أثني عشر دانقاً وكان الدرهم ستة
دواائق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً وإذا انقضت ثلاثة عشر دهشورات كان
دزهماً فلما رأى عبد العلاك اتخاذ السكة لصيانته النجدتين الجارتين في معاملة
المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر له بعد عمر وهي الله عنه
وأخذ فيه كلمات لا صوراً لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب من أحاجيم وأظهرها
مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام العلة كلها
وكان الدينار والدرهم على شكلين مدوّرين والمحكمة عليهما في دوائر متوازية
يكتب فيها من أحد وجهين أحدهما الله تهليلاً وتحميداً وصلوة على النبي والله وفي
الوجه الثاني التاريخ وأسم الخليفة وهو كذا أيام العباسين والعبيدتين والأمويين
واما صنهاجة فلم يتبعوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب مجاهدة كر ذلك
ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدى اتخاذ
سكة الدرهم مربع الشكيل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه
وبخلاف من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه
واسم الخليفة من بعده فجعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكيل لهذا
العهد ولقد كان المهدى فيما ينقل ينتفع قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعمه بذلك
المحكمون بالخدشان من قبله المخربون في ملاحمهم عن دولته وأما أهل المشرق
إذا العهد فسكتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزنة بالصنجات
القدرة بعده منها ولا يطبعون عليها بالسكة تقوش الكلمات بالتهليل والصلوة وأسم
السلطان كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم
ولتحتم الكلام في السكة بذلك حقيقة الدرهم والدينار الشريعيين وبيان
حقيقة مقدارهما

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْزَمَ مُخْتَلِفَاً السِّكِّةَ فِي الْمِقْدَارِ وَالْمَوَازِينِ بِالْأَلْفَاقِ
وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعِ فَذَهَرَ عَرَضٌ لِذِكْرِهِمَا وَعَلِقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ
بِهِمَا فِي الْإِزْكَارِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بدَّ لِهِمَا عَنْهُ مِنْ حَقِيقَةِ وَمِقْدَارِ
مَعْنَى فِي تَقْدِيرٍ تَبَرِّي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُمْ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ
مُنْعَقِلٌ مِنْذُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَعَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالنَّاَبِعِينَ أَنَّ الدِّرْزَمَ الشَّرْعِيُّ هُوَ الَّذِي تَرَنَّ
الْعَشْرَةُ مِنْهُ سَبْعَةً مُتَافِلَةً مِنَ الْأَذْهَبِ وَالْأَوْقِيَّةِ مِنْهُ أَرْبَعَهُمَا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبَعَةَ
أَعْشَارِ الدِّينَارِ وَوزْنِ الْمِثْقَالِ مِنَ الْأَذْهَبِ أَثْنَانَ وَسَبْعَوْنَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدِّرْزَمُ
الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَعْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسَانَ حَبَّةً وَهَذِهِ الْمِقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ
فَإِنَّ الدِّرْزَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ يَنْهِمُ عَلَى أَنْوَاعِ اجْوَدُهَا الْطَّبَرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَالْبَغْلِيُّ
وَهُوَ ثَمَانِيَّ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ يَنْهِمَا وَهُوَ سَيِّنَةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الْإِزْكَارَ
فِي مَائَةِ دِرْزَمٍ بَغْلِيَّةً وَمَائَةِ طَبَرِيَّةٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَسَطَّاً وَقَدْ أَخْتَلَفَ النَّاسُ هُنْ
كُلُّهُمْ ذَلِكَ مِنْ وَضْعٍ عَبْدُ الْمَلِكُ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدُ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ .
ذَكَرَ ذَلِكَ الْخُطَاطُمُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ الْسُّنْنِ وَالْمَاوِزِدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ الْسُّلْطَانِيَّةِ
وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَّاَخِرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالدِّرْزَمُ الشَّرْعِيَّانِ
مُجْهَوْلِيَّنِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدُمُ مَعَ تَعْلُقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الْإِزْكَارِ
وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومِي الْمِقْدَارِ فِي ذَلِكَ
الْعَصْرِ لِجَرِيَّ بَيْانِ الْأَحْكَامِ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَنْتَهِي بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُسْتَخْصِيٍّ
فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارِفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا
وَرَنَّهُمَا حَتَّى أَسْتَفْعَلَ الْإِسْلَامُ وَعَظَمَتِ الْأُولَاءُ وَدَعَتِ الْأَخْلَالُ إِلَى تَشْخِيصِهِمَا فِي
الْمِقْدَارِ وَالْوَزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيمُوهُ مِنْ كِلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَفَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ
عَبْدِ الْمَلِكِ فَشَيَّخَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الْأَذْهَنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا
السِّكِّةَ يَا مُنْهِ وَتَارِيخِهِ أَثْرَ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأَسَ
حَقَّ خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكِّةً وَتَلَامِيَّ وُجُودُهَا فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَمْحَى عَنْهُ
وَمَنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَقَعَ أَخْتِيارُ أَهْلِ السِّكِّةِ فِي الدُّوْلَةِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي
الْدِينَارِ وَالدِّرْزَمِ وَأَخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصْوِيرِ مِقَادِيرِهِمَا

الشرعية ذهناً كما كان في الصدر الأول وصار أهل كلِّ أفق يستخرجونَ الحقوقَ الشرعية من سكتِهم بمعونةِ النسبةِ التي ينتها وبينَ مقاديرِها الشرعية وأما وزنُ الذهابِ باثنتينِ وسبعينَ جبةً من الشعيرِ الوسطِ فهو الذي نقلهُ المحققونَ وعليهِ الإجماعُ إلاَّ ابنَ حزمٍ خالفَ ذلكَ وزعمَ أنَّ وزنهُ أربعُ وثمانونَ جبةً . نقل ذلكَ عنهُ القاضي عبدُ الحقِّ وردهُ المحققونَ وعدوهُ وهما وغلطاً وهو الصحيحُ واللهُ يُحقُّ الحقَّ بكلماتِهِ وكذلكَ تعلمُ أنَّ الأدلةَ الشرعيةَ ليستْ هي المتعارفةَ بينَ الناسِ لأنَّ المتعارفةَ مختلفةٌ باختلافِ الأقطارِ والشرعية متحدةٌ ذهناً لا اختلافٌ فيها واللهُ خلقَ كُلَّ شيءٍ وقدرةً تقدِّرُها

(الخاتم) وأما آخرَهُ فهوَ من الخططِ السلطانيةِ والوظائفِ الملوكيَّةِ والختمُ على الرسائلِ والمكُوكِ معروفٌ للملوكِ قبلَ الإسلامِ وبعدهُ وقد ثبتَ في الصحيحينَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرادَ أن يكتبَ إلى قيسَرَ فقيلَ لهُ إنَّ العجمَ لا يقبلُونَ كتاباً إلاَّ أن يكونَ مختوماً فاتَّخذَ خاتماً منْ فضةٍ ونقشَ فيهِ محمدُ رسولُ اللهِ . قالَ البخاريُّ جعلَ الثلاثَ الكلماتَ ثلاثةَ أسطرٍ وختمَ بهِ وقالَ لا ينفعُ أحدٌ مثلهُ قالَ ونختمَ بهِ أبو بكرٍ وعمرٍ وعثمانَ ثم سقطَ منْ يدِ عثمانَ في بشرِ أريضٍ وكانتْ قليلةً الماءَ فلم يدركْ قعرُها بعدُ وأغمضَ عثمانَ وتطيرَ منهُ وصنعَ آخرَ على مثلهِ وفي كيفيةِ نقشِ الخاتمِ والختمِ بهِ وجوهٌ وذلكَ أنَّ الخاتمَ يطلقُ على الآلةِ التي تجعلُ في الإصبعِ ومنهُ شغَّلَ إذا لَسَّةً ويطلقُ على النهايةِ والثمامِ ومنهُ ختمَتْ الأمرَ إذا بلغَتْ آخرَهُ وختمَ القرآنَ كذلكَ ومنهُ خاتمُ النبيينَ وخاتمُ الأمرِ ويطلقُ على السدادِ الذي يسدِّيهِ الأوانيُّ والذِّنانِ ويقالُ فيهِ خاتمٌ ومنهُ قولهُ تعالى خاتمةُ مسلَكٍ وقد غلطَ منْ فسرَ ذلكَ بالنهايةِ والثمامِ قالَ لأنَّ آخرَ ما يجدونهُ في شرائِهم ريحُ المسكِ وليسَ المعنى عليهِ وإنما هوَ منِ الخاتمِ الذي هوَ السدادُ لأنَّ آخرَ يجعلُ لها في الدينِ سداداً للطينِ أو القارِ يحفظُها ويُطَبِّقُ عرفَها وذوقَها في نوعِ في وصفِ خمرٍ الجنةِ بأنَّ سدادَها منِ المسكِ وهوَ طيبٌ عزفًا وذوقًا منِ القارِ والطينِ المعهودَينِ في الدنيا فإذا صنعَ اطلاقُ الخاتمَ على هذِهِ كلماتِ صنعَ اطلاقهُ على آخرِها الثانيَ عنْها وذلكَ أنَّ الخاتمَ إذا نقشتْ بهِ كلماتٍ أو أشكالٍ ثم غُمسَ في مدافِي منَ الطينِ أو مدادِ ووضعَ على صفحَ القرآنِ طاسٍ بقيَ أكثرُ الكلماتِ

في ذلك أَصْنَعَ وَكَذِلِكَ إِذَا طُبَّعَ يَهُ عَلَى جَسْمِ آتِيَ الْشَّعْمِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٍ وَأَزْتَسَمَتْ فَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْأَسْتَقَامَةِ مِنَ الْيُمْنَى وَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لَأَنَّ الْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ بَيْنِ أَوْيَارِ فِي حَتَّمِهِ أَنْ يَكُونَ الْخَتْمُ بِهَذَا الْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي الْمَدَادِ أَوْ الْطِينِ وَوَضْعِهِ فِي الصَّفْحِ فَتَتَقَسَّمُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالْهَامِ يَعْنِي صَحَّةَ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ وَنُفُوذِهِ كَانَ الْكِتَابَ إِنَّمَا يَتَمَّمُ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُوَنِهَا مُلْفِي لَيْسَ يَتَامَّ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتْمُ بِالْخَطِّ الْآخِرِ الْكِتَابِ أَوْ أَوْلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظَمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيعٍ أَوْ بِاسْمِ الْسُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ نُعُوتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عَلَيْهِ صَحَّةَ الْكِتَابِ وَنُفُوذُهُ وَيَسْمِي ذَلِكَ فِي الْمُتَعَارِفِ عَلَامَةً وَيُسَمِّي خَتَّمًا تَشَيَّهَا لَهُ بِأَثْرِ الْخَاتَمِ الْأَصْفَيِّ فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ الْقَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيِّ عَلَامَةٍ وَخَطَّهُ الَّذِي يَنْفِدُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ الْسُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيِّ عَلَامَتُهُ قَالَ الرَّشِيدُ لِيَعْبَرِي بْنَ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوِرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبِدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِيَأْيُهُمَا يَعْبَرِي يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْوَلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شَمَائِلِي فَكَنَّ لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لِمَا كَانَ الْعَلَامَةُ عَلَيْهِ الْرَّسَائِلِ وَالصُّكُوكُ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِ وَيَشَهَدُ لِصَحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ أَنَّ مَعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى الْحَسَنِ عِنْدَ مُرَاوِدَتِهِ إِيَاهُ فِي الْصَّلَعِ صَحِيفَةً يَضَاءَ خَتَّمَ عَلَيْهَا أَسْفَلَهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنِّي أَشْتَرِطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَّمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتَّمِ هُنَّا عَلَامَةٌ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطِيهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جَسْمِ لَيْنِ فَتَتَقَسَّمُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيَجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْخَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى الْمَوْدُودَاتِ وَهُوَ مِنَ السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهِيْنِ آثَارُ الْخَاتَمِ فَيَطْلُقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوْلُ مِنْ أَطْلَاقِ الْخَتَّمِ عَلَى الْكِتَابِ أَيِّ الْعَلَامَةُ مَعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمْرَ لَعْمَرَ بْنَ الْزَّبِيرِ عِنْدَ زِيَادِ بِالْكَوْفَةِ بِمِائَةِ أَلْفِ فَقْعَدَ الْكِتَابَ وَصَبَرَ الْمَائَةَ مَائِيْنَ وَرَفَعَ زِيَادَ حَسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مَعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَجَسَهُ حَقِّ قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخْذَ مَعَاوِيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ دِيوَانَ الْخَاتَمِ ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكِتَابَ وَلَمْ تَكُنْ

تُخَزِّمُ أَيْ جَعَلَ لَهَا السَّدَادَ وَدِيوَانُ الْخَتْمِ عِبَارَةً عَنِ الْكُتُبِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْفَادِ
كِتَبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتْمِ عَلَيْهَا إِمَامًا يَا لَهُ لَمَّا أَوْ يَا لَحْزَمٍ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيَوَانُ عَلَى مَكَانٍ
جَلُوْسٌ هُوَ لَاءُ الْكُتُبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزَمُ لِلِّكْتُوبِ يَكُونُ
إِمَامًا يَدْسُ الْوَرَقَ كَمَا فِي عَزْفِ كِتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَامًا يَا الصَّاقِ رَأْسُ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا
تَنْطَرِي عَلَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ كَمَا فِي عُرْفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ أَوِ
الْأَلْصَاقِ عَلَامَةً يُؤْمِنُ مَعَهَا مِنْ فَتْحِهِ وَالْأَطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى
مَكَانِ الدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْعِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ تُقْسِطُ فِيهِ عَلَامَةً لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ
الْقَشُ فِي الشَّمْعِ وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّولِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ الْلَّصْقِ بِخَاتَمٍ
مَنْقُوشٍ أَيْضًا قَدْ غُمِسَ فِي مَدَافِعِ مِنْ الْطَّينِ مُعَدَّ لِذَلِكَ صِبَغَةً أَحْمَرَ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ
الْقَشُ عَلَيْهِ وَكَانَ هَذَا الْطَّينُ فِي الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ الْخَتْمِ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْ
صِيرَافَ فَيَظَهِرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا أَخْتَامُ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوِ الْنَّقْشُ
السَّدَادِ وَالْحَزَمُ لِلِّكْتُوبِ خَاصٌ بِدِيوَانِ الرَّسَائِلِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ
ثُمَّ أَخْتَلَفَ الْعَرْفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيوَانُ الْكِتَابِ فِي الدُّولَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي
دُولِ الْمَغْرِبِ يَعْدُونَ مِنْ عَلَامَاتِ الْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ الْلَّاصِبَعِ فَبَسْتَحِيدُونَ صَوَاعِدَهُ
مِنَ النَّعْبِ وَيَرْصُعُونَهُ بِالْفَصُوصِ مِنَ الْبَيَافُوتِ وَالْفَيْرُوزَجِ وَالْزُّرْمُودِ وَبِلَبَسِهِ السُّلْطَانُ
شَارَةً فِي عَرْفِهِمْ كَمَا كَانَتِ الْبِرَّةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ وَالْمَظَلَّةُ فِي الدُّولَةِ
الْعَيْدِيَّةِ وَأَلَّا لَهُ مَصْرِفٌ أَلَمْ يُرِفِّ بِهِ حُكْمَهُ

(الطراز) * مِنْ أَبْهَةِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّولِ أَنْ تُرْسِمَ أَسْهَادُهُمْ أَوْ
عَلَامَاتٌ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ اثْوَابِهِمُ الْمُعَدَّةِ لِلِّيَاسِيِّمِ مِنَ الْمَرْبِدِ أَوِ الدَّيَّاجِ أَوِ
الْأَوْبِرِيسِمِ - تُعْتَبِرُ كِتَابَةً خَطِّهَا فِي نَسْجِ الْثَّوْبِ الْخَامِمَ وَإِسْنَادَهُ بِخَيْطِ الْنَّعْبِ أَوْ مَا يُخَالِفُ
لَوْنَ الْثَّوْبِ مِنَ الْخِيُوطِ الْمُلْوَّنَةِ مِنْ غَيْرِ الْنَّعْبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ
وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ تَسْجِيْمِ فَتَصِيرُ الْثَّيَابُ الْمُلُوكِيَّةُ مُعْلَمَةً بِذَلِكَ الْطِرَازَ قَصْدَ الْتَّتْوِيْهِ
بِلِإِسْهَا مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ الْتَّتْوِيْهُ يَمْنَ مِنْ يَخْتَصُّهُ السُّلْطَانُ يَمْلِبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ
تَشْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ وَلَابَتَهُ لِوَظِيفَةِ مِنْ وَظَانَفَ دَوْلَتِهِ وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ
يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الْطِرَازَ بِصُورِ الْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَشْكَالِهِمْ وَصُورِ مُعْنَيَّهُمْ لِذَلِكَ ثُمَّ

أَعْتَاضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكَتْبِ أَمْنَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مُجَرَّسِي
الْفَالِ أوَ الْسِجْلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدُّوَلَتَيْنِ مِنْ أَبْهَةِ الْأُمُورِ وَأَغْنَمَ الْأَخْوَالِ وَكَانَتِ
الدُّولَةُ الْمُعَدَّةُ لِتَسْعَ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تَسْعَ دُورَ الطَّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَىِ
النَّظَرِ فِيهَا يُسْعِي صَاحِبَ الطَّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصِّبَاغِ وَالْأَلَّاهِ وَالْحَاكِمَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ
أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ الْأَتْهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يُقْلِدُونَ ذَلِكَ لِخَوَاصِ دَوْلَتِهِمْ وَثَقَاتِ
مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْمُحَكَّمُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمِّيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَافِيفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي
دَوْلَةِ الْعَبَدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَىِ عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعِجمِ بِالْمَسْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ
نَطَاقُ الدُّولَ عَنِ التَّرَفِ وَالْتَّفَنِ فِيهِ لِفِيقِ نَطَاقِهِ فِي الْأَسْتِيَالِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّولُ تَعَطَّلَتِ
هَذِهِ الْوَظِيفَةُ وَالْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّولِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتِ دَوْلَةُ الْمُوَحَّدِينَ
بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمِّيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لِمَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّدَاجَةِ الَّتِي لَقِنُوهَا عَنِ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تُومَرَتِ الْمَهْدِيِّ
وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالْذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَأَسْتَدْرَكَ
مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدُّولَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِشَكٍّ الْبَاهَةُ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَدْرَكَهُمْ بِالْمَغْرِبِ
فِي الدُّولَةِ الْمُرْبِيَّةِ لِعَنْ فُوَانِهَا وَشُمُوخِهَا رَسَمَا جَلِيلًا لِقِنُوهُ مِنْ دَوْلَةِ أَنَّ الْأَخْمَرَ مُحَكَّمٌ
بِالْأَنْدَلُسِ وَأَتَبَعَهُ فِي ذَلِكَ مُلُوكُ الطَّوَافِيفِ فَأَقَى مِنْهُ لِلْمَخْرَجَ شَاهِدَةً بِالْآثَرِ، وَأَمَّا دَوْلَةُ
الْمُزَّكَّشِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَقِيمَهَا مِنَ الطَّرَازِ تَحْرِيرُ آخِرٍ عَلَىِ مِقْدَارِ مُلْحَكِّمٍ وَعُمْرَانِ
بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَبَسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا
يَنْسِيَحُ مَا تَطَلَّبُهُ الدُّولَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صَنَاعَهُ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الْذَّهَبِ الْخَالِصِ وَبِسْمَوَةِ
الْمُزَّكَّشِ لِفَظَةِ أَعْجَمِيَّةٍ وَبِزَمْنِ أَسْمِ الْسُّلْطَانِ أَوِ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعَدُّهُ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا
يُعِدُّونَهُ لِلْدُّولَةِ مِنْ طَرَفِ الصِّنَاعَةِ الْأَلَائِقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقْدِرُ الْلَّيلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثَيْنَ

الفساطيط والسياج

أَعْلَمُ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ الْمُلُكِ وَتَرَفِهِ اِتِّخَادُ الْأَخْبَيَّةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَازَاتِ مِنْ ثِيَابِ
الْكَتَانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطْنِ فِي كَاهِي بَهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتَنُوعُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرِ
وَصَغِيرٍ عَلَىِ نِسْبَةِ الدُّولَةِ فِي الْثَّرْوَةِ وَالْبَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدُّولَةِ فِي يَوْمَهُمْ
الَّتِي جَرَّتْ عَادَتِهِمْ بِإِتِّخَادِهَا قَبْلَ الْمُلُكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخَلْفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةِ

إنما يسكنون يومئذ التي كانت لهم خياماً من التبر والصوف ولم تزل العرب بذلك العهد بادين إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحرفهم يطعونهم وسائر حملتهم وأخيائهم من الأهل والوليد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحال بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كُلُّ واحدٍ منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقية تحشد الناس على أمره أن يقيموا إذا ذاع ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زباغ وقصتهما في إحراق فساطيط روح وخيمه لأول ولائيه حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فإنه لا يتولى إرادة هؤلء عليهم على الظن إلَّا من يؤمن بوعاد السفهاء من أخيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختص عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بخاناته فيها بعصبيته وصرامتها فلما تفتت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ ونزلوا المدن والأماكن وانتقلوا من سكناً إلى سكناً القصور ومن ظهر الخفت إلى ظهر الحافر أخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها يوماً مختلفة الأشكال مقدراً الأمثال من القوزاء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بانبعاث مذاهب الاختلاف والزينة ويدير الأمير والقائد للعسكر على فساططيه وفازاته من بينهم ساجحاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهل أفراد بالكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره وأما في المشرق فيتحذه كل أمير وإن كان دون السلطان ثم جنحت الدعنة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم تخف ذلك ظهرهم وتقربت السياج بين منازل العسكري وأجتماع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أنيقاً لاختلف الوانه وأستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترتها وكذا كانت دولة الموحديين وزنانة التي أطلقناها كان سرورهم أول أمرهم في يوم سكانهم قبل الملك من أخنيام والقياطين حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور وعادوا إلى سكناً الآخيبة والفساطيط بلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف يمكن إلا أن العساكر به تصريح عرضة للبيات لأجتماعهم في مكان واحد تشتملهم

فيه الصيحة ولخفيتهم من الأهل والولد الذين تكون ألاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوي العزيز

المقصورة للصلوة والدعا في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأَمْوَارِ الْخَلَافِيَّةِ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلُكِ الْإِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرَفْ فِي غَيْرِ دُولِ الْإِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السَّلَطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَاجًا عَلَى الْمُحْرَابِ فَيَحْوِزُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوْلُ مَنْ أَنْغَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَنْيَانَ حِينَ طَعْنَةُ الْخَارِجِيِّ وَالْقَصَّةُ مَعْرُوفَةُ وَقِيلَ أَوْلُ مَنْ أَنْغَذَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمَ حِينَ طَعْنَةُ الْبَمَانِيِّ ثُمَّ أَنْغَذَهَا الْخَلْفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمِيزِ السَّلَطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الْصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَعَدُّ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِ فِي الدُّولَ وَالْأَسْتِحْمَالِ شَانَ أَخْرَالِ الْأَبْهَةِ كُلُّهَا وَمَا زَالَ الشَّانُ ذَلِكَ فِي الدُّولَ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلُّهَا وَعِنْدَ افْتِرَاقِ الدَّوْلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ وَتَعَدُّ الدُّولَ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ اِنْقِراضِ الدَّوْلَةِ الْأُمُوَّرِيَّةِ وَتَعَدُّ مُلُوكُ الْطَّوَافِنِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقِبْرَ وَمَرْوَانَ ثُمَّ الْخَلْفَاءِ الْعَبَدِيَّوْنَ ثُمَّ الْأَتَمِّهِمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ بَنُو بَكَدِيسَ بِفَاسَ وَبَنُو حَمَادَ بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلَكُ الْمُؤْمِنِيْدُونَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَمَحْوَا ذَلِكَ الرَّسْمَ عَلَى طَرِيقَةِ الْبَدَاوِيَّةِ الَّتِي كَانَ شِعَارَهُمْ وَلَمَّا أَسْتَخْلَفَتِ الدَّوْلَةُ وَأَخْذَتِ بِمَحَظِّهَا مِنَ التَّرَفِ وَجَاهَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَأَتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَمَكَذَا كَانَ الشَّانُ فِي سَائِرِ الدُّولِ سَنَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخِطَبَةِ فَكَانَ الشَّانُ أَوْلَأَ عِنْدَ الْخَلْفَاءِ وَلَا يَبْلُغُ الْصَّلَاةَ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الْصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرِّفَى عَنْ أَنْتَخَابِهِ وَأَوْلُ مَنْ أَتَّخَذَ الْمِنَابِرَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوْلُ مَنْ دَعَا لِلْخِلِيفَةِ عَلَى الْعَنْبَرِ أَبْنَ عَبَّاسِ دَعَا لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي أَبِيِّ اللَّهِ عَنْهُمَا فِي خِطَبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصَرَةِ عَامِلٌ لَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْصِرْ عَلَيْاً عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصِلْ الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ وَبَعْدَ أَخْذِ عُمَرَ وَبْنِ الْعَاصِ الْمِنَابِرَ بِلَغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنَ الْخَطَابِ أَمَا بَعْدَ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَتَّخَذْتَ مِنِيرًا تَرَقَ بِهِ عَلَى رَقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقْبِكَ فَعَزَّزَتْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرَتْهُ فَلَمَّا حَدَّثَتِ الْأَبْهَةُ وَحَدَّثَتِ الْخَلْفَاءِ الْمَانِعُ مِنَ الْخِطَبَةِ وَالْصَّلَاةِ أَسْتَنَابُوا

فيهم فكان الخطيب يُشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويمًا يأسنه ودعاه له بما جعل الله مرضعه العامل فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قوله من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء المحرر والاستبداد صار المتعذبون على الدول كثيرة ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب أسميه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحضر أن يشاركه فيه أحد أو يسموه إليه وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في سلوب القضاضة ومن أحادي البداوة في التغافل والخشونة ويقعنون بالدعاء على الآباء والأجيال لمن ولأمور المسلمين ويسمون مثل هذو الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عبادية يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العبادى تقليداً في ذلك لما سلفت من الأمر ولا يختلفون بما وراء ذلك من تعينه والتصریح باسمه يعكسى أن يغمراً بن زيان عاهد دولة بي عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكرياء يعني بن أبي حفص على تلمسان ثم بدأ له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كان فيها ذكر أسميه على منابر عمله فقال يغمراً بن عبد الواد ذلك أعودكم بذلك كثرون علينا من شاهدوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بي مرين حضره رسول المنتصر الخليفة بتونس من بي أبي حصن وثالث ملوكيهم وتخالف بعض أيامه عن شهود مجده فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية خلو الخطبة من ذكر سلطانه فإذا ذكر في الدعاء له وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعويه وكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في القضاضة والبداوة فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملوكهم واستئموا شبات الخضارة ومفاني البذخ والآبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفنوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفروا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلوها دولتهم من آثارها والعالم يستأنف والله على كل شيء رقيب

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الام وترتيبها

يعلم أن المحرر وأنواع المقاومة لم تزل واقعة في الخليفة منذ براها الله وأصلها

إِرَادَةُ اِلْتِقَامِ بَعْضُ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلُ عَصَبَتِهِ فَإِذَا تَذَمَّرُوا بِالذَّلِكَ
 وَتَوَافَقَتِ الْطَائِفَاتِ كَمَا يُحْدِهُمَا تَطْلُبُ الْإِلْتِقَامُ وَالْأُخْرَى تُدَافِعُ كَمَا تَأْخُذُ وَهُوَ أَمْرٌ
 طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْإِلْتِقَامِ فِي الْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَهُ
 وَمُنَافَسَةً . . . إِمَّا عُدُوانًا . . . إِمَّا غَضَبَ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ . . . إِمَّا غَضَبَ لِلِّمَالِ وَسَعَى فِي تَمْوِيدِهِ
 فَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَعْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِرَةِ وَالْعَشَائرِ الْمُتَنَاظِرَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ
 الْعُدُوانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْ الْأَمْمَ الْوَحْشِيَّةِ الْأَسْكِينَ بِالْقُفُرِ كُلُّ الْعَرَبِ وَالْأَزْلَكِ
 وَالْأَزْكَمَانِ وَالْأَكْرَادِ وَالْأَشْبَاهِ . . . لَا نَهْمٌ جَعَلُوا أَزْرَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَاهِهِمْ نِيمًا
 يَا بَنِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ أَذْنُوْهُ بِالْحُرُوبِ وَلَا بُغْيَةَ لَوْمٍ فِيمَا وَرَاهُ ذَلِكَ مِنْ
 رُّبَّةٍ وَلَا مُلْكٍ وَلَا نَمَاءٍ هُمْ . . . وَلُصُبُّ أَعْيُنِهِمْ غَلَبُ النَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالثَّالِثُ هُوَ
 الْمُسْمَى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّولَ مَعَ الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَانِعِينَ
 لِطَاعَتِهَا فَهَذِهِ أَزْبَعَةُ أَصْنَافِ مِنَ الْحُرُوبِ الْصِنْفَانِ الْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ
 وَالصِنْفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَابِقَةِ مُنْذُ
 أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٌ بِالْزَّحْفِ صَنْوُفًا وَنَوْعٌ بِالْكَرَّ وَالْفَرَّ أَمَّا الَّذِي بِالْزَّحْفِ
 فَهُوَ قِتَالُ الْعَجَمِ كَلَّاهِمْ عَلَى تَعَافِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا الَّذِي بِالْكَرَّ وَالْفَرَّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ
 وَالْبَرَّ بَرِّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ الْزَّحْفِ أَوْتَقُ وَأَشَدُ مِنْ قِتَالِ الْكَرَّ وَالْفَرَّ وَذَلِكَ
 لَأَنَّ قِتَالَ الْزَّحْفِ تُرَتِّبُ فِيهِ الصُّنُوفُ وَتُسَوِّى كَمَا تُسَوِّى الْقِدَامُ أَوْ صُنُوفُ الْصَّلَاةِ
 وَيَمْشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ قُدُّمًا فَلَذِكَ تَسْكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي
 الْقِتَالِ وَأَزْهَبَ لِلْعَدُوِّ لَا نَهَّ كَلْمَائِطُ الْمُمْتَدِ وَالْقَصْرُ الْمُشَيدُ لَا يُطْمَعُ فِي إِذَا تَهُ وَفِي
 التَّنْزِيلِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَا كَمَّهُمْ بُنْيَانُهُ مَرْصُوصٌ أَيْ بَشَدَ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّباتِ وَفِي الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْانُ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا
 وَمِنْ هُنَا يَظْهُرُ لَكَ حِكْمَةُ إِيْجَابِ الثَّباتِ وَتَحْرِيمِ الْتَّوْلِي فِي الْزَّحْفِ فَإِنَّ الْمَفْصُودَ مِنَ
 الْصَّفَّ فِي الْقِتَالِ حِفْظُ النِّظامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَمَنْ وَلَى الْعَدُوِّ ظَاهِرًا فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِرِ
 وَبَاهَ بِإِعْمَامِ الْمَرْيَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَاهَهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَنْكَنَ مِنْهُمْ عَدُوًّمَ
 فَعَظُمَ الْذَّنْبُ لِعُمُومِ الْمَفْسَدَةِ وَتَعَدِّيهَا إِلَى الَّذِينَ يَخْرُقُ سِيَاجِهِ فَعُدُّ مِنَ الْكَبَائِرِ وَيُطْهَرُ
 مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ الْزَّحْفِ أَشَدُ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرَّ وَالْفَرَّ فَلِيَسْ فِيهِ

من الشدة والآمن من المزية ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون ورائهم في القتال مصافًا ثابتاً يجانون الله في الكفر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما ذكره بعد ثم إن الدول القدية الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسعون في كل كرذوس صوفة وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من فاصية التواحي استدعي ذلك أن يجعل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب وأعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعيهم فيما بينهم لأجل النكرا وجهل بعضهم بعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويتضمن المتعارفين بعضهم البعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسعون هنا الترتيب التاسعة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين وصدر الأربع سلام فيجعلون بين يدي الملك عسكراً متغيراً صفوفه متغيرة يقاده ورائيته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكراً آخر ناحية البيدين عن موقف الملك وعلى سنته يسمونه العينة ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكراً آخر من وراء العساكر يسمونه السافة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كييفما أعلمه حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التاسعة وانتظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تختلف عن رحيله بعد المدى في التعبئة فاحتسب لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج ابن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره ولكن في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأنما أدر كنادولاً فليلة العساكر لا تستوي في مجال الحرب إلى الشراك بل أكثر الجيوش من الطائفتين مما يجمعهم لدیناً حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه وينادي به في حومة الحرب يائمه ولقبه فاستفني عن تلك التعبئة

ومن مذاهب أهل الكفر والفر في الحرب ضرب المصف وراء عسكراً هم من

الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَاةِ أَلْعَجُمِ فَيَتَخَذِّلُونَهَا مَلْجَأً لِلْجَاهَةِ فِي كُرَبِهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ
 الْمُقَاتَلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلتَّعَزِّبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلْبِ وَقَدْ يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْزَّحْفِ أَيْضًا
 لِيَزْيِدُهُمْ ثَبَانًا وَشَدَّةَ فَقَدْ كَانَ الْفَرْمُ وَهُمْ أَهْلُ الْزَّحْفِ يَتَخَذِّلُونَ الْفِيلَةِ فِي الْمَرْوِبِ
 وَيَحْمَلُونَ عَلَيْهَا أَبْرَاجًا مِنَ الْخَشْبِ أَمْثَالَ الصَّرْوَحِ مَسْتَحُونَةً بِالْمُقَاتَلَةِ وَالسَّلَاحِ وَالرَّاياتِ
 وَيَصْفُونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَمَا هُنَّا حُصُونَ فَلَقُوسَيِّ بِذَلِكَ نَفْوَهُمْ وَيَزِدَادُ وَثْقَهُمْ
 وَأَنْظُرُ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِسِيَّةِ وَإِنَّ فَارِسَيِّ الْيَوْمِ الْثَالِثِ اسْتَدَوا بِهِمْ عَلَى
 الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَسْتَدَتْ رِجَالَاتِ مِنَ الْعَرَبِ فَخَالَطُوهُمْ وَبَعْجُوهُمَا بِالسَّيْفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا
 فَنَفَرَتْ وَنَكَصَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِالْمَدَائِنِ فَجَفَّا مُسْكِرُ فَارِسَيِّ ذَلِكَ وَأَنْهَزَ مَوَا
 فِي الْيَوْمِ الْرَّابِعِ # وَأَمَّا الْرُّومُ وَمَلُوكُ الْقُوَّطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ الْعَجَمِ فَكَانُوا يَتَخَذِّلُونَ
 لِذَلِكَ الْأَسِرَّةِ يَنْصُبُونَ لِلْمَلَكِ سَرِيرَهِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ وَيَحْفَثُ بِهِ مِنْ خَدْمَهِ وَحَاشِيَتِهِ
 وَجَنْدِهِ مَنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْأَسْتِيَانَةِ دُونَهُ وَتَرْفُعُ الرَّاياتِ فِي أَذْكَانِ الْسَّرِيرِ وَيُعْدِقُ بِهِ سِيَاجَ
 آخَرٍ مِنَ الْرُّمَاءِ وَالرَّجَالَةِ فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ الْسَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِيَّهُ لِلْمُقَاتَلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِ
 وَالْفَرِّ وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفَرْسُ أَيَّامَ الْقَادِسِيَّةِ وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِسًا عَلَى سَرِيرِ نَصْبَهُ لِجُلوْسِهِ
 حَتَّى أَخْتَلَفَتْ صُفُوفُ فَارِسَيِّ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلُ عَنْهُ إِلَى الْفَرَاتِ وَقُتِلَ *
 وَأَمَّا أَهْلُ الْكَرِ وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ وَأَكْثَرُ الْأَمَمِ الْبَدَوِيَّةِ الْرَّحَالَةِ فَيَصْفُونَ لِذَلِكَ
 إِبْلِيهِمْ وَالظَّهَرِ الَّذِي يَعْمَلُ ظَعَائِنَهُمْ فَيَكُونُ فِيَّهُ لَهُمْ وَيُسَمِّونَهَا أَنْجَبُودَةً وَلَيْسَ أَمَةً
 مِنَ الْأَمَمِ إِلَّا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهُ أَوْثَقَ فِي الْجُوَلَةِ وَأَمَّنَ مِنَ الْغَرَّةِ وَالْهَزِيمَةِ
 وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَقَدْ أَغْنَمَتْهُ الْحُولُ لِمَهْدِنَا بِالْجُمْلَةِ وَأَعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظَّهَرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ
 وَالْفَسَاطِيْطِ يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تُنْهِي غِنَاءَ الْفِيلَةِ وَالْأَبْلِيلِ فَضَارَتِ الْعَسَارِكُ
 بِذَلِكَ عُرْضَةَ الْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعِرَةَ لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ # وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ أَيْمَانِ
 كُلِّهِ زَحْفًا وَكَانَ الْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرُفُونَ الْكَرَ وَالْفَرِّ لِكِنْ حَمَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ
 الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ زَحْفًا فَيُضْطَرُّونَ إِلَى مَقَاتَلَتِهِمْ
 يَمْثُلُ فِتَالَهُمِ الْثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمْبِتِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغَبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبَرِ وَلِمَا رَسَخَ
 فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْزَّهْنُ إِلَى الْأَسْتِيَانَةِ أَفْرَبُ # وَأَوَّلُ مَنْ أَبْطَلَ الْأَصْفَ في الْحَرْبِ وَبِرِ
 وَصَارَ إِلَى التَّعْبِيَّةِ كَرَادِيسَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فِي قِتَالِ الْفَحَّاكِ الْخَارِجِيِّ وَالْجَيْزِيِّ بَعْدَهُ

قال الطبرى لما ذكر قتال الجبیري قوله الخوارج عليهم شیبان بن عبد العزیز
 البشکری ويلقب ابا الزلفاء فانهم مروان بعد ذلك بالكراديس وبطل الصف من
 يومئذ انتهى فتوى قتال الزحف ببطل الصف ثم ثوبي الصف وراء المقاتلة بما
 داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكنها خيام كانوا
 يستكثرون من الإبل وسكنى النساء وآتو لدان معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترفة
 الملك والقواس سكنى القصور والخواضير وتركوا شأن البادية والقرى سوا بذلك عهد الإبل
 والظعاين وصعب عليهم اتخاذها فخالفوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ
 الفساطيط والأختيارة فاقتصرت على الظهر الحامل للانتقال ^(١) ولا لأنسية وكان ذلك صنفهم في
 الحزب ولا يعني كل النساء لأنه لا يدعون إلى الاستئمانة كما يدعون إليها الأهل والمآل فيخف
 المصير من أجل ذلك وتصريفهم الأهياع وتغريم صنوفهم ولماذا كرناه من خرب المصاف
 وراء العساكر وتناكده في قتال الكفر والفر صار ملوك المغرب يتخدون طائفه من
 الإفرنج في جندهم وأختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كلهم بالكفر والسلطان
 بينما كدد في حقه ضرب المصاف ليكون رداء المقاتلة ماما فلا بد من أن يكون أهل ذلك
 الصف من قوم متعددين للثبات في الزحف ولا أجيالوا على طريقة أهل الكفر والفر
 فأنهزم السلطان والعساكر يا حفاظهم فاختاج الملوك بالغرب أن يخذوا جندا من هذه
 الأمة المتعمودة الثبات في الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم بالمحدق بهم منها هذاعلى ما
 فيه من الاستعانة بأهل الكفر وإنهما استخفوا بذلك لغيرورة التي أريناها من
 تحف الإنجان على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن
 عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في الغرب
 إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمّ العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد
 فلا يستعينون بهم حذرا من مصالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع لهذا العهد وقد
 أبدينا سببه والله بكل شيء علمنا * وبالغنا أن أمّ الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة
 بما سهّام وأن تعنة الحرب عندهم بالمائدة وإنهم يقسمون ثلاثة صنوف يضربون
 صفا وراء صفت ويترجلون عن خيولهم ويفرغون فيهاهم بين أيديهم ثم يتناضلون

جُلُوسًا وَكُلُّ رِدْنَةٍ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْنِسُهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَهَا النَّصْرُ لِأَحْدَى الْعَطَائِقَتَيْنِ عَلَى الْآخِرَى وَهِيَ تَعْصِيَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأُولِيِّ فِي حُرُوبِهِمْ حَفَرُ الْخَنَادِقِ عَلَى مَعْسَكَرِهِمْ عِنْدَ مَا يَشَارِبُونَ لِلزَّخْنَ حَذَرًا مِنْ مَعْرَةِ الْبَيَاتِ وَالْعُجُومِ عَلَى الْعَسْكَرِ بِاللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ الْخُوفِ فَيُلُوذُ الْجَيْشُ بِالْفِرَارِ وَتَجْدُ النُّفُوسُ فِي الظُّلْمَةِ سِيرًا مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَا فِي ذَلِكَ أَرْجُفَتُ الْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ الْمَزِيَّةُ فَكَانُوا لِذَلِكَ يَعْتَفِرُونَ أَخْنَادِقَ عَلَى مَعْسَكَرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَصَرُبُوا أَبْنِيَتِهِمْ وَيُدِيرُونَ أَخْفَاثَ نِطَافَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جَهَانِهِمْ حِرْصًا أَنْ يُخَالِطُهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبَيَاتِ فَيَتَخَادَلُوا وَكَانَتِ الدِّولَةِ فِي أَمْثَالِ هَذَا قُوَّةً وَعَلَيْهِ أَفْتَارٌ بِالْحَشَادِ الْرِّجَالِ وَتَجْمَعِ الْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ دُفُورِ الْعُمَرَانِ وَغَنَامَةِ الْمُلَكِ فَلَمَّا خَرَبَ الْعُمَرَانُ وَتَبَعَهُ ضُعْفُ الدِّولَةِ وَفَلَةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ الْفَعْلَةِ نُسِيَ هَذَا الشَّاءُ جُمْلَةً كَانَهُ لَمْ يَكُنْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْقَادِرِينَ وَأَنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَحْرِبَهُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صِفَنَ تَجْدُ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَهَا مِنْهُ قَالَ فِي كَلَامِهِ فَسَوْوا صُفُوفَهُمْ كَالْبَنِيَانِ الْمَرْصُوصِ وَقَدِمُوا الدَّارِعَ وَأَخْرُوا الْحَاسِرَ وَعَضُوا عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَبْنَى لِلسيوفِ عَنِ الْأَهَامِ وَتَنَوَّا عَلَى أَطْرَافِ الْرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصْوَنُ الْأَسْنَةَ وَغُضُوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَزْبَطَ الْجَاهِشَ وَأَكْنَنَ الْقُلُوبَ وَأَخْفَتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدَ لِلْفَشَلِ وَأَوْلَى بِالْتَّوَفَارِ وَأَقِيمُوا رَأْيَاتِكُمْ فَلَا تُمْلِوْهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شَعْبَانِكُمْ وَأَسْتَعِنُوا بِالصَّدَقِ وَالصَّبَرِ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ الصَّبَرَ يَنْزَلُ الْنَّصْرُ وَقَالَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُحْرِضُ الْأَزْدَ عَضُوا عَلَى الْنَّوَاجِدِ مِنَ الْأَضْرَاسِ وَأَسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشَدُوا شَدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورٍ بْنَ يَثَأْرُونَ يَا بَاهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسُهُمْ إِنَّلَا يُسْبِقُوا بِوَتْرِهِ وَلَا يَلْحِقُهُمْ فِي الْأَدْنِيَا عَارٍ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَبُو بَكْرُ الْصَّدِيرِ فِي شَاعِرِ الْمُتَوْنَةِ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةِ بَمْدَحِ بِهَا تَاشِفِينَ بْنَ عَلَيِّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيُذَكِّرُهُ بِأَمْوَالِ الْحَرْبِ فِي وَصَابَا تَحْمِيلَاتٍ تُشَهِّدُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ مِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

بَا أَيْهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَقْنَعُ مَنْ مِنْكُمُ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَرْوَعُ
وَمَنِ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دُجَى فَأَنْقَضَ كُلُّ وَهُوَ لَا يَتَزَعَّزُ

تَمْضِي الْفَوَارِسُ وَالْطَّعَانُ يَصْدُهَا
عَنْهُ وَيُذْمِرُهَا أَلْوَافَاهُ فَتَرْجِعُ
صُبْحَهُ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ يَلْمِعُ
وَالْيَكْمُ فِي الرَّفْعِ كَانَ الْمَفْرَعُ
حُضْنُهُ وَقَلْبُهُ أَسْلَمَهُ الْأَضْاعُ
لِعَاقِبَهُ لَوْ شَاءَ فِيمُكُمْ مَوْضِعُ
كُلِّ لِكُلِّ كَرِيمَةٍ مُسْتَطْلِعٍ
بِالْأَلَيْلِ وَالْعَذْرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ
بِإِنْسَانٍ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمْ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَائِشِينَ وَإِنَّهُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ
بِإِنْسَانٍ تَائِشِينٍ أَفَمْ يُحِيشِكَ عَذْرَهُ

وَمِنْهَا فِي سِيَاسَةِ الْحَرْبِ

كَانَتْ مُلُوكُ الْفَرْسِ قَبَّالَكَ تُولَعُ
ذِكْرَى تَعْضُّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَجْهَى بِهَا صَنْعُ الْصَنَائِعِ تَبْعُ
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
حُضْنًا حَصِيرًا لَيْسَ فِيهِ مِدْفَعٌ
سِيَّانٌ تَبْعَ ظَافِرًا أَوْ تُبْعَ
بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشَكَ يَقْطَعُ
وَوَرَاءَكَ الصِّدْقُ الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
ضَنِّكَ فَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ تُوَسِّعُ
شَبَّيْنَا فَإِذْهَارُ الْكُوْلِ يُضَعِّفُ
لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعَ الْكَذَابَ جَاءَكَ بُرْجِنَا لِمَا يَصْنَعُ
قَوْلَهُ وَأَصْدَمَهُ أَوْلَ وَهَلَّهُ لَا تَكْتَرُثُ الْبَيْتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ
فَقَدْ قَالَ عَمَرُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَسْعُودٍ الشَّقِيقِ لَمَّا وَلَاهُ حَرْبُ فَارِسَ وَالْعِراقِ فَقَالَ لَهُ أَسْمَعْ
وَأَطْعَمْ مِنْ أَصْنَاعِ الْنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرَكُوهُ فِي الْأَمْرِ وَلَا تُعِينَ مُسْرِعًا
حَتَّى تَبْيَنَ فِيْنَا الْحَرْبُ وَلَا يَصْنَعُ لَهَا إِلَّا رَجُلٌ الْمَكِيتُ الَّذِي يَعْرِفُ الْفَرْصَةَ
وَالْكَفَ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَلِيْطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ

وَفِي التَّسْرِيعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنْ يَيْكَانِ ضِيَاعٍ وَاللَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمْرَتْهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا أَرْجُلُ الْمَكِيتُ هَذَا كَلَامٌ عَمْرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ النَّتَافَلَ فِي الْحَرْبِ أَوْلَى مِنَ الْخُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسٌ مَا قَالَهُ الصَّيْرَفِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيْكَانَ فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ * وَلَا وُثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَةِ وَالْعَدْبِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالْأَتِقَافِ وَيَكَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي إِلَّا كُنَّ مُجَمَّعَةً مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجَيْوشُ وَفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِعْدَادُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجَاعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافَاتِ وَمِنْهُ صِدْقُ الْقِتَالِ وَمَا جَرَى بَعْزِي ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَامًا مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَجِيلِهِمْ فِي إِلَّا زَجَافِ وَالْتَّشَانِيعِ الَّتِي يَقْعُدُ بِهَا التَّعْذِيلُ وَفِي التَّقْدِيمِ إِلَى الْآمَاكِينِ الْمُرْتَقَعَةِ لِيَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فِيَوْهُمُ الْمُنْخَفِضُ لِذَلِكَ وَفِي الْكَعُونِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنُ الْأَرْضِ وَالْتَّوَارِي بِالْكُدَّى حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلُهُمُ الْعَسْكُرُ دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَمَّوْنَ إِلَى النَّجَادَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِمَامًا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ أُمُورًا سَماوِيَّةً لَا قُدْرَةَ الْبَشَرِ عَلَى أَكْتِسَابِهَا ثُلُقَ فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوِي الْأَرْهَبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَغْتَلُ مَرَّا كَرَمُ فَتَقْعُدُ الْمُزَيَّةُ وَأَكْثَرُ مَا تَقْعُدُ الْهَزَائِمُ عَنْ هُنْدِهِ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ إِسْكَرَةً مَا يُعْتَمِلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ فَلَا بُدُّ مِنْ وُقُوعِ التَّأْثِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا ضَرُورَةً وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَرْبُ خُدُودٌ وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ رَبُّ حِيلَةٍ أَنْقَعَ مِنْ قَبِيلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُقُوعَ الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى الْبَحْثِ كَمَا نَقَرَرَ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْتَبَهُ وَتَفَهَّمَ مِنْ وُقُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأَمْوَارِ السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَرَتْ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةً شَهِرٌ وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُسْرِكِينِ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ فِي الْفُتوَحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكَلَّلَ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ الرُّغْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزُمُوا مُغْزَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ الرُّغْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفُتوَحَاتِ الْأَسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا أَنَّهُ خَفِيٌّ عَنِ الْعَيْنِ * وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ تُفْضِلَ عِدَّةُ الْفُرُسانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجَاعَانِ فِي أَحَدٍ أَجْمَانِهِنَّ عَلَى عِلْمِهِمْ فِي الْجَانِبِ

الآخر مثلَ أنْ يَكُونَ أَحَدُ الجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةُ أَوْ عِشْرُونَ مِنَ الشُّجُونَ الْمَسَاهِيرِ وَفِي
 الجَانِبِ الْآخَرِ ثَمَانِيَّةُ أَوْ سِتَّةُ عَشَرَ فَأَلْجَانِبُ الْزَّائِدُ وَلَوْ بِواحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ وَأَعْدَادُ
 فِي ذَلِكَ وَابْدَى وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدْمَنَا وَلَيْسَ صَحِيحٌ وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ
 الْمُعْتَبَرُ فِي الْفَلْبِ حَالَ الْعَصَبَيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصَبَيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ.
 وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ عَصَبَيْنِ مُتَعَدِّدَةٍ لَأَنَّ الْعَصَبَيْنِ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةٌ يَقْعُدُ عَيْنُهَا مِنْ
 الْخَاطِلِ مَا يَقْعُدُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِ فِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصَبَيَّةِ تُنْزَلُ كُلُّ عَصَبَيَّةٍ مِنْهُمْ مِنْزَلَةً
 الْوَاحِدِ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَبَيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يُقاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَبَيَّةٌ وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ
 ذَلِكَ فَتَفَهَّمَهُ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ أَمَّا يَقْعُدُ فِي الْأَعْبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْطَّرْنَ طُوشِيُّ وَلَمْ يَعْمَلْهُ عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا نِسَانُ شَانِ الْعَصَبَيَّةِ فِي حُلْمٍ وَبَلْدَةٍ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الْدِرْفَاعَ وَالْحِمَاءَ وَالْمُطَالَبَةَ
 إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةِ النَّاسِيَّةِ عَنْهُمْ لَا يُعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ عَصَبَيَّةٌ وَلَا نِسَابًا وَقَدْ يَبْيَنَ ذَلِكَ
 أَوْلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا وَمِثْلَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ
 مِثْلِ أَتِنَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعَدَةِ وَصَدِقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ الْأَسْلَحةِ وَمَا أَشْبَهُهَا فَكَيْفَ يُعْجَلُ
 ذَلِكَ كَفِيلًا بِالْفَلْبِ وَمَنْعِنُ قَدْ فَرَزَنَا لَكَ الْآنَ أَنْ شَيْئًا مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ
 مِنْ أَنْخِيلِ وَأَنْخِدَاعِ وَلَا أَلْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنْ أَرْثَعِ وَالْخَذْلَانِ الْإِلَمِيِّ فَأَفْهَمَهُ وَتَفَهَّمَهُ
 أَحْوَالَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ مُقْدِرُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ # وَبِلْحَقِّ يَعْنِي الْفَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ أَسْبَابَهُ
 خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبَيْعِيَّةٌ حَالُ الشَّهْرَةِ وَالصِّيَّتِ فَقَلَّ أَنْ تُصَادِفَ مَوْضِعَهَا فِي أَحَدِ مِنْ طَبَقَاتِ
 النَّاسِ مِنْ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُنْتَهَلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُوْمَ وَكَثِيرٌ مِنْ
 أَشْتَهَرَ بِالشَّرِّ وَهُوَ بِخَلَافِهِ وَكَثِيرٌ مِنْ تَجَاوِزَتْ عَنْهُ الشَّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ
 تُصَادِفُ مَوْضِعَهَا وَتَكُونُ طَبِقًا عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشَّهْرَةُ وَالصِّيَّتِ إِنَّمَا
 هُمَا بِالْإِخْبَارِ وَالْإِخْبَارُ يَدْخُلُهَا الْذُهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا الْعَصَبَيَّةُ
 وَالْتَّسْبِيعُ وَيَدْخُلُهَا الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ يَمْطَابِقُ الْحِكَمَاتِ لِلْأَحْوَالِ الْخَفَائِهِ
 بِالْتَّلَمِيسِ وَالْتَّصْنِعِ أَوْ لِجَهْلِ النَّاقُلِ وَيَدْخُلُهَا الْتَّقْرِبُ لِالْأَسْخَابِ الْتَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ الْمَذَنِيَّةِ
 بِالْكَنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَخْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الْذِكْرِ بِذَلِكَ وَالنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِجِبْرِ الْكَنَاءِ
 وَالنَّاسُ مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرَوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَأَنْ مُطَابِقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَخْتَلُ الشَّهْرَةُ عَنْ

أَسْبَابُ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرُ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيَّةٍ فَهُوَ الَّذِي يَعْبُرُ عَنْهُ
بِالْجُنُوبَ كَمَا تَقْرَرَ رَوْاْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِعْلَمُ أَنَّ الْجِبَايَةَ أَوْلَ الدُّوَلَاتِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعَ كَثِيرَةً الْجُمْلَةِ وَآخِرَ الدُّوَلَاتِ تَكُونُ
كَثِيرَةً الْوَزَائِعَ قَلِيلَةً الْجُمْلَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنْنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ
تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشُّرُعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخُرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ الْوَزَائِعِ لَأَنَّ مَقْدَارَ
الْأَرْزَ كَاهَ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتُ وَكَذَاهُ كَاهُ الْحَبْوبِ وَالْمَاشِيَّةِ وَكَذَاهُ الْجِزْيَةِ وَالْخُرَاجِ
وَبِجُمِيعِ الْمَغَارِمِ الشُّرُعِيَّةِ وَهِيَ حَدُودٌ لَا تُتَعَدُّ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنْنِ النَّفَلِ وَالْمُعَصَيَّةِ
فَلَا بدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوْلِهَا كَمَا نَقَدَّمَ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمُسَاحَمَةَ وَالْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ
الْجِنَاحِ وَالْجُنُوبَ عَنِ الْأَمْوَالِ النَّاسِ وَالْفَقَلَةِ عَنِ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقُولُ لِذَلِكَ
مَقْدَارُ الْوَظِيفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوَزِيْعَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الْأَمْوَالَ مِنْ جَمْعُوهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ
وَالْوَظَائِفُ عَلَى الرِّعَايَا نَشَطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغَبُوا فِيهِ فَبَكْثَرُ الْأَغْتِمَارُ وَيَنْزَابُ لِلْحُصُولِ
الْأَغْتِيَاطِ بِقَلِيلِ الْمَغْرِمِ وَإِذَا كَثُرَ الْأَغْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوَظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ
وَكَثُرَتِ الْجِبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمِلَتُهَا فَإِذَا أَسْتَمَرَتِ الدُّوْلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدِهَا
بَعْدَ وَاحِدِهِ وَاتَّصَفُوا بِالْكِيسِ وَذَهَبَ مِنِ الْبِدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ وَخُلُقُهُمْ مِنِ الْإِغْضَاءِ وَالْجُنُوبِ
وَجَاءَ الْمُلْكُ الْعَضُوضُ وَالْمُلْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكِيسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدُّوْلَةِ حِينَئِذٍ
بِخُلُقِ الْتَّحْذِلُقِ وَتَكَثُرَتْ عَوَانِدُهُمْ وَحَوَّا بِهِمْ بِسَبَبِ مَا أَنْفَسُوا فِيهِ مِنَ الْعِيمِ وَالْتَّرَفِ
فَبَكْثَرُونَ الْوَظَائِفَ وَالْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرِّعَايَا وَالْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَسَائرِ أَهْلِ
الْمَغَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْعَةٍ مَقْدَارًا أَعْظَمِهَا لِتَكَثُرِهِمُ الْجِبَايَةُ وَبَصَعُونَ
الْمُكَوْسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَرْتُ كُمْ بَعْدَ ثُمَّ تَدَرَّجُ الْأَرْبَادَاتُ فِيهَا بِمَقْدَارِ
بَعْدَ مَقْدَارِ اتَّدَرَجُ عَوَانِدِ الدُّوْلَةِ فِي الْتَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْحَاجَاتِ وَالْإِنْتَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَنْقُلُ
الْمَغَارِمُ عَلَى الرِّعَايَا وَتَهْضِيمُهُمْ وَتَصِيرُ عَادَةً مَفْرُوضَةً لَأَنَّ تِلْكَ الْأَرْبَادَةَ تَدَرَّجَتْ قَلِيلًا
فَلِيَلَا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى التَّعْيِنِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَتَ عَلَى الرِّعَايَا فِي
الْأَغْتِمَارِ لِذَهَابِ الْأَمْلِ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ بِقَلِيلِ النَّفْعِ إِذَا قَابَ بَيْنَ تَقْعِيمِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ

شُرَطَتْهُ وفَائِدَتِهِ فَتَنَقَبَضُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنِ الْأَعْتِمَارِ جُمْلَةً الْجِيَايَةِ حِينَئِذٍ يَنْقُصُانِ تِلْكَ الْوَزَائِعِ مِنْهَا وَرُبَّمَا يَرِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوَظَائِفِ إِذَا رَأَوا ذَلِكَ النَّقْصَ فِي الْجِيَايَةِ وَيَخْسِبُونَهُ جَبْرًا لِمَا نَقَصَ حَتَّى تَسْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْغَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاهُمَا تَقْعُدُ وَلَا فَائِدَةُ لِكَثِيرَةِ الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْأَعْتِمَارِ وَكَثِيرَةِ الْمَغَارِمِ وَعَدَمِ وَفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوَةِ يَهُ فَلَا تَرَالُ الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارِ الْوَزَائِعِ وَالْوَظَائِفِ فِي زِيَادَةِ لِمَا يَعْشَقُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ بِهَا إِلَى أَنْ يَنْقُصَ الْعُمَرَانُ بِنَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَيَعُودُ وَبَالَّا دَلِكَ عَلَى الْدُّوْلَةِ لَأَنَّ فَائِدَةَ الْأَعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهِمَتْ ذَلِكَ عَلِمَتْ أَنَّ أَفْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْأَعْتِمَارِ تَقْرِيْلُ مِقْدَارِ الْوَظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ مَا أَمْكَنَ فِي ذَلِكَ تَبَسْطُ النُّفُوسُ إِلَيْهِ لِشَفَقَتْهَا يَادِرَالِكَ الْمَنْعَةُ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس او اخر الدولة

اعْلَمُ أَنَّ الدُّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوْلَاهَا بَدَوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةً الْحَاجَاتِ لِعَدَمِ الْتَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلًا فَيَكُونُ فِي الْجِيَايَةِ حِينَئِذٍ وَفَاءِهِ يَازِيدٌ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنِ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَبَيَّنَ أَنَّ تَأْخُذَ بِهِمْ أَلْخِضَارَةَ فِي الْتَّرْفِ وَعَوَائِدِهِمْ وَتَجْرِيَ عَلَى تَفْعِيلِ الدُّولَ الْسَّابِقَةِ قَبْلَهَا فَيَكُثُرُ لِذَلِكَ خَرْجٌ أَهْلِ الدُّوْلَةِ وَيَكُثُرُ خَرْجُ الْسُّلْطَانِ خُصُوصًا كَثِيرَةً بِالْغَفَّةِ يَنْفَقُونَهُ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثِيرَةُ عَطَائِهِ وَلَا تَنِي يَذْلِكَ الْجِيَايَةُ فَتَخْتَاجُ الدُّوْلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجِيَايَةِ لِمَا تَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَامِيَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْسُّلْطَانُ مِنَ الْنَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مِقْدَارِ الْوَظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوْلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرْجُ وَالْحَاجَاتُ وَالتَّدْرِيجُ فِي عَوَائِدِ الْتَّرْفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَامِيَةِ وَيُدْرِكُ الْدُّوْلَةُ الْمَهْرَمُ وَتَضَعُفُ عَصَابَتُهَا عَنِ جِيَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقْلُ الْجِيَايَةُ وَكَثِيرُ الْعَوَائِدُ وَيَكُثُرُ بِكَثِيرِهَا أَرْزَاقُ الْجَنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَهِدُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ أَنْوَاعًا مِنَ الْجِيَايَةِ يَنْفِرُ بِهَا عَلَى الْبَيَاعَاتِ وَيَفْرُضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْرَاقِ وَعَلَى أَعْيَانِ السَّلَامِ فِي أَمْوَالِ الْمَدِيْنَةِ وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضطَرٌ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طُرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثِيرَةِ الْعَطَاءِ مِنْ زِيَادَةِ الْجَيُوشِ وَالْحَامِيَةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوْاَنِرِ الدُّوْلَةِ زِيَادَةً بِالْغَفَّةِ فَتَكْسَدُ

الأسواق لفساد الأموال وبيوْذن ذلك ياخْتَلَلُ الْعُمْرَانَ وَيَعُودُ عَلَى الدُّولَةِ وَلَا يَرْجِعُ
ذلك بِتَزَايْدٍ إِلَى أَنْ تَضْمِحَلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي الْغَرْبَاتِ الدُّولَةِ
الْعَبَاسِيَّةِ وَالْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتِ الْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى الْحَاجَةِ فِي الْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ
صَلَاحَ الَّذِينِ أَبْوَبُوا تِلْكَ الرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعْفَاهُمَا بِاِتَّارَ الْخَيْرِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ
لِعَهْدِ الْطَّوَافِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُوسُفُ بْنُ نَافِعٍ أَمِيرُ الْمُرَابِطِينَ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ
الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ أَسْتَبَدَ بِهَا رُؤُسَاؤُهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضره بالرعايا ومنسددة للجباية

إِعْلَمُ أَنَّ الدُّولَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَائِتُهَا بِمَا قَدَّمَنَاهُ مِنَ الْتَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْفَوَائِدِ وَالنَّفَقَاتِ
وَقَصَرَ الْحَاصِلُ مِنْ جِبَائِتُهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَأَخْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ
وَالْجِبَائِيَّةِ فَتَارَةً تُوْضَعُ الْمُكْوُسُ عَلَى بَيَاعَاتِ الرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمَنَا ذَلِكَ فِي
الْفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالْزِيَادَةِ فِي الْقَابِ الْمُكْوُسِ إِنْ كَانَ قَدِ اسْتُخْدِثَ مِنْ فَبْلِ وَنَارَةٍ
بِمُقَاسِمِ الْعُمَالِ وَالْجِبَائِيَّةِ وَأَمْتِكَالِيَّةِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ
مِنْ أَمْوَالِ الْجِبَائِيَّةِ لَا يُظْهِرُهُ الْحِسْبَانُ وَتَارَةً بِاِسْتِهْدَاثِ التَّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ لِالْسُّلْطَانِ عَلَى
تَسْمِيَةِ الْجِبَائِيَّةِ لِمَا يَرَوْنَ التَّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالْفَلَاتِ مَعَ يَسَارَةِ
أَمْوَالِهِمْ وَانَّ الْأَزْبَاحَ تَكُونُ هَلَّ نِسْبَةً رُوْسِ الْأَمْوَالِ فِي أَكْتِسَابِ
الْحِيَوانِ وَالْبَنَاتِ لِاِسْتِفْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ
ذَلِكَ مِنْ إِدْرَارِ الْجِبَائِيَّةِ وَتَكْثِيرِ الْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِدْخَالُ الْفَسَرِ عَلَى الرَّعَايَا
مِنْ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوْلًا مُضَايَقَةُ الْفَلَاحِينَ وَالتَّجَارِ فِي شِرَاءِ الْحِيَوانِ وَالْبَضَائِعِ وَتَسْبِيرِ
أَكْتِسَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّعَايَا مُشَكَّكَاتِهِنَّ فِي الْبَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمَرَاجِمَهُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً تَنْتَهِي
إِلَى غَایَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقْرُبُ وَإِذَا رَأَقُهُمْ الْسُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَا لَهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ
فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ
ذَلِكَ غَمَّ وَتَكَدُّثُمْ إِنَّ السُّلْطَانَ قَدْ يَنْتَزِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَضَ لَهُ غَصَّا أَوْ
يَأْسِرُ شَمَّ أَوْ لَا يَجِدُ مِنْ بُنَاقِشَهُ فِي شِرَاءِهِ فَيَنْجُسُ شَمَّهُ عَلَى بَائِعِهِمْ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ
الْفِلَاحَةِ وَمُغْلِهِهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرَبٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الفلاّت وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حواله الأسواق ولا
 تفارق البيعات لما يدعونه اليه تكاليف الدولة فيكون أهل تلك الأصناف من
 تاجر أو فلاح يشراء تلك البضائع ولا يرثون في أثمانها إلا القيمة وأزيد فيستوعبون
 في ذلك ناصنًّاً مواليهم وتبقى تلك البضائع يا يديهم عروضاً جامدة ويتهكمون عطلاً
 من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعونه الفرورة إلى شيء من المال
 فيبيعون تلك الساع على كسراد من الأسواق بما يبغى ثمنه وربما يتكرر ذلك على
 التاجر والفالح منهم بما يذهب رأس ماله فيبعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر
 ويدخل به على الرعایا من العنف والمضايقة وفساد الأزباح ما يقضى أمالهم عن
 السعي في ذلك جملة ويرد إلى فساد الجيابية فإن معظم الجيابية إنما هي من الفلاّحين
 والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونحو الجيابية بها فإذا انقضى الفلاحون عن
 الفلاح وقد التجار عن التجارة ذهب الجيابية جملة أو دخلها النقص المتداخش وإذا
 قاتل السلطان بين ما يحصل له من الجيابية وبين هذه الأزباح القليلة وجدها بالنسبة
 إلى الجيابية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيدة فيذهب له بحظ عظيم من الجيابية فيما
 يعانيه من شراء أو بيع فإنه من بعيد أن يوجد فيه من المكوس ولو كان غيره في
 تلك الصفقات لكن تكتبهما كلها حاصلاً من جهة الجيابية ثم فيه التعرض لأهل
 عمرانه وأختلال الدولة بفسادهم وتفصيلهم فإن الرعایا إذا قعدوا عن تعمير مواليهم
 بالفلاح والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلافاً أحواهم فافهم ذلك
 وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيته المملكة ثم يختارونه من أهل
 الفضل والدين والأدب والسماء والشجاعة والكرم ثم يشتريونه عليه مع ذلك
 العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضره بغير أنه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع
 وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشرون بخيار ولا مصلحة وأعلم أنَّ السلطان لا
 يبني ماله ولا يدير موجوده إلا الجيابية وإدارتها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال
 والنظر لهم بذلك فيذلك تبسط أمالهم وتنشر خصوصاتهم للاخذ في تعمير الأموال
 وتنميتها فتعظم منها جيابية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنهما هو مضره
 عاجله للرعایا وفساد لجيابية وتفصيل العمارة وقد ينتهي الحال به ولاه المنسلخين للتجارة

وَالنِّلَاحَةُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْمُتَفَلِّبِينَ فِي الْبَلْدَانِ أَنْهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ النَّكَاتِ وَالسَّلِعِ
مِنْ أَذْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بَلَدِهِمْ وَيَفْرِضُونَ لِذَلِكَ مِنَ الشَّعْنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَسْعُونَهَا فِي
وَقْتِهَا لِعَنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَرْعَابِهَا بِمَا يَفْرِضُونَ مِنَ الشَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُ مِنَ الْأُولَى
وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ الرَّعْيَةِ وَأَخْتِلَالِ أَخْوَاهُمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السَّلَطَانُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ
يَدَاهُ لِمِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَغْنِيَ التَّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ
السَّلَطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ يَسْهُبُ لِنَفْسِهِ يَعْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعًا
وَلَا سِيمَا مَعَمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلَا مَغْرِبٍ وَلَا مَكْسِنْ فَإِنَّهَا أَجَدَرُ بِسُمُّ الْأَمْوَالِ
وَأَسْرَعُ فِي تَشْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السَّلَطَانِ مِنَ الْفَرَرِ يَنْقُضُ جَيَّابَتِهِ فَيَنْبَغِي
لِلْسَّلَطَانِ أَنْ يَعْذَرَ مِنْ هُولَاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعَابِهِمْ الْمُضِرَّةُ بِجَيَّابَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ
يَلْهِمُنَا رُشْدًا أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والأربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته اما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَيَّابَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَشَوَّزُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبَيَّةِ
بِمِقْدَارِ غَنَائِمِهِمْ وَعَصَبَاتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمَهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلِ
فَرَعَيْتُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافِ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْبِدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ عَزَّةٌ
وَلَهُمْ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ الْجَيَّابَةِ إِلَّا أَلَقْلَى مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجَدُّ حَاشِيَتُهُ
لِذَلِكَ وَأَذْيَالُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْمَوَالِيِّ مُتَمَلِّقِينَ فِي الْفَالِبِ وَجَاهِهِمْ مُتَقْلِصُ
لَأَنَّهُمْ جَاهُ مَعْدُومِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يَزْعِمُهُ فِيهِمْ مِنْ أَهْلِ عَصَبَتِهِ فَإِذَا أَسْتَخَلَّتْ
طَبَيْعَةُ الْمُلْكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْأَسْبِدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضَ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجَيَّابَاتِ
إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْتُ النَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَنَقْلُ حُظُوظِهِمْ إِذْ ذَاكَ لِقْلَةُ غَنَائِمِهِمْ فِي
الْدَّوْلَةِ بِمَا أَنْكَبَعَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِيِّ وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْفِيَامِ بِالْدَّوْلَةِ
وَتَمَهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجَيَّابَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالَ
وَيَحْتَجِنُهَا لِلنِّفَقَاتِ فِي مُهِمَّاتِ الْأَخْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرَوَتُهُ وَتَمْتَلِئُ خَزَانَتُهُ وَيَنْسَعُ نِطَاقُ
جَاهِهِ وَيَعْتَزُ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ
وَمَوَالِيٍّ وَشُرُطِيٍّ وَيَنْسَعُ جَاهِهِمْ وَيَقْتُنُونَ الْأَمْوَالَ وَيَنْتَلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخْذَتِ الدَّوْلَةُ فِي

المُرْمَ بِتَلَاضِي الْهَصَبَةِ وَفَنَاءِ الْقَكْلِيِّ الْمُعَاهِدِينَ لِلْدُوَلَةِ أَخْتَاجَ صَاحِبُ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَغْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكُثْرَةِ الْخُواجَ وَالْمُنَارِ عِنْ وَالثُّوَارِ وَتَوَهُرِ الْأَنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَاجُ لِظُهُورِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَزْبَابُ السُّبُوفِ وَأَهْلُ الْهَصَبَاتِ وَأَنْقَقَ خَرَائِنَهُ وَحَاصِلَهُ فِي مُهِمَّاتِ الدُّوَلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ الْجِيَاهَ لِمَا قَدَّمَنَاهُ مِنْ كُثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْقَاقِ فَيَقِلُّ أَخْرَاجُ وَتَسْتَدِدُ حَاجَةُ الدُّوَلَةِ إِلَى الْمَالِ فَيَقْلُصُ ظِلُّ النِّعَمَةِ وَالْتَّرَفُ عَنِ الْخُواصِ وَالْجُنَاحِ وَالْكِتَابِ يَقْلُصُ الْجَاهُ عَنْهُمْ وَضِيقِ نِطَاقِهِ عَلَى صَاحِبِ الدُّوَلَةِ ثُمَّ تَشَدِّدُ حَاجَةُ صَاحِبِ الدُّوَلَةِ إِلَى الْمَالِ وَتُنْفِقُ أَبْنَاءَ الْبِطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ مَا تَأْتِلُهُ أَبَاوُهُمْ مِنْ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَيِّلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ الدُّوَلَةِ وَيُقْبِلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَبَاوُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصِحةِ وَيَرَى صَاحِبُ الدُّوَلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ أَلَّا يَكُنْسِتَ فِي دُوَلَةِ سَافِهِ وَبِجَاهِهِمْ فَيَضْطَلُّمُهُمْ وَيَنْتَزِعُهُمْ مِنْهُمْ إِنْفِسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدِهِ عَلَى نِسْبَةِ رُتْبِهِمْ وَتَنَكِّرُ الدُّوَلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدُّوَلَةِ يَفْنَأُ حَاشِيَتَهَا وَرَجَالَاتَهَا وَأَهْلَ الْثَّرَوَةِ وَالنِّعَمَةِ مِنْ بِطَانَتِهَا وَيَنْقُوضُ بِذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ مَبَانِي الْمَجَدِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُمَهُ أَهْلُهُ وَيَرِزُقُهُمْ وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لِوَزَراءِ الدُّوَلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ فِي بَنِي تَعْطَبَةَ وَبَنِي بَزْمَكَ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدُّوَلَةِ الْأَمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ اتْحَالِكَلَّاهَا أَيَامَ الْطَّوَافِ فِي بَنِي شَهِيدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدَةَ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُزْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدُّوَلَةِ الَّتِي أَدْرَكَنَا لِعَهْدِنَا سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

فَصَلْ * وَلِمَا يَتَوَقَّعُهُ أَهْلُ الدُّوَلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَنْزَعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتْبِ وَالتَّخلُصُ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالِ الدُّوَلَةِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ أَهْنَا لَهُمْ وَأَسْلَمُ فِي إِنْقَاقِهِ وَحُصُولُ ثَمَرَاتِهِ وَهُوَ مِنَ الْأَنْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَذْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَخْوَاهِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخُلَاصَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدُ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ صَاحِبَ هَذَا الْفَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ نَفْسَهُ فَلَا تُمْكِنُهُ أَرْعِيَةُ مِنْ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصَبَةِ الْمُزَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَذِمُ لِمُلْكِهِ وَأَنْلَافُ لِنَفْسِهِ بِعِجَارِيِّ الْعَادَةِ بِذَلِكَ لَآنَ رِبْقَةَ الْمَلِكِ بَعْسُرُ الْخُلَاصُ مِنْهَا وَلَا سِيمَا عِنْدَ أَسْتِحْمَالِ الدُّوَلَةِ وَضِيقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنْ الْبُعدِ عَنِ الْمَجَدِ وَالْخُلَالِ وَالْخَلْقِ بِالشَّرِّ وَمَا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْفَرَضِ مِنْ بِطَانَةِ السُّلْطَانِ

وَحَاشِيهِ وَأهْلِ الْرُّتْبِ فِي دَوْلَتِهِ نَقَلَ أَنْ يُخْلِي يَمِّهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ أَمَاً أَوْلَأَ فَلِمَا يَرَاهُ
 الْمُلُوكُ أَنَّ دَوْلَيْهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَایَاتِهِمْ مَمَالِكُ لَهُمْ مُطَاعِونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ
 فَلَا يَسْمَحُونَ بِمَحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ الْخَدْمَةِ ضِنَا بِإِسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطْلِعَ عَلَيْهِمَا أَحَدٌ وَغَيْرَهُ
 مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَادِهِمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَّةٍ يَا لِاَنْدَلُسَ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِصَةِ
 الْجُنُجُورِ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ مِنْ وَقْعَوِيهِمْ يَا بَنِي الْعَبَاسِ فَلَمْ يَجْعَلْ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
 دَوْلَتِهِمْ وَمَا أَبْيَحَ الْجُنُجُورَ لِأَهْلِ الدُّولَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَانِ الْأَمْوَالِ وَرُجُوعِهَا
 إِلَى الْطَّوَافِيْفِ وَأَمَا ثَانِيَا فَلِأَنْهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِمَحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ يَا لِتَجَانِيفِ عَنْ ذَلِكَ
 الْمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزُءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزُءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسِبْ
 إِلَيْهَا وَفِي ظَلِيلِ جَاهِهَا فَتَحُومُ تَغْوِيَهُمْ عَلَى اِنْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالْتِقَامِيْهِ كَمَا هُوَ جُزُءٌ
 مِنَ الدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمُوا أَنَّهُ خَاصٌ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قُطْرِ آخَرَ وَهُوَ فِي
 النَّادِرِ الْأَقْلَ فَتَمَتدُ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ يَا لِإِرْهَابِ وَالْتَّغْوِيفِ
 تَعْرِيضاً أَوْ يَا لِالْقَرْبِ ظَاهِرًا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَابِيَّةِ وَالْدُّولَ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌ لِلْإِنْتَفَاقِ فِي
 الْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمَتدُ إِلَى أَهْلِ الْثَّرَوَةِ وَالْبَسَارِ الْمُتَكَبِّسِينَ مِنْ وُجُوهِ
 الْمَعَاشِ فَأَخْرَى بِهَا أَنْ تَمَدَّدَ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَابِيَّةِ وَالْدُّولِ الَّتِي تَجْدُدُ السَّيْلَ إِلَيْهِ يَا لِالشَّرِيعَ
 وَالْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَاً بْنُ أَخْمَدَ الْلَّهِيَّانِيَّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ
 الْخَفْصِيَّينَ يَا فِرْبَقَةَ الْخُروجِ عَنْ عِهْدَةِ الْمُلُوكِ وَالْلَّهَاقِ بِمَصْرَ فِرَارًا مِنْ طَابِ صَاحِبِ
 الْمُنْهُورِ الْغَرْبِيَّةِ لَمَّا أَسْتَجَمَ لِغَزوِ تُونِسَ فَأَسْتَعْمَلَ الْلَّهِيَّانِيَّ الْرِّحْلَةَ إِلَى شَغْرِ طَرَابِلسَ
 يُورَبِيِّ يَتَمَهِّدُ وَرَكِبَ الْأَسْفَدِينَ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى الْأَيْسْكِنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ
 جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْتُ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ وَالذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَانَتِهِمْ مِنْ
 الْمَتَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجُوْهَرِ حَتَّى الْكِتَابِ وَأَحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى مَصْرَ وَنَزََلَ عَلَى
 الْمَالِ الْأَنْصَرِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَوْنَ سَنَةَ سِبْعَ عَشَرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نُزَّلَهُ وَرَفَعَ
 مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَرَلْ يَسْتَخَلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً يَا لِأَغْرِيَبِضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا وَلَمْ يَبْقَ
 مَعَاشُ أَبْنَ الْلَّهِيَّانِيَّ إِلَّا فِي جِرَاتِهِ الَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ شَمَّاكَ وَعِشْرِينَ
 حَسْبَمَا نَذَكَرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ الدُّولَ
 لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِيبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنْ أَتَقَ لَهُمْ أَخْلَاصٌ يَا لِنَفْسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ الْحَاجَةِ فَقَلَطُوهُ وَوَهُمْ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّهْرَةِ بِخِدْمَةِ الدُّولَ كَافِ
فِي وِجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجِرَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْجَاهِ فِي اِتْحَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ
الْتِجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالْدُّولَ أَنْسَابٌ لَكِنْ

الَّذِنْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتِهَا وَإِذَا تُرْدَى إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَأَللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرَّزَاقُ وَهُوَ الْمُوْفِقُ بِمَنْهُ وَفَضْلُهِ وَأَللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والرابع

في أن نقص العطاء من السلطان تنص في الجياية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّولَةَ وَالسُّلْطَانَ هُوَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَةُ الْعُمْرَانِ
فَإِذَا أَخْتَجَنَ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوِ الْجَيَابَاتَ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ تَصْرُفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَ حِينَئِذٍ
مَا بِأَيْدِي الْحَاشِيَّةِ وَالْحَامِيَّةِ وَأَنْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصْلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَّهُمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَتْ
تَفَقَّهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السَّوَادِ وَتَفَقَّهُمْ أَكْثَرُ مَادَةِ الْأَسْوَاقِ مِنْ سِوَاهُمْ فَيَقُولُ
الْكَشَادُ حِينَئِذٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَزْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ فَيَقُولُ الْخَرَاجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ
الْخَرَاجَ وَالْجَيَابَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَالْمَعَامِلَاتِ وَتَفَاقِلِ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ
لِلْفَوَائِدِ وَالْأَزْبَاحِ وَوَبَالُ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدُّولَةِ يَا لِلنَّقْصِ لِقَلَةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينَئِذٍ
بِقَلَةِ الْخَرَاجِ فَإِنَّ الدُّولَةَ كَمَا قُلْنَا هُوَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أَمِ الْأَسْوَاقِ كُلُّهَا وَأَصْلُهَا
وَمَادَهُمَا فِي الدُّخْلِ وَالْخُرَجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَتْ مَصَارِفُهَا فَأَجِدُرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ
أَنْ يَلْعَقُهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ
مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَّهُ الرَّعِيَّةُ سَهَّلَ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والرابع

في أن الظلم موزن بخراب العمران

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُدُوانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِآمَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَأَكْنِسَابِهَا
لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتِهَا وَمَصِيرَهَا أَنْتَهَيَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ آمَالُهُمْ فِي
أَكْنِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا أَنْقَبَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدْرِ الْأَعْتِدَاءِ وَنَسْبَتِهِ
يَكُونُ أَنْقِبَاضُ الْرَّعَايَا عَنِ السَّعْيِ فِي الْأَكْنِسَابِ فَإِذَا كَانَ الْأَعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَالَمًا فِي
جَمِيعِ أَبُوابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقَعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذِلِكَ لِذِهَابِهِ بِالْأَمْالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

منْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ أَلْأَعْتِدَادُ يَسِيرًا كَانَ أَلْأَنْقَبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نِسْبَتِهِ
وَالْعُمْرَانُ وَوُفُورَةُ وَنَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَارِفِ
وَالْمَكَاسِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَأَنْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ
الْمَكَاسِبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمْرَانِ وَأَنْقَبَضَتِ الْأَحْوَالُ وَأَبْذَغَ النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَافَهَا فَخَفَّ سَاكِنُ الْقُطْرِ وَخَلَّتْ
دِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَأَخْتَلَ بِاَخْتِلَالِهِ حَالُ الدُّولَةِ وَالسُّلْطَانِ لِمَا أَنْهَا صُورَةُ
الْعُمْرَانِ تَفَسُّدُ بِفَسَادِ مَادِهَا ضَرُورَةً وَأَنْظَرَ فِي ذِلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ
الْقُرْسِ عَنِ الْمُوبَدَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْهُمْ أَيَامُ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ وَمَا عَرَضَ بِهِ لِلْمَلِكِ
فِي إِنْكَارٍ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ عَائِدَتِهِ عَلَى الدُّولَةِ يُفَزِّبُ الْمَثَالِ فِي
ذِلِكَ عَلَى لِسَانِ الْبُومِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَهْمِ كَلَامِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّ بُومًا
ذَكَرَ أَيْرُومُ نِكَاحَ بُومٍ أُشْتَى وَإِنَّهَا شَرَطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْبَيَّةً مِنَ الْخَرَابِ فِي أَيَامِ بَهْرَامَ
فَقَبِيلَ شَرَطَهَا وَقَالَ لَهَا إِنْ دَامَتْ أَيَامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكِ أَلْفَ قَرْبَيَّةً وَهَذَا أَمْهَلُ مُرَامٍ فَتَبَهَّ
الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَّا بِالْمُوبَدَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَبْهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ
لَا يَتِيمُ عِزَّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامُ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالنَّصْرَفُ تَحْتَ أُسْرِهِ وَنَهْيُهُ وَلَا قِوَامَ
لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا
سَبِيلٌ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلٌ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعِدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ
بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصْبَهُ أَرْبُثٌ وَجَعَلَ لَهُ قِيمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَبْهَا الْمَلِكُ عَمِدْتَ إِلَى الضِيَاعِ
فَأَنْزَعْتَهَا مِنْ أَزْبَابِهَا وَعُمَارِهَا وَهُمْ أَزْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ أَلْأَمْوَالُ وَأَقْطَعْتَهَا
الْخَاشِيَّةَ وَأَخْلَدْتَمْ وَأَهْلَ الْبِطَالَةِ فَتَرَكُوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يُصْلِحُ الضِيَاعَ
وَسُوِّحُوا فِي الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ التَّحِيفُ عَلَى مَنْ بَقَى مِنْ أَزْبَابِ الْخَرَاجِ وَعُمَارِ
الْضِيَاعِ فَأَنْجَلُوا عَنِ ضِيَاعِهِمْ وَخَلَوْا دِيَارَهُمْ وَأَوْلَوْا إِلَى مَا تَعَدَّ مِنَ الضِيَاعِ فَسَكَنُوهَا
فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرَبَتِ الضِيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَّتِ الْجُنُودُ وَالرُّعْيَةُ وَطَمَعَ فِي
مُلْكِ فَارِسَ مِنْ جَاْوِرِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِاَنْقِطَاعِ الْمَوَادِ الَّتِي لَا تَسْتَهِمُ دَعَائِمُ
الْمَلِكِ إِلَّا بِهَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذِلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَأَنْزَعَتِ الضِيَاعُ مِنْ
أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرُدَّتْ عَلَى أَزْبَابِهَا وَحُمِّلُوا عَلَى رُسُومِهِمِ السَّالِفَةِ وَأَخْذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوَيَ

مَنْ ضَعَفَ مِنْهُمْ فَعَمِّرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبَلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عَنْدَ جِبَاهِ الْغَرَابِ
وَقَوَبَتِ الْجِنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُ الْأَعْدَاءِ وَسُخِنَتِ الشَّفُورُ وَأَفْيَلَ الْمَلَكُ عَلَى مُبَاشِرَةِ أُمُورِهِ
بِنَفْسِهِ فَحَسِنَتِ أَيَامُهُ وَأَنْتَلَمَ مُلْكَهُ فَتَهَمَّمَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ تُغَرِّبُ بِالْعُمْرَانِ
وَأَنَّ عَائِدَةَ الْغَرَابِ فِي الْعُمْرَانِ عَلَى الدُّولَةِ بِالْفَسَادِ وَالْأَنْتِقَاضِ وَلَا تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى
أَنَّ الْأَعْتِدَاءَ قَدْ يُوجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّولِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ يَقُعْ فِيهَا خَرَابٌ وَأَعْلَمَ
أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسِبَةِ بَيْنَ الْأَعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ
الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمْرَانُهُ كَثِيرًا وَأَخْوَالُهُ مُتَسِعَةٌ بِمَا لَا يَنْعَصِرُ كَانَ وَفْوَغَ النَّقْصُ فِيهِ بِالْأَعْتِدَاءِ
وَالظُّلْمُ يَسِيرًا لِأَنَّ النَّقْصَ إِنَّمَا يَقْعُدُ بِالْتَّدْرِيجِ فَإِذَا خَفِيَ بِكَثْرَةِ الْأَخْوَالِ وَاتْسَاعِ
الْأَعْوَالِ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهُرْ أَثْرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ تَذَهَّبُ بِنَاكَ الدُّولَةُ الْمُعْتَدِيَةُ مِنْ
أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ الْمِصْرِ وَمَجْمِعِ الدُّولَةِ الْأُخْرَى فَتَرَقَعَهُ بِحِدَّتِهَا وَتَجَبَّرُ النَّقْصُ الَّذِي كَانَ
خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشَعَّرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَلْفِ الْأَلْفِ الْأَلْفِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنْ حُصُولَ
النَّقْصِ فِي الْعُمْرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدُوانِ أَمْ وَاقِعٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمْنَا وَوَبَالُهُ عَائِدٌ عَلَى
الْدُولِ وَلَا يَحْسِنُ الظُّلْمُ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ أَوِ الْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ
وَلَا سَبَبٌ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِالظُّلْمِ أَعْمَمُ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخْذَ مُلْكَ أَحَدٍ أَوْ غَصَبَهُ
فِي عِمَلِهِ أَوْ طَالِبَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًا لَمْ يَفْرَضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فِي جِبَاهِ
الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَهُ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَهُ وَالْمُنْتَهِبُونَ لَهَا ظَلَمَهُ وَالْمَانِعُونَ
لِلْحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَهُ وَخُصَابُ الْأَمْلَاكِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلَمَهُ وَوَبَالُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَائِدٌ عَلَى الدُّولَةِ
بِخَرَابِ الْعُمْرَانِ الَّذِي هُوَ مَادُهَا لِإِذْهَا يَهِي الْأَمَالَ مِنْ أَهْلِهِ وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ
الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَا عَنْهُ مِنْ فَسَادِ الْعُمْرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ
مُؤْذِنٌ بِالْأَنْقِطَاعِ إِلَى النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ
مَقَاصِدِهِ الضرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ مِنْ حِنْظَ الْدِينِ وَالنَّفْسِ وَالْعُقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ فَلَمَّا كَانَ
الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤْذِنًا بِالْأَنْقِطَاعِ إِلَى النَّوْعِ لِمَا أَدَى إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيبِ الْعُمْرَانِ كَانَتْ
حِكْمَةُ الْخَطَرِ فِيهِ مَوْجُودَةً فَكَانَ تَحْرِيْهُ مُهِمًا وَأَدَلَّتُهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنْنَةِ كَثِيرَةً أَكْثَرَ
مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الْفَيْبَطِ وَالْعَصْرِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوْضَعَ بِإِزَانِهِ
مِنَ الْعُقوَبَاتِ الْأَزَاجَةِ مَا وُضِعَ بِإِزَانِهِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ الَّذِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى

أقتداءً بها من أَرْزَاقَهَا وَالْقَتْلِ وَالشُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا هُوَ إِلَّا مَنْ يَقْعُدُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَبِوَلَغَ فِي ذَمَّهُ وَتَكْرِيرِ الْوَعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ الْوَازِعُ فِيهِ الْقَادِرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَيْدِ. وَلَا تَقُولُنَّ إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ وُضِعَتْ بِإِذَاءِ الْخِرَابَةِ فِي الْشَّنْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لَانَّ الْمُحَارِبَ زَمَنَ حِرَاتِهِ قَادِرٌ فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ. أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةَ عَلَى مَا يَقْتَرُفُهُ مِنَ الْجَنَاحَيَاتِ فِي نَفْسِ أَمْوَالِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِمَحْنَاتِهِ وَمَا تَقْسُمُ الْخِرَابَةُ فِيهِ خُلُوٌّ مِنَ الْعُقُوبَةِ. الْطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ الْمُحَارِبُ لَا يُوصَفُ بِمَا لَقْدَرَهُ لَا نَأْنَمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظَّالِمِ الْيَدِ الْمُبَسُوْطَةِ الَّتِي لَا تُعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فِي الْمُؤْذَنَةِ بِإِنْخَرَابِ وَمَا قُدْرَةُ الْمُحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا دَرِيعَةً لِلَاخْرِزِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا يَبْدِي الْكُلُّ مَوْجِدَةً شَرِيعًا وَسِيَاسَةً فَلَبَسَتْ مِنَ الْقَدَرِ الْمُؤْذَنِ بِالْخِرَابِ وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ. وَمِنْ أَشَدِ الظُّلَامَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي إِفْسَادِ الْعُمْرَانِ تَكَلِّفُ الْأَعْمَالِ وَتَسْخِيرُ الْرَّعَايَا بِغَيْرِ حَقٍّ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَمَوَّلَاتِ كَمَا سَبَبَنِ في بَابِ الرِّزْقِ لَانَّ الرِّزْقَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ قِيمَ أَعْمَالِ أَهْلِ الْعُمْرَانِ فَإِذَا مَسَاعِيهِمْ وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مُتَمَوَّلَاتٍ وَمَكَاسِبُهُمْ بَلْ لَا مَكَاسِبُهُمْ لَهُمْ سِوَاهَا فَإِنَّ الرَّعِيَةَ الْمُعْتَمِلَينَ فِي الْعِمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ وَمَكَاسِبُهُمْ مِنْ أَعْتِمَالِهِمْ ذَلِكَ فَإِذَا كُلُّهُوا أَعْمَلَ فِي غَيْرِ شَانِهِمْ وَاتَّخِذُوا سِرْيَا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ كَسْبُهُمْ وَأَغْتَصَبُوا قِيمَةَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ وَهُوَ مُتَمَوَّلُهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرُّ وَذَهَبَ لَهُمْ حَظٌ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ بِالْجُملَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ آمَالَهُمْ فِي الْعِمَارَةِ وَقَعَدُوا عَنِ السُّعْيِ فِيهَا جُمْلَةً فَادِي ذَلِكَ إِلَى أَنْتِقَاضِ الْعُمْرَانِ وَتَخْرِيبِهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعُمْرَانِ وَالْدُّولَةِ التَّسْلُطُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ يُشْرِأُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَا بِنَحْسِ الْأَثْمَانِ ثُمَّ قَرْضُ الْبَضَائِعِ عَلَيْهِمْ يَا رَفْعُ الْأَثْمَانِ عَلَى وَجْهِ الْغَصْبِ وَالْإِكْرَاهِ فِي الشِّرْاءِ وَالْبَيْعِ وَرُبَّمَا تُفْرَضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَثْمَانُ عَلَى التَّوَاحِي وَالْتَّعْجِيلِ فَيَتَعَلَّمُونَ فِي تِلْكَ الْخِسَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُهُمْ يَا تَحْدِثُهُمُ الْمَطَامِعُ مِنْ جَبَرِ ذَلِكَ بِنَحْوَهُ الْأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ الْبَضَائِعِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بِالْفَلَاءِ إِلَى يَعْهَا يَا بِنَحْسِ الْأَثْمَانِ وَتَعُودُ خِسَارَةً مَا بَيْنَ الصَّنْفَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ يَعْمَلُ ذَلِكَ أَصْنَافُ

التجار المُقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدّكّين في الماء كلّ الفوائد وأهل الصنائع فيها يُتّخذون من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتُجعّف بروءوس الأموال ولا يجدون عنها ولِيجَة إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبّرها بالازداج ويتناول الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتنسد الأسواق وبطْل معاش الرعایا لأن عاتمة من البيع وأشراء وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم وتنقص حبّة السلطان أو تفسد لأن معظمها من أوسط الدولة وما بعدها إنما هو من آل سُكُون على البياعات كما قدمناه ويُؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التذرّي ولا يشعر به هذا ما كان بامثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال وأما أخذها مجاناً والمدعوان على الناس في أمورهم وحرارتهم ودمائهم وأسرارهم وأغراضهم فهو يُفضي إلى الخلل والفساد دفعه وتنقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنها من المزاج المفضي إلى الانقاض ومن أجل هذه المفاسيد حظر الشروع ذلك كله وشرع آل سُكُون على البيع وأشراء وحظر كلّ أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسيد المفضية إلى انتفاضة العمران بالمرج أو بطلاق المعاش وأعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكتثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثرون تقاضيهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القرآنين المعتادة يستحدثون ألقاباً ووجوهاً يسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد و الخارج يسبّه يكثرون الحاجة إلى أموال الناس تستد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تتعيّي دائرتها ويذهب يرسمها ويغلبها طالبها والله أعلم

الفصل الرابع والأربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يظلم عند المرم إعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنّه لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة إن كان قيامها بالذين فإنّه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها

يعزِّيَ الْفَلْبُ فَقَطْ فَالْمَدَاؤُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْغَلْبُ بَعِيدَةً أَيْضًا عَنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَمَذَاهِيَّةِ
 فَإِذَا كَانَتِ الدُّولَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدَوِيَّةً كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى حَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْمَدَاؤُ
 وَالْفَرْبُ مِنَ النَّاسِ وَمُسْهُلَةُ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْأَنْفَرَادِ بِنَفْسِهِ عَنِ
 النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِ شُؤُونِهِ لِمَا يَسْكُنُ حِينَئِذٍ بِمَحَاشِيهِ فَيَطْلُبُ
 الْأَنْفَرَادُ مِنَ الْعَامَةِ مَا أَسْتَطَاعَ وَيَتَخَذُ الْإِذْنَ يَسَايِهُ عَلَى مَنْ لَا يَأْمُنُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ
 دُولَتِهِ وَيَتَخَذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يُقْيِيمُهُ يَسَايِهُ لِهُذِهِ الْوُظْفَيَّةِ ثُمَّ إِذَا أَسْتَفَلَ الْمُلْكُ
 وَجَاءَتِ مَذَاهِيَّةُ وَمَنَازِعُهُ أَسْتَحَالَتْ أَخْلَاقُ صَاحِبِ الدُّولَةِ إِلَى أَخْلَاقِ الْمَلَكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ
 غَرِيبَةٌ مُخْصُوصَةٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مُبَاشِرُهَا إِلَى مُدَارَائِهَا وَمَعَالِمَهَا يَحْبَبُ لَهَا وَزَبَدًا جَمِيلٌ تِلْكَ
 الْأَخْلَاقُ مِنْهُمْ بَعْضُ مَنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوَقَعَ فِيمَا لَا يُرْضِيهِمْ فَسَخَطُوا وَأَوْصَرُوا إِلَى حَالَةِ الْأَنْتِقَامِ
 مِنْهُ فَأَنْفَرَدَ بِعِرْفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ الْخَوَاصِ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَجَبَّوْا غَيْرَ أُولَئِكَ الْخَاصَّةِ
 عَنِ إِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعايَنَةِ مَا يُسْخَطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنْ
 الْتَّعَرُضِ لِعِقَابِهِمْ فَصَارَ لَهُمْ حِجَابٌ أَخْرُّ أَخْصُّ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِيُ إِلَيْهِمْ مِنْهُ
 خَوَاصِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيَحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَةِ وَالْحِجَابُ الْثَّانِي يُفْضِيُ إِلَى
 بِعْدَالِيَّسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيَحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَةِ وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَسْكُونُ فِي أَوَّلِ
 الدُّولَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَثَ لِيَامٍ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الْمُلْكِ وَخُلَانَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَانَ
 الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسْمِي عِنْدَهُمُ الْحِجَابَ جَرِيًّا عَلَى مَذَهَبِ الْأَشْتِيقَاقِ الْصَّحِيحِ
 ثُمَّ لَمَّا جَاءَتِ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَجَدَتِ الدَّوْلَةُ مِنْ التَّرَفِ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ
 وَكَمُلَتْ خُلُقُ الْمُلْكِ عَلَى مَا يَحْبَبُ فِيهَا فَدَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الْثَّانِي وَصَارَ أَسْمُ الْحِجَابِ
 أَخْضَبَهُ وَصَارَ يَبْابُ الْخُلُفَاءِ دَارَانِ لِلْعَبَاسِيَّةِ دَارُ الْخَاصَّةِ وَدَارُ الْعَامَةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ
 فِي أَخْبَارِهِمْ ثُمَّ حَدَثَ فِي الدُّولَةِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصُّ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ الْحَجْرِ
 عَلَى صَاحِبِ الدُّولَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدُّولَةِ وَخَوَاصَ الْمُلْكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَبْنَاءَ مِنَ الْأَعْقَابِ
 وَحَالُوا الْأَمْتَدِيَّاتِ عَلَيْهِمْ فَأَوْلُ مَا يَبْدَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبِدُ أَنَّ يَحْجَبَ عَنْهُ بِطَانَةَ أَبْنَاهُ
 وَخَوَاصَ أَوْلِيَائِهِ يُوْهِمُهُ أَنَّ فِي مُبَاشِرَتِهِمْ إِيَاهُ خَرْقٌ حِجَابِ الْمُهِبَّةِ وَفَسَادِ قَانُونِ الْأَدَبِ
 لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيُعَوِّدَهُ مُلَابِسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنَّ
 يَسْتَحْكِمْ الْأَسْتِيلَاءُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَاعِيَّهِ وَهَذَا الْحِجَابُ لَا يَقْعُدُ فِي

الغالب إلا وأخر الدولة كما قدمناه في التجزي ويكون دليلاً على هرم الدولة وتقاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على تقسيم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطبعاً لهم عند هرم الدولة وذهبوا إلى الاستبداد من اعتقاد ملوكهم لذا ركب في النفوس من معية الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار المهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما مستقبل ويتبع من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبدل صاحب الدولة بالجعد وينفرد به وبأنفه حينئذ عن المسار كهوة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاكه من استرابت به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما أرتقى المساهمون له في ذلك بما تقسيم ونزعوا إلى الفاصلة إليهم من يتحقق بهم مثل حالمهم من الأغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجمع عن الفاصلة فيستبدل ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً ونطاقاً ممتدًا في الاتساع وعصبيةبني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضرر فلم يتبغض عرق من الخلقة سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستبيتين في شأن يدعى لهم لم يكن ذلك نزعه ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأبر من بنى أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتفاص عن الفاصلة تزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدث بها ملكاً وأقطعها عن دولتهم وصبر الدولة دولتين ثم تزع أديريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر أبناءه من بعده البرابرية من أوربة ومغاربة وزنانة واستولى على ناحية المغرب ثم أزاد أدت الدولة تقلصاً فاضطررت الأغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على أفريقيا والمغرب ثم مصر والشام والمحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين آخرتين وصارت الدولة العربية ثلاثة دول دولةبني العباس

مِنْ كُلِّ الْعَرَبِ وَأَصْلَاهُمْ وَمَادَتْهُمْ إِلَيْهَا الْمُجَدِّدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ
مُلْكُهُمُ الْقَدِيمُ وَخَلَقُهُمْ بِالْمَشْرِقِ وَدَوْلَةُ الْعَبَدِيِّينَ بِافْرِيقِيَّةِ وَمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَهَانِ
وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَّ أَنْقِرَاضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ أَنْقَسَتْ دَوْلَةُ
بَنِي الْعَبَاسِ بِدُولَ أُخْرَى وَكَانَ بِالْفَاصِيَّةِ بُنُوْسَانَ فِيهَا وَرَاءُ النَّهَرِ وَخُرَاسَانَ وَالْعَلَوِيَّةِ
فِي الْدِينَمِ وَطَبَرِسْتَانَ وَآلَ ذَلِكَ إِلَى أَسْتِلَاءِ الْدِينَمِ عَلَى الْعِرَاقِينَ وَعَلَى بَغْدَادَ وَالْخُلَفَاءِ
ثُمَّ جَاءَ السُّلْجُوقِيَّةُ قَمَّا كَوَافَّهُمْ ثُمَّ أَنْقَسَتْ دَوْلَتَهُمْ أَيْضًا بَعْدَ اِسْتِفْحَالِ كَمَا
هُوَ مَعْرُوفُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَلِكَ أَعْتَزَرَهُ فِي دَوْلَةِ صَنْهَاجَةِ بِالْمَغْرِبِ وَافْرِيقِيَّةِ لَمَّا بَلَغَتْ
إِلَى غَایَتِهَا أَيَّامَ بَادِيسَ بْنِ الْمَنَصُورِ خَرَجَ عَلَيْهِ عَمَّهُ حَمَادٌ وَأَقْتَطَعَ مَا لَكَ الْعَرَبُ لِنَفْسِهِ
مَا بَيْنَ جَبَلِ أُورَاسَ إِلَى تَلْمُسَانَ وَمَلَوِيَّةِ وَأَخْتَطَ الْقَلْمَةَ يَجِيلُ كُتَّامَةَ حِيَالَ الْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا
وَأَسْتَوَى عَلَى مَرْكُزِهِمْ أَشِيرَ يَجِيلُ تِيَطَرِي وَأَسْتَعْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيَا لِمُلْكِ آلِ بَادِيسَ
وَبَقِيَ آلُ بَادِيسَ بِالْقِيرَوَانِ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَنْقَرَضَ أَمْرُهَا جَمِيعًا وَكَذَلِكَ
دَوْلَةُ الْمُوَحَّدِينَ لَمَّا تَقْلَصَ ظَاهِرًا ثَارَ بِافْرِيقِيَّةِ بُنُوْأَبِي حَفْصِ فَأَسْتَقْلُوا بِهَا وَأَسْتَعْدَثُوا
مُلْكًا لِأَعْقَابِهِمْ بِنَوَاحِيَهَا ثُمَّ لَمَّا أَسْتَفَحَ أَمْرُهُمْ وَأَسْتَوَى عَلَى الْغَایَةِ خَرَجَ عَلَى الْمَالِكِ
الْغَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْقَابِهِمْ الْأَمِيرُ أَبُوزَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقِ إِبْرَاهِيمَ رَابِعِ خُلُفَاءِهِمْ
وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا يَجِيلَةَ وَقَسْنَطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا أَفْرَشَهُ بَنَيُهُ وَقَسَّمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ
ثُمَّ أَسْتَوَلُوا عَلَى كُرْزِيِّ الْحَضْرَةِ بِتُونِسَ ثُمَّ أَنْقَسَ الْمُلْكُ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْأَسْتِلَاءُ
فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي الْأَنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوَلَتَيْنِ وَثَلَاثَ وَفِي غَيْرِ أَعْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمِهِ
كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ الْطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الْعَجمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ صَنْهَاجَةِ بِافْرِيقِيَّةِ
فَقَدْ كَانَ لِآخِرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حُصْنٍ مِنْ حُصُونِ افْرِيقِيَّةِ ثَانِ وَمُسْتَقِلٍّ بِمَرِيِّ كَمَا نَقْدَمَ
ذَكْرُهُ وَكَذَا حَالُ الْجَرِيدِ وَالْأَزَابِ مِنْ افْرِيقِيَّةِ قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ كَمَانَذَ كُرْهُ وَهُكْدَا شَانُ
كُلِّ دَوْلَةٍ لَا بَدَ وَإِنْ يَعْرِضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ بِالْتَّرَفِ وَالْدَّعَةِ وَلَقَائِصُ ظَلَ الْغَلْبِ فَيَنقَسِمُ
أَعْيَاصُهَا وَمَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا الْأَمْرُ وَيَتَعَدَّ فِيهَا الْدُّوَلُ وَالْهُوَارِثُ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل السادس والأربعون

في ان المرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وسبابه واحدا بعد واحد وبينما أنها

تَحْدُثُ لِلْدُوْلَةِ بِالْطَّبْعِ وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبَيْعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبَيْعِيًّا فِي الدُّوْلَةِ كَانَ حَدْوَثُهُ يُمَاثَابَةً حَدْوَثِ الْأُمُورِ الطَّبَيْعِيَّةِ كَمَا يَحْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمِزَاجِ الْحَيَوَانِيِّ وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُزَمْنَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ دَوَاؤُهَا وَلَا زِنَاعَهَا بِمَا أَنَّهُ طَبَيْعِيٌّ وَالْأُمُورُ الطَّبَيْعِيَّةُ لَا تَبْدِلُ وَقَدْ يَتَبَيَّنُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدُّوْلَةِ مِنْهُمْ لَهُ بَقْنَةٌ فِي السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا نَزَّلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيَظْنُ أَنَّهُ مُمْكِنُ اِلَازْنَاعَ فِيَا خُذْنَسَةُ يَتَلَاقِي الدُّوْلَةِ وَإِصْلَاحٌ مِنْ زَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الْمُرْسَمِ وَيَعْسِبُ أَنَّهُ لَحِقَّهَا بِتَقْصِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أَهْلِ الدُّوْلَةِ وَغَفَلَتِهِمْ وَأَيْسَ كَذَلِكَ قَائِمَهَا أُمُورٌ طَبَيْعِيَّةٌ لِلْدُوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَاقِهِمَا وَالْعَوَائِدُ مَنْزِلَةٌ طَبَيْعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ مَثَلًا أَبَاهُ وَأَكَثَرَ أَهْلِ يَتِيمٍ يَلْبِسُونَ الْحَرِيرَ وَالْدِيَاجَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالْمَدَبِ فِي الْسَّلَاحِ وَالْمَرَاكِبِ وَيَعْتَجِبُونَ عَنِ النَّاسِ فِي الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ فَلَا يُمْكِنُهُ مُخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْتُشُونَةٌ فِي الْلِّبَاسِ وَالْأَزْيَارِ وَالْأَخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ إِذَا عَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْتَعُ وَتَقْبَعُ عَلَيْهِ بُرْتَكَبَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرْمِيَ بِالْجُنُونِ وَالْوَسَوَاسِ فِي الْخُروجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً وَخُشِّيَ عَلَيْهِ عَائِدَهُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي سُلْطَانِهِ وَأَنْظُرْ شَانَ الْأَنْيَاءِ فِي إِنْكَارِ الْعَوَائِدِ وَتَخَالُفِهِمَا لَوْلَا أَنَّا يَدُ الْإِلَهِ وَالنَّصْرُ أَسْلَمَهُ وَرُبَّمَا تَكُونُ الْعَصَيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الْأَبْهَةُ تَعْوِضُ عَنْ مَوْقِعِهَا مِنِ الْنُّفُوسِ فَإِذَا أَزْيَاتِ تِلْكَ الْأَبْهَةَ مَعَ ضُعْفِ الْعَصَيَّةِ تَجَاهَسَتِ الرَّعَايَا عَلَى الدُّوْلَةِ بِذَهَابِ أَوْهَامِ الْأَبْهَةِ فَتَنَدَّرَعُ الدُّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأَبْهَةِ مَا أَمْكَنَهَا حَتَّى يَنْقُضِي الْأَمْرُ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ آخِرِ الدُّوْلَةِ قُوَّةٌ تُوْهُمُ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ أَرْتَفَعَ عَنْهَا وَيُوْضَعُ ذَبَالُهَا إِيمَاضَةً الْخُمُودِ كَمَا يَقْعُدُ فِي الْذُبَالِ الْمُشْتَعِلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ أَنْطِفَائِهِ يُوْضَعُ إِيمَاضَةً تُوْهُمُ أَنَّهَا أَشْتَعَالٌ وَهِيَ أَنْطِفَاءٌ فَأَعْتَرِرْ ذَلِكَ وَلَا تُغْفِلْ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ فِي أَطْرَادِ وُجُودِهِ عَلَى مَا قَدَّرَ فِيهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طرق الخلل للدولة

إِعْلَمَ أَنَّ مَبْنَى الْمَلَكِ عَلَى أَسَاسَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا فَلَأَوْلَى الشَّوَّكَةُ وَالْعَصَيَّةُ وَهُوَ الْمُعْبَرُ عَنْهُ بِالْجُنُدِ وَالثَّانِي الْمَالُ الَّذِي هُوَ قِوَامُ أَوْلَىكَ الْجُنُدِ وَإِقَامَةُ مَا يَعْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ مِنْ الْأَخْوَالِ وَأَنْخَلَلُ إِذَا طَرَقَ الدُّوْلَةَ طَرَقَهَا فِي هَذِينِ الْأَسَاسَيْنِ فَلَنْذَكُرُ أَوْلَى طَرُوقَ

آخْلَالٍ فِي الشَّوَّكَةِ وَالْعَصَبَةِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي الْمَالِ وَالْجَبَابَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ تَمْهِيدَ
 الدَّولَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا قُلْنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبَةِ وَأَنَّهُ لَا بدَّ مِنْ عَصَبَةٍ كُبْرَى جَامِعَةٍ
 لِلْعَصَابَ مُسْتَقِعَةٍ لَهَا وَهِيَ عَصَبَةُ صَاحِبِ الدَّولَةِ الْخَاصَّةُ مِنْ عَشَبَرَةِ وَقِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَتِ
 الدَّولَةِ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ مِنَ التَّرَفِ وَجَدَعَ أَنُوفَ أَهْلِ الْعَصَبَةِ كَانَ أَوْلُ مَا يُجَدِّعُ أَنُوفَ
 عَشَبَرَةِ وَذِي قُرْبَاهُ الْمَقَامَيْنَ لَهُ فِي أَسْمَ الْمَلَكِ فَيُسْتَبِّدُ فِي جَدَعِ أَنُوفِهِمْ إِنَّمَا يَبلغُ
 مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالْعِزِّ وَالْغَلْبِ فَيُجِيَطُ بِهِمْ هَادِمَانَ وَهُمَا التَّرَفُ وَالْقُرْبَهُ
 ثُمَّ يَصِيرُ الْقُرْبَهُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ مَرَضٍ فَلُوْبُهُمْ عِنْدَ رُسُوخِ الْمُلَكِ لِصَاحِبِ
 الْأَمْرِ فَيَقْلُبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى الْخُوفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَا خُذُّهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَهِ وَسَابِ
 النِّعَمَةِ وَالْتَّرَفِ الَّذِي تَعُودُوا إِلَيْهِ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ وَتَفْسُدُ عَصَبَةُ صَاحِبِ
 الدَّولَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ الْعَصَبَةُ الْكَبِيرَى الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ بِهَا الْعَصَابَ وَتَسْتَبِّعُهَا فَتَنْحَلُ
 عَرْقُهَا وَتَضَعُ شَكِيمَتَهَا وَتُسْتَبَدِّلُ عَنْهَا بِالْبِطَانَةِ مِنْ مَوَالِي النِّعَمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ
 وَلَتَتَخَذُهُمْ مِنْهُمْ عَصَبَةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ الشَّيْدَةِ الشَّكِيمَيْهِ لِفَقْدَانِ الرَّحْمِ وَالْقَرَابَةِ
 مِنْهَا وَقَدْ كَانَ قَدَّمَنَا أَنَّ شَانَ الْعَصَبَةِ وَقُوتَهَا إِنَّمَا يَهِيَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ
 فِي ذَلِكَ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّولَةِ عَنِ الْعَشَبَرَ وَالْأَنْصَارِ الْطَّبِيعَةِ وَيُحِسِّنُ بِذَلِكَ أَهْلُ
 الْعَصَابَ الْآخِرَى فَيَتَجَاسِرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بِطَانَتِهِ تَجَاسِرُ اطْبَاعِيَا فِي هَلْكَهُمْ صَاحِبُ الدَّولَةِ
 وَيَتَبَعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلِدُ الْآخَرَ مِنْ أَهْلِ الدَّولَةِ فِي ذَلِكَ الْأَوَّلِ مَعَ مَا
 يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ هَلْكَهُ الْتَّرَفِ الَّذِي قَدَّمَنَا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ الْمُلَاكُ بِالْتَّرَفِ
 وَالْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنِ صِبْغَتِهِ تِلْكَ الْعَصَبَةِ وَيُفْسُدُوا بِعَزِّهِمْ وَشَوَّهُهُمْ وَيَصِيرُوا أَوْجَزَ
 عَلَى الْحِمَاءِ وَيَقْلُونَ لِذَلِكَ فَتَقْلِلُ الْحِمَاءُ الَّتِي تَنْزَلُ بِالْأَطْرَافِ وَالثُّغُورِ فَتَتَجَاسِرُ الْأَرْعَابُ
 عَلَى بَعْضِ الدَّعَوَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَيَبَدِّرُ الْخَوَارِجُ عَلَى الدَّولَةِ مِنَ الْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى
 تِلْكَ الْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ
 وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ الْحِمَاءِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَرَالُ ذَلِكَ يَتَدَرَّجُ وَيَنْطَاقُ الدَّولَةِ يَتَضَاقُ حَتَّى
 تَصِيرَ الْخَوَارِجُ فِي أَفْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ الدَّولَةِ وَرُبَّمَا أَنْقَسَتَ الدَّولَةُ عِنْهُ
 ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ عَلَى قَدَرِ قُوتِهِمْ فِي الْأَصْلِ كَمَا قُلْنَاهُ وَيَقْوِمُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ
 عَصَبَتِهَا لَكِنْ إِذْ عَانَ أَهْلِ عَصَبَتِهَا وَلَغَلَبَهُمُ الْمَعْهُودُ وَأَعْتَبَنَ هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي

الإسلام كَيْفَ أَنْتَتْ أَوْلَى إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْمِنْدِ وَالصِّينِ وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَّةَ نَافِذًا فِي خَمْعِ
 الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافِ حَتَّى لَقِدْ أَمْرَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمْشَقَ بِقَتْلِ
 عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِقُرْطَبَةِ فَقُتِلَ وَلَمْ يُرَدْ أَمْرُهُ ثُمَّ تَلَاقَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَّةَ
 بَنِي أَصَابِعِهِمْ مِنَ التَّرْفِ فَأَنْقَرَضُوا وَجَاءَ بُنُوَّ الْعَبَاسِ فَغَضِبُوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا
 الطَّالِبِيَّينَ وَشَرَدُوهُمْ فَانْحَلَتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنَافِ وَتَلَاقَتْ وَتَجَاهَتْ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَإِنْتَدَ
 عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْقَاصِيَّةِ مِثْلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَأَنْقَسَتْ
 الْدُّولَةُ ثُمَّ خَرَجَ بُنُوَّ اَدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَزَيْرُ بِأَمْرِهِمْ إِذْعَانًا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ
 وَأَنَّا أَنْ تَصِلُّهُمْ مُقَاتِلَةً أَوْ حَامِيَّةً لِلْدُّولَةِ فَإِذَا خَرَجَ الدُّعَاءُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
 وَالْقَاصِيَّةِ وَتَعْصِلُهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةُ وَمَلْكٌ تَنَقَّسُ بِهِ الْدُّولَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَّى زَادَتِ
 الْدُّولَةُ تَقْلِصًا إِلَى أَنْ يَتَشَهَّدَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضَعُفُ الْبِطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ يَمْا أَخَذَ مِنْهَا التَّرْفِ
 فَتَهْلِكُ وَتَضْعِلُ وَتَضْعُفُ الْدُّولَةُ الْمُنْقَسِمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمْدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَسْتَغْنِي
 عَنِ الْعَصِيَّةِ يَمَا حَصَلَ لَهَا مِنِ الْعَصِيَّةِ فِي تُفُوسِ أَهْلِ إِيَالِتِهَا وَهِيَ صِيَغَةُ الْأَنْقِيَادِ وَالْتَّسْلِيمِ
 مِنْذَ السِّنِينَ الْطَّوِيلَاتِ الَّتِي لَا يَعْقُلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مِبْدَاهَا وَلَا أَوْلِيَّهَا فَلَا يَعْقُلُونَ إِلَّا
 الْتَّسْلِيمُ لِصَاحِبِ الْدُّولَةِ فَيَسْتَغْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ الْعَصَائِبِ وَبَكْفِي صَاحِبِهَا يَمَا حَصَلَ
 لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا إِلَيْهَا عَلَى الْحَامِيَّةِ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْصُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي
 النُّفُوسِ عَامَةً مِنَ الْتَّسْلِيمِ فَلَا تَكَادُ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ عَصِيَّانَا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجَمْهُورُ
 مُنْكِرُونَ عَلَيْهِ تَخَالُفُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصَدِّيِ لِذَلِكَ وَلَوْ جَزَدَ جُونَدُهُ وَرُبَّمَا كَانَتِ
 الْدُّولَةُ فِي هَذَا الْجَهَالَ أَسْلَمَ مِنَ الْخُوارِجِ وَالْمُنَازِعَةِ لَا سُخْنَكَامِ صِيَغَةُ الْتَّسْلِيمِ وَالْأَنْقِيَادِ
 لَهُمْ فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تَعْدِيَتْ سِرَّهَا بِمُخَالَفَةِ وَلَا يَخْتَلِفُ فِي فَهْمِهَا الْخَرَافَ عَنِ
 الْطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْمُرْجِ وَالْأَنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنِ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ
 ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الْدُّولَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ تَلَاقِي فِي ذَاتِهَا شَانَ الْحَرَارةِ الْغَرِيْزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ
 الْعَادِمِ لِلْفِدَاءِ إِلَى أَنْ يَتَشَهَّدَ إِلَى وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجْلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ
 أَمْدَ وَاللَّهُ يُقْدِرُ الْأَلَيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا أَخْلَلُ الَّذِي يَشَطِّرُهُ مِنْ جِهَةِ
 الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْدُّولَةَ فِي أَوْلِهَا تَكُونُ بَدَوِيَّةً كَمَا مَرَّ فِيَكُونُ خُلُقُ الْرِّفَقِ بِالرَّعَادِيَّةِ
 وَالْقَصْدِ فِي النَّفَقَاتِ وَالْعَشْفِ عَنِ الْأَمْوَالِ فَتَتَبَعَّدُ عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الْجِبَابَةِ وَالْتَّحَذْلُقِ

والكيس في جمع الأموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ إلى الإسراف في النفقة
 فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال ثم يحصل الاستهلاك ويعظم ويستفحى الملك فيدعى
 إلى الترف ويكثر الإنفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم
 بل يتعدى ذلك إلى أهل مصر ويدعى ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجندي وأرزاق
 أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية
 لأن الناس على دين ملوكها وعوايدها ويحتاج السلطان إلى ضرب المكسوس على
 أثمان البيعات في الأسواق لإدراك الحياة لما يراه من ترفة المدينة الشاهد عليهم
 بالرفة ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم تزداد عوائد الترف
 فلا تفي بها المكسوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها
 من الرعايا فتمتد أيامهم إلى جمجمة المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد
 في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجندي في ذلك الطور قد تجاوز على
 الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتصوّع ذلك منهم ونداوى بسكنينة
 العطايا وكثرة الإنفاق فيهم ولا تبعد عن ذلك ولجهة وتكون جباه الأموال في الدولة
 قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الحياة وكونها أيامهم وبما أسع لذلك
 من جاههم فيتوجه إليهم يأخذون الأموال من الحياة وتفشو السعاية فيهم بغضهم
 من بعض للمنافسة والخقد فعمهم التكبان والمصارفات واحداً واحداً إلى أن
 تذهب ثروتهم وتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الآلهة والجمال بهم فإذا
 أصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن
 في هذا الطور قد الحق الشوكه وضفت عن الاستطالة والقهر فتنصرف سياسة صاحب
 الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلة غناه فتعظم
 حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجندي ولا يعني فيما يريده ويعظم الهرم
 بالدولة وتجاوزها عليها أهل النواحي والدولة تحمل عراها في كل طور من هذه إلى
 أن تفضي إلى الهلاك وتشعوض من الاستيلاء الكل فأن قصدها غالب انتزعها من
 أيدي القائمين بها وإن لا بقيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالذباب في السراج إذا
 فني زيه وطفى والله مالك الامر ومدير الاكون لا إله إلا هو

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتتجدد ها كيف يقع

يعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم وألانتقاصل تكون على نوعين إماً بأن يستند ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عند ما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصايه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزيد حمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يديه كما وقع في دولةبني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية وأستند بنساسان بما وراء النهر وبنوهمندان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالأندلس واقتصر ملكها في الطوائف الذين كانوا ولادتها في الأعمال وأنقسمت دولًا ومملوكاً أو زُرُوها من بعدهم من قرابةهم أو مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرباً لأنهم مستقررون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وإنما الدولة أدركتها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية ومحجّز عن الوصول إليها وأن نوع الثاني يأن يخرج على الدولة خارج تبعيّن يتجاوزها من الأمم والقبائل إماً بدعوه يتحمل الناس عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرة في قومه قد استفحل أمره فيسمون بهم إلى الملك وقد حدثوا به انقسامهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالطالية إلى أن يظفر بها ويزنون^(١) كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة اما تستولي على الدولة المستقرة بالطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المستجدة نوعان نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظلّ الدولة عنهم وأنحصرت يارها وهو لا يقع منهم مطالبة للدولة في الآخر كما قدمناه لأن فصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم وأن نوع

الدُّعَاءُ وَالخُوارِجُ عَلَى الدُّولَةِ وَهُوَ لَا يَبْدُو لَهُمْ مِنَ الْمُطَالَبَةِ لَأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِيَّةٌ بِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ
 إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْعَصَبَيَّةِ وَالْأَعْتَازَ مَا هُوَ كَفُاهُ ذَلِكَ وَوَافَ بِهِ
 فِيقُهُ بِيَنْهُمْ وَبَيْنَ الدُّولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ حُرُوبٌ سِجَالٌ تَشَكُّرٌ وَتَتَصَلُّ إِلَى أَنْ يَقْعُدَ لَوْمُ
 الْأَسْتِلاَهُ وَالظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْفَالِبِ ظَفَرٌ بِاَنَّهُ مَنْاجَزَهُ وَالسَّبَبُ فِي
 ذَلِكَ أَنَّ النَّفَرَ فِي الْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقْعُدُ كَمَا قَدَّمَنَاهُ بِامْرٍ تَقْسَانِيَّةٍ وَهُنْمَيَّةٍ وَإِنْ كَانَ
 الْعَدُودُ وَالسِّلَاحُ وَصِدْقُ الْقَتَالِ كَفِيلًا بِهِ لَكِنْهُ قَادِرٌ مَعَ تَلَكَ الْأَمْرُ الْوَهْمِيَّةُ كَمَا
 هُوَ وَلَذِكَ كَانَ الْخَدَاعُ مِنْ أَرْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَكَثُرَ مَا يَقْعُدُ الظَّفَرُ بِهِ وَفِي
 الْحَدِيثِ الْحَرْبُ خَدْعَةٌ وَالدُّولَةُ الْمُسْتَقْرَةُ قَدْ صَيَّرَتِ الْعَوَانِدَ الْمَالُوْنَةَ طَاعَتَهَا اِضْرُوبَيَّةٌ
 وَاجِهَةً كَمَا أَنْقَدَمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَكَثُرُ بِذَلِكَ الْعَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدُّولَةِ الْمُسْتَجَدَّةِ
 وَكَثُرُ مِنْهُمْ اِتْبَاعِهِ وَأَهْلِ شَوْكَتِهِ وَإِنْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةِ فِي
 طَاعَتِهِ وَمُؤَازِرَتِهِ إِلَّا أَنَّ الْآخَرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَأْخَلُوهُمُ الْفَشَلَ بِتَلَكَ الْعَقَائِدِ فِي التَّسَاسِ
 لِلْدُولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ الْفَتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكُادُ صَاحِبُ الدُّولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ يَرْجِعُ
 إِلَى الصَّبَرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَضَعَّ هَرَمُ الدُّولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ فَتَضَعَّ عَقَائِدُ التَّسَاسِ لِهَا
 مِنْ قَوْمِهِ وَتَبَيَّنَتْ مِنْهُمُ الْهَمُّ لِصِدْقِ الْمُطَالَبَةِ مَعَهُ فَيَقْعُدُ الظَّفَرُ وَالْأَسْتِلاَهُ وَإِيَّا
 فَالدُّولَةُ الْمُسْتَقْرَةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ بِمَا أَسْتَحْكَمَ لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النَّعِيمِ
 وَاللَّذَّاتِ وَأَخْتَصُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَابِيَّةِ فَكَثُرُ عِنْهُمْ أَرْتِبَاطُ الْجَنْوُلِ
 وَأَسْتِحْدَادُ الْأَسْلَحةِ وَتَعْظِيمُهُ فِيهِمُ الْأَبْهَةُ الْمَلْكِيَّةُ وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مُلْوِكِهِمْ
 أَخْتِيَارًا وَأَضْطِرَارًا فِي رَهْبَوْنَ بِذَلِكَ كُلُّهُ عَدُوُهُمْ وَأَهْلُ الدُّولَةِ الْمُسْتَجَدَّةِ بِمَعْزَلٍ عَنْ
 ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِداوةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ وَالْخُصَاصَةِ فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ
 الْرُّغْبَ بِمَا يَتَغَهَّبُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الدُّولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ وَيُحْرِمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
 فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ الْمُسْتَقْرَةُ مَا أَخْذَهَا مِنْ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ
 الْخَلْلُ فِيهَا فِي الْعَصَبَيَّةِ وَالْجَبَابِيَّةِ فَيَنْتَهِيُ حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدُّولَةِ الْمُسْتَجَدَّةِ فِرْصَتَهُ فِي
 الْأَسْتِلاَهِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ مِنْذُ الْمُطَالَبَةِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَإِيَّا فَأَهْلُ الدُّولَةِ الْمُسْتَجَدَّةِ
 كُلُّهُمْ مُبَايِنُونَ لِلْدُولَةِ الْمُسْتَقْرَةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَانِدِهِمْ وَفِي سَائرِ مَنَاجِيَهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَارِخُونَ
 لَهُمْ وَمُنَاهِذُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ هَذِهِ الْمُطَالَبَةِ وَبِعَطَامِهِمْ فِي الْأَسْتِلاَهِ عَلَيْهِ فَلَتَهُمْ كُنْ

الْمُبَاعِدَةَ بَيْنَ أَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ سِرًا وَجَهْرًا وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَةِ خَبْرًا عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَةِ يُصِيبُونَ مِنْهُ غَرَّةً^(١) باطِنًا وَظَاهِرًا لِلنِّقْطَاءِ الْمُدَاخِلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكِلُونَ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَةِ وَفَنَاءِ عُمُرِهَا وَوُفُورِ الْخَلَالِ فِي جَمِيعِ جَهَانِهَا وَاتَّضَحَ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفِي مِنْهُمْ مِنْ دَرَمَهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظَمَتْ دُعَوَتِهِمْ بِمَا أَفْتَطَعُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا وَنَقْصَوْهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَبَيَّنَتْ هُمْ مِنْهُمْ يَدًا وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَنْهَا مَا كَانَ بَثَ فِي غَرَائِبِهِمْ مِنَ التَّوْهِيدَاتِ وَتَنَاهَى الْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقْعُ الْإِسْتِلَادُ آخِرًا بِالْمُعَاجَلَةِ وَأَعْتَبَ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَاسِ حِينَ ظَهُورُهَا حِينَ قَامَ الشِّيَعَةُ بِمُخْرَاسَانَ بَعْدَ اِنْعِقَادِ الْمَدَعَوَةِ وَأَجْتَمَعُوا عَلَى الْمُطَالَبَةِ عَشَرَ سَنِينَ أَوْ تَرَيْدُ وَحِينَئِذِ تَمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ وَأَسْتَولُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأَمْوَالِ وَكَذَا الْعُلُوِّيَّةُ بِطَبَرْسَتَانَ عِنْدَ ظَهُورِ دُعَوَتِهِمْ فِي الدَّيْلِمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتِهِمْ حَتَّى أَسْتَولُوا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا أَنْقَضَ أَمْرُ الْعُلُوِّيَّةِ وَسَهَّا الدَّيْلِمُ إِلَى مُلْكِ فَارَسَ وَالْعَرَاقِينَ قَمَكَثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يُطَاوِلُونَ حَتَّى أَفْتَطَعُوا أَصْبَابَهُمْ ثُمَّ أَسْتَولُوا عَلَى الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ وَكَذَا الْعَبَدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشِّيَعِيِّ بَنِي كُتَّامَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشَرَ سَنِينَ وَيَزِيدُ تَطَاؤُلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةِ حَتَّى ظَفَرَ بِهِمْ وَأَسْتَولُوا عَلَى الْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَّوَا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَثُوا ثَلَاثَيْنَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا الْمَسَارِ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ الْمَدَدُ لِمَدَافِعَتِهِمْ بِرَا وَبَحْرَا مِنْ بَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمَكَثُوا الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْقِيَوَمَ وَالصَّعِيدَ وَتَغْطَتْ دُعَوَتِهِمْ مِنْ هَنَالِكَ إِلَى الْخِجَازِ وَأَفْيَمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوَهَرُ الْكَاتِبِ بَعْسَا كِرَهُ مَدِينَةَ مِصْرَ وَأَسْتَولَى عَلَيْهَا وَأَقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طَمْعَ مِنْ أَصْوَلِهَا وَأَخْتَطَ الْقَاهِرَةَ بَجَاءَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ الْمُعْزَلِيْنَ اللَّهِ فَنَزَلَهَا لِسِتِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مِنْذُ أَسْتِيَلَاهُمْ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَا الْسُّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ الْتُرْكِ لَمَّا أَسْتَولُوا عَلَى بَنِي سَاسَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَثُوا نَحْوَهَا مِنْ ثَلَاثَيْنَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سَبَكَتَكِينَ بِمُخْرَاسَانَ حَتَّى أَسْتَولُوا عَلَى دَوْلَتِهِمْ ثُمَّ زَحَنُوا إِلَى بَغْدَادَ فَأَسْتَولُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الدَّهْرِ وَكَذَا التَّتَرُّ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَارَةِ عَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةَ فَلَمْ يَمِّلُهُمُ الْإِسْتِلَادُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمُرَابِطُونَ مِنْ

لِمُشْتَوْنَةَ عَلَى مُلُوكِهِ مِنْ بِغْرَاؤَهُ فَطَأَوْلُومُهُ سِنِينَ ثُمَّ أَسْتَوْلَوا عَالَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ الْمُوْحَدِونَ بِدَعْوَتِهِمْ عَلَى لِمُشْتَوْنَةَ فَمَكَثُوا تَحْوَامِنْ ثَلَاثَيْنَ سَنَةً يَحَارِبُونَهُمْ حَتَّى أَسْتَوْلَوا عَلَى كُرُسِيهِمْ بِعَرَائِشَ وَكَذَا بَنُو مُرِينَ مِنْ زَانَةَ خَرَجُوا عَلَى الْمُوْحَدِينَ فَمَكَثُوا يُطَاوِلُونَهُمْ تَحْوَامِنْ ثَلَاثَيْنَ سَنَةً وَأَسْتَوْلَوا عَلَى فَاسَ وَأَفْتَطَعُوهَا وَأَعْدَمُوهَا مِنْ مُنْكِرِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي شَعَارِبِهِمْ ثَلَاثَيْنَ أُخْرَى حَتَّى أَسْتَوْلَوا عَلَى كُرُسِيهِمْ بِعَرَائِشَ حَسْبَمَا نَذَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّولِ فَهَكَذَا حَالُ الدُّولِ الْمُسْتَجِدَةِ مَعَ الْمُسْتَقِرَّةِ فِي الْمُطَالَبَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ سَنَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْفُتوْحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ أَسْتَبْلَأُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَأَرْوَمِ لِثَلَاثِ أَوْ أَرْبَعِ مِنْ وَفَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا مُرِئُهَا أَسْتِيَّاتُ الْمُسْلِمِينَ فِي جَهَادِ عَدُوِّهِمْ أَسْتَبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الرُّغْبَ وَالْتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ الْمُقْرَرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ الدُّولِ الْمُسْتَجِدَةِ لِلْمُسْتَقِرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَعَارِفُ ظَاهِرُهَا فِي الْمُلْمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمُعْجِزَاتُ لَا يُقَاسُ عَالِيَّهَا الْأَمْوَالُ الْعَادِيَّةُ وَلَا يُعَرِّضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْمَ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

فِي وَفُورِ الْعِرَانِ اخْرَى الدُّولَةِ وَمَا يَقْعُدُ فِيهَا مِنْ كُثْرَةِ الْمُوتَنَانِ وَالْمُجَاعَاتِ إِعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدُّولَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا يَبْدُ لَهَا مِنَ الرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا وَالْأَعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ الْمُكَارَمَةِ وَالْمُحَاسَنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الْطَّبِيعِيَّةُ لِلْدُّولَ وَإِذَا كَانَتِ الْمُلْكَةُ رَفِيقَةً مُخْسِنَةً أَبْنَسَتَ آمَالَ الْرَّعَايَا وَأَنْتَشَلَوْا لِلْعِرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّ وَبَكَثُرَ التَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهُرُ أَثْرُهُ بَعْدَ حِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقْلَى وَفِي اِنْقِضَاءِ أَجِيلَيْنِ تُشَرِّفُ الدُّولَةُ عَلَى نِهَايَةِ عُمُرِهَا الْطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ الْعِرَانُ فِي نِهَايَةِ الْوُفُورِ وَالنَّسَاءِ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَ لَكَ أَنَّ أَوْلَى الدُّولَةِ يَكُونُ فِيهَا الْأَبْجَافُ بِالْأَرْعَابِ وَسُوزِ الْمَلَكَةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَاهُ لِأَنَّ الْأَبْجَافَ وَإِنْ حَدَثَ حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ الْجِيَابَاتُ فَإِنَّمَا يَظْهُرُ أَثْرُهُ فِي تَنَاقُصِ الْعِرَانِ بَعْدَ حِينِ مِنْ أَجْلِ التَّدْرِيجِ

في الأمور الطبيعية ثم إن المجتمعات والموتان تكثرون عند ذلك في أواخر اللّول والسبب فيه إماً للجماعات فلأقبح الناس أيديهم عن الفتن في الآثار بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتنة الواقعية في انتهاص الرعایا وكثرة الخوارج لهم الدولة فيقل اختكار الرزق غالباً وليس صلاح الرزق وشرمته يستمر الوجود ولا على وثيره واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوس ويضعف ويقل ويكثر والرزق والشمار والضرع على نسبته إلا أن الناس وأثقون في أقوائهم بالاختيار فإذا فقد الاختيار عظم توقيع الناس للجماعات فلما الرزق وعجز عنه أولى الخاصة بهم كانوا وكان بعض السنوات الاختيار مفقوداً فشمل الناس الجميع وأماماً كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة الجماعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر المرض والقتل أو قوع الوباء وسببه في الغالب فساد الماء بكثرة العمران لكتلة ما يغالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الماء وهو غذاء الروح الحيواني وملايسه دائمًا فيسري الفساد إلى مزاجه فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطوابع وأعراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتفاغف تكثروا الحميات في الأرجحة وتترسخ الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كلية كثرة العمران وذوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقاها وفلة المغرب وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل المخلاف والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الماء يذهب بما يحصل في الماء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالماء الصحيح ولهذا أيضًا فإن الموتان يكونون في المدن المؤورة العمران أكثر من غيرها بكثير كصر بالشرق وفاس بالغرب والله يقدر ما يشاء

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي تتكلم فيه وانه لا بد لهم في الاجتماع من وزع حاكمه يرجعون

إِلَيْهِ وَحْكَمَةُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنِدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوحَبُ أَنْقِيَادُهُمْ
 إِلَيْهِ إِيمَانُهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبْلِغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوحَبُ
 أَنْقِيَادُهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَفَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابِ ذَلِكَ الْحَكَمَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ فَالْأَوَّلَى
 يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَالْمُرَاعَاتِهِ نَجَاهَ
 الْعِبَادَ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنْ السِّيَاسَةِ
 الْمَدْنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَجَمِعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ حَتَّى يَسْتَغْنُوا عَنِ الْحُكَمِ رَأْسًا
 وَبِسَمْوَنَ الْمَجَمِعَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ مَا يُسَمِّي مِنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ الْفَاصِلَةِ وَالْقَوَافِلِ
 الْمُرَاعَاةِ فِي ذَلِكَ بِالْسِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَعْمَلُ عَلَيْهَا أَهْلُ
 الْاجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ ذَلِكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ الْفَاصِلَةُ عِنْهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ
 بَعِيدَةُ الْوُقُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرْضِ وَالْنَّقْدِ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ
 الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهِيْنِ أَحَدُهُمَا يُرَايِعُ فِيهَا الْمَصَالِحَ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحَ
 السُّلْطَانِ فِي أَسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةُ الْفَرْسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ
 الْحِكْمَةِ وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعِهْدِ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْحُكَمَ الْشَّرْعِيَّةَ
 مُغْنِيَّةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَالْحُكَمُ الْمُلْكُ مُنْدَرَجَةٌ فِيهَا. الْوَجْهُ الثَّانِيُّ
 أَنْ يُرَايِعُ فِيهَا مَصْنَعَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لِهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَرْرِ وَالْاِسْتِطَالَةِ وَتَكُونُ
 الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ
 الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنْ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا لَقَتُضِيهِ
 الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسْبِ جُهْدِهِمْ فَقَوْانِيْنُهَا إِذَا مُجْتَمِعَهُ مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَادَابٍ
 خُلُقِيَّةٍ وَقَوَافِلِ الْأَجْتِمَاعِ طَبَيعِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ مِنْ مُرَاعَاةِ الشَّوْكَةِ وَالْعَصَبَيَّةِ ضَرُورِيَّةٍ
 وَالْاِقْتِداءُ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوْلَامَ الْحِكَمَاءِ فِي أَدَابِهِمْ وَالْمُلُوكُ فِي سِيرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ
 مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْدِعَ كِتَابَ طَاهِرَ بْنَ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وَلَاهُ
 الْمَاءُ مُونَ الْرِّفَةَ وَصَرَّ وَمَا يَنْهِمَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٍ كِتَابَهُ الْمَسْهُورَ عَهْدَ إِلَيْهِ
 فِيهِ وَوَصَاءَ يَجْمِيعٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنَ الْأَدَابِ الْدِينِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالْسِّيَاسَةِ
 الْشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوْكِيَّةِ وَحَتَّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّيْسِ بِمَا لَا يَسْتَغْنِيُ عَنْهُ مُلَكُ

وَلَا سُوْفَةٌ . وَنَصَّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوِيَّةِ اللَّهِ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَسِيْتَهُ وَمَرْأَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايِلَةٌ تُخْطِهِ وَأَخْذَنَظُرَعِيْتَكَ فِي الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالزَّمْ مَا أَلْبَسْكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَنْهُ
 وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
 عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ بُحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّحْمَةَ عَلَيْكَ بِمَنِ اسْتَرْعَاكَ
 أَمْرُهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحَدْوَدِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبْغُ عَنْهُمْ وَالدَّفْعُ
 عَنْ حَرَمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْخَفْنُ لِدِمَاهِهِمْ وَالْأَمْرُ لِسِرْبِهِمْ وَإِذْخَالُ الْرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ
 وَمُؤْاخِذَكَ بِمَا فِي ضَرَبِكَ وَمُوقْفُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُشِبِّكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخْرَتَ
 فَغَرَّ غَلَى لِذَلِكَ فَهُمْكَ وَعَقَلَكَ وَبَصَرَكَ وَلَا يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أُبُرِكَ وَمِلَائِكَ
 شَائِكَ وَأَوْلُ مَا يُوْفِكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَيَكُنْ أَوْلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فَعَلَكَ
 الْمَوَاضِيَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ
 قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنْنَهَا مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لَهَا وَأَفْتَاحَ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتَلَ
 فِي قِرَاءَتِكَ وَتَدَكَّنَ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْدِيدِكَ وَلِتَصْرُفَ فِيهِ رَأْيَكَ وَيَنْشِكَ
 وَأَخْضُضَ عَلَيْهِ جَمَاعَةَ مِنْ مَعْكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَأَدَابَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتَبِعَ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَالْمُشَابِرَةِ عَلَى خَلَائِقِهِ وَأَفْتَهَهُ أَثْرَ السَّلْفِ الْمَاصِلِعِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَرْدُونَ فَإِنَّهُنَّ
 عَلَيْهِ بِإِسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِإِذْوَمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرٍ
 وَنَهْيٍ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَأَئْتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمْيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَخْبَيْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرْبِ
 مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعْدِيْدٍ وَأَشْرِقَ الْفَقْهَ وَأَهْلَهُ وَالَّذِينَ وَحَمَلْتَهُ وَكِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَالَمَيْنَ
 بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَرَّنَ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ وَالْطَّالِبُ لَهُ وَلَمْ تُثْثِ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ
 بِمَا يَنْقُرُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِهِ وَالنَّهِيَّ
 عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُوْبَقاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزْدَادُ الْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالًا
 لَهُ وَدَرَكًا لِلْدِرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأُمُرِكَ وَالْهَبَبَةِ
 لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنْسَةِ بَكَ وَالثِّقَةِ بِعَذَلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْأَقْتِصادِ فِي الْأَمْوَالِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءًا بَيْنَ

نفعاً ولاً أَخْصَّ أَمْنَاً وَلَاً أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَائِلٌ عَلَى
 الْتَّوْفِيقِ وَالْتَّوْفِيقُ فَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقِوَامُ الدِّينِ وَالسُّنَّةِ الْهَادِيَةِ بِالْأَقْتَصَادِ وَكَذَا فِي
 دُنْيَاكَ كُلُّهَا وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ وَالسُّنَّةِ الْمَعْرُوفَةِ
 وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ وَالْإِعْانَةِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الْبَرِّ وَالسُّعْيِ لَهُ إِذَا كَانَ يُطْلَبُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ
 تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمَرَافِقَهُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فِي دَارِ سُكُونِهِ أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأنِ الدِّينِ
 يُورِثُ الْعِزَّةَ وَبِمُحِيصَةٍ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنَّكَ لَنْ تَعُوْطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصَلِحُ أَمْوَالُكَ
 بِأَفْضَلِ مِنْهُ فَإِنَّهُ وَاهْتَدَ بِهِ تَسْمِيَّ أَمْوَالَكَ وَتَزَدَّمَقِدَرَتُكَ وَتَنْصَلِحُ عَامَتُكَ وَخَاصَتُكَ وَأَحْسَنَ
 ظَنَّكَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسْتَقِيمُ لَكَ رَعِيَّتُكَ وَالْتَّسِيسُ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ فِي الْأَمْوَالِ كُلُّهَا تَسْتَدِيمُ
 بِهِ التَّعْمَةُ دَلِيلُكَ وَلَا تُتَهِّمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُوَلِّهُ مِنْ عَمَلَكَ قَبْلَ أَنْ تَكُشَّفَ
 أَمْرَهُ فَإِنَّ إِيْقَاعَ النَّهَمِ بِالْبَرَاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ أَتَمَّ إِثْمَرَ فَأَجْعَلَ مِنْ شَأْنَكَ حَسْنَ
 الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَأَطْرُدَ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَأَرْفُضُهُ فِيهِمْ بِعِنْكَ ذَلِكَ عَلَى أَسْتِطْعَاهُمْ
 وَرِيَاضَتِهِمْ وَلَا يَجِدُنَّ عَدُوًّا لِلَّهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ مَغْمَزاً فَإِنَّهُ يَسْكُنُ فِي الْقَلِيلِ مِنْ
 وَهَنِكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَمِ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يُنْقِصُ لِذَادَةِ عِيشَكَ وَأَعْلَمُ إِنَّكَ
 تَجِدُ بِمُحِسِّنِ الظَّنِّ فُؤَّةً وَرَاحَةً وَتَسْكُنُ فِيهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتُهُ مِنْ أَمْوَالَكَ وَتَدْعُو بِهِ
 النَّاسَ إِلَى تَحْبِيَّكَ وَالْأَسْتِقَامَةِ فِي الْأَمْوَالِ كُلُّهَا وَلَا يَمْنَعُكَ حَسْنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ
 وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْمَسْأَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أَمْوَالِكَ وَالْمُبَاشَرَةُ لِأَمْوَالِ الْأَوْلِيَاءِ
 وَحِيَاطَةُ الرَّاعِيَةِ وَالنَّظَرِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمْلِ مَوْنَاتِهِمْ أَبْسُرُ عِنْدَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ
 فَإِنَّهُ أَفْوَمُ لِلَّذِينَ وَأَحِيَا لِلسُّنَّةِ وَأَخْلَصَ نِيَّتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ
 تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْؤُلٌ عَمَّا صَنَعَ وَتَجْزِي بِمَا أَحْسَنَ وَمُواخِذٌ بِمَا أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
 وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزاً وَعِزَّاً وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَأَسْلَكَ بِمَنْ تَسْوِهُ بِتَرَعَاهُ
 نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهُدَى وَاقِمْ حَدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْجَرِائمِ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ
 وَمَا أَسْتَحْقُوهُ وَلَا تُعَطِّلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَهَوَّنْ بِهِ وَلَا تُؤْخِرْ عُقُوبَةَ أَدْلِ الْعُقوَبَةِ فَإِنَّ فِي
 تَفْرِيَطِكَ فِي ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ خَلِّيكَ وَأَعْتَزِمُ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسُّنَّةِ
 الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبَدْعَ وَالشَّهَابَاتِ يَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ وَنَقْمُ لَكَ مُرْوُتُكَ وَإِذَا عَاهَدْتَ
 عَهْدًا فَأَوْفِ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزْهُ وَأَفْبَلِ الْحَسَنَةَ وَأَدْفَعْ بِهَا وَأَغْمِضْ عَنْ عَيْنِ

كل ذي عيب من رعياتك وأشدّ لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض
 أهل النعيم فإن أول فساد أمورك في عاجلها وأجلها تقرب الكذب والجراءة
 على الكذب لأن الكذب رأس الماشر والزور والنعيم خاتمها لأن النعيم لا
 يسلم صاحبها وفائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر وأحيطت أهل الصلاح
 والصدق وأعز الأشراف بالحق وأمس الضفاف وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله
 تعالى وإعزاز أمره والثمين فيه شوأبه والدار الآخرة وأحيطت سوة الأهواء وأجلوز
 وأشرف عنهم رايك وأظهر براءتك من ذلك لرعياتك وأنعم بالعدل في سياستهم
 وقم بالحق فيهم وبالمعروفة التي تشعي بك إلى سبيل الهدى وأملك نفسك عند الغضب
 وأشر الخزم والوفار وإياك والحمد والطيش والغزو فهيا أنت بستيله وإياك أن تقول
 أنا مسلط أفعل ما أشاء فكان ذلك سريعاً إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل
 وأخلص الله وبحدة النية فيه واليقين به وأعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتى به من يشاء
 ويتزعه من يشاء ولن تجده تغير النعمة وحالون النعمة على أحد أسرع منه إلى حملة
 النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه
 قد استطاعوا بما أعطائهم الله عز وجل من فضلهم ودع عنك مرة تقسيك ولتكن ذخائرك
 وكوزك الذي تدخر وتكلز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد
 لأمورهم والحفظ لديما لهم والرعاية لمليوفهم وأعلم أن الأموال إذا كثرت وادخرت
 في الخزائن لا تنمو وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكفت الآذية
 عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وتركت بها الولاية وطابت بها الزمان وأعتقد
 فيها العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله
 ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما
 يحصل أموالهم ومعاشهم فإذا فعلت ذلك قررت النعمة عليك واستوجبت المزيد
 من الله تعالى وكنت بذلك على جنابة خراجك وتحمّل أموال رعيائك وعملك أقدر
 وكان الجميع لعما شملهم من عدلك وأحسنانك أسلس لطاعتك وأطيب أنفساً بكل ما
 أردت وأجهد نفسك فيما حدّدت لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه وإنما يبقى من
 المال ما اتفق في سبي الله وأعرف لشاكرين حقوقهم وأثبتم عليهم وإياك أن

تُسْكِنَ الْدُّنْيَا وَغُرُورُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَشَتَّاكُونَ بِمَا يَحْقِقُ عَلَيْكَ فَإِنَّ النَّهَاوْنَ يُورِثُ التَّفَرِيطَ
 وَالْتَّفَرِيطَ يُورِثُ الْبُوازَ وَلَيْسَ كُنْ عَمَدَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَرْجُ الشَّوَّابَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ
 سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَأَعْثَصَمْ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ بِزِدْكَ اللَّهِ خَيْرًا
 وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُشِيدُ بِقَدْرِ شُكْرِ أَشَاءَ كِرِينَ وَإِحْسَانِ الْمُجْسِنِينَ وَلَا
 تُحْقِرُنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالِئَ حَاسِدًا وَلَا تَرْجِمَنَ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَ كَفُورًا وَلَا تُدَاهِنَ عَدُوًا
 وَلَا تُصِدِّقَنَ نَعَمَّا وَلَا تَأْمَنَ غَدَارًا وَلَا تُوَالِيَنَ فَاسِقًا وَلَا تَبْيَعَنَ غَاوِيًّا وَلَا تَخْمُدَنَ
 مُرَاهِيًّا وَلَا تُعْقِرَنَ إِنْسَانًا وَلَا تَرْدَنَ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحْسِنَ بَاطِلًا وَلَا تُلَاحِظَنَ مُضْعِكًا
 وَلَا تُخْلِفَنَ وَعْدًا وَلَا تَزْهُونَ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَ غَصْبًا وَلَا تُبَاينَ رَجَاءً وَلَا تَمْسِيَنَ مَرَحًا
 وَلَا تُفْرِطَنَ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعَ النِّسَامَ عَيْنًا وَلَا تُغْمِضَنَ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةَ مِنْهُ
 أَوْ مُحَايَةً وَلَا تَطْلُبَنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَأَكْثُرَ مُشَاؤَرَةَ الْفُقَاهَ وَأَسْتَعْمِلَنَ قَسْكَ
 بِالْحَلْمِ وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ وَلَا تُدْخِلَنَ فِي
 مَشْوَرَتِكَ أَهْلَ الْرِّفَةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمِعَنَ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثُرُ مِنْ تَقْعِيمِ
 وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فَسَادًا لِمَا أَسْتَبَلَتْ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتَكَ مِنْ الشِّعْرِ وَأَعْلَمَ أَنْكَ إِذَا
 كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرًا أَلَاخِذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةَ وَإِذَا كُنْتَ كَذِلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ
 أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَنْقُدُ عَلَى مَحْبِبِكَ بِالْكَفَ عنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُنُورِ
 عَلَيْهِمْ وَأَبْتَدِئُ مَنْ صَافَاكَ مِنْ أُولَائِكَ بِالْأِنْفَصالِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ وَاجْتَنَبَ
 الشِّعْرَ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ أَوْلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبُّهُ وَإِنَّ الْعَامِيَّ بِهِنْزَلَهُ خَزْنِي وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ
 عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُوقَ شُعْرَ نَفْسِهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فَسَهَلَ طَرِيقَ الْجَهُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلَ
 الْمُسْلِمِينَ كَلِمَهُمْ مِنْ فَيْنِكَ حَظًا وَنَصِيبًا وَإِنْقَازًا أَجْوَدًا فَضَلْلُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَأَعْدَهُ لِلنَّفْسَكَ
 خَلْقَهَا أَرْضَ بِهِ عَمَلاً وَمَذْهَبًا وَتَفَقَّدَ الْجُنُدُ فِي دَوَارِيْنِهِمْ وَأَدَرَ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهِمْ
 وَوَسْعَ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ يُذْهِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقْتُلُهُمْ فَيَقُولَ لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدَ
 فُلُوْبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَأَنْشِرَا حَمَّا وَحَسَبُ ذِي السُّلْطَانِ مِنْ السَّعَادَةِ أَنَّ
 يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَارَخَمَةً فِي عَدَلِهِ وَحِيطَتِهِ وَإِنْصَافِهِ وَعِنَاكِيَّهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ
 وَتَوْسِيَّتِهِ فَزَائِلَ مَكْرُوهَةَ احَدِ الْبَاهِنِ يَا مَسْتَشَعَارَ فَصِيلَةِ الْبَابِ الْآخِرِ وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ
 نَلَقَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَحَايَهَا وَصَلَاحَهَا وَأَعْلَمَ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُمْكَانِ

الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِّنْ الْأَمْرِ لَا كُنْهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْدِلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي
 الْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْنَعُ أَحْوَالُ الرَّعْيَةِ وَتَأْمُلُ السُّبُلُ
 وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الدِّعْيَةُ وَيُؤْدِي حَقُّ الطَّاعَةِ
 وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقْيمُ الْدِينَ وَيُغْرِي أَلْسُنَ وَالشَّرَائِعَ فِي بَحَارِيهَا وَأَشَدَّ
 فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النُّطْفَ وَأَمْضَ لِإِقَامَةِ الْحَدُودِ وَأَفْلَى الْمُجْلَةَ وَأَبْعَدَ
 عَنِ الْفَصْحَى وَالْفَلَقِ وَأَفْتَنَعَ بِالْقِسْمِ وَأَنْتَفَعَ بِجَرِبَتِكَ وَأَسْدَدَ فِي مَنْطِقَكَ
 وَأَنْصَفَ الْخَصْمَ وَقَفَ عِنْدَ الشَّبَهَةِ وَأَنْلَعَ فِي الْحِجَةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِّنْ رَعِيَّتِكَ
 مُعَابَةً وَلَا بُعَامَةً وَلَا لَوْمَةَ لَأَئِمَّهُ وَثَبَاتٌ وَتَأْنِيَةٌ وَرَاقِبٌ وَتَذَكَّرٌ وَتَدْبِرٌ وَأَعْتَبَرُ
 وَتَوَاضَعَ لِرَبِّكَ وَأَرْفَقَ بِجَمِيعِ الرَّعْيَةِ وَسَلَطِ الْحُقُوقِ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُشْرِعَنَّ إِلَيْكَ سَفَنَكَ
 دَمَ فَإِنَّ الدِّمَاءَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا كَانَ عَظِيمًا أَنْتَهَا كَمَا لَمَّا بَغَيَّ حَقَّهَا وَأَنْظُرْهُ هَذَا
 الْخَرَاجَ الَّذِي بَيْسَقَ أَسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرَّعْيَةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عَزِيزًا وَرَفِيعَةً وَلِأَهْلِيِّ
 تَوْسِيَّةً وَمَنْعِةً وَلَعْدُوِّ وَعَدُوِّهِمْ كَبَتَا وَغَيَظَا وَلَأَمْلَى الْكُفَّرِ مِنْ مَعَادِهِمْ ذُلْلًا وَصَغَارًا
 فَوَزَعَهُ بَيْنَ أَمْحَابِهِ بِالْحُقُوقِ وَالْعَدْلِ وَالنَّسْوَيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعْنَ شَيْئَاهُنَّهُ عَنْ شَرِيفِ
 الْشَّرَفِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ الْغَنَاءِ وَلَا عَنْ كَاتِبِ الْكِتَابِ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِّنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَّتِكَ وَلَا
 تَأْخُذُنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْأَخْتَالِ وَلَا تُكَافِفُ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَأَحْمَلَ النَّاسَ كَاهِمًا
 عَلَى أَمْرِ الْحُقُوقِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَنْفُسِهِمْ وَالْأَزْمُ لِرِضَاءِ الْهَامَةِ وَأَعْلَمَ أَنْكَ جَعَلْتَ بِوَلَائِكَ
 خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًّا وَإِنَّمَا سُبِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ لِأَنَّكَ رَاعِيَّهُمْ وَقِيمَهُمْ فَخَذْ
 مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَقْذِهِ فِي قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَنَقْوِيَّهُمْ أَوْدِهِمْ وَأَسْتَعْمِلُ
 عَلَيْهِمْ أُولَى الرَّأْيِ وَالْتَّدْبِيرِ وَالْتَّجَرِبَةِ وَالْخَبْرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ وَوَسْعِ
 عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ الْلَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا نَقْلَدْتَ وَأَسْنَدْتَ إِلَيْكَ فَلَا
 يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَنِيَّ أَثْرَتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ
 أَسْتَدْعِيَتْ بِهِ زِيَادَةَ النَّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحْسَنْتَ الْأَخْدُوْثَةَ فِي عَمَلِكَ وَأَجْتَرَتْ بِهِ
 الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتْ عَلَى الْصَّلَاحِ فَدَرَجَتِ الْخَيْرَاتُ بِيَدِكَ وَفَشَّتِ الْعِمَارَةُ
 بِنَاحِيَّتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُورَكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتِ أَمْوَالُكَ وَقَوَيَتِ بِذَلِكَ عَلَى
 أَرْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مُخْرُوذَ الْسِّيَاسَةِ

مَرْضِيَ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَانِدَ وَآلَهُ وَفُوْرَةُ وَعْدَةُ
 فَنَاكِفُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْدِيمُ عَلَيْهِ شَيْئاً تَحْمِلُهُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَجْعَلَ فِي
 كُلِّ كُوْرَةٍ مِنْ عَمَالِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَالِكَ وَيَسْكُنُ إِلَيْكَ بِسِيرِهِ وَأَغْمَالَهُمْ
 حَتَّى كَانَكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مَعَانِي لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرُهُمْ يَأْمُرُ
 فَآنْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوتَ فِيهِ
 حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالْأَصْنَعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّنْتَ عَنْهُ وَرَاجِعُ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ يَهُمْ خَذِ
 فِيهِ عُدْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَا نَظَرَ أَرَجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدْرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهُوَ فَاغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَنْجَبَهُ
 فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنُقْضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَاسْتَعْمِلْ أَلْزَمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ
 وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنَ أَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْفُوْهُ وَأَكْثَرَ مِنْ أَسْتِخْارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
 وَأَفْرَغَ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤْخِرْهُ لِغَدِكَ وَأَكْثَرُ مُبَاشِرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ
 تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخْرَتَ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى دَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا
 أَخْرَتَ عَمَلَهُ أَجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَنْقُلُكَ ذَلِكَ حَتَّى تَمْرَضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمْضَيْتَ
 لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَأَنْظَرْ أَخْرَارَ النَّاسِ
 وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوَيْتَهُمْ وَشَهَدْتَ مَوْدَتَهُمْ لَكَ وَمَظَاهِرَهُمْ
 بِالْلَّصْحِ وَالْحَمَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصُهُمْ وَأَخْسِنَ إِلَيْهِمْ وَتَعَااهَدَ أَهْلَ الْبَيْوَاتِ مِنْ
 قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ الْحَاجَةُ وَاحْتَسَلَ مَوْنَتَهُمْ وَأَصْنَعَ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَعْدُوا لِخَلْقِهِمْ مَسَا
 وَأَفْرَدْ تَقْسِكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ
 وَالْمُحْتَقِرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ يَطْلَبُ حَقَّهُ فَسَلَ عَنْهُ أَحْقَنَ مَسْتَلَةً وَوَكِيلٌ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الْصَّالَاحِ
 مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرْسِمُهُ يُرْفَعُ حَوَالَهُمْ وَحَالَهُمْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ يَهُ أَمْرُهُمْ
 وَتَعَااهَدَ ذَوِي الْبَاسَاءِ وَأَيْتَهُمْ وَأَرَأَمَلَهُمْ وَأَجْعَلَ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ أَقْنَدَاهُ
 بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالْأَصْلَةُ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
 عِيشَهُمْ وَيَرْزُقُكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجْرٍ لِلْأَفْسِرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدْمِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ
 مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لَا كُثُرُهُ فِي الْجَرَائِيدِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصَبَ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا
 تَأْوِيهِمْ وَقُوَّامًا يَرْفَقُونَ بِهِمْ وَأَطْبَاءَ بِعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعَفَهُمْ يَسْهُوْهُمْ مَا لَمْ يُوْجِدُ
 ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أَعْطُوا حُقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِهِمْ

لَمْ يُرْغِبُهُمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَالِهِمْ إِلَى ذَلِكَهُمْ حَامِيَّاً فِي نَيلِ
 الْزِيَادَةِ وَفَضْلِ الْرِّفْقِ مِنْهُمْ وَرَبِّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَصِّعُ لِأَمْرِ النَّاسِ لِعِكْسَةٍ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
 وَيُشَغِّلُ فِكْرَهُ وَذَهَنَهُ فِيهَا مَا بَنَاهُ بِهِ مِنْ مَوْنَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ
 وَيَعْرِفُ مَحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ شَوَّابِ الْآجِلِ كَالذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يُقْرَبُ إِلَيْهِ
 اللَّهُ تَعَالَى وَبَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثَرُ الْإِذْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ وَسَكَنَ
 لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بَشَرَكَ وَلَنْ لَهُمْ فِي الْمَسَأَةِ وَالنُّطْقِ
 وَأَعْطَفَ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإِذَا أَعْطَيْتَ فَأَعْطِ بِسَاحَةٍ وَطَيْبَ نَفْسٍ وَالْمَاءِ
 لِلصَّنْعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا أَمْتَنَانَ فَإِنَّ الْعَطْيَةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرْبَحةٌ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعْتَبْرُ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَفَوْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْشَّرْطَانِ
 وَأَلْزَمَنَاسَةً فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَّةِ وَالْأَمْمَ الْبَائِدَةِ ثُمَّ أَعْتَصَمَ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى وَالْوَقْفُ عِنْدَ مَحْبَبِهِ وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنْنَتِهِ وَبِأُقْلَمَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَأَجْتَبَ
 مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَقَهُ وَدَعَا إِلَى سُفْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَعْرَفَ مَا يَجْمَعُ عُمَالَكَ مِنْ
 الْأُمُوالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا يَجْمَعُ حَرَاماً وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافاً وَأَكْثِرُ مُعَالَسَةِ الْعَلَمَاءِ
 وَمُشَارِرَهُمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَلَيَكُنْ هُوَكَ أَتَبَاعَ السَّنَنَ وَإِقَامَتَهَا وَإِثْنَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
 وَمَعَايِهَا وَلَيَكُنْ أَكْرَمُ دُخَلَائِكَ وَخَاصَتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْنَكَ فِيكَ لَمْ تَنْتَهُ
 هَبَبَتَكَ عَنِ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرَّكَ وَأَعْلَانَكَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَنْقُنَ فَإِنَّ أَوْلَيَكَ أَنْصَعَ
 أَوْلَيَكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ وَأَنْظُرْ عُمَالَكَ الَّذِينَ بَحْضُرَتِكَ وَكُتَابَكَ فَوَقَتْ لِكُلِّ
 رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَتَأْ يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتْبِهِ وَمُؤَمِّرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَالَيْهِ
 عُمَالَكَ وَأُمُورِ الدُّولَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرَغَ لِمَا يُوَرَّدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ
 وَعَقْلَكَ وَكَرِرَ النَّظَرَ فِيهِ وَالْتَّدَبَّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقاً لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ وَأَسْخِرْ
 اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ شُغَالًا لِذَلِكَ فَأَصْرَفْهُ إِلَى الْمَسْتَلَةِ عَنْهُ وَالثَّبَّتْ فِيهِ وَلَا تَمْنَعْ
 عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرَهُ مَعْرُوفٌ تُؤْتِيهِ وَلَيْهِمْ وَلَا تَقْبِلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لِوَفَاءَ وَالْأَسْتِقَامَةَ
 وَالْعُونَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَهْمَ كِتَابِي
 إِلَيْكَ وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَأَسْتَعِنُ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَسْخِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
 عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلَيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ رَغْبَتِكَ مَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَ رَضِيَ وَلِدِيهِ نِظَامًا وَلَا هُلْهُلَةَ عَرَّا وَتَكَبَّنَا وَالْمِلَةَ وَالذِّمَّةَ عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا
أَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَكَ وَالسَّلَامُ . وَحَدَثَ أَخْبَارُ يُونَ
أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَسَاعَ أَمْرُهُ أَغْبَبَ بِهِ النَّاسَ وَأَتَصَلَ بِالْمُؤْمِنِ فَلَمَّا قُرِئَ
عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيْبِ يَعْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَالْتَّدْبِيرِ وَالرَّأْيِ
وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمُلْكِ وَالرَّعْيَةِ وَحِنْدَقِ السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلُفَاءِ وَنَفْوِيْرِ الْخِلَافَةِ إِلَّا
وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَالِ فِي النَّوَاحِي
لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَخْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعْلَمُ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَعْرَفَةِ الْأَعْصَارِ أَنَّهُ لَا بدَّ
فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤْتَدُ الْدِينُ وَيُظْهَرُ الْعَدْلُ وَيَتَبَعُهُ
الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوِي عَلَى الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيِّ وَبِسَمِيِّ الْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ
الْدَّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي الصَّحِيفَةِ عَلَى أَثْرِهِ وَأَنْ عِيسَى يَنْزَلُ مِنْ
بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الْدَّجَالَ أَوْ يَنْزَلُ مَعَهُ فِي سَاعَدَهُ عَلَى قَتْلِهِ وَبِأَمْرِ الْمَهْدِيِّ فِي صَلَاتِهِ وَيَخْتَبُونَ
فِي الشَّانِ بِأَحَادِيثِ خَرْجَهَا الْأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمُ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ وَرُبُّمَا عَارَضُوهَا
بِعَضُ الْأَخْبَارِ وَلِمَ تُصَوَّرُهُ الْمُتَّخِرُونَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةً أُخْرَى وَتَنْوِعُ مِنْ
الْأَسْنَدِ لَالَّ وَرُبُّمَا يَعْتَبِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكَشْفِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ . وَنَحْنُ
الآن نَذَكُرُ هَذَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّانِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِنِ
وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنَدِ ثُمَّ نَشِعُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَرَأْيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ
لَكَ الصَّحِيفَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةَ مِنَ الْأَئِمَّةِ خَرَجُوا أَحَادِيثَ
الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ الْتَّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاؤَدَ وَالْبَزَازُ ابْنُ مَاجَةَ وَالْخَواكِرُ وَالْطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ
وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلِ عَلَيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ وَابْنِ
مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ وَأَمْرِ حَبِيبَةَ وَامِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَفَرَّةَ
آبَنِ إِيَّاسٍ وَعَلَيِّ الْمَلَائِكَةِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْعَ إِلَيْهِمْ يَأْسَانِيَّدَ رُبُّمَا يُعَرِّضُ لَهَا

المُنْكِرُونَ كَمَا نَذَرْكُهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجُرْجَحَ مُقْدَمٌ عَلَىَ
 التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ يَفْلَغُهُ أَوْ سُوءُ حَفْظِهِ أَوْ ضُعْفُهُ أَوْ
 سُوءُ رَأْيِهِ تَطَرَّقُ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذَلِكَ رُبُّمَا يَتَطَرَّقُ
 إِلَى رِجَالِ الْصَّحِيحَيْنِ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَقْيِيمِهِمَا بِالْقُبُولِ وَالْعَمَلِ
 بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةً وَأَخْسَنُ دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الْصَّحِيحَيْنِ بِمَثَابَتِهِمَا
 فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجَدُّ مَجَالًا لِلْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهِمَا بِمَا نُقِلَّ عَنْ أئمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ.
 وَلَقَدْ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي خَيْرٍ عَلَى مَا نَقَلَ السَّهِيلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْأَحَادِيثِ
 الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرَيْهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرُ الْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ
 الْأَخْبَارِ مُسْتَنَدًا إِلَى مَالِكَ بْنِ أَنَّسٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالدَّحَالِ فَقَدْ كَذَبَ
 وَقَالَ فِي طَلْوَعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَا حَسِبَ وَحَسِبْكَ هَذَا غَلوًّا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصَحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَّسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرَ الْإِسْكَافَ عِنْهُمْ مُتَّهِمٌ وَضَاعَ
 وَأَمَّا الْتَّرْمِذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاؤِدَ بِسَنَدِهِمَا إِلَى أَبْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمٍ بْنِ أَبِي
 النَّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زَرَّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْلَمْ يَقِنَ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمَ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ
 رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ يَتِيَّ يُؤَاطِّي أَسْمَهُ أَسْمَنِي وَأَسْمُ أَبِيهِ أَسْمَ أَبِي . هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاؤِدَ
 وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَارِخٌ
 وَلَفْظُ الْتَّرْمِذِيِّ لَا تَذَهَّبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمُ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ يَتِيَّ يُؤَاطِّي أَسْمَهُ أَسْمَنِي
 وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ يَتِيَّ وَكَلَاهُمَا حَدِيثُ حَسَنٍ صَحِحٍ وَرَوَاهُ أَيْضًا
 مِنْ طَرِيقِ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ الْحَاكِمُ رَوَاهُ الشَّوَّرِيُّ وَشَعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
 أَئمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطُرُقُ عَاصِمٍ عَنْ زَرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلُّهُمَا صَحِحَّةُ عَلَىَ
 مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْأَخْتِجاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أَئمَّةِ الْمُسْلِمِينَ (إِنْتَهَى) إِلَّا
 أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حِبْنَلَ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ
 أَحْفَظَهُ مِنْهُ وَكَانَ شَعْبَةُ يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَشْيِيتِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْمَعْجَلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ
 عَلَيْهِ فِي زَرٍ وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضُعْفِ رِوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ

كَانَ ثَقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفِينَانَ فِي حَدِيثِهِ أَضْطَرَابٌ
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنَّ أَبَا زَرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثَقَةٌ فَقَالَ
 لِيَسْ مَحْلُهُ هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَبْنُ عَلِيٍّ فَقَالَ كُلُّ مَنْ أَسْمَهُ عَاصِمٌ يَقُولُ
 وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحْلُهُ عِنْدِي مَحَلٌ الصِّدْقِ صَالِحٌ الْحَدِيثُ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظُ
 وَأَخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النِّسَائِيِّ وَقَالَ أَبْنُ حَرَاشٍ فِي حَدِيثِهِ تَكْرِةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ
 الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُورَةُ الْحَفِظِ وَقَالَ الدَّارِقَطَنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَعْبُرُ
 الْقَطَانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلًا أَسْمَهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتَهُ رَدِيًّا الْحَفِظِ وَقَالَ أَبْنًا سَعْدٍ
 شَعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمٌ بْنُ أَبِي النَّجْوَادِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الْذَهَبِيُّ ثَبَتَ فِي
 الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنْ احْتَاجَ أَحَدٌ بَأْنَ الشِّيْخِينَ أَخْرَجَاهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَاهُ
 يَقْرُونَا بِغَيْرِهِ لَا أَصْلًا وَاللهُ أَعْلَمُ وَخَرَجَ أَبُودَاؤِدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلَيٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ
 رَوَايَةِ قَطْنَانَ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطَّفَيْلِ عَنْ عَلَيٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْلَا بَقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعْثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِيِّ يَمْلَأُهَا
 عَدْلًا كَمَا مُلْتَثِتْ جَوْرًا وَقَطْنَانُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَخْمَدُ وَيَحْبِي أَبْنُ الْقَطَانِ وَابْنُ
 مُعِينِ وَالنِّسَائِيِّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعَجَلِيَّ قَالَ حَسَنٌ الْحَدِيثُ وَفِيهِ تَشَعُّعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ أَبْنُ
 مُعِينِ مَرَّةً ثَقَةٌ شِيعِيٌّ وَقَالَ أَخْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يُونِيسَ كَمَا نَمَرَ عَلَى قَطْنَانَ وَهُوَ مَطْرُوحٌ
 لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمْرُ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارِقَطَنِيُّ لَا يُعْتَجِّ
 بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ أَرْوَاهَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذَهِبِهِ وَقَالَ الْجَزِيجَانِيُّ
 زَائِغٌ غَيْرُ ثَقَةٍ أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُودَاؤِدَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلَيٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ
 أَبْنِ الْمُغَيْرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقِ النَّسَفِيِّ
 قَالَ فَالَّذِي عَلَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى أَبْنِهِ الْحَسَنِ إِنَّ أَبْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَيِّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صَلْبِهِ رَجُلٌ يَسْعَى بِأَمْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُ فِي
 الْخُلُقِ بِمِثْلِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ
 عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هَلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ الْكَمَرِ يُقَالُ لَهُ الْخَارِثُ عَلَى مُقْدَمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يَوْمَ طِينٍ
 أَوْ يُمَكِّنُ لِلَّهِ مُحَمَّدٌ كَمَا مَكَنْتَ قَرِيشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرَةً أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاؤِدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ اخْرَى فِي
هَارُونَ هُوَ مِنْ وَلَدِ الشِّيَعَةِ وَقَالَ السَّلِيمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاؤِدَ فِي عُمَرَ بْنَ أَبِي قَيْسٍ
لَا يَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَا وَقَالَ الْذَّهَبِيُّ صَدَقَ لَهُ أَوْهَامُهُ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّعْبِيِّ وَإِنَّ
خَرْجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَخْتَلَطَ أَخْرَى عُمَرٍ وَرَوَايَتُهُ عَنْ عَلَيِّ مُنْقَطِعَةٍ
وَكَذَلِكَ رَوَايَةُ أَبِي دَاؤِدَ عَنْ هَارُونَ بْنَ الْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا السَّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ
وَهَلَالُ بْنُ عَمَرَ عَبْرُولَانَ وَلَمْ يُعْرَفْ أَبُو الْحَسَنَ إِلَّا مِنْ رَوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرَيْفِ عَنْهُ
أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاؤِدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرَيْفِ عَلَيِّ
أَبْنَ نَفِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا
غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَفَهُ أَبُو جَعْفَرُ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ لَا يَتَابَعُ عَلَيْهِ بْنَ نَفِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ
وَخَرَجَ أَبُو دَاؤِدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رَوَايَةِ صَالِحٍ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبِ لَهُ عَنْ
أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ أَخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيُخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا
إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُغْرِيْ جُونَةً وَهُوَ كَارِهٌ فِي بَاعِثِونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ
فَيُبَعِّثُ إِلَيْهِ بَعْثًا مِنَ الشَّامِ فَيَخْسِفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسَ
ذَلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالٌ أَهْلِ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعَرَاقِ فِي بَاعِثِونَهُ ثُمَّ يَتَشَاءُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ
أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيُبَعِّثُ إِلَيْهِمْ بَعْثًا فَيَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٌ وَأَخْلَيْهُ لِمَرْتَنَ لَمْ
يَشْهَدْ غَنِيَّةً كَلْبٌ فَيُقْسِمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنْنَةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَيُلْقِي الْإِسْلَامَ بِحِجْرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبِثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ
أَبُو دَاؤِدَ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَادِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ
الْمُبَهِّمُ فِي الْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرِجَالُ الصَّحِيحَيْنِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَفْزَعٌ وَقَدْ
يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رَوَايَةِ قَنَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَنَادَةَ مُدَلِّسٍ وَقَدْ عَنْهُمْ وَالْمُدَلِّسُ لَا يُقْبَلُ
مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صُرِّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَضْرِيجٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ
فَعَمَ ذَكْرَهُ أَبُو دَاؤِدَ فِي أَبْوَابِهِ وَخَرَجَ أَبُو دَاؤِدَ أَيْضًا وَتَابَعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ
الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِي أَجْلَى الْجَبَّةِ أَقْنَى

الآنف يَمْلأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْزًا يَعْلَمُ سَيِّئَ مَنِينَ هَذَا لِفَظُ
 أَبِي دَاؤُودَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلِفَظُ الْحَاكِمِ الْمَهْدِيِّ مِنَ أَهْلِ الْبَيْتِ أَشَمُ الْأَنْفَ أَنَّى أَجْلَى
 يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْزًا وَظُلْمًا يَعِيشُ مُكَذَّبًا وَيَسْطُطُ بَسَارَهُ
 وَإِصْبَاعَيْنِ مِنْ يَعْيِنِهِ السَّبَابَةِ وَالْإِبْهَامِ وَعَقْدَ ثَلَاثَ فَالْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ مَحْبِيحٌ
 عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ جَاهٌ ۚ ۖ وَعَمْرَانُ الْقَطَّانُ مُخْتَلِفٌ فِي الْأَحْتِجاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ
 لَهُ الْبَخَارِيُّ أَسْتِشَهَادًا لَا أَصْلًا وَكَانَ يَحْبِي الْقَطَّانُ لَا يُحْدِثُ عَنْهُ وَقَالَ يَعْيَى بْنُ مُعِينٍ
 لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَالِحَّ
 الْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرَّ وَرِيًّا وَكَانَ يَرْسِي السَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَقَالَ
 النِّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَجْرِيُّ سَأَلَتْ أَبَا دَاؤُودَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَخْتَابِ الْمُحَسَّنِ
 وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ بِفَتْوَى شَدِيدَةٍ فِيهَا سَقْكُ الْدِرِمَاءِ وَخَرْجَ التَّرْمُذِيِّ وَأَبْنَ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ
 عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ الْمُهَمَّيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقِ الْنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ
 الْخَدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَثَ فَسَأَلَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَسَّا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدُ الشَّاكِرُ قَالَ فَلَنَا وَمَا ذَاكَ
 قَالَ سَنِينَ قَالَ فَيَحْبِي إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي قَالَ فَيَحْتُولُهُ فِي تَوْبِهِ مَا أَمْسَطَاعَ أَنْ
 يَخْمِلَهُ لِفَظُ التَّرْمُذِيِّ وَقَالَ هَذَا حَدِيثُ حَسَنٍ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ عَنْ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِفَظُ أَبْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ إِنْ قَصَرَ
 فَسَبَعُ وَإِلَّا فَشَعَرَ فَتَنَعَّمُ أَمْتِي فِيهِ نِعْمَةٌ لَمْ يَسْمَعُوا بِمُثْلِهَا فَطُوْقَ الْأَرْضُ أَكَلَهَا وَلَا
 يُدْخِرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يُوْمَيْدَ كُدوْسٌ فَيَقُولُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ.
 إِنْتَهَى وَزِيدُ الْعَمِيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارُقَطَنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْبِي بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ
 وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ الْرَّقَاشِيِّ وَفَضَلَ أَبْنَ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَخْتَجِلُهُ وَقَالَ يَحْبِي بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى لَا شَيْءٌ وَقَالَ مَرَّةً
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ مُتَمَاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زَرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَإِنِّي
 الْحَدِيثَ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ النِّسَائِيُّ ضَعِيفٌ
 وَقَالَ أَبْنُ عَدِيٍّ عَامَةً مَا يَرَوِيهِ وَمَنْ يُزَوِّدُهُ عَنْهُمْ ضُعْفَاهُ عَلَى أَنْ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شُبَّهَ لَمْ يَرُوْ عَنْ أَضْهَنَتْ مِنْهُ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ الْرَّمْذَنِيَّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ
 فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي أَخْرِ أَمْتَي
 خَلِيفَةٍ يَخْتُوا الْمَالَ حَثَّوْا لَا يَعْدُهُ عَدَا وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خُلْفَائِكُمْ خَلِيفَةٍ
 يَخْتُوا الْمَالَ حَثَّوْا وَمِنْ طَرِيقِ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي أَخْرِ الْزَّمَانِ خَلِيفَةٍ يَقْسِمُ الْمَالَ
 وَلَا يَعْدُهُ أَنْتَهُ وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقْعُدْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَيْهِ أَنَّهُ الْمَرْادُ
 مِنْهَا وَرَوَاهُ الْحَاكِيمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي
 سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُمْلَأَ الْأَرْضُ
 جَوْزًا وَظُلْمًا وَعُذْوَانًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ يَنْيِي رَجُلٌ يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا
 وَعُذْوَانًا وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِيمُ هَذَا صَحِيقٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ جَاهٌ وَرَوَاهُ الْحَاكِيمُ
 أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِهِ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَخْرُجُ فِي أَخْرِ أَمْتَي الْمَهْدِيِّ يَسْقِيُهُ اللَّهُ الْغَيْثَ
 وَيَخْرُجُ الْأَرْضَ نَبَاتًا وَيُعْطِي الْمَالَ صَحَاحًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَّةُ وَتَعْظُمُ الْأَمَّةُ يَعِيشُ سَبْعًا
 أَوْ ثَمَانِيًّا يَعْنِي حَجَّجًا وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيقٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يَعْرَجْ جَاهٌ مَعَ أَنْ سُلَيْمَانَ بْنَ
 عَبْدِهِ لَمْ يَخْرُجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ الْسَّنَةِ لَكِنْ ذَكَرَهُ أَبْنُ حَبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا
 تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ الْحَاكِيمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادَ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ
 مَطْرَ الْوَرَاقِ وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْزًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَنْتَرِي
 فِيمَلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فِيمَلِكُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْزًا وَظُلْمًا وَقَالَ الْحَاكِيمُ
 فِيهِ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيقٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لَأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادَ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ
 مَطْرَ الْوَرَاقِ وَأَمَّا شَيْخُهُ الْأَخْرَى وَهُوَ أَبُوهَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 جِدًا مِنْهُمْ بِالْأَكْثَرِ وَلَا حَاجَةٌ إِلَى بَسْطِ أَفْوَالِ الْأَئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ وَأَمَّا أَرْبَوْيِ لَهُ
 عَنْ حَمَادَ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى بِلَقْبِ أَسَدِ السَّنَةِ وَإِنْ قَالَ الْبُخَارِيُّ مَشْهُورٌ
 الْحَدِيثُ وَأَسْتَشَهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَأَحْتَاجُ بِهِ أَبُودَاؤَدَ وَالنِّسَائِيُّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أَخْرَى
 ثِقَةٌ لَوْلَمْ يُصْنِفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزَمٍ مُنْكِرُ الْحَدِيثِ وَرَوَاهُ الطَّبرَانِيُّ
 فِي مُعْجمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاضِلِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ

الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحادي بنى بهذلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمتي يقول بسم الله عز
 وجل له القطر من السماء وتخريج الأرض يركها وتملا الأرض منه فسطا وعدلا كما
 ملئت جوزا وظلمما يعمل على هذه الأمة سبع مئين وتنزل على بيت المقدس وقال
 الطبراني فيه رواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهن عليه وبين أبي
 سعيد أحدا إلا أبا الواثق فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد أنتهى وهذا
 الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بما كثر مما في هذا الإسناد من
 روایته عن أبي سعيد وروایة أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان إنه جھول
 لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواثق الذي رواه عن أبي الصديق فلم
 يخرج له أحد من السنة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه
 يزوى عن أنس روى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجة في كتاب السنن
 عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله
 قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بنى هاشم فلما
 رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال ثقت ما نزال ترى
 في وجهك شيئاً تكرهه فقال إنما أهل البيت أخبار الله لنا الآخرة على الذين وإنما
 بيقي سيلقون بعدى بلاه وتشريدا ونطريا حتى يأتي قوم من قبل المشرق منهم
 رايات سود فيسألون الخبر فلا يعطونه فيقاتلون وبنصرؤن فيعطيون ما سالو
 فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيما لا يفطنها كما ملأوها جورا
 فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الشارع أنتهى وهذا الحديث يعرف
 عند الحذايين بحديث الرأيات ويزيد بن أبي زياد راويه قال فيه شعبة كان رفاعا
 يعني يرفع الآحاديث التي لا تعرف مرتفعة وقال محمد بن الفضيل من كبار أئمة
 الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حدثه ليس بذلك وقال يحيى
 ابن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكانت ياخره بلقى وقال أبو زرعة لمن
 يكتب حدثه ولا يتحقق به وقال أبو حاتم ليس بالقوي وقال الجرجاني يدعهم
 يضعفون حدثه وقال أبو داود لا أعلم أحدا ترك حدثه وغيره أحب إلى منه وقال

آبُنْ عَدِيٍّ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضُعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ
 لِكُنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِلَّا كُثُرُونَ عَلَى ضُعْفِهِ وَقَدْ صَرَحَ الْأَئِمَّةُ بِتَضْعِيفِ
 هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّأِيَاتِ وَقَالَ
 وَكَبِيعُ بْنُ الْجَرَاحِ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَكَذَلِكَ قَالَ أَخْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ
 أَبَا أَمَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّأِيَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَعِينَا
 أَسَامَةً مَا صَدَقْتُهُ هَذَا مَذَهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهْذَا مَذَهَبُ عَلْقَمَةَ أَهْذَا مَذَهَبُ عَبْدِ اللَّهِ وَأَفْرَادَ
 الْعَقِيلِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ فِي الْأَصْفَافِ وَقَالَ الَّذِي لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَجَ أَبْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعَجَلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنَ أَهْلِ الْبَيْتِ يُصْلِحُ مَا لَهُ يَهُ فِي لَيْلَةٍ وَيَاسِينُ الْعَجَلِيُّ
 وَإِنْ قَالَ فِيهِ أَبْنُ مَعْنَى لَيْسَ بِهِ بِأَسْفٍ فَقَدْ قَالَ الْجُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهَذِهِ الْلَّفْظَةُ مِنْ أَصْطِلَاحِهِ
 قَوِيقَةُ فِي التَّضْعِيفِ حَدَّا وَأَفْرَدَ لَهُ آبُنْ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ وَالْذَّهَبِيِّ فِي الْمُعِيزَانِ هَذَا
 الْحَدِيثُ عَلَى وَجْهِ الْأَسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ وَخَرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُجْمِعِهِ الْأَوْسَطِ
 عَنْ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ بَلْ مِنَّا بِنَا يَحْتَمِلُ اللَّهُ كَمَا بِنَا فَتَحَّ وَبَنَا يَسْتَنْقِذُونَ مِنَ الشِّرِّكِ وَبَنَا
 يُوَلِّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عَدَاؤِهِ يَسِّئُ كَمَا بِنَا أَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاؤِ الشِّرِّكِ قَالَ
 عَلَيْهِ أَمْوَمُنُونَ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونُ وَكَافِرُ انتَهِيَ وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيَعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 مَعْرُوفُ الْخَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرَ الْخَضْرَمِيِّ وَهُوَ أَضَعَفُ مِنْهُ قَالَ أَخْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ
 رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ مَنَا كَيْرُ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النِّسَائِيُّ لَيْسَ بِشَفَةٍ وَقَالَ كَانَ أَبْنُ
 لَهِيَعَةَ شَيْخًا أَخْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلَى فِي السَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبَصِّرُ
 سَحَابَهُ فَيَقُولُ هَذَا عَلَى قَدْرِهِ فِي السَّحَابِ وَخَرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أَخْرِ الْزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْصُلُ النَّاسُ فِيهَا
 كَمَا يَحْصُلُ الْذَّهَبُ فِي الْمَعَدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ وَلِكُنْ سُبُوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنْ فِيهِمْ
 الْأَبْدَالَ يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبَهُ مِنْ السَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ بَجَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ
 فَانَّتُمُ الشَّعَالِبُ عَلَيْهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْقَيِّ فِي ثَلَاثَ رَأِيَاتِ الْمُكَثِّرِ
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمُقْلُثُ يَقُولُ بِهِمْ أَثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمْارَهُمْ أَمْتَ امْتَ يُلْقُونَ

سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جمعاً ويرد الله إلى المسلمين الفتن ونعتهم وفاصيthem ورائهم . وفيه عبد الله ابن لميعة وهو ضعيف معروف أحوال ورواه أخاكم في المستدرك وقال صحيح إلا إسناد ولم يخرج جاه في روايته ثم يظهر الماشئي فيرد الله الناس إلى إفتتهم الخ وليس في طريقه ابن لميعة وهو إسناد صحيح كما ذكر وخرج أخاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيلي عن محمد بن الحنفية قال كما عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال له هياهات ثم عقد بيده سبعاً فقال ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوماً فرعاً كفرع السحاب يوْلِفُ الله بيت قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يغرون بأحد دخل عليهم على علة أهل بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاؤزوا معه النهر قال أبو الطفيلي قال ابن الحنفية أتریده قلت نعم قال فإنه يخرج من بين هذين الأشبين قلت لا جرم والله ولا أدعها حتى أموت وما ت بها يعني مكة قال أخاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيدين انتهى وإنما هو على شرط مسلم فقط فإن فيه عمارة الذهبي ويونس بن أبي إسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبرري ولم يخرج له البخاري احتاجا إلى أنس شهاداً مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمارة الذهبي وهو وإن وثقة أحمد وأبن معين وأبو حاتم التسائي وغيرهم فقد قال علي بن المدري عن سفيان أن بشر بن مروان قطع عرقوبيه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمارة عن إسحاق ابن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي و Jacqueline والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمارة وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة وقد ضعف بعضه ووثقة آخرون وقال أبو حاتم الرazi هو مدلس فلا يقبل إلى أن يصرح بالسماع على بن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله ابن زياد وسعد بن عبد الحميد وإن وثقة يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن

معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الشوري قالوا لأن الله رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان من نفس عطاوه فلا يختجئ فيه وقال أحمد بن حنبل سعيد ابن عبد الحميد بدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو هنا يبعد ادلة لم يختجئ فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من روایة مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لوم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فإنه في ستر لا أذ كره لمن يكره قال فقال ابن عباس مثنا أهل البيت أذ بعه من السناخ ومن العندز ومن المهدى قال فقال مجاهد بين لي هو لاء الأذبعة فقال ابن عباس أما السناخ فربما قتل أنصاره وغاف عن عدوه وأما العندز أراه قال فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور ويرهب منه عدوه على مسيرة شرين والمنصور يرعب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدى الذي يمتلا الأرض عدلا كما ملئت جوزا وتأمن البهائم السباع وتليق الأرض أفلاد كيدها قال قلت وما أفلاد كيدها قال أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخر جاه وهو من روایة إسماعيل ابن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه وإسماعيل ضعيف وإن إبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فالأكثرون على تضييقه .اه . وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل عند كبركم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع أربابات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتلهم قوم ذكر شيئا لا أحفظه قال فإذا رأيتهم فبايعوه ولو حبوا على الشنج فإنه خليفة الله المهدى .اه ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا فلاية الجري وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالندىليس وكل واحد منهم عنده ولم يصرخ بالسباع فلا يقبل وقيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط قال بن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد وتنبوه إلى التشيع إنْتَهَى . وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزيدي من طريق ابن

لميوعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الخضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الناس من المشرق في وطئون للمهدي يعني
 سلطانه قال الطبراني تفرد به ابن لميوعة وقد تقدم لنا في حدبه على الذي خرجه
 الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لميوعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف
 منه وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط واللفظ للطبراني عن
 أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يكون في أمتي المهدي إن قصر فسح
 ولا فشمان ولا فتسع شمع فيها أمتي نعمة لم ينعموا بخشلها ترسل السماء عليهم مدرارا
 ولا تدخر الأرض شيئاً من النبات والمال كذوس يقول الرجل يقول بما مهدي اعطي
 فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم
 أنه تابعة عليه أحد وهو وإن وثقة أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات
 وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة
 ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي
 حدث بأحاديث وأنا شاهد له نكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه
 كان ضعفه وخرج أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة وقال حدثني خليلي
 أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل
 بيتي فيضر بهم حتى يرجعوا إلى الحق قال قلت وكم يملك قال خمساً واثنتين قال قلت وما
 خمساً واثنتين قال لا أدرى وإن هذا السندي غير محتاج به وإن قال فيه بشير بن نهيل
 وقال فيه أبو حاتم لا يتحقق به فقد احتاج به الشياخان وثقة الناس ولم بلتفتوا إلى قول
 أبي حاتم لا يتحقق به إلا أنه قال فيه رجاء البشكري وهو مختلف فيه قال
 أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق
 له البخاري في صحيحه حدثنا وأحداً وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في
 معجمه الكبير والأوسط عن فراء بن إبايس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لتملان الأرض جوزاً وظلماً فإذا ملئت جوزاً وظلماً بعث الله رجلاً من أمتي أسمه
 أسم وأسم أبي أسم أبي يملأها عدلاً وقسراً كما ملئت جوزاً وظلماً فلا تمنع السماء
 من قطرها شيئاً ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها بلبت فيكم سبعاً أو ثمانين أو تسعاً

يَعْنِي سِنِينَ . أَهُ . وَفِيهِ دَاؤُدُّ بْنُ الْمُجْبِيِّ بْنُ أَنْتَخُرِمِ عَنْ أَيِّهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ حِدَّاً وَخَرَجَ الْطَّبَرَانِيُّ فِي مُجْمِعِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ أَبْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلَيْهِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاحَى الْعَبَاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَاسِ فَأَخْذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَ الْعَبَاسِ وَيَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبٍ هَذَا حَتَّى يَمْلأَ الْأَرْضَ جَوْزًا وَظَلَمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبٍ هَذَا حَتَّى يَمْلأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَقْرِ الْتَّمِيمِ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَبَّةِ الْمَهْدِيِّ . اثْنَيْهِ . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . أَهُ وَخَرَجَ الْطَّبَرَانِيُّ فِي مُجْمِعِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَّكُونُ فِتْنَةً لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِي مُنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ . أَهُ . وَفِيهِ الْمُشْنَى بْنُ الصَّبَاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًا وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيفٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرَ كَرُوهُ فِي أَبْوَايِهِ وَتَرَجَّحَ أَسْتِغْنَاسًا فَهُذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الْمُخْرَجَةِ جَهَّاً الْأَئِمَّةُ فِي شَأنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجُهُ أَخْرَى الْزَمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنْ الْنَّقْدِ إِلَّا أَقْلِيلٌ وَالْأَقْلِيلُ مِنْهُ وَرَبَّمَا تَسَكَّنَ الْمُنْكَرُونَ لِشَانِهِ يَمَارِوَاهُ مُعَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ الْجَنْدِيُّ عَنْ أَبَانِ بْنِ صَالِحٍ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ عَنِ الْمُحَسَّنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَّسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيٌّ إِلَّا عَبْسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَعْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثَقَةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْمَحَاكِمُ فِيهِ أَنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَأَخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسِ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانِ عَنِ الْمُحَسَّنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُسَّلًا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رَوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَعْهُولٌ عَنْ أَبَانِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ الْمُحَسَّنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُفْطَرٌ وَقَدْ قِيلَ أَنَّ لَامَهْدِيَّ إِلَّا عَبْسَى أَبِيَّنَهُ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْدِيُّ يُعَاوِلُونَ بِهِذَا التَّأْوِيلِ رَدَ الْأَحْتِجاجَ بِهِ أَوَ الْجُمْعَ يَنْهَا وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيَّةٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْغَوَارِقِ . وَآمَّا الْمَتَّهُوَقَةُ فَلَمْ يَكُنْ الْمُتَقْدِمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُ فِي الْمُجَاهَدَةِ

بأَلْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتْائِجٍ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ
 مِنَ الشِّيَعَةِ فِي تَفْسِيلِ عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَالْقَوْلُ بِإِمَامَتِهِ وَادْعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ
 بِذَلِكَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْتَّبَرِيُّ مِنَ الشَّيْخِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ
 ثُمَّ حَدَثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّالِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَجَاءَ
 الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهِيَّةَ الْإِمَامِ بِنَوْعٍ مِنَ الْخَلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ
 مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعٍ التَّنَاسُخِ وَآخَرُونَ مُتَنَظِّرُونَ مُجَيِّيَّ مِنْ يَقْطَعُ بِهَوْتِهِ مِنْهُ
 وَآخَرُونَ مُتَنَظِّرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ
 الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا ثُمَّ حَدَثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَّاخِرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ
 فِي الْكَشْفِ وَفِيمَا وَرَأَهُ الْخَيْرُ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْخَلُولِ
 وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ بِالْقُولِ لِهِمْ بِالْوَهِيَّةِ الْأَئِمَّةِ وَالْخَلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ
 وَظَهَرَ عِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَانَهُ يُعَاكِي مَذَهَبَ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ
 وَالثَّقَابَ وَأَشْرِبُوا أَفْوَالَ الشِّيَعَةِ وَتَوَعَّلُوا فِي الدِّرِيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَنَدًا طَرِيقَهُمْ
 فِي لُبْسِ الْخَرْقَةِ أَنَّ عَلَيَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبْسَاهَا الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ وَأَخْذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ
 بِالْتِزَامِ الْطَّرِيقَةِ وَأَتَصَلَّ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْجُنْدِ مِنْ شِيوخِهِمْ وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عَيْنِي مِنْ
 وَجْهِ مَعْبُودٍ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلَيِّ كَرَمَ اللَّهُ وَجْهُهُ بَلْ الْمُصَاحَابَةُ كُلُّهُمْ
 أُسْوَةٌ فِي طَرِيقِ الْهُدَى وَفِي تَخْصِيصِهِمْ هَذَا بِعَلَيِّ دُونَهُمْ رَاجِحةٌ مِنَ التَّشْيِعِ قَوْيَةٌ يَنْهَا
 مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَوْمِ دَخْلُهُمْ فِي التَّشْيِعِ وَأَنْفَرَ اطْهُمْ فِي سُلْكِهِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا
 الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَأَمْتَلَاتُ كُتُبُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَكُتُبُ الْمُتَّاخِرِينَ فِي
 الْمُصَوِّفَةِ يُبَشِّلُ ذَلِكَ فِي الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمْلِيُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْقَهُ بِنَفْسِهِمْ
 عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مُبْنِيٌّ عَلَى أُصُولٍ وَاهِيَّةٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِيلُ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ
 الْمُسْجِمِينَ فِي الْقُرَآنَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَاحِمِ وَبِأَيْمَانِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا
 فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا وَأَكْثَرُ مِنْ تَكَلُّمٍ مِنْ هُوَلَاءِ الْمُتُصَوِّفَةِ الْمُتَّاخِرِينَ فِي شَانِ
 الْفَاطِمِيِّ أَبْنُ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كِتَابِ عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ وَأَبْنُ قَسْيٍ فِي كِتَابِ خَلْعٍ
 الْنَّعْلَانِ وَعَبْدُ الْحَقِّ بْنُ سَبْعَيْنَ وَأَبْنُ أَبِي وَاصِلٍ تَلْمِيذَهُ فِي شَرِحِهِ لِكِتَابِ خَلْعِ الْنَّعْلَانِ
 وَأَكْثَرُ كَلِمَاتِهِمْ فِي شَانِهِ الْفَازُ وَأَمْثَالُهُ وَرُبَّمَا يُصَرِّحُونَ فِي الْأَقْلَلِ أَوْ يُصَرِّحُ مُفَسِّرُو

كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واصل أن النبوة بها ظهر الحق
 والهدى بعد الصلال والمعنى وإنما تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود بغيرها
 ونثبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجوب
 أن يحيى أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والسلطان
 ثم يعود الكفر بحاله يشارون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك
 بعد الخلافة هذه ثلاثة مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها
 كتابة عن خروج الدجل على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاثة مراتب على نسبة
 الثلاث المراتب الأولى قالوا ولما كان أمرًا خلافة لقريش حكمًا شرعياً بالإجماع
 الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص
 من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم إما ظاهراً كبني عبد الله طائب وإما باطنًا من
 كان من حقيقة الألآل وآل مرتبت إذا حضر لم يلقب من هو الله وأبن العربي
 المخاتي سماعه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكني عنه بالبنية
 الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم
 مشكلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل أتني يتنا وكماله حتى إذا تم يبق منه
 إلا موضع لبنيانا تلك الابنة فيفسرون خاتم النبيين بالبنية حتى أكمانت البيان
 ومعناه الذي الذي حصلت له النبوة الكلامية ويعملون الولاية في تفاوت مراتبها
 بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة
 الولاية كما كان خاتم الأنبياء حائزًا للمرتبة التي هي خاتمة النبوة نكفي الشارح
 عن تلك المرتبة الخاتمة بالبنية أثبت في الحديث المذكور وهم على نسبة واحدة
 فيهما وهي لبني واحدة في التمثيل وفي النبوة لبني ذهب وفي الولاية لبني فضة للتغاوت
 بين الرتبتين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبني الذهب كتابة عن النبي صلى الله
 عليه وسلم ولبني الفضة كتابة عن هذا النبي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء
 وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واصل عنه وهذا الإمام
 المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خفجي من
 الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يزيد عددها بحساب الجمل وهو أخاه المعمجمة بواحدة من

فوق سِتْمَائَةَ وَالْفَمَا أَخْتَ القَافِ شَمَائِينَ وَأَلْجِيمُ الْمُعْجَمَةُ يُواحدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ ثَلَاثَةَ وَذَلِكَ سِتْمَائَةَ وَثَلَاثَ وَشَمَائِينَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقَرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا انْتَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ وَلَمْ يَظْهُرْ حَمَلَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُقْلِدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمَرْادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلِدُهُ وَعِبَرَ بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلِدِهِ وَأَنْ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشِيرِ وَالسَّبْعِ الْمِائَةِ فَإِنَّهُ الْأَئْمَامُ النَّاجِمُ مِنْ يَاهِيَةِ الْمَغْرِبِ قَالَ وَإِذَا كَانَ مَوْلِدُهُ كَمَا زَعَمَ أَبْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثَ وَشَمَائِينَ وَسِتْمَائَةَ فِيهِ كُونُ عُمْرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًا وَعِشْرِينَ سَنَةً قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدِّجَالِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثَ وَأَرْبَعَ وَسَبْعِمَائَةَ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحْمَدِيِّ وَابْتِدَاءَ الْيَوْمِ الْمُحْمَدِيِّ عِنْهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَكَامَ الْفِسْنَةِ قَالَ أَبْنُ الْأَبِي وَاصِلٍ فِي شَرِحِهِ كِتَابَ خَلْعِ النَّعْلَيْنِ الْوَلِيُّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ يَأْمُرُ اللَّهُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِالْمُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ وَخَاتَمِ الْأُولَيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيٍّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ أَبْتَعْثَهُ رُوحُهُ وَحَيْيُهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالَمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عُلَمَاءُ أَمَّتِي كَانِيَّا إِنِّي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَزَلِ الْبَشَرَى تَابِعَ يَهُمْ أَوَّلَ الْيَوْمِ الْمُحْمَدِيِّ إِلَى قَبْلِ الْخَمْسِمَائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِشَاشِيرِ الْمَشَائِخِ بِتَقْرِيبِ وَقْتِهِ وَأَرْبَلَ لَآفَ زَمَانِهِ مِنْذُ اَنْقَضَتْ إِلَى هُلُمْ جَرَّا قَالَ وَذَكَرَ الْكَنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيُّ هُوَ الَّذِي يَصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظَّهِيرَةِ وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَّةَ فَيَفْتَحُهَا وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرُقَ فَيَفْتَحُهُ وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِنْيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَّقُوَ الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُوُ الْإِسْلَامُ وَيُطَهِّرُ دِينَ الْحَنِيفَيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظَّهِيرَةِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقَتْ صَلَاةِ قَالَ عَلَيْهِ الْصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتِهِ وَقَالَ الْكَنْدِيُّ أَيْضًا الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمُفْتَحُ بِهَا سُورُ الْقُرْآنِ جُمْلَةٌ عَدِيدَهَا سِبْعِمَائَةٌ وَثَلَاثَ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعَ دَجَالِيَّةٌ ثُمَّ يَنْزَلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصْلِعُ الدُّنْيَا وَتَمْشِي الشَّاهَ مَعَ الدَّرِّيْبِ ثُمَّ مَبْلَغُ مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةَ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدُ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ قِيَ نَدْوَةَ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ أَبْنُ الْأَبِي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِيٌ إِلَّا عِيسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِيٌ أُسَاوِيٌّ هِدَايَتُهُ هِدَايَتَهُ وَقَبْلَ لَا يَكُلُّ فِي الْمَهْدِيِّ إِلَّا عِيسَى وَهَذَا مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيجٍ وَغَيْرِهِ وَقَدْ جَاءَ فِي الْصَّحِيفَةِ أَنَّهُ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ أَثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً

بعني قُرْشِيَاً وَقَدْ أَعْطَى الْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ وَقَالَ أَخْلَاقَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ أَحَدِي وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتَّ وَثَلَاثُونَ وَأَنْقَضَاهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ وَأَوَّلُ أَمْرٍ مُعاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرٍ مُعاوِيَةَ خِلَافَةَ أَخْدَى يَا وَأَئِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلُفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلُفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّزِيزِ وَالْبَافُونَ خَمْسَةُ مَنِ اهْلَ الْبَيْتِ مِنْ ذُرَيْتَهُ عَلَيْهِ يُؤْيِدُهُ قَوْلُهُ إِنَّكَ لَذُو قَرْنَيْهَا يُرِيدُ الْأَمَةَ أَيْ إِنَّكَ لِخَلِيفَةٍ فِي أَوْلَاهَا وَذُرَيْتَكَ فِي آخِرِهَا وَرَبِّكَمَا أَسْتَدَلَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَاتِلُونَ بِالْمَرْجَعَةِ ذَا الْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدِهِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدُهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرٌ بَعْدُهُ وَالَّذِي تَفَسَّى بِيَدِهِ لِتُنْفَعَ كُوْزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَنْفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُوْزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِي يُهْلِكُ فَيَصْرَرُ وَيُنْفِقُ كُوْزَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ الْقَسْطَانْطِينِيَّةَ فَتَعْمَلُ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ كَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدَةُ حُكْمِهِ يَضْعُفُ وَالْيَضْعُ مِنْ ثَلَاثَ إِلَى تِسْعَ وَقِيلَ إِلَى عَشْرَ وَجَاهَ ذِكْرَ أَرْبَعِينَ وَفِي بَعْضِ الْرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ وَأَمَّا الْأَذْبَاعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمَدَةُ الْخُلُفَاءِ الْأَذْبَاعَ الْبَاقِيَنَ مِنْ اهْلِ الْقَاتِلِينَ يَا أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمْ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ النَّجُومُ وَالْقَرَانَاتُ أَنَّ مَدَةَ بَقَاءِ أَمْرِهِ وَاهْلِ يَتِيمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةً وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ عَامًا يَكُونُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًّا عَلَى أَخْلَاقَهِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْلِفُ الْأَخْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكَكَا أَنْتَهَى كَلَامُ أَبِنِ أَبِي وَاصِلٍ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نُزُولُ عِيسَى يَكُونُ فِي وَقْتِ ضَلَالِ الْعَصَرِ مِنَ الْيَوْمِ الْمُهْمَدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةُ أَرْبَاعَهُ قَالَ وَذَكَرَ الْمَكْنَدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجَفَرِ الَّذِي ذُكِرَ فِيهِ الْقَرَانَاتُ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الْتَّوْرِ عَلَى رَأْسِهِ خَمْ بِحَرَقَيْنِ الْفَضَادِ^(١) الْمُجْمَعَةُ وَالْمَاءُ الْمُهْمَلَةُ يُوَيْدُ ثَمَانِيَةَ وَتِسْعِينَ وَسِتَّمِائَةَ مِنَ الْمُهْجَرَةِ يَنْزَلُ الْمَسِيحُ فَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءَ شَرِقَ دِمْشَقَ يَنْزَلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حَلَقَيْنِ مُرْعَقَتَيْنِ صَفَرَ وَأَيْنِ مُمْصَرَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَيْهِ عَلَى أَجْنِحةِ الْمَكَكَيْنِ لَهُ لِمَةٌ كَانَمَا خَرَجَ مِنْ دِيَمَاسٍ إِذَا طَأَطَّا رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَعَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ

(١) الْفَضَادُ عِنْدَ الْمَغَارَبَةِ بِـجَعْنَ وَالصَّادِ بِـسَيْنَ . اهـ . قَالَهُ نَصَر

كاللؤلؤ كثير خيلان الوجوه وفي حديث آخر مربوع أخلاقه وإلى البياض والمحمرة
 وفي آخر أنه يتزوج في الغرب والغرب دلو البدية يريد الله يتزوج منها وتلده زوجته
 وذكر وفاته بعد أربعين عاماً وجاء أن عيسى يسُوت بالمدينة ويُدفن إلى جانب عمر
 ابن الخطاب وجاء أن آبا بكر وعمر يحضران بين نبيين قال ابن أبي واطيل والشيعة
 يقول إنه هو المسيح مسيح المسائحة من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة
 حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبة إلى الشريعة
 المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الأتباع وعدم النسخ إلى كلام
 من أمثال هذا يعنون فيه الوقت والرجل والمكان بادلة واهية وتحكيمات مختلفة
 فيتقضي الزمان ولا أثر أشيء من ذلك فيرجعون إلى تمجيد رأي آخر متصل كما
 تراه من مفهومات لذويها وأشباه تحفظها وأحكام مجموعها في هذا آنفه أعمار الأول
 منهم والآخر. وأما المتصوفة الذين عاصرتهم فما كثرهم يُشيرون إلى ظهور رجل
 مجدد لأحكام العلة ومراسيم الحق ويتعينون ظهوره لما قرب من عصرنا في بعضهم يقول
 من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكرمهم أبو يعقوب البدري
 كبرى الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافظ صالحينا
 أبو يحيى زكرياء عن أبي محمد عبد الله عن أبيه أولي أبي يعقوب المذكور
 هذا آخر ما أطلعنا عليه أو بلغنا من كلامه ولو المتصوفة وما أوردته أهل الحديث
 من أخبار المهدي قد استوفينا جميعاً يمبلغ طائفنا وأحق الذي ينبغي أن يتقدّم
 لهلك أنه لاتئم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع
 عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي
 أربناك هناك وعصبية الفاطميين بكل وقوفها على عصبية فريش إلا ما يقي بالنجاز في مكة وينبع
 أئم آخرون قد استعملت عصبيتهم على عصبية فريش إلا ما يقي بالنجاز في تلك البلاد
 بالمدينة من الطالبين منبني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد
 وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفردون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون
 الآلاف من المكثرة فإن صنع ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون
 منهم ويوافق الله بين قلوبهم في أتباعه حتى تم له شوكة عصبية وافية يأظهار

كُلِّمَتِهِ وَحَمَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلِ أَنْ يَدْعُوا فَاطِمَةَ مِنْهُمْ إِلَى
 مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقِي مِنَ الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصَمِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا بُرْجَدَ نِسْبَةً فِي أَهْلِ
 الْبَيْتِ فَلَا يَتَمَّعُ ذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفَنَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةَ وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَةُ
 وَالْأَغْمَارُ مِنَ الدَّهْنَمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلٍ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ
 ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ لَقَلِيلًا لِمَا أَشْتَهَرَ مِنْ ظَهُورِ فَاطِمَةِ وَلَا يَعْلَمُونَ
 حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا يَبَيِّنُونَ وَأَكْثَرُ مَا يَجِيبُونَ فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَّةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ
 الْعُمَرَانِ مِثْلِ الْزَّابِ يَا فِي قِيَّةِ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَنَجْدُ الْكَثِيرِ مِنْ ضُعْفَاءِ الْبَصَارِ
 يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الْرِبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُلْثَمِينَ مِنْ كَدَالَةٍ وَأَعْتَقَادِهِمْ
 أَنَّهُمْ أَوْ قَائِمُونَ يَدْعُونَهُ زَعْمًا لَا مُسْتَدَدٌ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأَمْرِ وَبَعْدِهِمْ عَنْ
 يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ يَأْخُوِّهَا مِنْ كَثْرَةِ أَوْ قِلَّةِ أَوْ ضُعْفٍ أَوْ قُوَّةٍ وَلَبُعدِ الْقَاصِيَّةِ عَنْ مَنَالِ
 الْدَّوْلَةِ وَخُرُوجُهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقُوَّى عِنْدَهُمُ الْأَوْدَامُ فِي ظَهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ
 الْدَّوْلَةِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَبْرِ وَلَا تَحْصُلُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا وَقَدْ يَقْصُدُ ذَلِكَ
 الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ لِتَلَاقِهِمْ بِدَعْوَةِ يَهُهُ تَمَاهِهَا وَسُوَا سَا وَحُمْقاً وَقُتْلَ
 كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْيَانِي قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ
 الْعِيَّاتِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السَّاطَانَ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَجُلًا مِنْ مُتَحَلِّي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ
 بِالْتَّوَيِّزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى نُورَ مُصَغَّرًا وَادْعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَأَتَبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ
 أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكُرُولَةٍ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤُسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ
 عَلَيْهِ السَّكَنْسُوِيُّ مِنْ قَتْلَهُ بَنَاتَهَا وَأَنْهَلَ أَمْرُهُ وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي غَمَارَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ
 السَّابِعَةِ وَعُشْرِ التِّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَاسِ وَادْعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَأَتَبَعَهُ الْدَّهْنَمَاءُ
 مِنْ غَمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَّ عَنْهُ وَحَرَقَ أَسْوَاقَهَا وَأَرْتَحَ إِلَى بَلْدِ الْمَزْمَةِ فَقُتُلَ بِهَا
 غِلَّةً وَلَمْ يَتِمْ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةِ فِي مِثْلِ هَذَا
 وَهُوَ أَنَّهُ صَحَّبَ فِي حِجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَدْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينَ فِي جَبَلِ الْمُسَانِ
 الْمُطْلِلِ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَزْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا مُعَظَّمًا كَثِيرَ الْتَّلْمِيذِ
 وَالْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ أَلْرِجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ بِتَلْقَوْنَهُ بِالنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبَلْدَانِ قَالَ
 وَتَأَكَّدَتِ الْصَّنْجَبَةُ يَئِنَّا فِي ذَلِكَ الْطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَإِنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

من موطنهِم بِكُرْبَلَاءَ لِطلبِ هَذَا الْأَمْرِ وَالِتَّحَالِ دَعْوَةَ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَانَ دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مَنَازِلُ تَلْمِسَانَ قَالَ لِأَخْخَابِهِ أَزْجَعُوا فَقَدْ أَزْرَى بِنَا الْغَلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقْتُنَا وَبَدَلَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الْرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبِصٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتَمَّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِيَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةً لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يُقاومُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَفْسَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقَى عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَقِنَ أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَقُرْبَشِيَّ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ يَتُرُكْهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَ بِالْمَغْرِبِ لِهِنْدِهِ الْعُصُورُ الْقَرِيبَةُ نَزَعَةً مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنْنَةِ لَا يَتَحَلَّوْنَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمَيِّيِّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَزَعُّ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ السُّنْنَةِ وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَيَعْتَقِنُ بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ الْأَغْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فِيَّا خُذُونَ فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِهَا أَسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصِّبْغَةَ الْدِينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَخِكِمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ وَرُجُوعُهُمْ إِلَى الَّذِينَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا إِلَّا فَصَارَ عَنِ الْفَارَةِ وَالنَّهُبِ لَا يَعْقُلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاجِي الْدِيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَّةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمُقْرَبَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتِهِمْ فَتَجِدُ ذَلِكَ الْمُنْتَهَى لِلْدَّعْوَةِ وَالْقَائِمِ بِرِسْمِهِ بِالسُّنْنَةِ غَيْرَ مُشَعَّقِينَ فِي فُرُوعِ الْأَفْتَدَاءِ وَالْأَتَبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمْ الْأَغْرَاضُ عَنِ النَّهُبِ وَالْبَغْيِ وَإِفْسَادِ السَّابِلَةِ ثُمَّ الْأِفْبَالُ عَلَى طَلَبِ الدِّينِيَا وَالْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَانَ بَيْنَ هَذَا الْأَبْغَرِ مِنْ إِصْلَاحِ الْخُلُقِ وَمِنْ طَلَبِ الدِّينِيَا فَاتَّقَاهُمَا مُمْتَشِعٌ لَا تُسْتَخِكِمُ لَهُ صِبْغَةُ فِي الْدِينِ وَلَا يَكُمُلُ لَهُ تُرْزُوعُ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي أَسْتَخِكَامِ دِينِهِ وَوِلَائِهِ فِي تَقْسِيمِهِ فَإِذَا هَلَكَ أَنْتَهُمْ وَتَلَّا شَتَّ عَصَبَيْهِمْ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلِ مِنْ كَفَبِ مِنْ سُلَيْمَ بِسْمَى قَاسِمَ بْنَ مَرِيَّةَ بْنَ أَخْمَدَ فِي الْعَاشرَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلِ آخَرَ مِنْ بَادِيَّةِ رِيَاحَ مِنْ بَطْنِهِمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةً وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَفْوَمَ طَرِيقَةً فِي تَقْسِيمِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَبِعْ أَمْرَ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَا هُوَ حَسِبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلْطَنِهِ وَرِيَاحَ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَاهِرَ نَاسٌ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمَثْلِ ذَلِكَ وَيُلْسُونَ فِيهَا وَيَتَشَحَّلُونَ أَنْهَا الْمُتَّهَى وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَى فَلَا يَتَمَّلِّمُ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والأمم وفي الملاحم والكشف عن مسوى الجنر

اعْلَمُ أَنَّ مِنْ خَواصِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشْوِقُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعَلِمَ مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيمَا الْحَوَادِثُ الْعَامَةُ كَعْرِفَةً مَا يَقُولُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةً مُدَدِ الدُّولَيِّ أَوْ تَهَوُّنَهَا وَالْتَّطَلُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةُ مُجْبِلُونَ عَلَيْهَا وَلِذَلِكَ تَجَدُّ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارُ مِنَ الْكَهْنَاتِ لِمَنْ قَصَدُهُمْ بِمَثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ تَجَدُّ فِي الْمُدُنِ صِنَافَمِ النَّاسِ يَتَشَحَّلُونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ لِعَلِمَهُمْ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَيَتَصَبَّوْنَ لَهُمْ فِي الْطَّرِفَاتِ وَالدَّكَّاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسَّأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْلُبُونَ عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسَوانُ الْمَدِينَةِ وَمِنْيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعْفَاءِ الْمَقْولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْحَكَمِ وَالْجَاهِ وَالْمَعَاشِ وَالْمَعَاشرَةِ وَالْمَدَاوِةِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطَّيِ الرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ الْمَجْنَمَ وَطَرَقِ الْحَصَى وَالْمَحْبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ وَنَظَرُهُ فِي الْمَرَابِيَا وَالْمِيَاءِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلَ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَّةِ فِي الْأَمْصَارِ لِمَا لَقَرَرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مُجْبُوْنَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مِنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ لِلْأَيَّةِ وَكَثُرَ مَا يَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ أَلْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ فِي أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ أَنْصَرَتَ الْعِنَایَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَمْمَهُ يُوجَدُ لَهُمْ كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُجْنِمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مَلِكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يَحْدُثُونَ أَنفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاحِمِ وَمُدَدَّةٌ بَقَاءَ الدُّوَلَةِ وَعَدَ الْمُلُوكُ فِيهَا وَالْتَّعَزِيزُ لِأَمْمَاهُمْ وَيُسَعِي مِثْلُ ذَلِكَ الْحَدَّثَانَ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكَهْنَاتُ وَالْعَرَافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا إِمَّا سَيَكُونُ الْعَرَبُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْدُّوَلَةِ كَمَا وَقَعَ لِشَقِّ وَسَطْبِيعِ فِي تَاوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ أَخْبَرُهُمْ بِمَلِكِ الْجَبَشَةِ بِلَادِهِمْ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَاهَرَ الْمُلُوكُ وَالْدُّوَلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا

تأویل سطیح رؤیا الموبدان حيث بعث إله کسری بها مع عبد التسیع وأخیرهم
 يظهور دولة العرب وكذا كان في جبل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من
 بني يفرن ويقال من غمرة له کلمات حداقة على طریق الشعري طائتهم وفيها حداقة
 حکیم وعظمته فيما يكون لزناة من الملك والدولة بالمغرب وهي تداوله بين
 أهل الجبل وهم يزعمون تارة أنه ولد وثارة أنه کاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه
 كان نبيا لأن تاریخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجبل إلى
 خبر الآنساء إن كان لعدهم كما وقع لبني إسرائيل فكان آنذاك المتعاقبين فيهم
 كانوا يغزوونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه وأما في الدولة الإسلامية فوقع
 منه کثیر فيما يرجح إلى بقاء الدنيا ومدىها على العموم وفيما يرجح إلى الدولة وأعراها
 على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في من صدر الإسلام لآثار منقوله عن الصحابة
 وخصوصا مسلمة بن إسرائيل مثل كعب الأحبار و وهب بن منبه وأمثالهما وزباما
 افتقوا بعض ذلك من ظواهر ما ثوره وتأويلات متحملة ووقع لجهن وآمثاله من أهل
 القيمة کثیر من ذلك مستند فيه والله أعلم بالكشف بما كانوا عليه من الولاية فإذا
 كان مثله لا يذكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقاربهم وقد قال صلى الله
 عليه وسلم إن فيحكم محمد ثین فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات
 المنشورة وأما بعد صدر العلة وحيث علق الناس على العلوم والاسطلاحات
 وترجمت كتب الحکماء إلى اللسان العربي فاكثر معتمد في ذلك كلام
 المنجعین في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرآن وفي المواليد والمسائل
 وسائر الأمور الخاصة من الطوایع لها وهي شكل الفلك عنده حدوثها فلذلك
 ما وقع لأهل الآخر في ذلك ثم ترجع إلى كلام المنجعین أما أهل الآخر فلهم في
 مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب الشہید فأنه نقل عن الطبری ما
 يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ العلة خمساًئة سنة وتفصی ذلك يظهور کذبه ومستند
 الطبری في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر
 لذلك دليلاً وسراً والله أعلم تقدير الدنيا أيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة
 ثم اليوم بالف سنة لقوله وإن يوماً عند ربك كلف سنة مما تعدون وقد ثبت في

أَصْحَيْتُكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
 مِّنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غَرْبِ الشَّمْسِ وَقَالَ بُعْثَتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتِينِ وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ
 وَالْوُسْطَى وَقَدْرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغَرْبِ الشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ
 مِثْلَيْهِ يَكُونُ عَلَى التَّقْرِيبِ نِصْفَ سَبْعٍ وَكَذَلِكَ وَصَلَ الوُسْطَى عَلَى السَّبَابَةِ فَتَكُونُ هَذِهِ
 الْمَدْةُ نِصْفَ سَبْعٍ الْجَمْعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ خَمْسِمَائَةَ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَنْ يُعِجزَ اللَّهُ أَنْ يُؤْخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَدْةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَلَأِ
 خَمْسَةَ أَلْفٍ وَخَمْسِمَائَةَ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْتَهِيٍّ أَنَّهَا خَمْسَةُ الْأَلْفِ وَسِتِّمَائَةَ سَنَةٍ أَغْنِيَ
 الْمَاضِيَّ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مَدْةَ الدُّنْيَا كَلْمَائِسَةُ الْأَلْفِ سَنَةٍ قَالَ السَّهِيلِيُّ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثَيْنِ
 مَا يَشَهِدُ لِشَيْءٍ مِّمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وُقُوعِ الْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعِجزَ اللَّهُ أَنْ
 يُؤْخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَفْيُ الْأَزْيَادَةِ عَلَى النِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعْثَتُ
 أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتِينِ فَإِنَّمَا فِيهِ إِلَشَارَةٌ إِلَى الْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ
 وَلَا شَرِعٌ غَيْرُ شَرِيعَتِيِّ^١ مَرَجَعَ السَّهِيلِيِّ إِلَى تَعْبِينِ أَمْدَ الْمَلَأِ مِنْ مَدَرَكِيِّ آخَرَ لَوْ سَاعَدَهُ
 الْتَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ الْحَرُوفَ الْمُقْطَعَةَ فِي أَوَّلِيَّ الْسُّورِ بَعْدَ حَذْفِ الْمُكَرَّرِ قَالَ
 وَهِيَ أَرْبَعَةُ عَشَرَ حَرْفًا يَجْمِعُهَا قَوْلُكَ (الْمُمْسِطُ نَصْحَقَ كَرِهً) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ
 الْجُمَلِ فَكَانَ سَبْعِيَّةٌ وَثَلَاثَةٌ^(١) أَضَافَهُ إِلَى الْمُنْقَضِيِّ مِنَ الْأَلْفِ الْآخِرِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ
 فَهَذِهِ هِيَ مَدْةُ الْمَلَأِ قَالَ وَلَا يَعْدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هَذِهِ الْحَرُوفِ وَقَوْايدِهَا
 قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَعْدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا اتَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَالَّذِي حَمَلَ السَّهِيلِيَّ عَلَى ذَلِكَ
 إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السِّيرِ لِابْنِ إِسْحَاقِ فِي حَدِيثِ أَبْنِي أَخْطَبَتْ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ
 وَهُمَا أَبُو يَامِرٍ وَأَخْوَهُ حَيْثِ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَحْرُوفِ الْمُقْطَعَةِ الْمَمْتَأْتِيَّةِ وَتَأْوِلَاهَا عَلَى بَيَانِ
 الْمَدْةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعينَ فَأَسْتَقْلَأَ الْمَدْةَ وَجَاءَ حَيْثِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسَّأَلُهُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ فَقَالَ الْمَصْنُونُ ثُمَّ أَسْتَرَادَ الرَّثْمَ ثُمَّ أَسْتَرَادَ الْمَرْأَةَ فَكَانَتْ
 إِحْدَى وَسَبْعينَ وَمَائَتَيْنِ فَأَسْتَطَالَ الْمَدْةَ وَقَالَ قَدْ لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ سَعْتَ
 لَا نَدْرِي أَفَلَيَا أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَامِرٍ مَا يُدْرِيكُمْ
 لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلُّهَا تِسْعِمَائَةَ وَأَرْبَعَ سَمِينَ قَالَ أَبْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

آيات مُنكَّماتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخِرُ مُتَشَابِهَاتٍ . اه . وَلَا يَقُولُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى
 تَقْدِيرِ الْمِلَةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لَأَنَّ دَلَالَةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ أَلْأَعْدَادِ لَيْسَ طَبِيعِيَّةً وَلَا
 عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالْتَّوَاضُعِ وَالْأَصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ الْجَمْلِ نَعَمْ إِنَّمَا قَدِيمٌ
 مَشْهُورٌ وَقَدْمٌ الْأَصْطِلَاحُ لَا يَصِيرُ حَجَةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخْوَهُ حَيْثُ مِنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ
 فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَّةً بِالْحِجَازِ غُفْلًا عَنِ الْأَصَنَاعَ
 وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنِ الْعِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقْهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَاقِفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ
 كَمَا تَلَقَّفُهُ الْعَوَامُ فِي كُلِّ مَلَةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلْسَّهِيْلِيَّ دَلِيلٌ عَلَى مَا أَدَعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ
 فِي الْمِلَةِ فِي حَدَّثَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثْرِ إِجْمَاعًا فِي حَدِيثِ خَرَجَهُ
 أَبُو دَاؤُدَّ عَنْ حَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ تَعْمِدُ بْنَ يَحْيَى الْذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ
 أَبْنِ أَبِي مَرِيمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرْوَخَ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدِ الْلَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي فَيْصَةَ بْنِ
 ذُؤْبِبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَدِيفَةُ بْنُ الْيَمَانَ وَاللَّهُ مَا أَدْرِي أَنَّسِيْ أَمْ حَمَّاِيْ أَمْ تَنَاسُوْ
 وَاللَّهُ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدٍ فِتْنَةً إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ الْأُنْيَا لَا يَأْتِيغُ مَنْ
 مَعَهُ ثَلَاثَةٌ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ مَهَأْ بِأَنْتَهِ وَأَمْ أَبِيهِ وَقَبِيَّاتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاؤُدَّ وَقَدْ
 تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ
 صَحِيحًا فَهُوَ بُحْمَلٌ وَبَقْتُرٌ فِي بَيْكَانِ إِيجَدَالِهِ وَتَعْبِيرَتْ بِهِمَا تِهِ إِلَى آثارٍ أُخْرَى يُجُودُ
 أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنْنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوَقَعَ
 فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَدِيفَةَ أَيْضًا قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَاحَةٍ طِيبَا
 فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَثَ عَنْهُ حَفْظَةٌ مِنْ حَفْظَةِ وَتَسِيْهِ
 مِنْ نَسِيْهِ قَدْ عَلِمَ أَصْنَابَهُ هُوَ لَاءُ . اه . وَلَفَظُ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
 ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ فَأَلَّا صَلَّى بِنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ يَنْهَا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ
 إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفْظَةٌ مِنْ حَفْظَةِ وَتَسِيْهِ مِنْ نَسِيْهِ اه وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهُمْ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا
 ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ الْفَتَنِ وَالْأَشْتَراطِ لِأَغْيَرِ لِأَنَّهُ الْمَعْهُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَواتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمُعْوَمَاتِ وَهَذِهِ الْزِيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاؤُدَّ فِي
 هَذِهِ الْطَّرِيقِ شَاذَةً مُنْكَرَةً مَعَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ أَخْتَلَفُوا فِي رِجَالِهِ فَقَالَ أَبُنُ أَبِي مَرِيمٍ فِي

أَبْنَى فَرُونَخَ أَحَادِيثُهُ مَنَا كِيرُ وَقَالَ الْبَخَارِيُّ يُعْرَفُ مِنْهُ وَيُنْتَكِرُ وَقَالَ أَبْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوَثَقَهُ أَبْنُ مُعْنِيٍ فَإِنَّمَا خَرَجَ لَهُ الْبَخَارِيُّ أَسْتَشْهَادًا وَضَعْفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبْنُ حَاتِمٍ يَسْكُنُتُ حَدِيثَهُ وَلَا يَخْتَجِرُ بِهِ وَأَبُو قَيْصَةَ أَبْنُ ذُؤْبَبٍ مَجْهُولٍ فَتَضَعُفُ هَذِهِ الْزِيَادَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِابْنِ دَاؤِدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوذَهَا كَمَا مَرَّ . وَقَدْ بَسْتَندُونَ فِي جَدَانَ الدُّولِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزَّعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمٌ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَرِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ وَلَا مُسْتَنْدَهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدِ الْعَجَلِيِّ وَهُوَ رَأْسُ الْأَرْبَدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهُ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ وَلِبعضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالِ الْأَئِمَّهِ عَلَى طَرِيقِ الْكَرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقْعُدُ لِمُشَاهِدَتِهِمْ مِنَ الْأَوْلَيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونُ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَاهَهُ الْجَفْرُ بِاَسْمِ الْجَلَدِ الَّذِي كَسَبَ فِيَدِ لَانَ الْجَفْرَ فِي الْلُّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْاسْمُ عَلَيْهِ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْمَعَانِي مَرْوِيَّةً عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ تَتَصَلِّ رِوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ عَنْهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَادُ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَا يَصْحُبُهَا دَلِيلٌ وَلَا مَعْنَى أَسْنَدُ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نَعْمَ الْمُسْتَنْدُ مِنْ تَفْسِيرِهِ أَوْ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ فَهُمْ أَهْلُ الْكَرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُعْذِرُ بَعْضَ فِرَابِتِهِ بِوَقَائِعَتِهِ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصْبِحُ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَرَ يَحْيَى أَبْنُ عَمِّهِ زَيْدٍ مِنْ مَصْرَعِهِ وَعَصَاهُ نَفَرَجَ وَقُتِلَ بِالْجَوْزَجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَ الْكَرَامَةُ تَقْعُدُ لِغَيْرِهِمْ فَمَا ظَنَّكَ بِهِمْ عِلْمًا وَدِينًا وَأَثَارًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَعِنَائِيَّةً مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشَهِّدُ لِفَرُوعِ الْطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَتَسْوُبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دُوَلَةِ الْمُعْدِيَّيْنَ كَثِيرًا مِنْهُ وَأَنْظُرْ مَا حَكَاهُ أَبْنُ الرَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ أَبْنِهِ مُحَمَّدِ الْحَسِيبِ وَمَا حَدَّثَهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى أَبْنِ حَوْشَبَ دَاعِيَّيْهِمْ بِالْأَيْمَنِ فَأَمَرَهُ بِالْخُروُجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَ الدُّعَوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمِ لُقْنَهُ أَنَّ دَعْوَتَهُ تَمَّ هُنَاكَ وَأَنَّ عَبْدِ اللَّهِ لَعَلَّهُ بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ أَسْتِهْنَاهُ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنَيْتُهَا لِعَتْصِمَ بِهَا الْفَوَاطِيمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْقِتَ صَاحِبِ
 الْجِنَّاَرِ أَبِي يَزِيدَ بِالْمَدِيَّةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مَنْتَهَى مَوْقِعِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبْرُ بِلُوغِهِ إِلَى
 الْمَسْكَانِ الَّذِي عَيْنَهُ جَدُّهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَأَيْقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَهَرَمَهُ وَأَتَبَعَهُ
 إِلَى نَاحِيَةِ الْزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ وَقْتَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرٌ وَأَمَّا الْمُتَجَمِّعُونَ فَيَسْتَندُونَ
 فِي حَدَّثَانِ الدُّولِ إِلَى الْأَخْحَامِ النَّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي الْأَمْوَارِ الْعَامَّةِ مِثْلِ الْمُلُّوكِ وَالدُّولِ
 فَفِي الْقِرَائِاتِ وَخُصُوصًا بَيْنَ الْعَلَوَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَلَوَيْنِ زُحْلٌ وَالْمُشَرِّي يَقْتَرَنُ فِي
 كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَآنُ إِلَى بُرْجٍ أَخْرَى فِي ذَلِكَ الْمُثَلَّثَةِ مِنَ الْتَّثْلِيثِ
 الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي الْمُثَلَّثَةِ الْوَاحِدَةِ ثَنَتِي عَشْرَةَ
 مَرَّةً تَسْتَوِي بُرْجُهُ الْثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
 ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثَلَّثَةِ بِثَنَتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعَ عَوْدَاتٍ فِي مَائِتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
 سَنَةً وَبَكُونُ اِتِّيَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى الْتَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثَلَّثَةِ إِلَى الْمُثَلَّثَةِ
 الَّتِي تَلِيهَا أَعْنِي الْبُرْجَ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ الْآخِيرِ مِنَ الْقِرَآنِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثَلَّثَةِ وَهَذَا
 الْقِرَآنُ الَّذِي هُوَ قِرَآنُ الْعَلَوَيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ أَجْمَعُ
 الْعَلَوَيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةَ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً
 وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ أَقْرَانُ الْعَلَوَيْنِ فِي كُلِّ مُثَلَّثَةٍ أَثْنَتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ سِتِّينَ
 وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثَلَّثَةٍ آخِرَى وَالصَّغِيرُ هُوَ أَقْرَانُ الْعَلَوَيْنِ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ
 وَبَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرَنُ فِي بُرْجٍ أَخْرَى عَلَى تَثْلِيثِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ
 مِثَالُ ذَلِكَ وَقْعُ الْقِرَآنِ يَكُونُ أَوْلَى دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمْلِ وَبَعْدَ عِشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوْلَى دَقِيقَةٍ مِنَ
 الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهَذَا كُلُّهُ قِرَآنٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوْلَى الْحَمْلِ بَعْدَ سِتِّينَ
 سَنَةً وَيُسْعَى دَوْرَ الْقِرَآنِ وَعَوْدَ الْقِرَآنِ وَبَعْدَ مَائِتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى
 الْثَّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهَذَا قِرَآنٌ وَسَطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمُوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
 أَوْلَى الْحَمْلِ فِي تِسْعِمِائَةَ وَسِتِّينَ سَنَةَ وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَآنُ الْكَبِيرُ يَدْلُلُ عَلَى عِظَامِ
 الْأَمْوَارِ مِثْلَ تَغْيِيرِ الْمُلُكِ وَالْمُلْكَةِ وَأَنْتِقالِ الْمُلُكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ
 الْمُتَفَلِّيَّنِ وَالْمُتَالِيَّنِ لِلْمُلُكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخُوارِجِ وَالْدُّعَاعِ وَخَرَابِ الْمُدُنِ أَوْ
 عُمْرَانِهَا وَيَقْعُ فِي آثَنَاءِ هَذِهِ الْقِرَائِاتِ قِرَآنُ الْخَسِينِ فِي بُرْجِ السَّرَّطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سَنَةَ مَرَّةَ وَيُسْعَى الرِّبَاعَ وَيُزْجَجُ السَّرْطَانُ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمَ وَفِيهِ وَبَالُ زُحْلَ وَهُبوطُ
 الْمَرِيجِ فَتَعْظِمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقُرْآنِ فِي الْفَتَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفَكُ الدَّمَاءِ وَظَهُورُ الْخُوارِجِ
 وَحَرَكَةِ الْعَسَاكِيرِ وَعِصَمَاتِ الْجِنِّ وَالْوَبَاءِ وَالْقُحْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَسْتَهِي عَلَى قَدْرِ
 السَّعَادَةِ وَالثُّوْسَةِ فِي وَقْتٍ فَوْرَاهُمَا عَلَى قَدْرِ تَيسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جَرَاسُ بْنُ أَحْمَدَ
 الْحَاسِبُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْهَى النَّهَى لِنِيَّامِ الْمَلَكِ وَرَجُوعُ الْمَرِيجِ إِلَى الْعَرَبِ لَهَا شُرُ
 عَظِيمٌ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلَهَا فَالْمَوْلُودُ النَّبِيُّ كَانَ عِنْدَ قُرْآنِ الْعَلَوَيْنِ
 يُزْجَجُ الْعَرَبُ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَالِكَ حَدَثَ التَّشْوِيشُ عَلَى الْخَلْفَاءِ وَكَثُرَ الْمَرَضُ فِي أَهْلِ
 الْعِلْمِ وَالْدِينِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا أَنْهَمَ بَعْضُ بَيُوتِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
 عِنْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَوَانَ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةَ وَالْمُتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ فَإِذَا
 رُوَيَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ الْقُرَآنَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ
 الْبَلْعَغِيُّ أَنَّ الْمِلَّةَ تَسْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةِ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَاهَرَ كَذِيبُ هَذَا الْقَوْلِ وَقَالَ
 أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهِرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْمُحْمَسِينَ مِنْهَا أَخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصْحُ ذَلِكَ وَقَالَ خَرَاشُ
 رَأَيْتُ فِي كُتُبِ الْقُدَمَاءِ أَنَّ الْمُجَمِّعِينَ أَخْبَرُوا كِسْرَى عَنْ مُلَكِ الْعَرَبِ وَظَاهُورُ النَّبُوَّةِ
 فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الْأَزْهَرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرْفِهَا فَيُبَقَّى الْمَلَكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ
 أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ الْقُرَآنَاتِ الْقِسْمَةُ إِذَا أَنْتَهَتْ إِلَى السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْحُوَوتِ فِيهَا
 شَرْفُ الْأَزْهَرَةِ وَوَقْعُ الْقُرْآنِ مَعَ ذَلِكَ يُزْجَجُ الْعَرَبُ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ظَاهِرَتْ حِينَئِذٍ
 دُولَةُ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةً مُّاْسِكَةً وَمُدْتَهُ عَلَى مَا يَقِيَّ مِنْ دَرَجَاتِ شَرْفِ
 الْأَزْهَرَةِ وَهِيَ إِحدَى عَشْرَةَ دَرَجَاتِ بِتَقْرِيبٍ مِنْ بُزْجِ الْحُوَوتِ وَمُدْهُ ذَلِكَ سِتِّمِائَةٍ وَعَشْرُ
 سِتِّينَ وَكَانَ ظَاهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ اِنْتِقالِ الْأَزْهَرَةِ وَوَقْعُ الْقِسْمَةِ أَوَّلَ الْحَمْلِ وَصَاحِبُ
 الْجِنْدِ الْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكَنْدِيَّ إِنَّ مُدْهَةَ الْمِلَّةِ تَسْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةِ
 وَثَلَاثَ وَتِسْعِينَ - سَنَةً قَالَ لَأَنَّ الْأَزْهَرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قُرْآنِ الْمِلَّةِ فِي ثَمَانِ وَعِشْرِينَ دَرَجَةَ
 وَثَلَاثَينَ دَقِيقَةً مِنَ الْحُوَوتِ فَالْأَنْبَافِ إِحدَى عَشْرَةَ دَرَجَةَ وَثَمَانِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَفَائِقَهَا
 سِتُّونَ فَيَكُونُ سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثَانِ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهَذِهِ مُدْهَةُ الْمِلَّةِ يَا تَقَبَّلِي الْحُكْمَ كَمْ
 وَيَعْصُدُهُ الْحُرُوفُ الْوَافِعَةُ فِي أَوَّلِ السُّورِ بِمَدْفَعِ الْمُكَرَّرِ وَأَغْتَارِهِ بِمَسَابِ الْجُمْلِ
 قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ السَّهْلِيُّ وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَندُ السَّهْلِيِّ فِيهَا نَقَلْتُهُ

عنه قال خرash سأل هرمز إفريند الحكيم عن مدة أزدشير وولده ملك الأسمااني
 فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه يعطي طول السنين وأجودها أربعمائة
 وسبعين وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة و تكون في شرفها وهي دليل العرب فيمكن
 لأن طالع القرآن الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القرآن في شرفها فدلل أنهم
 يملكون ألف سنة وستين سنة وسأله كسرى أنوشروان وزيره بزر جهر الحكيم
 عن خروج الملك من قارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد الخميس وأربعين
 من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص إلى الزهرة وينتقل القرآن
 من الموائمة إلى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب بهذه الأدلة تفضي للصلة بمدة
 دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأله كسرى أبوزيد اليوس الحكيم عن ذلك
 فقال مثل قول بزر جهر وقال توفيق الرومي المنجم في أيام بنى أمية إن ملة الإسلام
 تبقى مدة القرآن الكبير تسعمائة وستين سنة فإذا عاد القرآن إلى برج العقرب
 كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قرآن الملة فينتهي
 إما أن يفتر العمل به أو يتعدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظاهر قال خرash
 واتفقا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر الممالك
 وذلك عند ما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة وهي حد المريخ وذلك بعد
 مضي تسعمائة وستين سنة وذكر خرash أن ملك زابلستان بعث إلى المأمور
 بمحكمته ذوبان الجنة به في هدية وأنه تصرف للمأمور في الاختيارات بحروب أخيه
 وبعده اللواء لطاهير وأن المأمور أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبره
 بأنقطاع الملك من عقيده وأصاله في ولد أخيه وأن العجم يتغلبون على الخلافة من
 الدبلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريده الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر التركة من
 شمال المشرق فيملكون إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ويكون
 ما يريد الله فقال له المأمور من أين لك هذا فقال من كتب الحكما ومن أحكم
 صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم
 بعد الدبلم هم السجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع قال خرash وأنشأ
 القرآن إلى المثلثة المائية من برج المحوت يمكن سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة

ليزدجرد وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ الْمَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَآنُ الْمِلَّةَ سَنَةَ ثَلَاثَ وَخَمْسِينَ قَالَ وَالَّذِي
 فِي الْحَوْتِ هُوَ أَوْلُ الْأَنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْمَقْرَبِ يُسْتَخْرُجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِلَّةِ قَالَ وَتَعْوِيلُ
 السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَآنِ الْأَوَّلِ فِي الْمُشَكَّلَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانَ وَسِتِينَ
 وَثَمَائِيَّةَ وَلَمْ يَسْتَوِفِ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ . وَمَا مُسْتَنِدُ الْمُفْعِمِينَ فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ
 فِي الْقِرَآنِ الْأَوْسَطِ وَهِيَ شَرِيكَ الْفَلَكِ عِنْدَ وُقُوعِهِ لَأَنَّهُ دَلَالَةٌ عِنْدُهُمْ عَلَى حُدُوثِ الدَّوْلَةِ
 وَجَهَانِهَا مِنَ الْعُمَرَانِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأَمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَنَعْلَمُهُمْ
 وَأَدِيَانِهِمْ وَعَوَادِيهِمْ وَحُرُوفِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرُ فِي كِتَابِهِ فِي الْقِرَآنَاتِ وَقَدْ تُوجَدُ هَذِهِ
 الْدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَآنِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ دَالِّاً عَلَيْهِ فَإِنْ هَذَا يُوجَدُ الْكَلَامُ فِي الدُّولَةِ
 وَقَدْ كَانَ يَقُولُ أَبْنَى إِسْحَاقُ الْكِنْدِيُّ مُنْقِمٌ إِلَى رَشِيدٍ وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَآنَاتِ الْكَائِنَةِ
 فِي الْمِلَّةِ كِتَابًا سَاهَهُ الشِّيْعَةُ بِالْجُنُوْنِ بِاِسْمِ كِتَابِهِمْ الْمُسْتَوْبُ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ
 فِيهِ
 بَغْدَادَ أَنَّهَا تَقْعُدُ فِي أَنْتِصَافِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُ يَأْنِقِرُ أَغْرِيَهَا يَكُونُ أَنْقِرَاضُ الْمِلَّةِ وَلَمْ تَقِفْ
 عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرَقَ فِي كِتْبِهِمْ الَّتِي طَرَحَهَا
 هَلَّا كُوْمِلِكُ الْقَرْبَرِ فِي دَجَّلَةِ عِنْدَ أَسْتِلَادِهِمْ عَلَى بَغْدَادَ وَقُتِلَ الْمُسْتَعْصِمُ آخِرُ الْخُلُقَاءِ وَقَدْ
 وَقَعَ بِالْمَغْرِبِ جُزُءًا مِنْسُوبًا إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ الْجَفَرَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ لِبَنِي
 عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوْحَدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَهُطَابَقَةٌ مَنْ تَقْدَمَ عَنْ
 ذَلِكَ سِنْ حَدَّثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ الْكِنْدِيِّ مُنْجِمُونَ
 وَكُتُبُهُ فِي الْحَدَّثَانِ وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ أَبِي بُدَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِ
 هَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيْهِ أَرْبَعُ وَالْحَسْنُ فِي غُزَّاتِهِمَا مَعَ الرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ قَجْتَهُمَا
 جَوْفَ الْلَّيْلِ فَإِذَا عَنَّهُمَا كِتَابٌ مِنْ كِتَبِ الدَّوْلَةِ يَعْنِي الْحَدَّثَانَ وَإِذَا مُدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ
 عَشْرَ سِنِينَ قَلَتُ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَلَى الْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَذَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا
 وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعِيْتُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ فَالْأَنَّ فَمَا الْجِلَّةُ فَأَسْتَدْعِيْتُ عَبْسَةَ الْوَرَاقَ مَوْلَى
 آلِ بُدَيْلٍ وَقَلَتُ لَهُ أَنْسَخَ هَذِهِ الْوَرَاقَةَ وَأَكْتَبَ مَكَانَ عَشْرَ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَاللهِ لَوْلَا
 أَنِّي رَأَيْتُ الْعَشْرَةَ فِي تِلْكَ الْوَرَاقَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ مَا كُنْتُ أَشْكُ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كَتَبَ
 النَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي حَدَّثَانِ الدُّولَ مَنْظُومًا وَمَنْشُورًا وَرَجَزَ أَمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُهُ

وَبِاِنْدِي الْأَنْاسِ مُتَفَرِّقَةً كَثِيرًا مِنْهَا وَتُسْعَى الْمَلَاحِمَ وَبَعْضُهَا فِي حَدَّثَانِ الْمَلِلَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَبَعْضُهَا فِي دَوْلَةِ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِدَةِ أَهْلِ الْخَلِيلَةِ وَلَبْسَ مِنْهَا أَصْلٌ يُعْتَدُ عَلَى رَوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ أَبْنِ مُرَكَّانَةَ مِنْ بَعْرِ الطَّوَابِلِ عَلَى رَوْيِ الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتُخْسِبُ الْعَامَةَ أَنَّهَا مِنْ الْحَدَّثَانِ الْعَامِ فَيُطَاقُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْمُحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبِلِ وَالَّذِي سَعَىْنَاهُ مِنْ شُبُوْخَنَاهَا أَنَّهَا مُخْصَوصَةٌ بِدَوْلَةِ لِمْثُونَةِ لِإِنَّ الْوَجْلَ كَانَ قَبْلَ دَوْلَتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا أَسْتِيَلَاهُمْ عَلَى سَبَّتَةَ مِنْ يَدِ مَوَالِيِّ بَنِي حَمْودَ وَمُلْكُمْ لِعُدُوَّةِ الْأَنْذَلُسِ وَمِنْ الْمَلَاحِمِ يَدِيْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا قَصِيدَةٌ تُسْعَى التَّبَعِيَّةَ أَوْلَاهَا

طَرِيبَتْ وَمَا ذَاكَ مِنِي طَرَبْ وَقَدْ يَطَربُ الْطَائِرُ الْمُغْتَصَبْ

وَمَا ذَاكَ مِنِي لِلَّهُو أَرَاهُ وَلَكِنْ لِتَذَكَّرَ بَعْضُ السَّبَّاتِ

فَرِيَّا مِنْ خَمْسِيَّةِ يَسْتِ أَذْأَلَفِ فِيهَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرِ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعُونَةٌ مِنَ الْشِعْرِ الْزَّجَلِيِّ مَنْسُوبَةٌ لِبعضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ الْقُرْآنَاتِ لِعَصْرِهِ الْعَلَوَيْنِ وَالْحَسَنِيِّ وَغَيْرَهَا وَذَكَرَ مِيَتَتَهُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ كَذَلِكَ فِيمَا زَعْمَوْهُ وَأَوْلَاهُ

فِي صِبَغِ ذَا الْأَزْرَقِ لِشَرْفِهِ خِيَارًا فَافْهَمُوا بِاْفَوْمِ هَذِبَهِ الْاِشَارَا

نَجْمِ زَحْلِ اَخْبَرِ بَذِي الْعَلَامَا وَبَدْلِ الشَّكْلَا وَهِيَ سَلاَمَا

شَاشِيَّةِ زَرْفَا بَدْلَـ الْعَامَا وَشَاشِ اَزْرَقِ بَدْلِ الْغَزَارَا

يَقُولُ فِي آخِرِهِ

قَدْ تَمْ ذَا التَّجْنِيسُ لِاَنْسَانِ يَهُودِيِّ يَصْلَبُ فِي بَلْدَةِ فَاسِ فِي يَوْمِ عِيدِ

حَقِّ يَجِيَّهِ النَّاسِ مِنَ الْبَوَادِي وَقَتْلَهُ يَا قَوْمَ عَلَى الْفَرَادِ

وَأَيْمَانُهُ نَحْوُ الْخَمْسِيَّةِ وَهِيَ فِي الْقُرْآنَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَمِنْ مَلَاحِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا قَصِيدَةٌ مِنْ عَرْوَضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رَوْيِ الرَّاءِ أَلْبَاءِ فِي حَدَّثَانِ دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ بِتُونِسِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مَنْسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَارِ وَقَالَ لِي فَاضِي فُسْنَطِينِيَّةَ الْخَصِيبُ الْكَبِيرُ أَبُو عَلِيِّ بْنِ بَادِيَسَ وَكَانَ بَصِيرًا بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدْمٌ فِي الْتَّنَجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هَذَا أَبَارِ لَيْسَ هُوَ الْخَافِظُ الْأَنْدَلِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولَ الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خَيَاطٌ مِنْ أَهْلِ

تونس تواطأ شهورته مع شهرة الحافظ وكان والدي رحمة الله تعالى ينشد هذه الآيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطليها

عذيري من زمن قلب يغزو بارقه الأذن
وبيعت من جئشه فائداً ومنها
فيقبل كاجمل الأجراء
وبظهور من عده سيرة و تلك سياسة مستغلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

فاما رأيت الرؤوم أمحى

نفدي الترجل عن تونس

فسوف تكون بها فتنة

ولم يزع حق الذي منصب
وأدعى معايتها وأذهب
تضييف البريء إلى المذنب
ووقفت بال المغرب على ملحمة أخرى في دولةبني أبي خص هو الأء بتونس فيها بعد
السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها
وبعد أبي عبد الإله شقيقه ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل

إلا أن هذا الرجل لم يملكتها بعد أخيه وكان يعني بذلك نفسه إلى أن هلك وافت
الملاحم في المغرب أيضاً الملعنة المنسوبة إلى الله تعالى على لغة العامة في عروض البلي

دعني بدمعي الهازن فترت الامطار ولم تفتر

واستنقذ كلها الودان واني تملي وتغدر

وهي طويلة ومحفوظة بين عامتي المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع لأنه لم يصح منها
قول إلا على تأويل تحرفة العامة أو الحارف فيه من يتحلها من الخاص ووقفت بالشرق
على ملحمة منسوبة لأبن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الألغاز لا يعلم تأويله إلا
الله يتحللها إلى أفاق عديدة ورموز ملغزة وأشكال حيوانات تامة ورؤوس مقطعة
وسمائيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روبي اللام وال غالب أنها كلها
غير صحيحة لأنها لم تنشأ عن أصل علمي من بحثها ولا غيرها وسمعت أيضاً أن هناك

أ قوله فاما رأيت اصلة فإن رأيت زبدت ما وادغمت في ان الشرطية المدوف عنها خطأ وفي نسخة فلاما

رأيت الاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ١٠ قاله نصر

مَلَاحِمْ أُخْرَى مَنْسُوبَةً لِابْنِ سِينَا وَابْنِ عَقَبَ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصِّحَّةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْفِرَانَاتِ وَوَقَتُ الْمَشْرِقِ أَيْضًا عَلَى مَعْلَمَةِ مِنْ حَدَّثَانِ دَوْلَةِ الْتَّرْكِ مَنْسُوبَةً إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ بِسَمِيِّ الْبَاجِرَبَقِّ وَكُلُّهَا إِنْفَازٌ بِالْحُرُوفِ أَوْلَاهَا إِنْ شِئْتَ تَكْسِيفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سُولِي مِنْ عِلْمِ جَنَّرٍ وَمَهِيِّ وَالِّدِ الْحَسَنِ فَأَفْهَمْ وَكُنْ وَاعِيَا حَرَفًا وَجُمْلَةً أَمَّا الْذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ لَكَنِّي أَذْكُرُ الْآتِي مِنْ أَزْمَنْ يَسْهُرْ يَبِرَّسَ يَبْقَى بَعْدَ خَسْتَهَا شِينْ لَهُ أَثْرٌ مِنْ تَحْتِ سُرْكَهِ فَهُصْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعَرَاقِ لَهُ وَأَذْرَيْجَارُ فِي مُلْكِ إِلَى الْيَمَنِ وَأَيْمَانَهَا كَشِيرَةً وَالْفَالِبُ أَنَّهَا مَوْضِعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٌ

وَمَعْرُوفُ الْأَنْجَالِ

حَكَى الْمُؤْزِ خُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقٌ ذَكَرَ يُعْرَفُ بِالْأَدَانَالِيِّ يَبِلُ الْأَوْرَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطٍّ عَتِيقٍ يَرْمُزُ فِيهِ بِحُرُوفِ مِنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ الدُّولَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يَعْرِفُ مِنْهُمُ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرِّفْعَةِ وَالْجَنَّاءِ كَانُوهَا مَلَاحِمْ وَيَحْصُلُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَّاتِرِهِ مِمَّا مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَاتٍ وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحِ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ فَقَالَ لَهُ هَذَا كِتَابَةٌ عَنِّكَ وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يَرْضَاهُ وَبِنَالَهُ مِنَ الدُّولَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ عَلَامَاتٍ يُعَوِّهُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَذَلَ لَهُ مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْفَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْزُولاً بَجَاهِهِ بِأَوْرَاقِ مِثْلِهَا وَذَكَرَ أَسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَبِعَلَامَاتِ ذَكَرُهَا وَأَنَّهُ يَكُونُ الْوَزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْخَلَافَةِ وَتَسْتَقِيمُ الْأَمْوَالِ عَلَى بَدَنَهِ وَيَقْبَرُ الْأَعْدَاءَ وَتَعْمَلُ الدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى الْأَوْرَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَافِنَ أُخْرَى وَمَلَاحِمَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقْعُ وَنَسَبَ جَمِيعَهُ إِلَى دَانَالَ فَأَغْبَبَ بِهِ مُفْلِحٌ وَوَقَتَ عَلَيْهِ الْمُقْتَدِرُ وَأَهْنَدَى مِنْ تِلْكَ الْأَمْوَالِ وَالْعَلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِوَزَارَتِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْجِلَّةِ الْعَرِيقَةِ فِي الْكَذِيبِ وَالْجَهَلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَازِ وَالظَّاهِرِ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْلَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى الْبَاجِرَبَقِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ وَلَقَدْ سَأَلَتْ أَكْمَلَ الْذِينِ ابْنَ

شيخ الحنفية من أتعجم بالذِيَّار الْمُصْرِيَّةَ عَنْ هُذِهِ الْمَكْتُمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ
الَّذِي تُسَبِّبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الْبَاجِرُ بَقِيٌّ وَكَانَ عَارِفًا بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنْ
الْقَلْنَدِرِيَّةِ الْمُبَتَدِعَةِ فِي حَلْقِ الْلَّهِيَّةِ وَكَانَ يَعْدُثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ وَيُوْمِي
إِلَى رِجَالٍ مُعْيَنِينَ عِنْدَهُ وَيُلْغِزُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يُعِينُهَا فِي خِفْنَهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا
يَظْهُرُ نَظَمٌ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهِدُهَا فَتَنُوقَاتٌ عَنْهُ وَلَعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا
مَكْتُمَةً مَرْمُوزَةً وَزَادَ فِيهَا أَخْرَى أَصْوَنَ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَشَغَلَ الْعَامَةُ بِفَكِ
رُمُوزِهَا وَهُوَ أَمْرٌ مُمْتَنَعٌ إِذْ أَرْمَزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ وَيُوْضَمُ
لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هُذِهِ الْمُحْرُوفِ فَدِلَالُهُ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا خَصُوصَةٌ بِهَا النَّظَمُ لَا يَتَجَاوِزُهُ
فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شَفَاءَ لِمَا كَانَ فِي النَّسْرِ مِنْ أَمْرٍ هُذِهِ الْمَكْتُمَةُ
وَمَا كَانَ لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ وَآتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ



الفصل الرابع

من الكتاب الأول

في البلدان والأماصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال
وفي سوابق ولوائح

الفصل الأول

في ان الدول من المدن والأماصار وإنها إنما توجد ثانية عن الملك
وبيانه أنَّ الْيَنَاءَ وَأَخْتِيطَاطَ الْمَنَازِلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْخِضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
الْتَّرَفُ وَالْدَّعَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَذَلِكَ مُتَّاخِرٌ عَنِ الْبَدَأَ وَمَنَازِعُهَا وَأَيْضًا فَالْمُدُنُ وَالْأَمَاصَارُ
ذَاتُ هِيَّا كِلَّ وَأَبْرَاهِيمَ عَظِيمَةٌ وَبِنَاءُ كَبِيرٌ وَهِيَ مَوْضِعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِخُصُوصٍ فَتَحْتَاجُ
إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَبْدِيِّ وَكَثِيرَةُ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَمْوَرِ الْفَرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي نَعْمَلُ بِهَا
الْبَلْوَى حَتَّى يَكُونَ نُزُوعُهُمْ إِلَيْهَا أَفْطَرَهُمْ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْنَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْقِهِمْ
إِلَيْهِ مُضْطَهَدِينَ بِعَصَمِ الْمُلَكِ أَوْ مُرْغَبِينَ فِي الْثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَنْفِي يَكْثُرُهُ إِلَّا

الْمُلْكُ وَالدُّوْلَةُ فَلَا بُدُّ فِي تَمْضِيرِ الْأَمْصَارِ وَأَخْتِطَاطِ الْمُدُنِ مِنَ الدُّوْلَةِ وَالْمُلْكِ ثُمَّ إِذَا
 بُنِيتِ الْمَدِينَةُ وَكَمْلَ تَشْيِيدُهَا يُحْسَبُ نَظَرٌ مَّنْ شَيَّدَهَا وَبِمَا أَفْتَضَتِهِ الْأَخْوَالُ السَّهَوِيَّةُ
 وَالْأَزْرَضِيَّةُ فِيهَا فَعُمِّرَ الدُّوْلَةُ حِينَئِذٍ عُمُّرٌ لَّهَا فَإِنْ كَانَ عُمُّرُ الدُّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَاتَ الْحَالُ فِيهَا
 عِنْدَ اِنْتِهَا الدُّوْلَةُ وَتَرَاجَعَ عُمُّرُهَا وَخَرَبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمْدُ الدُّوْلَةِ طَوِيلًا وَمُدُّهَا مُنْسِجَةٌ
 فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَازِلُ أَرْجِيَّةٌ تَكْثُرُ وَتَتَعَدُّ وَنَطَاقُ الْأَسْوَاقِ
 يَتَبَاعَدُ وَيَنْسَعُ إِلَى أَنْ تَتَسْعَ الْمُخْطَطَةُ وَتَبْعُدُ الْمَسَافَةُ وَيَنْسَعُ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ
 يَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا. ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ يَكُونُ عَدْدُهَا يَغْدَادَ لِعَهْدِ
 الْمَأْمُونِ خَمْسَةً وَسِتِينَ أَلْفَ حَمَامٍ وَكَانَتْ مُشَتَّمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاقِيَّةٍ وَمُنْقَارِيَّةٍ
 تَعْجَازُ الْأَزْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةٌ وَحْدَهَا يَجْمِعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِأَفْرَاطِ الْعُمْرَانِ وَكَذَا حَالُ
 الْقِيرَوانِ وَقُرْطُبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمَلَكِ الْأَسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغَنَا
 لِهَا الْعَهْدُ وَأَمَّا بَعْدَ أَنْقِرَاضِ الدُّوْلَةِ الْمُسْبِدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ لِفَسَادِهِيَّ تِلْكَ
 الْمَدِينَةِ وَمَا فَارَهَا مِنْ أَلْجَيَالِ وَالْبَسَاطِيَّاتِ بَادِيَّهُ يُعِدُّهَا الْعُمْرَانُ دَائِيَّا فَيَكُونُ ذَلِكَ
 حَافِظًا لِوُجُودِهَا وَيَسْتَمِرُ عُمُّرُهَا بَعْدَ الدُّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَاهَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ
 الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمْرَانُ مِنْ أَلْجَيَالِ لَأَنَّ أَهْلَ الْبِداوةِ إِذَا أَنْتَهُ
 أَخْوَالَهُمْ إِلَى غَيَابِهَا مِنَ الْرِّفِّ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدُّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ
 الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَاهُلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُونْ لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمُؤَسَّسَةِ
 مَادَةً تُفِيلُهَا الْعُمْرَانَ يَتَرَادُفُ أَسَاكِنٍ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ أَنْقِرَاضُ الدُّوْلَةِ خَرْقاً
 لِسِيَاجِهَا فَيَزُولُ حِنْفُطُهَا وَيَتَاقَصُ عُمُّرُهَا شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَذَعِرَ سَاكِنُهَا وَتَخْرُبَ
 كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَالسُّكُوفَةِ بِالْمَشْرِقِ وَالْقِيرَوانِ وَالْمَهْدِيَّةِ وَفَلَعْمَةِ بَنِي حَمَادَ
 بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَفَهَّمَهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ أَنْقِرَاضِ مُخْتَطِبِهَا الْأَوْلَيْنَ مَلِكَ
 الْأَخْرَ وَدَوْلَةَ ثَانِيَّةَ يَتَغَيَّرُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًّا يَسْتَغْفِي بِهَا عَنْ أَخْتِطَاطِ مَدِينَةِ يَنْزِلُهَا فَتَخْفَظُ
 تِلْكَ الدُّوْلَةِ سِيَاجَهَا وَتَتَزَايِدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا يَتَزايدُ أَخْوَالُ الدُّوْلَةِ ثَانِيَّةَ وَتَرْوِيَهَا
 وَتَسْتَجِدُ بِعُمُّرِهَا عُمُّراً آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسِ وَالْقَاهِرَةِ لِهَا الْعَهْدُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعوا الى نزول الامصار

وذلك لأن القبائل والمضارب إذا حصل لهم الملك أضطرروا للأستيلاء على الأنصار
لأنه من أحد ما يدعوه إليه الملك من الدعوة والراحة وخط الأنقال واستكمال
ما كان ناقصاً من أمور العمران في الدنو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر
المنازعين والمشاغبين لأن مصر الذي يكون في تواجدهم ربما يكون ملجاً
لمن يرود منازعاتهم والغروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم
فيعصيم بذلك مصر وبفالبهم ومقابلة المضر على نهاية من الصعبه والمشقة
والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكأبة الحرب من
وزاء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكه لأن الشوكه والمعابه
إنما احتسب إليهما في الحرب للثبات لما يقع من بعد كره القوم بعضهم على بعض عند
الجوزة وثبت هؤلاء بالجدران فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال
هذا الحصن ومن يعصيم به من المنازعين مما يفت في عصب الأمة التي تروم الاستيلاء
ويخضد شوكه استيلائهما فإذا كانت بين أجنابهم أنصاراً انتظموا في استيلائهم للأمن
من مثل هذا الانحراف وإن لم يكن هناك مصر استحدثه ضرورة لتهكيم عمرائهم
ولا وحشة انقاذهم وليسون شجاع في حلقي من يرود العزة والامتناع عليهم من طائفتهم
وعصابتهم فشين أن الملك يدعوا إلى نزول الأنصار والأستيلاء عليهما والله سبحانه
وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والمياكل المرتفعة انا يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المعابد وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن
تشييد المدن إنما يحصل باجتئاع الفعلة وكثريتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة عظيمة
متسعة العمالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في
ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القويه والقدر في حمل انتقال البناء

لِعَجزِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضُعُفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْخَالِ وَغَيْرِهِ وَرُبُّمَا يَتَوَمَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
إِذَا نَظَرَ إِلَى آثارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمُ الْعَظِيمَةَ مثْلَ إِيُوبَانِ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مصرِ
وَحَنَابَاتِ الْمُعْلَقَةِ وَشَرْشَالَ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مُتَفَرِّقَةً أَوْ مُجَمَّعَيْنَ فِي تَخْيِيلِ
أَهْمَمِهِمْ أَجْسَامَ تُنَاسِبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ كَثِيرٌ فِي طُولِهَا وَقُدْرَهَا لِتُنَاسِبُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْقُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمُبَكَّنِي عَنْهَا وَيُغَفِّلُ عَنْ شَأنِ الْمِنَادِمِ وَالْخَالِ وَمَا أَنْفَضَتْ فِي
ذَلِكَ الصِّنَاعَةِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأنِ الْبَنَاءِ وَاسْتِعمالِ
الْحَيْلِ فِي نَقْلِ الْأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّولَةِ الْمُعْتَدِلِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعَجَمِ مَا يَشَهِدُ لَهُ بِمَا قُلْنَاهُ
عِيَانًا وَكَثِيرٌ آثارُ الْأَقْدَمِينَ لَهَا الْعَهْدُ تُسَمِّيَّهَا الْعَالَمَ عَادِيَةً نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ عَادِ لِتَوْثِيمِهِمْ
أَنَّ مَبَانِيَ عَادِ وَمَصَانِعِهِمْ إِنَّمَا عَظَمَتْ لِعْنَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذِلِكَ
فَقَدْ نَجَدَ آثارًا كَثِيرَةً مِنْ آثارِ الْذِيْنَ تُعْرَفُ بِمَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْآمِ وَهِيَ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظَمِ أَوْ أَعْظَمَ كَإِيُوبَانِ كِسْرَى وَمَبَانِيَ الْعَبَدِيَّيْنَ مِنَ الشِّيَعَةِ بِاَفْرِيقِيَّةِ
وَالصَّنَهَاجِيَّيْنَ وَأَثْرُهُمْ بَادَ إِلَى الْيَوْمِ فِي صَوْمَعَةِ قَلْعَةِ بَنِي حَمَادِ وَكَذِلِكَ بِنَاهَ الْأَغَالِبَةِ فِي
جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ وَبَنَاهُ الْمُوَحَّدِيَّيْنَ فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السَّلَطَانِ أَبِي سَعِيدِ لِعَهْدِ
أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِرَاءِ تَلْمُسَانَ وَكَذِلِكَ الْخَنَابَاتِ الَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجِنَةَ
الْمَاءَ فِي الْقَنَاتِ الْرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا مَاثِلَةً لَهَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَكَّنِي وَالْهَيَاكِيلِ الَّتِي تَقَلَّتْ
إِلَيْنَا أَخْبَارَ أَهْلِهَا قَرَيْبًا وَبَعِيدًا وَيَقِنَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا
هُذَا رَأْيٌ وَلَعِبَهُ الْقَصَاصُونُ عَنْ قَوْمٍ عَادِ وَمُؤْدَدَ وَالْعَمَالِقَةِ وَنَجَدَ يَوْتَ ثَمَودَ فِي الْعَجَزِ مَنْحُونَةً
إِلَى هَذِهِ الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا يَوْتَهُمْ يَسْرُّهَا الرَّكْبُ الْمِجَازِيُّ
أَكْثَرُ الْسَّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لَا تَرِيدُ فِي جَوْهَهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَنَكِهَا عَلَى الْمُتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ
لِيَبَالِغُونَ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عُوجَ بْنَ عَنَاقَ مِنْ جِيلِ الْعَالِقَةِ
كَانَ يَتَنَاهُلُ الْسَّمَكَتُ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيشًا فَيَشُوِّبُهُ فِي الْشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الْشَّمْسَ حَارَّةَ
فِيمَا قَرُبَتْ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَنَا هُوَ الضَّوْءُ لَا تَعْكَسُ الشَّعَاعُ يُقَابِلَهُ سَطْعُ
الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَا الشَّمْسُ فِي تَقْسِيمِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٍ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيٌّ
لَا مِزَاجٌ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي حِبْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثارَ الدُّولَةِ عَلَى
نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ

الفصل الرابع

في أن الميكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة وأسباب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومساعدة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو معاقة بالهندام كما قلناه فيحتاج إلى معاودة قدر آخر مثلها في أزمنة معاقة إلى أن يتم فيتدى الأول منهم بالبناء وبعقبه الثاني الثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكملاً وبكون ماثلاً للعيان ينظمه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وأنظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سيد مارب وأن الذي بناء سبا بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً وعاقه الموت عن إتمامه فاتمة ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقتها الراكبة على الحناب العادي وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدينا تجد الملك الواحد يشرع في اختباطها وتأسيسها فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضاً أنها تجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تحيط الدول عن هدمها وتخر فيها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبيه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل وأتركته ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبو الملك لأهل ذلك الميكل فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النصرة للتعجم والله لا يصرعه وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه وانفذ له الفوس وتحاه بالنار وصب عليه أخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف القصيدة بعث إلى يحيى يستشيره ثانية في التجافي عن الهدم فقال لا تفعل وأستمر على ذلك لثلاً يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنوع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأفسر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي يمضر

وَجَعَ الْفَعْلَةَ أَهْدِمِهَا فَلَمْ يَجُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَّعُوا فِي نَقْبَهِ فَأَنْتَرُوا إِلَى جَزِيرَةِ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ
وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحَيْطَانِ وَهُنَّاكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدِيهِمْ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيهَا يُقَالُ مَنْفَذُ ظَاهِرٍ
وَيَزْعُمُ الْزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْحَيْطَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَذِيلَكَ حَنَابَا الْمُعْلَقَةِ
إِلَى هَذَا الْعَهْدِ مَتَّحَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى اِنْتِخَابِ الْمُجَاهَرَةِ لِبَنَائِهِمْ وَتَسْبِيدِ الصَّنَاعَ
مُجَاهَرَةَ تِلْكَ الْحَنَابَا فَيَحَاوِلُونَ عَلَى هَذِهِمَا الْأَيَامِ الْعَدِيدَةِ وَلَا يَسْقُطُ الصَّفِيرُ مِنْ جُذْرِهِ
إِلَّا بَعْدَ عَصْبِ الْرِّيقِ وَتَجْشِيمِ لَهُ الْمُعَافِلُ الْمَشْهُورَةُ شَهِدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَابِيَّ
كَثِيرًا وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فِيهَا تَجْبَرُ مَرَاعَاتُهُ فِي أَوضَاعِ الْمَدِينَ وَمَا يَحْدُثُ إِذَا غَذَلَ عَنِ الْمَرَاعَةِ
إِعْلَمُ أَنَّ الْمُدُنَ قَرَارٌ يَسْتَخْدِمُهُ الْأَمْمُ عِنْدَ حُصُولِ الْحِمَاءِ الْمُطْلُوبَةِ مِنَ التَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ
فَتُؤْثِرُ الدَّعَةَ وَالشُّكُونَ وَأَتَوْجَهُ إِلَى اِنْتِخَادِ الْمَنَازِلِ لِلقرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْقَرَارُ
وَالْمَأْوَى وَجَبَ أَنْ يُرَاعَ فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِ بِالْحِمَاءِ مِنْ طَارِقَهَا وَجَلْبُ الْمَنَافِعِ
وَتَسْهِيلُ الْمَرَافِقِ لَهَا فَمَا الْحِمَاءُ مِنَ الْمَضَارِ فَيُرَاعَ لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا حِيمَةً
سِيَاجُ الْأَسْوَادِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَلِكَ فِي مُتَّسِعٍ مِنَ الْأَمْكَنَةِ إِمَامًا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعِّدَةٍ
مِنَ الْجَبَلِ وَأَمَّا بِاسْتِدَارَةِ بَحْرِ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَّلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرٍ
أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَصُبُّ مَنَالُهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَبِتَضَاعُفِ أَمْتِنَاعِهَا وَحُصْنَهَا وَمِمَّا يُرَاعَ فِي ذَلِكَ
الْحِمَاءِ مِنَ الْآفَاتِ السَّمَوِيَّةِ طَيْبُ الْمَوَاءِ لِلسلامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَإِنَّ الْمَوَاءَ إِذَا كَانَ
رَاكِدًا خَيْرًا أَوْ مُجَاوِرًا لِلْمِيَاءِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مَنَافِعَ مُتَعَفِّنةً أَوْ مُرُوجٍ خَيْرَةً أَسْرَعَ إِلَيْهَا
الْعَفَنُ مِنْ مُجَاوِرَتِهِ فَأَسْرَعَ الْعَرَضُ لِلْحَيْوانِ الْكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةٌ وَهَذَا مُشَاهَدَةُ الْمُدُنِ
الَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طَيْبُ الْمَوَاءِ كَثِيرَةُ الْأَمْرَاضِ فِي الْفَالِبِ وَقَدْ أَشْهَرَ بِذَلِكَ فِي قُطْرِيِّ
الْمَغْرِبِ بَلْدُ قَابِسَ مِنْ بَلَادِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةِ فَلَا يَكَادُ مَا كُنِّيَّا أَوْ طَارِقَهَا يَخْلُصُ مِنْ
حُمَّى الْعَفَنِ بِوَجْهِهِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ حَادَثٌ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذِيلَكَ مِنْ قَبْلِ وَتَقْلِ
الْبَصْكَرِيِّ فِي سَبَبِ حَدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا خَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَّا مِنْ تَحْمَاسِ مُخْتَومٍ بِالْأَصَاصِ
فَلَمَّا فُضَّلَ خَتَامُهُ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى الْجَوَّ وَأَنْقَطَعَ وَكَانَ ذَلِكَ مُبِداً أَمْرَاضِ الْحُمَّياتِ
فِيهِ وَلَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْأَيَّاهَ كَانَ مُشْتَعِلًا عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الْطِّلَسمَاتِ لِوَبَائِهِ وَأَنَّهُ

ذَهَبَ مِرْءَهُ بِنَهَا بِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفْنُ وَالْوَبَاءُ وَهَذِهِ الْحِكَمَاتُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَةِ وَمَبَاحِثِهِمْ
 أَرْكِيَّةُ وَالْبَكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَأَسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِعِيشُ بَدْفَعٌ مِثْلُ هَذَا
 أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرْفَهُ فَنَقْلَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَالَّذِي يَكْسِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوَى
 الْعَفْنَةُ أَكْثَرُ مَا يُهَدِّهَا لِتَعْقِينِ الْأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ الْحَمَىَاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَغْلَطَتْهَا الْرِّيحُ
 وَتَفَسَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِينًا وَشَمَائِلًا خَفَ شَانُ الْعَفْنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا الْحَيَّانَاتُ وَالْبَلَدُ
 إِذَا كَانَ كَثِيرًا السَّاكِنُ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمُوجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ
 الْرِّيحُ الْمُتَخَلَّلَ لِلْهَوَاءِ الْرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُ عَلَى الْحَرْكَةِ وَالشَّمُوجِ وَإِذَا خَفَ
 السَّاكِنُ لَمْ يَجِدْ الْهَوَاءُ مُعِينًا عَلَى حَرْكَتِهِ وَتَمُوجِهِ وَبَقِيَ سَاكِنًا رَاسِكَدًا وَعَظِيمٌ عَفْنُهُ
 وَكَثُرَ ضَرُورَهُ وَبَلَدُ قَائِسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ مَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةً مُسْتَجِدَةً الْعِمَرَانِ كَثِيرَةً
 السَّاكِنِ تَمُوجُ يَاهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمُوجِ الْهَوَاءِ وَأَضْطَرَ إِلَيْهِ وَتَخَفِيفِ
 الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرٌ عَفَنٌ وَلَا مَرَضٌ وَعِنْدَ مَا خَفَ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا
 الْمُتَعَفِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفْنُ وَالْمَرَضُ فَهَذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُهُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ
 ذَلِكَ فِي بِلَادِ وَضُعَتْ وَلَمْ يُرَاعِ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ وَكَانَ أَوْلًا فَلِيلَةَ السَّاكِنِ فَكَانَتْ
 أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَانُهَا اتَّقَلَ حَالُهَا عَنْ ذَلِكَ وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمُلُكِ بِفَاسَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسْمَى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ فَتَفَهَّمَهُ تَجَدُّدُ مَا قُلْتُهُ لَكَ
 وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَايَ فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا الْمَاءُ بَأْنَ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى
 نَهْرٍ أَوْ بِإِزَاعَهَا عَيْنَوْنَ عَذْبَةَ ثَرَةٍ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَاءِ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسْهِلُ عَلَى السَّاكِنِ
 مَحَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفِقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَةً وَمِمَّا يُرَايَ
 مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمُدُنِ طَيْبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
 دَوْجِنِ الْحَيَّانِ لِلشَّاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّوكِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَرْعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا
 طَيْبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْفَقَ بِهِمْ لِمَا يُعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَايَ أَيْضًا
 الْمَزَارِعُ فَإِنَّ الْرُّوعَ هِيَ الْأَفْوَاتُ فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبَلَدِ بِالْقُربِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ
 اسْتِهْلَكَ فِي اِتَّخِاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ وَالْحَطَبُ وَالْبَنَاءُ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا
 تَعْمَلُ الْبَلَوَى فِي اِتَّخِاذِهِ لِوُقُودِ الْنَّيْرَانِ لِلِّاَصْطِلَاءِ وَالْطَّبَغِ وَالْخَشَبِ أَيْضًا ضَرُورِيٌّ
 لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَايَ أَيْضًا قُرْبُهَا مِنَ

الْتَّمِ لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَاسِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ النَّافِعَةِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ الْأَوَّلِ
وَهُنْدُو كُلُّهَا مُتَفَوِّةٌ بِتَفَوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُ إِلَيْهِ فَرُورَةُ السَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ الْتَّوَاضُعُ
غَلَّاً عَنْ حُسْنِ الْأَخْتِيَارِ الْطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَايِي مَا مُوَاهِمُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا
يَذْكُرُ حَاجَةً غَيْرِهِ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدْرُنِ الَّتِي أَخْتَطَوْهَا
يَأْلِفَاقَ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرَأُوا فِيهَا إِلَّا أَلَامَ عِنْهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْأَبْلِيلِ وَمَا يَصْلُحُ
لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمَلِعِ وَلَمْ يَرَأُوا الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْمَحَطَّبَ وَلَا مَرَاعِي
السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظَّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ كَالْقِيرَوَانَ وَالْكُوفَةَ وَالْبَصَرَةَ وَأَمْثَالِهَا
وَلِهَذَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْخَرَابِ مَا لَمْ تُرْسَعْ فِيهَا الْأُمُورُ الْطَّبِيعِيَّةُ

وَمَمَا يُرَايِي فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ
أَمْمَةِ مِنَ الْأَمْمِ مَوْفُورَةَ الْعَدُوِّ تَكُونُ صَرِيخًا لِلْمَدِينَةِ مَقْطَعَ طَرْقَهَا طَارِقٌ مِنَ الْعَدُوِّ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَامِرَةً الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحِتِهَا عُمْرَانٌ
الْقَبَائِلُ أَهْلُ الْعَصَبَيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعِّدٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَ فِي غَرَّةِ الْبَيَّانِ وَسَهْلَ طَرُوفِهَا
فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَعْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحْيِفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ الْعَرَبِيَّنِ لَهَا وَأَنَّ
الْخَضَرَ الْمُتَعَوِّدِ دِينَ الْدِعَةِ قَدْ صَارُوا عِبَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ الْمُقَاتَلَةِ وَهُنْدُو
كَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابِلُسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَّا وَمَتَّ كَانَ الْقَبَائِلُ
وَالْمَصَابِبُ مُوَطَّنِينَ يَقْرِبُهَا بِعِيشَتِ يَنْلَفِعُمُ الْصَّرِيعُ وَالْتَّبَرُ وَكَانَتْ مُتَوَعِّدَةُ الْمَسَالِكِ عَلَى
مَنْ يَرُوُهَا بِأَخْتِطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَتَلَى أَسْنَمَهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مِنْعَةً مِنَ الْعَدُوِّ
وَيَسُوا مِنْ طَرُوفِهَا لِمَا يَكَادُونَهُ مِنْ وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيْخِهَا كَمَا في
سَيْنَةَ وَبِجَاهَةِ وَبَلْدَوِ الْقَلْلِ عَلَى صَفَرِهَا فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَأَعْتَزَهُ فِي أَخْتِصَاصِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ
بِإِسْمِ الشَّفَرِ مِنْ لَدُنِ الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدُّعَوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِرَقَّةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا اعْتَزَزَ
فِي ذَلِكَ الْخَفَافَةِ الْمُتَوَفَّعَةِ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضِعِيفَهَا بِذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ كَانَ طُوقُ الْعَدُوِّ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابِلُسَ فِي الْمِلَوَّهِ مَرَكَاتِ مُتَعَدِّدَةٍ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلُّ مِنَ الْأَرْضِ بِقَاءً أَخْتَصَهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لِبَادَتِهِ يُضَاعِفُ فِيهَا الْثَوَابَ وَيَنْمُو بِهَا الْأُجُورُ وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنْسٍ رَسُولِهِ وَأَنْبَيَاهِ
 لِطْفًا يُعَادِهِ وَتَسْهِيلًا لِطُرُقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ . وَكَانَتِ الْمَسَاجِدُ الْثَلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بِقَاعَ
 الْأَرْضِ حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيفَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَمَّا الْبَيْتُ
 الْحَرَامُ الَّذِي يُمْكِنُ فِيهِ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ اللَّهُ يَبْنَاهُ وَأَنْ
 يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِالْبَحْرَ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِهَا أَمْرَهُ اللَّهُ
 فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجِرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْحُمَ إِلَى أَنْ قُبْضَهُمَا اللَّهُ وَدُفِنُوا
 بِالْجَهَرِ مِنْهُ . وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاؤُدُ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهَا السَّلَامُ أَمْرَهُمَا اللَّهُ يَبْنَاهُ
 مَسْجِدِهِ وَنَصَبَهَا كَلِمَةً وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وُلْدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالِيهِ .
 وَالْمَدِينَةُ مَهَاجِرٌ نَبَيَّنَا مُحَمَّدٌ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُجُورِ إِلَيْهَا
 وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلَحَدَهُ الشَّرِيفُ فِي تُرْبَتِهَا
 فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الْثَلَاثَةُ قِرَأَهُ عَيْنُ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَقْدَمِهِمْ وَعَظَمَهُ دِينُهُمْ . وَفِي الْأَثَارِ
 مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الْثَوَابِ فِي مُجَاوِرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنُشَرِّ إِلَى شَيْءٍ مِنَ
 الْخَبَرِ عَنْ أَوْلَيَةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْثَلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَخْوَاهُ الْهَاجِرُ إِلَى أَنْ كَمْلَ ظُهُورُهُمَا
 فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوْلَيَتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا فِي الْأَيَّامِ الْأَبْيَانِ
 الْمَعْمُورِ تِمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيقٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَقْبَسَهُ
 مِنْ تَحْمِيلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ تِمَّ بَعْثَ اللَّهُ
 إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَانِهِ وَشَانِ زَوْجِهِ سَارَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ هَاجِرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَذْهَى
 اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَرْكَكَ أَبْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأَمْهُ هَاجِرَ بِالْفَلَّاَةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ
 عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ الْلَّطْفِ فِي نَبْعِ مَائِ زَمْزَمَ وَمَرُورِ الرُّفَقَةِ مِنْ جُرْحُمَ
 بِهَا حَتَّى أَحْتَمَلُوهُمَا وَسَكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوْلَيْ زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ
 فَأَمْحَقَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ يَتَأَوِي إِلَيْهِ وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَاجًا مِنَ الرَّدْمِ وَجَعَلَهُ
 زَرَبًا لِغَنْمَةِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِرَارًا لِرِيَارَتِهِ مِنَ الْشَّامِ أَمَّرَ فِي آخرِهَا
 بِسَنَاءِ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الْزَرَبِ فَبَنَاهُ وَأَسْتَعَنَ فِيهِ بِأَبْنَهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
 حَجَّهُ وَبَقَى إِسْمَاعِيلُ مَا كَانَ بِهِ وَلَمَّا قُبِضَتْ أُمُّهُ هَاجِرَ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ
 مَعَ أَخْوَاهُمْ مِنْ حُرُبِهِمْ ثُمَّ الْعَمَالِيَقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَسْتَعَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أُفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلْقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ دَنَّا
أَوْ نَأْيَ فَقَدْ قُلَّ أَنَّ التَّبَابَعَةَ كَانَتْ تَحْجُجُ الْبَيْتَ وَتُعْظِمُهُ وَأَنَّ بَعْدَ كَسَاهَا الْمُلَاءَ
وَالْوَصَائِلَ وَأَمْرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَهَا مُفْتَاحًا وَقُلَّ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحْجُجُهُ وَتُقْرِبُ
إِلَيْهِ وَأَنَّ غَرَّ الْذَّهَبِ الْلَّذَّانِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ أَخْتَرَ زَمْزَمَ كَانَ مِنْ
قَرَائِبِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِجَزِّهِمُ الْوَلَايَةُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وَلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا
خَرَجَتْ خُزَاءَ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدُهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وَلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَأَنْتَشَرُوا وَاتَّشَبَّهُوا إِلَى
كَنَانَةَ ثُمَّ كَنَانَةَ إِلَى قُرْيَشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَلَايَةُ خُزَاءَ فَغَلَبُوهُمْ قُرْيَشٌ عَلَى أَمْرِهِ
وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ فَصَيَّيْ بَنْتَ كِلَابٍ فَبَنِي الْبَيْتِ وَسَقْفَهُ بِخَشْبٍ
الْلَّفْمِ وَجَرَيْدَ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعْشَى

خَلَقَتْ يَثْوَبِي رَاهِبَ الدُّورِ وَالَّتِي بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بْنُ جُرْمُومُ
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهَدَّمَ وَأَعْادُوا بَنَاهُ وَجَمَعُوا النَّفَقةَ لِذَلِكَ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ وَأَنْكَسَرَتْ سَفِينَةُ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَأَشْتَرَوا خَشْبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَ جُذْرَانُهُ فَوْقَ
الْقَامَةِ بَعَلُوهَا ثَمَانِيَّ عَشَرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لِأَصْبَاقًا يَا لِلأَرْضِ بَعْلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِشَلَّا
تَدْخُلُهُ السَّيُولُ وَقَصَرَتْ بِهِمْ النَّفَقةُ عَنِ إِنْتَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّ
أَذْرُعٍ وَشَبَرًا أَدَارُوهَا بِمَدَارِ قَصِيرٍ بُطَافٍ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا
الْبَنَاءِ إِلَى أَنْ تَحْصَنَ أَبْنَ الزَّبَرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جِيُوشُ يَزِيدَ
بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَينِ بْنِ نُعَيْرِ السَّكُونِيِّ وَرَمَيَ الْبَيْتَ سَنَةَ أَزْبَعَ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ
حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفَطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى أَبْنَ الزَّبَرِ فَأَعَادُ بَنَاهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ
أَنْ أَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بَنَائِهِ وَأَخْتَجَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمَكَ حَدَّيْشُو عَهْدِ بِكُفْرٍ لَرَدَدَتْ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ
وَلَجَعَلَتْ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَسَّفَتْ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَعْدَ
الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى عَانِيَوْهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبْنُ عَبَّاسٍ بِالشَّعْرِ فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ
فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَسْبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعْثَ إِلَى صَنَاعَةِ
فِي الْفَضَّةِ وَالْكِنْسِ خَمَلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْجِمَارَةِ الْأَوَّلِ بَعْجَمَ مِنْهَا مَا أَخْتَاجَ
إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبَيْهَةِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُذْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذرَّاها وَجَعَلَ لَهَا بَيْنَ الْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فِرْشَاهَا وَإِزَاهَا
 بِالرَّخَامِ وَصَاغَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبُوابِ مِنَ الْذَّهَبِ ثُمَّ جَاءَ الْحَجَاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَتَجَبِيَّاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ
 بَابُنِ الْزَّبَيرِ شَأْوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيهَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمْرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتِ
 عَلَى قَوَاعِدِ قُرْبَشِ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ أَبْنِ
 الْزَّبَيرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَيْبَ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ
 مَا تَحْمَلُ فَهَدَمَ الْحَجَاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعٍ وَشَبَرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ قُرْبَشِ
 وَسَدَ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَحَتَ عَتَبَةَ يَابِنِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَكِ الشَّرْقِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ
 مِنْهُ شَيْئًا فَهَكُلَّ الْبَنَاءَ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بَنَاهُ أَبْنُ الْزَّبَيرِ وَبَنَاهُ الْحَجَاجُ فِي الْحَائِطِ صِلَةُ
 خَلَاهِرَةُ الْعِيَانِ لِعُمَّةٍ خَاهِرَةٍ بَيْنَ الْبَنَاءَيْنِ وَالْبَنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبَنَاءِ بِمَقْدَارِ اِصْبَعٍ شَيْءٍ
 الْمَسْدَعِ وَقَدْ لَعِمَ وَيَعْرِضُ هُنَّا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمَنْفَافِاتهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفَقَاهَةُ فِي أَمْرِ الْطَّوَافِ
 وَيَحْدُثُ الظَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّادِرِ وَإِنَّ الدَّائِرَ عَلَى أَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقْعُ
 طُوَافُهُ دَأْخِلَ الْبَيْتِ بَنَاهُ عَلَى أَنَّ الْجُدُرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضِهِ وَهُوَ
 مَكَانُ الشَّادِرِ وَإِنَّمَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الظَّائِفِ مِنَ
 الْتَقْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِي فَإِنَّمَا إِثْلَاثُ بَقْعَةِ بَعْضٍ طُوَافُهُ دَأْخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَ الْجُدُرُ أَنْ
 كُلُّهَا مِنْ بَنَاءِ أَبْنِ الْزَّبَيرِ وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ بَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوا
 وَلَا مُخْلَصٌ مِنْ هَذَا إِلَّا يَأْخُدَ أَمْرَبِنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ
 وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبَنَاءِ بِالنَّحَامِ مَا بَيْنَ الْبَنَاءَيْنِ وَمُتَمَيِّزٌ أَحَدُ
 الْشَّقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصِّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَبْنُ الْزَّبَيرِ لَمْ يَرُدْ
 الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جَهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيُدْخَلَهُ فَهُوَ
 الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بَنَاءِ أَبْنِ الْزَّبَيرِ لَيْسَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا يَحِصَّ مِنْ
 هَذِينَ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا يَعْلَمُ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فَضَاءً لِلْطَّائِفَيْنِ
 وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدُرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ
 النَّاسُ فَأَشْتَرَى عُمُورَ وَغَنَمَيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جَدَارًا
 دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُشَّماً ثُمَّ أَبْنُ الْزَّبَيرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعِمْدٍ

أَرْخَامٌ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورُ وَابْنُهُ الْمَهْدِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَتُ الْزِيَادَةِ وَأَسْتَفَرَتْ عَلَى
 ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ اللَّهِ لِهَذَا الْبَيْتِ وَعِنَابَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَااطَ بِهِ وَكَفَى
 بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهِيطًا لِلْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْجَنَاحِ وَمَنَاسِكَهُ
 وَأَوْجَبَ لِحَرَمَهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ الْتَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْ لِغَيْرِهِ فَمَنْعَ
 كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَبَرَّدَ
 مِنَ الْمُخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتَرُهُ وَحْمَيَ الْعَائِدِيَّةِ وَالْمَرَاثِعِ فِي مَسَارِهِ مِنْ مَوَافِعِ الْأَفَاتِ
 مَلَأَ يُومَهُ فِيهِ خَائِفًا وَلَا يُصَادُ لَهُ وَحْشٌ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدَّ الْحَرَمُ الَّذِي يَخْتَصُ
 بِهِذِهِ الْحَرَمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةً أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ الْعَرَاقِ سَبْعَةً
 أَمْيَالٍ إِلَى الشَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطَعِ وَمِنْ طَرِيقِ الْطَّائِفِ سَبْعَةً أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمَرَةِ وَمِنْ
 طَرِيقِ جَدَّةَ سَبْعَةً أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطَعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أَمْ
 الْقُرَى وَتُسَمَّى الْكَعْبَةُ لِعِلُوِّهَا مِنْ أَسْمِ الْكَعْبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا بَكَةَ قَالَ الْأَمَامُ عَمَّيُ
 لَآنَ النَّاسَ يَبْكُونَ بِعَصْبُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهَا أَيْ بَدْفَعٌ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاهَ بَكَةَ أَبْدَلُوهَا مِسَامًا كَمَا
 قَالُوا لَازْبٌ وَلَازْمٌ لِقُرْبِ الْمَغْرِبِينَ وَقَالَ الْمَخْيَّثُ بِالْأَبَاءِ وَبِالْمِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الْزَّهْرِيُّ
 بِالْأَبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلُّهُ وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأَمْمُ مِنْذِ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تُعْظَمُهُ
 وَالْمُلُوكُ تَبَعُثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْخَاتِيرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ وَقِصَّةُ الْأَسْبَافِ وَغَزَالِيُّ الْذَّهَبُ
 الَّذِينَ وَجَدُوهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ أَخْتَرَ فَرْزَمَ مَعْرُوفَةَ وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَفْتَشَ مَكَّةَ فِي الْجُبَّ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ اُوقِيَّةَ مِنْ الْتَّهَبِ
 مَمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يُهَدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ مُسْكَرَةً مِنْ كَنْتَيْنِ بِعِيَاتِيْ فَنَظَارٌ وَزَنَادٌ
 وَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَسْتَعْنَتْ بِهِذَا الْمَالِ عَلَى
 حَرَبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذَكَرَ لَابِي بَكْرٍ فَلَمْ يُخْرِجْ كَهْ مَكَّذَا قَالَ الْأَزْرَقُ وَفِي الْبَخَارِ -
 يُسْنِدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلَ قَالَ جَلَسَتْ إِلَى شِيبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
 فَقَالَ هَمَّتْ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَفَرًا وَلَا يَضْعَاءَ إِلَّا قَسَمْنَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ
 بِفَاعِلٍ قَالَ وَلَمْ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا الَّذِي يُقْتَدِي بِهِمَا وَخَرَجَهُ أَبُودَاوِدَ
 وَأَبْنُ مَاجَةَ وَأَفَامَ ذَلِكَ الْمَالَ إِلَى أَنْ كَانَ فِتْنَةُ الْأَفْطَسِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَنِ
 أَبْنُ عَلَيْهِ بْنِ عَلَيْهِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعَ وَتِسْعِينَ وَمِائَةَ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عَمَّدَ إِلَى

الْكَعْبَةُ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَصْنَعُ الْكَعْبَةُ بِهَذَا الْمَالِ مَوْضُوعًا فِيهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ
 فَعَنْ أَحَقِّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرَبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَّاتَ الدَّخْبَرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ
 مِنْ يَوْمِئِذٍ . (وَامَا يَبْيَتِ الْمَقْدِس) وَهُوَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَرْبَعَ اِيَامَ الصَّائِمَةِ
 مَوْضِعَ الْزَّهْرَةِ وَكَانُوا يُقْرِبُونَ إِلَيْهِ الْزَّيْتَ فِيمَا يُقْرِبُونَهُ يَصْبُونَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي هُنَّا
 ثُمَّ دُثِرَ ذَلِكَ الْهَيْكَلُ وَأَخْدَدَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوهَا قَبْلَهُ اِصْلَاتِهِمْ . وَدِلْكَ أَنَّ
 مُوسَى صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِيَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِتَمْلِكِهِمْ يَبْتَأِلُ الْمَقْدِسَ كَمَا
 وَعَدَ اللَّهُ أَبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ اِسْعَقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ الْتَّيْهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاِتَّخِذَ
 قَبْيَةً مِنْ خَشْبِ السَّنْطِ عِنْتَ بِالْوَحْيِ مَقْدَارُهَا وَصَفْتُهَا وَهِيَا كُلُّهَا وَتَمَاثِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ
 فِيهَا الْتَّابُوتُ وَمَائِدَةُ بِصِحَافَهَا وَمَنَارَةُ بِقَنَادِيلِهَا وَأَنْ يَصْنَعَ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَحَفَّ ذَلِكَ
 كُلُّهُ فِي التَّوْرَاهُ أَكْمَلَ وَصَفَ فَصَنَعَ الْقَبْيَةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعِهْدِ وَهُوَ الْتَّابُوتُ
 الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ الْمَصْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنْزَلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ أَمَّا تَكْسَرَتْ
 وَوَضَعَ الْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهَدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى يَأْنَ يَكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا
 تِلْكَ الْقَبْيَةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي الْتَّيْهِ يُصْلُونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَّا هُنَّا وَيَتَعَرَّضُونَ
 لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا . وَلَمَّا مَكَّوْا الشَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقَبْيَةُ قَبْلَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى الصَّخْرَةِ
 بِيَنِتِ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاؤُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءً مَسْجِدٍ عَلَى الصَّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتَمَّ لَهُ
 ذَلِكَ وَعَهْدُ بِهِ إِلَى أَبْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَزْبَعِ سِبْعِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاءِ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْدَدَ عُمْدَهُ مِنَ الصَّنْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْخَ الْزَّجَاجِ وَغَشَّى أَبُوَابَهُ
 وَحِيطَانَهُ بِالْذَّهَبِ وَصَاعَ هِيَا كُلُّهُ وَتَمَاثِيلُهُ وَأَوْعِيَتُهُ وَمَنَارَتَهُ وَمَفْتَاحَهُ مِنَ الْذَّهَبِ وَجَعَلَ
 فِي ظَهُورِهِ قِبْرًا لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ الْعِهْدِ وَهُوَ الْتَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ وَجَاهَ بِهِ مِنْ
 صَهِيونَ بَلَدِ أَيْهِ دَاؤُدُ تَحْمِلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهْنُوتِيَّةُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوَضَعَتِ الْقَبْيَةُ
 وَالْأَوْعِيَةُ وَالْمَذْبَحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أَعْدَلَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذِلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَمَّ
 خَرْبَهُ بَعْثَتْ نَصْرًا بَعْدَ ثَمَانِيَّةِ سَنَةٍ مِنْ بَنَائِهِ وَأَخْرَقَ التَّوْرَاهَ وَالْعَصَا وَصَاعَ هِيَا كُلَّ وَنَكَرَ
 الْأَخْجَارَ تَمَّ لَمَّا أَعْدَهُمْ مُلُوكُ الْفَرْسِ بَنَاهُ عُزَيْرٌ نَبِيُّ إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِعْانَةِ بَهْنَنَ
 مَلَكِ الْفَرْسِ الَّذِي كَانَ الْوِلَادَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيْ بَعْثَتْ نَصْرًا وَحَدَّ لَهُمْ فِي
 بَنَيَانِهِ حُدُودًا . دُونَ بَنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاؤُدَ عَلَيْهِمُ الْسَّلَامُ فَأَقَمُوا بَعْجَازًا وَهَذَا ثَمَّ تَدَوَّتْهُمْ

مُلُوكُ بُونَانَ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْعَلَ الْمَلَكُ لِبْنَي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدْرَةِ ثُمَّ لِبْنَي
 حَسْنَاتِيَّ مِنْ كَهْنَتِهِمْ ثُمَّ أَصْبَرُوهُمْ هِيرُودُسَ وَلَبَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْقَدِيسِ
 عَلَى بَنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَنَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِبَاطِشُ
 مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَلَبُوهُمْ وَمَلَكُهُمْ أَمْرُهُمْ خَرَبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمْرَهُمْ يُزَوِّعُ
 مَكَانَهُ ثُمَّ أَخْذَ الرُّومُ بِدِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَأْنُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ أَخْتَلَفَ حَالُ
 مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصَارَى تَارَةً وَتَرَكَهُ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ
 وَتَنَصَّرَتْ أُمَّهُ هِيلَانَةُ وَأَرْتَحَتْ إِلَى الْقَدِيسِ فِي طَلَبِ الْخَشَبَةِ الَّتِي صُلِّبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ
 بِزَغْمِيمٍ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رَمَيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَّهُ عَلَيْهَا الْقَمَامَاتِ وَالْقَادُورَاتِ
 فَأَسْتَغْرَجَتِ الْخَشَبَةُ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقَمَامَاتِ كَبِيسَةَ الْقَمَامَةِ كَانَهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَغْمِيمٍ
 وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمْرَتْ بِطَرْحِ الْأَزْبَلِ وَالْقَمَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَقَّ
 غَطَامَاهَا وَخَفِيَّ مَكَانَهَا جَزَاءً بِزَغْمِيمَهَا لِمَا فَعَلَوْهُ يَقْبَرُ الْمَسِيحُ ثُمَّ بَنَوَا بِإِزَاءِ الْقَمَامَةِ بَيْتَ الْحَمَّ
 وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِّدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْقَ الْأَمْرِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَحَضَرَ عُمَرُ لِتَقْعِيْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَأَرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَّمَهَا الْأَزْبَلُ
 وَالثَّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْإِدَاؤَةِ وَعَظَمَ مِنْ شَانِهِ مَا أَذْنَ اللَّهُ
 مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمُّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَهَا ثَبَتْ ثُمَّ أَخْفَلَ الْوَلِيدُ بْنَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْبِيْدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سُنْنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْأَخْتِفَالِ
 كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْعِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمْشَقِ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّيُهُ بِالْأَلْأَطَافِ الْوَلِيدِ وَأَلْزَمَ مَلِكَ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ الْسَّعْلَةَ
 وَالْمَالَ لِبَنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنْمِقُوهَا بِالْفُسِيفِسَاءِ فَاطَّاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا أَقْرَرَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعَفَ أَمْرُ الْخَلَافَةِ أَعْوَامَ الْخَمِسِيَّاتِ مِنْ الْهَجْرَةِ إِلَى آخِرِهَا
 وَكَانَتِ فِي مَلَكَةِ الْعَيْدِيَّينَ خُلُقَاءِ الْقَاهِرِ مِنَ الشَّيْعَةِ وَأَخْتَلَ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَسِيَّةُ
 إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمَكَكُوهُ وَمَلَكُوكُوا مَعَهُ عَامَةَ ثُغُورِ الدَّامِ وَبَنَوَا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقْدَسَةِ
 مِنْهُ كَبِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَحُونَ بَيْنَاهَا حَتَّى إِذَا أَسْتَقَلَ صَلَاحُ الدِّينِ بْنُ
 أَيُوبَ الْكُرْدِيَّ يُمْلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعَيْدِيَّينَ وَبِدَعْهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ
 وَجَاهَهُمْ مَنْ كَانَ بِهِ مِنْ الْفَرَسِيَّةِ حَتَّى غَلَبُوهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَكَكُوهُ

من ثُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِتَحْوِيْ شَمَائِنَ وَخَمْسِيَّةً مِنَ الْهُجُرَةِ وَهَدَمَ تِبَانَ الْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ الْمَعْزِرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى التَّحْوِيْنِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِلَيْهَا الْعَهْدُ وَلَا يَعْرِضُ لَكَ إِلَّا شَكَالُ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَدِيثِ الْمُحَكَّمِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْأَوَّلِ بَيْتِ وَضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بَنَاءَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قِيلَ ذَكَرْكُمْ يَنْهَا مَا قَالَ أَزْبَعُونَ سَنَةً فَإِنَّ الْمَدَّةَ بَيْنَ بَنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بَنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَمْقُدَّرُ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسَلِيمَانَ لَاَنَّ سَلِيمَانَ بَانِيهِ وَهُوَ يُنِيبُ عَلَى الْأَلْفِ يَكْثِيرًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عَيْنَ الْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَيْنَ الْعِبَادَةِ قَبْلَ بَنَاءِ سَلِيمَانَ يُمْثِلُ هَذِهِ الْمَدَّةَ وَقَدْ نُقِلَّ أَنَّ الْهَابِطَةَ بَنَوَتِيْلَى الْمَعْزِرَةَ هِيَ كُلُّ الْأَزْهَرَةِ فَلَمَّا دَلَّكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِالْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُّ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْتَارِيلَ حَوْلَى الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَالصَّابِيَّةِ الَّذِينَ بَنَوْا هِيَ كُلُّ الْأَزْهَرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدْ مَدَّةً الْأَزْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضِعَ مَكَّةَ لِالْعِبَادَةِ وَوَضِعَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ بَنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمَهُ فَفِيهِ حَلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَإِنَّمَا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَيَّةُ يُثْرِبُ فَهِيَ مِنْ بَنَاءِ بَثَرَبَ بْنِ مَهْلَأَيْلَ بْنِ الْعَالِقَةِ وَمَلَكَ كَمَا بَنُوا إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاءُوكُمْ بَنُو قِيلَةَ مِنْ غَسَانَ وَغَلْبُوْمُ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا . ثُمَّ أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهُجُرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَيَّةِ اللَّهِ بِهَا فَهَا جَرَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرَ وَتَبِعَهُ أَخْتَابَهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَيَوْتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعْدَهُ لِذَلِكَ وَشَرْفَهُ فِي سَابِقِ أَزْلِهِ وَأَوَاهِ أَبْنَاءِ قِيلَةَ وَنَصَرُوْهُ فَلِذَلِكَ سُمِّوا الْأَنْصَارَ وَنَمَتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهَمُّهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُلْعَدُهُ الْمُرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا وَنَفَلَهَا إِنَّ الْأَحَادِيثَ الْمُصَحَّحةَ مَا الْخَنَاءُ يَهُ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْعَلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكُ رَحْمَهُ اللَّهُ بِمَا ثَبَتَ عِنْهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الْمُرِيبِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخْدِجٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَابِ فِي الْمَعْوِنَةِ إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى

تَدَلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ وَخَالَتْ أَبُو حَيْفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةً
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَنَاحَ إِلَيْهَا الْأَمَمُ ، يَا فَلَذَتِنِيمْ مِنْ كُلِّ أُوبٍ فَإِنْظُرْ كَيْفَ تَدَرَّجَتْ
الْفَضْيَلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعْظَمَةِ لِلْأَسْبَقِ مِنْ عِنْيَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَقْهِيمَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ
وَتَدَرِّيجَهُ عَلَى تَرَيْبِ شُغْكَمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْثَّلَاثَةِ
فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَانِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرِّ تَدِيبِ مِنْ
جَزَّائِرِ الْهَنْدِ لِكَنْهُ لَمْ يُشَبِّهْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْكِلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتِ الْأَمَمُ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ
يُعْظِمُونَهَا عَلَى جَهَةِ الْذِيَاَنَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا يُوَسْطُ النَّارِ لِلْفُرْسِ وَهِيَا كُلُّ بُونَانَ وَبَيْوتَ الْعَرَبِ
بِالْجَهَازِ الَّتِي أَمَرَ الرَّبِّيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِمَا فِي غَرَّ وَاتِّهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا
بِيُوْتَالَسَنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقٍ دِينِيٍّ وَلَا يُلْتَفِتُ
إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَلْبَرِ عَنْهَا وَيَكْبِي فِي ذَاكَ مَا وَقَعَ فِي النَّوَارِيْخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ
فَعَلَيْهِ بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِسْجَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافريقيا والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَفْطَارَ كَانَتِ الْبَرْبَرِ مُنْذُ الْآفَافِ مِنَ السَّنِينِ قَبْلَ اِلْيَسْلَامِ
وَكَانَ عُمْرُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًا وَمَمْ تَسْتَعِرُ فِيهِمْ الْخِضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكِنَ أَخْرَاهَا وَالْأَدُولُ
الَّتِي مَلَكُوكُهُمْ مِنْ الْأَفْرِنْجِيَّةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطُلُ أَمْدَ مَلَكِكُهُمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْمَعَ الْخِضَارَةُ
مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَرَائِدُ الْبِداَوَةِ وَشُوْونَهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَفْرَبَ فَلَمْ تَكُنْ مَبَانِيَهُمْ وَأَيْضًا
فَالصَّنَائِعُ بَعِيلَةٌ عَنِ الْبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَغْرِقُ فِي الْبَدُو وَالصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْخِضَارَةِ وَإِنَّهَا
تَمَّ الْمُبَانِيَ بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْحَدَقِ فِي تَعْلِمَهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ الْبَرْبَرُ أَنْتَهَى لَمَّا لَمْ يَكُنْ
لَهُمْ تَشْوِقٌ إِلَى الْمُبَانِي فَضَلَّا عَنِ الْمَدُنِ وَأَيْضًا فَهُمْ أَهْلُ عَصَبَيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو
عَنْ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبَيَّةُ أَجْمَعُ إِلَى الْبَدُو وَإِنَّمَا بَدَعُوا إِلَى الْمَدُنِ
الْدُّنْيَا وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَتِهَا فَتَجِدُ أَهْلُ الْبَدُو لِذَلِكَ يَسْتَمْكِنُونَ
عَنْ سُكُونِ الْمَدِينَةِ أَوِ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُونَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا لِلْتَّرَفِ وَالْغَنَى وَقَلِيلُ مَا هُوَ
فِي النَّاسِ فَلَذِلِكَ كَانَ عُمْرَانَ أَفْرِيَقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيَا أَهْلَ خِيَامِهِ
وَظَوَاعِنَ وَقَبَاطِنَ وَكَنَّ فِي الْجَيَالِيِّ وَكَانَ عُمْرَانَ بِالْأَدِيِّ الْمَجَمِعَ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرَى

وأَمْصَارًا وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَهُصْرَ وَعِرَاقِ الْعَبَّاجِ وَامْثَالُهَا لِأَنَّ
الْعَبَّاجَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي مُرَاحَتِهَا وَالنَّجَامِهَا إِلَّا فِي الْأَقْلَلِ
وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُخْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُ فَتَكُونُ
عَصَبَيْتُهُ كَذَلِكَ وَتَزَعَّعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالنَّجَاجِيَّةِ عَنِ الْمُهْرِرِ الَّذِي يَذَهِبُ
بِالْبَسَالَةِ وَيُصَدِّرُهُ عَيْنَ الْأَعْلَى غَيْرِهِ فَإِنْ فَهَمْهُ وَفِسْنَ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها
والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْزَرِ بِعِينِهِ إِذَ الْعَرَبُ أَبْنَاءً أَعْرَقُ فِي الْبَدْوِ
وَأَبْعَدُ عَنِ الْمَصَانِعِ وَأَبْضَافُ كَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي أَسْتَولُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفِسُحْ الْأَمْدُ حَتَّى تَسْتَوِيَ رُسُومُ الْمُحْفَازَةِ مَعَ أَنْهُمْ أَسْتَغْنُوا بِهَا
وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضًا فَكَانَ الَّذِينَ أَوْلَ الْأَمْرِ مَانِعًا مِنَ الْمُعَالَةِ أَوِ الْبَنِيَانِ
وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَاهَدَ لَهُمْ عُمُرُو حِينَ أَسْنَادَنُوهُ فِي بَنَاءِ الْكُوفَةِ
بِالْمُجَاهَرَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْمُجَاهِرِيُّ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ أَفْعُلُوا وَلَا يَرِدَنَّ
أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّيَّاتٍ وَلَا تُطَالِوْ فِي الْبَنِيَانِ وَالزَّمُوْرَةِ تَلَزِّمْنَكُمُ الْدُّوْلَةُ وَعَاهَدَ إِلَيْيَ
أَنْ تُوفِّيَ وَتُقْدِمَ إِلَيَّ النَّاسَ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَانَنَا فَوْقَ الْقَدْرِ قَالُوا وَمَا الْقَدْرُ قَالَ لَا يُقْرِبُوكُمْ
مِنَ السَّرَّفِ وَلَا يُخْرِجُوكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالْمَدِينَ وَالْتَّعْرِجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَالْأَنْزَافِ وَاسْتَهْدَمَ الْعَرَبُ أَمَّةَ الْفُرْسِ وَأَخْذُوا عَنْهُمْ
الْمَصَانِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعْتُهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالَ الدَّعَةِ وَالْتَّرَفِ فَجَيَئْنِي شَيْدُوا الْمَبَانِيِّ وَالْمَصَانِعَ
وَكَانَ عَاهَدُ ذَلِكَ قَرِيبًا بِأَنْقِرَاضِ الْدُّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفِسُحْ الْأَمْدُ لِكَثْرَةِ الْبَنَاءِ وَأَخْتَطَاطِ
الْمَدِينَ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَمْمَةِ فَالْفُرْسُ طَائِتُ مُلْتَهِمْ أَلَّا فَآمَّا
مِنِ الْسِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقُبْطُ وَالْبَيْطُ وَالْرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأَوَّلَيْ مِنْ عَادَ وَثُورَ وَالْعَمَالِقَةِ
وَالْتَّبَاعَةِ طَائِتُ آمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ الصَّنَاعَةُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيَهُمْ وَهِيَأَكْلُهُمْ أَكْثَرَ
عَدَدًا وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثْرًا وَاسْتَبَرَزَ فِي هَذَا تَجَدُّهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطفها العرب يسرع إليها الضراب إلا في الأقل والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلما تكون المباني وثيقة في تشيدها وله والله أعلم وجده آخر وهو أمر شبه بذلك قوله مرعاً لهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمعزار والمراعي فإنه بالتفاوت في هذا تفاوت جودة المضرير ورذاته من حيث العمران الطبيعي والعربي يمتعز عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طيب أو بخبيث ولا فل أو كثرة ولا يسألون عن زكاء المعزار والمنابت والأهوية لأنهم في الأرض وتقليم الحبوب من البلد البعيد وأما الزراعة فما يختلف للهبات كلها والظعن كثيل لهم بطيئها لأن الزراعة إنما تحيث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وأنظر لما أخذتوا السكوفة والبصرة والقيرة وأن كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القرى ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامم في عمرها الناس قلائل وملأة من انحصار أمرهم وذهاب عصيتهم التي كانت سباجاً لها التي عليها الضراب والانحدار كلن لم تكن والله يحيطكم لا معقب لكم

الفصل العاشر

في مبادي الضراب في الامصار

إعلم أن الأمصار إذا أختطفت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة الآلات البناء من التحجر والجير وغيرهما مما يعالي على الجيغان عند النافق كالزلج والرخام والزنجب والزجاج والفسفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدوياناً ولا يتم فاسدة فإذا عظم عمران المدينة وكثرة ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثرت الصنائع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها فإذا تراجع عمرانها وخفت ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك وقدرت الإجاده في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنمية ثم نقل الأعمال لعدم المساكن فيقل جلب الآلات من التحجر والرخام وغيرهما

فَتُقْدِرُ وَيَصِيرُ بِنَوْهُمْ وَتُشَيِّدُهُمْ مِنَ الالاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعِهِ إِلَى مَصْنَعِ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقَلَةِ الْعُرْمَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوْلَامْ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارِ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمِلةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِداوةِ فِي الْبَنَاءِ وَأَتَخَادِ الْطُوبِ عَوْضًا عَنِ الْجَاهَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّسْمِيقِ بِالْكَلِيلِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقَرَى وَالْمَدَرِ وَتَنَظَّرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبِداوةِ ثُمَّ تَرُثُ فِي التَّنَافِصِ إِلَى غَایَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قُدِرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تقاضي الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تقاضي عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَبَيَّنَ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقْلٍ فَتَسْبِيلُهُ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمُرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةِ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشَدِّدُ ضَرُورَةُ الْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَالْقُوَّتُ مِنْ الْخَنْطَةِ مُثْلًا لَا يَسْتَقْلُ الْوَاحِدُ بِتَعْصِيلِ حِصْنِهِ مِنْهُ وَإِذَا أَنْتَدَبَ لِتَعْصِيلِ الْسَّنَةِ أَوِ الْقُنْتَرَةِ مِنْ حَدَادِ وَنَجَارِ الالاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحِصَادِ السَّبَيلِ وَسَائِرِ مُؤْمِنِ الْفَلْحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارُ مِنَ الْقُوَّتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ فُوتَ لِأَضْعَافِهِمْ مِرَكَاتِهِ فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْأَجْتِمَاعِ زَانِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْمَاكِطِينَ وَضَرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةِ أَوْ مَصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ أَكْتُفُ فِيهَا بِالْأَقْلَلِ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَانِدَةٌ عَلَى الْفَرُورَاتِ فَتُصْرِفُ فِي حَالَاتِ الْتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَعْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ بِأَغْوَاضِهِ وَقِيمَهُ فَيَكُونُ لَهُمْ بِنِلَكَ حَظٌ مِنِ الْفَنِي وَقَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الْأَخِمِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَأَلْرَزِقِ أَنَّ الْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيمُ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيمُهَا يَنْهِمُ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبِهِمْ ضَرُورَةُ وَدَعْتُهُمْ بِحَوَالِ الْأَرْفَهِ وَالْفَنِي إِلَى الْتَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنِ النَّانِقِ فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَلَائِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآتِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَأَتَخَادِ الْحَدَمِ وَالْعَرَاقِبِ وَهُنْدِيَّ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدِعُ بِقِيمَهَا وَيَخَارِدُ الْعَرَرَةِ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا فَتَنْقُقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَاعَةِ وَيَمْكُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ

وَخَرْجُهُ وَيَحْصُلُ الْيَسَارُ لِنُتَحْلِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِمْ وَمَتَى زَادَ الْعُمْرَانُ زَادَتِ الْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ التَّرَفُ ثَانِيَةً لِلْكَسْبِ وَزَادَتِ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ وَأَسْتَبَطَ الصَّنَاعَةُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيمَهَا وَنَضَاعَتْ الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ الْأَعْمَالَ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَكَذَا فِي الْزِيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الْزَائِدَةَ كُلُّهَا تَخْصُّ بِالْتَّرَفِ وَالْغَنِيِّ بِمُخْلَافِ الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ فَالْمِصْرُ إِذَا فَضُلَّ بِعُمْرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضَلَ بِزِيَادَةِ كَسْبِ وَرْفِهِ بِعَوَائِدِهِ مِنَ التَّرَفِ لَا تُوجَدُ فِي الْآخِرِ فَمَا كَانَ عُمْرَانُ مِنَ الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرَفِ أَبْلَغُ مِنْ حَالِ الْمِصْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ الْقَاهِيِّ مَعَ الْقَاهِيِّ وَالْتَّاجِرِ مَعَ الْتَّاجِرِ وَالصَّانِعِ مَعَ الصَّانِعِ وَالْسُوقِيِّ مَعَ السُوقِ وَالْأَمْيَرِ مَعَ الْأَمْيَرِ وَالشَّرَطِيِّ مَعَ الشَّرَطِيِّ # وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مُثَلًا بِحَالِ فَاسَّ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مُثِلًا بِجَاهَةِ وَتَلْمُسَانَ وَسَبَّتَهُ تَجْهِيدُ يَنْهَمَا بَوْنَا كَشِيرًا عَلَى الْجَمْلَةِ ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاهِيِّ بِفَاسَّ أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاهِيِّ بِتَلْمُسَانَ وَهُكْمَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تَلْمُسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوْ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنَّ تَشَتَّتَهُ إِلَى الْمَدَرِ الَّذِينَ أَعْتَمَالُهُمْ فِي ضَرُورَيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فَقَطْ وَيُقْسِرُونَ عَنْهَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِتَنَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا كَلَّهَا كَلَّهَا أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالْخُرُجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى نَسَبَتِهِ فَالْقَاهِيِّ بِفَاسَّ دَخْلُهُ كَفَاهُ خَرْجُهُ وَكَذَا الْقَاهِيِّ بِتَلْمُسَانَ وَحِينَ الدُّخُلُ وَالْخُرُجُ أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمُ وَهُمَا بِفَاسَّ أَكْثَرُ لِنَفَاقِ سُوقِ الْأَعْمَالِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْتَّرَفُ فَالْأَحْوَالُ أَضْخَمُ وَثُمَّ كَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَفُسْنَطِينِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ وَيَسْكَرَةَ حَتَّى تَشَعَّ كَمَا قُلْنَاهُ إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُؤْتَيِّ أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا وَلَا تَعْدُ فِي الْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبْلِ الْقُرْسِيِّ وَالْمَدَرِ فَلِذَلِكَ تَجْدِيدُ أَهْلِهِ الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ ضُعْفَاءُ الْأَحْوَالِ مُتَقَارِبُينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخَصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَقْيَي بِضَرُورَاتِهِمْ وَلَا يَنْفَضُّ مَا يَتَأَلَّوْنَهُ كَسْبًا فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ وَعُمْ لِذَلِكَ مَسَاكِينُ مُخَاوِيجٌ إِلَّا فِي الْأَقْلَى النَّادِرِ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ حَتَّى فِي الْأَحْوَالِ الْفَقْرَاءِ وَالْسُؤَالِ فَإِنَّ السَّائِلَ بِفَاسَّ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ السَّائِلِ بِتَلْمُسَانَ أَوْ وَهْرَانَ وَلَقَدْ شَاهَدَتْ بِفَاسَّ السُّؤَالَ يَسَّاً لَوْنَ أَيَامَ الْأَضَاحِيِّ أَثْمَانَ ضَحَّاً يَأْهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسَّالُونَ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْوَالِ الْتَّرَفِ وَاقْتِرَاحِ الْمَآكِيلِ مِثْلَ سُؤَالِ الْعُمْرِ وَالسُّمْنِ

وعِلَاجِ الْعَنْجَنِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونَ كَالْفَرِبَالِ وَالْأَنَيَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا
يَتَلَمَّسَانَ أَوْ رَهْرَانَ لَأَسْتَهِنَ كِيرَ وَعِنْفَ وَزُجَرَ وَيَنْغُنا لِهَذَا الْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ
وَمَصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْغَنِيَّ فِي عَوَانِدِهِمْ مَا يُقْضِي مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفَقَرَاءِ
بِالْمَغْرِبِ يَنْزَعُونَ مِنَ الثِّقْلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذَلِكَ وَلِمَا يَلْفِهِمْ مِنْ أَنَّ شَانَ الْرِّفَهِ بِمِصْرَ
أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ الْعَامَةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ إِيَّاشَارِ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ
عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالِ مُخْتَزَنَةِ لِدِيهِمْ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً وَإِيَّاشَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ مَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمْرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ
عُمْرَانَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمْتَ لِذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ . وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالْخُرُجِ
فَمُتَكَافِئٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَمَقْعِدُ عَظُمِ الدَّخْلِ عَظُمُ الْخُرُجِ وَبِالْعَكْسِ وَمَقْعِدُ عَظُمِ
الْدَّخْلِ وَالْخُرُجِ أَتَسْعَتْ أَحْوَالُ الْأَسَاكِنِ وَوَسَعَ الْمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يَلْفُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا
فَلَا تُشْكِرْهُ وَأَعْتَبِرْهُ بِكَثِيرَةِ الْعُمْرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثِيرَةِ الْمُسْكَاسِبَةِ الَّتِي
يَسْهُلُ يَسِيبَهَا الْبَذْلُ وَالْإِيَّاشُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمَثَلُهُ بِشَانِ الْحَيَّانَاتِ الْعَجَمِ مَعَ يَوْتِ الْمَدِينَةِ
الْوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَانُ أَحْوَالَنَا فِي هَجْرَانِهَا أَوْ غَشِيَانِهَا فَإِنَّ يَوْتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرَوَةِ
وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيبَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحِتَهَا وَأَفْيَشَهَا بِنَثَرِ الْحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ الْفَتَاتِ فَيَزِدَ حِمْ
عَلَيْهَا غَوَاثِي الْتَّمْلِ وَالْخِشَاشِ وَيَلْتَحُ فَوْقَهَا عَصَابُ الْطَّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَانًا وَتَنَاهِي شَبَعًا
وَرِيَا وَيَوْتُ أَهْلِ الْخَصَاصَةِ وَالْفَقَرَاءِ الْكَامِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحِتَهَا دَيْبُ وَلَا
يَمْلِقُ بِجَوَاهِرَهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَابِي يَوْتِهِمْ فَأَرَاهُ وَلَا هَرَهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
تَسْقُطُ الْطَّيْرُ وَحِيتُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ مَ وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكَرْمَاءِ

فَتَأْمَلْ مِسْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَأَعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْأَنَاسِيَّ بِغَاشِيَةِ الْعَجَمِ مِنَ الْحَيَّانَاتِ وَفَتَاتِ
الْمَوَائِدِ بِفَضَلَاتِ الْرِّزْقِ وَالْتَّرَفِ وَمَهْوَلَتَهَا عَلَى مَنْ يَنْدَلُهَا لِأَسْتِغْنَاهُمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ
لِوُجُودِ أَمْثَالِهَا لَدِيهِمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ اتِسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثِيرَةَ النِّعَمِ فِي الْعُمْرَانِ تَابِعٌ لِكَثِيرِهِ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمَيْنِ

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

أَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلُّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَنَهَا الْفَرُورِيُّ وَهِيَ الْأَقْوَاتُ

من الخطيئة وما في معناها كلباقلاد والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكمالي مثل adam والفواكه الملابس والمعاعون والمراتك وسائر المصانع والمباني فإذا است Berger المضر وكثير ساكنة رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وغات أسعار الكمالى من adam والفواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المضر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس . والسبب في ذلك أن التجوب من فروعات القوت فلتوفى الدواعي على اتخاذها إذ كل أحد لا يهتم قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل مصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المضر أو فيها قرب منه لا بد من ذلك وكل متعدد لقوته تتفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المضر تتفضل الآقواء عن أهل المضر بغير شك قدر شخص أو سعرها في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفاس السماوية ولن لا اختيار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبدلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها يكتنفها العمران . وأما سائر المرافق من adam والفواكه وما إليها فإنها لا تم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل مصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم إن المضر إذا كان مست Bergerاً موقعاً العمران كثيرة حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستثناء منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغاً ويكتنف المستأمون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض وبذل أهل الزفة والترف أثمانها بسراف في الغلاء لحتاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه . وأما الصناع والأعمال أيضاً في الآثار الموقعة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في مصر يكتنف عمرانه والثاني اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وأمتهان تقسيم سهولة المعاش في المدينة يكتنفها أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومناسبة في الاستئثار بها فيعزز العمالة والصناعة وأهل المحرف وتغلب أعمالهم وتكتنف نفقات أهل مصر في ذلك . وأما الآثار الصغيرة والقليلة الساكن فآقواتها قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه بصغر مصرهم من عدم القوت

فيتمسّكُونَ بِمَا يَحْسُلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَيَخْتَرُونَهُ فَيُعَزِّزُ وِجْدَهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُبُ ثَمَنَهُ عَلَى مُسْتَامِهِ وَأَمَّا مُرْأَفِقِهِمْ فَلَا تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةً بِقَلْةِ الْسَّاكِنِ وَضُعْفِ الْأَفْوَالِ فَلَا تَنْفُقُ لَدَيْهِمْ سُوقَةً فَيَخْتَصُّ بِالرُّخْصِ فِي سِعْرِهِ وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيمَةِ الْأَفْوَاتِ قِيمَةً مَا يَعْرِضُ عَلَيْهَا مِنَ الْمُكْوُسِ وَالْمَغَارِمِ لِلْسَّاطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا عَنِ الْبَيْعَاتِ لِمَا يَمْسِهِمْ وَبِذَلِكَ كَانَتِ الْأَسْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ أَغْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَادِيَةِ إِذِ الْمُكْوُسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَكَثُرَتْهُ فِي الْأَمْصَارِ لَا سِيَّماً فِي آخِرِ الدُّولَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيمَةِ الْأَفْوَاتِ قِيمَةً عَلَاجِهَا فِي الْأَرْضِ وَيَحْفَظُ عَلَى ذَلِكَ فِي اسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِمَا الْجَاهُمُ الْنَّصَارَى إِلَى سِيفِ الْأَنْجَرِ وَبِالْأَدَهِ الْمُتَوَعِّرِ الْخَلِيلَةِ الْزَّارِعَةِ الْنَّكِيدَةِ النَّبَاتِ وَمَلَكُوكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الْأَرَازِيقَيَّةَ وَالْبَلَدَ الْطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلاجِ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ لِإِصْلَاحِ نِيَابِهَا وَفَلَحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيمَهُ وَمَوَادِيْهِ مِنَ الْزَّبَلِ وَغَيْرِهِ لَهَا مَؤْنَةً وَصَارَتِ فِي فَلْحِهِمْ نَفَقَاتٌ لَهَا خَطَّارٌ فَاعْتَبِرُوهَا فِي سِعْرِهِمْ وَأَخْتُصُّ فُطْرُ الْأَنْدَلُسِ بِالْفَلَاءِ مِنْذُ أَضْطَرَهُمُ الْنَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ سَوَاحِلِهَا لِلْأَجْلِ ذَلِكَ وَيَخْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِغَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي فُطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقْلَةُ الْأَفْوَاتِ وَالْجُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَقْمُورِ فَلَحَّا فِيهِمَا عَلَمَنَاهُ وَأَفْوَاهُهُمْ عَلَيْهِ وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةً عَنْ فَدَانٍ أَوْ مَزَرَعَةٍ أَوْ فَلْحَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ أَوْ الْطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغَزَاهِ الْمُجَاهِدِينَ وَلِهَذَا يَخْتَصُّهُمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعَوْلَةِ وَهِيَ أَفْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الْأَرْزِعِ وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْجُبُوبِ عِنْهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاءِ مَنَابِيَّهُمْ وَطَبِيبِ أَرْضِهِمْ أَرْتَقَتْ عَنْهُمُ الْمُؤْنَ جُمْلَةً فِي الْفَلْحِ مَعَ كَثُرَتِهِ وَسُعْمُوتِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَفْوَاتِ يَلْدِهِمْ وَأَنَّهُ مُقْدَرُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لِأَرْبَعِ سِوَاهُ

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البايدية عن سكنى مصر الكبير العمران
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعِصْرَ الْكَبِيرَ الْعَمْرَانِ يَكْثُرُ تَرَفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَتَكْثُرُ

حاجات ساكنة من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعوا إليها فتشغل بضرورات وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزبة والمرافق غالبة بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف وبالنفارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبائعات وتعبر في قيم القيمة ويعظم فيها الفلاحة في المرافق والأوقات والأعمال فكثيراً لذلك نفقات ساكنة كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤونتهم والبدوي لم يكن دخله كثيراً ساكنة بسكنى كاسيد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثر كسباً ولا مالاً فيتدبر عليه من أجل ذلك سكنت مصر الكبير لفلاة مرافقه وعزبة حاجاته وهو في بدوي يسد دخله بأقل الأعمال لأن قليل عوائد الترف في معاشيه وسائر مؤونته فلا يضطر إلى المال وكل من يتصرف إلى مصر وسكناه من البادية فسريراً ما يظهر عجزه ويقتضي في أسيطانية إلا من يقدّم منهم تأثر المال ويعمل له منه فوق الحاجة وينتزع إلى الغاية الطبيعية لأهل عمران من الدعة والترف فينتزع ينتقل إلى مصر ويشتمل حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفه وعندما شاء بدأه عمران الأمصار والله بكل شيء يحيط

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

اعلم أنَّ ما توفر عمرانه من الأقطار وتعدد الأمور في جهاته وكثير ساكنة اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولتهم ومصالحهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما سماه ذكره من أنها سبب للرزقة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار عمرانه وكثريه فيعود على الناس كسباً بينما ثلوته حسبما ذكر ذلك في فضل المعاش وبيان الرزق والكسب فيزيد الرفه لذلك وتشبع الأحوال ويسحب الضرف والغنى وكثير الجباية للدولة بفاق الأسواق فيكتسب مالها وتشبع سلطانها وتشعن في انتهاز المعاشر والخضون واحتطاط المدن وتشديد الأمصار واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام و العراق والجم و الهند والصين وباحية الشمال كلها

وَأَقْطَارُهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ الْرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ
 دُولَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَخَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَخْوَاهُمْ فَالَّذِي نُشَاهِدُهُ
 هَذَا الْعَهْدُ مِنْ أَخْوَالِ تِجَارِ الْأَمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي
 رِفَاهِهِمْ وَأَنْسَاعِهِمْ أَخْوَاهُمْ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَنْ يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ وَكَذَا تِجَارُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
 الْأَفْصَى مِنْ عَرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالْأَصْنَافِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغَنِيِّ وَالرِّفِيقِ
 تَسْبِيرِ الْأَرْبَكَانِ بِمَحِيدِشِهَا وَرَبِّمَا تَتَلَقَّى بِالْأَنْسَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ وَيَحْسُبُ مَنْ يَسْهُلُهَا مِنْ
 الْعَامَةِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَادَةٌ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لَأَنَّ الْمَعَادِنَ الْذَّهَبِيَّةِ وَالْأَفْضِلَةِ أَدْثَرُ بِأَرْزَاقِهِمْ
 أَذْلَانُ ذَهَبِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأَمَمِ أَسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ فَمُعَدِّنُ
 الْذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَقْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ
 أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْعَلُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ
 كَانَ الْمَالُ عَتِيدًا مَوْفُورًا لِيَدِهِمْ لَمَّا جَاءُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهِمْ يَسْتَغُونَ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا
 أَسْتَغْنَوْانَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْجَمْلَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُنْجَمُونَ لِمَارًا وَأَمْثَلَ ذَلِكَ وَآتَتْهُمْ
 مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَخْوَالِ وَأَنْسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهِمْ قَالُوا يَا كَوَا كِبِ
 وَالسِّهَامِ فِي مَوَالِيِّ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُهُمْ مِنْهَا حَصَصًا فِي مَوَالِيِّ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ
 صَحِيقٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَخْكَامِ الْجُوْمِيَّةِ وَالْأَخْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمِمْ
 إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ الْجُوْمِيِّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ بُعْطُوا السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا
 ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعُمْرَانِ وَأَخْتَصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ
 لِفِيدُ كَثْرَةَ الْسَّبَبِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِي سَبِيلُهُ فَلِذَلِكَ أَخْتُصُ الْمَشْرِقُ بِالرِّفِيقِ
 مِنْ بَيْنِ الْأَفَاقِ لَا إِنَّ ذَلِكَ لِيُجِرِّدُ الْأَثْرَ الْجُوْمِيَّ فَقَدْ فَهِمَتْ مَا أَشْرَنَا لَكَ أَرَلَا أَنَّهُ
 لَا يَسْتَقِلُ بِذَلِكَ وَإِنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمْرَانِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا يُدْرِكُ مِنْهُ
 وَأَعْتَبِرُ حَالَ هَذَا الْرِّفِيقِ مِنَ الْعُمْرَانِ فِي قُطْرِيِّ الْفَرِيقِيَّةِ وَبَرْقَةَ لَمَّا خَفَ سَكَنُهَا وَتَنَاهَى
 عُمْرَانُهَا كَيْفَ تَلَأَشَتْ أَخْوَالُ أَهْلِهَا وَأَنْتَهُوا إِلَى الْفَقْرِ وَأَخْلَاصَاهُ وَضَعَفَتْ جِبَابَاتُهَا
 فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دُوَلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دُولَ الشِّيَعَةِ وَصَنَّابَاجَهَهُ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنْ الْرِّفِيقِ
 وَكَثْرَةِ الْجَبَابَاتِ وَأَنْسَاعِ الْأَخْوَالِ فِي تَفَقَّدِهِمْ وَأَعْطَيَاهُمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ
 تُرْفَعُ مِنَ الْقَيْرَ وَإِنِّي صَاحِبُ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمِهْمَانِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدُّوَلَةِ يَحْبَثُ حَلَّ

جَوَهْرُ الْكَاتِبُ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَفْجَمِلِ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعْدِدُ بِهَا لِأَرْزَاقِ
الْجِنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِ الْغُزَّةِ وَقُطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ
فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَخْوَالُهُ فِي دُولِ الْمُوْحَدِينَ مُتَسْعَةً وَجِبَائِيَّةً مَوْفَوْرَةً
وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَفْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمْرَانِ فِيهِ وَنَافِصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمْرَانِ
الْبَرِّيَّ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْهُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مَحْسُوسًا وَكَادَ أَنْ يَلْعَقَ فِي أَخْوَالِهِ
بِمَثِيلِ أَخْوَالِ أَفْرِيقِيَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمْرَالُهُ مُتَصَلِّدًا مِنَ الْبَعْرِ أَرْثُومِيِّ إِلَى بِلَادِ
الْسَّوْدَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَنْصَى وَرَفَقَةً وَهِيَ الْيَوْمَ كَلَّاهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارَةً
وَخَلَاءً وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا يُسَيِّفُ الْبَحْرَ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ الْتَّلُولِ وَاللهُ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تأثير العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعْلَمُ أَنَّ تَأْثِيرَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ الْكَثِيرَةَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً
وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لَأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْتَّرْوِيدِ مَا يَمْلِكُ بِهِ الْأَمْلَاكُ
الَّتِي تَخْرُجُ فِي مَقِيمَتِهَا عَنِ الْحَدَّ وَلَوْ بَلَّتْ أَخْوَالُهُمْ فِي الْرِّفِّ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ
مُلْكُهُمْ وَتَأْثِيرُهُمْ لَهَا تَذَرِّيجًا إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَدَوْرِي رَحِيمِهِ حَتَّى تَنَادِي أَمْلَاكُ
الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذَلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحِوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعَقَارَ
فِي آخِرِ الدُّولَةِ وَأَوَّلِ الْآخِرِيَّ عنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَّةِ وَخَرْقِ الْبَيْكَاجِ وَتَدَاعِيَ الْحِصْرِ إِلَى
الْخَرَابِ تَقْلُلُ الْغَبِطَةُ بِهِ لِقَلَّةِ الْمَنَنَةِ فِيهَا بِتَلَاصِي الْأَخْوَالِ فَتَرْخُصُ فِيمَهَا وَتَسْهِلُكُ
بِالْأَثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتُتَخَطِّي بِالْمِيرَاثِ إِلَى مُلْكِ آخَرِ وَقَدْ أَسْبَجَ أَنْمِضُرُ شَبَابَهُ بِاسْتِئْنَاحِ
الْدُّولَةِ الثَّانِيَّةِ وَأَنْتَظَمَتْ لَهُ أَخْوَالُ رَائِقَةٍ حَسَنَةٍ تَحْصُلُ مَعَهَا الْغَبِطَةُ فِي الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ
لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيمَهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ وَهَذَا مَعْنَى أَخْوَالَهُ
فِيهَا وَيُصْبِحُ مَا لِكَهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلَ الْعِصْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ يُسْعِيهِ وَأَكْنِسَاهُ إِذْ قَدْرَتْهُ
تَعْجِيزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَّةٍ لِمَا لِكَهَا فِي حَاجَاتِ
مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَنِي بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْغَالِبِ لِسُوءِ الْخَلْقِ وَضَرُورَةِ
الْمَعَاشِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مَشِيقَةِ الْبَلْدَانِ أَنَّ الْقَصْدَ بِاقْتِنَاءِ الْمُلْكِ مِنَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ الْخَشِيَّةُ عَلَى مَنْ يَتَرُكُ خَلْفَهُ مِنَ النَّزِيْهَ الْفُضُلَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُ بِهِ وَرِزْقُهُ
فِيهِ وَشُوْفُومْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْأَكْنِسَابِ فَإِذَا أَفْتَدَرُوا عَلَى تَعْصِيمِ
الْمَكَابِسِ سَعَوْا فِيهَا يَا نَفْسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْوُلْدِ مَنْ يَغْيِرُ عَنِ الْتَّكَبُّ لِلْفُضُلَ
فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةً فِي عَقْلِهِ الْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَارُ قِوَاماً لِحَالِهِ هَذَا قَصْدُ الْمُتَرْفِيْزِ
فِي أَفْتِنَائِهِ وَمَا الْتَّمَوْلُ مِنْهُ وَإِجْرَاهُ أَخْوَالُ الْمُتَرْفِيْنَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ
أَوِ النَّادِرِ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ الْكَثِيرِ الْبَالِغَةِ مِنْهُ وَالْعَالِيِّ فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ
فِي الْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا أَمْتَدَتِ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْأَمْرَاءِ وَالْوُلَاةِ وَأَغْتَصَبُوهُ
فِي الْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى يَمِينِهِمْ وَنَالَتْ أَمْخَابَهُ مِنْهُ مَضَارُ وَمَعَاطِبُ وَاللَّهُ غَالِبٌ
عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ

الفصل السادس عشر

فِي حَاجَاتِ الْمُتَوَلِّينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَى الْجَاهِ وَالْمَدَافِعَةِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضْرَى إِذَا عَظَمَ تَمَوْلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَالْفِتَنَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنِيَ
أَهْلَ الْمِصْرِ وَرَمْقَتُهُ الْعَيْنُ بِذَلِكَ وَأَنْسَسَتْ أَخْوَالَهُ فِي الْتَّرَفِ وَالْعَوَانِدِ زَاحِمٌ عَلَيْهَا
الْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ وَغَصَّوْا بِهِ وَلَمَّا فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعَدْوَانِ تَمَدَّدَ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ
مَا يَيْدُهُ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يَعْصِلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمِهِ
سُلْطَانِيِّ وَسَبَبَ مِنَ الْمُؤَاخِذَةِ ظَاهِرٌ يَنْتَزَعُ بِهِ مَالَهُ وَأَكْثَرُ الْأَحْكَامِ الْسُّلْطَانِيَّةِ
جَائِرَةٌ فِي الْغَالِبِ إِذَ الْعَدْلُ الْمُعْتَضِنُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخَلَافَةِ الشَّرِعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ الْأَبْثَاثِ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَصُوضًا فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ
لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالثَّرَوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَّةِ تَدُودُ عَنْهُ وَجَاهِ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ
مِنْ ذِي قَرَابَةِ الْمُلُكِ أَوْ خَالِصَةِ لَهُ أَوْ عَصَبَيَّةِ يَتَحَمَّمَهَا أَسْلَطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظَلَّاهَا وَيَرْتَعُ
فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ الْعَدَدِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ تَهْبَأً بِوُجُوهِ الْتَّخِيلَاتِ
وَأَسْبَابِ الْحُكْمَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

فِي أَنَّ الْخِضَارَةَ فِي الْأَمْصَارِ مِنْ قَبْلِ الدُّولِ وَإِنَّهَا تَرْسِخُ بِانْصَالِ الدُّولَةِ وَرَسوْخَهَا
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْخِضَارَةَ هِيَ أَخْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الْفَضُورِيِّ مِنْ أَخْوَالٍ

الْعُمْرَانِ زِيَادَةً تَفَاوْتُ الرِّفْهِ وَتَفَاوْتُ الْأَمْمَ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ تَفَاوْتًا غَيْرَ
 مُنْحَصِّرٍ وَلَقَعَ فِيهَا عِنْدَ كُثْرَةِ التَّفْنِينِ فِي أَنْواعِهَا وَأَصْنافِهَا فَتَكُونُ بِمُتْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ
 وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهْرَةِ فِيهِ وَبِقَدَرِ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنافِهَا
 يَتَزَيَّدُ أَهْلُ صَنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجَلِيلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَبَامُ وَتَعَاقَبَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ
 حَذْقَ أَوْ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ فِي صَنَاعَتِهِمْ وَمَهْرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْصَارِ يَطْلُولُهَا وَأَنْسَاحُ أَمْدِهَا
 وَتَكْرِيرُ أَمْثَالِهَا تَزَيَّدُهَا أَسْخَنَ كَامَا وَرُسُوخًا وَكُثْرَةً مَا يَقْعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْسَاكِ لِأَسْتِيجَارِ
 الْعُمْرَانِ وَكَثْرَةِ الْرِّفْهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنْمَا يَعْنِي مِنْ قِبَلِ الدُّوَلَةِ لَأَنَّ الدُّوَلَةَ
 تَجْمَعُ أَمْوَالَ الْرِّعَيَاةِ وَتَنْفِقُهَا فِي بِطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَسْعِ أَخْوَالَهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنْ
 اتِّساعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنْ الْرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدُّوَلَةِ ثُمَّ فِي
 مَنْ تَعْلَقُ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمْ أَكْثَرُ تَقْعُظٍ لِذَلِكَ شَرْقُهُمْ وَبَكْثُرُ غَنَامُهُمْ وَتَزَيَّدُ
 عَوَادِدُ الْتَّرَفِ وَمَدَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكُمُ لِدِيْهِمُ الصَّنَاعَةُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهُدُوْهُ فِي الْخِضَارَةِ
 وَلِهَذَا تَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَ مَوْفُورَةً الْعُمْرَانِ تَغَلِّبُ عَلَيْهَا أَخْوَالُ الْبَداوةِ
 وَتَبْعُدُ عَنِ الْخِضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي هِي
 مَرْكُزُ الدُّوَلَةِ وَمَقْرَبُهَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمُجَاوِرَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَقَبْضُ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَالْمَاءِ
 يَخْضُرُ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى الْجَهْوَفِ عَلَى الْبُعدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا
 أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدُّوَلَةَ سُوقُ الْعَالَمِ فَالْبَصَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا
 أُبْعِدَتْ عَنِ السُّوقِ أُفْتَقِدَتِ الْبَصَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتِ تِلْكَ الدُّوَلَةِ وَتَعَاقَبَ
 مُلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدًا أَسْخَنَكَمْتِ الْخِضَارَةَ فِيهِمْ وَزَادَتِ رُسُوخًا
 وَأَعْتَرَ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ يَا الشَّامِ نَحَوَّا مِنَ الْفِيَّ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنةٍ وَسَخَّنَ
 حَسَّارُهُمْ وَحَذَّقُوا فِي أَخْوَالِ الْمَعَاشِ وَعَوَادِدِهِ وَالْتَّفْنِينِ فِي صَنَاعَاتِهِ مِنْ الْأَطَاعِيمِ
 وَالْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَخْوَالِ الْمُتَنَزِّلِ حَتَّى إِنَّهَا تَؤْخُذُ عَنْهُمْ فِي الْفَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ وَرَسَخَتِ
 الْخِضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَادِدُهَا فِي الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دُوَلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتَّمِائَةَ سَنةٍ فَكَانُوا
 فِي غَايَةِ الْخِضَارَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْقَبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي الْخَلَبِقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافِ مِنَ السِّنِينِ
 فَرَسَخَتِ عَوَادِدُ الْخِضَارَةِ فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبُهُمْ بِهَا مُلْكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ
 الْإِسْلَامِ الْأَنَّاسِ الْكُلُّ فَلَمْ تَزَلِ عَوَادِدُ الْخِضَارَةِ بِهَا مَتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتِ

عوائدهُ الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهده العمالقة والتابعة الآفًا
 من السنين وأعقبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس
 بها من لدن الكلدانين والكيانية والكسرمية والعرب بعدهم آلافاً من السنين فلم
 يكن على وجه الأرض لهنَا العهد أخضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضًا
 رسخت عوائده الحضارة واستحکمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها القوط
 ثم ما أعقبها من ملك بنى أمية آفافاً من السنين وكلتا الدولتين عظيمتان فاتصات فيها
 عوائده الحضارة واستحکمت وأماماً إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام
 ملك ضخم وإنما قطع الإفرنجية إلى إفريقية البحر ومملكتها الساحل وكانت طامة
 البربر أهل الصحراء لهم طامة غير مستحکمة فكانوا على قلعة وأفاز وأهل المغرب
 لم يتجاوزهم دولة وإنما كانوا يعيشون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء
 الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب لم يثبت فيهم ملك العرب إلا قليلاً
 أول الإسلام وكانوا بذلك العهد في طور البداءة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب
 لم يبعد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه إذ كانوا برابر منقسمين في البداءة
 ثم انقضى برابرة المغرب الأقصى لاقرب العهد على يد ميسرة المطوري أيام هشام
 ابن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا
 لأدريس فلا تعد دولاته فيهم عربية لأن البربر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب
 فيها كثیر عدد وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة
 بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعمته وكثرة عمران القبور وإن وردت
 ذلك عنهم كتمة ثم صنهاجة من بعدهم وكذلك كله قليل لم يبلغ أربعين سنة
 وانتصرت دولتهم واستحالـت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحکمة وتغلبـ
 بدؤ العرب الهماليين عليها وخرّوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها وإلى هنا
 العهد يومن سلف له بآقامعة أو القبور وإن أو المهدية سلف فتحده له من الحضارة
 في شؤون منزله وعوائده أحواله آثاراً متيسة يغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذلك
 في أكثر أنصار إفريقية وأليس كذلك في المغرب وأنصاره لوضع الدولة بأفريقية
 أكثر مما منذ عهـد الأغالبة والشيعة وصنهاجة وما للمغرب فانتقل إليه مندولة

الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخِضَارَةِ وَأَسْتَخَكَمَتْ بِهِ عَوَانِهَا بِمَا كَانَ لِدَوَانِهِمْ مِنَ الْأَسْنَى لِأَدَعَ الْأَنْدَلُسِ وَأَنْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا وَكُرْهًا وَكَانَتْ مِنْ اَتِساعِ النُّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌ صَالِحٌ مِنَ الْخِضَارَةِ وَأَسْنَخَ كَامِهَا وَمُعْظَمَهَا مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ أَنْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَّةِ الْنَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْخِضَارَةِ آثَارًا وَمُعْظَمَهَا يَتُونِسَ أَمْتَزَجَتْ بِخِضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ الْمُسَافِرُونَ مِنْ عَوَانِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ حَظٌ صَالِحٌ مِنَ الْخِضَارَةِ عَنِيهِ أَخْلَاهُ وَرَجَعَ إِلَى أَعْقَابِهِ وَعَادَ الْبَرَّ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ الْبَدَائِرِ وَالْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَآثَارُ الْخِضَارَةِ يَأْفِرِيقِيَّةَ أَكْثَرُهُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ إِنَّدَاؤُلَّ فِيهَا مِنَ الدُّولَ الْسَّالِفَةِ أَكْثَرُهُ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْقُرْبِ عَوَانِهِمْ مِنْ عَوَانِهِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثِيرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بِيَنْهُمْ . فَتَفَطَّنَ لِهُنَا السَّيْرُ فَإِنَّهُ خَفِيٌّ عَنِ النَّاسِ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبةٌ وَهِيَ حَالُ الدُّولَةِ فِي الْقُوَّةِ وَالْأَضْعَفِ وَكَثِيرَةُ الْأَمَةِ أَوِ الْجَيْلِ وَعِظِيمُ الْمَدِينَةِ أَوِ الْمَهْرِ وَكَثِيرَةُ النِّعَمَةِ وَالْبَسَارِ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّولَةَ وَالْمُلَكَ صُرُورَةُ الْخَلَقَةِ وَالْعُمْرَانِ وَكُلُّهَا مَادَةٌ لِهَامِنَ الرَّعَایَا وَالْأَمْصَارِ وَسَائرُ الْأَخْرَالِ وَأَمْوَالُ الْجِبَابَيَّةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي الْخَالِبِ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَإِذَا أَفَاضَ السُّلطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا أَنْبَثَتْ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ فَهِيَ ذَاهِيَّةٌ عَنْهُمْ فِي الْجِبَابَيَّةِ وَالْخَرَاجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدُّولَةِ يَكُونُ يَسَارُ الرَّعَایَا وَعَلَى نِسْبَةِ يَسَارِ الرَّعَایَا وَكَثِيرَهُمْ يَكُونُ مَالُ الدُّولَةِ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ الْعُمْرَانُ وَكَثِيرَتُهُ فَأَعْتَيْنَاهُ وَتَامَّلَهُ فِي الدُّولَ تَمَدِّدُهُ وَأَنَّهُ يَعْكُمُ وَلَا يَعْقِبَ لِحَكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان الخضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها موذنة بفساده قد يَبَأَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمُلَكَ وَالْدُولَةَ غَايَةُ الْعَصَبَيَّةِ وَأَنَّ الْخِضَارَةَ غَايَةُ الْبَدَائِرِ وَأَنَّ الْعُمْرَانَ كُلُّهُ مِنْ بِدَائِرَةِ وَخِضَارَةِ وَمُلَكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمُرٌ مُعْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِينَ اشْخَاصَ الْمُكَوَّنَاتِ عُمُرًا مَحْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعَيْنَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَادِ قُوَّاهُ وَنَمُوَّهَا وَإِنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ الْأَرْبَعَيْنَ وَقَفَتْ الْطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ الشُّوُعِ وَالشُّعُوْرِ بُرْهَةً ثُمَّ نَأَخْذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَنْحِطَاطِيِّ فَلَتَعْلَمُ أَنَّ الْخِضَارَةَ فِي الْعُمْرَانِ أَبْضَأَ

كذلك لأنَّه غَايَةٌ لَا مَرْيَدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْتَّرَفَ وَالنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَا لِأَهْلِ الْعُمْرَانَ دَعَاهُمْ بِطَبَعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ الْحِضَارَةِ وَالْتَّخَاقِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحِضَارَةُ كَمَا عَلِمْتُ فِي الْتَّقْنِينِ فِي الْتَّرَفِ وَاسْتِجَادَةِ أَخْوَالِهِ وَالْكَلَفِ بِالصَّنَاعَةِ الَّتِي تُؤْتَقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ مِنَ الصَّنَاعَةِ الْمُهِنَّةِ لِلْمَطَابِغِ أَوِ الْسَّلَاسِيِّ أَوِ الْمَبَانِيِّ أَوِ الْفُرْشِ أَوِ الْآثَارِ وَسَائِرِ أَخْوَالِ الْمَتَزِلِ وَالْتَّانِقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَاعَاتِ كَثِيرَةٍ لَا يُعْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبِداَةِ وَعَدَمِ الْتَّانِقِ فِيهَا وَإِذَا بَلَغَ الْأَنَاقُ فِي هَذِهِ الْأَخْوَالِ الْمَتَزِلِيَّةِ الْغَايَةُ تَبِعُهُ طَاغِيَةُ الشَّهَوَاتِ فَتَلُوْنُ النَّفْسَ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٌ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا أَمَا دِينُهَا فَلَا سُخْنُكَامْ صِبْغَةُ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَعْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَا دُنْيَاهَا فَلَكَثِيرَةُ الْحَاجَاتِ وَالْمُؤْنَاتِ الَّتِي تُطَالَبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُعْجِزُ وَيُنْكِبُ عَنِ التَّوْفَاءِ بِهَا. وَبَيَانُهُ أَنَّ الْمَصْرَ بِالْتَّقْنِينِ فِي الْحِضَارَةِ تَعْظِمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهِ وَالْحِضَارَةُ تَفَاقِطُ بِتَفَاقِطِ الْعُمْرَانِ فَمَتَّى كَانَ الْعُمْرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ الْحِضَارَةُ أَكْمَلَ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمَصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمْرَانِ يَخْتَصُّ بِالْفَلَادَةِ فِي أَسْوَاقِهِ وَاسْتَعَارِ حَاجَتِهِ ثُمَّ تَزَيَّدُهَا الْمُكُوسُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْحِضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ اِنْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ فِي أَسْتِهْنَالِهَا وَهُوَ زَمْنٌ وَضِعُ الْمُكُوسُ فِي الدُّولَ لِكَثِيرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ كَمَا نَقَدَ وَالْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبَيَاعَاتِ بِالْفَلَادَةِ لِأَنَّ الْسُّوقَةَ وَالْتَّجَارَ كَاهِمٌ يَخْتَسِبُونَ عَلَى سِعَيْمٍ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ الْمَكْنُسُ لِذَلِكَ دَاخِلًا فِي قِيمِ الْمَبَاعَاتِ وَأَثْمَانِهَا فَتَعْظِمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْحِضَارَةِ وَتَغْرُبُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ وَلَا يَجِدُونَ وَلِيْجَةً عَنْ ذَلِكَ لِمَا مَلَكُوهُمْ مِنْ أَثْرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَمَّبُ بِمَكَامِهِمْ كُلُّهَا فِي النَّفَقَاتِ وَيَسْتَأْبِعُونَ فِي الْأُمْلَاقِ وَالْخَاصَّةِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمْ الْفَقْرُ وَيَقْلُ الْمُسْتَأْمُونَ لِلْسَّبَائِعِ فَتَكُونُ الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ حَالُ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ اِفْرَاطُ الْحِضَارَةِ وَالْتَّرَفِ وَهَذِهِ مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى الْعُوُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمْرَانِ وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى الْخُصُوصِ فَنَّ الْكَدْ وَالْتَّعَبُ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالْتَّلُوْنِ بِالْوَانِ الْشَّرِّ فِي تَحْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الْفَرَرِ بَعْدَ تَحْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْنِ آخَرٍ مِنَ الْوَانِهَا فِي ذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفِسْقُ وَالشَّرُّ وَالسَّفَقةُ وَالْتَّحْيِلُ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ وَتَنْصَرِفُ النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالْغَوْصِ عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَعْدُمُ أَجْرِيَاهُ عَلَى

الْكُنْدِ وَالْمُقَامَرَةِ وَالْغِشِ وَالْخِلَابَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَيَّانِ وَالرِّبَا فِي الْبَيَّانَاتِ
 ثُمَّ تَجِدُهُمْ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفُسُقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْجَاهَرَةِ بِهِ وَرِدَوَاعِيهِ وَأَطْرَاحِ الْحِشْمَةِ
 فِي الْخَوْضِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَذَوِي الْعَحَارِمِ الَّذِينَ تَقْتَضِي الْبِدَاوَةُ الْحَيَاةَ مِنْهُمْ
 فِي الْأَقْدَاعِ بِذَلِكَ وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالْمُكْرِ وَالْخَدِيْعَةِ يَدْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُمْ أَنْ يَنَالُهُمْ
 مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ أَعْقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا
 لَا كُثُرُهُمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَيَمْوجُ بَحْرُ الْمَدِينَةِ بِالسَّفَلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الْذَمِيمَةِ
 وَيَجْعَلُهُمْ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ نَاسَيَةِ الدُّولَةِ وَلِدَانِهِمْ مِنْ أَهْمَلِ عَنِ النَّادِيَبِ وَعَلَبَ عَلَيْهِ
 خُلُقُ الْجِوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ الْأَسَابِ وَبِيُوقَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُشَمَّأَثْلُونَ وَإِنَّمَا
 تَنَاضَلُوا وَتَمْيِيزُوا بِالْخُلُقِ وَأَكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَمَنْ أَسْتَخْكَمَ فِيهِ
 لَمْ يَنْفَعْهُ زَكَاءُ نَسَبِهِ وَلَا طِيبُ مَنْتَهِهِ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أَعْقَابِ الْبَيُوتِ وَذَوِي
 الْأَخْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّولِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْفَعَارِ مُنْتَهِلِينَ لِلْعِرْفِ الْدَّنِيَّةِ فِي
 مَاهِشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبَغَةِ الشَّرِّ وَالسُّفَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ
 فِي الْمَدِينَةِ وَالْأَمَّةِ تَأْذَنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِراْفِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
 نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْ رَنَا مُتْرِفِهَا فَفَسَقُوا فِيهَا حَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرَنَا هَا تَدْمِيرًا وَوَجْهُهُ حِينَئِذٍ
 أَنَّ مَكَاسِبِهِمْ حِينَئِذٍ لَا تَنِي بِمُحَاجَاتِهِمْ لِكَثْرَةِ الْعَوَانِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْتَقِيمُ
 أَخْوَالُهُمْ وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحْدًا وَاحْدًا أَخْتَلَ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرَبَتْ
 وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوْاصِ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرْسُ النَّارِ نَجَّ
 تَأْذَنَتْ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَمَّلُ غَرْسَ النَّارِ نَجَّ بِالدُّورِ وَلَبَسَ الْمُرَادُ
 ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصَيَّةٌ فِي النَّارِ نَجَّ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَإِجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ
 تَوَابِعِ الْخِضَارَةِ ثُمَّ إِنَّ النَّارَ نَجَّ وَاللَّبَّةَ وَالسَّرْقَةَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ
 هُوَ مِنْ غَایَةِ الْخِضَارَةِ إِذَا لَا يُقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينِ إِلَّا أَشْبَكَهَا فَقَطْ وَلَا تُنْزَعُ مِنْ إِلَّا بَعْدَ
 الْتَفَنِ فِي مَذَاهِبِ الْتَّرَفِ وَهَذَا هُوَ الْطَوْرُ الَّذِي يَخْشَى مَعَهُ هَلَكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا
 قُلْنَاهُ وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدِّرْفَلَى وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذَا الدِّرْفَلَى لَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَّا
 تَلَوَّنُ الْبَسَاتِينَ يَنْوَرُهَا مَا بَيْنَ أَخْمَرَ وَأَيْضَنَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ الْتَّرَفِ . وَمِنْ مَفَاسِدِ
 الْخِضَارَةِ الْأَنْهِمَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْأَسْتِرْسَالُ فِيهَا لِكَثْرَةِ الْتَّرَفِ فَيَقُولُ النَّفَنُ فِي شَهَوَاتِ

البطن من الماء كيل والملاد فينضي ذلك إلى فساد النوع فاهم ذلك وأعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايتها انقلب إلى الفساد وأخذ في المهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات بل يقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان يقتدار على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى في ذلك والحضرى لا يقدر على مباشرته حاجاته إنما عجز الماء حصل له من الدعوة أو ترفة لما حصل له من المربي في النعم والترف وكل الأربفين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعى في ذلك والحضرى بما قد فقد من خلق الإنسان بالترف والنعيم في قبر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضا غالبا بما فسدت منه العوائد وطاعت بها وما تلوكنت به النفس من مكانتها كما قررناه إلا في الأقل النادر وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسد إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبها الأعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودون في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي من الوقوف لغير العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغل شأن عن شأن

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار اقي تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانقرانها قد استقرينا في العمران ان الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن الله يضر الذي يكون كرسيا لسلطانها يستحسن عمرانه وربما ينتهي في انتقاده إلى الخراب ولا يكاد ذلك يختلف والسبب فيه أمر . الأول أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المفترضة للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذق ويدعو ذلك إلى تخفيف الجبابرة والمعارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقل الترف فإذا صار المصري الذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة الم偈دة وانتقضت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحنت أيديها من أهل المصري لأن الرعایا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق الدولة وأما طوعا لما في طباع البشر من تقليد متبعهم أو كونها لما يدعون إليه خلق الدولة من الانقياض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر

الثالث حضارة مصر وينذهب منه كثيرون من عوائده الترف وهو معنى ما يقول في خراب مصر . الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالقلب وإنما يكون بعد العداوة والغروب والعداوة لتفادي منافاة بين أهل الدولتين وتكون إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتناهيين يذهب بالمنافى الآخر ف تكون آخر حال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة ومستبشرة وقيمة وخصوصاً حال الترف فتفقد في عزفهم بشكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائده أخرى من الترف ف تكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك فصور الحضارة الأولى وقصتها وهو معنى اختلال العمران في مصر . الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهم متشائمون ومنه أولية ملوكهم فإذا ملكوا ملوكاً آخر صار بعما لدول وأمصاره تابعة لأمساك الأولى واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرمي تخوم الملك التي للدولة لأن شيبة المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرمي الأول وتهوى أفيشه الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويحيث من مصر الكرمي الأول والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للشجاعية في عدوهم يكرهونهم عن بغداد إلى أصحابها وللعرب قبلهم في الدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبني العباس في الدول عن دمشق إلى بغداد ولبني مردين بالغرب في الدول عن مرادكش إلى فاس وبالجملة فامتحاذ الدولة الكرمي في مصر يدخل بعمران الكرمي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من نوع أهل الدولة السابقة وأشياعها يتحولون إلى قطع آخر يؤمنون فيه غائبون على الدولة وأكثر أهل مصر الكرمي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان مصر لأن لهم في الغالب مخالطة الدولة على طبقاتهم وتنوع اصنافهم بل أكثرهم ناشئون في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكه والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة الم偈دة محمود آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرمي إلى وطنها المتمنون في ملوكها ببعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة واللطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مِصْرُ الْكَرْزِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْمُهْمَلُ مِنْ أَهْلِ الْفَقْعَ وَالْعِيَارَةِ وَسَوَادِ الْعَامَةِ وَيَنْزَلُ مَكَانُهُمْ حَامِيَتَهَا وَأَشْبَاعُهَا مِنْ يَشْتَدُ بِهِ الْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنْ الْمِصْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقْصَ سَاكِنَةٌ وَهُوَ مَعْنَى أَخْتِلَالٍ عَمْرَانِهِ ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَ عَمْرَانٌ أَخْرٌ فِي خَلِ الْدُّولَةِ الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِضَارَةُ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ الدُّولَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافِ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَقْبِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بَنَائِهَا عَلَى مَا يَغْتَارُهُ وَيَقْرِبُهُ فَيُغَيِّرُهُ ذَلِكَ الْبَيْتُ ثُمَّ يَعِيدُ بَنَائِهِ ثَانِيًّا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي هِيَ كَرَامَيُ الْمُلْكِ وَشَاهِدَنَاهُ وَعَلِمْنَاهُ وَاللَّهُ يَقْدِرُ الْلَّاْلِيْلَ وَالنَّهَارَ وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدُّولَةَ وَالْمُلْكَ لِلْعُمْرَانِ بِمَثَابَةِ الصُّورَةِ الْمَادَةِ وَهُوَ السَّكُنُ الْمَحَافِظُ بِنَوْعِهِ لِوُجُودِهِ وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحَكْمَةِ أَنَّهُ لَا يَكُنُ اِنْفِكَالُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْأَخْرِ فَالْدُّولَةُ دُونَ الْعُمْرَانِ لَا تَتَصَوَّرُ وَالْعُمْرَانُ دُونَ الدُّولَةِ وَالْمُلْكِ مُتَعَذِّرٌ يَا فِي يَطْبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدُوانِ الدَّاعِيِّ إِلَى الْوَازِعِ فَتَتَعَيَّنُ الْسِيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةُ أَوِ الْمُلْكِيَّةُ وَهُوَ مَعْنَى الدُّولَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَانِ فَأَخْتِلَالٌ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي أَخْتِلَالِ الْأَخْرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَأَخْلَلَ الْعَظِيمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلِ الْدُّولَةِ الْمُكَلَّيَّةِ مُثِلَّ دُولَةِ الْأَرْوَمِ أَوِ الْفُرْسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بَنَى اُمِّيَّةَ أَوْ بَنَى الْمَبَاسَ كَذَلِكَ وَأَمَّا الدُّولَةُ الْشَّخْصِيَّةُ مُثِلَّ دُولَةِ الْأُنُوشِرْوَانِ أَوْ هَرِيقَلَ أَوْ عَبْدِ الدَّمَاتِ بْنِ مَرْوَانِ أَوِ الْرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمْرَانِ حَافِظَةٌ لِوُجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةُ الشَّيْءِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرٌ أَخْتِلَالٌ لِأَنَّ الدُّولَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةُ فِي مَادَةِ الْعُمْرَانِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَالشَّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدُّولَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصِيَّةُ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي الْعُمْرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشَّوْكَةِ يَا جَمِيعَهُمْ وَعَظُمَ أَخْلَلُ كَمَا قَرَرْنَاهُ أَوْلًا وَاللَّهُ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيْنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا مَا فِي طَبَيْعَةِ الْعُمْرَانِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يَغْتَصِبُ بَعْضَهُ بَعْضًا أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُولُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبِصُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُونَ بِوَظِيفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُومِ

البلوى به في المرض وال الحاجة إليه وما لا يستدعي في المرض يكون غللاً إذ لا فائدة لاستحله في الاحتراق به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالمخاطر والخداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإذاً يوجد في المدن المستقرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضار مثل الزجاج والصانع والمدهان والطبان والصفار والفراش والذبائح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة واستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المتصرون غيره ومن هذاباب الحمامات لأنها إنما توجد في الامصار المستحضر المستقرة العصران لما يدعون إليه الترف والغنى من التعميم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن تزعم بعض الملوك والرؤساء إليها فيختلطها ويغيري أحوالها إلا أنها إذا لم تكون لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تغير وتغرب وتغير عنها القومية أقلة فائدهم ومعاشرهم منها والله يقبض وينسخ

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض من بين أن الألتئام والإتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل تسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضفت مما يكون بالنسب وأنه يحصل به العصبية ببعضها تحصل بالنسب وأهل الامصار كثير منهم متبعون بالصبر يجذب بعضهم ببعضه إلى أن يكونوا لحاماً لحاماً وقرباً قرباً وتحجد بينهم من العداوة والصدافة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيئاً وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وانقلص ظل الدولة عن القافية احتاج أهل امصارها إلى القيام على أمرهم وانتظر في حماية بلدتهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنقوس بطبعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة فتطمئن المشيخة خللاً أجنحة من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبة ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والآلاف وينبذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصوص كل صاحبه ويتعين الغلب عليهم فيمظف على كفائه ليقعن من اعتنائهم ويتابعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويعلم الأظفار الخادشة ويستبدل بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكاً

يُورثُهُ عَقْبَةُ فَيَعْدُتُ فِي ذَلِكَ الْمُلْكِ أَلَّا صَرَّ مَا يَعْدُتُ فِي الْمُلْكِ أَلَّا عَظِيمٌ مِنْ عَوَارِضِ
 الْجَهَدِ وَالْهَرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هُولَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلْكِ أَلَّا عَظِيمٌ أَصْحَابُ الْقَبَائِلِ
 وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصَبَاتِ وَالْزُّحُوفِ وَالْحُرُوبِ وَالْأَقْطَارِ وَالْمَهَالِكِ فَيَنْتَهُونَ بِهَا مِنْ أَجْلُوسِ
 عَلَى السَّرِيرِ وَاتْخَادِ الْآلاتِ وَإِعْدَادِ الْعَوَاقِبِ لِلسَّيْرِ فِي أَقْطَارِ الْبَلْدِ وَالْأَنْتِرِ وَالْأَسْبِيَّةِ
 وَالْخُطَابِ بِالْتَّمْوِيلِ مَا يَسْغُرُهُ مِنْ يُشَاهِدُ أَحْوَالَهُمْ لِمَا اتَّخَلُوهُ مِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الَّتِي
 لَبَسُوا لَهَا بَاهْلًا إِنْمَادَ فِعْلِهِمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلُصُ الدُّولَةِ وَالْتَّحَامُ بَعْضِ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصَبَيَّةٌ
 وَقَدْ يَتَزَهَّءُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى مَذَهَبِ السَّذَاجَةِ فَرَأَاهُ مِنَ التَّغْرِيبِ بِنَفْسِهِ لِلشَّغْرِيَّةِ
 وَالْعَبَثِ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بِأَفْرِيقِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدُّولَةِ الْحَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ
 مِنْ طَرَابِلْسَ وَفَاسَ وَتُؤَزَّرَ وَنَفْطَةَ وَقَفْصَةَ وَسِكْرِيَّةَ وَالْزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ سَمَوَا إِلَى
 مُثْلِهَا عِنْدَ تَقْلُصِ ظَلَلِ الدُّولَةِ عَنْهُمْ مُنْذُ عُقُودِ مِنَ السَّنِينَ فَأَسْتَغْلِبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ
 وَأَسْتَبَدُوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدُّولَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجِبَابِيَّةِ وَأَعْطُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ وَصَفَقَةَ
 مُهْرَضَةَ وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمُلَايَنَةِ وَالْمُلَاطِفَةِ وَالْأَنْقِيادِ وَهُمْ بِمَعْزَلٍ عَنْهُ وَأَوْرَثُوا
 ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَحَدَّتْ فِي خَلْفِهِمْ مِنَ الْغَلَظَةِ وَالتَّجَبِرِ مَا يَعْدُتُ لِأَعْقَابِ الْمُلْكِ
 وَخَلْفِهِمْ وَنَظَمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ الْسَّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَنْهُمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى نَحَادِلُكَ
 مَرْلَاتَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَأَنْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَرْ كُرُوهُ فِي
 أَخْبَارِ الدُّولَةِ وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدُّولَةِ الصَّنْهَاجِيَّةِ وَأَسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ
 أَهْلِهَا وَأَسْتَبَدُوا عَلَى الدُّولَةِ حَتَّى أَنْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شِيخُ الْمُوَحَّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ
 بْنُ عَلِيٍّ وَنَقَالُهُمْ كُلُّهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ يَهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارُهُمْ كَمَا
 نَذَرْ كُرُوهُ فِي أَخْبَارِهِ وَكَذَا وَقَعَ يَسَاتَةً لِآخِرِ دُولَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهَذَا التَّغلُبُ يَكُونُ
 غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَّوَاتِ وَالْبَيْوَنَاتِ الْمُرْتَبَحِينَ لِلْمَسْيِحَةِ وَالْزَّانَسَةِ فِي الْمِصْرِ وَقَدْ يَعْدُتُ
 التَّنْقِلُبُ لِبعْضِ السَّفَلَةِ مِنَ الْفَوْغَاءِ وَالْدَّهْمَاءِ وَإِذَا حَصَلتْ لَهُ الْعَصَبَيَّةِ وَالْأَلْتِحَامُ بِالْأَوْغَادِ
 لِأَسْبَابِ يَهْرَدَهُ لَهُ الْمَقْدَارُ فَيَتَغَلَّبُ عَلَى الْمَسْيِحَةِ وَالْعِلْيَةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلِّعِصَابَةِ وَأَللَّهُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبُهُ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الامصار

اعلم أن لغات أهل الامصار إنما تكون بيسان الأمة أو الجليل الغالبين عليةما أو المختطفين لها ولذلك كانت لغات الامصار الإسلامية كلها بالشرق والغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسد ملائكته وتغير إعرابه وأسباب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمة والذين والصلة صورة الوجود والملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والذين إنما يستفاد من الشريعة وفي بيسان العرب لما أن الذي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها وأعتبر ذلك في نفي عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال إنها خبر أي مكر وخداعة فلما هجر الذين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأمة لغاتهم وألسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانتهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمخالطةها في بعض أحكامه وتغير أواخره وإن كان يقى في الدلالات على أصله وسمى لسانا حضريا في جميع أمصار الإسلام وأيضا فاكثرا أهل الامصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها المالكين في تراثها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أزفهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الأعقارب على حال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجم شبشا فشبها وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنهما كانت أعرق فيعروبية ولما تملك العجم من الدليل وأسلحه بعدهم بالشرق وزنانة والبربر بالغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي بذلك وكاد يذهب لو لا ما حفظه من عنابة المسلمين بالكتاب والسنّة الذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضري من الشعر والكلام إلا قليلا يا الامصار فلما ملك التتر

وَالْمُغْنُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُنُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمُرْجَعُ وَفَسَّرَتِ الْفَةُ
الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعَرَاقِ وَخُرَاسَانَ
وَبِالْأَدِفَارِ مِنْ وَأَرْضِ الْمَهْدِ وَالسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهَرِ وَبِالْأَدِشَمَالِ وَبِلَادِ الْرُّوْمِ وَذَهَبَتِ
آسَالِيُّبُ الْأَلْفَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ الشِّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلٌ لَا يَقْعُدُ تَعْلِيمُهُ مِنْ نَاعِيَا يَا الْقَوَافِينِ
الْمُتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرَهُ أَفَهُ تَعَالَى لِذَلِكَ وَرُبُّمَا بَقِيَتِ
الْأَلْفَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُصْرِيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدُلُسِ بِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الْوَرَّادِينِ طَلَبًا لَهَا
فَانْخَفَضَتِ بِعِصْفِ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعَرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثْرٌ وَلَا عَيْنٌ
حَتَّى إِنْ كَتُبَ الْعِلُومُ صَارَتْ تُحْكَمُ بِالْإِسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيسُهُ فِي الْمَجَالِسِ
وَأَنَّهُ أَعْلَمُ يَا الصَّوَابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الأول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله
من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية
واعلم أنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِالْطَّبَعِ إِلَى مَا يَقُوَّهُ وَيَمْوُنُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَمْوَالِهِ مِنْ لَدُنْ نُشُوهِ
إِلَى اشْدُوْهِ إِلَى كِبِيرِهِ وَاللهُ الْفَقِيْهُ وَأَنْتُمُ الْفُقَارَادُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ
وَأَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آتَيْهِ فَقَالَ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ تَجْمِيعًا
مِنْهُ وَسَخَرَ لَكُمُ الْبَعْرَ وَسَخَرَ لَكُمُ الْفَلَكَ وَسَخَرَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ وَيَدُ
الْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ يَمْأَأْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ وَأَبْدِيَ الْبَشَرِ مُنْقَشِرَةً
فَهِيَ مُشَتَّرَ كَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَذَا أَمْتَنَعَ عَنِ الْأَخْرِيِّ إِلَّا بِعِوْضٍ فَالْإِنْسَانُ مَقْ
أَقْتَدَرَ عَلَى تَقْسِيَهِ وَمَجَازَ الْفُضُّلَتِ سَعَى فِي أَقْتَنَاءِ الْمَكَابِسِ لِيُنْفِقَ مَا أَتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا
فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ يَدْفَعُ الْأَغْوَاضِ عَنْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ

الرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطْرَ الْمُصْلِحُ لِلرِّزْقَةِ وَأَمْنَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا
 تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَسْكُونِ لَهُ ذَلِكَ الْمَكَاسِبُ مَعَاشًا إِنْ
 كَانَتْ بِقَدْرِ الْفَرْوَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوِّلًا إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ
 الْحَاصِلُ أَوِ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْعِتَهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَّلتْ لَهُ ثَرَنَةٌ مِنْ إِثْنَافِهِ فِي هَذَا الْحَدِيدِ
 وَحَاجَاتِهِ يُسَمِّي ذَلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلَتْ
 فَأَفْتَتَ أَوْ لَبَسْتَ فَإِنَّمَا يَأْتِي أَوْ تَصَدَّقَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَتَقْتَعِرْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ
 وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَعِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالَكِ رِزْقًا وَالْمَتَّهُ لَكَ مِنْهُ حِلْيَةٌ يُسَعِي الْعَبْدُ
 وَقُدْرَتِهِ يُسَمِّي كَسِيرًا وَهَذَا مِثْلُ الْتِرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمِّي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْهَالِكِ كَسِيرًا وَلَا يُسَعِي
 رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفِعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثَيْنِ مَتَى آتَتْهُمْ رِزْقًا هَذَا حَقِيقَةٌ
 مُسَمِّي الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ أَشْرَطَ الْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَةِ رِزْقَهُ أَنْ يَكُونَ بِحِجْثٍ
 يَصْبِحُ تَمْلِكَهُ وَمَا لَا يَتَعَلَّكُ عِنْدَهُمْ لَا يُسَعِي رِزْقًا وَأَخْرِجُوا الْفَصَوَّبَاتِ وَالْحَرَامَ كُلُّهُ
 عَنْ أَنْ يُسَعِي شَيْءًا مِنْهَا رِزْقًا وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْفَاصِبَ وَالظَّالِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ
 بِرِحْمَتِهِ وَهَذَا يَأْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجْجَةٌ لَيْسُ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّ
 الْكَسِيرَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّعْيِ فِي الْأَفْتَأِنَاءِ وَالْقَسْدِ إِلَى التَّعْصِيلِ فَلَا بُدُّ فِي الرِّزْقِ مِنْ
 سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاؤِلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ قَالَ تَعَالَى فَأَتَبْغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَالسَّعْيُ
 إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَفْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِهِ فَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا بُدُّ مِنَ الْأَعْمَالِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَنْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلاً نَفْسِهِ مِثْلُ الصَّنَاعَمْ فَظَاهِرٌ
 وَإِنْ كَانَ مَقْتَنَى مِنَ الْحَيْوانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعدِنِ فَلَا بُدُّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
 تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقْعُدْ أَنْتَفَاعُ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاقَ الْجَنَّرِينَ الْمَعْدَنِيَّينَ مِنَ
 الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيمَةُ الْكُلُّ مُتَمَوِّلٌ وَهُمَا الدَّخِيرَةُ وَالْقِنْيَةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي الْقَالِبِ
 وَإِنْ أَفْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدٍ تَعْصِيَاهُمَا بِمَا يَقْعُدُ فِي غَيْرِهَا مِنْ حَوَالَةِ
 الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا بَعْزَلُ فَهَا أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَالْقِنْيَةِ وَالْدَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّ هَذَا
 كُلُّهُ قَاتَلَهُ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ الْمُتَمَوِّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَاعَمْ
 فَالْمَفَادُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقِنْيَةِ إِذَا لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا أَعْمَلُ وَلَا يَسْتَ
 يَقْصُودُ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَاعَمِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ الْنَّجَارَةِ وَالْحِيَاكَةِ

مِنْهَا الْخَشَبُ وَالْغَزَلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرٌ فَقِيمَتُهُ أَكْثَرٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ
الصَّنَائِعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيمَةِ ذَلِكَ الْمَفَادِ وَالْقِنِيَّةِ مِنْ دُخُولِ قِيمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ
بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلَ لَمْ تَحْصُلْ فِيهِتَهَا وَقَدْ تَكُونَ مُلَاحَظَةً الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا
فَتَجْعَلُ لَهُ حِسْبَةً مِنَ القيمةِ عَظِيمَةً أَوْ صَغِيرَةً وَقَدْ تَخْفِي مُلَاحَظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ
الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ أَعْتَابَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا مُلَاحَظٌ فِي أَسْعَارِ الْجُبُوبِ كَمَا
قَدَمَنَاهُ الْكَسِنَةُ خَنِيُّ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي عَلَاجَ الْفَلْمَعَ فِيهَا وَمَوْنَتُهُ يَسِيرَةً فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا
الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْمَعِ فَقَدْ ثَبَّتْ بَيْنَ أَنَّ الْمَفَادَاتِ وَالْكَسِنَاتِ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا يَهْيَى
فِيمَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مَسْتَقْبَلُ الرِّزْقِ وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسِنَةِ
وَالرِّزْقِ وَشَرَحَ مُسَاهَمَاهَا وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا فَقَدَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتِ بِاِنْتِقَاصِ الْعُمْرَانِ
فَأَذَنَ اللَّهُ بِرَفَعِ الْكَسِنَةِ الْأَتَرَى إِلَى الْأَمْصَارِ الْقَلِيلَةِ السَاكِنَ كَيْفَ يَقُلُّ الرِّزْقُ
وَالْكَسِنَةُ فِيهَا أَوْ يُفَقَّدُ لِقْلَةُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمْرَانُهَا
أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلَهَا أَوْسَعَ أَخْوَالًا وَأَشَدَّ رَفَاهِيَّةً كَمَا قَدَمَنَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَقُولُ
الْعَامَةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عَنْ رَانَهَا إِنَّهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْفُهَا حَتَّىٰ أَنَّ الْأَنْهَارَ وَالْعَيْوُنَ
يَنْقَطِعُ جَرِيَّهَا فِي الْقَفْرِ لِمَا أَنَّ قَوْرَ الْعَيْوُنِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْأَمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ
بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّمَا يَكُونُ إِنْبَاطٌ وَلَا أَمْتِرَاءُ نَضِبَتْ وَغَارَتْ
بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَجْعَلُ الْفَرَسُعُ إِذَا تُرُكَ أَمْتِرَاؤُهُ وَأَنْظُرَهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْهَدُ فِيهَا الْعَيْوُنُ
لِأَيَّامٍ عُمْرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخَرَابُ كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَانَهَا لَمْ تَكُنْ وَأَنَّهُ
مُقْدِرُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إِعْلَمُ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَبْتِغَاءِ الرِّزْقِ وَالسُّعْيِ فِي تَعْصِيلِهِ وَهُوَ مَقْعُلٌ مِنَ
الْعِيشِ كَمَا كَانَ الْعِيشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَعْصُلُ إِلَّا بِهِدْيَهُ جَعَلَتْ مَوْضِيعًا لَهُ عَلَىٰ
طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَعْصِيلَ الرِّزْقِ وَكِسْبَتِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ يَأْخُذُهُ مِنْ يَدِ الْفَقِيرِ
وَأَنْتَزَاعُهُ بِالْأَقْتِدارِ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَانُونِ مُتَعَارِفٍ وَيُسْعَى مَغْرِمًا وَجَبَائِيَّةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْحَيْوَانِ الْوَحْشَيِّ بِأَفْتَرَاسِهِ وَأَخْذِيَهُ بِرَمِيَّهُ مِنَ الْبَرِّ أَوِ الْبَحْرِ وَيُسْعَى أَصْطِيادًا

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْدَّاجِنِ يَا مِنْ خَرَاجٍ فُضُولِهِ الْمُنْعَرَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ فِي
مِنَافِعِهِ كَالثَّلَبِنَ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرَيرِ مِنْ دُودِهِ وَالْعَسْلِ مِنْ نَخْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّباتِ
فِي الْأَزْرَعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِإِسْخَرَاجٍ ثَرَتِهِ وَيُسَمِّي هَذَا كُلُّهُ فَلَحًا وَإِمَّا
أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادِهِ مُعْيَنَةٍ وَتُسَمِّي الصَّنَاعَةَ مِنْ كِتَابَةٍ
وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحِيَاكَةٍ وَفُرُوشَةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِهِ غَيْرِ مُعْيَنَةٍ وَهِيَ جِمِيعُ
الْأَمْتَهَانَاتِ وَالْتَّصْرِيفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلأَغْوَاضِ
إِمَّا بِالْتَّقْلِبِ بِهَا فِي الْبَلَادِ وَأَخْتِكَارِهَا وَأَرْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمِّي هَذَا نِجَارَةً
فَهَذِهِ وِجْهَةُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُعْقِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ
كَالْحَرَيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَنِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصَنَاعَةٌ فَإِمَّا الْإِمَارَةُ
فَلَيْسَتْ يَمْذُهَبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةٌ بِنَاءً إِلَى ذِكْرِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ
الْجَمَاهِيرَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَإِمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالْتِجَارَةُ فَهُنَّ وُجُوهٌ
طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ إِمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقْدِمَةٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بِسِطَّةٍ وَطَبِيعَةٌ
فِطْرَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا شَبَّ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ
مُعْلِمُهَا وَالْقَانِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وُجُوهِ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَإِمَّا
الصَّنَاعَةُ فَهِيَ ثَانِيَّهَا وَمَتَّخِرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبةٌ وَعَلَمِيَّةٌ تُصْرِفُ فِيهَا الْأَفْكَارَ وَالْأَنْظَارَ
وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مَتَّخِرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٌ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا
الْمَعْنَى نَسِيَّتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ
يَا تَوْحِي مِنَ اللَّهِ تَسَاءَلَ وَإِمَّا الْتِجَارَةُ وَإِنْ كَانَ طَبِيعَةً فِي الْكَسْبِ فَإِلَّا كُثُرُ مِنْ
طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحْيَلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ
لِتَحْصُلَ فَائِدَةً الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِي الْمُكَاسَبَةِ لِمَا أَنَّهُ
مِنْ بَابِ الْمُقَامَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذَ الْمَالِ الْفَيْرِ بِمَجَانًا فِيهَا أَخْتُصُّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من الطبيعية

إِعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَادِ أَنْخِدَمَةٍ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ
الَّذِي هُوَ يَسْبِيلُهُ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْنِي فِي كُلِّ بَابٍ يَعْلَمُ

غناها فيه وبناته كلها بأرزاقهم من ثبت ماله وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينتسب عليهم حكم الإمارة والملك الأعظم هو ينبع جدائهم وأماماً ما دون ذلك من الخدمة فبها أن أكثر المترفين يتربع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ذي عائد من خaci النعم والتوفيق فيأخذ من يتولى ذلك له ويقطعاً عليه أجرًا من ماله وهذه الحالة غير معهودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الثقة بكل أحد عجز ولا أنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على أنه عجز وأن ثبات الذي ينتسب في مذابح الرجولية التزمه عنهما إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مأمورها فهو ابن عوائده لا ابن نسيبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي به وبوق بمنائه كالمعقول إذ الخديم القائم بذلك لا يجد أرجح حالات إما مضطليع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده وإما بالعكس في إخداماً فقط مثل أن يكون مضطليعاً غير موثوق أو موثقاً غير مضطليع فاما الأول وهو مضطليع الموثوق فلا يسكن أحداً استعماله يوجه إذ هو باضطلاعه وشقيقه غني عن أهل الرتب الدنيا ومحترف لمثال الأجر من الخدمة لا يقتدار على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض العموم الحاجة إلى الجاه وأما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطليع ولا موثوق فلا ينتسب لعاقل استعماله لأنه يتعجب بخدوه في الأمرتين مما فيضيغ عليه لعدم الاصطدام تارة وبذهب ماله بالحياة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذا الصنف لا يطعم أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطليع ومضطليع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من التربية وجة إلا أن المضطليع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه ويعاول على التحرر من خيانته جهد الاستطاعة وأما المضطليع ولو كان ماموناً فضرره بالتضييع أكثر من تفعيه فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستئنفان بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء

الفصل الرابع

في ان ابتلاء الاول من الدفائن والكنوز ليس بهاش طبيعي اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يصررون على استخراج الأموال من

تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَتَعْنُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةُ
 كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مُخْتَوْمٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَاسَمٍ سِحْرِيَّةً لَا يَفْعُلُ خَتَامَهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَثَرَ
 عَلَى عِلْمِهِ وَآسْتَخْضَرَ مَا يَحْلِهُ مِنَ الْبَخْرُ وَالدُّعَاءِ وَالْقُرْبَانَ فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ يَا فَرِيقَيْهِ يَرَوْنَ
 أَنَّ إِلَّا فِرْنَجَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي
 الْصُّخْفِ يَا لِكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّيْلَ إِلَى آسْتِخْرَاجِهَا وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ
 يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَمَمِ الْقِبْطِ وَالْرُّومِ وَالْفَرْسِ وَيَتَنَاقِلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ نَسْبَةٍ حَدِيثٍ
 خُرَافَةٍ مِنْ أَنْتِهَا بَعْضُ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَنْرٍ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طَلَسَمَهُ
 وَلَا خَبَرَهُ فَيَبْعَدُونَهُ خَالِيًّا أَوْ مَعْمُورًا بِالرَّيْدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجُوَاهِرَ مَوْضُوعَةً
 وَالْحَرَسُ دُونَهَا مُنْتَصِّينَ سِيَوفَهُمْ أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى يَظْهُرَهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ
 مِنَ الْمَدَرِ وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الْطَّبِيعِيِّ
 وَأَسْبَابِهِ بَتَقْرِبُونَ إِلَى أَهْلِ الدِّينِ بِالْأَوْرَاقِ الْمُخْتَزِنَةِ الْحَوَاشِيِّ إِمَّا يَخْطُوطُ عَجَمِيَّةً أَوْ
 بِمَا تُرْجِمُ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدَّائِنِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَّا كُنَّهَا
 يَسْتَغْفِرُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقِ مِنْهُمْ بِمَا يَبْهُشُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالْطَّلبِ وَيَمْوِهُنَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
 حَلَّهُمْ عَلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكُمِ وَالْعُقوَبَاتِ وَرَبِّهَا
 نَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَرِيبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ الْسِحْرِيَّةِ يُمْوِدُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا
 بَقَى مِنْ دَعَوَاهُ وَهُوَ يَمْعَزِلُ عَنِ الْسِحْرِ وَطَرْقِهِ فَتَوَلَّ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ يَحْمَعُ
 الْأَيْنِدِيَّ عَلَى الْأَخْتِفَارِ وَالْتَّسْرِ فِيهِ يَظْلَمُهُمُ الْبَلِ مَخَافَةَ الرُّثْبَاءِ وَعِيُونُ أَهْلِ الدُّوَلِ فَإِذَا
 لَمْ يَعْثُرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالْطَّلَسَمِ الَّذِي خَتَمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ
 يُخَادِعُونَ بِهِ أَنفُسِهِمْ عَنِ اِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْفَالِبِ زِيَادَةً
 عَلَى ضُعْفِ الْعُقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجَزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الْطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنْ
 الْتِجَارَةِ وَالْقَلْعَ وَالصِّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُنْخَرِفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْعَجَزِيِّ الْطَّبِيعِيِّ مِنْ
 هَذَا وَأَمْثَالِهِ عَجَزًا عَنِ الْسَّعْيِ فِي الْمَسَكَابِ وَرُوكُونًا إِلَى تَنَاؤلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعْبٍ
 وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَأَكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوْقِعُونَ أَنفُسَهُمْ يَا بَتْغَاءِ ذَلِكَ مِنْ
 غَيْرِ وَبِعِيهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوْلَ وَيَعْرِضُونَ أَنفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ
 لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةَ الْتَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُروجُهَا

عَنْ حَدِّ النِّهَايَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنْهَا وَجْهُهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَفِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ عَنِ الْكَسْبِ يَا لِمَجْرِيِ الْعَيْنِ لَمْ يَجِدْ وَلِيَحْمَدَ فِي نَسِيَّهِ إِلَّا الشَّهَنَى لِوُجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَانَةِ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ يَا لِعَوَادِيَّةِ أَتَى حَصَلَ فِي أَنْهِرِهَا فَيَعْرَضُ عَلَى أَبْتِغَاءِ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُودَهُ وَلِوَدَهَا فَأَكْثَرُهُ مِنْ تَرَاهُمْ يَخْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمُ الْمُتَرِفُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّولَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْأَهْصَارِ الْكَثِيرَةِ الْمُرَفَّهِ الْمُتَسِعَةِ الْأَخْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرِبِينَ يَا لِبَتْغَاءِ ذَلِكَ وَنَحْصِبُهُ وَسَاءَ لَهُ الْأَرْكَانُ عَنْ شَوَادِهِ كَمَا يَخْرُصُونَ عَلَى الْكِبِيَّاءِ هَكَذَا بَالْفَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي هُنَاؤَضَّةِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغَارِبَةِ لِعَلَمِهِ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَرِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ الْجُنُثُ عنْ تَغْوِيرِ الْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنْ غَالِبَهُ هُذِهِ الْأَهْوَالِ الْمَدْفَنَاتُ كُلُّهَا فِي بَعْرَارِي الْنَّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتَرُدُ فِيهَا أَوْ فُخْرَنَا فِي ذَلِكَ الْأَفَاقِ وَيُهُوَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْتَحَابُ ثَلَاثَ الْمَدَافَاتِ الْمُفْتَعَلَةِ فِي الْأَعْتِدَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِهِرْبَةِ الْنَّيلِ تَسْرَأُ بِذَلِكَ مِنَ الْكَذِيبِ حَتَّى يَعْصُلَ عَلَى مَعَاشِهِ فَيَعْرَضُ سَامِعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى أَضْوَبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ الْمُسْتَحْرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ مِنْ هَذِهِ كَلْفَا بِشَانِ الْمُسْتَحْرِيِّ مُنَوَّارِثًا فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ عَنْ أَوْلَيِهِ فَعَالَوْهُمْ الْمُسْتَحْرِيَّةُ وَآثَارُهَا بَاقِيَّةٌ بِأَرْغِيَّهُمْ فِي الْبَرَّارِي وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِأَخْيَاصِهِمْ بِذَلِكَ وَقَدْ تَنَافَلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكْمَاءِ الْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كِيفِيَّةُ الْعَمَلِ بِالْتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةِ سِحْرَيَّةِ حَسْبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هَذِهِ

يَا طَالِبَا لِلسِّرِّ فِي التَّغْوِيرِ إِنْتَعَ كَلَامَ الْصَّدْقِ مِنْ خَيْرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَفُوا فِي كُثُرِهِمْ
وَأَسْمَعْ لِصِدْقِ مَقَائِي وَنَصِيَّعِي
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغْوِيرَ الْبَرِّ الَّتِي
صَوَرَ كَصُورَتِكَ الَّتِي أَوْقَفْتَهَا
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ الْمُعْبَلِ الَّذِي
وَبِصَدْرِهِ هَاهُ كَمَا عَانِقَهَا
وَبَطَا عَلَى الْطَّاءَاتِ غَيْرِ مُلَامِسٍ
وَبِكُونِ حَوْلِ الْكَلْ خَطَ دَائِرَةِ

وَأَذْبَعَ عَلَيْهِ الظِّيرُ وَالظَّفَرُ يَا التَّبَخِيرُ
 بِالسَّنْدَرُوںْ وَبِالْبَانَ وَمِيَةَ
 وَالْقِسْطِ وَالْبِسْتُ بِشَوَّبِ حَرَبِر
 مِنْ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ لَا أَزْرَقَ
 لَا أَخْضَرَ فِيهِ وَلَا تَكْنِدِيرَ
 أَوْ أَحْمَرَ مِنْ خَالِصِ التَّحْمِيرِ
 وَيَشْدُهُ خِيطَانُ صُوفَ أَيْضُ
 وَالْطَّالِعُ الْأَسْدُ الَّذِي قَدْ يَنْوَ
 وَيَكُونُ بَدْهُ الشَّهْرُ غَيْرَ مُنْبِرِ
 وَالْبَدْرُ مُتَصِّلٌ بِسَعْدِ عَطَارَدِ
 فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ الْتَّدَبِيرِ
 يَعْنِي أَنْ تَكُونَ الطَّاهَاتُ بَيْنَ قَدْمَيْهِ كَانَهُ يَعْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْ
 قَمَوِيَّاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ أَخْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ عَجَيْبَةٌ وَتَنْتَهِيَ التَّغْرِيفَةُ
 وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالْمَوَرَ الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ
 وَيَخْتَفِرُونَ الْحَفَرَ وَيَضْعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا فِي مَحَاجِفِ كَذِبِهِمْ
 ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْصَّحَافَاتِ وَيَعْشُونَ عَلَى كَبَرَاءِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ
 وَسُكَّاهُ وَيُؤْهِمُونَ أَنْ يَهْدِفُنَا مِنَ الْمَالِ لَا يَعْبُرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِالْمَالِ لِاِشْتِرَاءِ
 الْعَقَافِيرِ وَالْبَخُورَاتِ لِحَلِ الْطَّلَاسِمِ وَيَعْلُوْنَهُ يَظْهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدُوهَا هُنَالِكَ
 بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَعِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا
 يَشْعُرُ وَيَنْهِمْ فِي ذَلِكَ أَصْطِلَاحَهُ فِي كَلَامِهِمْ يُلْسُونُ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْهُمْ مَحَاوِرُهُمْ
 فِيمَا يَتَلَوْنَهُ مِنْ حَفْرٍ وَبَخُورٍ وَذَبَحٍ حَوَانَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَأَمْمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى
 الْحَقِيقَةِ فَلَا اَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَنْوَزَ وَإِنْ كَانَ تُوجَدُ لَكِنْهَا
 فِي حُكْمِ الْنَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ الْأَنْتَفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصِيدَ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ يَا مَرِّ تَعْمُ
 يَهِ الْبَلَوَى حَتَّى يَدْخُرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِالْطَّلَاسِمِ لَا
 فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْمُحْدِثِ وَالْأَرْ كَازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْمُحْدِثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَاهَهُ وَهُوَ دِفْنٌ
 الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِالْعُثُورِ وَالْأَنْفَاقِ لَا بِالْقَصِيدِ وَالْطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ أَخْتَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ
 عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ السِّعْرِيَّةِ فَقَدْ يَأْلَمُ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ الْأَدَلَّةُ وَالْأَمَانَاتُ
 لِمَنْ يَتَعَفِّفُهُ وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الْأَسْعَافَاتِ حَتَّى يَطْلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْأَفَاقِ
 هَذَا بِنَاقْضٍ قَصْدَ الْأَخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ الْعَقَلَاءِ لَا بُدُّ وَإِنْ تَكُونُ لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ
 فِي الْأَنْتَفَاعِ وَمَنْ أَخْتَنَ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَنُهُ لِوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْثِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يقصد إخفاها بالكلية عن كل أحد وإنما هو البلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه
 بالكلية من سباتي من الأسم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجيه وإنما قولهم
 إن أموال الأتمم من قبلنا وما عليه فيها من السكرة والوفور فاعلم أن الأموال من
 الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معدن ومقاسب مثل الحديد والنحاس
 والرصاص وسائر المغاريات والمعدن والمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد
 فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متواتر وربما انتقل من
 قعر إلى قعر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والمران الذي يستدعى له فإن
 نقص المال في المغرب وأفريقيا فلم ينفع بلاد الصقالبة والإفرنج وإن نقص في
 مصر والشام فلم ينفع في الهند والصين وإنما هي الآلات والمقاسب والمران
 يوفرها أو ينقصها مع أن المعدن يدر كثرة بلاد حكمها يدرك سائر الموجودات
 ويُسرع إلى اللول وتجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس
 والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب يا عيالها لأقرب وقت
 وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط
 منذ ألف أو يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة
 والجواهر والآلات على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك
 الفرس بلادهم ترموا على ذلك في قبورهم فكشفوا عنهم فأخذوا من قبورهم مالا يوصف
 كالأهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم
 مظنة لذلك لهذا العهد ويعتر على الدفين فيها كثيرا من الأوقات أما ما يدفنونه من
 أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة
 معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ ألف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك
 عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخرجوا حتى إنهم حين ضربت
 المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من
 يستغل بذلك من الحمقى والجهوشين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماء
 الذرية إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع
 مساعيهم نعود يا الله من الخسران فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وأبتلي به أبا

يَتَعَوَّدُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْصُرِفُ عَنْ طَرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ بِالنِّحَايَاتِ وَالْمَكَادِبِ مِنَ الْخَيْكَائِيَاتِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للعمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْمُحْظَوَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَارًا وَثَرَوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مُخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ بِتَقْرَبِهِ إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَافِ وَالْمُحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالنَّاسُ مُعْيَنُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيِّ أَوْ حَاجِيِّ أَوْ كَمَالِيِّ فَتَحَصُّلُ قِيمَتُهُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلُّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَبِجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تَبَذَّلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنْ الْعَمَلِ يَسْتَعْمِلُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ فَتَتَوَفَّرُ قِيمَتُهُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ فَهُوَ بَيْنَ قِيمَتِ الْأَعْمَالِ يَكْتَسِبُهَا وَقِيمَتِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الْفَرُودَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ وَالْأَعْمَالُ إِصَاحِبُ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتَقْبِدُ الْفَنِيَّ لِأَفْرَبِ وَقْتٍ وَيَزِدَّ أَدْمَعَ الْأَيَامِ يَسَارًا وَثَرَوَةً وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتِ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا يَكُونُ يَسَارًا إِلَّا بِعِنْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُ الشُّجَارِ وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ وَمِمَّا يَشَهِدُ لِذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْغُفْرَاءِ وَأَهْلَ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا أَشْتَهَرُوا حَسْنَ الظُّنُونِ بِهِمْ . وَاعْتَقَدَ الْجُمُهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِرْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالْأَعْتِمَالِ فِي مَضَالِّهِمْ . وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمْ الْثَّرَوَةُ وَأَصْبَحُوا مِيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيمَتِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمَعْوِنَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ . رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَفِي الْبَدْوِ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْفَلْمَحِ وَالْتَّجَرِ وَكُلُّهُ هُوَ قَاعِدٌ يَعْتَزِلُهُ لَا يَتَرَخُّ مِنْ مَسْكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَبَعْضُ كَسْبِهِ وَيَتَأَثَّلُ الْفَنِيَّ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَيَجْعَلُ مَنْ لَا يَقْطُنُ لِهَذَا السِّرِّ فِي حَالٍ ثَرَوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل السادس

في ان السعادة والكمب اما يحصل غالباً لامل الخضوع والتسلق
وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قد سلفت لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفيد منه البشر إنما هو قيم أعملهم ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه وقد يتناهى آنماجاً أن الجاه يُفِيدُ المال لما يحصل لصالحه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يقربون به من عمل أو مال عوضاً عملاً يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالعه وتصير تلك الأعمال في كسبها وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغني والبسيط لأقرب وقت ثم إن الجاه متوزع في الناس ومتربّ فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل إلى من لا يملك ذرعاً ولا تفرا بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما يتناسب معائهم وتيسّر مصالحهم ويتم بقاومهم لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون وإنه وإن ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاوه ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الآخر بمقاييس النوع ولما جعل لهم من الاختيار وأن أفعالهم إنما تصدر بالتفكير والرأفة لا بالطبع وقد يمتنع من المعاونة فيتعين تحمله عليها فلا بد من حامل يذكره ببناء النوع على مصالحهم لتقى الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورقعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخد بعضهم بعضاً مغيراً ورحمة ربك خير مما يجهلون فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف في من تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة لتعليمهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بالحكام الشرائع والسياسات وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولكن الأولى مقصود في العناية الرئانية بالذات والثانية داخل فيها بالعرض كسائر الشروط الدالة في القضاء الإلهي لأنه قد لا يتم وجود الخير الكبير إلا بوجود شر يسير من أجل الموارد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع

عَلَى مَا يَنْتَهِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْبَسِيرِ وَهَذَا مَعْنَى وُقُوعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ لِنَفْهِمْ ثُمَّ إِنَّ
كُلَّ طَبَقَةً مِنْ طَبَاقِ أَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ اقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنْ
الْطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُ بِذِي أَجْمَاهُ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ
وَتَرَدَادُ كُبْرَى تَصْرُفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِدُ مِنْهُ وَأَجْمَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ
عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَسَعُ وَيَضْيقُ بِعِسْبِ الطَّبَقَةِ وَالْطَّوْرِ الَّذِي فِيهِ
صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ أَجْمَاهُ مُتَسْعًا كَانَ الْكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيْقَةً فَلِيلًا
فَثُلُثُهُ وَفَاقِدُ أَجْمَاهُ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا يَمْقُدَّرُ عَمَلُهُ أَوْ مَالُهُ وَنِسْبَةُ
سَعْيِهِ ذَاهِيًّا وَآيَةً فِي تَسْمِيَتِهِ كَمَا كَثُرَ التَّجَارُ وَأَهْلُ الْفِلَاحِ فِي الْغَالِبِ وَأَهْلُ الصَّنَاعَةِ
كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا أَجْمَاهُ وَأَفْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَاعَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِرُّونَ إِلَى الْفَقْرِ
وَالْخَصَاصَةِ فِي إِلَّا كَثُرَ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرَوَةُ وَإِنَّمَا يَرْمِقُونَ الْعِيشَ تَزَمِّنًا وَيُدَافِعُونَ
شَرُورَةَ الْفَقْرِ مُدَافِعَةً وَإِذَا نَقَرَرَ ذَلِكَ وَإِنَّ أَجْمَاهُ مُتَفَرِّعٌ وَإِنَّ السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرَنَانِ
مُحْصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذَلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجْلَهَا وَأَنَّ بَادِلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُنْتَهَى مِنْ
وَإِنَّمَا يَبْذَلُهُ إِيمَنٌ تَحْتَ يَدِيهِ فَيَكُونُ بَذَلَهُ يَدِ عَالِيَّةٍ وَعَزَّةٍ فَيَعْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهُ إِلَى
خُضُوعٍ وَتَمْلِقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ الْعِزِّ وَالْمُلُوكُ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِلَّهِ كُلُّنَا إِنَّ
الْخُضُوعَ وَالتَّمْلِقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِهِ هَذَا أَجْمَاهُ الْمُحْصَلِ لِلسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنَّ
أَكْثَرَ أَهْلِ الْثَّرَوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهِذَا التَّمْلِقِ وَلِهُذَا تَحْمِدُ الْكَثِيرُ مِنْ يَتَخَلَّ بِالْتَّرَفُعِ
وَأَلْسُنُهُمْ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ أَجْمَاهُ فَيَقْتَصِرُونَ فِي الْكَسْبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِرُّونَ
إِلَى الْفَقْرِ وَالْخَصَاصَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكُبْرَ وَالْتَّرَفُعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ
مِنْ تَوْهِمِ الْكَمَالِ وَإِنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى يَضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالَمِ الْمُتَجَرِّبِ
فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْمُجَيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوِ الشَّاعِرِ الْبَلِيجِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي
صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ لِمَا يَبْدِيُونَ فَيَعْدُثُ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ يَتَوَهَّمُ
أَهْلُ الْأَسَابِ مِنْ كَانَ فِي أَبَائِهِ مَلِكًا أَوْ عَالَمًا مَشْهُورًا أَوْ كَامِلًا فِي طَوْرٍ يَعْبُرُونَ بِهِ بِمَا
رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ أَبَائِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ أَسْتَحْقُوا مَثَلَ ذَلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ
وَبِالْبَيْمِ وَوَرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ
الْحَيْلَةِ وَالْبَصَرِ وَالْتَّجَارِبِ بِالْأَمْرِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَا لَا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَأَخْتِيَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجَدُّ هُؤُلَاءِ الْأَصْنَافَ كُلُّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضُعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَعَلَّقُونَ لِمَنْ
 هُوَ أَعُلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِأَعْتِقَادِهِمْ الْفَضْلُ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَكِفُ أَحَدُهُمْ
 عَنِ الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلَكِ وَيَعْدُهُ مَذَلَّةً وَهُوَ أَنَا وَسَهْلًا وَيُعَالِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ
 إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذَلِكَ
 وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالآخْرَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَهِرُ فِي عَنَاءِ عَظِيمٍ
 مِنْ إِيجَابِ الْحَقِّ إِنْفَسِهِ أَوْ إِبَايَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنْ النَّاسِ لِمَا فِي
 طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ أَنَّهُ أَنَّهُ وَقَلَ أَنْ يَسْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالْتَّرَفُعِ عَلَيْهِ
 إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقُهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْأَسْتِطَالَةِ وَهَذَا كُلُّهُ فِي خَمْنَ الْجَاهِ فَإِذَا
 فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ النَّاسُ بِهَذَا الْتَّرَفُعِ وَلَمْ
 يَحْصُلْ لَهُ حَظٌ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقَدَ الْجَاهُ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعُلَى مِنْهُ لِأَجْلِ
 الْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلْ لَهُ بِذَلِكَ مِنْ الْقُعُودِ عَنِ تَعَاهُدِهِمْ وَغَشِّيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَقَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقَيَّ
 فِي خَصَاصَةِ وَفَقَرٍ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا الْثَّرَوَةُ فَلَا تَعْصُلُ لَهُ أَصْلًا وَمِنْ هَذَا أَشْتَهِرَ
 بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَامِلَ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ الْحَظْرِ وَأَنَّهُ قَدْ حُوِسِبَ بِمَا رُزِقَ مِنَ
 الْمَعْرِفَةِ وَأَقْتُطَعَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَظْرِ وَهَذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسِرِّ لَهُ وَأَللَّهُ الْمَقْدِرُ
 لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقْعُدُ فِي الدُّولَ أَفْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ الْخُلُقِ وَيَرْتَفَعُ فِيهَا كَثِيرٌ
 مِنْ السُّفَلَةِ وَيَنْزَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَيَّةِ يُسَبِّبُ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّولَ إِذَا بَلَغَتْ نِهايَتِهَا
 مِنَ الْتَّغْلِبِ وَالْأَسْتِلَاءِ أَنْفَرَدَ مِنْهَا مَنِيتُ الْمَلَكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَئُسَ مِنْ سِوَاهُمْ
 مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبِ دُونِ مَرَاتِبِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَانُوهُمْ خَوْلٌ
 لَهُ فَإِذَا أَسْتَهِرَتِ الدُّولَةُ وَشَعَّ الْمَلِكُ تَسَاوِي حِينَئِذٍ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلُّ
 مَنْ أَنْتَعَى إِلَى خَدِمَتِهِ وَتَقَرُّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَأَصْنَطَنَعَهُ السُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ
 مِهْمَائِهِ قَتَجَدَ كَثِيرًا مِنَ السُّوقَةِ يَسْعَى فِي التَّقْرِبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِجَهَدٍ وَنَصِيحَةٍ وَبَذْلَفُ
 إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خَدِمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْتَّعْلُقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ
 نَسَيِّهِ حَتَّى يُرْتَمِعَ قَدْمَهُمْ وَيَنْظُمُهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌ عَظِيمٌ
 مِنَ السَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدُّولَةِ وَنَاسِهِ الدُّولَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا الَّذِينَ
 ذَلَّلُوا أَضْفَانَهُمْ وَمَهْدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِينَ بِمَا كَانَ لِأَبَائِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ تَقْوِيْمُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِأَثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضَارِ الْدُّوَلَةِ بِسَبَبِهِ فِيمَقْتُهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيَبْعَدُهُمْ وَيَمْلِي إِلَى هُولَاءِ الْمُصْطَنِعِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ يَقْدِيمُ وَلَا يَنْهَبُونَ إِلَى دَالَّةِ وَلَا تَرْفَعُ إِنْمَادًا بَعْدُهُمْ أَخْلُصُونَ لَهُ وَالْتَّمَلُقُ وَالْأَعْتَالُ فِي غَرَضِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَعُ جَاهِهِمْ وَتَعْلُمُ مَنَازِلَهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ الْوِجْهُ وَالْخُوااطِرُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عَنْهُمْ وَيَقْنَى نَاسِيَةُ الدُّوَلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّرْفَعِ وَالْأَعْتَادِ بِالْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتَنَا وَإِيَّاَنَا هُولَاءِ الْمُصْطَنِعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدُّوَلَةُ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدُّوَلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَانُ الْمُصْطَنِعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَيَهُ التَّوْفِيقُ لِرَبِّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان

ونحو ذلك لا نظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسَبَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قِيمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسْبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمُرَانِ عَامَةً الْبَلْوَى بِهِ كَانَتْ فِيمَتُهَا أَعْظَمُ وَكَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْدِينِيَّةِ لَا تُفْطَرُ إِلَيْهِمْ عَامَةُ الْخَلْقِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمْ الْخَوَاصُ مِنْ أَقْبَلٍ عَلَى دِينِهِ وَإِنْ أَخْتِيجَ إِلَى الْفَتِيَا وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَضْطَرَارِ وَالْعُمُومِ فَيَقُولُ لَا إِسْتِغْنَاهُ عَنْ هُولَاءِ فِي الْأَكْثَرِ وَإِنَّمَا يَهْتَمُ بِإِقَامَةِ مَرَاسِيمِهِمْ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظَّاً مِنَ الْرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى الْخُوَوْدِ الَّذِي قَرَزَنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ الشَّوَّكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ الدِّينِ وَالْمَرَاسِيمُ الْشَّرِعِيَّةُ لِكُنْهِهِ يَقْسِمُ بِحَسْبِ عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ فَلَا يَصْحُ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ وَهُمْ أَبْضَأُ لِشَرْفِ بَضَائِعِهِمْ أُعْزَةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ تَقْوِيْمِهِمْ فَلَا يَخْضُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظَّاً يَسْتَدِرُونَ بِهِ الْرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَرْفَعُ أَوْفَاقُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهِذِهِ الْبَضَائِعِ الْشَّرِيفَةِ الْمُسْتَهْلِكَةِ عَلَى اِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْبَدْنِ بَلْ وَلَا يَسْعُهُمْ بِأَبْتَدَالٍ أَنْقُسِهِمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِشَرْفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ تَرْقُوْتُهُمْ فِي الْغَالِبِ وَلَقَدْ باحَثَتْ بَعْضُ الْفُضَّلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَوَقَعَ يَدِي أَوْرَاقٌ مُخْزَفَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ الدَّوَافِينِ

بَدَارَ الْمَامُونُ تَشَتَّمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدُّخْلِ وَأَخْرَجَ وَكَانَ فِيمَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ
الْقُضَا وَالْأَئِمَّةِ وَالْمُؤْذِنِينَ فَوَقَفَتْهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَ مِنْهُ صِحَّةَ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ
مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ أَخْلَاقُ الْفَادِرِ لَأَرْبَبِ سِوَاهُ

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصِيلٌ فِي الْطَّبِيعَةِ وَبَسِطٌ فِي مَنْحَاهُ وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُهُ يَتَحَلَّهُ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْخَضْرِ فِي الْغَالِبِ فَلَا مِنَ الْمُتَرْفِينَ وَيَخْتَصُّ مَنْتَحَلُهُ بِالْمَذَلَّةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَقَدْ رَأَى السَّكِّنَةَ بِعَضِ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُ الْذُلُّ
وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْأَسْتِكْنَارِ مِنْهُ وَتَرَجمَ عَلَيْهِ بَابَ مَا يَحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَشْتِغَالِ
بِالْأَزَرْعِ أَوْ تَجَاؤزِ الْمَدِّ الَّذِي أَمْرَ بِهِ وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَتَبَعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ
الْمُفْضِي إِلَى التَّحْكِيمِ وَالْيَدِ الْعَالِيَةِ فَيَكُونُ الْفَارِمُ ذَلِيلًا بِائِسًا بِمَا تَشَاؤْلُهُ أَيْدِيهِ
الْقُهْرِ وَالْأَسْتِطَالَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا
إِشَارَةً إِلَى الْمُكَلَّكِ الْعَضُوضِ الْتَّاسِيرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ النَّسْلُطُ وَالْجُنُوُرُ وَنَسْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ
تَعَالَى فِي الْمُتَّمَكِّلَاتِ وَأَعْتِبَارِ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمُلُوكِ وَالْأُولَاءِ فَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

أَعْلَمُ أَنَّ التِّجَارَةَ مُحاوَلَةُ السَّكَنِ يَتَنَمِّيَ الْمَالُ بِشِرَاءِ السِّلْعِ بِالْأَشْخَصِ وَيَعِيْهَا
بِالْفَلَاءِ أَيَّامًا كَانَتِ السِّلْعَةُ مِنْ دَفِيقِ أَوْ زَرْعِ أَوْ حَيْوانِ أَوْ قَمَاشٍ وَذَلِكَ الْقَدْرُ الْأَنَمِيُّ
يُسَمِّيُّ وَبِهَا فَالْمُحَاوِلُ لِذَلِكَ الْرِّجْمُ إِمَّا أَنْ يَخْتَرِنَ السِّلْعَةَ وَيَتَعَيَّنَ بِهَا حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ
مِنَ الْأَشْخَصِ إِلَى الْفَلَاءِ فَيَعْظُمُ وَبِهِ وَإِمَّا يَأْنَ يَنْقَلُهُ إِلَى بَلَدِهِ آخَرَ تَنْفُقٌ فِيهِ تِلْكَ السِّلْعَةُ
أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي أَشْتَرَهَا فِيهِ فَيَعْظُمُ وَبِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّيوُخِ مِنَ الْتِجَارِ
لِطَلَبِ السَّكَنِ فَقَدْ حَصَّلَتِ الْتِجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّزَنَاهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَأَرْبَبِ سِوَاهُ

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وایهم ينبغي له اختيار حرفها قد قدمنا أن معنى التجارة تسمية المال بشراء البضائع ومحاولة يعها بأعلى من ثمن الشراء إما بانتظار حواله الأسواق أو نقلها إلى بلد في فيه أدنى وأعلى أو يعها بالغلاء على الأجال وهذا أرجح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيراً عظماً أرجح لأن القليل في الكبير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التسمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي ثمنها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيق المتعجب بالبضائع ومن المطل في الآثمان المتعجب بالربح كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نعمة ومن الجحود والإنكارات المستحب لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغنى الحكم في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التأهله من أرجح إلا بعظم العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ما له فإن كان جريئاً على الخوضومة بصيراً بالحسبان شديد المماحكة مقداماً على الحكم كانت ذلك أقرب له إلى النصفة بغير أهله منهم ومماحكته وإلا فلابد له من جاه يدرع به بوقوع له المحبة عند الباعة ويحمل الحكم على انصافه من معاملته فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعاً في الأول وكذا في الثاني وأما من كان فاقداً المجرأة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكم فينبعي له أن يختبئ الأحراف بالتجارة لأنه يعرض ماله للضياع والذهب وبصيرة مكللة للباعة ولا يكاد يتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعاع والباعة شر هون إلى ما في أيدي الناس سواهم متثبتون عليه ولو لا وازع الأحكام لا أصبحت أموال الناس ثباتاً ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض ولكن الله وفضل على العالمين

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون أرجح والشراة ولا بد فيه من

الْمُكَاسِةِ كَايَسَةَ ضَرُورَةَ فَإِنْ أَقْتَصَرَ عَلَيْهَا أَقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنَى خُلُقَ الْمُكَاسَةِ بَعِيدَةَ عَنِ الْمُرُوَّةِ الَّتِي تَتَخَلُّقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنْ أَسْتَرْذَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتَبَعُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُمَاحَكَةِ وَالْغِشِّ وَالْخَلَابَةِ وَتَعَاهُدِ الْأَيْمَانِ الْكَادِبَةِ عَلَى الْأَشْمَانِ رَدًا وَقُبُولًا فَأَجِدُ ذَلِكَ الْخُلُقَ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الْمُذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الْزِئَامَةِ يَتَحَمَّلُونَ الْأَخْرَافَ بِهِذِهِ الْخِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يُكْسِبُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَيَتَحَمَّلُهُ اِشْرَافٌ نَفْسِيٌّ وَكَرْمٌ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِيرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرْمِهِ وَهُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

الْتَّاجِرُ الْبَصِيرُ بِالْتِجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السَّلْعِ إِلَّا مَا تَعْلَمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَالْسُّلْطَانِ وَالسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ تَفَاقُّ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا أَخْتَصَ نَقْلَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَعْضِ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ تَفَاقُّ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشِّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ لِعَارِضِ مِنَ الْعَوَارِضِ فَتَكْسِدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحَهُ وَكَذِلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ الْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ الْوَسْطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالَمَيْنِ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ السَّلْعِ إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الْتَّرَوَةِ وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمُ الْأَقْلَى وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَسْوَةً فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلَيَتَسْعَرَ ذَلِكَ جُهْدَهُ فَفِيهِ تَفَاقُّ سِلْعَةٍ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذِلِكَ نَقْلُ السَّلْعِ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الْطُّرُقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتَّجَارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحًا وَأَكْنَفَ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِآنَ السِّلْعَةَ الْمُنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعْوَزَةً لَبَعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْفَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقْلُ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَتْ وَاعَزَتْ غَلَتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ وَالْطَّرِيقُ سَابِلٌ بِالآمِنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكُونُ وَتَرْتَخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَذَا تَجِدُ التَّجَارَ الَّذِينَ يُولَعُونَ بِالدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ أَرْقَةَ النَّاسِ وَأَكْثَرُهُمُ أَمْوَالًا لَيُعْدِ طَرِيقَهُمْ وَمَسْقَتِهِ وَأَعْتَاضُ الْمَفَازَةِ الصَّعِيبَةِ الْمُخْطَرَةِ بِالْخُوفِ وَالْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَّا كَنْ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَّهُ الْأَرْكَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَذَا الْطَّرِيقِ وَبَعْدَهُ إِلَّا الْأَقْلَى مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ

سلع بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدِينَا فَتُخْتَصُ بِالْمَلَأِ وَكَذَلِكَ سِلْعًا لَدِينِهِمْ فَتَعْظِمُ بَضَائِعُ الْجَارِ
مِنْ تَنَافِلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمْ الْغَنَى وَالثَّرَوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا
إِلَى الْمَشْرُقِ لِبَعْدِ الشَّقَةِ أَيْضًا وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُونَ فِي افْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبِلَادِنِهِ
فَنَافَدُوهُمْ قَلِيلَةً وَأَزْبَاحُهُمْ تَنَافِلَهُ لِكَثْرَةِ الْأَسْعَامِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّازِقُ ذُو الْفُوْدَةِ الْمُتَّيِّنِ

الفصل الثالث عشر في الاحتياط

وَمِمَّا أَشْتَهِرَ عِنْدَ دَوِيِ الْبَصَرِ وَالْتَّجْرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ الْحِتَّاكَارَ أَزْرَعَ لِتَعْثِينَ
أَوْقَاتِ الْفَلَاثِ مَشْوُمٌ وَإِنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالْتَّلْفِ وَالْخُسْرَانِ وَسَبَبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ
النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّوْنَ إِلَى مَا يَبْذَلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ أَضْطَرَارًا فَتَبْقَى
النُّفُوسُ مُتَعْلِقَةً بِهِ وَفِي تَعْلُقِ النُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرُّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ بِعَاجَانَةٍ وَلَعْلَهُ
الَّذِي أَعْتَدَهُ الْشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِعَاجَانَةٍ فَالنُّفُوسُ
مُتَعْلِقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ خَرْوَرَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعَذْرِ فَهُوَ كَالْمُسْكَرَ وَمَا عَدَ الْأَقْوَاتَ
وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَيْعَاتِ لَا أَضْطَرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا الْتَّفَنُ فِي
الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْذَلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِخِتَّارٍ وَحِرْصٍ وَلَا يَقْنِي لَهُمْ تَعْلُقٌ بِمَا أَعْطَمُهُ
فَلَمْهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالْحِتَّاكَارِ تَجْتَمِعُ الْقَوْى الْفَسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَسَعَتْ فِيهَا بُنَاسِبُ هَذَا حِكَمَةُ طَرِيقَةِ عَنْ بَعْضِ
مَشِيقَةِ الْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلَيُ قَالَ حَضَرَتْ عِنْدَ الْقَادِيِّ يَفَاسِ لِعَهْدِ
الْسُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَكْلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ
الْأَلْقَابِ الْمَخْزَنِيَّةِ لِجَرَأَيْتَهُ قَالَ فَأَطْرَقَ مَكْلِيًّا ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْنِسِ الْخَمْرِ فَأَسْتَضْمِكَ الْحَمَاءِ بِرُونَ
مِنْ أَصْنَاعِهِ وَعَجَبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ الْجِنِيَّاتُ كُلُّهَا حَرَاماً
فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لَا تَتَابِعُهُ نَفْسٌ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قَلَّ أَنْ يَبْذُلَ فِيهَا أَحَدُ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ
طَرِيبٌ مَسْرُورٌ بِوُجُودِهِ غَيْرُ أَسْفِ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَاقِفٌ بِهِ تَفْسُهُ وَهَذِهِ مُلَادَحَةٌ غَرِيبَةٌ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكِنُ الصُّورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مصدر بالمعترفين بالرخص.

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها بغيرها حواله الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحاً ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً فإذا أستدیم الشخص في ساعة أو عرض من ما كُل أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتجارة حواله الأسواق فسد الأربع والنماء يطول تلك المدة وكانت سوق ذلك الصنف فقدت التجارة عن السعي فيها وفسدت روؤس أموالهم وأعتبر ذلك أولاً بالرزع فإنه إذا أستدیم شخص يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلاح والرخاء لقلة الربيع فيه وندارته أو فقدده فيفقدون النماء في أموالهم أو يعودون على قلة ويعودون بالإتفاق على روؤس أموالهم وتفسد أحوالهم وبصيرون إلى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطعن والتحبز وبسائر ما يتعلق بالرذاء من الحرث إلى صيرورته ما كولاً وكذا يفسد حال الجندي إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفتح زرعاً فإنها تقل جهاتهم من ذلك وينجزون عن إقامة الجندي التي هي بسيها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا إذا أستدیم الشخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقد المحترفون عن التجارة فيه وكذا المليوسات إذا أستدیم فيها الشخص فإذا الشخص المفترط يتعجب يعيش المحترفين بذلك الصنف الشخص وكذلك الفلاح المفترط أيضاً وإنما معاش الناس وكمتهم في التوسط من ذلك وسرعة حواله الأسواق وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل القرآن وإنما يحمد الشخص في الرزع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه وأضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير والعالمة من المخلق هم إلا كثروا في القرآن فيعموا الرفق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف أخلاقه والله الرزاق ذو القوة ال Mighty والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الروحاء بعيدة من المروءة قد قدمنا في الفصل قبله أن التجار مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح ولا بد في ذلك من المكاسب والمهام حكمة والتعداق ومارسة الخصومات والتجار وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الأوصاف تقص من الذكاء والمرءة وتخرج فيها الانفعال لا بد من عود آثارها على النفس فاعمال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأعمال الشر والفسفة تعود بضر ذلك فتستم垦 وترى إن سبقت وتكلمت وتقص خلال الخير إن تأثرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملوك الناشئة عن الأفعال وتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور معاينا لأشرار الباعة أهل الفسق والخلابة والنجور في الأمان إقرارا وإنكارا كانت رداءة تلك الخلوق عنده أشد وغابت عليه السففة وبعد عن المروءة وأكتسبتها بالجملة ولا بد له من تأثير المكاسب والمهام حكمة في مروءته وفقدان ذلك منه في الجملة وجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدرعون بالتجارة ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادرون وأقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعه بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل يشه فحصلت له ثروة ثمينة على الاتصال بأهل الدولة ونكسية ظهورا وشهرة بين أهل عصره فيز تقع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشيمه ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤمنونه من بر وإنحصاره فيعودونه عن تلك الخلوق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر ف تكون مروءتهم أرثي وأبعد عن تلك الحاجة إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فإذا هم يضطرون إلى مشارقة أحوال أولئك الوكلاء ورفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم

إعلم أن الصناعة هي ملائكة في أمر عملي فكري وبكونيه عمليا هو جسماني

محسوسٌ وَالْأَخْوَالُ الْجِنِيَّاتِ الْمَحْسُوَةُ فَنَقْلُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَكَنْتُ لَأَنَّ
الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَخْوَالِ الْجِنِيَّاتِ الْمَحْسُوَةِ أَتْمَ فَائِدَةً وَالْمَلَكَةُ صَفَةٌ رَاسِخَةٌ تَعْصِلُ
عَنْ أَسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْفَعْلِ وَتَكْرَرُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْسَخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةٍ إِلَّا أَصْلَهُ
تَكُونُ الْمَلَكَةُ وَنَقْلُ الْمَعَايِنَةِ أَوْعَبُ وَأَتْمَ مِنْ نَقْلِ الْخَبَارِ وَالْعِلْمِ فَالْمَلَكَةُ الْمَاحِلَّةُ
عَنْ الْخَبَرِ عَلَى قَدْرِ جُودَةِ النَّعْلَمِ وَمَلَكَةُ الْمُتَعْلِمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ
إِنَّ الصَّنَاعَةَ مِنْهَا الْبَسِطُ وَمِنْهَا الْمَرَكُبُ وَالْبَسِطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُ بِالْفَسْرُورِيَّاتِ
وَالْمَرَكُبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالَيَّاتِ وَالْمُتَقْدِرَمُ مِنْهَا فِي النَّعْلَمِ هُوَ الْبَسِطُ لِسَاطَتِهِ
أَوْلَأَ وَلِأَنَّهُ يَخْتَصُ بِالْفَسْرُورِيَّ الَّذِي لَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي النَّعْلَمِ
وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ الْفَكْرُ يُغْرِبُ أَصْنَافَهَا وَمَرَكَابَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ
بِالْأَسْبَابِ شَبَيَّهًا فَشَيَّئًا عَلَى التَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْنُلُ وَلَا يَعْصِلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَعْصِلُ
فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيمَاءً
فِي الْأَمْوَالِ الْصَّنَاعَيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهُ إِذَنَ مِنْ زَمَانٍ وَلِهَذَا تَجِدُ الصَّنَاعَةَ فِي الْأَمْصَارِ الْصَّغِيرَةِ
نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِطُ فَإِذَا تَزَادَتْ حَضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورُ الْتَّرَفِ فِيهَا إِلَى
أَسْتِعْمَالِ الصَّنَاعَةِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ وَتَنَقَّسَ الْصَّنَاعَةُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُ
بِأَمْرِ الْمَعَاشِ فَسَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ فَسَرُورِيًّا وَإِلَى مَا يَخْتَصُ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصَّةٌ
لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْعِلْمِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْسِيَاسَةِ وَمِنَ الْأَوَّلِ الْجِيَّاَكَةُ وَالْجِيَّارَةُ وَالنَّجَارَةُ
وَالْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا وَمِنَ الثَّانِي الْوَرَاقَةُ وَهِيَ مَعْنَاهُ الْكِتَبُ بِالْأَنْسَاخِ وَالْتَّجْلِيدِ وَالْفِنَاءِ
وَالشِّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنَ الثَّالِثِ الْجِنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَاللهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع اما تكمل بكمال العمران الحضري وكثثرته
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يُسْتَوِفْ الْعُمَرَانُ الْحَضَرِيُّ وَتَسْمَدُ الْمَدِينَةُ
إِنَّمَا هُمُّهُمْ فِي الْفَسْرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَعْصِيلُ الْأَفْوَاتِ مِنَ الْخِنْطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا
تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَادَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَفَتْ بِالْفَسْرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ مَرْفَقُ الْزَائِدِ
جِيَّشَ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَاعَةَ وَالْعِلْمَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ
جِيَّشَ فِكْرَهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيْوَانَاتِ وَالْقُوَّتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيْوَانَيَّةُ وَالْغِذَائِيَّةُ فَهُوَ

مُقدَّمٌ لِـ*الضروريَّةِ عَلَى الْعِلُومِ وَالصَّنَاعَةِ* عنِ *الضروريِّ* وَعَلَى مِقدَارِ عمرانِ الْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَاعَةِ لِـ*الثَّانِيَّةِ* فِيهَا حِينَئِذٍ وَاسْتِجَادَةٌ مَا يُطَلَّبُ مِنْهَا بِحِيثُ تَوَفَّرُ دَوَاعِي الْتَّرَفِ وَالثُّرُوَّةِ وَامْمَأَ الْعِمْرَانِ الْبَدَوِيِّ أَوِ الْقَلِيلُ فَلَا يَعْتَاجُ مِنَ الصَّنَاعَةِ إِلَّا البَسِطَةُ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلَ فِي الْبَرِّ وَبَرِّ الْمَاءِ مِنْ نَجَارٍ أَوْ حَدَّادٍ أَوْ خَيَاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ جَزَّارٍ وَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ بَعْدَ فَلَا تُوجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلَا مُسْتَجَادَةً وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارٍ الْبَرِّ وَإِذِ هيَ كُلُّهَا وَسَائِلٌ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيَسْتَ مَقْصُودَةً لِـ*ذَاهِنَّهَا* وَإِذَا زَخَّرَ بَعْرُ الْعِمْرَانِ وَطُلِّبَتْ فِيهِ الْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جُمِلَتِهَا الْثَّانِيَّةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَاسْتِجَادَتِهَا فَكَمْلَتْ بِجَمِيعِ مُسْتَهْمَاتِهَا وَتَزَادَتْ صَنَاعَةُ الْأَخْرَى مَعَهَا مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ عَوَانِدُ الْتَّرَفِ وَاحْرَوَالُهُ مِنْ جَزَّارٍ وَدَبَاغٍ وَخَرَازٍ وَصَائِفٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَنَاهَى هَذِهِ الْأَصْنَافُ إِذَا أَسْتَبَرَ الْعِمْرَانُ إِلَى أَنْ يُوجَدَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالثَّانِيَّةِ فِيهَا فِي الْغَایِةِ وَتَكُونُ مِنْ وُجُوهِ الْمَعَاشِ فِي الْمِصْرِ الْمُسْتَحْلِلِهَا بَلْ تَكُونُ فَائِدَتِهَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ الْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْتَّرَفُ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْدَّهَانِ وَالصَّفَارِ وَالْحَمَانِيِّ وَالْطَّبَانِيِّ وَالشَّمَاعِ وَالْمَرَاسِ وَمُعْلِمِ الْغِنَاءِ وَالرَّفَصِ وَقَرْعِ الْطَّبُولِ عَلَى التَّوْقِيقِ وَمِثْلَ الْوَرَاقِينَ الَّذِينَ يُعَانِونَ صِنَاعَةَ اِنْتِسَاخِ الْكِتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَضْخِيمِهَا فَإِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْتَّرَفُ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَشْتِقَالِ بِالْأَمْوَالِ الْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَخْرُجَ عَنِ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْعِمْرَانُ خَارِجًا عَنِ الْحَدِّ كَمَا يَلْفَدَا عَنِ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعْلِمُ الطَّيُورَ الْعُجُمَ وَالْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَيَتَغَيَّلُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَابِ بِإِيمَانِ قَلْبِ الْأَعْيَانِ وَتَعْلِمُ الْحَدَاءَ وَالرَّفَصِ وَالْمَشَى عَلَى الْخِيُوطِ فِي الْمَوَاءِ وَرَفْعُ الْأَشْقَالِ مِنَ الْحَيَوانِ وَالْجَمَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ عِنْدَنَا بِالْمَغْرِبِ لِأَنَّ عِمْرَانَ أَمْصَارِهِ لَمْ يَبْلُغْ عِمْرَانَ مِصْرَ وَالنَّاهِرَةَ أَدَمَ اللَّهُ عِمْرَانَهَا بِالْمُسْلِمِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والأوان والعوائد إنما ترسخ بكثره التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر تزعها ولهذا تجد في الامصار التي كانت استبورة في

الحِضَارَةِ لِمَا تَرَاجَعَ عُمْرَانَهَا وَتَنَاهَصَ بَقِيَّتُ فِيهَا آثَارُ مِنْ هُذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا
 مِنَ الْأَمْصَارِ الْمُسْتَخْدَثَةِ الْعُمْرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغُهَا فِي الْوُفُورِ وَالْكَثْرَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا
 لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ الْعُمْرَانِ مُسْتَخْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ يَطْأُولُ الْأَخْتَابَ وَتَدَوَّلُ الْأَخْوَالِ
 وَتَسْكُرُهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغْ الْفَاتِيَّةَ بَعْدُ وَهَذَا كَلْمَالٌ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ
 فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالُهَا مُسْتَخْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ عَوَادِهِ
 أَمْصَارُهَا كَالْمَبَانِي وَالْطَّبَاغَ وَأَصْنَافِ الْغَنَاءِ وَالْأَهْوَى مِنَ الْأَلَالَاتِ وَالْأَوْتَارِ وَالرَّتَنِ
 وَتَنْضِيدِ الْفُرُشِ فِي الْقُصُورِ وَحُسْنِ الْتَّرْتِيبِ وَالْأَوْضَاعِ فِي الْبَنَاءِ وَصَوْغِ الْأَنْيَةِ مِنْ
 الْمَعَادِنِ وَالْخَرْفِ وَجَمِيعِ الْعَوَادِينِ وَإِقَامَةِ الْوَلَاثِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَسَائرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي
 يَدْعُونَ إِلَيْهَا الْتَّرَفُ وَعَوَادِهِ فَتَعِدُهُمْ أَفْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَهُمْ بَهَا وَنَجِدُ صَنَائِعُهَا مُسْتَخْكِمَةَ
 لَدَهُمْ فَهُمْ عَلَى حِصْنَةِ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَظِيَ مُتَمَيِّزٌ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ
 عُمْرَانَهَا قَدْ تَنَاهَصَ وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمْرَانَ غَيْرَهَا مِنْ يَلَادِ الْعُدُودِ وَمَا ذَاكَ
 إِلَّا مَا قَدَّمْنَا مِنْ رُسُوخِ الْحِضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوخِ الدَّوْلَةِ الْأَمْوَالِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ
 الْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الْطَّوَافِ وَهُلْمَ جَرَأَ فَبَاغَتِ الْحِضَارَةِ فِيهَا مَبَالِغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قُطْرِ
 إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ الْعَرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لِطُولِ أَمَادِ الدُّولِ فِيهَا فَاسْتَعْمَكَتْ فِيهَا
 الصَّنَائِعُ وَكَمْلَتْ جَمِيعَ أَصْنَافِهَا عَلَى الْأَسْبَاجَادَةِ وَالْتَّسْبِيقِ وَبَقِيَّتْ صِبْغَتَهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ
 الْعُمْرَانِ لَا تُفَارِقُهُ إِلَى أَنْ يَتَنَقَّضَ بِالْكَلِيلِيَّةِ حَالُ الصِّبَغِ إِذَا رَسَخَ فِي الْثُوبِ وَكَذَا
 أَيْضًا حَالُ تُونِسِ فِيمَا حَصَلَ فِيهَا بِالْحِضَارَةِ مِنْ الدُّولِ الْصَّنَهَاجِيَّةِ وَالْمُوَحِّدِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَمَا أَسْتَكْمَلَ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائرِ الْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
 دُونَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومٍ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ الْمَسَافَةِ يَنْهَا
 وَتَرَدِدُ الْمُسَافِرِينَ مِنْ قُطْرِهَا إِلَى قُطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ
 عُصُورًا فَيَنْقِلُونَ مِنْ عَوَادِهِ تَرَفِهِمْ وَمُنْخَكِمَ صَنَائِعُهُمْ مَا يَقْعُدُ لَدَهُمْ مَوْقِعَ الْأَسْتِحْسَانِ
 فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ
 مَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ أَجْلَاءَ لِعَهْدِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَرَسَخَ
 فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالُ وَإِنْ كَانَ عُمْرَانَهَا لَيْسَ يُمْنَاسِبَ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ الصِّبَغَةَ
 إِذَا أَسْتَخْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا يَزَوَّلُ مَحْلَهَا وَكَذَا نَجِدُ بِالْقِرْبَوَانِ وَمَرْكَاشَ وَقَلْعَةَ

أَبْنَ حَمَادَ أَثْرَا بِأَقِيمَا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ
وَلَا يَفْطَئُنَّ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَعْدُ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَثْرًا تَدْلِيْلٌ عَلَى مَا كَانَ يَهْبَأ
كَثِيرٌ أَنْلَهَتِ الْمَحْمُورِ فِي الْكِتَابِ وَاللَّهُ أَنْلَهَ لِلْعَالَمِ

الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ الصِّنَاعَةَ إِنَّمَا تُسْجَدُ وَتُكَثَّرُ إِذَا كَثُرَ طَالِبُهَا
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَمْعُ بِعِمَلِهِ أَنْ يَقْعُدْ بِعَاجِلَانِ لِأَنَّهُ كَسْبُهُ
وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذَا لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمُرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرُفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ
قِيمَةٌ فِي مِصْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتِ الصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةٌ وَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا النَّفَاقُ
كَانَتْ حِينَئِذٍ الصِّنَاعَةُ بِمَثَابَةِ السِّلَامَةِ الَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتَجْلِبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْعَلُهُ النَّاسُ فِي
الْمَدِينَةِ لِتَعْلَمَ تِلْكَ الصِّنَاعَةَ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ
تَنْفُقُ سُوقُهَا وَلَا يُوجَدْ قَصْدٌ إِلَى تَعْلُمِهَا فَأَخْتَصَتْ بِالْتَّرَكِ وَفُقِدَتِ الْلِلَامِنَالِ وَلِهَذَا يُقَالُ
عَنْ عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُ بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي قِيمَتِهِ أَيْ
قِيمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضًا فِيهَا سِرْرٌ أَخْرُ وَهُوَ أَنَّ الصِّنَاعَةَ وَإِجَادَتِهَا إِنَّمَا
تَنْظَلُهَا الْدُّولَةُ فَهِيَ الَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتَوَجَّهُ الْطَالِبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَنْظُلْهُ الْدُّولَةُ وَإِنَّمَا
يَنْظُلُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لَأَنَّ الدُّولَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا
نَفَاقٌ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَا تَنَقَّ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرُهُ يَأْتِي
ضَرُورَةً وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصِّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلَبُهُمْ بِعَامٍ وَلَا سُوقُهُمْ بِنَافِقَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا قَارَبَتِ الْخَرَابِ انتَفَضَتْ مِنْهَا الصِّنَاعَةُ

وَذَلِكَ لِمَا يَبْيَنُ أَنَّ الصِّنَاعَةَ إِنَّمَا تُسْجَدُ إِذَا أَخْتَمَ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعَفَتْ
أَحْوَالُ الْمَصْرِ وَأَخَذَ فِي الْهُرُمَ بِأَنْتِقَاضِ عُمُرِهِ وَقَلَّةِ سَاكِنَهِ تَنَاقَصَ فِيهِ الْتَّرَفُ وَرَجَعُوا
إِلَى الْأَقْتِصَارِ عَلَى الْفَضْرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَنَقَّلَ الصِّنَاعَةُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَابِعِ الْتَّرَفِ لِأَنَّ
مَاحِبَّهَا حِينَئِذٍ لَا يَصْبِعُ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَغْرِي إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلْفَ مِنْهُ

فَيَذَهِبُ رَسْمُ تِلْكَ الصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذَهِبُ النَّقَاشُونَ وَالصُّوَاعِ وَالْكِتَابُ وَالشَّانَ وَامْثَالُهُمْ مِنَ الصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَلَا تَزَالُ الصَّنَائِعَاتُ فِي الْتَّنَافُصِ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَ وَاللَّهُ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ وَسُبْحَانُهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَغْرَقُ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ الْعُمْرَانِ الْخَضْرَىِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا وَالْجَمِيعُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَمْمَ النَّصَارَىِ عُذْوَةَ الْبَغْرِ الرَّشْوَىِ أَقْوَمُ النَّاسِ عَلَيْهَا لَأَنَّهُمْ أَغْرَقُ فِي الْعُمْرَانِ الْخَضْرَىِ وَأَبْعَدُ عَنِ الْبَدْوِ وَعُمْرَانِهِ حَتَّىٰ إِنَّ الْإِبْلَىِ الَّتِي أَذَانَتِ الْعَرَبَ عَلَىَ التَّوْحِشِ فِي الْقَفْرِ وَالْأَغْرَاقِ فِي الْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لِدِيْهِمْ بِالْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مِنْ أَعْيَهَا وَأَلْ مَالُ الْمَهِيَّةِ لِتَاجِهَا وَاهْدَانِهِمْ أَفْطَانَ الْعَرَبِ وَمَا مَلَكُوهُ فِي الْإِسْلَامِ قَلِيلَ الصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ حَتَّىٰ تَجْلِبَ إِلَيْهِ مِنْ قُطْرِ آخَرَ وَأَنْظُرَ بِلَادَ الْجَمِيعِ مِنَ الصِّينِ وَالْهَنْدِ وَأَرْضِ التَّرْكِ وَأَمْمَ النَّصَارَىِ كَيْفَ أَسْتَكْثَرَتْ فِيهِمُ الصَّنَائِعُ وَأَسْتَجْلِبَهَا الْأَمْمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعِجَمُ الْمَغْرِبِ مِنْ الْبَرِّ بِمِثْلِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْبَدَاؤَةِ مُنْذُ أَخْنَابِ مِنِ الْسَّنِينِ وَيَشَهِدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلْهُ الْأَمْصَارِ بِقُطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ بِذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَخْسَكَةٌ الْأَمْمَاكِنِ مِنْ صِنَاعَةِ الْصُّوفِ مِنْ تَسْجِهِ وَالْجَلَدِ فِي خَرْزِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَسْتَعْضَرُوا بَلَغُوا فِيهَا الْمَبَاكِعَ لِعُومُ الْبَلْوَىِ بِهَا وَكَوْنِ هَذِينَ أَغْلَبَ السَّلَعِ فِي قُطْرِهِمْ لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبَدَاؤَةِ وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ رَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مَلْكِ الْأَمْمَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالْبَطْ وَالْقَبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَبُونَانَ وَالرَّشْوَمِ أَخْقَابًا مُسْتَطَوْلَةً فَرَسَخَتِ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ وَمِنْ جُمِيَّهَا الصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَمْ يَعْرِفْ رَسْمَهَا وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالْبَغْرَانِ وَعُمَانُ وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَأُلُوا مُلْكَةَ الْأَفَافِ مِنِ الْسَّنِينِ فِي أَمْمٍ كَثِيرَةٍ مِنْهُمْ وَأَخْتَطَلُوا أَمْصَارَهُ وَمُدَنَّهُ وَبَلَغُوا الْنَّاَيَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْتَّرَفِ مِثْلَ عَادَ وَشَمُودَ وَالْعَمَالَقَةِ وَحَمِيرَةِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَالْتَّبَاعَةِ وَالْأَذْوَاءِ فَطَالَ أَمْدُ الْمُلْكِ وَالْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَفَّتْ الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبْلِيَ الْدُّوَلَةَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَجَدَّةً حَتَّىٰ الْآنِ وَأَخْتَصَتْ بِذَلِكَ الْوَطَنِ كَصِنَاعَةِ الْوَشَىِ وَالْمَصْبِبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْلِ الْقِيَابِ وَالْحَرَبِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ

الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثَينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى
ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا
يمجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى لم تستحقكم بعد ولم
ترسمخ صيتها والسبب في ذلك أن الملوك صفات النفس والوان فلا تزدحم دفعه
ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملوك تو حسن استعدادا لحصولها فإذا
تلوات النفس بالملائكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضفت فيها الاستعداد باللون
الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكية أضعف وهذا بين يشهد له الوجود
فقل أن مجده صاحب صناعة يحكمها ثم يحيى من بعدها أخرى ويكون فيما معها
على رتبة واحدة من الإجاد حتى ان أهل العلم الذين ملك لهم فكريتهم بهدوء
المثابة ومن حصل منهم على ملائكة علم من العلوم وأجادها في النهاية فقل أن يجيد
ملائكة علم آخر على نسبته بل يكون مقصرا فيه إن طلبه إلا في الأقل النادر من
الأحوال ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في
النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثره الذهاب المتدواله في
القرآن فهي بحسب تشد عن الحضر ولا ياخذها العدد إلا أن منها ما هو ضروري
في القرآن أو شريف بالموضوع فنخصها بذلك وترك ما سواها فاما ضروري
فاللائحة والبناء والخياطة والتجارة والنعامة وما الشرف بالموضوع فكالتوليد
والكتابه والوراقه والغباء والطب فاما التوليد فإنها ضرورية في القرآن
وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود وتشتم غالباً وموضوعها مع ذلك المولودون
وامهاتهم وأما الطيب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ويتفرع

عَنْ عِلْمِ الْطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعَهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ وَمَا أَكْتَابَهُ وَمَا يَتَبَعَّهَا مِنَ
الْوَرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتُهُ وَمُقِيدَةٌ لَهَا عَنِ النَّسِيَانِ وَمُبْلَغَةٌ خَمَائِرُ
النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَابِ وَمُخْلَدَةٌ نَّاتِحَةٌ الْأَفْكَارِ وَالْعِلْمِ فِي الْعُجُوفِ وَرَافِعَةٌ رُّتبَةٌ
الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَمَا الْغِنَاءُ فَهُوَ نَسْبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظَاهِرُ جَمَالِهَا لِلْأَذْنَاءِ وَكُلُّ هُذِهِ
الصَّنَاعَاتِ الْثَّلَاثُ دَاعٌ إِلَى مُخَالَطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعْاظِيمِ فِي خَلْوَاتِهِمْ وَمِجَالِسِ أُنْسِيَمْ فَلَهَا
بِذَلِكَ شَرْفٌ لَبَسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَنَةٌ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ
يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاِخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَالْدَّوَاعِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصِّنَاعَةُ شَمَرَتْهَا اِنْتَخَادُ الْأَفْوَاتِ وَالْجُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثْرَةِ الْأَرْضِ لَهَا
أَزْدِرَاعُهَا وَعِلَاجُ بَنَاتِهَا وَتَعْهِيدهُ بِالسَّقِيرِ وَالْتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حِصَادِ سُبُلِهِ
وَاسْتِخْرَاجِ حَيَّةٍ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ الْأَعْدَالِ لِذَلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ
أَقْدَمُ الصَّنَاعَاتِ لِمَا أَنَّهَا تَحْصِلَةٌ لِلْقُوتِ الْمُكَمِّلِ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِ غَالِبًا إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ
مِنْ دُونِ الْقُوتِ وَلِهَذَا أَخْتَصَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ إِذْ قَدَّمَنَا آنَهُ أَقْدَمُ مِنَ الْخَضْرِ
وَسَابِقُ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدَوِيَّةٌ لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَفَرُ وَلَا يَعْرُفُونَهَا لَأَنَّ
أَخْوَالَهُمْ كُلُّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى الْبَدَاوِي فَصَنَاعَتْهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَاعَتِهَا وَثَانِيَةٌ لَهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُقِيمُ الْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هَذِهِ الصِّنَاعَةُ أَوْلُ صَنَاعَاتِ الْعُمَرَانِ الْحَفَريِّيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةٌ أَنْتَهَى فِي اِنْتَخَادِ
الْبَيْوَتِ وَالْمَنَازِلِ لِلْسُّكُنِ وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمُدُنِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا جَبِيلَ
عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَخْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يُفْكِرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ الْحَرَقِ
وَالْبَرْدِ كَانِتِخَادُ الْبَيْوَتِ الْمُكَتَنَفَةِ بِالسُّقُفِ وَالْجِبَطَانِ مِنْ مَهَائِرِ جِهَاتِهَا وَالْبَشَرُ مُخْتَلِفُ
فِي هَذِهِ الْجِيلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَهُنْمُ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَخَذُونَ ذَلِكَ يَأْعِدَالَ أَهَالِي الْثَّانِي
وَالثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَمَا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ اِنْتَخَادِ ذَلِكَ لِقُصُورِ

أَفْكَارُهُمْ عَنِ إِدْرَاكِ الصَّنَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَسَادُونَ لِلْغَيْرِ إِنْ وَالْكُوْفُ الْمُعْدَدُ مِنْ غَيْرِ
 إِلَاجِئِ الْمُعْتَدِلُونَ الْمُتَحَذِّلُونَ الْمَأْوَى قَدْ يَتَكَاثِرُونَ فِي الْبَسِطِ الْوَاحِدِ بِعِيشُ
 يَتَسَاكِرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَخْتَوْنَ طَرْقَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمِعِهِمْ بِإِدَارَةِ
 مَاءً أَوْ أَسْوَارَ تَحْوِطُهُمْ وَيَصِيرُ تَجْمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمِصْرًا وَاحِدًا وَيَحْوِطُهُمُ الْحَسَكَةُ
 مِنْ دَاخِلٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْاِنْتِصَافِ وَيَتَسْخِدُونَ الْمَعَاقِلَ
 وَالْحَسَدُونَ لَهُمْ وَإِمَانُهُمْ يَتَحَتَّ أَيْدِيهِمْ مِثْلَ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَسَكَارِ
 الْقَبَائِلِ فِي الْمُدُنِ كُلُّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ وَيَصْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيَنْاسِبُ مِزَاجَهُمْ هَوَاهُمْ
 وَأَخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْفَنِيِّ وَالْفَقْرِ وَكَذَا حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فِيهِمْ مَنْ
 يَتَخَذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةَ الْمُشَتَّلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبَيْوتِ وَالْفَرْسِ
 الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وَلَدِيهِ وَحَشْمِهِ وَعِبَالِهِ وَتَابِعِهِ وَيُؤْسِسُ جُذُرَانَهَا بِالْجَمَارَةِ وَيَلْكِمُ يَسِنَاهَا
 بِالْكَلِسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ وَالْجِصِّنِ وَيَبَالِغُ فِي ذَلِكَ بِالْتَّنْبِيَّهِ وَالْتَّنْسِيقِ إِظْهَارًا
 لِلْبَسْطَةِ بِالْعِنَادِيَّةِ فِي شَأْنِ الْمَأْوَى وَيَهْبِي مَعَ ذَلِكَ الْأَمْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلِلَاخْتِزَانِ
 لِلْأَقْوَاهِ وَالْإِسْنَطَبَلَاتِ لِرَبْطِ مُقْرِبَاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنُودِ وَكَثْرَةِ الْتَّائِبِ وَالْمَاحِشِيَّةِ
 كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدُّوَرَةَ وَالْبَيْوتَ لِنَفِيَهُ وَسَكِّنَهُ وَوَلَدِهِ لَا
 يَسْتَغْيِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ وَأَفْتِصَارِهِ عَلَى الْكِنْ كِنْ الطَّبِيعِيِّ الْبَشَرِ وَبَيْنَ
 ذَلِكَ مَرَاتِبُ غَيْرِ مُنْحَصِّرَةٍ وَقَدْ يَحْتَاجُ لِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَيْضًا عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
 الْدُّولِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ وَالْهُبَا كُلَّ الْمُرْتَفَعَةِ وَيَبَالِغُونَ فِي إِنْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ
 مَعَ الْأَخْكَامِ لِتَبْلُغُ الصِّنَاعَةُ مَبَالِغَهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تَحْصِلُ الدَّوَاعِي لِذَلِكَ وَأَكْثَرُ
 مَا تَكُونُ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي الْأَقْالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الْوَابِعِ وَمَا حَوَالَهُ إِذَا الْأَقْالِيمُ الْمُنْخَرِفَةُ
 لَا يَنْأِيَهَا وَإِنَّمَا يَتَخَذُونَ الْبَيْوتَ حَظَائِرَ مِنَ الْقَصَبِ وَالْطَّينِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْأَقْالِيمِ
 الْمُعْتَدِلَةِ لَهُ وَأَهْلُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا مُتَفَاقُو تُونَ فِيهِمُ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ
 الْقَاصِرُونُ هُمْ هِيَ تَشْوِعُ أَنْوَاءً كَثِيرَةً فَيَنْهَا الْبَنَاءُ بِالْجَمَارَةِ الْمُعْجَنَّدَةِ يُقَامُ بِهَا الْجُذُرَانُ
 مَلْصَقًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِالْطَّينِ وَالْكَلِسِ الَّذِي يَعْقَدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَانَهَا جَسْمٌ وَاحِدٌ
 وَمِنْهَا الْبَنَاءُ بِالْتَّرَابِ خَاصَّةً يَتَعَذَّلُ لَهَا لَوْحَانٌ مِنْ أَنْخَبٍ مُقْدَرَانِ طُولاً وَعَرْضاً بِالْخَلَافِ
 الْعَادَاتِ فِي الْتَّقْدِيرِ وَأَوْسَطُهُ أَزْبَعُ اذْرُوعٍ فِي ذِرَاعِيْنِ فِيْهَا صَبَانٌ عَلَى أَسَاسٍ وَقَدْ يُوَدِّ

ما ينتهي بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويصل بهما بأذرعه من الخشب
 يربط عليها بالجبل والجدر ويسد الجهازان البافيتان من ذلك أخلاء بهما بلوحة بن
 آخرتين صغيرتين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويزكر بالمرآكز المعدة
 حتى ينبع ركزة ويختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانية وثالثاً إلى أن يملي ذلك أخلاء
 بين الألوتين وقد تدخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم يعاد
 تصب الألوتين على صورة ويزكر كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من
 فوق سطر إلى أن ينظم الحائط كله ملتحماً كأنه قطعة واحدة ويسعى الطاية
 وصانعة الطواب ومن صنائع البناء أيضاً أن يجعل الحيطان بالكلس بعد أن يحل
 بالماء ويغمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدلي مزاجه عن إفراطي النار يمسدة
 لالحاج فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يتجمد ومن
 صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمه التجاره أو الساذجه على حائط
 البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالدسائير وبصبه عليها التراب والكلس
 ويُسطّ بالمرآكز حتى تدخل أجزاؤها وتلتسم ويعلى عليها الكلس كما يعلى
 على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التسميق والتزيين كما يصنع من فوق
 الحيطان الأشكال الجسمة من الجص يغمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية
 البلى فيشكل على الناسب تخرجاً يماثل الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواه
 وربما على على الحيطان أيضاً يقطع الرخام والأجر والخزف أو الصدف أو
 السيج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع
 مقدرة عندهم يدويد الحائط للعيان كأنه قطع الزياض المنعمنة إلى غير ذلك
 من بناء الجباب والصهاريج لسعن الماء بعد أن تعدد في البيوت قصاع الرخام القواراء
 المحكمه انحرط بالفوهات في وسطها لمنع الماء الجاري إلى الصهاريج يجعل إليه من
 خارج القنوات المفضية إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصناع في
 جميع ذلك باختلاف الحدق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع في كثرون وربما
 يرجع الحكم إلى نظر هؤلاء فيما يصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس
 في المدن يكترون الأزدحام والمران يتشاركون حتى في الفضاء والهواء الأعلى

والأسفل ومن الأارتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الفرر في المحيطان فيمضي
 جائزة من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ
 للمياه الجاربة والنضالات المترتبة في القنوات وربما يدعى بعضهم حق بعض في
 حائطه أو علوه أو فداته لتضارب الموارد أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه
 خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو
 يحتاج إلى قسمة داراً في عرصته بين شريكان بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال
 لمنفعتها وأمثال ذلك ويختفي جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله
 المستديرين عليها يا المعاقدين والقمعط ومرآكير الخشب وميل المحيطان وأعنة لها وقسم
 المساكن على نسبة أوضاعها و漫افعها وتسريب المياه في القنوات محلوبة ومرفوعة
 بحيث لا تضر بما مررت عليه من البيوت والمحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كل البصر
 والماء التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار
 الدول وقوتها فإنما قدمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة وكثرة
 الطالب لها فإذا ذلك عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى
 غير قدرها كما وقع للوليد ابن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس
 ومسجده بأشام فبعث إلى ملك الروم بالقدس طينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث
 إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء
 من الهندسة مثل تسوية المحيطان بالوزن وإجزاء المياه باخذ الأارتفاع وأمثال ذلك
 فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله وكذلك في جزء الانتقال بالهندام فإن الأجرام
 العظيمة إذا شيدت بالتجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من
 الحائط فيتحيّل لذلك بمساعدة قوة الجبل بإدخاله في المعالق من ثقب مقدرة على
 نسب هندسية تصير الثقيل عند معانقه الرفع خيفاً فتتم المراد من ذلك بغير لفترة
 وهذا إنما يتم بحصول هندسية معروفة متداولة بين البشر ويمثلها كل بناء لها كل
 المائلة لهذا العهد الذي يحسب أنها من بناء الجاهليه وأن أبدانهم كانت على نسبتها في
 العظام الجسامي وليس كذلك وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه
 فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذِهِ الصِناعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْعُمْرَانِ وَمَادِهَا الْخَشْبُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلَّادَمِيِّ فِي كُلِّ مُكَوَّنٍ مِنَ الْمُكَوَّنَاتِ مَنَافِعَ تَكْمِلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ أَوْ حَاجَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا الشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْحَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمِنْ مَنَافِعِهَا اتِّخَادُهَا خَشْبًا إِذَا يَبْسَطُ وَأَوْلُ مَنَافِعِهِ أَنْ يَكُونَ وَقُودًا لِلنَّيْرَانِ فِي مَعَاشِهِمْ وَعِصَمِ الْأَسْكَاءِ وَالنَّدْفِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ ضَرُورَاتِهِمْ وَدَهَائِمَ لِمَا يَخْشِي مِيلُهُ مِنْ أَثْقَالِهِمْ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَالْخَضْرِ فَمَا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَتَعَذَّرُونَ مِنْهَا الْمُدْرَدِ وَالْأَوْتَادَ خَلِيلَهُمْ وَالْمَدْوَجَ لِطَعَانَهُمْ وَالرِّمَاحَ وَالْقِسْيَ وَالسِّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَمَا أَهْلُ الْخَضْرِ فَالسَّقْفُ لِبَيْوِهِمْ وَالْأَغْلَاقُ لِأَبْوَاهِمْ وَالْكَرَاسِيُّ لِجَلْوَهُمْ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ فَالْخَشْبَةُ مَادَةٌ لَهَا وَلَا تَصِيرُ إِلَى الصُّورَةِ الْخَاصَّةِ بِهَا إِلَّا بِالصِناعَةِ وَالصِناعَةُ الْمُتَكَفَّلَةُ بِذَلِكَ الْخَصَّالَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُورَهَا هِيَ النَّجَارَةُ عَلَى اخْتِلَافِ رُتُبِهَا فَيَتَحَتَّاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَنْصِيلِ الْخَشْبِ أَوْ لَا إِمَّا بِخَشْبٍ أَصْغَرَ مِنْهُ أَوْ الْأَزْوَاجِ مُرْسَكٍ بِتِلْكَ الْأَهْمَالِ بِخَشْبِ الْأَصْوَرِ الْمَطْلُوبَةِ وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَعْوَلُ بِصَنْعِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ الْفَصَائِلِ بِالْأَنْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءِ ذَلِكَ الْشَّكَلِ الْمُتَكَفَّلِ الْمُخْصُوصِ وَالْقَائِمِ عَلَى هَذِهِ الصِناعَةِ هُوَ النَّجَارُ وَهُوَ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمْرَانِ ثُمَّ إِذَا عَظَمَتِ الْخَضَارَةُ وَجَاءَ التَّرَفُ وَتَأْنِقُ النَّاسُ فَيَعْمَلُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْزِينٍ أَوْ مَاعُونٍ حَدَّثَ أَنَّا نَقَّ النَّاسُ فِيمَا يَتَعَذَّرُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْزِينٍ أَوْ الْفَسَرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلِ الْتَّخْطِيطِ فِي الْأَبْوَابِ وَالْكَرَاسِيِّ وَمِثْلَ تَهْيَةِ الْقِطَعِ مِنْ الْخَشْبِ بِصِناعَةِ الْخَرْمَطِ يُجْعَلُهُمْ بِرَبِّهَا وَتَشْكِيلُهُمْ ثُمَّ تُوَلَّفُ عَلَى نِسَبٍ مُقْدَرَةٍ وَتُلْخَمُ بِالْكَسَائِرِ فَتَبَدُّلُ لِرَأْيِ الْعَيْنِ مُلْتَحَمَةً وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا اخْتِلَافُ الْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُبٍ يَصْنَعُ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يَشَدَّدُ مِنْ الْخَشْبِ فَيَجْعَلُهُ أَنْقَ مَا يَكُونُ وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يَتَحَتَّجُ إِلَيْهِ مِنْ الْأَلَالَاتِ الْمُتَخَلَّدةِ مِنَ الْخَشْبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَنْ وَكَذَلِكَ قَدْ يَتَحَتَّجُ إِلَى هَذِهِ الصِناعَةِ فِي إِنْشَاءِ الْمَرَاكِبِ الْمُتَجْرِيَّةِ ذَاتِ الْأَلَوَاحِ وَالْمُسْرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَتْ عَلَى قَالِبِ الْحُوتِ وَأَغْتَبَارٌ سُبْحَعِهِ فِي الْمَاءِ يَقْوَادُهُ وَكَلْمَكَلَهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ الْشَّكَلُ أَعْوَنَ

لها في مُصادمة الماء وَجْمِل لها عوض الحركة الحيوانية التي للشك تحررك أَرْبَاح وَرُبَّما أُعِنَت بحركة المقادير كما في الأسطيل وهذه الصناعة من صناعات محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع صنافتها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة النسب في المقادير إما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدوس صاحب كتاب الأصول في الهندسة بجراها وبها كان يُعرَف وكذلك أبولينوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوس وغيرهم وفيما يقال أن عَلِمَ هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معبوته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان مُنكراً أعني كونه بجراها لأن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليلاً من النقل عليه بعد الآماد وإنما معناه والله أعلم لا إشارة إلى قدم التجارة لأن لم يصح حكایة عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها ففهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في ال عمران لما يحتاج إليه البشر من أرباح فال الأولى تستخرج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداه في الطول والخامما في العرض لذلك النسج بالانتحام الشديد فتتم منها قطع مقدرة فنها الأكسيه من الصوف للاشتغال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائل تفصل بالمقواضي قطعاً مناسباً للأعضاء البدنية ثم تلزم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تثبيتاً أو تفسيحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضرى لما أن أهل البدو يستغفون عنها وإنما يشتملون الأثواب أشيائلاً وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإنما ياخذونها للباس من مذهب الحضارة وفروعها وفهم هذه في سر تعميم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على تبني العلائق الدينية كلها وأرجوع إلى الله تعالى

كَمَا خَلَقَنَا أَوْلَ مَرَّةً حَتَّى لَا يُعْلِقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَانِدِ تَرَفِهِ لَا طِيبًا وَلَا نِسَاءً
وَلَا شَيْطَانًا وَلَا خَنْمًا وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدِهِ وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ عَوَانِدِهِ الَّتِي تَلَوَّثَ بِهَا نَفْسُهُ وَخُلُقُهُ
مَعَ أَنَّهُ يَفْقَدُهَا بِالْمَوْتِ ضَرُورَةً وَإِنَّمَا يَجِدُ كَانَهُ وَارِدًا إِلَى الْمَحْسِرِ ضَارِعًا يَقْلِبُهُ مُخْلِصًا
لِرِبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصٌ فِي ذَلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيْوَمَ وَلَدَّهُ أُمُّهُ
سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقْتَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمْتَهُمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصِّنْعَتَانِ
قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلْقَةِ لِمَا أَنَّ الدِّفَنَ ضَرُورِيٌّ لِلشَّرِّ فِي الْعُمَرِ إِنَّ الْمُعْتَدِلَ وَآمَّا الْمُغْرِفُ
إِلَى الْحَرَقِ فَلَا يَخْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفَنٍ وَلِهُمْ يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنْ أَلْسُونَانِ
أَنْهُمْ عُرَاهُونَ فِي الْغَالِبِ وَلِقَدْمِهِمْ هُنْدُو الصَّنَائِعِ يَتَسَبَّبُهَا الْعَامَةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْتِيَاءِ وَرُبَّمَا يَتَسَبُّبُهَا إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَاقُ الْعَلِيمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْأَدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ
الرِّقِّ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى مَا
نَذَكَرُ وَهِيَ مُخْتَصَةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ لِمَا أَنْهَنَ الظَّاهِرَاتُ بِعَضُّهُنَّ عَلَى عَوْرَاتِ
بَعْضٍ وَتُسْعَى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَابِلَةُ أَسْتَعِيرُ فِيهَا مَعْنَى الْإِعْطَاءِ وَالْقُبُولِ
كَانَ النِّسَاءُ تُعْطَيُهَا الْجَنِينَ وَكَانَهَا تَقْبِلُهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا أَسْتَكْنَتِ خَلْقَهُ
فِي الرَّحْمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدْدَةَ الَّتِي قَدَرَهَا اللَّهُ لِمَكْثِهِ هِيَ تِسْعَةُ
أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ التَّزُوُّعِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ
عَلَيْهِ الْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَرَقَ بَعْضَ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضَّغْطِ وَرُبَّمَا أَنْقَطَعَ بَعْضُ
مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْأَلْتِصَاقِ وَالْأَلْتِحَامِ بِالرَّحْمِ وَهَذِهِ كُلُّهَا الْآمَمُ بِشَتَّى
بَهَا الْوَجْعُ وَهُوَ مَعْنَى الْطَّلاقِ فَتَكُونُ الْقَابِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ يَغْمِزُ الظَّهَرِ
وَالْوَرِكَينِ وَمَا يَحْاذِي الرَّحْمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاوِقُ بِذَلِكَ فِعْلَ الدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينِ
وَتَسْهِيلِ مَا يَصْبُبُ مِنْهُ بِمَا يُمْكِنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةِ ثُمَّ إِنْ أَخْرَجَ الْجَنِينَ
بِقِيَّتْ يَسْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحْمِ الْوُصْلَةَ حَيْثُ كَانَ يَتَغَدَّى مِنْهَا مُتَصِّلَةً مِنْ سُرْقَتِهِ بِعَاهٍ وَتَلَكَ

الْوَصْلَةُ عُضُوٌ فَضْلِيٌّ لِتَفْدِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حِيثُ لَا تَمْدُى مَكَانَ
 الْفَضْلَةِ وَلَا تُضْرِبُ بِمَعَاهُ وَلَا يَرْحِمُ أَمَّهُ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجَرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَيْ أَوْ بِمَا
 تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ الْأَنْدِمَالِ ثُمَّ إِنَّ الْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الْغَيْقِ وَهُوَ رَطِيبٌ
 الْعِظَامُ مَسْهُلٌ الْأَنْمَطَافُ وَالْأَنْذَاءُ فَرَبِّمَا تَغْيِيرُ اشْكَالُ أَعْصَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرُوبِ
 الْتَّسْكُونِ وَرُطُوبَةِ الْمَوَادِ فَتَتَنَاهُ الْقَابِلَةُ بِالْغَمْزِ وَالْإِصْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عُضُوٍ إِلَى
 شَكْلِهِ الْطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ الْمُقْدَرِ لَهُ وَيَرْتَدَ خَلْقَهُ مُوْبِيِّا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النَّفَسَاتِ
 وَتَخَادِيَهَا بِالْغَمْزِ وَالْمَلَائِنَةِ بِخُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ الْجَنِينَ لَا نَهَا زَبَماً تَنَاهَ عنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا
 وَيَخْتَسِي عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَةَ حَالَهَا الْطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ
 وَهِيَ فَضَلَّاتٌ، فَتَعْتَفُ وَيَسِّيْ عَفْنَسَا الْمَايَاجِيَّهِ فَقَعَ الْمَلَاكُ فَتَعْهَذِرُ الْقَابِلَةُ هَذَا وَتَحَاوُلُ
 فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَيْهِ أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ الْأَغْشِيَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأْخَرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ
 فَتَسْرِخُ أَعْصَاءُ بِالْأَدْهَانِ وَالْدَّرُورَاتِ الْقَابِيَّةِ اِتَّشَدَهُ وَتَجْفَفَ رُطُوبَاتُ الرَّحِيمِ
 وَتَعْتَسِكُهُ لِرْفَعِهِ وَتَسْعَطُهُ لِاِسْتِفَرَاغِ نُطُوفِ دَمَاهُ وَتَغْرِيْهُ بِالْأَعْوَقِ لِدَفْعِ السَّدَدِ
 مِنْ مَعَاهُ وَتَجْوِيْهَا عَنِ الْأَلْتَصَاقِ ثُمَّ تَدَاوِي النَّفَسَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَمَنِ الَّذِي أَصَابَهَا
 بِالْطَّلَقِ وَمَا الْحَقُّ رَحِيمُهَا مِنْ الْأَمْرِ الْأَنْفَصَالِ إِذَا الْمَوْلُودُ إِنَّ لَمْ يَكُنْ عُضُوًّا طَبِيعِيًّا فَحَالَهُ
 الْتَّسْكُونُ فِي الرَّحِيمِ صَرِيْتَهُ بِالْأَلْتَحَامِ كَالْعُضُوِ الْمُتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي أَنْفَالِهِ الْأَمْرُ
 يَقُرُوبُ مِنْ الْأَمْرِ الْقَطْعِ وَتَدَاوِيْهِ مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْعَقُ الْفَرْجَ مِنْ الْأَمْرِ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمَزِيقِ
 عِنْدَ الضَّغْطِ فِي الْخُرُوجِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَجِدُهُوْلَاءُ الْقَوَابِلَ أَبْصَرَ بِدَوَاهِهَا وَكَذَلِكَ
 مَا يَعْرِضُ لِالْمَوْلُودِ مُدَّةَ الْرَّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَيْهِ حِينَ الْفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبْصَرَ بِهَا
 مِنَ الْطَّيْبِ الْمَاهِرِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّهَا هُوَ بَدَنٌ إِنْسَانِيٌّ
 بِالْقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَآَزَ الْفِصَالَ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانًا بِالْأَفْلَلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الْطَّيْبِ
 أَشَدَّ فِيهِ الْصَّنَاعَةِ كَمَا تَرَاهُ ضَرَبَهُ فِي الْعُوْنَانِ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لَا يَتَمَّ كُونُ
 اشْخَاصِهِ فِي الْعَالَمِ دُونَهَا وَقَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ اشْخَاصِ النَّوْعِ الْأَسْتِغْنَاءِ عَنْ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ إِمَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْزَزَةٌ وَخَرْقًا لِلْعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ صَوَّاتٌ
 اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِإِلْهَامِ وَهَدَاءِهِ يَأْتِيهِمْ لَهَا الْمَوْلُودُ وَيُفْطَرُ عَلَيْهَا فَيَتَمَّ وُجُودُهُمْ
 مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَإِمَّا شَاءَ الْمُعْزَزَةُ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا وَمِنْهُ مَا رُوِيَ أَنَّ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضِعًا يَدِيهِ عَلَى الْأَرْضِ شَاخِصًا يَقْصِرُهُ
 إِلَى السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ شَانُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَآمَّا شَانُ الْإِلَهَمَ فَلَا يَنْكُرُ
 قَوْدًا كَانَتِ الْحَيَّاتُ الْجَمُونُ تَخْتَصُ بِغَرَائِبِ الْإِلَهَامَ كَالْمُنْعَلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنِثَ
 بِالْإِنْسَانِ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَخُصُوصًا بِمَنْ أَخْتُصَ بِكَرَامَةِ اللَّهِ ثُمَّ الْإِلَهَامُ الْعَامُ
 لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْأَقْبَالِ إِلَى الَّذِي أَوْضَعَ شَاهِدَيْهِ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهَامِ الْعَامِ لَهُمْ فَشَانُ
 الْعِنَاءَ الْأَلْمِيَّةَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحْاطَ بِهِ وَمِنْ هَذَا يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحَكْمَاهُ
 الْأَنْدَسِ فِيمَا أَحْتَنُوا بِهِ لِعَدَمِ اِنْقَاطَةِ الْأَنْوَاعِ وَاسْتِحْالَةِ اِنْقَاطَةِ الْمُكَيَّنَاتِ
 وَخُصُوصًا فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا أَوْ أَنْقَطَتْ اِشْغَاصُهُ لِاسْتِخَالِ وَجُرْدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ
 اِنْتَوْقِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتَمَّ دُونُ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا إِذْ لَوْ قَدَرْنَا وَوُلُودًا دُونَ
 هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَكَفَالَتْهَا إِلَى حِينِ الْفَصَالِ لَمْ يَتَمَّ بِقَادِهِ أَصْلًا وَوُجُودُ الصِّنَاعَةِ دُونَ
 الْفَكِيرِ مُمْتَنَعٌ لِأَنَّهَا شَرَّتُهُ وَتَابَهَ لَهُ وَتَكَلَّفَ أَبْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ بِالْعَالَفَةِ
 إِيَّاهُ وَذَاهِيَّهِ إِلَى إِمْكَانِ اِنْقَطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ الْكَوْنِينِ ثُمَّ عَوْدَهِ ثَانِيًّا
 لِاِقْتِضَاءِهِاتِ فَلَكِيَّةِ وَأَوْضَاعِ غَرِيبَةِ تَنَذُّرِ فِي الْأَخْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْيِيرَ طَبِيعَةِ مُنَاسِبَةِ
 لِعَزَاجِهِ بِحِجَارَةِ مُنَاسِبَةِ فِيمَ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَقِيَّضُ لَهُ حَيْوَانٌ يَخْالِقُ فِيهِ إِلَهَامًا لِتَرْبِيَتِهِ
 وَالْحُنُورِ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتَمَّ وَجُودُهُ وَفَصَالُهُ وَأَطْبَبَ فِي يَانِ ذَلِكَ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي سَمِّاها
 رِسَالَةُ حَيَّ بْنَ يَقْظَانَ وَهَذَا الْأَسْتِدْلَالُ غَيْرُ مُتَحَيِّرٍ وَإِنْ كَانَ نُوافِقُهُ إِلَى اِنْقَطَاعِ
 الْأَنْوَاعِ لِكُنْ مِنْ غَيْرِ مَا أَسْتَدَلَ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مُبْنَىٰ عَلَى إِسْنَادِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعُلَمَاءِ
 الْمُوْجَبَةِ وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يُرَدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ
 بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الْكَلْفِ. ثُمَّ لَوْ سَلَّمَاهُ جَدَّاً فَنَيَّاهُ
 مَا يَنْسِي عَلَيْهِ أَطْرَادُ وَجُودِهِ هَذِهِ الْمُخْصِسِ بِمُخْالِقِ الْإِلَهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي الْحَيَوانِ الْأَعْجَمِ وَمَا
 الْفَرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ وَإِذَا كَانَ الْإِلَهَامُ يَخْلُقُ فِي الْحَيَوانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَانُ مِنْ
 خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا فَرَزَنَاهُ أَوْلًا وَخَلَقُ الْإِلَهَامُ فِي شَغَصِ لِصَالِحٍ نَفْسِهِ أَفْرَبُ مِنْ
 خَلْقِهِ فِيهِ لِصَالِحٍ غَيْرِهِ تَكَلَّا الْمُذَهَّبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبُطْلَانِ فِي مَنَاجِيَهُمَا
 لِمَا فَرَزَنَهُ لَكَ وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها تحتاج اليها في الحاضر والامصار دون الbadia

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأماكن لما يُعرف من فائدتها فإن عمرتها حفظاً للصحيحة
للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالدواء حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم وأعلم
أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
الجائع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والدواء رأس الدواء وأصل كل داء
البرءة فاما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر واما قوله الجemicة واس الدواء فالجemicة
المجموع وهو الأختيار من الطعام والمعنى أن المجموع هو الدواء العظيم الذي هو أصل
الأدوية وأما قوله أصل كل داء البرءة فمعنى البرءة إدخال الطعام على الطعام
في المعدة قبل أن يتم هضم الأول وترى هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحافظ
عليه يا للغداة يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الماضمة والقادمة إلى أن يصير دمًا
ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والمطعم ثم تأخذه النامية فينقلب لحماً وعظماً ومعنى
المحضر طبع الغذاة بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من
البدن وتفسيراً أن الغذاة إذا احصلت في الفم ولاسته الاشداق أثثت فيه حرارة
الفم طيحاً يسيرًا وقلبت مزاجه بعض الشيء مما تراه في الأقمة إذا تناولتها طعاماً
ثم أجدتها مضغها فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبعه حرارة
المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صنف ذلك المطبوخ وترسله إلى السكريدة وتزيل
ما رسب منه في المعى ثللاً ينفذ إلى المخزجين ثم تطبع حرارة السكريدة ذلك
الكيموس إلى أن يصير عيطاً وتنفو عليه رغوة من الطبع في الصفراء وترسب
منه أحقر الأيسدة هي السوداء ونقص الحرار الغريزي بعض الشيء عن طبع الغليظ منه
 فهو البكم ثم ترسلها السكريدة كلها في العروق والجلد اول ويأخذها طبع الحال
الغريزي هناك فيكونون عن الدم الحال من بخار حار رطب يمد الروح الحيواني
وتأخذ النامية ما يأخذها في الدم فيكون لحماً ثم غليظه يظاماً ثم يرسل البدن ما
يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللثاب والمخاط والدمع هذه
صورة الغذاه وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً ثم إن أصل الأمراض ومعظمها في

الْحَمِيمَاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَ الْفَرِيزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ النُّفُجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِّنْ هَذِهِ فِيَقِيَّ ذَلِكَ الْغِذَاءِ دُونَ نُضْعِفَتْ وَسَبَبَهَا غَالِبًا كُثْرَةُ الْغِذَاءِ فِي الْمَعْدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى الْحَارِ الْفَرِيزِيِّ أَوْ إِدْخَالُ الْطَّعَامِ إِلَى الْمَعْدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوِي طَبْخَ الْأَوَّلِ فَيَسْتَقْلُ بِهِ الْحَارِ الْفَرِيزِيِّ وَيُتَرَكُ الْأَوَّلُ بِحَالَةٍ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ تَمَامِ الْطَّبْخِ وَالنُّفُجِ وَتُرْسَلُهُ الْمَعْدَةُ كَذَلِكَ إِلَى الْكَبِيدِ فَلَا تَقْوِيْ حَرَارَةُ الْكَبِيدِ أَيْضًا عَلَى إِنْسَاجِهِ وَرُبَّمَا يَقِيَّ فِي الْكَبِيدِ مِنَ الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٌ وَتُرْسَلُ الْكَبِيدُ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْمُرُوقِ غَيْرُ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ الْبَدْنُ حَاجَتَهُ الْمُلَائِمةُ أَرْسَلَهُ مَعَ الْفَصَالَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْعَرَقِ وَالْدَّمِ وَالْأَعْكَابِ إِنْ أَفْتَدَهُ عَلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا يَعْتَزِزُ عَنِ الْكَبِيرِ مِنْهُ فِيَقِيَّ فِي الْمُرُوقِ وَالْكَبِيدِ وَالْمَسْدَدَةِ وَتَزَايِدُ مَعَ الْأَيَّامِ وَكُلُّ ذِي رُطُوبَةٍ مِّنَ الْمُمْتَازَجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الْطَّبْخُ وَالنُّفُجُ يُعْنِيْنِ فِيَتَعَفَّنُ ذَلِكَ الْغِذَاءُ غَيْرُ النَّاضِجِ وَهُوَ الْمُسْمَى بِالْخَلْطِ وَكُلُّ مَتَعْفَنٍ فَقِيَّ حَرَارَةً غَرِيبَةً وَتِلْكَ هِيَ الْمُسَمَّةُ فِي الْبَدْنِ الْأَإِنْسَانِ بِالْحَمَى وَأَخْتَيَرَ ذَلِكَ بِالْطَّعَامِ إِذَا تُرَكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي الْأَرْبَلِ إِذَا تَعَفَّنَ أَيْضًا كَيْفَ تَبَعَّثُ فِي الْحَرَارَةِ وَتَأْخُذُ مَا خَذَهَا فَهَذَا مَعْنَى الْحَمِيمَاتِ فِي الْأَبْدَانِ وَفِي رَأْسِ الْأَمْرِ أَضَرُّ وَأَصَلَّهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَهَذِهِ الْحَمِيمَاتُ عِلَاجُهَا يَقْطَعُ الْغِذَاءَ عَنِ الْمَرَبِّضِ أَسَابِيعَ مَلْوَمَةً ثُمَّ يَتَنَاهُلُ الْأَذْنِيَّةُ الْمُلَائِمَةُ حَتَّى يَتَمَّ بُرُوهُ وَذَلِكَ فِي حَالِ الْصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي التَّحْفِظِ مِنْ هَذَا الْمَرَبِّضِ وَأَصَهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْعَفَنُ فِي عُفُورٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّهُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذَلِكَ الْعُضُوِّ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي الْبَدْنِ إِمَامًا فِي الْأَعْضَاءِ أَرَبَّسِيَّةً أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرَضُ الْعُضُوُّ وَيَحْدُثُ عَنْهُ مَرَضٌ الْقُرَى الْمَوْجُودَةِ لَهُ هَذِهِ كَلَمَّا جَاءَعَ الْأَمْرَاضِ وَأَصَلَّهَا فِي الْفَالِبِ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى الْطَّبِيبِ وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ الْخَصَرِ وَالْأَمْصَارِ أَسْكُرُ شَحْبٍ عَيْشِهِمْ وَكُثْرَةُ مَا كَلِمُ وَفَلَقُ أَفْتَصَلُهُمْ عَلَى نَوْحٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَعَدَمِ تَوْقِيَتِهِمْ لِتَنَاهُلِهِمْ وَكَثِيرًا مَا يَخْلُطُونَ بِالْأَغْذِيَّةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاكِهِ وَرَطَبَيْهَا وَيَكْسِيُ فِي سَنَيلِ الْلِّاجِ بِالْطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْحٍ أَوْ أَنْواعٍ فَرُبَّمَا عَدَدُهُمْ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنَ الْوَلَانِ الْطَّبْخِ أَزْبَعِينَ نَوْحًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيْوانِ فَيَصِيرُ الْغِذَاءُ مَرَاجِعَ غَرِيبَ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا عَنْ مُلَائِمَةِ الْبَدْنِ وَجُزَءِهِ ثُمَّ إِنَّ الْأَهْرِيَّةَ فِي الْأَمْصَارِ

تُقْسِدُ بِالْخَالِطَةِ الْأَلْجِرِيَّةِ الْعَنْتَةِ مِنْ كَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ وَالْأَهْوَى بِمُشَطَّةِ الْلَّازْوَاجِ وَمُقْوِيَّةِ
بِنَشَاطِهَا الْأَثَرِ الْحَارِ الْغَرِيزِيِّ فِي الْمَهْضُومِ ثُمَّ الْرِّيَاضَةُ مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ
فِي الْغَالِبِ وَادِعُونَ سَاكِنَوْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ أَرْيَاضَةُ شَيْئًا وَلَا تُؤْثِرُ فِيهِمْ أُثْرًا فَكَانَ
وَقْوَعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ وَقْوَعِهِ كَانَ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَمَا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَلُوهُمْ قَلِيلٌ فِي الْغَالِبِ وَالْجَوْعُ أَعْلَمُ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْحِبُوبِ
حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً وَرُبَّمَا يُظْنَ أَنَّهَا حِيلَةٌ لِلْأَسْتِمْرَارِ هَا ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلٌ لِدِلِيلِهِمْ
أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجَمْلَةِ وَعَلَاجُ الْطَّبَغَ بِالْتَّوَابِ وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى تَرَفِ الْمُخَاصَرَةِ
الَّذِينَ هُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاهُونَ أَغْذِيَتُهُمْ بِسَيِّطَةٍ بَعِيدَةٍ عَمَّا يُخَالِطُهُ وَيَقْرِبُ مِرَاجِهَا
مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدْنِ وَمَا أَهْوَيْتُهُمْ فَقَلِيلَةُ الْعَفَنِ لِقَلَّةِ الْإِرْطُوبَاتِ وَالْعَفَوَنَاتِ إِنَّ كَانُوا
ظَوَّاعِنَ ثُمَّ إِنَّ الْرِّيَاضَةَ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ لِكَثْرَةِ الْأَخْرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَبْلِ أَوْ الصَّيْدِ أَوْ
طَلَبِ الْحَاجَاتِ الْمِهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَخْسُنُ بِذَلِكَ كُلُّهُ الْمَهْضُومُ وَيَبْعُدُ وَيَفْقَدُ
إِدْخَالُ الْطَّعَامِ عَلَى الْطَّعَامِ فَكَوْنُ امْرِجَتِهِمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَقَلِيلٌ حَاجَتُهُمْ
إِلَى الْطَّبَبِ وَلِهُنَّا لَا يُوجَدُ الْطَّبَبُ فِي الْبَادِيَةِ يُوجَدُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِلْأَسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ
لَوْ أَخْتَرْجُ إِلَيْهِ لَوْجَدَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ يَدْعُونَ إِلَى سَكَنَاهُ سُنَّةُ اللَّهِ
فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجْمَدَ لِسُنْتَةِ اللَّهِ تَبَدِّي لَا

الفصل الثالثون

في ان الخلط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية
وهو زسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس
 فهو ثاني رتبة من الـلاتـةـ المـلغـويـةـ وهو صـاعـةـ شـرـيفـةـ إذـ الـكـتابـةـ منـ خـواـصـ الـإـنـسانـ
الـذـيـ يـمـيزـ بـهـاـ عـنـ الـحـيـوانـ وـأـيـضاـ فـهـيـ تـنـطـلـعـ عـلـىـ مـاـ فـيـ الـضـمـائـرـ وـتـنـادـيـ بـهـاـ الـأـغـرـاضـ
إـلـىـ الـلـادـ الـبـعـيـدةـ فـتـنـضـيـ الـحـاجـاتـ وـقـدـ دـفـعـتـ مـؤـنـةـ الـمـاـسـأـةـ لـهـاـ وـيـطـلـعـ بـهـاـ عـلـىـ الـعـلـومـ
وـالـمـعـارـفـ وـصـحـنـ الـأـوـلـيـنـ وـمـاـ كـتـبـوـهـ مـنـ عـلـوـمـهـ وـأـخـبـارـهـ فـهـيـ شـرـيفـةـ بـهـذـهـ الـلـوـجوـهـ
وـالـمـنـافـعـ وـخـرـوجـهـاـ فـيـ الـإـنـسـانـ مـنـ الـقـوـةـ إـلـىـ الـفـقـرـ إـنـمـاـ يـكـوـنـ بـالـتـعـلـيمـ وـعـلـىـ قـدـرـ
الـأـجـتـمـاعـ وـالـعـمـرـانـ وـالـتـنـاغـيـ فـيـ الـكـمـالـاتـ وـالـطـلـبـ لـذـلـكـ يـكـوـنـ جـوـدـةـ الـخـلـطـ فـيـ
الـعـدـيـدـ إـذـ هـوـ مـنـ جـمـلـةـ الـصـنـائـعـ وـقـدـ قـدـمـنـاـ أـنـ هـذـاـ شـانـهـاـ وـأـنـهـاـ تـابـعـةـ لـلـعـمـرـانـ وـلـهـذـاـ

نجدُ أكثَرَ الْبَدْوِ أُمَّيَّنَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَذْكَرَ فِي كُونِ
خَطْهُ قَاعِرًا أَوْ قَرَاءَتْهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخُطُّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمْرَانِهَا عَنِ
الْخُدُّ أَبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَمْهَلَ طَرِيقًا لِاَسْتِحْكَامِ الصَّنَعَةِ فِيهَا إِنَّمَا يَعْنِكِي أَنَّا عَنِ مِصْرَ
هَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بَهَا مُعْلِمِينَ مُنْتَصِّبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخُطُّ يُلْقُونَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ قَوَازِنَ وَأَخْسِكَامًا
فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشِرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَتَعْتَضِدُ الدِّينِ رُتبَةُ الْعِلْمِ
وَالْخَيْرِ فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَكَانَتُهُ عَلَى أَتْمِ الْأُوجُورِ وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الْصَّنَائِعِ
وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَأَنْفُسَاحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخُطُّ الْعَرَبِيُّ بِالْعَلَاقَةِ مَبَالِغُهُ
مِنَ الْإِذْكَامِ وَالْإِلْتَقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دُولَةِ الْتَّبَابَعَةِ مَا يَلْفَتُ مِنَ الْعِصَارَةِ وَالْتَّرَفِ وَهُوَ
الْمُسَسَّ بِالْخُطُّ الْحِمْبَرِيِّ وَأَنْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْمُحِيرَةِ لِمَا كَانَ بَهَا مِنْ دُولَةِ آلِ الْمُنْذِرِ
نُسَيَّاءِ الْتَّبَابَعَةِ فِي الْعَصَبَيَّةِ وَالْجُعْدَدِيَّةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدُّولَتَيْنِ وَكَانَتِ الْعِصَارَةُ وَتَوَابِعُهَا
مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ الْتَّبَابَعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدُّولَتَيْنِ وَكَانَتِ الْعِصَارَةُ وَتَوَابِعُهَا
مِنَ الْصَّنَائِعِ وَغَيْرُهَا فَاقِرَةٌ عَنِ ذَلِكَ وَمِنَ الْحِيَرَةِ لِقَنَةٌ أَهْلُ الْطَّائِفِ وَفَرَّيْشُ فِيمَادُ كَرَّ
وَيَقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعْلَمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحِيَرَةِ هُوَ مَفِيَانُ بْنُ أَمِيَّةَ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أَمِيَّةَ
وَأَخْذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ وَهُوَ قَوْلُ مُمْكِنٍ وَأَفْرَبُ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا
مِنْ إِيَادَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ

قَوْلُهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَيْعاً وَالْخُطُّ وَالْقَلْمُ
وَهُوَ قَوْلٌ بَعِيدٌ لَأَنَّ إِيَادَ وَإِنْ تَزَلُّوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَرَوْا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ الْبَدَاؤَةِ
وَالْخُطُّ مِنَ الْصَّنَائِعِ الْحَضَرِيَّةِ وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَفْرَبُ إِلَى الْخُطُّ وَالْقَلْمِ
مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَّاحِهَا فَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ الْجِهَازِ إِنَّمَا لَقْنُوهَا
مِنَ الْحِيَرَةِ وَلَقْنُهَا الْحِيَرَةُ مِنَ الْتَّبَابَعَةِ وَحِمْيَرٌ هُوَ الْأَلْيَقُ مِنَ الْأَنْوَالِ وَكَانَ لِحِمْيَرَ كِتَابَةٌ
شَهِيْرٌ مُسَنَّدٌ حُرُّ وَفِيهَا مُنْفَصَلَةٌ وَكَانُوا يَنْهَونَ مِنْ تَعَلَّمِهَا إِلَى إِيَادِهِمْ وَمِنْ حِمْيَرَ تَعَلَّمَتْ
مِصْرُ الْكِتَابَةَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ لَهَا شَأْنَ الْصَّنَائِعِ إِذَا وَقَاتَ بِالْبَدْوِ
فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةَ الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةَ إِلَى الْإِلْتَقَانِ وَالْتَّنْسِيقِ لِبَوْنَ مَا يَأْتِ الْبَدْوُ
وَالْصَّنَاعَةِ وَأَسْتَغْنَيَ الْبَدْوَ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ وَكَانَتْ كِتَابَةُ الْعَرَبِ بَدَوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ وَفَوْرِيَّا مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْسَنَ صَنَاعَةً لَأَنَّ هُوَ الْأَمْ

أقرب إلى الخصارة ومخالطة الأنصار والدول وأمام مصر فكانوا أعرق في البدو وأبعد
 عن الحضير من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي الأول
 الإسلام غير باللغة إلى الغابة من الإحكام والإنقان والإجاده ولا إلى التوسيط
 لمن كان العرب من البداؤة والتواش وبعدم عن الصنائع وأنظر ما وقع لأجل ذلك
 في رسنهم المصحف حيث رسنه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحکمة في الإجاده
 فخالفت الكثيرون من رسولهم ما افتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم افتقد النهايون
 من السائب رسنهم فيها تبركا بما رسنه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره
 المغلق من بعده المتلقون لوخيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفي لهذا العهد خط ولية
 أو عالم ترث كاً ويتبع رسنه خطأ أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوا
 فاتبع ذلك وأثبت رسناؤن العلاء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك إلى ما
 يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا مخهكين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من
 مخالفة خطوطهم لا صول الرسم ليس كما يتخيل بل يكتبه وجه يقولون في مثل
 زيادة الآف في لا أذعنه إنه تبني على أن الذبح لم يقع وفي زيادة آلياء في بآيد
 إنه تبني على كمال القدرة الرئانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم
 بالخط وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابه عن تهم
 القص في قلة إجاده الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزله عن نفسه ونسبوا إليه
 الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجاده من رسنه وذلك ليس بصحيح
 وأعلم أن الخط ليس بكمال في حقيقه إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشرة
 كما رأيته فيما وكمال في الصنائع ضافي بكمال مطلق إذ لا يعود نفسه على
 الذات في الدين ولا في الخلل وإنما يعود على أسباب المعاش ويعصب القرآن والتعاون
 عليه لأجل دلائله على ما في النفس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أميناً وكان
 ذلك كما لا في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزيهه عن الصنائع العمليه التي هي
 أسباب المعاش والقرآن كلها ولست الأمية كما لا في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى
 ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الأسطلاحية فإن
 الكمال في حقه هو تنزيهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا

الأَمْصَارِ وَمَكَوْنُوا الْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَأَخْتَاجَتِ الدُّولَةُ إِلَى الْمَكِتَابَةِ
 أَسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعْلِمَهُ وَتَدَاوِلُوهُ فَتَرَقَتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَغْفَرَ كُمْ وَبَانَ
 فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رِتبَةً مِنَ الْإِنْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ الْغَايَةِ وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ
 مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ ثُمَّ اتَّشَرَ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكَ وَأَفْتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ
 وَالْأَنْدَلُسَ وَأَخْتَطَ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَتِ الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا أَسْتَجَرَتِ فِي
 الْعُمْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامَ وَمَرَّتْ الدُّولَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَكَانَ الْخَطُّ الْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوفَ
 الرَّسْمِ وَتَبَعَّهُ الْأَفْرِيقِيُّ الْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيَقُولُ مِنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ
 الْمَسْتَرِيِّيِّ وَتَحْيِيَزُ مَلْكُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَمْوَالِ يَنْ فَتَمِيزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ
 وَالْخُطُوطِ فَتَمِيزَ حِسْنُ خَطِّهِمُ الْأَنْدَلُسِيُّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَطَمَّا بَغْرُ
 الْعُمْرَانِ وَالْحِضَارَةِ فِي الدُّولَ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَعَظَمَ الْمُلُوكُ وَنَفَقَتِ اسْتَوَاقُ
 الْعُلُومُ وَأَنْتَسَحَتِ الْكِتَابَ وَأَجْيَدَ كَتْبَهَا وَتَجْلِيدُهَا وَمُلِّقتْ بِهَا الْقُصُورُ وَالْخَزَائِنُ
 الْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَاغَوْا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا آنَحَلَّ نِظامُ
 الدُّولَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَافَصَتِ تَنَاقُصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدُرِّسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُّوسِ الْخِلَافَةِ
 فَأَنْتَقَلَ شَانِهَا مِنَ الْخَطِّ وَالْمَكِتَابَةِ بَلْ وَالْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَالقَاهِرَةِ فَلَمْ تَرَلْ أَسْوَاقُهُ بِهَا
 نَافَقَةً لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعْلِمُونَ يَرْسُمُونَ لِتَعَالِيمِ الْحُرُوفِ بِقَوَاعِدِهِنَّ فِي وَضِعِهَا وَأَشْكَالِهَا
 مَتَعَارِفَةً بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ الْمُتَعَلِّمُ أَوْ يَحْكِمُ أَشْكَالَ تِلْكَ الْحُرُوفِ عَلَى مَلْكِ الْأَوْضَاعِ
 وَقَدْ أَقْنَهَا حَسَنَاً وَحَدْقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخْذَهَا قَوَاعِدِهِنَّ عِلْمِيَّةً فَتَعْجَبُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ
 وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفْتَرَقُوا فِي الْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاشِي مَلْكِ الْعَرَبِ بِهَا وَمِنْ خَلْفِهِمْ مِنَ
 الْبَرِّ وَتَغْلَبَتْ عَلَيْهِمْ أُمُّ النَّصَرَانِيَّةِ فَأَنْتَسَرُوا فِي عُدُوَّةِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ مِنْ لِدْنِ
 الدُّولَةِ الْأَمْتُونِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ الْعُمْرَانِ بِمَا لَدُهُمْ مِنَ الصَّنَاعَةِ وَتَعَلَّقُوا
 بِأَذْبَالِ الدُّولَةِ فَعَلَبَ خَطُّهُمُ عَلَى الْخَطَّ الْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَسَيَّ خَطُّ الْقِيرَوَانِ
 وَالْمَهْدِيَّةِ بِنِسَانِ عَوَانِدِهِمَا وَصَنَاعَتِهِمَا وَصَارَتِ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ كَلْمَهَا عَلَى الرَّسْمِ
 الْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا وَلَيْهَا اتَّوَفَرَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسُ بِهَا عِنْدَ الْحَالِيَّةِ مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ
 وَبَقَيَ مِنْهُ رَسْمٌ بِبِلَادِ الْجَرِيدِ الَّذِينَ لَمْ يَنْتَظِرُوا كُتَّابَ الْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِمَعْوَارِهِمْ
 إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ الْمَلِكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ

أهـلـ الـانـدـلسـ حـتـىـ إـذـاـ تـقـلـصـ ظـلـ الـدـوـلـةـ الـمـوـحـدـيـةـ بـعـضـ الشـئـ وـتـرـاجـعـ أـمـرـ الـخـفـارـةـ وـالـتـرـفـ بـتـرـاجـعـ الـعـمـرـانـ تـقـصـ حـيـثـنـ حـالـ الـخـطـ وـفـسـدـ زـسـوـمـ وـجـهـلـ فـيـهـ وـجـهـ وـالـتـعـلـيمـ يـفـسـادـ الـخـضـارـةـ وـتـنـاقـصـ الـعـمـرـانـ وـبـقـيـتـ فـيـهـ آـثـارـ الـخـطـ الـانـدـلـسـيـ تـشـهـدـ بـمـاـ كـانـ لـهـمـ مـنـ ذـلـكـ لـمـاـ قـدـمـنـاهـ مـنـ وـحـصـلـ فـيـ دـوـلـةـ بـنـيـ مـرـيـنـ مـنـ بـعـدـ ذـلـكـ بـالـمـغـرـبـ الـاقـصـيـ لـوـنـ مـنـ الـخـطـ الـانـدـلـسـيـ اـقـرـبـ جـرـارـهـ وـسـقـوطـ مـنـ خـرـجـ مـنـهـمـ إـلـىـ فـارـسـ قـرـيبـاـ وـأـسـتـعـمـالـهـمـ إـيـامـ سـائـرـ الـدـوـلـةـ وـنـسـيـ عـهـدـ الـخـطـ فـيـهـ بـعـدـ عـنـ سـدـةـ الـمـلـكـ وـدـارـهـ كـانـهـ لـمـ يـعـرـفـ فـصـارـتـ الـخـطـوـطـ يـأـفـرـيقـيـةـ وـالـعـمـرـيـنـ مـائـةـ إـلـىـ الـرـدـاءـ بـعـدـةـ عـنـ الـجـودـةـ وـصـارـتـ الـكـتـبـ إـذـاـ اـنـتـسـخـتـ فـلـاـ فـائـدـةـ تـحـصـلـ لـمـتـصـفـحـهـ مـنـهـ إـلـاـ الـعـنـاءـ وـالـحـسـقـةـ إـكـثـرـةـ مـاـ يـقـعـ فـيـهـ مـنـ الـفـسـادـ وـالـتـصـحـيفـ وـتـغـيـرـ الـأـشـكـالـ الـخـطـيـةـ عـنـ الـجـودـةـ حـتـىـ لـاـ تـكـادـ لـقـرـأـ إـلـاـ بـعـدـ عـسـرـ وـوـقـعـ فـيـهـ مـاـ وـقـعـ فـيـ سـائـرـ الـصـنـاعـيـنـ بـنـقـصـ الـخـضـارـةـ وـفـسـادـ الـدـوـلـ وـأـللـهـ أـعـلـمـ

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الورافة

كـانـ الـعـنـابـةـ قـدـيـاـ بـالـدـوـاـوـيـنـ الـعـلـمـيـةـ وـالـسـجـلـاتـ فـيـ تـسـخـنـهـاـ وـتـجـلـيدـهـاـ وـتـصـحـيـحـهـاـ بـالـزـوـاـيـةـ وـالـضـبـطـ وـكـانـ سـبـبـ ذـلـكـ مـاـ وـقـعـ مـنـ ضـخـامـةـ الـدـوـلـةـ وـتـوـابـعـ الـخـضـارـةـ وـقـدـ ذـهـبـ ذـلـكـ لـهـذـاـ الـعـبـدـ بـذـهـابـ الـدـوـلـةـ وـتـنـاقـصـ الـعـمـرـانـ بـعـدـ أـنـ كـانـ مـنـهـ فـيـ الـمـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ بـعـدـهـ زـاـخـرـ بـالـعـرـاقـ وـالـانـدـلـسـ إـذـ هـوـ كـلـهـ مـنـ تـوـابـعـ الـعـمـرـانـ وـاـتـسـاعـ نـطـاقـ الـدـوـلـةـ وـنـفـاقـ أـسـوـاقـ ذـلـكـ لـدـيـهـمـاـ فـكـثـرـتـ أـنـاـكـيـفـ الـعـلـمـيـةـ وـالـدـوـاـوـيـنـ وـحـرـصـ النـاسـ عـلـىـ تـنـافـلـهـمـاـ فـيـ الـآـفـاقـ وـالـأـعـصـارـ فـاـنـتـسـخـتـ وـجـلـدـتـ وـجـاءـتـ صـنـاعـةـ الـوـرـافـيـنـ الـمـعـانـيـنـ لـلـاـنـتـسـاخـ وـالـتـصـحـيـحـ وـالـتـجـلـيدـ وـسـائـرـ الـأـمـوـرـ الـكـتـبـيـةـ وـالـدـوـاـوـيـنـ وـأـخـتـصـتـ بـالـأـمـصـارـ الـعـظـيـمـةـ الـعـمـرـانـ وـكـانـ الـسـجـلـاتـ أـوـلـاـ لـاـنـتـسـاخـ الـعـلـمـ وـكـتـبـ الـرـسـائـلـ الـسـلـطـانـيـةـ وـالـإـفـطـاعـاتـ وـالـصـكـوكـ فيـ الـرـفـوقـ الـمـهـبـاـةـ بـالـصـنـاعـةـ مـنـ الـجـلـدـ لـكـثـرـةـ الـرـفـهـ وـقـلـةـ الـرـسـائـلـ الـسـلـطـانـيـةـ وـالـصـكـوكـ مـعـ ذـلـكـ فـاـفـتـصـرـواـ عـلـىـ الـكـتـابـ فـيـ الـرـقـ تـشـرـيـفـاـ الـمـكـتـوبـاتـ وـمـيـلاـ بـهـاـ إـلـىـ الـصـحـيـةـ وـالـإـنـقـانـ ثـمـ طـمـاـ بـعـدـ الـتـأـكـيـفـ وـالـتـدـوـينـ وـكـثـرـ تـرـسـيلـ الـسـلـطـانـ وـصـكـوكـهـ وـضـاقـ الـرـقـ عـنـ ذـلـكـ فـاـشـارـ الـفـضـلـ بـنـ يـحـيـيـ بـصـنـاعـةـ

الْكَانِدِ وَصَنَعَهُ قَكْشَبَ فِيهِ رَسَائِلُ الْسُّلْطَانِ وَصُكُوكَهُ وَأَمْخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ
 صُفَا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ الْسُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَبَاغَتِ الْأَجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ تُمْ وَقِفتْ
 عِنَابَةً أَهْلَ الْعِلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّولَ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَعْنِيْجِهِنَا بِالرَّوَايَةِ
 الْمُسْنَدَةِ إِلَى مُؤْلِفِهَا وَوَاضِعِهَا لِإِنَّهُ الشَّانُ الْأَمَمِ مِنَ التَّعْنِيْجِ وَالْفَبْطِ فِي ذَلِكَ تُسْنَدُ
 الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِهَا وَالْفَتَيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْجُعْتَهِدِ فِي طَرِيقِ أَسْتِبَاطِهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ
 تَعْنِيْجُ الْمُتَوْنِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مُدَوِّنِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِهِمْ وَلَا فَتَيَا وَهَكَذَا كَانَ
 شَانُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَهُ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَفَاقِ حَتَّى لَقِدْ فُصِّرَتْ فَائِدَةُ الصِّنَاعَةِ
 الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرَّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَرَتْهَا الْكَبُرَى مِنْ مَعْرِفَةِ تَعْنِيْجِ الْأَحَادِيثِ
 وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسَلِهَا وَمَقْطُوعِهَا وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضِعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَعْنَصَتْ زُبْدَةُ
 فِي ذَلِكَ الْأَمَمَاتِ الْمُتَلَقِّاهُ بِالْقِبُولِ عِنْدَ الْأَمَمَةِ وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَعْنَاهُ مِنَ الْعَمَلِ
 وَلَمْ تَبْقَ شَرَرَةُ الرَّوَايَةِ وَالْأَشْتِغَالُ بِهَا إِلَّا فِي تَعْنِيْجِ تِلْكَ الْأَمَمَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا
 مِنْ كُتُبِ الْفَقِهِ الْفَتَيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الدَّوَاوِينِ وَالْتَّالِيفِ الْعِلْمِيِّ وَأَتِصَالُ سَنَدِهَا
 بِمُؤْلِفِهَا يَصِحُّ النَّقلُ عَنْهُمْ وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
 مُبَدَّةً الْطَّرُقَ وَأَخْيَهَ الْمَسَالِكَ وَلِهَذَا تَبَعَ الدَّوَاوِينِ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَفْطَارِهِمْ
 عَلَى غَایَةِ مِنَ الْإِثْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصِّحَّةِ وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ يَا يَدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
 اَصْوُلُ عَتَيقَةٍ تَشَهَّدُ بِمُلُوغِ الْفَنَایَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلِ الْأَفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآتِ
 وَيَسْدُونَ عَلَيْهَا يَدَ الْضَّنَانَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ
 لِأَنْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطَرِ وَالْفَبْطِ وَالرَّوَايَةِ مِنْهُ بِأَنْتِقَاصِ عَمْرَانِهِ وَبِدَاؤِهِ أَهْلِهِ وَصَارَتْ
 الْأَمَمَاتُ وَالْدَّوَاوِينُ تَنْسَخَ بِالْخَطُوطِ الْبَيْدَوِيَّةِ تَنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَزَبَرِ صَحَافَتُ مُسْتَجْمَعَهُ بِرِوَايَةِ
 الْخَطَرِ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالْتَّعْنِيْجِ فَتَسْتَغْلِقُ عَلَى مُتَصَقِّهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 الْأَنَادِرِ وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ أَخْلَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْفَتَيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْزُوذَةِ غَيْرُ مَرْوِيَّةَ
 عَنْ أَئِمَّةِ الْمَذَهَبِ وَإِنَّمَا تَلْقَى مِنْ تِلْكَ الدَّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَتَسْعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا
 يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أَئِمَّتِهِمُ مِنْ الْتَّالِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الْصَّنَائعِ الْرَّوَايَةِ
 بِمِقَاصِدِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الرَّوْمَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةُ خَفِيَّةٍ بِالْأَعْمَاءِ وَهِيَ الْأَضْمَحَلَلُ
 فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ يَنْقَطِعُ بِالْكَلِيلِيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَيَلْغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ

آن صناعة الراية قائمة بالشرق وتصنيع الدوادين لمن يرمي بذلك سهام على
مبغيه انفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد إلا أن الخط الذي يقع من
الإجادة في الانساح هناك إنما هو للعمجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمحض فسد
كما فسد يا المغرب وأسد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الفناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة
معزوفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ثم تواكب ذلك النغم بعضها
إلى بعض على نسب متعارفة فيلذا مماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من
الكيفية في تلك الأصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تناسب
فيكون صوت نصف صوت ورבע آخر وخمس آخر وجزو من أحد عشر من آخر
وأختلاف هذه النسب عند تاديتها إلى السمع يخوجهها من البساطة إلى التراكيب
وليس كل تركيب منها ملذوذًا عند السمع بل للملذوذ تركيب خاصة وهي التي حصرها
أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضوعه وقد يساوي ذلك التلحين
في النغمات الفنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالتنفس في
الآلات التي تخدم لذلك فترى لها لذة عند السمع فمنها لهذا العهد أصناف منها ما يسمونه
الشابة وهي قصبة جوفاء يأبها معدودة ينفع فيها فتصوت فيخرج الصوت
من جوفها على سداده من تلك الأبهاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين
جميعاً على تلك الأبهاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتحصل
كذلك متناسبة فيلذد السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه
الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة أجانب من الخشب
جوفاء من غير تدوير لأجل اشتلافيها من قطعتين متفردتتين كذلك يأبها معدودة
يُنفع فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النغم بواسطتها إليها وتصوت بنغمة حادة يخرج
فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبهاش بالأصابع مثل ما يجري في الشابة
ومن أحسن الآلات الزمر لهذا العهد البوّاق وهو بوّاق من بخاص أحوج في مقدار

الْتِرَاعِ يَدْسِعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ اَنْفِرَاجٌ مُخْرَجٌ فِي مِقْدَارٍ دُونَ الْكَفَتِ فِي شَكْلِ بَرَّيِ
 الْقَلْمَ وَيَنْفَخُ فِيهِ بِقَصْبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّيُ الرَّجْعَ مِنَ الْفَمِ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ تَحْتِنَا دَوَيَا
 وَفِيهِ اِبْخَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ وَيَقْطَعُ نَفْمَةً مِنْهَا كَذَلِكَ بِالْأَصَابِعِ عَلَى النَّاسُبِ فَيَكُونُ
 مَلْذُوذًا وَمِنْهَا الْآتُ الْأُوتَارِ وَهِيَ جَوْفَاءٌ كُلُّهَا إِمَامًا عَلَى شَكْلٍ قَطْعَةٍ مِنَ الْكُرْتَةِ مِثْلِ
 الْمُرْبَطِ وَالْأَرْبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلٍ مُرَبَّعٍ كَالْقَانُونِ تُوْضَعُ الْأُوتَارُ عَلَى بَسَاطِهَا مَشْدُودَةٌ
 فِي رَأْسِهَا إِلَى دُسْرِ جَائِلَةٍ لِيَا تِي شَدُّ الْأُوتَارِ وَرَخُوهَا عَنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا ثُمَّ
 يَقْرَعُ الْأُوتَازِ إِمَامًا بَعْدَ أَخْرَأَهُ بَوَّنَرَ مَشْدُودَ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَعْرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ
 يُطْلَى بِالشَّمْعِ وَالْكَنْدَرِ وَيَقْطَعُ الصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْيِيفِ الْيَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ تَقْلِيِهِ مِنْ
 وَتَرِ إِلَى وَتَرِ وَالْيَدِ الْبِسْرَى مَعَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْآتِ الْأُوتَارِ تُوقَعُ بِاصَابِعِهَا عَلَى
 أَطْرَافِ الْأُوتَارِ فِيمَا يَقْرَعُ أَوْ يَحْكُ بِالْوَتَرِ فَتَحْدُثُ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْذُوذَةً
 وَقَدْ يَكُونُ الْقَرْعُ فِي الْطَّسْوَتِ بِالْقُضْبَانِ أَوْ فِي الْأَعْوَادِ بَعْضُهَا يَعْضُ عَلَى تَوْقِيعِ مُنَاسِبٍ
 يَحْدُثُ عَنْهُ التِّذَادُ بِالْمَسْمُوعِ وَلِنَبِينَ لَكَ السَّبَبَ فِي الْلَّذَّةِ النَّاשِيَةِ عَنِ الْغَنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ
 الْلَّذَّةَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ الْمُلَائِمِ وَالْمَحْسُوسِ إِنَّمَا تُدْرِكُ مِنْهُ كِبِيْفِيَةُ
 فَإِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمُلَائِمَةً كَانَتْ مَلْذُوذَةً وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً
 كَانَتْ مُؤْلِمَةً فَالْمُلَائِمُ مِنَ الْطَّبُومِ مَا نَاسَبَتْ كِبِيْفِيَةً خَاصَّةً الْذَّوقِ فِي مِزَاجِهَا وَكَذَا
 الْمُلَائِمُ مِنَ الْمَلَمُوسَاتِ وَفِي الرَّوَائِعِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ الرُّوحِ الْقَلْبِيِ الْبُخَارِيِ لِأَنَّهُ
 الْمُدْرِكُ وَالْيَهُ تُؤَدِّيُهُ الْحَاسَّةَ وَلِهَذَا كَانَتْ الْرَّبَاحِينُ وَالْأَزْهَارُ الْعَطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ
 رَائِحَةً وَأَشَدَّ مُلَاءَمَةً لِلرُّوحِ لِغَلَبَةِ الْحَرَاجَةِ فِيهَا أَلَّيْهِ هِيَ مِزَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِ وَأَمَّا
 الْمَرَبِّيَّاتُ وَالْمَسْمُوعَاتُ فَالْمُلَائِمُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكِبِيْفِيَاتِهَا فَهُوَ
 أَنْسَبُ عَنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُ مُلَاءَمَةً لَهَا فَإِذَا كَانَ الْمَرَبِّيَّ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ وَمُتَخَاطِطًا
 أَلَّيْهِ بِمَحْسَبِ مَادَتِهِ بِمَحِيثٍ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْقَضِيَّةِ مَادَتُهُ الْحَاسَّةُ مِنْ كَمَالِ الْمُنَاسِبَةِ
 وَالْوَضْعِ وَذَلِكُ هُوَ مَعْنَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرِكٍ كَانَ ذَلِكَ حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا
 لِلنَّفْسِ الْمُدْرِكَةِ فَتَلَذُّ بِإِدْرَاكِ الْمُلَائِمِهَا وَلِهَذَا تَجِدُ الْعَاشِقِينَ الْمُسْتَهْرِينَ فِي الْمَحْبَبةِ
 يَعْبُرُونَ عَنْ غَایَةِ مُحِبِّيْهِمْ وَعَشِيقِهِمْ بِأَمْتَاجِ أَرْوَاحِهِمْ يَرْوُحُ الْمَحْبُوبِ وَفِي هَذَا سِرْ
 تَفْهِمَهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ أَتَحَادُ الْمَبْدَأِ وَإِنْ كَانَ مَا سِوَالَكَ إِذَا نَظَرَتِهُ وَتَأْمَلَتِهُ

رأيتَ بينكَ وَبَيْنَهُ اتِّحاداً فِي الْبِداءَةِ يَشَهِدُ لَكَ بِهِ اتِّحادٌ كَمَا فِي السَّكُونِ وَعَنَاهُ مِنْ
 وَجْهٍ أَخْرَى أَنَّ الْوُجُودَ يُشَرِّكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا تَقُولُهُ الْحُكْمَاءُ فَتَوَدُّ أَنْ يَمْرِجَ
 بِمُشَاهَدَاتِ فِيهِ السَّكِّينَالِ تَسْهِيدَ بِهِ بَلْ تَزُومُ النَّفْسَ حِينَئِذٍ الْخُروجَ عَنِ الْوَوْهُمِ إِلَى
 الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّحادُ الْمَبْدَأِ وَالْكَوْنِ وَلِمَا كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَفْرَاهَا
 إِلَى أَنْ يُذْرِيكَ السَّكِّينَالِ فِي تَنَاسُبٍ مُوْضِعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِيُّ كَمَا إِذْرَاكُهُ لِلْجِمَالِ
 وَالْحَسْنِ فِي تَخَاطِبِهِ وَأَصْوَاتِهِ مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَفْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ فَيَلْهُجُ كُلُّ
 إِنْسَانٍ بِالْحَسْنِ مِنَ الْمَرْئَى أَوِ الْمَسْمُوعِ بِمَقْتضَى الْفَطْرَةِ وَالْحَسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ
 تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً لَا مُتَنَافِرَةً بِدِلْكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَاتٌ مِنَ الْمَهْمَنِ
 وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّمْطَطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ
 لَهَا الْحَسْنَ فَأَوْلَأَ أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوتِ إِلَى مَدِهِ دَفْعَةً بَلْ يَتَدَرَّجُ مِنْ يَرْجِعُ كَذِلِكَ
 وَهُكْمًا إِلَى الْعِشْلِ بَلْ لَا يُدْمِنُ تَوْسُطَ الْمُغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ وَتَامَّلُ هَذَا مِنْ أَفْتَاحِ
 أَهْلِ الْلَّسَانِ التَّرَاكِيبِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوِ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخَارِجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ
 وَثَانِيَّاً تَنَاسُبَهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوْلَ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوتِ إِلَى نَصْدِهِ أَوْ ثَلَاثِهِ أَوْ
 جُزْءِهِ مِنْ كَذَا مِنْهُ عَلَى حَسْبِ مَا يَكُونُ التَّنَقُّلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الْصِنَاعَةِ فَإِذَا
 كَانَ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَاتِ كَمَا ذُكِرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الْصِنَاعَةِ كَانَتْ مُلَائِمَةً
 مَلَدُوذَةً وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بِسِيطًا وَيَكُونُ أَكْثَرُهُ مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ
 لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا صِنَاعَةٍ كَمَا نَجَدُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشِّعْرِيَّةِ وَتَوْقِيمِ
 الْرَّقْصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَتُسَمِّي الْعَامَةُ هَذِهِ الْقَابِلَيَّةَ بِالْمُضْمَارِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَاءِ بِهِذِهِ
 الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيُجِيدُونَ فِي تَلَاهِينِ أَصْوَاتِهِمْ كَلِّهَا الْمَزَامِيرُ فَيُطَرِّبُونَ
 بِهِنْ مَسَاقِيهِمْ وَتَنَاسُبِ نَفَّمَاهِمْ وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَحْدُثُ بِالْتَّرَكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ
 يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَاعِ تُوَافِقُ صَاحِبَهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ وَهَذَا هُوَ الْتَّلَاهِينُ
 الَّذِي يَسْكُفُ لِيَ عِلْمُ الْمُوسِيقِيِّ كَمَا نَشَرَهُ بَعْدُ عِنْدَ ذُكُورِ الْعُلُومِ وَقَدْ أَنْكَرَ مَالِكُ
 رَسِّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةَ بِالْتَّلَاهِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَيْسَ الْمَرَادُ تَلَاهِينُ
 الْمُوسِيقِيِّ الْصَنَاعِيِّ فَإِنَّهُ لَا يَبْنَيُ أَنْ يُخْتَلِفَ فِي حَظْرِهِ إِذَا صَنَاعَهُ الْفَنَاءُ مُبَايِنَةً لِلْقُرْآنِ
 يُكُلُّ وَجْهٍ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ تَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ الصَّوتِ لِتَعْنَيَ أَدَاءُ الْحُرُوفِ لَا

من حيث أتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقتصره وأمثال ذلك والتحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناوب الذي فلنـاه في حقيقة التـحـين واعتبار أحدـها قد يدخل بالآخر إذا تعارضـا وتقديـمـا الرواية متـعـينـ من تـغيـيرـ الرـوايـةـ المـنـقـولةـ فـلاـ يـكـنـ اجـتـمـاعـ التـحـينـ وـالـأـدـاءـ الـمـعـتـبرـ فيـ القرآنـ بـوـجـهـ وـإـنـاـ مـرـادـهـ التـحـينـ البـسيـطـ الـذـيـ يـهـتـدـيـ إـلـيـ صـاحـبـ الـمـفـهـارـ يـطـبعـهـ كـماـ قـدـمـنـاهـ فـيـرـدـ دـاـصـوـاتـ تـرـدـيـدـاـ عـلـىـ نـسـبـ يـدـرـ كـمـاـ الـعـالـمـ بـالـغـنـاءـ وـغـيـرـهـ وـلـاـ يـبـغـيـ ذـلـكـ بـوـجـهـ كـمـاـ قـالـهـ مـالـكـ هـذـاـ هـوـ عـنـ الـخـلـافـ وـالـظـاهـرـ تـنـزـيـهـ القرآنـ عـنـ هـذـاـ كـمـاـ ذـهـبـ إـلـيـ الـإـمـامـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ لـأـنـ الـقـرـآنـ نـحـلـ خـشـوعـ يـذـكـرـ الـمـوـتـ وـمـاـ بـعـدـ وـلـيـسـ مـقـامـ الـتـذـاذـ بـاـدـرـاـكـ الـحـسـنـ مـنـ الـأـصـوـاتـ وـهـكـذـاـ كـانـ قـرـاءـةـ الـصـحـابـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـمـ كـمـاـ فـيـ الـأـخـبـارـهـ وـأـمـاـ قـوـلـهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـقـدـ أـوـتـيـ بـزـمـارـاـ مـنـ مـزـامـيرـ الـأـلـ دـاؤـدـ فـلـيـسـ الـمـرـادـ بـهـ الـتـرـدـيـدـ وـالـتـحـينـ إـنـمـاـ مـعـنـاهـ حـسـنـ الـصـوتـ وـأـدـاءـ الـقـرـاءـةـ وـالـإـبـانـةـ فـيـ نـخـارـجـ الـمـرـوـفـ وـالـنـطـقـ بـهـاـ وـإـذـ قـدـ ذـكـرـنـاـ مـعـنـ الـغـنـاءـ فـأـعـلمـ أـنـهـ يـتـعـدـ فـيـ الـعـمـرـانـ إـذـاـ تـوـفـرـ وـتـجـاـوزـ حـدـ الـضـرـوريـ إـلـىـ الـخـاجـيـ ثـمـ إـلـىـ الـسـكـالـمـالـيـ وـتـنـسـنـواـ فـتـعـدـ هـذـهـ الـصـنـاعـةـ لـأـنـهـ لـأـ يـسـتـدـعـهـ إـلـاـ مـنـ فـرـغـ مـنـ تـجـمـيعـ حـاجـانـهـ الـضـرـوريـهـ وـالـهـمـيـهـ مـنـ الـمـعـاشـ وـالـمـنـزـلـ وـغـيـرـهـ فـلـاـ يـطـلـبـهـ إـلـاـ الـفـارـغـونـ عـنـ سـائـرـ الـحـوـالـيـمـ تـقـنـيـاـ فـيـ مـذـاهـبـ الـمـلـدـوـذـاتـ وـكـانـ فـيـ سـلـطـانـ الـعـجمـ قـبـلـ الـمـلـةـ مـنـهـ بـعـدـ زـاـخـرـ فـيـ أـمـصـارـهـ وـمـدـنـهـمـ وـكـانـ مـلـوـكـهـ يـتـعـذـونـ ذـلـكـ وـيـلـعـونـ بـهـ حـتـىـ لـقـدـ كـانـ لـمـلـوكـ الـفـرـسـ أـهـتـمـاـ بـأـهـلـ هـذـهـ الـصـنـاعـةـ وـلـهـمـ مـكـانـ فـيـ دـوـلـتـهـمـ وـكـانـواـ يـخـضـرـونـ مـشـاهـدـهـ وـمـجـامـعـهـمـ وـيـغـنـونـ فـيـهـاـ وـهـذـاـ شـانـ الـعـجمـ لـهـذـاـ الـعـهـدـ فـيـ كـلـ أـفـقـ مـنـ آفـاقـهـمـ وـمـمـاـكـةـ مـعـمـالـكـهـ وـأـمـاـ الـعـربـ فـكـانـ لـهـمـ أـوـلـاـ فـنـ الشـعـرـ يـوـلـفـونـ فـيـهـ الـسـكـلـامـ أـجزـاءـ مـتـسـاوـيـهـ عـلـىـ تـنـاسـبـ يـنـهـاـ فـيـ عـدـهـ حـرـوـفـهـ الـمـنـحـرـ كـهـ وـالـسـاـكـهـ وـيـفـصـلـونـ الـسـكـلـامـ فـيـ تـلـاثـ الـأـجـزـاءـ تـفـصـيـلاـ يـكـونـ كـلـ جـزـءـ مـنـهـ مـسـتـقـلاـ بـالـإـفـادـةـ لـأـ يـتـعـطـفـ عـلـىـ الـأـخـرـ وـيـسـمـونـهـ الـبـيـتـ فـتـلـامـ الطـبـعـ بـالـتـجـزـيـةـ وـلـاـ ثـمـ يـتـنـاسـبـ الـأـجـزـاءـ فـيـ الـمـقـاطـعـ وـالـعـبـادـيـهـ ثـمـ بـتـأـدـيـهـ الـمـعـنـىـ الـمـقـصـودـ وـتـطـبـيقـ الـسـكـلـامـ عـلـيـهـاـ فـلـهـجـوـهـ فـأـمـتـازـ مـنـ بـيـنـ كـلـاـهـمـ بـعـظـيـهـ مـنـ الـشـرـفـ لـيـسـ لـغـيـرـهـ لـأـجـلـ أـخـتـصـاصـهـ بـهـذـاـ الـتـنـاسـبـ وـجـعـلـوهـ دـيـوـانـاـ لـأـخـبـارـهـ

وَحُكْمِهِمْ وَشَرْفِهِمْ وَسُعْدَكَأَقْرَائِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِبِ وَاسْتَرْهَا
عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَغَرِّكِ وَالسَّاَكِنِ مِنَ الْمُعْرُوفِ
قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمُوسِيقِيِّ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لَانْهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَتَنَجَّهُوا عَلَيْهِمْ وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةَ وَكَانَتِ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ
نَحْلِهِمْ ثُمَّ تَغْنَى الْأَحْدَاثُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِلَيْهِمْ وَالْقُتْبَانُ فِي فَضَاءِ خَلْوَاتِهِمْ فَرَجَعُوا الْأَصْوَاتِ
وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يَسْمَونَ الْتَّرَثُرَ إِذَا كَانَ بِالشِّعْرِ غَنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالْتَّهَليلِ أَوْ نَوْعِ
الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالْفَنِينَ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحدَةِ وَعَلَلَهَا أَبُو إِسْحَاقِ الْرَّاجِي يَأْنَهَا تَذَكَّرُ
بِالْمَغَابِرِ وَهُوَ الْبَافِي أَيْ بِالْحَوَالِ الْآخِرِ قَوْرُبَهَا نَاسَبُوا فِي غَنَائِهِمْ بَيْنَ النَّغَمَاتِ مُنَاسِبَةً
بِسِيَطَةً كَمَا ذَكَرَهُ أَبْنُ رَشِيقٍ أَخْرَى كِتَابَ الْعُمَدةِ وَغَيْرِهِ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ الْسِنَادَ
وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقَصُ عَلَيْهِ وَيُمْشَى بِالدَّفَرِ وَالْمِزَمَارِ
فَيَضْطَرَبُ وَيَسْتَغْثِثُ الْحَلُومَ وَكَانُوا يَسْمَونَ هَذَا الْمُزَاجَ وَهَذَا الْبَسِطُ كُلُّهُ مِنَ الْتَّلَاهِينِ
هُوَ مِنْ أَوَالِهِنَّا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنْفَطَنَ لَهُ الْطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَانَ الْبَسَاطَةَ كُلُّهَا فِي
الصَّنَاعَةِ وَلَمْ يَرِزَّلْ هَذَا شَانَ الْعَرَبِ فِي يَدَوْهِمْ وَجَاهِلِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ وَأَسْتَوْلَوْهَا
عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْجَمِيعِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ عَلَى
الْحَالِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّرَرِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ الْحَوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ
بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا وَلَمْ يَكُنْ الْمَلَذُوذُ عِنْهُمْ إِلَّا تَرْجِعَ
الْقِرَاءَةِ وَالْتَّرَثُرَ بِالشِّعْرِ الَّذِي هُوَ دِيدَنُهُمْ وَمَذَهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءُهُمُ الْتَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ
أَرْزَقَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائمِ الْأَمْمَ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ الْعِيشِ وَرِقَةِ الْحَاشِيَةِ وَأَسْخَلَوْهُ
الْفَرَاغِ وَأَفْرَقَ الْمُغْنِونَ مِنَ الْفَرْسِ وَالثُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى الْمَجَازِ وَصَارُوا مَوَالِيَ الْعَرَبِ
وَغَنُوا حَمِيمًا بِالْمَيْدانِ وَالْطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمَرَامِيرِ وَسَمَعَ الْعَرَبُ تَلْهِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ
فَلَحَّنُوا عَلَيْهِمَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ شِيشِيَّ الْقَارِسِيُّ وَطَوَيْسُ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرَ وَتَوْلَى عَبِيدِ
اللَّهِ أَبْنَى جَعْفَرَ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحْتُهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرُهُمْ ثُمَّ أَخْذَهُمْ
مَعْبُدُ وَطَبِقَتُهُ وَأَبْنُ شُرِيفٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَنْدَرِجُ إِلَى أَنْ كَمْلَتْ أَيَامَ بَنِي الْعَبَاسِ
عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَنْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ وَأَبْنِهِ إِسْحَاقَ وَأَبْنِهِ حَمَادَ وَكَانَ مِنْ
ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ يَعْدَادَ مَا تَعْهَدَ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ يَهُوَ بِعِجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَعْنَوْا فِي الْأَهْوَى

وَاللَّعِبْ وَأَتَخِذَتْ الْآتُ الرِّفْصَنْ فِي الْمَلِيسِ وَالْقُضْبَانِ وَالْأَشْعَارِ الَّتِي يَتَرَسَّهُ بِهَا عَلَيْهِ
وَجُمِلَ صِنْفًا وَحْدَهُ وَأَتَخِذَتْ الْآتُ أُخْرَى لِلرِّفْصَنْ تُسْمَى بِالْكَرْجَ وَهِيَ تَمَاثِيلُ خَيْلٍ
مُسْرَجَةٌ مِنْ أَلْخَشَبِ مُعْلَقَةٌ بِأَطْرَافِ أَفْيَاهِ يَلْبِسُهَا النِّسْوَانُ وَيَحْمَّا كِينَ بِهَا أَمْتِطَاءَ الْخَيْلِ
فِي كِرْشَوْنَ وَيَفْرُونَ وَيَشَاقِقُونَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْعَابِ الْمُعْدَدِ لِلْوَلَائِمِ وَالْأَغْرَاسِ وَأَيَامِ
الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهُو وَكَثُرَ ذَلِكَ يَتَغَدَّادَ وَأَمْصَارَ الْعَرَاقِ وَأَنْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غَلَامٌ أَسْمَهُ زَيْكَبُ أَخْدَ عَنْهُمْ الْفَنَاءُ فَاجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى
الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحقَ بِالْحُكْمِ بْنُ هَشَامٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ
فَبَالَّغَ فِي تَكْرِيمَتِهِ وَرَكِبَ لِلْقَائِمِ وَأَسْنَى لَهُ أَجْوَائِزَ وَالْأُقْطَاءَاتِ وَالْجَرِيَاتِ وَأَحَلَّهُ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدْمَائِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْفَنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ
الْطَّوَافِ وَطَمَّا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَّةِ بَحْرٌ زَانِ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَصَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُوَّةِ
بِإِفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَأَنْتَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا أَلَانَ مِنْهَا صَبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعٍ عُمْرَانِهَا
وَتَنَاقُصٌ دُولَاهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمْرَانِ مِنْ الصِّنَاعَعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي
غَيْرِ وَظِيفَتِهِ مِنْ الْوَظَائِفِ إِلَّا وَظِيفَةِ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنْ
الْعُمْرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجِعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع نكبس صاحبها عقبلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قد ذكرنا في **الكتاب** أنَّ النَّفْسَ النَّاطِقةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَأَنَّ
خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ إِنَّمَا هُوَ يَتَجَدَّدُ الْعُلُومُ وَالْإِدْرَاكَ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ
أَوْلَاتُمَا يُسْكَنَسُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّفَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِالْفَعْلِ وَعَقْلًا مَحْضًا
يَتَكَبُّرُ ذَاتَهَا رُوْحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودُهَا فَوَجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ
مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفْدِهَا عَقْلًا فِي دُنْدَانِهِ وَالصِّنَاعَعُ أَبْدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَكَانِهَا قَانُونٌ
عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَةِ فَلِهَذَا كَانَتِ الْمُنْتَكِهُ فِي التَّبَرِيَّةِ تُفِيدُ عَقْلًا وَالْحِضَارَةُ
الْكَاملَةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صِنَاعَعٍ فِي شَأنِ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ وَمَعَاشرَةِ أَبْنَاءِ
الْجِنِّ وَتَحْصِيلِ الْأَدَابِ فِي مُخَالَطَتِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامِ بِأَمْوَالِ الَّذِينَ وَأَعْتَبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائطِهَا
وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَسْتَقِيمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلٍ وَالْكِتَابَةِ مِنْ بَيْنِ الصِّنَاعَعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَنْظَارِ بِخَلَافِ الصَّنَاعَةِ وَرَيَانُهُ أَنْ فِي
الْكِتَابَةِ اِنْتِقَالًا مِنَ الْحُرُوفِ الْخُطِيَّةِ إِلَى أَنْكِلَمَاتِ الْلُّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنَ الْكِلَمَاتِ
الْلُّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي النَّفْسِ ذَلِكَ دَائِمًا فَيَحْصُلُ لَهَا مَلْكَةُ الِانْتِقَالِ مِنَ
الْأَدْلَةِ إِلَى الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ الْعُقْلِيِّ الَّذِي يُسْكِبُ الْعِلْمَ الْعِجْمَوَةَ
فِي سُكُوبِ بِذَلِكَ مَلْكَةِ مِنَ التَّعْقِيلِ تَكُونُ زِيَادَةُ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَبَسٍ فِي
الْأَمْوَارِ لِمَا تَعُودُهُ مِنْ ذَلِكَ الِانْتِقَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ كَسْرَى فِي كِتَابِهِ لِمَا رَأَاهُ بِتِلْكَ
الْفِطْنَةِ وَالْكَيْسِ فَقَالَ دِيوَانَهُ أَيْ شَيَاطِينُ وَجَنُونُ قَالُوا وَذَلِكَ أَصْلُ أَشْتِقَاقِ الدِّيَوَانِ
لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ وَيُلْحِقُ بِذَلِكَ الْحِسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحُسَابِ نَوْعًا نَصَرَفُ فِي الْعَدَدِ
بِالْفَضْمِ وَالتَّفْرِيقِ يُعْتَاجُ فِيهِ إِلَى أَسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَبَقِيَ مَتَعَودًا لِلْأَسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ
وَهُوَ مَعْنَى الْعُقْلِ الْعُقْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ



الفصل السادس

من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائل وجوهه وما يعرض في ذلك كله
من الأحوال وفيه مقدمة ولوائح

الفصل الأول

في ان العلم والتعاليم طبيعى في امران البشرى

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ تَجْمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْحَسْنِ وَالْخَرْكَةِ
وَالْغَذَاءِ وَالْكِنْ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمْيِيزُ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ
وَالْتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِإِنْشَاءِ جِنْسِهِ وَالْأَجْمَاعِ الْمُفْعِيِّ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ وَقُبُولُ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْسِيَاءُ
عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَعْمَلَ بِهِ وَأَتَبَاعَ صَلَاحَ الْخَرَاءِ فَهُوَ مَانَسِكِرُهُ فِي ذَلِكَ كَلِمَةُ دَائِمًا لَا
يَفْتَرُ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةً عَيْنِ بَلْ أَخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ تَسْعُ البَصَرِ وَعَنْ هَذَا
الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعِلْمُ وَمَا قَدَّمَنَاهُ مِنَ الصَّنَاعَةِ ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
بَلْ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدِعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا آتَى

عندَهُ مِنَ الْأَدْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِعِرْفَةٍ أَوْ إِدْرَاكٍ أَوْ أَخْذَهُ مِمَّنْ تَقْدِمَهُ مِنَ الْأَنْتِيَاءِ الَّذِينَ يُسْتَغْوِنُهُ لِمَنْ تَلَقَاهُ فَيُلْقِنُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيَحْرُصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ ثُمَّ إِنْ فَكَرَهُ وَنَظَرَهُ بِتَوَجْهِ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْرِضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَحَاقُ الْعَوَارِضِ بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْرِضُ لِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ عِلْمًا مُخْصُوصًا وَتَشَوَّفُ نُفُوسُ أَهْلِ الْجَيْلِ النَّاشرِ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ فِي فَرَسَوْنَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَعْبُّونَ بِالْعِلْمِ مِنْ هَذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْتَّعْلِيمَ طَبِيعَتِيٌّ فِي الْبَشَرِ

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذَلِكَ أَنَّ الْحِدْقَ فِي الْعِلْمِ وَالْتَّفَانُ فِيهِ وَالْأَسْتِيَّ لَأَهْلِ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِعِبَادِهِ وَقَوَاعِدِهِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ وَاسْتِبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أَصْوَلِهِ وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنْ الْحِدْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِ الْمُتَنَاؤِلِ حَاصِلًا وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ لِأَنَّا نَجِدُ قَبْلَهُ الْمَسَالَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْفَنِ الْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشَتَّرٌ كَمَا يَبْيَسُ مِنْ شَدَّا فِي ذَلِكَ الْفَنِ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِيٌّ فِيهِ وَبَيْنَ الْمَانِيِّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ بِعِدْهُ وَبَيْنَ الْعَالَمِ الْتَّحْرِيرِ وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالَمِ أَوِ الشَّادِيِّ فِي الْفَنِّيْنِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَالْمَلَكَاتُ كُلُّهُمَا جِسْمَانِيَّةٌ سِوَاهُمَا كَارَتُ فِي الْأَيْدِينَ أَوْ فِي الْدِرَمَاغِ مِنَ الْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَالْحِسَابِ وَالْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهُمَا عَجْسُوسَةٌ فَتَفَقَّرُ إِلَى التَّعْلِيمِ وَلِهَذَا كَانَ السَّنْدُ فِي التَّعْلِيمِ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ إِلَى مَشَاهِيرِ الْمُعْلِمِينَ وَهِيَا مُعْتَدَلٌ عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أُفْقٍ وَجِيلٍ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ صِنَاعَةٌ أَخْتِلَافُ الْأَسْنَدِيَّاتِ فِيهِ فَلِكُلِّ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَشَاهِيرِ أَصْطِلَاحٌ فِي التَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ سُبُّ الْصِنَاعَاتِ كُلُّهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْأَصْطِلَاحُ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ وَإِلَّا كَانَ وَاحِدًا عِنْدَ جَمِيعِهِمُ الْأَتَرَى إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ أَصْطِلَاحُ الْمُتَقْدِمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا أَصْوُلُ اُفْقِهٍ وَكَذَا الْعَرَبِيَّةَ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ بِتَوَجْهِ إِلَى مُطَالَعَتِهِ تَجِدُ الْأَصْطِلَاحَتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَغَالِفَةً فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ وَاحِدٌ فِي تَفْسِيرِ وَإِنَّ الْقَرَرَ ذَلِكَ فَأَعْلَمُ أَنَّ سَنَدَ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ

باختلال عمرانه وتنافص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها
 كما مر وذلك أن القبروان وقرطبة كانتا حاضرتين المغرب والأندلس واستبخر عمرانهما
 وكان فيهما للعلوم والصناعات أسوق نافقة وبخور زاخرة ورسب فيهما التعليم لامتداد
 عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً
 كان في دولة الموحدين يمر أكش مستفاداً منها ولم تزد الحضارة بمراكيش لبداوة
 الدولة الموحدية في أولها وقرب عهده انقراضها بمبدأها فلم تتصل أحوال الحضارة
 فيها إلا في الأول وبعد انقراض الدولة يمر أكش ارحل إلى المشرق من أفريقيا
 القاضي أبو القاسم بن زيتون لهديه وأوسط العائمة السابعة فادركت تلميذ الإمام ابن
 الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس
 بعلم كثير وتعاليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي
 كان ارحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها
 وكان تعليمه مفيداً فأخذ عنهم أهل تونس واتصل سند تعليميهما في تلاميذهما جيلاً
 بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح بن الحاجب وتلميذه
 وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على
 مشيخة واحدة في مجالس باعثيها وتلميذه ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان
 لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارحل من زواوة في
 آخر العائمة السابعة أبو علي ناصر الدين المشداي وأدرك تلميذه أبي عمر وبن
 الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة
 وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل
 بيجاية واتصل سند تعليميه في طلبتها وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشداي من
 تلميذه وأوطنهما وبئط طريقة فيها وتلميذه لهذا العهد بيجاية وتلمسان قليل أو أقل
 من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن
 انقراض تعليم قرطبة والقبروان ولم يصل سند التعليم فسر عليهم حصول الملكة
 والخدق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في
 المسائل العالمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرآتها فتجد طالب العلم منهم بعد

ذهاب الكثيرون من أغارهم في ملائمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاضون وعندما يتم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل بعده ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم وما أتاه القصور إلا من قبل التعليم وأنقطاع سنديه وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنائهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك وممما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم سنتان عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل مما يتأتى فيها طالب العلم حصوله منها من الملكة العلمية أو الآباء من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عشرة من قلة الموجودة في آفاقهم خاصة لا يأبه سوئ ذلك وأما أهل الأندلس فقد ثبت رسم التعليم من بينهم وذهبت عنائهم بالعلوم انتهاص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيما إلا في العربية والأدب اقتصروا عليه واحفظوا سند تعليميه بينهم فأنحفظ بمحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خوازير بعد عين وأما العقليات فلا آخر ولا غيره وماذا إلا لأنقطاع سند التعليم فيها انتهاص عمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلاً بسيفي البحر شغفهم بما يشهدهم أكثر من شغفهم بما يدها والله غالب على أمره وأما المشرق فلم يقطع سند التعليم فيه بل أسوأه نافقة وبمحوره زاخرة لاتصال عمران المؤفرو واتصال السند فيه وإن كانت الأمسكار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد أدى منها بأمسكار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق الجهم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل مؤفورة وعمرانها متصلة وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسطي في صناعة تعليم العلم وفي سائر الأصناف حتى أنه يعطى كثير من رجالها أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد بحثاً وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن فنونهم الناطقة أكمل بفطرتها من فنون أهل المغرب وبعقول دون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيرون بذلك

وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَبَسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَاعَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ
 قُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفاُوتٌ بِهَذَا الْمَقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفاُوتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ
 أَللَّهُمَّ إِلَّا أَلْأَقَا لِيْمَ الْمُنْجِرِفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْرِجَةَ فِيهَا مُنْجِرَفَةَ
 وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَلَّ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ
 هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْخَضَارَةِ مِنْ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا تَقدَّمَ فِي
 الصَّنَاعَةِ وَتَزَيَّدُهُ أَلَّا نَتَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي
 الْمَعَاشِ وَالْمَسْكِنِ وَالْبَنَاءِ وَامْرُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَتِهِمْ
 وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصْرِيفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ آدَابٌ يُوقَفُ عَنْهُمْ فِي جَمِيعِ
 مَا يَتَنَاهُونَ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْدِيَّ وَتَرَكِ حَتَّى كَانَهَا حَدُودٌ لَا تَعْدِي وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ
 صَنَاعَةٌ يَتَلَقَّاهَا الْآخَرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صَنَاعَةٍ مُرْتَبَةٍ يَرْجِعُ
 مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثْرٌ يُكَسِّبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا تَسْتَعِدُ بِهِ لِقَبُولِ صَنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا
 الْعَقْلُ بِسُرْعَةِ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَغُنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَاعَةِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَيَابَاتِ
 لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعْلَمُونَ أَلْحَمْرَ الْأَنْسَيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُجْعَمَ مِنَ الْمَاشِيِّ وَالْطَّائِرِ
 مُفْرَدَاتِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَغْرِبُ نُدُوزُهَا وَيَغْزِيُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحْسُنُ
 الْمَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَاعَةِ وَسَائِرِ الْأَخْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَرْبِدُ الْإِنْسَانَ ذَكَرَهُ فِي عَقْلِهِ
 وَإِضَاءَةً فِي فَكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْحاَصِلَةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمَنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَشَاءُ
 بِالْإِدْرَاكِ وَمَا يُرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزِدُّ أَدُونَ بِذَلِكَ كَبَسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى
 النَّفْسِ مِنْ آلَآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَبَظْنَهُ الْعَامِيُّ تَفَاقَوْنَا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
 الْأَتَرَى إِلَى أَهْلِ الْخَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْخَضَرِيُّ مُخْلِبًا بِالذَّكَرِ مُمْتَلِئًا
 مِنَ الْكَبَسِ حَتَّى إِنَّ الْبَدَوِيَّ أَيْظَنَهُ أَنَّهُ قَدْ فَانَّهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ
 كَذَلِكَ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَاعَةِ وَالْأَدَابِ فِي الْعَوَالِدِ وَالْأَخْوَالِ
 الْخَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدَوِيُّ فَلَمَّا أَمْتَلَأَ الْخَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَاعَةِ وَمَلَكَاتِهَا وَحْسُنُ
 تَعْلِيمِهَا ظَانَ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنِ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَعَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نُفُوسَ أَهْلِ الْبَدْوِ
 قَاصِرَةٌ يَنْفِطِرُتِهَا وَجِيلَتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي
 أَعْلَى رُتبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ وَالْكَعَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْخَضَرِ مِنْ

ذلك هو رزق الصنائع والتعليم فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه وكذلك أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصناعات أوضح رتبة وأعلى قدماً وكان أهل المغرب أقرب إلى البداءة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغلوط في باديء الرأي أنه يكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بتصحيف ففهمه وآله يزيد في الخلق ما يشاء وهو إله السموات والأرض

الفصل الثالث

في ان العلوم اثنا عشر حيث يكثر العمran وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثار في الأنصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والتزف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكمثرة لأنه أمر زائد على المعاش فمتي فضلت أعمال أهل العمران عن معيشتهم انتصرت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصناعات ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن تشا في القرى والأنصار غير المتمدنة فلا يجده فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من أثر خلطة في طلبها إلى الأنصار المستبشرة شأن الصنائع كلها وأعتبر ما قررناه يحال بعذاد وفرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام وأستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في أصناف آلات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربو على المعتقد مين وفاتها المتأخرين ولما تناقض عمرانها وأبدع سكانها أنطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل إلى غيرها من أنصار الإسلام وشنع لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبشرة وحضارتها مستحكمة منذ الآف من السنين فاستحببت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكده ذلك فيما وقع لهذه العصوب بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جراً وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عاديه سلطائهم على من يتغلبونه من ذريتهم لما له عليهم من أثر أو الولاء ولا يخشى من معاطيب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس

وَأَرْوَابَا وَأَرْبُطِ وَقُنُوْعَلِهَا الْأَوْقَافَ الْمُغْلَةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شَيْرَ كَالْوَلِهْ بَنْظُرٍ عَلَيْهَا أَوْ
يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِيَهُمْ الْجَنْوَحِ إِلَى الْخَدْرِ وَالْتَّمَاسِ الْأَجْوَرِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ
فَكَثُرَتِ الْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ الْفَلَاتُ وَالْفَوَادِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُهَلَّمُ بِكَثِيرَةِ
جِرَائِهِمْ مِنْهَا وَأَرْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَتَفَقَّتْ بِهَا أَسْوَاقُ
الْعِلْمِ وَزَخَرَتْ بِهَا وَأَرْبُطَهَا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في المعران لهذا العصر

اعلم أنَّ الْعِلْمَ الَّتِي يَخْوُضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَأَوْلُهَا فِي الْأَمْسَارِ تَحْصِي لَا وَتَهْلِمُهَا فِي
عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ طَبَيْعِيٌّ لِلإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ يَغْكُرُهُ وَصِنْفٌ نَقْلِيٌّ يَأْخُذُهُ عَمَّا
وَضَعَهُ وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعِلْمُ الْحِكْمَيَّةُ الْفَلْسَفَيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقْنَتَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ
يَطْبَيْعَةً فَكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُعَاهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْعَاءَ بَرَاهِينِهَا
وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِنَّهُ (١) نَظَرَهُ وَيَحْتَهُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَا فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ذُو فَكْرٍ وَالثَّانِي هِيَ الْعِلْمُ الْنَّقْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ
الْوَاضِعِ الْشَّرْعِيِّ وَلَا مَجَالٌ فِيهَا لِلْعُقْلِ إِلَّا فِي الْإِلْحَاقِ الْفَرْوَعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأَصْوَلِ
لَانَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْخَادِيَّةِ الْمُتَعَافِيَّةِ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ الْنَّقْلِ الْكَلِّيِّ بِعَجْرَدِ وَضَعِيفَتْ تَحْتَاجُ
إِلَى الْإِلْحَاقِ بِوَجْهِ قِيَامِيِّ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ الْخَبَرِ يَشْبُوتُ الْحِكْمَمِ
فِي الْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى الْنَّقْلِ لِتَفَرَّعِهِ عَنْهُ وَأَضْلَلَ هَذِهِ الْعِلْمُوْمُ
الْنَّقْلِيَّةُ كُلُّهَا هِيَ الْشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوَّةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَاقُبُ بِذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ الَّتِي تَهْبِئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَبِعُ ذَلِكَ عِلْمُ
الْإِلْحَاقِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانٌ الْمُلْمَةُ وَبِهِ نُزِّلَ الْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعِلْمُوْمُ الْنَّقْلِيَّةُ
كَثِيرَةٌ لَانَّ الْمُكَافَفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُفْرُوضَةَ عَلَيْهِ
وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَا خُوذَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ بِالْأَنْصَنِ أَوْ بِالْأَجْمَاعِ أَوْ
بِالْإِلْحَاقِ فَلَا بُدُّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بِسَيَانِ الْفَنَاظِهِ أَوْ لَا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ
يَسْتَبِعُ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقنه نظره يستعمل وقف متعدياً فنول وفنته على كل ما أعلمته عليه قاله نصر

روايات القرآن في قرائته وهذا هو علم القراءات ثم يُمنَّى إلى صاحبها والكلام في الرواية النافلتين لها ومعرفة أحوال يوم وعد الشهرين لبقاء الوثوق بأخبارهم يعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العام بكونية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا توصل الشمر بمعروفة أحكام الله تعالى في أفعال المسلمين وهذا هو الفقه ثم إن التكاليف منها بدني ومنها فاني وهو اختصاص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعقاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تقدمة العلوم اللسانية لأنها متوقفة عليهما وهي أصناف فنونها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم التقنية ذاتها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها العلوم الشرعية المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأماما على أخصوص فمباينة الجميع الملل لأنها ناتجة لها وكل ما قبلها من علوم العمال فمحجوره والنظر فيها معظمه فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدروا أهل الكتاب ولا تكتذبواهم وقولوا أمنا بالذي أنزل علينا وأنازل إليكم ولينا ولهم ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقه من التوزرة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم أتكم بها بضوء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعة إلا اتباعي ثم إن هذه العلوم الشرعية التقليدية قد نفت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها وهذه بحسب الفنون بخلاف من دراء الغاية في الحسن والتشميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم وأختص الشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما ذكره الآن عند تعريف هذه الفنون وقد كسرت لهذا العهد أسوق العلم بالغرب لتناقض العمزان فيه ونقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدرى ما فعل الله

بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغارِبِ يَهُ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي مَأْيَرِ الصَّنَاعَةِ -
الْفَضْرُورِيَّةُ وَالْكَسْمَالِيَّةُ لِكَثْرَةِ عُمْرِهِ وَالْحُضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعْانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجَرِيَّةِ
مِنَ الْأَذْفَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَزْرَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ
وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعْانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من الفسیر والقراءات

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتی المصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات المروف في أدائه وتتوافق ذلك وأشهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بادئها واختصت بالاتساب إلى من أشهر برروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للفراء وربما ذيبد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبعين إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى فوتها في النقل وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها وقد خالفت بعض الناس في تواتر طرقيها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن وأباه إلا كثراً وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمدر والتسهيل لعدم التوقف على كيفية بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودوت فكانت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلمًا منفردًا وتناقله الناس بالشرق والأندلس في جيل بعد جيل إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذته به مولاه المنصور بن أبي العامري وأجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سنه في ذلك وافراً وأختص مجاهد بعد ذلك بما ماره دائمة وأجزاء الشرفية فنفت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقراءات خصوصاً فظهر له أبو عمر والداني وبلغ القافية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تأليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها وأعتمدوا

من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والآجيال أبو القاسم ابن فريدة من أهل شاطبة فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمر وتخصيه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أنها القراءة المعروفة باب ج د ترتيباً حكمة ليتساوى عليه ما قصده من الاختصار ولم يكون أمهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً وعني الناس بحفظها وتقديرها للولدان البتاعين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس وزبما أضيف إلى فن القراءات فـ الرسم أيضاً وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسوم الخطية لأن فيه حروفًا كثيرة وقع رسماها على غير المعروف من فيناس الخط كزيادة الياء في باءيد وزيادة الآلف في لا زجاجة ولا أوضاعاً ولو في جراء والظالمين وحذف الألقات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من الناءات متعددة والأصل فيه مربوط على شكل الماء وغير ذلك وقد مر تعليم هذا الرسم المعنفي عند المتكلم في الخط فلما جاءت هذه الخالفة لا أوضاع الخط وقانونه أحتياج إلى حصرها فكتب الناس فيها أيضاً أيضاً عند كتبهم في العلوم وانتهت بالغرب إلى أبي عمر الداني المذكور فكتب فيها كتاباً من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعلوا عليه ونظمها أبو القاسم الشاطبي في قصيدة المشهورة على روى الراء وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمر الداني والمشهور بحمل علومه ورواياته كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم آخرها من المتأخرين بالغرب أجزوة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً وعزاه لنقله وأشتهرت بالغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمر و الشاطبي في الرسم.

(واما التفسير) . فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلا غتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وترافقه وكان ينزل جملأ جملأ وأيات آيات لبيان التوحيد والقروض الدينية بحسب الواقع ومنها ما هو في العقائد الإيمانية ومنها ما هو في أحكام الجواز ومنها ما ينقدم ومنها ما يتاخر ويكون تاسعاً له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين الجحمل ويميز الناسخ من المنسوخ

وَيُعْرِفُهُ الصَّحَابَةُ فَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ كَمَا
عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرًا لِلَّهِ وَالْفَتْحُ إِنَّهَا نَعْيٌ النَّبِيٌّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ
ذَلِكَ وَنُقلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رُضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَنَدَأَوْلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَنُقلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَافِلًا بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلْفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ
عُلُومًا وَدُوَّنَتِ الْكِتَبُ فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقلَتِ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ
الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبَرِيِّ وَالْوَافِدِيِّ وَالشَّعَابِيِّ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنِ
الْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُتبُهُ مِنَ الْآثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ الْلِّسَانِ
صِنَاعَةً مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضِعَاتِ الْلُّغَةِ وَالْحُكْمَ الْإِعْرَابِ وَالْبِلَاغَةِ فِي الْتَّرَاكِيبِ
فَوُضِعَتِ الْدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتِ الْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلٍ وَلَا
كِتَابٌ فَتَنُومِيَ ذَلِكَ وَصَارَتْ تُتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْلِّسَانِ فَأَخْتَيَّرُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَقْسِيرِ
الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ يُلْسَانُ الْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بَلَاغَتِهِمْ وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَقْسِيرٍ نَقْلٍ
مُسْتَنِدًا إِلَى آثَارَ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلْفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابُ النَّزُولِ
وَمَقَاصِدُ الْآيِّ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ وَفَدَ جَمْعُ الْمُتَقَدِّمِينَ
فِي ذَلِكَ وَأَوْعَزَا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاهُمْ تُشَتَّمِلُ عَلَى الْفَثِّ وَالْسَّمَئِينَ وَالْمَقْبُولِ
وَالْمَرْدُودِ وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُنُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتِ
عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأَمْيَةُ وَإِذَا تَشَوَّفُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ
فِي أَسْبَابِ الْمُكَوَّنَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلُ
الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَأَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبعَ دِينَهُمْ مِنَ
الْذَّارَى وَأَهْلُ التَّوْرَأَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَّةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرُفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمَهُمْ مِنْ حِمَرَ الَّذِينَ أَخْذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ
فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانُوا عِنْهُمْ مِمَّا لَا تَعْلَقَ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الْشَّرِعِيَّةِ الَّتِي يَعْتَاطُونَ
لَهَا مِثْلُ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحِدْثَانِ وَالْمَلَائِمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَهُوَ لَأَدَاءٌ
مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِهِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامَ وَأَمْثَالِهِمْ فَأَمْتَلَاتِ الْتَّفَاسِيرِ
مِنِ الْمَنْقُولَاتِ عِنْهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرِاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَنَسَتْ مِمَّا
يُرْجَعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَتُشَتَّرِئُ فِي الْأَصْحَاحِ الَّتِي يَجْبُ بِهَا الْعَمَلُ وَتَسَاهَلَ الْمُفَسِّرُونَ فِي

مثِل ذلك وَمَلَأوا كُتب التفسير بهذه المقولات وأصلها كما فلنا عنْ أهل التَّوْرَاةِ الَّذِين يَسْكُنُونَ الْبَادِيَّةَ وَلَا تَحْقِيقَ عِنْهُمْ يَعْرِفُهُ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِيَّتِهِمْ وَعَظُّمَتْ أَقْدَارُهُمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمُلْكِ فَلُقِّبُتْ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّعْقِيقِ وَالتَّخْبِيصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَطَّيَّةَ مِنَ الْمَنَّا خَرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَصَّ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلُّهَا وَتَحْرَى مَا هُوَ أَفَرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَداوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ الْمَعْنَى وَتَبَعَّهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ أَخْرَى مُشْهُورٍ بِالْمَسْرِقِ وَالصِّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفَاسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى الْلِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَالْإِغْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ فِي تَأْدِيَّةِ الْمَعْنَى بِحَسْبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَسَالِيبِ وَهَذَا الصِّنْفُ مِنَ التَّفَاسِيرِ قَلَّ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ الْأَوَّلِ إِذَا الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَادَ الْلِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَنُّ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكَسَافِ لِ الزَّمْخَشَرِيِّ مِنْ أَهْلِ خَوَارِزْمِ الْعِرَاقِ إِلَّا أَنْ مُؤْلِفُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَعْتَازَالِ فِي الْعِقَائِدِ فَيَأْتِي بِالْتَّحْمَاجِ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ الْفَاسِدَةِ حَيْثُ تَعْرِضُ فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنْ طُرُقِ الْبَلَاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلتَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنْجِرَافَ عَنْهُ وَتَحْذِيرُ الْجُمِيعِ مِنْ مَكَانِهِ مَعَ افْرَارِهِ بِرُسُوخٍ قَدَّمَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْلِسَانِ وَالْبَلَاغَةِ وَإِذَا كَانَ الْنَّاظِرُ فِيهِ وَاقِفًا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْمَذَاهِبِ السُّنَّةِ مُحْسِنًا لِلتَّحْمَاجِ عَنْهَا فَلَا جَرَمَ إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَّالِهِ فَلَتَعْتَمِمْ مُطَالَعَتُهُ لِغَرَابَةِ فُنُونِهِ فِي الْلِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الْعُصُورِ تَأْلِيفُ لِبَعْضِ الْعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ الَّذِينَ أَطْبَيُوا مِنْ أَهْلِ تُورِيزِ مِنْ عِرَاقِ الْعِجمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ الْزَّمْخَشَرِيِّ هَذَا وَتَتَبَعَ أَفَاقَةً وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي الْأَعْتَازَالِ بِإِدَلَةٍ تَرَيَفَهَا وَيُسَيِّنُ أَنَّ الْبَلَاغَةَ إِنَّمَا تَقْعُدُ فِي الْآيَةِ عَلَى مَا يَرَاهُ أَهْلُ السُّنَّةِ لَا عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُعْتَازَلَةُ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمْتَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ الْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعةٌ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يُنْظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمُنْسُوخِهِ

وَذَلِكَ بِمَا ثَبَثَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النَّسْخِ وَقُوَّةِ لَطْفَهُ مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ
بِأَعْتَارِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكْفُلُ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا نَاتٍ مُخْبِرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبَرُ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَثْبَاتِ وَتَعَذَّرَ الجُمُعُ بَيْنَهُمَا يَعْصُمُ الْأَنَّاءُ وَيُلِّ
وَعِلْمٌ تَقْدِمُ أَحَدِهِمَا تَعِينَ أَنَّ الْمُتَأْخِرَ نَاسْخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسْخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهْمِ عِلْمِ
الْحَدِيثِ وَأَصْعَبُهَا قَالَ الْزُّهْرِيُّ أَعْيَا الْفَقِهَاءِ وَأَعْجَزُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسْخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدْمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ
عِلْمِ الْأَحَادِيثِ الْنَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوَقْعِهِ
عَلَى الْسَّنَدِ الْكَامِلِ الشَّرُوطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجَبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقَةٌ مِنْ
اَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجْتَهِدُ فِي الْطَّرِيقِ الَّتِي تَحْصِلُ ذَلِكَ الظَّنُّ وَهُوَ
يَعْرِفُهُ رُوَاةُ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالْأَصْبَطِ وَإِنَّمَا يَبْثُثُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الَّذِينَ
يَتَعَدَّدُونَ لَهُمْ وَبِرَاءَتِهِمْ مِنَ الْجَزْحِ وَالْفَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقِبْلَةِ أَوِ الْأَزْرَكِ
وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُهُو لَا إِنْقَلَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّائِبِينَ وَتَفَاقُوتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَعْيِيزُهُمْ فِيهِ
وَاحِدًا وَاحِدًا وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَفَاقُوتُ بِاَنْتِصَالِهَا وَأَنْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونُ الْرَّاوِي لَمْ يَلْقَ
الْرَّاوِي الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهِ مِنَ الْعِلَلِ الْمُوْهَنَّةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالْتَّفَاقُوتِ إِلَى طَرَفَيِنِ
فَهُكُمْ يَقْبُلُ الْأَعْلَى وَرَدِّ الْأَسْفَلِ وَيَخْتَلِفُ فِي الْمُتَوَسِّطِ بِحَسْبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
أَئِمَّةِ الشَّانِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَاظُ أَصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهُذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ مِثْلِ
الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالْمُسْعِفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطَعِ وَالْمُعْضَلِ وَالشَّاذِ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ أَنْقَابِهِ الْمُتَدَوَّلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوْبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ
لِأَئِمَّةِ الْلُّسَانِ أَوِ الْوَفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كِيفِيَّةِ أَخْذِ الرِّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةِ
أَوْ كِتَابَةِ أَوْ مَنْوَلَةِ أَوْ إِجَازَةِ وَتَفَاقُوتُ رُتْبَاهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقِبْلَةِ
وَالرَّدِّ ثُمَّ أَتَبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامِ فِي الْفَاظِ أَقْعُدُ فِي مَتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ
أَوْ تَصْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظَرُ فِيهِ أَهْلُ
الْحَدِيثِ وَعَالِمُهُ وَكَانَ أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصُورِ الْأَسْلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّائِبِينَ
مَعْرُوفَةٌ عِنْدِ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصَرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ
بِالشَّامِ وَمِنْهُمْ بِالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَارَةِ

في أعصارهم في الأسانيدين أعلى ميئتين سوامين وآمنين في المصححة لا ينبعون في شرطه
 النقل من العدالة والضبط وتجاهيلهم عن قبول الحجج بحال في ذلك وسند الطريقة
 الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم اصحابه مثل
 الإمام محمد بن أذريس الشافعي والأمام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم
 الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلًا ويزفًا شهراً لها السلف وتراثوا الصحيح حتى أكملوها
 وكتب مالك رحمة الله كتاب الموطأ أودعه أصول الأحكام من الصحيح
 المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحافظ بتعريفة طرق الأحاديث وأسانيدها
 المختلفة وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث
 أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن إسماعيل البخاري
 إماماً للمحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسند الصحيح بجمع الطرق
 التي للحجاجيين والمرأقيين والشاميين وأعتمدوا منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه
 وكرر الأحاديث بسوقها في كل باب يعني ذلك الباب الذي تفهم منه الحديث فتكررت
 لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة (١) ألف حديث ومائتين منها ثلاثة
 الآف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الإمام
 مسلم بن الحجاج القشيري رحمة الله تعالى فألف مسند الصحيح. هذا فيه حدود
 البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد
 وبه على أبواب الفقه وترافقه ومع ذلك فلم يستوعبها الصحيح كله وقد استدرك
 الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذى وأبو
 عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شرطه
 العمل إماماً من الرتبة العالمية في الأسانيدين وهو الصحيح كما هو معروف وإنما من الذي
 دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً لسنة وعمل وهذه هي المسانيد المشهورة
 في العمدة وهي أمميات كتب الحديث في السنة فعنها وإن تعدد ترجع إلى هذه
 في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والأصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد
 عنها التاسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه وكذلك الغريب والناس فيه تأليف مشهورة

ثم المؤتلف وال مختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا و من فحول علمائهم
 وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم و تالينه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محسنه
 وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لهذا أباً وائل المائة
 السابعة وتلاه نجاشي الدين التوسي يمثل ذلك و الفتن شريف في غزاه لانه معرفة ما
 يحفظ به السنن المنقوله عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد مخرج شيء من
 الأحاديث واستدراسها على المتقدمين إذ العادة تشهد بأن هو لأئمة الأئمة على
 تعددهم وتلاحق عصرهم وكيفياتهم وأجهزتهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو
 يتركوه حتى يغتسل عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وإنما تصرف العناية لهذا العهد إلى
 تضليل الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفاتها و النظر في أسانيدها إلى
 مؤلفتها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والآحكام ليتصال
 الأسانيد ملحة إلى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه
 الأمهات الخمس إلا في القليل فاما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحة
 واستغلوها منحاة من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة و الرجالها من
 أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم وأختلاف الناس فيهم ولذلك
 يحتاج إلى إمعان النظر في التقى في تراجمه لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث
 بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث يعني له ما نصنه من المعنى
 الذي ترجم به الكتاب وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتذكر الحديث في أبواب
 كثيرة بحسب معانيه وأختلافها ومن شرحة ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح
 كابن بطال و ابن العليل و ابن التين و نحوهم ولقد تمعنت كثيراً من شيوخنا رحمة لهم
 الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأمة يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم
 يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار واما صحیح مسلم فكانت عنابة علماء
 المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح
 مما لم يكن على شرطيه وأكثر ما وقع له في التراجم وأعمال الإمام المازري من
 فقهاء المالكية عليه شرعاً ومهماً المعلم بفوائد مسلم أشتغل على عيون من علم
 الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وساه إكمالاً

المعلم وتلأهـما محيـي الدـين النـووي شـرخـ أـسـتوـقـ مـا فـي الـكـتـابـ وـزـادـ عـلـيـهـما بـغـاءـ شـرـحـاـ وـافـيـاـ . وـأـمـاـ كـتـبـ الـسـنـ الـأـخـرـىـ وـفـيـهـاـ مـعـظـمـ مـاـ خـدـ الـفـقـهـ فـاـ كـثـرـ شـرـحـهاـ فـيـ كـتـبـ الـفـقـهـ إـلـاـ مـاـ يـخـتـصـ بـعـلـمـ الـحـدـيـثـ فـكـتـبـ الـنـاسـ عـلـيـهـاـ وـأـسـتوـقـواـ مـاـ مـنـ ذـلـكـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ مـنـ عـلـمـ الـحـدـيـثـ وـمـوـضـعـاهـاـ وـالـأـسـانـيدـ الـتـيـ اـشـمـلـتـ عـلـىـ الـأـحـادـيـثـ الـمـعـوـلـ بـهـاـ مـنـ الـسـنـةـ . وـأـعـلـمـ أـنـ الـأـحـادـيـثـ قـدـ تـمـيـزـتـ مـرـاتـبـاهـاـ لـهـذـاـ الـعـهـدـ بـيـنـ صـحـيحـ وـحـسـنـ وـضـعـيفـ وـمـعـلـوـلـ وـغـيـرـهـاـ تـنـزـلـهـاـ أـئـمـةـ الـحـدـيـثـ وـجـهـاـيـدـهـ وـعـرـفـوـهـاـ وـلـمـ يـبـقـ طـرـيقـ فـيـ أـصـحـيـحـ مـاـ يـصـحـ مـنـ قـبـلـ وـلـقـدـ كـانـ الـأـئـمـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ يـعـرـفـونـ الـأـحـادـيـثـ بـطـرـقـهـاـ وـأـسـانـيدـهـاـ بـحـيـثـ لـوـرـوـيـ حـدـيـثـ بـغـيـرـ سـنـدـهـ وـطـرـيقـهـ يـفـطـنـونـ إـلـىـ أـنـهـ قـدـ قـلـبـ عـنـ وـضـعـهـ وـلـقـدـ وـقـعـ مـثـلـ ذـلـكـ لـلـأـمـامـ نـعـمـدـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ الـبـخارـيـ حـيـنـ وـرـدـ عـلـىـ بـغـدـادـ وـقـصـدـ الـمـحـدـثـوـنـ أـمـتحـانـهـ فـسـالـوـهـ عـنـ أـحـادـيـثـ قـلـوـاـ أـسـانـيدـهـاـ فـقـالـ لـاـ أـعـرـفـ هـذـهـ وـلـكـنـ حـدـثـيـ فـلـانـ ثـمـ أـتـيـ بـحـيـثـ مـثـلـ ذـلـكـ أـلـاـمـةـ وـأـقـرـأـ لـهـ بـأـلـاـمـةـ . وـأـعـلـمـ أـيـضـاـ أـنـ الـأـئـمـةـ الـمـجـتـبـيـهـ دـيـنـ تـفـاوـتـوـ فـيـ الـإـكـثـارـ مـنـ هـذـهـ الـأـصـنـاعـ وـالـإـقـلـالـ فـأـبـوـ حـنـيفـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ يـقـالـ بـأـفـاتـ رـوـاـيـتـهـ إـلـىـ سـبـعـةـ عـشـرـ حـدـيـثـاـ أـوـ نـحـوـهـاـ وـمـالـكـ رـحـمـهـ اللـهـ إـنـمـاـ صـحـ عـنـهـ مـاـ فـيـ كـتـابـ الـمـوـطـاـ (١)ـ وـغـايـتـهـ تـلـثـمـائـةـ حـدـيـثـ أـوـ نـحـوـهـاـ . وـأـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ مـسـنـدـهـ خـمـسـوـنـ أـلـفـ حـدـيـثـ وـلـكـلـ مـاـ أـدـأـهـ إـلـيـهـ أـجـتـهـادـهـ فـيـ ذـلـكـ وـقـدـ يـقـولـ بـعـضـ الـمـبـعـضـيـنـ الـمـتـعـسـيـنـ إـلـىـ أـنـ مـنـهـمـ مـنـ كـانـ قـلـيلـ الـبـضـاعـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ فـلـهـذـاـ قـلـتـ رـوـاـيـتـهـ وـلـأـسـيـلـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـعـقـدـ فـيـ كـيـارـ الـأـئـمـةـ لـأـنـ الشـرـيـعـةـ إـنـمـاـ تـؤـخـذـ مـنـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ وـمـنـ كـانـ قـلـيلـ الـبـضـاعـةـ مـنـ الـحـدـيـثـ فـيـشـعـنـ عـلـيـهـ طـلـبـهـ وـرـوـاـيـتـهـ وـأـلـجـدـ وـالـتـشـمـيـرـ فـيـ ذـلـكـ لـيـأـخـذـ الـدـيـنـ عـنـ أـصـوـلـ صـحـيـحـةـ وـبـتـلـقـيـ الـأـخـكـامـ عـنـ صـاحـبـهـ الـمـبـلـغـ لـهـ وـإـنـمـاـ قـلـلـ مـنـهـمـ مـنـ قـلـلـ أـلـرـوـاـيـةـ لـأـجـلـ الـمـطـاعـنـ الـتـيـ تـعـتـرـضـ فـيـهـاـ وـالـعـلـلـ الـتـيـ تـعـرـضـ فـيـ طـرـقـهـاـ سـيـمـاـ وـالـجـرـحـ مـقـدـمـ عـنـدـ الـأـكـثـرـ فـيـوـدـيـهـ الـأـجـتـهـادـ إـلـىـ تـرـكـ الـأـخـذـ بـمـاـ يـعـرـضـ مـثـلـ ذـلـكـ فـيـهـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ وـطـرـقـ الـأـسـانـيدـ وـبـكـثـرـ ذـلـكـ فـقـلـ رـوـاـيـتـهـ

(١) الـذـيـ فـيـ شـرـحـ الـزـرـفـانـيـ عـلـىـ الـمـوـطـاـ حـكـاـيـةـ أـقـوالـ خـمـسـةـ فـيـ عـدـةـ اـحـادـيـثـ اوـلـهاـ ٥٠٠ـ ثـالـثـاـ الـفـ وـبـنـ رـابـعـهاـ ١٢٣٠ـ خـامـسـهاـ ٦٦٦ـ وـلـيـسـ فـيـهـ قـولـ هـاـ فـيـ هـذـهـ الـشـخـصـةـ قـالـهـ نـصـرـ الـمـورـ بـيـ

لضعف في الطرق هذا مع أنَّ أهل الحجَّاج أكثُر رواية للحديث من أهل العِراق لأنَّ المدِينَة دارَ الهُجُّرة ومأوى الصَّحابَة وَمَنْ انتَقلَ مِنْهُمْ إِلَى العِراق كَنْ شَاهِدَهُ بِالْجَنَاحِيَّةِ أَكْثَرَ وَالْإِمَامُ أَبُو حَيْفَةُ إِنَّمَا قَاتَ رَوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَأَتَحْمَلَ وَضُعْفَ رَوَايَةِ الْحَدِيثِ الْيَقِينِيِّ إِذَا عَارَفَهَا الْفَعْلُ النَّسْبِيُّ وَقَاتَ مِنْ أَجْلِهَا رِوَايَةً فَقَلَ حَدِيثُهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ رَوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا فَخَاشَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بْنَ كَبَّارِ الْمُجَتَهِدِيَّينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ أَعْتَادَ مَذَهِبَهُ بَيْنَهُمْ وَالْتَّغْوِيلُ عَلَيْهِ وَأَعْتِبَارُهُ رَدًا وَقَبُولاً وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْمُعْدَثِيَّينَ وَهُمُ الْجَمْهُورُ فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ وَأَنْكَلُ عَنِ أَجْتِهادِهِ وَقَدْ توَسَّعَ أَمْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رَوَايَتُهُمْ وَرَوَى الطَّعَطَاوِي فَأَكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ الْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدُلُ الْصَّحِيحَيْنِ لِأَنَّ الشُّرُوطَ الَّتِي أَعْتَدَهَا الْبَغَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِهِمَا مُجْمَعٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْأَمَمِ كَمَا قَالُوهُ وَشُرُوطُ الطَّعَطَاوِيِّ غَيْرُ مُتَقَنِّيٍّ عَلَيْهَا كَارِرَ وَآيَةٌ عَنِ الْمَسْتُورِ الْحَالِ وَغَيْرُهُ فَلِهُذَا قُدُّمَ الْصَّحِيحَيْنِ بَلْ وَكَتَبَ الْسُّنْنَ الْمَعْرُوفَةَ عَلَيْهِ لِتَأْخِيرِ شَرْطِهِ عَنْ شُرُوطِهِ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قَبِيلَ فِي الْصَّحِيحَيْنِ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشُّرُوطِ الْمُتَقَنِّيِّ عَلَيْهِمَا فَلَا تَأْخُذُكَ رِبَّهُ فِي ذَلِكَ فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ وَالنِّاسُ الْمُخَارِجُ الْصَّحِيحَةُ لَهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الْفِقِهُ مَعْرَفَةُ الْحُكْمَ الَّتِي تَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ كَلَّفَنَ يَا لِلْوُجُوبِ وَالْحَذَرِ وَالنَّذْبِ وَالْكَرَاهَةِ وَالْإِبَاحةِ وَهِيَ مُتَلَقَّاهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَمَا نَصَبَهُ الشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِهَا مِنَ الْأَدَلَّةِ فَإِذَا أَسْتَخَرَ جَتِ الْحُكْمُ مِنْ تِلْكَ الْأَدَلَّةِ قِيلَ لَهَا فِيقُهُ وَكَانَ السَّلَفُ يَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدَلَّةِ عَلَى أَخْتِلَافِ فِيهَا بَيْنَهُمْ وَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ خَرْوَرَةٍ أَنَّ الْأَدَلَّةَ غَالِبَهَا مِنَ النُّصُوصِ وَهِيَ بِالْغَةِ الْعَرَبِ وَفِي أَقْتِضَاءِ اتِّفَاقِهَا لِكَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهَا أَخْتِلَافُهُمْ مَعْرُوفٌ وَأَيْضًا فَالسُّنْنَةُ مُخْتَلِفةُ الْطُّرُقِ فِي الْثَّبُوتِ وَتَعَارَضُ فِي الْأَكْثَرِ أَحْكَامُهَا فَتَخْتَاجُ إِلَى التَّرْجِيمَ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضًا فَالْأَدَلَّةُ مِنْ غَيْرِ النُّصُوصِ مُخْتَلِفٌ فِيهَا وَأَيْضًا فَالْأَوْقَائِعُ الْمُعْجَدِدَةُ لَا تُؤْتَى بِهَا الْنُّصُوصُ وَمَا كَنَّ بَيْنَهَا غَيْرَ ظَاهِرٍ فِي الْمُنْصُوصِ

فَيُعْلَمُ عَلَى الْمَعْصُوصِ لِمُشَابِهَةِ يَنْهَا وَهُدِيَ كُلُّهَا إِشَارَاتُ الْخِلَافِ ضَرُورَيَّةُ الْوُقُوعِ
وَمِنْ هُنَّا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْأَئمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ كُلُّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
هُلْ فِتْيَاً وَلَا كَانَ الَّذِينَ بُؤْخَذُ عَنْ حَمْيِّعِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُخْتَسِأً بِالْحَامِلِينَ لِلْقُرْآنِ
الْعَارِفِينَ بِنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَمُتَشَابِهِ وَمُحْكَمِهِ وَسَائِرِ دِلَالَتِهِ يَمْا تَلَقَّوْهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِنْ سَمْعِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ عَلِيهِمْ وَكَانُوا يُسَمُّونَ لِذَلِكَ الْقُرْآنَ أَيِّ الَّذِينَ
يَأْتُونَ الْكِتَابَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً فَأَخْتُصَّ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ قَارِئًا لِلْكِتَابِ
بِهَذَا الْأَسْمَ لِغَرَابِتِهِ يَوْمَئِذٍ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ صَدَرَ الْمَلَةُ ثُمَّ عَظَمَتْ أَمْصَارُ الْإِسْلَامِ
وَذَهَبَتِ الْأُمَّةُ مِنَ الْعَرَبِ بِمُمَارَسَةِ الْكِتَابِ وَتَمَكَّنَ الْإِسْتِبَاطُ وَكَمْلَ الْفِقَهُ
وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَلُوا بِاِسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ وَأَنْقَسَ الْفِقَهُ فِيهِمْ إِلَى
طَرِيقَتِينِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ
أَهْلُ الْحِجَازِ وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلًا فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَنَاهُ فَأَسْتَكَثَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ
وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذِلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ وَمَقْدُومُ جَمَاعَتِهِمْ الَّذِي أَسْتَقَرَّ الْمَذَهَبُ فِيهِ وَفِي
أَصْحَابِهِ أَبُو حَيْنَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَّسٍ وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ ازْكَرَ
الْقِيَاسَ طَائِفَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمُ الظَّاهِرِيُّونَ وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ كُلُّهَا
مُخْصَّةً فِي الْمُصُوصِ وَالْأَجْمَاعِ وَرَدُوا الْقِيَاسَ الْجَلِيَّ وَالْعِلَمَةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ
لَأَنَّ النَّصِّ عَلَى الْعِلَمَةِ نَصٌّ عَلَى الْحَسْنَى فِي حَمْعِهِ مَحَالِيَّا وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذَهَبِ دَاؤِدًا
أَبْنَى عَلَى وَآبَتِهِ وَأَصْحَابِهِمَا وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْثَّلَاثَةُ هِيَ مَذَاهِبُ الْجُمُهُورِ الْمُشْتَهَرَةِ
بَيْنَ الْأُمَّةِ وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِهِ أَبْتَدَعُوهَا وَفِيهِ أَنْفَرُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ
فِي تَنَاؤلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقَدْحِ وَعَلَى قَوْلِهِمْ بِعَصْمَةِ الْأَئِمَّةِ وَرَفعِ الْخِلَافِ عَنْ
أَفْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْوَلُ وَاهِيَّ وَشَدَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخُوارِجُ وَلَمْ يَخْتَلِ الْجُمُهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ
إِلَّا أُوسَعُوهَا جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقَدْحِ فَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرَوْهُ كَتَبَهُمْ
وَلَا أَثَرَ لِشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ فَكَتَبُ الشِّيَعَةِ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ
فَائِمَّةً فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَسْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخُوارِجَ كَذَلِكَ وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كَتَبٌ وَتَالِيفٌ
وَأَرَادَ فِي الْفِقَهِ غَرِيبَةً ثُمَّ دُرْسَ مَذَهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَئِمَّتِهِ وَإِنْكَارٌ
الْجُمُهُورِ عَلَى مُنْتَهِلِهِ وَلَمْ يَقِنْ إِلَّا فِي الْكِتَابِ الْمُجَلَّدِ وَرُبَّمَا يَعْتَكِفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ

مِنْ تَكَلُّفَ يَا نِسْخَالِ مَذَهَبِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكِتَابِ يَرَوْمُ أَخْذَ فِقْهِهِمْ مِنْهَا وَمَذَهَبِهِمْ فَلَا
 يَخْلُو بِطَائِلٍ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجَمْهُورِ وَإِنْ كَارِهُمْ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا عُدَّ بِهِذِهِ الْتَّعْلِلَةِ مِنْ
 أَهْلِ الْبَدْعِ بِنَقْلِهِ الْعِلْمَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْعُلُومِينَ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَبْنُ حَزَمَ
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عَوْنَوْ رَبِّيَّهِ فِي حِنْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذَهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَمَهْرَ فِيهِ
 بِأَجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَخَالَتْ إِمَامَهُمْ دَاؤُدَّ وَتَعَرَّضَ لِكَثِيرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ
 فَنَقَمَ الْأَنْاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذَهَبَهُ أَسْتِهْجَانًا وَإِنْكَارًا وَتَلَقَّوْ كُتُبَهُ بِالْإِغْنَالِ وَالْتَّرْكِ
 حَتَّى إِنَّهَا تَبْعُصَرُ بَيْنَهَا يَا لِلْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَرَّقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذَهَبُ
 أَهْلِ الْأَرْزَاقِ مِنْ الْعَرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْجِمَازِ . فَإِمَامَهُمُ الَّذِي
 أَسْتَقَرَتْ عِنْدَهُ مَذَهَبِهِمْ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ ثَابَتٍ وَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يَلْعُقُ شَهِيدَهُ لَهُ
 بِذَلِكَ أَهْلُ جُلُودَتِهِ وَخُصُوصَةِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْجِمَازِ فَكَانَ إِمَامَهُمْ مَالِكٌ
 أَبْنَ أَنَّسٍ الْأَصْبَحِيُّ إِمامَ دَارِ الْهُجُورِ رَحْمَةُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَخْتُصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ الْآخِرِ
 لِلْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى
 أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفَسُونَ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةُ لِدِينِهِمْ وَأَفْتَدَهُمْ
 وَهَذَذَ إِلَى الْجِيلِ الْمُبَاشِرِينَ اتَّبَاعُ الْبَيِّنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا خَذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ
 وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ اصْوَلِ الْأَدِلةِ الشَّرِعِيَّةِ وَظَنَّ كَثِيرٌهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائلِ الْاجْمَاعِ
 فَأَنْكَرَهُ لَأَنَّ دَلِيلَ الْاجْمَاعِ لَا يَخْصُشُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلُ الْلَّامَةِ
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الْاجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِنْفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الْدِينِيِّ عَنْ أَجْتِهَادِ وَمَالِكٍ وَرَحِمَةِ اللَّهِ
 تَعَالَى لَمْ يَعْتَبِرْ عَمَلَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا أَعْتَبَهُ مِنْ حِبْثَ اتِّبَاعِ الْجِيلِ
 بِالْمُشَاهَدَةِ لِلْجِيلِ إِلَى أَنْ يَنْشَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَضَرُورَةُ أَفْتَدَهُمْ
 بَعْنِ ذَلِكَ بَعْدُ الْحِلَةِ ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْاجْمَاعِ وَالْأَبْوَابِ بِهَا مِنْ حِبْثَ مَا فِيهَا مِنْ
 الْإِنْفَاقِ الْجَمَاعِ يَنْهَا وَبَيْنَ الْاجْمَاعِ إِلَّا أَنَّ اتِّفَاقَ أَهْلِ الْاجْمَاعِ عَنْ نَظَرٍ وَأَجْتِهَادٍ
 فِي الْأَدَلةِ وَاتِّفَاقٌ هُوَ لَا يَنْفَعُ فِي فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ مُسْتَنِدٍ إِلَى مُشَاهَدَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَوْذُ ذُكِرَتْ
 الْمَسَأَةُ فِي بَابِ فَعَلَ الْبَيِّنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقْرَيْرِهِ أَوْ مَعَ الْأَدَلةِ الْمُخْتَلِفِ
 فِيهَا مِثْلُ مَذَهَبِ الْأَصْحَاحَيِّ وَشَرَعَ مِنْ قَبْلَنَا وَالْأَسْتِضْحَابُ لِكَانَ الْيَقْنُ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ
 مَالِكٍ بْنِ أَنَّسٍ مُحَمَّدٌ بْنُ أَدْرِيسَ الْمُطَلَّبِيُّ الْشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى رَحَلَ إِلَى الْعَرَاقِ

من بعْدِ مَالِكٍ وَلَقَبِيِّ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخْذَ عَنْهُمْ وَمَرَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْجِمَاعِ
بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَخْتُصَّ بِمَذَهَبِهِ وَخَالَفَ مَا لِكَ رَحْمَةُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ
مَذَهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَخْمَدُ بْنُ حَبْيلٍ رَحْمَةُ اللَّهُ وَكَانَ مِنْ عِلْمَيْهِ الْحَدِيثَيْنَ وَقَرَأَ
أَصْحَابَهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورٍ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَأَخْتَصُوا بِمَذَهَبِ
آخِرٍ وَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَ هُولَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقْلِدُونَ لِيْنَ سِوَاهُمْ وَسَدَ
النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطَرِيقَةَ لَمَّا كَثُرَ شَعْبُ الْأَصْطَلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ وَلَمَّا عَاقَ عَنْ
الْوُصُولِ إِلَى رُتبَةِ الْأَجْتِهَادِ وَلِمَا خُشِيَّ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُؤْتَقُ
بِرَأْيِهِ وَلَا يُدِينُهُ فَصَرَّحُوا بِالْعِزِيزِ وَالْأَعْوَازِ وَرَدُوا النَّاسَ إِلَى نَقَائِدِ هُولَاءِ كُلَّ مَنِ
أَخْتُصَّ بِهِ مِنَ الْمُقْلِدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يَتَدَأَّلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاقِعِ وَلَمْ يَقِنْ
إِلَّا قُلْ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقْلِدٍ بِمَذَهَبِهِ مِنْ قَلْدَهُ وَنَهْمٍ بَعْدَ تَضْعِيفِ الْأَصْوَلِ
وَأَنْصَالِ سَنَدِهَا بِالْأَرْوَاهِ لَا تَعْصُولَ الْيَوْمَ لِلْفِقْهِ غَيْرُ هَذَا وَمَدْعِيِ الْأَجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ
مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هُولَاءِ
الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَمِمَّا أَخْمَدَ بْنُ حَبْيلٍ فَمُقْلِدُهُ قَلِيلٌ بَعْدَ مَذَهِبِهِ عَنْ الْأَجْتِهَادِ
وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاضِدَةِ الْأَرْوَاهِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضُهَا بِعُضْنِ وَكَثُرُوهُ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ
بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِنْطاً لِلسُّنْنَةِ وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَدْلَهُ
الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمُهُ الْهِنْدُ وَالصِّينُ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعِجمِ كُلُّهَا لِمَا كَانَ
مَذَهِبُهُ أَخْصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارَ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيذُهُ صَحَابَةَ الْخَلْفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
فَكَثُرَتْ تَالِمِيذَاهُمْ وَمَنَاظِرَهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسْنَتْ مَبَاخِشُهُمْ فِي الْخِلَافَيَاتِ وَجَاءُوا
مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظْرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ
تَقْلِهُ إِلَيْهِ الْقَادِيُّ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَالِيدِ الْبَاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمُقْلِدُوهُ
يُعِصِّرُ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهُمْ وَقَدْ كَانَ أَنْتَشَرَ مَذَهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخُراسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ
وَفَاسَمُوا الْحَنْفِيَّةَ فِي الْنَّوْتَرِيِّ وَالْتَّدَرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَعَظَمْتَ مُجَالِسُ الْمَنَاظِرَاتِ
بِيَنْهُمْ وَشُحِّنَتْ كُتُبُ الْخِلَافَيَاتِ بِأَنْوَاعٍ أَسْتَدَلَّ لِلْأَنْتَهِمْ ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسٍ
الْمَشْرِقِ وَالْقَطَارِ وَكَانَ أَلْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي
عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخْذَ عَنْهُ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشَهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ

وأبن الموار وغیرهم ثم الحارس بن مسکین وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضلة وتدالوا بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم إلى أن ذهبت دولة العبيدين من آلها فضة على يد صالح الدين يوسف بن ابي بز ورجع اليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد إلى أحسن ما كان وتفقد سوقه وأشتهر منهم محى الدين التووى من الحلبية التي رأيت في ظل الدولة الايوية بالشام وعز الدين بن عبد السلام أيضاً ثم ابن الرقة بمصر ونقى الدين بن دقيق العيد ثم نقى الدين السبكي بعد هما إلى أن انقض ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين الباقى فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كثيراً العلما بل أكبر العلما من أهل العصر وأماماً مالك رحمة الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لمن رحلتهم كانت غالباً إلى التجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فأقصروا عن الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وأمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ومن لم تصل إليهم طريقه وأيضاً فالبداوة كانت غالباً على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لا يألفون فكانوا إلى أهل التجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزال المذهب المالكى غضاً عندهم ولم يأخذوه تنقیح العصارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الأجتهد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الاتلاق وتفريغها عند الاشتباك بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذاهب إمامهم وصار ذلك كله يحتاج إلى ملائكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة وابتاع مذهب إمامهم فيه ما أستطاعوا وهذه الملائكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعاً مقلدون لماك رحمة الله وقد كان تلاميذه أفترقوا بمصر وال伊拉克 فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته مثل ابن خوزي منداد وابن البارى والقامي وأبي بكر الأبهري والقاضي أبي حسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان

يعصر ابن القاسم وأنهب وابن عبد الحكيم والحارث بن مسكنين وطبقتهم ورحل
 من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وثبت مذهب مالك
 في الأندلس ودون فيه كتاب الواضح ثم دون العتبة من نلامذته كتاب العتبة
 ورحل من أفريقيا أسد بن الفرات كتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل
 إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان
 يكتبه وسمى الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات فقرأ بها سخون على أسد ثم ارتحل
 إلى المشرق وألهي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بسائل الأسدية فرجع عن كثير
 منها وكتب سخون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب
 سخون فافت من ذلك قترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سخون على ما كان فيها من
 اختلاط المسائل في الآبواب فكانت تسمى المدونة والمحشطة وعُرفت أهل
 القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبة ثم اختصر ابن
 أبي زيد المدونة والمحشطة في كتابه المعنى بالختصر والخصة أيضاً أبو سعيد
 البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المعنى بالتمذيب وأعتمد المشيخة من أهل
 أفريقيا وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك أعتمد أهل الأندلس كتاب العتبة
 ومحضوا الواضح وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح
 والايضاح والجمع فكتب أهل أفريقيا على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل
 ابن يونس واللخمي وابن محوز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس
 على العتبة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في
 الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال
 المذاهب وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمها في كتابه على
 المدونة وزخرت بحصار المذهب المالكي في الأفقيين إلى أنقران دولة قرطبة والقيروان
 ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمر وبن الحارث
 شخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديه أقوالهم في كل مستلة فجاء كالبرنامنج
 للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكنين وابن
 المبشر وابن الهميت وابن الرشيق وابن شاس وكانت بالإنكشارية فيبني عوف

وَبْنِي سَنَدَ وَابْنِ عَصَاءَ اللَّهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّا أَخْذَهَا أُبُو عَمْرُ وَبْنُ الْحَاجِبِ لِكَتَبَهُ جَاءَ بَعْدَ أَنْ قَرِأَهُ دَوْلَةُ الْعَبَدِيِّينَ وَذَهَابُ فِقَهِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَظُهُورُ فَقَهَاءِ السَّنَةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ أَخْرَى الْمَائَةِ السَّابِعَةِ عَمِّكَفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصًا أَهْلُ بِحَابَةِ لِمَا كَانَ كَبِيرًا مُسْتَخِفِتِهِمْ أُبُو عَلَيْ نَاصِرُ الدِّينِ الْزَّوَّاِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأً عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِضْرَ وَتَسْخَ مُخْتَصَرَهُ ذَلِكَ بَجَاءَ يَهُوَ وَأَنْتَشَرَ بِقُطْرِ بِحَابَةِ فِي تَلْمِيذِهِ وَمِنْهُمْ أَنْتَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَةُ الْفَقِهِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَأَلُونَ فِرَاءَتِهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ إِمَّا يُؤْثِرُ عَنِ الشَّيْغُ نَاصِرُ الدِّينِ مِنَ الْتَّرَغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةُ مِنْ شُيوخِهِمْ كَابِنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَابْنُ رُشْدٍ وَابْنِ هَازُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مُسِيَّخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقِ حَلَبَتِهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهِدُونَ كِتَابَ الْتَّمَذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنَ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوِرَاثَةِ وَتَصْحِيفِ سَهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصْحُّ بِأَعْتِيَارِ فُرُوضِهَا الْأَصْوَلُ أَوْ مَنَاسَخَهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوِرَثَةِ وَأَنْكَسَرَتْ سَهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسْبٍ لَتَصْحِيفِ الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَّ أَهْلُ الْفُرُوضِ حَمِيعًا فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَبَرِّئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَعْدُدٍ لِذَلِكَ بَعْدَ أَكْثَرٍ وَيُقَدَّرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذِلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةُ ذَاتٍ وَجَهِينَ مِثْلَ أَنْ يُقْرَأَ بَعْضُ الْوِرَاثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرَهُ الْآخَرُ فَتَصْحَحُ عَلَى الْوَجَهِينِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السَّهَامِ ثُمَّ تُقْسَمُ الْتَّرِكَةُ عَلَى نِسَاءِ سَهَامِ الْوِرَاثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ غَالِبًا فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنًا مُفْرَدًا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَالِيفٌ كَثِيرٌ أَشْهَرُهُ مَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأْخِرِي الْأَندَلُسِ كِتَابُ ابْنِ ثَابَتِ وَمُخْتَصَرُ الْقَافِيِّ أَبِي الْقَاسِمِ الْخُوَفِيِّ ثُمَّ الْجَعْدِيِّ وَمِنْ مُتَأْخِرِيِّ الْفَرِيقِيَّةِ ابْنَ النَّمَرِ الْطَّرَابُلُسِيِّ وَأَمْثَالُهُمْ وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ وَالْخَنْفِيَّةُ وَالْخَنَابِلَةُ فَلَمْ يَهُ تَالِيفٌ كَثِيرٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعِبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِأَنْسَاعٍ الْبَاعِرِ فِي الْفَقِهِ وَالْحِسَابِ

وَخُصُوصًا أبا المعايِر رَغِيْرَ الله تَعَالَى عَنْهُ وَأَمْثَالُه مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ وَهُوَ فِي شَرِيفٍ
لِجَمِيعِهِ بَيْنَ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ إِلَى الْمَعْقُولِ فِي الْوَرَاثَاتِ بِوُجُوهٍ صَحِيحةٍ
يَقِينِيَّةٍ عِنْدَ مَا تَجْهَلُ الْمُحْظُوظُ وَتُشَكِّلُ عَلَى الْقَاسِمِينَ وَالْمُعْلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِهَا
عِنَابَةٌ وَمِنَ الْمُصَنَّفِينَ مَنْ يَعْتَاجُ فِيهَا إِلَى الْغُلُوِّ فِي الْحِسَابِ وَقَرْضِ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَحْتَاجُ
إِلَى آسْتِغْرَاجِ الْمُجْهُولَاتِ مِنْ فُونِ الْحِسَابِ كَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالصَّرْفِ فِي الْجَذْوَرِ
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَمْلَأُونَ بِهَا تَالِيَّهُمْ وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَدَاوِلًا بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يُفِيدُ فِيهَا
يَتَدَاوِلُونَهُ مِنْ وَرَاثَتِهِمْ لِغَرَابَتِهِ وَقِلَّةِ وَقُوَّتِهِ فَهُوَ يُفِيدُ الْمَرَانَ وَتَخْصِيلَ الْمَالَكَةِ فِي
الْمُتَدَاوِلِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ وَقَدْ يَعْتَجِجُ الْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْفَنِ عَلَى فَضْلِهِ بِالْحَدِيثِ
الْمَنْقُولِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَغِيْرَ الله عَنْهُ أَنَّ الْفَرَائِضَ ثُلُثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى وَفِي
رَوَايَةِ نِصْفِ الْعِلْمِ خَرَجَهُ أَبُو نَعِيمُ الْحَافِظُ وَأَخْبَرَ بِهِ أَهْلُ الْفَرَائِضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ
بِالْفَرَائِضِ فُرُوضُ الْوَرَاثَةِ وَالَّذِي يَظْهِرُ أَنَّ هَذَا التَّحْكِيلَ بَعِيدٌ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَرَائِضِ
إِنَّمَا هِيَ الْفَرَائِضُ الْكَلِيفِيَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمَوَارِبِ وَغَيْرِهَا وَبِهَا الْمَعْنَى
يَصْبَحُ فِيهَا النَّصَفِيَّةُ وَالثَّالِثِيَّةُ وَمَا فُرُوضُ الْوَرَاثَةِ فِيْهِ أَقْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
عِلْمِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَيُعِينُ هَذَا الْمُرَادَ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ الْفَرَائِضِ عَلَى هَذَا الْفَنِ الْمُخْصُوصِ
أَوْ تَخْصِيصِهِ بِفُرُوضِ الْوَرَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ أَصْطِلَاحٌ نَاسِيٌّ لِلْفُقَهَاءِ عِنْدَ حُدُوتِ الْفُنُونِ
وَالْأَصْطِلَاحَاتِ وَلَمْ يَكُنْ صَدَرَ الْإِسْلَامُ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا إِلَّا عَمُومِهِ مُشَتَّتًا مِنْ
الْفَرَضِ الَّذِي هُوَ لُغَةُ التَّقْدِيرِ أَوْ الْقَطْعِ وَمَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا حَمْلُ
الْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهِيَ حَقِيقَةُ الشَّرِيعَةِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ
فِي عَصْرِهِمْ فَهُوَ أَلْيَقُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِعْلَمُ أَنَّ اُصُولَ الْفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِلُومِ الشَّرِيعَةِ وَأَجَلَّهَا قَدْرًا وَأَكْثَرُهَا فَائِدَةً
وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْأَدَلَةِ الشَّرِيعَةِ مِنْ حِيثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَالثَّالِيَفُ وَأُصُولُ
الْأَدَلَةِ الشَّرِيعَةِ هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ ثُمَّ السُّنَّةُ الْمَبِينَ لَهُ فَعَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتِ الْأَحْكَامُ تُتَلَقَّى بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَبِمَا يُقَوِّلُهُ وَفِيهِ

بِخُطَابِ شِفَاهِي لَا يَعْتَاجُ إِلَى تَقْلِيلٍ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَاسٍ وَمَنْ بَعْدِهِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَذَّرَ أَخْطَابُ الشِّفَاهِيِّ وَأَنْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالْتَّوَاتِرِ وَأَمَّا الْسَّنَةُ فَاجْمَعَ الصَّحَابَةُ رُضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُّ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالْتَّقْلِيلِ الْمُعْجِزِ الْذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقَهُ وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الْشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ بِهَذَا الاعتِبَارِ ثُمَّ يُنْزَلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزَلَتِهِ لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى النَّكِيرِ عَلَى مُخَالَفِيهِمْ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنْدٍ لِأَنَّ مُثْلَمِهِمْ لَا يَتَفَقَّهُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابَتْ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدَلةِ بِعِصْمَتِهِ الْجَمَاعَةُ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الْشَّرْعِيَّاتِ ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْيَاءَ بِالْأَشْيَاءِ مِنْهُمَا وَيُنَاظِرُونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ يَأْجُمُونَهُمْ مِنْهُمْ وَتَسْلِيمُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدَرِجْ فِي النُّصُوصِ الْثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا ثَبَّتَ وَالْحَقُّوْهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ تُصْحِحُ تِلْكَ الْمُسَاوَةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْمِثْلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدَلةِ وَأَتَفَقَ جُمُهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أُصُولُ الْأَدَلةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُذُوذٌ وَالْحَقَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْأَزْبَعَةِ أَدِلَّةٌ أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَكَارِ إِلَى ذِكْرِهَا إِنْصَافٌ مَدَارِكُهَا وَشُذُوذُ الْقَوْلِ فِيهَا فَكَانَ أَوَّلَ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِ الْنَّظَرِ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدِلَّةً فَأَمَّا الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْمُعْجِزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتَّهِ وَالْتَّوَاتِرِ فِي نَقْلِهِ فَلَمْ يَقِنْ فِيهِ بَجَالٌ لِلِّاْخْتِيَالِ وَأَمَّا السَّنَةُ وَمَا نُقِلَّ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ مُعْضِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْفاذِ الْكِتَابِ وَالرَّسُولِ إِلَى الْنَّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَاهِيًّا وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فِي لِاْتِقَاعِهِمْ رُضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مُخَالَفِتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الْثَّابِتَةِ لِلْأَمْمَةِ وَأَمَّا الْقِيَاسُ فِي إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ هَذِهِ أُصُولُ الْأَدَلةِ ثُمَّ إِنَّ الْمَنْقُولَ مِنَ السَّنَةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَضْبِيعِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طُرُقِ الْتَّقْلِيلِ وَعَدَالَةِ الْمَاقِلِينَ لِتَسْتَبِّئَ الْمَحَالَةُ الْمُحَصَّلَةُ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ وُجُوبِ الْعَمَلِ وَهَذِهِ أَبْضَانُ مِنْ قَوَاعِدِ الْفَنِ وَيُلْعَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقْدِمِ مِنْهُمَا

مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ الْنَّظَرُ فِي
 دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ أَسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي عَلَى الْأَطْلَاقِ مِنْ تَرَاكِيبِ الْكَلَامِ
 عَلَى الْأَطْلَاقِ بَتَوْقِفٍ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمَرْكَبَةً وَالْقَوَافِينِ
 الْلِّسَانِيَّةِ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ وَحِينَ كَانَ الْكَلَامُ مَلَكَةً
 لِإِمْلَاهِ ثُمَّ تَكُونُ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَافِينَ وَلَمْ يَكُنْ الْفِقْهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِيلَةٌ
 وَمَلَكَةٌ فَلَمَّا فَسَدَتِ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَيَّدَهَا الْجَهَابَذَةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ
 بَثَقَلَ صَحِيحُهُ وَمَقَائِيسُهُ مُسْتَبْطَةٌ صَحِيحَةٌ وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيقُ فِي مَعْرِفَةِ
 الْحُكَمِ أَللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أَسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةٌ مِنْ تَرَاكِيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ
 أَسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدِيَّتِهَا خَاصَّةٌ مِنْ تَرَاكِيبِ الْكَلَامِ
 وَهُوَ الْفِقْهُ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلَى الْأَطْلَاقِ بَلْ لَا بدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
 أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ وَبِهَا تُسْتَفَدُ الْأَحْكَامُ بِحَسْبِ مَا أَصَلَّ
 أَهْلُ الْشَّرْعِ وَجَهَابَذَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ قَوَافِينَ لِهَذِهِ الْأِسْتِفَادَةِ مِثْلَ أَنَّ الْلُّغَةَ
 لَا تَبْثِتُ فِيَّا سَاسًا وَالْمُشْتَرِكَ لَا يُوَادِعُهُ مَعْنَاهُ مَعَا وَالْأَوَّلَ لَا يَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامَّ إِذَا
 اخْرَجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَقْتَضِي خَبْجَةٌ فِيمَا عَدَاهَا وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ أَوِ التَّنْدِبِ وَالْفُورِ
 أَوِ التَّرَاجِيِّ وَالنَّفْيِ يَقْتَضِي النَّسَادَ أَوِ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يَحْمِلُ عَلَى الْمُقِيدِ وَالنَّصِّ
 عَلَى الْعِلْمِ كَافٍ فِي الْتَّعْدِيْدِ أَمْ لَا وَأَمْثَالُ هَذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ وَلَكُونُهَا
 مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ كَانَتْ لِغْوِيَّةٌ ثُمَّ إِنَّ الْنَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ
 فِيهِ تَعْقِيقُ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيُمَاثَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتَحُ الْوَصْفُ الَّذِي
 يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْأَحْكَامَ عَالِقَةٌ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْمُحَلِّ أَوْ وُجُودُ
 ذَلِكَ الْوَصْفِ وَالْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْوَصْفِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلِ أُخْرَى
 مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ كُلُّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (وَاعْلَمُ) أَنَّ هَذَا الْفَنُّ مِنَ الْفَنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ
 فِي الْمُلْكَةِ وَكَانَ السَّلْفُ فِي غَيْرِهِ عَنْهُ بِعْدَ أَنَّ أَسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنِ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ
 فِيهَا إِلَى أَزْيَادٍ مِمَّا عَنْهُمْ مِنِ الْمَلَكَةِ الْلِّسَانِيَّةِ وَأَمَّا الْقَوَافِينِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي
 أَسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخْدَمُ عَظَمَهُمْ وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ
 إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ النَّقلَةِ وَخُبُرِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا أَنْقَرَضَ السَّلْفُ وَذَهَبَ

الصدر الأول وانقلب المعلوم كلاماً صناعة كما فرزناه من قبل احتاج الفقهاء وانجذبهم إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوا فنا قائماً برأسه مموجة أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أمل في رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوصي والنوافل والبيان والخبر والنسخة وحكم العلة المتصوقة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأفسوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضاً كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمش بالفقه واليق بالأفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على التكثف الفقهية والمحنة كلهم يعودون صير تلك المسائل على الفقه وييمليون إلى الاستدلال العقلي ما يمكن لأنه غالب فنونهم ومقطفي طريقتهم فكان فقهاء الحنفية فيها أبد الطولى من الفوضى على التكثف الفقهية والتقطاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما يمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأفسع من جميعهم وتم الأنبات والشروط التي يحتاج إليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه يكمله وتهذب مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقه المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستضفي للغزالى وهما من الأشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وترحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزية وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأزكانه ثم تحقق هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الإمام قظر الدين بن الخطيب في كتاب المحصل وسيف الدين الأدمي في كتاب الأحكام وأختلفت طرقهما في الفن بين التحقيق والتجاج فابن الخطيب أميل إلى الاستثار من الأدلة والاحتجاج والأدمي مولع بتحقيق المذاهب وتفرع المسائل وأماماً كتاب المحصل فاختصره تلميذ الإمام سراج الدين الأزموي في كتاب التحصيل وتأرج الدين الأزموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منه مما مقدمات وقواعد في كتاب صغير ملأه التفصيحات وكذلك فعل البيضاوى في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذه الكتابتين وشرحهما كثيراً من الناس وأماماً كتاب الأحكام للأدمي وهو أكثر تفصيحاً في المسائل فلخصه أبو عمر بن الخطاب في كتابيه

المعروف بالمحترر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طابة العلم وعني أهل المشرق والغرب به وبمطاعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المحتررين في هذا الفن في هذه المحتررات . وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً وكان من أحسن كتابة فيها للمتفقد بين تأليف أبي زيد البزوي وأحسن كتابة المتأخرین فيها تأليف سيف الإسلام البزوي من أئمتهم وهو مسنون عجب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزوي في الطريقةين وسيكي كتابة بالبدائع فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتدلّلون في قراءة وبحثاً وأولع كثيرون من علماء العجم بشرحه وحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديل التاليف المشهور لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنتهى وكرمه إله على كل شيء قدير لهذا الفن بهم افتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليدهم سوادم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده ياتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سواده هذه المذاهب الاربعة فاقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجري أخلاق بين المتمسسين بها والآخرين بأحكامها عبرى أخلاق في النصوص الشرعية والأصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إماميه تجري على أصول صحيحة وطرائق قوية يتحقق بها كل على مذهب الذي قلدته وتمسك به وأجريت في مسائل الشرعية كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون أخلاق بين الشافعى ومالك وابوحنيفه يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفه والشافعى يوافق أحدهما وتارة بين الشافعى وأبي حنيفه ومالك يوافق أحدهما وكان في هذه المناظرات بيان ما خذ هو لأئمة ومشاركات أخلاقفهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها

الخلاف بين العجتدين ياخلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة أتسعاً عظيماً وكان للمقلدين أن يقادوا من شاهدوا منهم ثم لما أتى ذلك إلى أئمة الاربعة من علماء الأمصار كانوا ي مكان من حسن الفن بهم افتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليدهم سوادم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده ياتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سواده هذه المذاهب الاربعة فأقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجري أخلاق بين المتمسسين بها والآخرين بأحكامها عبرى أخلاق في النصوص الشرعية والأصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إماميه تجري على أصول صحيحة وطرائق قوية يتحقق بها كل على مذهب الذي قلدته وتمسك به وأجريت في مسائل الشرعية كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون أخلاق بين الشافعى ومالك وابوحنيفه يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفه والشافعى يوافق أحدهما وتارة بين الشافعى وأبي حنيفه ومالك يوافق أحدهما وكان في هذه المناظرات بيان ما خذ هو لأئمة ومشاركات أخلاقفهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها

إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد إلا أن المجتمعـد يحتاج إليها لاستنباط وصاحب الأخلاقيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدى منها الخالـف بأدلةـه وهو لعمـري علمـ جـليلـ الفـائدةـ في مـعرفـةـ ماـخذـ الـائـمةـ وأـدـلـتهمـ وـمـراتـ الـمـطـالـعـينـ لهـ علىـ الـاستـدـلـالـ عـلـيـهـ وـتـأـكـيفـ الـخـنـفـيـةـ وـالـشـافـعـيـةـ فـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ تـأـكـيفـ الـمـالـكـيـةـ لـأـنـ الـقـيـاسـ عـنـدـ الـخـنـفـيـةـ أـصـلـ لـكـثـيرـ مـنـ فـرـوعـ مـذـهـبـهـ كـمـاـعـرـفـ فـهـمـ لـذـلـكـ أـهـلـ الـنـظـرـ وـالـبـحـثـ . وـأـمـاـ الـمـالـكـيـةـ فـالـأـثـرـ أـكـثـرـ مـعـتمـدـهـ وـلـيـسـواـ يـأـهـلـ نـظـرـ وـأـيـضـاـ فـأـكـثـرـهـمـ أـهـلـ الـقـرـبـ وـهـمـ بـادـيـةـ غـلـلـ مـنـ الصـنـائـعـ إـلـيـهـ الـأـلـفـ الـأـلـفـ وـالـغـزـ الـيـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـيـ فـيـهـ كـتـابـ الـمـاـخـذـ وـلـاـبـيـ زـيـدـ الـدـبـوـيـ كـتـابـ الـتـهـلـيـةـ وـلـاـبـنـ الـقـصـارـ مـنـ شـيوـخـ الـمـالـكـيـةـ عـيـونـ الـأـدـلـةـ وـقـدـ جـمـعـ أـبـنـ الـسـاعـاتـيـ فـيـ مـختـصـرـهـ فـيـ أـصـولـ الـفـقـهـ جـمـيعـ مـاـ يـبـنـيـ عـلـيـهـ مـنـ الـفـقـهـ أـخـلـاـقـيـ مـدـرـجـاـ فـيـ كـلـ مـسـالـةـ مـاـ يـبـنـيـ عـلـيـهـ مـنـ الـخـلـاـقـيـاتـ (ـوـاـمـاـ الـجـدـالـ)ـ وـهـوـ مـعـرـفـةـ آـدـابـ الـمـنـاظـرـ الـيـ تـبـرـيـ بـيـنـ أـهـلـ الـمـذاـهـبـ الـفـقـهـيـةـ وـغـيـرـهـ فـإـنـهـ لـمـ كـانـ بـاـبـ الـمـنـاظـرـ فـيـ الـرـدـ وـالـقـبـولـ مـذـهـبـاـ وـكـلـ وـاحـيدـ مـنـ الـمـنـاظـرـيـنـ فـيـ الـأـسـتـدـلـالـ وـالـجـوـابـ يـرـسـلـ عـنـانـهـ فـيـ الـأـسـتـدـلـاجـ وـمـنـهـ مـاـ يـكـوـنـ صـوـابـاـ وـمـنـهـ مـاـ يـكـوـنـ خـطاـ فـأـخـتـاجـ الـلـائـمـ إـلـيـهـ أـنـ يـضـعـواـ آـدـابـاـ وـأـحـكـامـاـ يـقـيـفـ الـمـنـاظـرـ إـنـ حـدـودـهـاـ فـيـ الـرـدـ وـالـقـبـولـ وـكـيـفـ يـكـوـنـ حـالـ الـمـسـتـدـلـ وـالـجـيـبـ وـجـيـثـ يـسـوـعـ لـهـ أـنـ يـكـوـنـ مـسـتـدـلاـ وـكـيـفـ يـكـوـنـ مـخـصـوسـاـ مـنـقـطـيـاـ وـخـلـ أـعـرـاضـهـ أـوـ مـعـارـضـهـ وـأـيـنـ يـجـبـ عـلـيـهـ الـشـكـوتـ وـلـخـصـمـهـ الـكـلـامـ وـالـأـسـتـدـلـالـ وـلـذـلـكـ قـيلـ فـيـ إـنـهـ مـعـرـفـةـ بـالـقـوـاعـدـ مـنـ الـحـدـودـ وـالـآـدـابـ فـيـ الـأـسـتـدـلـالـ الـيـ تـوـصـلـ بـهـاـ إـلـيـ حـفـظـ رـأـيـ وـهـدـمـهـ سـوـاـهـ كـانـ ذـلـكـ الرـأـيـ مـنـ الـفـقـهـ أـوـ غـيـرـهـ وـهـيـ طـرـيـقـةـ الـبـزـدـوـيـ وـهـيـ خـاصـةـ بـالـأـدـلـةـ الشـرـعـيـةـ مـنـ النـصـ وـالـإـجـمـاعـ وـالـأـسـتـدـلـالـ وـطـرـيـقـةـ الـعـمـيـدـيـ وـهـيـ عـامـةـ فـيـ كـلـ دـلـيـلـ يـسـتـدـلـ بـهـ مـنـ آـيـةـ عـلـمـ كـانـ وـأـكـثـرـهـ أـسـتـدـلـالـ وـهـوـ مـنـ الـمـنـاحـ الـمـسـنـةـ وـالـمـغـالـطـاتـ فـيـهـ فـيـ تـقـسـ الـأـمـرـ كـثـيرـ وـإـذـاـ أـعـتـبـرـنـاـ الـنـظـرـ الـمـنـطـقـيـ كـانـ فـيـ الـفـالـبـ أـشـبـهـ بـالـقـيـاسـ الـمـغـالـطـيـ وـالـسـوـفـسـطـائـيـ إـلـاـ أـنـ صـورـ الـأـدـلـةـ وـالـأـفـسـةـ فـيـهـ مـخـفـوظـةـ مـرـاعـاءـ تـتـعـرـىـ فـيـهـ طـرـقـ الـأـسـتـدـلـالـ كـماـ يـبـنـيـ وـهـذـاـ الـعـمـيـدـيـ هـوـ أـوـلـ مـنـ كـتبـ فـيـهـ وـنـسـيـتـ الـطـرـيـقـةـ إـلـيـهـ وـضـعـ الـكـتـابـ الـمـسـمـيـ بـالـإـرـشـادـ مـخـتـصـراـ وـتـبـعـهـ مـنـ بـعـدهـ

منَ الْمُتَّخِرِينَ كَالنَّسَقِ وَغَيْرِهِ حَادُوا عَلَى أَثْرِهِ وَسَلَكُوا مَسَّاً كَهُوَ كَثُرَتْ فِي
الْطَّرِيقَةِ الْأَنَاكِيفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةُ لِنَفْعِ الْعِلْمِ وَالْتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ فَسْرُورِيَّةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحِجَاجَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدَلَّةِ الْعُقْلِيَّةِ وَأَرَدَ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ
الْمُتُّخِرِ فِي الْأَعْقَادِاتِ عَنِ مَذَاهِبِ الْسَّلَفِ وَأَهْلِ الْسَّنَّةِ وَمِنْهُ هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ
هُوَ التَّوْحِيدُ فَلَنْقُدِّمُ هُنَّا لَطِينَةً فِي بُزْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ
الْطَّرِيقِ وَالْمَاخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يُنْظَرُ وَيُشَيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي الْمُلْقَةِ
وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ الْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سُوَّاهُ كَانَتْ مِنَ الْذَّوَاتِ
أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوِ الْحَيْوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُّنْقَدِّمةٍ عَلَيْهَا يَهْبَأُ لِقَاءُ فِي
مُسْتَقْرَرٍ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتَمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَادَثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ
مِنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى وَلَا تَرَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْأَقِيَّةً حَتَّى تَتَهَيَّأَ إِلَى مُسْتَبِ الْأَسْبَابِ
وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي أَرْيَاقِهَا تَفَسَّحُ وَتَضَاعَفُ
طُولًا وَعَرَضًا وَيَحْمَلُ الْعَقْلُ فِي إِذْرَاكِهَا وَتَعْدِيدهَا فَإِذَا لَا يَعْصِرُهَا إِلَّا عِلْمُ الْحُبُطِ سِيمَا
الْأَفْعَالُ الْبَشَرِيَّةُ وَالْحَيْوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ
إِذْ لَا يَتَمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقُصُودِ إِلَيْهِ وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ
نَاسِيَّةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتِ سَابِقَةٍ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ
قَصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقْعُ في النَّفْسِ
مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مُجَهُولٌ سَبَبٌ إِذْ لَا يَطْلَعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِئِ الْأُمُورِ الْنَفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى
تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْبَابٌ يُلْقِيَهَا اللَّهُ فِي الْفَكَرِ يَتَبعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ
مَعْرِفَةِ مَبَادِئِهَا وَغَيْرِهَا وَإِنَّمَا يُحْبِطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ
وَبَقِيعٌ فِي مَدَارِكَهَا عَلَى نِظامٍ وَتَرْتِيبٍ لَاَنَّ الْطَبِيعَةَ خَصْوَرَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا
الْتَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاطُهَا أَوْسَعٌ مِنَ النَّفْسِ لَاَنَّهَا الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ قُوَّةُ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ
الْكَثِيرُ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ الْإِحْاطَةِ وَنَأْمَلُ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةُ الْشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظرِ

إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادِيَّهُمْ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحْلُو مِنْهُ بِطَائِلٍ وَلَا يَظْفَرُ
 بِحَقِيقَةِ قَالَ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا أَنْقَطَعَ فِي وَقْفِهِ عَنِ الْأَرْتِقَاءِ إِلَى
 مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدْمَهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الْخَالِدِينَ الْهَاكِينَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْجِرْمَانِ وَالْخُسْرَانِ
 الْمَبِينِ وَلَا تَحْسِنَ أَنْ هَذَا الْوَقْفُ أَوَ الرُّجُوعُ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَآخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنَ
 يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِيقَةٌ تَسْتَحِكِمُ مِنَ الْخُوضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ
 عَلِمْنَاهَا لَتَحْرَكَنَا مِنْهَا فَلَنْتَحْرَرَنَا مِنْ ذَلِكَ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضًا تَوْجِهُ تَأْثِيرِ
 هُنْوَ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا عَجَولٌ لَا نَهَا إِنْمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْمَادَةِ لَا قِرَانِ
 الشَّاهِدِ بِالْأَسْنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ وَحَقِيقَةِ التَّأْثِيرِ وَكِيفِيَّةِ مَجْهُولَةِ وَمَا أُوتِيَّ مِنَ الْعِلْمِ
 إِلَّا قَلِيلًا فَلَذِكَ أَمْرَنَا يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْهَا وَلِغَائِبَاتِهَا جُمْلَةً وَالتَّوْجِهُ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
 كُلِّهَا وَفَاعِلَهَا وَمُوجِدَهَا لَتَرْسَخَ صِفَةُ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلِمْنَا الشَّارِعُ الَّذِي هُوَ
 أَعْرَفُ بِعِصَامِيَّهُ دِيَنَنَا وَطَرُقِ سَعَادَتِنَا لِأَطْلَاهِهِ بِلِمَا وَرَأَهُ الْمُحْسِنُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشَهِّدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَتَ عِنْدَ ثَلَاثِ الْأَسْبَابِ
 فَقَدِ انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كُلِّمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَبَعَ فِي بَعْرِ النَّظَرِ وَأَبْعَثَ عَنْهَا وَعَنِ
 أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَإِنَّا الضَّامِنُ لَهُ أَنَّ لَا يَعُودَ إِلَيْا بِلَحْيَةِ فَلَذِكَ
 نَهَانَا الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمْرَنَا بِالْتَّوْحِيدِ الْمُطْلُقِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ
 الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفَّاً أَحَدٌ وَلَا تَشْقَنَ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ
 أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْأَوْحَادِيَّةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَفَهِ
 رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِيَ رَأْيِهِ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِ كُلِّهِ
 لَا يَعْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي تَقْسِيمِ مُخْلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلَا تَرَى الْأَصْمَ كَيْفَ
 يَنْحَصِرُ الْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ
 صِنْفُ الْمَسْمُوَاتِ وَكَذِلِكَ الْأَغْمَى أَيْضًا يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْءَيَاتِ وَلَوْلَا مَا يَرَدُمُ
 إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَالْكَافَةِ لَمَّا أَقْرَأُوا بِهِ لِكِنْهُمْ
 يَتَبَعُونَ الْكَافَةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْاِصْنَافِ لَا يَمْقُضُونَ فِي طَرْتِهِمْ وَطَبِيعَةِ اِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ
 سُئِلَ الْحَيَوانُ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوْجَدَنَاهُ مُنْكِرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقَةً لِدِينِ الْكُلُّيَّةِ
 فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَمَّا هُنْكَكَ ضَرِبَ مِنَ الْأَدْرَاكِ غَيْرَ مُدْرَكٍ كَانَنَا لَانَّ إِدْرَاكَانَا مُخْلُوقةً

مُحَمَّدَةٌ وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَالْحَصْرُ بِمَجْهُولٍ وَالْوُجُودُ أَفْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَأَتَاهُمْ إِذْرَاكَ وَمُدْرَكَاتَكَ فِي الْحَصْرِ وَأَتَى مَا أَمْرَكَ الشَّارِعُ بِهِ مِنْ أَعْنَاقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَخْرَصٌ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِإِنَّهُ مِنْ طَوْرِ فَوْقِ إِذْرَاكَ وَمِنْ نِطَاقِ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدَحُ فِي الْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ بَلْ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَخْسَكَاهُ بِقِينِيَّةٍ لَا كَذِيبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعَ أَنْ تَزَنَ بِهِ أَمْرَهُ الْتَّوْحِيدُ وَالْآخِرَةُ وَحَقِيقَةُ النَّبُوَّةِ وَحَقَائِقُ الصَّفَاتِ الْإِلهِيَّةِ وَكُلُّ مَا وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنْ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مَحَالٍ قَمَالُ ذَلِكَ مَثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الْأَذْهَبُ فَطَمَعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجَيَالَ وَهَذَا لَا يُدْرِكُ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَخْسَكَاهُ غَيْرُ مَادِقٍ لِكُنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقْفَعُ عَنْهُ وَلَا يَتَعَدَّ طَوْرَهُ سَعْيٌ بِكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَّاتِ الْوُجُودِ الْحَاصلِ مِنْهُ وَنَفَطَنَ فِي هَذَا الْغَلْطِ وَمَنْ يُقْتَدِمُ عَلَى السُّنْنِ فِي أَمْثَالٍ هَذِهِ الْقَضَايَا وَقُصُورُ فَهْمِهِ وَاضْمِحَالُ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْبَيَّنَ ذَلِكَ فَلَعْلَ الْأَسْبَابُ إِذَا تَجَاوَزَتِ فِي الْأَرْتِقَاءِ نِطَاقَ إِذْرَاكَ وَوُبُودُنَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرَكَةً فَيَضِلُ الْعَقْلُ فِي يَدِهِ الْأَذْهَامُ وَيَحْمَارُ وَيَنْقَطِعُ فَإِذَا التَّوْحِيدُ أَوِ الْعَجْزُ عَنِ إِذْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَهْوِيَضُ ذَلِكَ إِلَى خَالِقِهَا الْمُحِيطُ بِهَا إِذْلًا فَاعْلَمَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعَلِمْنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الْصَّدِيقِينَ الْعَجْزُ عَنِ الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكُ ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَدَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقُ حُسْنِي فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْ تَسْكِيفِ بِهَا النَّفْسُ كَمَا أَنَّ الْمُطلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مُلْكَةِ الْطَّاعَةِ وَالْأَنْقِيَادِ وَتَفْرِيعُ الْقُلُوبِ عَنْ شَوَّاغِلِ مَا سَوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقُلَبَ الْمُرِيدُ السَّالِكُ رَبَّانِيَا وَالْفَرقُ بَيْنَ الْمُحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْإِتْصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتَمِ وَالْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا خَذَهُ مِنْ الشَّرْبَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَشِيمًا أَوْ مَسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَأَسْتَهِنُ كَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلًا عَنِ التَّمْسِحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْحُنُورِ وَالصَّدَقةِ فَهَذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

من رَحْمَةِ الْتَّشِيمِ مَقَامُ الْعِلْمِ وَلَمْ يَعْصُلْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِصَافِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْصُلْ لَهُ مَقَامُ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمُسْكِينِ قُبْرَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَقَامٌ أَخْرَى أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحْدَهُولُ مَسْكَنًا فَمَنْ رَأَى بِتَيْمَأْ أوْ مِسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالْتَّسَّوَابَ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ يَصِيرُ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عِلْمُكَ بِالْتَّوْحِيدِ مَعَ اِتِصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصلٌ عَنِ الْإِتِصَافِ خَرُورَةٌ وَهُوَ أَوْثَقُ مِنِ الْعِلْمِ الْحَاصلِ قَبْلَ الْإِتِصَافِ وَلَيْسَ الْإِتِصَافُ بِمَحَاصلِ عَنْ بُعدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقْعُمُ الْعَمَلُ وَيَكُرَّرُ مِرَارًا غَيْرَ مُنْخَصِّرٍ فَتَزْسُغُ الْمَلَكَةُ وَيَعْصُلُ الْإِتِصَافُ وَالْتَّحْقِيقُ وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الْثَّانِي النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ أَنْجَرَدَ عَنِ الْإِتِصَافِ قَلِيلٌ أَجْدُودِيَّ وَالنَّفْعُ وَهُدًى عِلْمُ الْأَكْثَرِ النَّظَارَ وَالْمَطَلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِيُّ الْنَّائِيُّ عَنِ الْعَادَةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلَبَ أَعْتِقَادُهُ فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الْثَّانِي الْحَاصلِ عَنِ الْإِتِصَافِ وَمَا طَلَبَ عَمَلُهُ مِنِ الْعِبَادَاتِ فَالْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِصَافِ وَالْتَّحْقِيقِ إِنَّمَا هُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهَا هُوَ الْمُحَصِّلُ لِهَذِهِ الشَّرِيفَةِ شَرِيفَةٌ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأْسِ الْعِبَادَاتِ جَعَلْتُ قُرْةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَعِدُ فِيهَا مُنْتَهَى لَذَانِهِ وَقُرْةً عَيْنِهِ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهُمْ بِهَا فُؤْلِلُ لِلْمُعَصَيْنِ الَّذِينَ هُمْ عَنِ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أَلَّا هُمْ وَقِنَا وَأَهْدَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفَضَالِيْنَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ تَجْمِيعِ مَا قَرَرْنَاهُ أَنَّ الْمَطَلُوبَ فِي الْكَالِيفِ كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَةِ رَاسِخَةٍ فِي النَّفْسِ يَعْصُلُ عَنْهَا عِلْمُ أَضْطَرَارِيَّ لِلنَّفْسِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَهُوَ الْعِقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي تَعْصُلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَادُ فِي الْكَالِيفِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدْنِيَّةِ وَيَتَفَهَّمُ مِنْهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْكَالِيفِ وَيَنْبُوعُهُ مُهُدِّدٌ الْمَثَابَةُ ذُو مَرَاتِبِ أَوْلَاهَا التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الْمُوْافِقُ لِلْيَسَانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الْأَعْتِقادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا يَتَبَعُهُ مِنْ الْعَمَلِ مُسْتَوْلِيَّةٌ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَقِعُ الْجُوَارِحُ وَتَنَدَّرُجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ النَّصَرَافَاتِ حَتَّى تَنْغُرِ طَالَافِ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصْدِيقِ الْإِيمَانِيِّ وَمَذَا أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَذُو الْإِيمَانِ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يُقَارِفُ الْسُّؤْلِينَ

مَعَهُ صَفِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِذْ حُصُولُ الْمَلَكَةِ وَرُسُوخُهَا مَانِعٌ مِنَ الْأَنْجِرافِ عَنْ مَا هِيَ
 طَرْفَةٌ عَيْنٍ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَنِي أَلَزَانِي حِينَ يَرَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَفِي حَدِيثٍ
 هَرَقْلَ لَمَّا سَأَلَ أَبَا سَفِيَّانَ بْنَ حَرْبٍ عَنِ الدَّيْنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْوَاهُ فَقَالَ فِي
 أَحْجَابِهِ هَلْ يَرَنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُخْطَلَةً لِدِينِهِ قَالَ لَا فَالَّذِي أَنْتَ تَعْرِفُ أَلَيْمَانُ حِينَ تَخَالِطُ
 بَشَاشَتَهُ الْقُلُوبَ وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَةَ الْإِيمَانِ إِذَا أَسْتَقَرَتْ عَسْرَ عَلَى النَّفْسِ مُخَالَفَتُهَا شَانَ
 الْمَلَكَاتِ إِذَا أَسْتَقَرَتْ فَإِنَّهَا تَعْصِلُ بِمُشَابَهَةِ الْجِبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَبَّةُ الْعَالِيَّةُ
 مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرَبَّةِ الثَّانِيَّةِ مِنَ الْعِصْمَةِ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْسَاءِ وُجُوبُهَا
 مَاسِيقًا وَهَذِهِ حَاسِلَةُ الْمُؤْمِنَيْنَ حُصُولًا تَابِعًا لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ
 وَرُسُوخُهَا يَقْعُدُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ كَالَّذِي يُتَلَى عَلَيْكَ مِنْ أَقْوَابِ الْسَّلْفِ وَفِي تَرَاجِمِ
 الْبُخَارِيِّ رَوَى اللَّهُ عَنْهُ فِي بَابِ الْإِيمَانِ كَثِيرًا مِنْهُ مِثْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ
 وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِبَلَةَ مِنَ
 الْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ بِهَذَا كُلُّهُ الْإِيمَانُ الْكَاملُ الَّذِي أَشَرَّنَا إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَكَتِهِ وَهُوَ
 فِعْلٌ وَأَمَّا التَّصْدِيقُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِيهِ فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ فَمَنْ أَعْتَدَ أَوَّلَ الْأَمْهَارَ
 وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ مُشَعَّ مِنَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ أَئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ أَعْتَدَ أَوَّلَ
 الْأَسْنَاءَ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَاملُ ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ وَلَيْسَ
 ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي اِتِّحَادِ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصْدِيقُ إِذْ التَّصْدِيقُ مُوْجُودٌ فِي جَمِيعِ
 دُنْيَهُ لَا نَهُ أَقْلَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَسْمُ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْمُخَلِّصُ مِنْ عِهْدَةِ الْكُفَرِ وَالْفِيصلُ
 بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ فَلَا يَعْزِزِي أَقْلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاوُتُ وَإِنَّمَا
 التَّفَاوُتُ فِي الْخَالِ الْمَحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ كَمَا قُلْنَا فَأَفْهَمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ
 لَنَا هَذَا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْمَرَبَّةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وَعِيتٌ أَمْوَالًا مُخْصُوصَةً
 كَلَفَنَا الْتَّصْدِيقَ بِهَا بِقُلُوبِنَا وَأَعْتِقَادَهَا فِي أَنْفُسِنَا مَعَ الْإِقْرَارِ بِالسِّنَنِ وَهِيَ الْعَقَائِدُ الَّتِي
 تَقَرَّرَتْ فِي الْأَذْرِينِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ
 وَمَا لَائِكَتِهِ وَكَتَبَهُ وَرَسَلَهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ
 الْإِيمَانِيَّةُ الْمُقْرَرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَلِنُشَرِّرُ إِلَيْهَا بِحُمْلَةِ اِتْبَاعِنَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ
 وَكَيْفِيَّةُ حُدُوثِهِ فَنَقُولُ . إِعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمْرَنَا بِالْإِيمَانِ بِهَذَا الْخَالِقِ الَّذِي رَدَ

الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا إلا إيمان بمحاجتنا عند الموت
 إذا حضرنا لم يُعرِفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود وهو إذ ذاك متعدِّر على إدراكها
 ومن فوق طورنا فـكَلَّفَنَا أولاً اعتقاد تزويه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا
 لما صَحَّ أنه خالق لهم لعدم التفارق على هذا التقدير ثم تزويه عن صفات النقص
 وإلا لشابة المخلوقين ثم توحيده بالاتحاد وإن لم يتم الخلق للسمانع ثم اعتقاد أنه
 عالم قادر في ذلك ثم الأفعال شاهد قضيته لكمال الاتحاد والخلق ومرشد وإن لم
 يخصُّ شيئاً من المخلوقات ومقدِّر لكل كائن وإن لا إرادة حادثة وأنه يعيدها
 بعد الموت تكونية إلا لعنته بالابياد ولو كان لا مرفأ في كل عيشاً فهو لبقاء السرمدي
 بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسول للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله
 بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإيمان بذلك وبيان
 الطريقين وأن الجنة للنعم وحيث العذاب هذه أمثلات العقائد الإيمانية معللة بأدلة
 العقلية وأدلةها من الكتاب والسنة كثير وعنه تلك الأدلة أخذها السلف وأزدهر
 إليها العلماء وحققها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد
 أكثر مشارها من الآيات المشابهة فدعوا بذلك إلى الخصم وإنما ناظر وألمد لآل
 بالعقل وزيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولتبين لك تفصيل هذا المجمل
 وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتزويه المطلق الظاهر الدلالة من غير
 تأويل في أيٍ كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجَّب الإيمان بها ووقع في
 كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتبعين تفسيرها على ظاهرها ثم
 وردت في القرآن آيات أخرى قليلة تُوهم التشبيه وقضوا بـأن الآيات من كلام الله
 فـآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكتاب كثير منهم إفرادها
 كما جاءت آيات آمنوا بـأنها من عند الله ولا تتعرضوا لـتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن
 تكون أبتلاء فيجب الوفت والإذعان له وشد لعصرهم مبتدعة أتبعوا ما تشابه من
 الآيات وتغلو في التشبيه فـغيريق أشبها في الذات باعتقاد اليق والقدم والتوجه عملاً
 بظواهر وردت بذلك فـوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفته آيات التزويه المطلق التي
 هي أكثر موادر وأوضاع دلالة لأن مقولية الجسم تقضي النقص والأفتقار وتقلب

آيات السُّلُوبِ في النَّزَيْرِيَّةِ الْمُطْلَقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَعُ دَلَالَةَ اُولَئِكَ مِنَ
 التَّعْلِيقِ يَطْوَاهُرُ عَذْرُ الَّتِي لَمْ يَعْنِهَا غُنْيَةً وَجَمِيعُ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ يَفْرُشُونَ مِنْ شَنَاعَةِ
 ذَلِكَ بِقُولِهِمْ جَسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمِيع
 بَيْنَ تَقْيَى وَإِثْبَاتٍ إِنْ كَانَ بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ الْجِسْمِ وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَتَقْوِيَا
 الْمَعْقُولِيَّةَ الْمُتَعَارِفَةَ فَقَدْ وَافَقُونَا فِي النَّزَيْرِيَّةِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعَلُوهُمْ لَنَظَرَ الْجِسْمِ أَسْهَمَا مِنْ
 أَسْهَمَيْهِ وَيَتَوَقَّفُ مُثْلُهُ عَلَى الْأَذْنِ وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى التَّشْيِيَّهِ فِي الصِّنَاتِ كَإِثْبَاتٍ
 الْجِهَةِ وَالْأَسْتِواءِ وَالنَّزُولِ وَالصَّوْتِ وَالْحَرْفِ وَأَشَالِ ذَلِكَ وَآلَ قُولِهِمْ إِلَى الْتَّعْسِيمِ
 فَنَزَعُوا مِثْلَ الْأَوْلَيْنَ إِلَى قُولِهِمْ صَوْنٌ لَا كَالْأَصْوَاتِ جَهَةٌ لَا كَالْجِهَاتِ نُزُولٌ لَا
 كَالنَّزُولِ يَعْنُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَأَنْدَعَ ذَلِكَ بِمَا أَنْدَعَ يَهُ الْأَدَلُ وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الظَّوَاهِرِ
 إِلَّا آعْتَقَادَاتُ الْسَّلَفِ وَمَدَاهِيهِمْ وَإِلَيْهَا كَمَا هِيَ لِثَلَاثَ يَكْرَهُ الْنَّفِيُّ عَلَى مَعَانِيهَا يَنْفِيُهَا
 مَعَ أَنَّهَا مَحْبِيَّةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِلَهَدًا تَنْظَرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ الْزِسَالَةِ لِابْنِ أَبِي زَيْدٍ
 وَكِتَابِ الْمُخْتَصِّرِ لَهُ وَفِي كِتَابِ الْحَافِظِ أَبْنِ عَبْدِهِ الْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَعْوَمُونَ عَلَى هَذَا
 الْمَعْنَى وَلَا تَنْهُضُنَّ عَيْنُكُمْ عَنِ الْقَرَائِينِ الْدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ فِي غُصُونِ كَلَامِهِمْ ثُمَّ لَمَّا
 كَثُرَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِالْمَدْوِينِ وَأَبْغَثَ فِي سَائِرِ الْأَمْهَاجِ وَأَلْفَتِ
 الْمُتَكَلِّمُونَ فِي النَّزَيْرِيَّةِ حَدَّثَتِ بِدَعَةُ الْمُعْتَرِلَةِ فِي تَعْقِيمِ هَذَا النَّزَيْرِيَّةِ فِي آيِ السُّلُوبِ
 فَقَضَوْا يَنْفِي صِفَاتِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ زَانِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا
 لِمَا بَلَّمُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ الْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ وَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الصِّنَاتِ لَمْ يَسْتَعِنْ عَيْنَ الْذَّاتِ
 وَلَا غَيْرُهَا وَقَضَوْا يَنْفِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِكَوْنِهِمْ مِنْ عَوْارِضِ الْأَجْسَامِ وَهُوَ مَرْدُودٌ
 لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبَنِيَّةِ فِي مَذْلُولِ هَذَا الْلَّفْظِ وَإِنَّمَا دُوَّا إِدْرَاكُ الْمَسْتَمُوعِ أَوِ الْبَصَرِ
 وَقَضَوْا يَنْفِي الْكَلَامِ لِشَبَهِ مَا فِي أَسْمَاعِ وَالْبَصَرِ وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ
 بِالْأَنْفُسِ فَقَضَوْا بِأَنَّ الْقُرْآنَ تَخْلُوقُ بِدَعَةِ صَرَحِ الْسَّلَفِ بِخَلَافِهَا وَعَظُمَ فَرَرُ هَذِهِ الْبَدَعَةُ
 وَلَقِنَهَا بَعْضُ الْخَلْفَاءِ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ فَعَمَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَخَالَفُوهُمْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ فَأَسْتَحْلَلُ
 بِخَلَافِهِمْ إِيْسَارُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ سَبِيلًا لِأَتِتِهِمْ أَهْلُ الْسُّنَّةِ بِالْأَدَلَّةِ
 الْمُعْتَلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبَدَعِ وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسِنِ
 الْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الْطُّرُقِ وَتَقَى التَّشْيِيَّهَ وَأَثَبَ الصِّنَاتِ

المعنىَةُ وَقَصْرُ الْتَّنْزِيَةِ عَلَى مَا فَصَرَّهُ عَلَيْهِ السَّلْفُ وَشَهَدَتْ لَهُ الْأَدَلةُ الْمُخْصِصَةُ لِعُوْمِهِ فَأَثْبَتَ الصَّفَاتُ الْأَرْبَعَ الْمُعْنَوِيَّةَ وَالْسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ النَّقْلِ وَالْعُقْلِ وَرَدَ عَلَى الْمُبْتَدَعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمُ مَعْهُمْ فِيهَا مَهْدُوهُ لِهُدِّهِ الْبَدَعِ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ وَالْأَصْحَاحِ وَالْتَّحْسِينِ وَالتَّقْيِحِ وَكَمْلَ الْعَقَائِدِ فِي الْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحَقِّ بِذَلِكَ الْكَلَامِ فِي الْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ يَدِعَةِ الْإِمَامَيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَأَخْرُوجُ عَنِ الْعِهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَلِكَ عَلَى الْأَمَةِ وَقَصَارَى أَمْرِ الْإِمَامَةِ إِنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْحِحَّةٌ إِيجَمَاعِيَّةٌ وَلَا تَتَعَقَّبُ بِالْعَقَائِدِ فَلِذَلِكَ الْحَقُّوْهَا يَسْأَلُونَ هَذَا الْفَنِ وَسَمُوا بِنَجْمُوْنَهُ عِلْمَ الْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاظَرَةِ عَلَى الْبَدَعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَ بِرِاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَأَخْلُوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ وَكَثُرَ اتِّبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَاقْتَفَ طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلَمِيْدُهُ كَابِنُ مجاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخْدَعْتَهُمُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِ وَهَذِهِهَا وَوَضَعَ الْمُقْدَمَاتِ الْعَقَلِيَّةَ الَّتِي تَنَوَّفَتْ عَلَيْهَا الْأَدَلةُ وَالْأَنْظَارُ وَذَلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ الْجُنُوْنِ الْفَرَدِ وَالْخَلَاءِ وَأَنَّ الْعَرْضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرْضِ وَإِنَّهُ لَا يَقْنَى زَمَانِينِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا تَنَوَّفَ عَلَيْهِ أَدَلَّهُمْ وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي دُجُوبِ أَعْتِقَادِهَا لِتَنَوَّفَ تِلْكَ الْأَدَلَةِ عَلَيْهَا وَأَنْ بُطْلَانَ الدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ الْمَدْلُولِ وَجُعِلَتْ هَذِهِ الْطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفَنَّوْنِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعِلُومِ الْدِينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدَلَةِ تُعْتَبَرُ بِهَا الْأَقْدَسَةُ وَمَمْ تَكُونُ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ الْمُتَكَبِّرُونَ لِمُلَابِسَتِهَا الْعِلُومِ الْفَلْسُفِيَّةِ الْمُبَكِّرَةِ لِلْعَقَائِدِ الْشَّرْعِيَّةِ بِالْجَمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْهُمْ لِذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الْبَاقِلَانِيِّ إِمامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِيِّ فَأَمْلَى فِي الْطَّرِيقَةِ كِتَابَ الْشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ فِيهِ ثُمَّ لَخَصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَأَتَخْذَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِ ثُمَّ اتَّسَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عُلُومُ الْمَنْطَقِ فِي الْعِلْمِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِلُومِ الْفَلْسُفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمِيَّازُ الْأَدَلَةِ فَقَطْ يُسْبِرُ بِهِ الْأَدَلَةُ مِنْهَا كَمَا يُسْبِرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ الْمُقْدَمَاتِ فِي فَنِ الْكَلَامِ الْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي

أدلَتْ إِلَى ذَلِكَ وَرَبَّمَا أَنْ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْبِسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ فِي الْطَبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ الْمَنْطَقِ رَدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَدُوا بُطْلَانَ الْمَدْلُولِ مِنْ بُطْلَانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الْطَرِيقَةُ مِنْ مُصْطَلَحِهِمْ مُبَايِنَةً لِلْطَرِيقَةِ الْأُولَى وَتُسَعِ طَرِيقَةَ الْمَتَّخِرِينَ وَرَبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا الْرَدَ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنْ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ اِنْتَاصِبُ الْكَثِيرِ مِنْ مَذاهِبِ الْمُبَتَدِعِيَّةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَوْلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْغَزَالِيُّ رَحْمَةُ اللهُ وَتَعْدِيَةُ الْإِمامِ أَبْنِ الْمُطَهِّبِ وَجَمَاعَةُ قَفْوَا أَشْرَهُمْ وَأَعْتَدُوا تَقْليِدَهُمْ ثُمَّ تَوَغَّلَ الْمَتَّخِرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي خَالَطَةِ كُتُبِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْعُبَسَ عَلَيْهِمْ شَانُ الْمَوْضُوعِ فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحْدَاهُمْ مِنْ آشْبَابِ الْمَسَائلِ فِيهِمَا . وَاعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ أَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْتَارِيُّ وَصَنَاعَتِهِ وَهُوَ نَوْعٌ أَسْتِدْلَالَهُمْ غَالِبًا وَالْجَسْمُ الْطَبِيعِيُّ يَنْظُرُ فِيهِ الْفِيَلَسُوفُ فِي الْطَبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضُ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ إِلَّا أَنْ نَظَرَ فِيهَا مُخَالِفٌ لِنَظَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي الْجَسْمِ مِنْ جِبَّثٍ يَتَعَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حِيثُ يَدْلُلُ عَلَى الْفَاعِلِ وَكَذَا نَظَرَ الْفِيَلَسُوفُ فِي الْإِلَهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ وَمَا يَقْضِيهِ لِذَاتِهِ وَنَظَرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ حِيثُ إِنَّهُ يَدْلُلُ عَلَى الْمُوْجِدِ وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ عِنْدِ أَهْلِهِ أَنَّهُ هُوَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرْضِهَا صَحِيحَةٌ مِنَ الْشَرْعِ مِنْ حِيثُ يُسْكُنُ أَنَّ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِالْأَدَلةِ الْعُقْلَيَّةِ فَتُرْفَعُ الْبَدَعُ وَتَزُولُ الشُكُوكُ وَلَشَيْءٌ عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأْمَلَتْ حَالُ الْفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدَرَّجُ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ صَدَرَ أَبَعْدَ صَدَرِ وَكُلُّهُمْ يَفْرِضُ الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَهِضُ الْعَجَجَ وَالْأَدَلةَ عَلِمَتْ حِينَئِذٍ مَا قَرَرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ الْفَنِّ وَإِنَّهُ لَا يَعْدُوهُ وَلَقَدْ أَخْتَلَطَتِ الْطَرِيقَاتُ عِنْدَ هُوَلَاهِ الْمَتَّخِرِينَ وَأَتَبَسَتْ مَسَائِلُ الْكَلَامِ بِسَائِلِ الْفَلَاسِفَةِ بِعِبْثٍ لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدٌ الْفَنِّيْنِ مِنَ الْآخَرِ وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبَيْضاوِيُّ فِي الْطَوَالِعِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعِجمِ فِي جَمِيعِ نَالِفِهِمْ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْطَرِيقَةَ قَدْ يُعْنِي بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ لِلأَطْلَاعِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحِجَاجِ لِوُفُورِ ذَلِكَ فِيهَا وَأَمَّا مُحَاذَةُ طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلْطَرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ

لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْنَلُهَا كِتَابٌ الْإِرْشَادُ وَمَا حَدَّا حَدَّهُ وَمَنْ أَرَادَ اِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى
الْفَلَاسِفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ يَكُتُبُ الْغَزَالِيُّ وَالْإِمَامُ أَبْنُ الْحَاطِبِ قَاتِلُهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا
مُخَالَفَةٌ لِلْإِصْلَاحِ الْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْأَخْتِلَاطِ فِي الْمَسَائلِ وَالْأَنْتَابِسِ فِي
الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هُولَاءِ الْمُتَأْخِرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ
هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذَا
أَمْلَحَهُ وَالْمُبَتَدِعَةُ قَدْ أَنْقَرَضُوا وَالْأَئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَثُرُونَا شَانُهُمْ فِيمَا كَتَبُوا
وَدَوَّنُوا وَالْأَدَلَّةُ الْمُقْلِيَّةُ إِنَّمَا أَخْتَاجُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا
إِلَّا كَلَامٌ تَنَزَّهَ الْبَارِيُّ عَنْ كَثِيرٍ إِيمَانَهُ وَإِطْلَاقَهُ وَلَقَدْ سُئِلَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ
قَوْمٍ مِّنْهُمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَفِي ضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هُولَاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يَنْزَهُونَ اللَّهَ
بِالْأَدَلَّةِ عَنْ صِفَاتِ الْحَدُودِ وَسِماتِ النَّفْسِ فَقَالَ نَفِيُّ الْعَيْبِ حِيثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ
لَكِنَّ فَانِدَتَهُ فِي آحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ فَانِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذَا لَا يَحْسُنُ بِمُحَامِلِ السُّنَّةِ الْجَهْلُ
بِالْتَّحْجِجِ الْنَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

الفصل الحادي عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرِيعَةِ الْمَحَادِثَةِ فِي الْمَلِلَةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هُولَاءِ الْقَوْمِ
لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأَمَّةِ وَكَبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدُهُمْ طَرِيقَةُ الْحَقِّ
وَالْهَدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْمُكْوُفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْأَنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْأُغْرَاضُ عَنْ
زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَرِيشَتِهَا وَالْأَزْهُدُ فِيمَا يَقْبِلُ عَلَيْهِ الْجَهْنَمُ وَمِنَ الذُّرُّ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْأَنْفَادُ
عَنِ الْخَلَقِ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ فَلَمَّا فَسَّا الْأَيْقَابُ
عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الْثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا أَخْتُصَّ الْمُقْبِلُونَ
عَلَى الْعِبَادَةِ بِأَسْمَ الصَّوْفِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَا يَشَهِدُ لِهَذَا الْأَسْمَ
أَشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمَنْ قَالَ أَشْتِقَاقُهُ مِنَ الْصَّفَّا
أَوْ مِنَ الْصِّفَّةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ الْلُّغَوِيِّ قَالَ وَكَذَلِكَ مِنَ الْصَّوْفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يُخْصُوا بِلَبْسِهِ قُلْتُ وَالظَّاهِرُ أَنَّ قِيلَ بِالْأَشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الْصَّوْفِ وَهُمْ فِي الْفَالِبِ
مُخْتَصُونَ بِلَبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لَبْسِهِ فَإِنَّمَا الْبَيْانُ أَنَّ لَبْسِ الْصَّوْفِ

فلماً أَخْتُصَّ هُوَ الْأَدَمُ بِنَحْبِ الرُّزْهَدِ وَالْأَنْفَرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْأَفْيَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ أَخْتُصَّ رِبَّا خَدَّ مُذَرَّكَةَ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَّانِ
 بِالْإِدْرَاكِ وَإِدْرَاكُهُ بِتَوْغَانِ إِدْرَاكِ الْعِلُومِ وَالْعَارِفُ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالْوَمَّ
 وَإِدْرَاكُهُ لِلَاخْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالرِّضَى وَالْغَضَبِ
 وَالصَّبَرِ وَالثَّسْرِ وَامْتَالِ ذَلِكَ فَالرُّوحُ الْعَاقِلُ وَالْمُتَعَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنْشَأُ مِنْ
 إِدْرَاكَكَتْ وَإِرَادَاتْ وَأَخْوَالَ وَهِيَ الَّتِي يُمِيزُ بِهَا الْإِنْسَانَ وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضِ
 كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْفَرَحِ وَالْحُزْنِ عَنْ إِدْرَاكِ الْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُتَلَدِّذِ بِهِ
 وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسْلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي بُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا
 بُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ بُجَاهَدَةِ حَالٍ نَتْبِعَةَ تِلْكَ الْمُجَاهِدَةِ وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ
 تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ قَرَمِنْجُ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا
 تَكُونُ صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ كَلَّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
 الْمَقَامَاتِ وَلَا يَرَالُ الْمُرِيدُ بِتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ يَتَعَيَّنَ إِلَى التَّوْحِيدِ
 وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمُطَلُّوَةُ لِلسَّعَادَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشَهِدُ
 أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَالْمُرِيدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرَقِيِّ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا
 كُلُّهَا الْطَّاعَةُ وَالْأَخْلَاصُ وَبِتَقْدِيمِهَا إِلَيْيَّا وَبِصَاحِبِهَا وَتَنْشَأُ عَنْهَا الْأَخْوَالُ وَالْأَصْنَافُ
 نَتَائِجُ وَبَعْرَاتٌ ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْعِزْفَانِ وَإِذَا وَقَعَ
 تَقْصِيرٌ فِي النَّتَيْجَةِ أَوْ خَلَلٌ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنَّمَا مِنْ قِبْلِ التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ وَكَذَلِكَ
 فِي أَخْلُوَاطِ الْنَّفْسَانِيَّةِ وَالْأَوْارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ فَلِهَا يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى نَحْاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي
 سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ النَّتَائِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرُورِيٌّ وَقُصُورُهَا
 مِنْ أَخْلَلٍ فِيهَا كَذَلِكَ وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ وَيَعَسِّبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ وَلَا يُشَارِكُهُمْ
 فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْفَقْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَهَا شَامِلَةً وَغَایَةً أَهْلَ الْعِبَادَاتِ
 إِذَا لَمْ يَتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوْعِ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالْطَّاعَاتِ مُخْلَصَةً مِنْ نَظَرِ الْفِقَهِ فِي الْأَجْزَاءِ
 وَالْأَمْتَالِ وَهُوَ لَأَءَ يَمْحُونَ عَنْ تَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيَطَّاعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنْ
 التَّقْصِيرِ أَوْ لَا فَظَهَرَ أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا نَحْاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالثُّرُوكِ
 وَالْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنِ الْمُجَاهِدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُ لِلْمُرِيدِ

مقاماً يترقى منها إلى غيرها ثم تهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم وأصنف لآداب في الفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي المعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف أضطجع عن التغير عنه بالفظ بيسراً فهذا منه فلهذا أختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليسوا أهل غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتاوى وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المواجهة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجحة العارضة في طريقها وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق وشرح الأصناف لآداب تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم دوّنت وأنت الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريفتهم فنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسبه وردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزال رحمة الله بين الأمرين في كتاب الأخباء فدون فيه أحكام الورع وألقياد ثم بين آداب القوم وسائهم وشرح أصناف لآدابهم في عباراتهم وصار علم التصوف في البيلة علماً مدوّناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تلقى من صدور أرجال كما وقع في سائر العلوم التي دوّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك ثم إن هذه المواجهة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحسن والأطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحسن إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحسن الظاهر إلى الباطن ضفت أحوال الحسن وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نسجه وأعاد على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتشمية الروح ولا يزال في نعمته وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحسن وبئم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيعرض حينئذ للمواهب الرئانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المواجهة فيدركون من حقائق

الْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سُوَّا هُمْ وَكَذَلِكَ يُدْرِكُونَ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ
 بِهَا يَهُمْ وَقُوَّتِ تَقْوِيَّةِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةِ وَتَصْبِيرُ طَوْعَ إِرَادَتِهِمْ فَالْعَظَمَاءُ مِنْهُمْ
 لَا يَعْتَبِرُونَ هَذَا الْكَشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يَخْبُرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ يُؤْمِنُوا بِالْكَلْمَ
 فِيهِ بَلْ يَعْلَمُونَ مَا يَقْعُدُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ تَعْنِيَةً وَيَشَعُوْذُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمُهُمْ وَقَدْ كَانَ
 الْمُعْجَابَةُ رَفِيقَ اللَّهِ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمُعْجَابَةِ وَكَانَ حَظَّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ
 أَوْفَرَ الْمُعْظَلَةِ لِكُنْهِهِمْ لَمْ يَقْعُدْ لَهُمْ بِهَا عِنَيَّةٌ وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلَيَّ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتَبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الْطَرِيقَةِ مِنْ أَشْتَمَكَتْ رِسَالَةُ
 الْقُشْرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبَعَ طَرِيقَتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُتَّأَخِرِينَ
 أَنْصَرَتْ عِنَيَّتِهِمْ إِلَى كَشْفِ الْمُحَاجَبِ وَالْمَدَارِكِ الَّتِي وَرَاهُهُ وَأَخْتَلَفَتْ طُرُقُ
 الْزِيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ بِالْخِلَافِ تَعْلِيمُهُمْ فِي إِمَانَةِ الْقُوَّى الْحُسْنَى وَتَغْذِيَةِ الرُّوحِ
 الْعَاقِلِ بِالْذِكْرِ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَانِهَا بِتَسْمَامِ نَشْوَهَهَا وَتَغْذِيَّهَا
 فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ قَدْ امْتَحَنَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا
 ذَوَاتَ الْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلُّهَا مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْأَطْقَنِ هَكَذَا قَالَ الْفَزَالِيُّ
 رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ الْزِيَاضَةِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكَشْفَ
 لَا يَكُونُ صَحِيحًا كَامِلًا عِنْهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاسِثًا عَنِ الْأَسْتِقَامَةِ لِأَنَّ الْكَشْفَ قَدْ
 يَحْصُلُ لِصَاحِبِ الْجُوْعِ وَالْخُلُوَّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَسْتِقَامَةٌ كَالسُّخْرَةِ وَغَيْرِهِ
 مِنَ الْمُرْتَاضِينَ وَلَيْسَ مُرْسَدُنَا إِلَّا الْكَشْفَ أَنَّ النَّاثِيَّ عَنِ الْأَسْتِقَامَةِ وَمَثَالُهُ أَنَّ الْمَرْأَةَ
 الصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدِّبَةً أَوْ مُقْرَّبَةً وَحُوذِيَّ بِهَا جَهَةَ الْعَرْقِ فَإِنَّهُ يُشَكَّلُ فِيهِ مُعَوْجًا
 عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُسْطَعَةً تَشَكَّلُ فِيهَا الْمَرْقِيُّ صَحِيحًا فَالْأَسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ
 كَالْأَنْسَاطِ لِلْمَرِأَةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَلَمَّا عُنِيَ الْمُتَّأَخِرُونَ بِهِنَا النَّوْعَ
 مِنَ الْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ الْمَوْجُودَاتِ الْعُلُوِّيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ الْمُلَكِ وَالْرُّوحِ
 وَالْعَرْشِ وَالْكُرْبَيْتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَصَرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكُهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ
 فَهِمْ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلِ الْفَتْيَا بَيْنَ مُنْكَرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسْلِمٍ لَهُمْ وَلَيْسَ
 الْبَرْهَانُ وَالْدَلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هَذَا الْطَرِيقِ رَدًا وَقُبُولاً إِذْ هُنْ مِنْ قَبْلِ الْوَجْدَانِيَّاتِ وَرُبَّمَا
 قَصَدَ بَعْضُ الْمُهْتَنِفِينَ يَكَانَ مَذْهِبَهُمْ فِي كَشْفِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَقْنَى بِالْأَغْمَضِ

فَالْأَغْيَضُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ وَالْعِلْمَ كَمَا فَعَلَ الْفَرْغَانِيُّ شَارِخٌ
 قَصِيلَةً أَبْنَى الْفَارِضِ فِي الدِّيَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْعِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي
 صَدْرِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلُّهُ صَادِرٌ عَنْ صَفَةِ الْوَحْدَانَةِ الَّتِي
 هِيَ مَظَاهِرُ الْاُحَدِيَّةِ وَهُمَا مَعًا صَادِرَانِ عَنِ الْذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ لَا
 غَيْرُهُ وَيُسْمِونَ هَذَا الصَّدْرَ بِالْتَّجْلِي وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّجَلِيلَاتِ عِنْدَهُمْ تَجْلِي الْذَّاتِ عَلَى تَقْسِيمِ
 وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِيمَاجَادِ وَالظَّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ
 كَثُرَ كَثِيرًا مُخْفِيًّا فَأَخْبَتْ أَنَّ أَعْرَفَ فَخَلَقَ أَخْلَقَ لِيَعْرِفُونِي وَهَذَا الْكَمَالُ فِي
 الْإِيمَاجَادِ الْمُتَازِلِ فِي الْوُجُودِ وَتَقْصِيلِ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضْرَةُ
 الْكَمَالِيَّةُ وَالْحَقِيقَةُ الْحَمْدَيَّةُ وَفِيهَا حَقَائِقُ الْأَصْفَاتِ وَاللَّوْزُ وَالْقَلْمُ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَالرَّشْدُ الْجَمِيعَينَ وَالْكَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْمَلَأِ الْحَمْدَيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ تَقْصِيلُ الْحَقِيقَةِ
 الْحَمْدَيَّةِ وَيَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضْرَةِ الْمُبَاهِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ
 الْمِنَالِ ثُمَّ عَنْهَا الْعَرْشُ ثُمَّ الْكَرْمَيْشُ ثُمَّ الْأَفْلَاكُ ثُمَّ عَالَمُ الْعَنَاصِيرِ ثُمَّ عَالَمُ التَّرْكِيبِ هَذَا
 فِي عَالَمِ الْرِّتْقِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فِيهِ فِي عَالَمِ الْفَتْقِ وَيُسْمِي هَذَا الْمَذَهَبُ مَذَهَبَ أَهْلِ التَّجَلِيلِ
 وَالْمَظَاهِرِ وَالْحَضِيرَاتِ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِغُمُوضِهِ
 وَأَبْلَاقِهِ وَبُعْدِهِ مَا بَيْنَ كَلَامِ صَاحِبِ الْمُشَاهِدَةِ وَالْوِجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ وَرُبَّمَا
 اُنْكِرَ يَظَاهِرُ الْشَّرْعُ هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخْرُونَ مِنْهُمْ إِلَى القَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
 الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيُ أَغْرَبٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعْقِلِهِ وَتَفَارِعِهِ يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ
 قُوَّى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادُهَا وَالْعَنَاصِيرُ إِنَّمَا كَانَتْ
 بِهَا فِيهَا مِنَ الْقُوَّى وَكَذَلِكَ مَادَتْهَا لَهَا فِي تَقْسِيمِهَا قُوَّةُ بِهَا كَانَ وُجُودُهَا ثُمَّ إِنَّ الْمَرْكَباتِ
 فِيهَا تَلِكَ الْقُوَّى مُتَضَعِّنةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ كَالْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَّى
 الْعَنَاصِيرِ بِهِيَوْلَاهَا وَزِيَادَةُ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الْحَيْوَانِيَّةُ لِتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ
 وَزِيَادَةُ قُوَّتِهَا فِي تَفْسِيرِهَا وَكَذَلِكَ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيْوَانِيَّةِ ثُمَّ الْفَلَكُ بِتَضَمَّنِ الْقُوَّةِ
 الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ وَكَذَلِكَ الْذَّوَاتُ الْرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَمَعَةُ لِلْكُلِّ مِنْ غَيْرِ تَقْصِيلِ
 هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلهِيَّةُ الَّتِي أَنْبَثَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّيَّةً وَجُزُّيَّةً وَجَمِيعَهَا وَأَحَاطَتْ
 بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَا مِنْ جِهَةِ الظَّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْخَفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْصُّورَةِ وَلَا مِنْ

جهة المادَّة فَالْكُلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الْذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بِسِيَطَةٍ وَالْأَعْتِبَارُ هُوَ الْمُفْصِلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ الْأَنْتَرِيَّةِ أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ يَكُونُنَّهَا فَتَارَةً يُمْثِلُونَهَا بِالْجِنْسِ مَعَ النَّوْعِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَتَارَةً بِالْكُلِّ مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكَشَفَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمُ الْوَهْمُ وَالْخَيَالُ وَالَّذِي يَظْهُرُ مِنْ كَلَامِ أَبْنِ دَهْقَانِ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَدْعَبِ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَيْئًا بِمَا لَقُولُهُ الْحَكْمَاءُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وَجُودَهَا مَشْرُوطٌ بِالْفَوْءِ فَإِذَا عَدِمَ الْفَوْءُ لَمْ تَكُنْ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةٌ بِوَجْهِهِ وَكَذَا عِنْدَهُمُ الْمَوْجُودَاتُ الْحَسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوَجْدِ الْمُدْرِكِ الْعُقْلَيِّ فَإِذَا الْوَجُودُ الْمُفْصِلُ كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوَجْدِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ يَكُنْ هَنَاكَ تَفْصِيلٌ لِلْوَجُودِ بَلْ هُوَ بَسِطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرَّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ وَاللَّيْلُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَافِرُ كَبِيرٌ إِنَّمَا وَجَدَتْ لِوَجُودِ الْحَوَاسِ الْمُدْرِكَةَ لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمَدَارِكِ فَقَطَ فَإِذَا فَقَدَتِ الْمَدَارِكُ الْمُفَصَّلَةُ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَا لَا غَيْرُهُ وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَدْ أَخْسَى الظَّاهِرِ فَقَدْ كُلَّ حَسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يُفْصِلُهُ لَهُ الْخَيَالُ قَالُوا فَكَذَا الْيَقْنَانُ إِنَّمَا يَعْتَبِرُ تِلْكَ الْمُدَرَّكَاتِ كُلُّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قُدِّرَ فَقَدْ مُدْرِكِهِ فَقَدْ الْتَفْصِيلُ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمُوْهُمُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ هَذَا مُلْكُصٌ رَأَيْهُمْ عَلَى مَا يُفْهِمُ مِنْ كَلَامِ أَبْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ السُّقُوطِ لَأَنَّا نَقْطَعُ بِوَجْدِ الْبَلْدِ الَّذِي مَخْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ يَقِينًا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَبِوَجْدِ السَّمَاءِ الْمُظْلَّةِ وَالْكَوَافِرُ كَبِيرٌ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا وَالْإِنْسَانُ قَاطِعٌ بِذَلِكَ وَلَا يُكَابِرُ أَحَدٌ نَفْسُهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحْقِقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأْخِرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرْيَدَ عِنْدَ الْكَشَفِ رُبُّمَا يَعْرِضُ لَهُ تَوْهِمُ هَذِهِ الْوَحْدَةِ وَيُسْعِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى التَّمَيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَيُعَيِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِ الْمُحْقِقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرْيَدِ عِنْهُمْ مِنْ عَقْبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقْبَةٌ صَعِبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمُرْيَدِ مِنْ وُقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخْسِرُ صَنْقَتُهُ فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الْطَّرِيقَةِ ثُمَّ

إن هؤلاء المتأخرین من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس
 توغلوا في ذلك فذهبوا إلى الخلول والوحدة كما أشرنا إليه وملاوا
 الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعد عن ابن العربي وأبن
 سبعين وتلميذه هما ابن العفيف وأبن الفارض والنعمان الإسرائيلى في قصائدهم وكان
 سلفهم مخالفين للإسماعيلية المتأخرین من الرافضة الدائرين أيضاً بالخلول وإلهية
 الأئمة مذهبًا لم يعرف لأولئك فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر وأختلط
 كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس
 المعرفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساوية أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه
 الله ثم يوحي مقامة لا آخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب
 الإشارات في فصل التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد
 أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل
 شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو يعني ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا
 برتيب وجود إلا بذال بعد هذا القطب كما قال الشيعة في النباء حتى إنهم لما
 أسلدوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي رضي
 الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً وإنما فعله رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة
 بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهمما أزهد
 الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم
 في الدين بشيء يوثق عنه فيخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد
 والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنا
 كثيرون في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام ينفي أو إثبات وإنما هو
 ما أخذوا من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كلامهم والله يهدي إلى الحق فمـا إن
 كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبو للرد على هؤلاء المتأخرین في هذه المقالات
 وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم
 فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما
 يحصل من الأذواق والمواجحة ومحاسبة النفس على الأعمال ليحصل تلك الأذواق التي

تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما وأنها الكلام في الكشف والحقيقة
 المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرني والملائكة
 والتوحي والثبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان في
 صدورها عن موجودها وتكوينها كما مر وثانيها التصرفات في العالم والاكون يانواع
 الكرامات ورائعها الفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من ائمة القوم يعبرون
 عنها في أصطلاحهم بالاشطحات تستشكل ظواهرها فمسكري ومحسن ومتاول فاما الكلام
 في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجيد في تناوحها ونحوسي النفس
 على التقصير في أسبابها فما مر لا مدفوع فيه لاحد وأذواقهم فيه صحيحه والتحقق بها هو
 عين السعادة وما الكلام في كرامات القوم وأنبارهم بالغيبات وتصريفهم في
 الكائنات فما مر صحيح غير مسكري وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فالليس ذلك من
 الحق وما أخرج به الاستاذ أبو سحاق الإسferائي من ائمة الأشعرية على إنكارها
 لأنها يقال لها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينها بالتجزئي وهو دعوى
 وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير
 مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقائية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع
 الكاذب اتبعت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير
 من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابه وأئم السلف كثير
 من ذلك وهو معلوم مشهور وما الكلام في الكشف واعطاء حقائق المعلومات
 وترتيب صدور الكائنات فكثر كلامهم فيه نوع من المشابه لما أنه وجدا في
 عندهم وقاد الوجدان عندهم بعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي له دلالة على
 مرادهم منه لأنها لم توضع لل相遇 وكثره من المحسوسات فيبني أن لا تتعارض
 بكلامهم في ذلك وتركه فيما تركته من المشابه ومن رزقه الله فهم شيء من
 هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فما كرم بها سعاده وأمام الالفاظ
 الموهمة التي يعبرون عنها بالاشطحات ويواخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن
 الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكتهم حتى
 ينطقوها عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والجبر ممنور فمن

عِلْمَ مِنْهُمْ فَضْلَهُ وَأَقْتَدَاهُ حُمْلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ فِي مَا وَأْنَ الْعَبَارَةَ عَنِ الْمَوَاجِدِ صَعْبَةُ إِنْقَدَانِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ فَضْلُهُ وَلَا أَشْهَرَ فَمُواخَذُ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَعْمَلُنَا عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَا مَنْ تَكَلَّمُ بِمِثْلِهِ وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسْبِهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمُواخَذُ أَيْضًا وَلَهُذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكَبَرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحَلَاجَ لَأَنَّهُ تَكَلَّمُ فِي حُضُورٍ وَهُوَ مَالِكُ لِحَالِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَعْلَمُ الْمِلَّةِ الَّذِينَ أَشَرَّنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَسْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُمْ أَلِاتٌ وَأَقْتِدَاهُ مَا أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَغْرَضَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَعْفَلْ بِهِ بَلْ يَقْرُؤُنَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَأَنْهُ إِدْرَاكٌ بِمِنْ إِدْرَاكَ كَانَ النَّفْسُ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْخُصُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعِلْمُ اللَّهِ أَوْسَعُ وَخَلْقَهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ يَا لِهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطَقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُذَرُّ كُونَ بَلْ حَظَرُوا الْخُوضَ فِي ذَلِكَ وَمَنْعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ أَخْهَابِهِمْ مِنَ الْخُوضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عَنِهِ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتِهِمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْخَسِنِ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْأَلِاتَيْعَارِ وَالْأَقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَخْهَابِهِمْ بِالْتِزَامِهَا وَهَكَذَا يَبْيَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمُوْفِقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هذا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرِعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ الْعُلُومُ صَنَاعَةً وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا أَرْثُرُوْيَا وَالْتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلْفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأُمَّ مِنْ قَبْلٍ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلَا كَتِيفَاءِ فِيهِ يَكَلَامُ الْمُعْتَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَأَرْثُرُوْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصِّدِيقُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ وَعَنْ أَبِي بَكْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْثُرُوْيَا مُذْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَوةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ أَرْثُرُوْيَا الْصَّالِحةُ جُزُءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزُءًا مِنَ النَّبِيَّةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا أَرْثُرُوْيَا

الصالحة يرآها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم من التوحى الرويا فكان لا يرى شيئا إلا جاءت مثل فلق الصنع وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتقتل من صلاة الغدا يقول لا صحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك يستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين واعزازه وأما السبب في كون الروبا مدركا للغيب فهو أن الروح القلبي وهو البخار الطيف المنبعث من مجويف القلب الحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في إلا إحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح البدن ما يغشاه من برد الليل المنجس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركب القلب فستحكم بذلك المعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما ثقى في أول الكتاب ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الإدراك وإنما يمنع من تعلقه بالمدارك الغبية ما هو فيه من حجاب الاستعمال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجزأ عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك فإذا تجزأ عن بعضها خفت شواعله فلا بد له من إدراك الحقيقة من عالمه وقدر ما تجزأ له وهو في هذه الحالة قد خفت شواعل الحسن الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم فاستعد ليقول ما هنالك من المدارك الالائقة من عالمه وإذا أدرك ما يدرك من عالمه رجع إلى بدنه إذ هو مادا في بدن جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فإنه يتوزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجزء النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية فيترقب التجربة من المحسوس إلى المعقول والخيال وواسطة بينهما ولذلك إذا أدرك النفس من عالمها ما تدركه القلة إلى الخيال فيصورة بأصورة المعاشرة له ويدفعه إلى الحسن المشترك فيراه النائم كانه محسوس فينزل المدرك من الروح العقلية إلى الحسي والخيال أيضا واسطة هذه حقيقة

الرؤيا ومرت. هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الأحلام. الكاذبة فإنها كلها صور في أحلام حلة النوم ولكن إن كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلاني المدرك فهو رؤيا وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان أحلاماً أو دعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام وأماماً معنى التغيير فاعلم أن الروح العقلية إذا أدرك مدركته وألقاه إلى أحلام فصورة فإنما يصورة في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم في صورة أحلام بصورة البغر أو يدرك العداوة في صورة أحلاماً أحلاماً في إذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البغر أو الحية فينظر المعبر بقوة التثنية بعد أن يتيقن أن البغر صورة شخصية وأن المدرك وراءها وهو يهتم بيقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لأن البغر خالق عظيم يناسب أن تشبه بها السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها وكذا الأولى تشبه بالنساء لأنهن أوعية وأمثال ذلك ومن المرئي ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تغيير لحالتها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبيهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاثة رؤيا من الله وزرؤيا من الملائكة وزرؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحه التي لا تفتقر إلى تأويل والتي من الملائكة هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التغيير والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث وأعلم أن أحلاماً إذا ألقى إليه الروح مدركته فإنما يصورة في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن أحسن أدركه فقط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبغر ولا العدو بالحياة ولا النساء بالأولى لأنه لم يدرك شيئاً من هذه وإنما يصور له أحلاماً أمثال هذه في شبيهها ومتامسيها من جنس مداركه التي هي المشهومات وألمشومات وليتحققفظ المعبر من مثل هذا فربما اخترط به التغيير وفسد قانونه ثم إن علم التغيير علم بقوانين كلية يعني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البغر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البغر يدل على الغبطة وفي موضع آخر يقولون البغر يدل على الهم ولامر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كلام مير وفي موضع آخر يقولون تدل على

الحياة وأمثال ذلك فيحفظه المعتبر هذه القوانيين الكلية ويعبر في كل موضع بما يقتضيه القرآن الذي تعيّن من هذه القوانيين ما هوائق بالرؤيا وتلك القرآن منها في البقظة ومنها في النوم ومنها ما يندرج في نفس المعتبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لخلق له ولم يزل هذا العلم متناقلًا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانيين وتناقلها الناس لهذا العهد والفت الكرماني فيه من بعده ثم الفت المكي كثيرون وأكثروا والمتدائل بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القرضاوي من علماء القراءان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة لصالحي وهو عالم مغمي زور النبوة لل المناسبة التي ينتمي كما وقع في الصحيح والله علام الغيب

الفصل الثالث عشر

في العلوم المقلية وأصنافها

وأما العلوم المقلية التي هي طبيعية للأنسان من حيث إنها ذو فكر وهي غير مختصة بصلة بل يوجه النظر فيها إلى أهل العمال كلهم ويستوطن في مداركها ومباحتها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمره ان الخليقة وتسى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الأول عالم المنطق وهو عالم بعضه الذي عن الخطا في افتراض الطلب المجهولة من الأمور الخاصة المعلومة وفائدته تمييز الخطا من الصواب فيما يائسه الناظر في الموجودات وعوارتها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات به تعالى فكري وثم النظر بعد ذلك عندهم إما في العحسوسات من الأجسام العنصرية والحكمة عنها من المعدين والنبات والحيوان وال أجسام الحركية والحركات الطبيعية والننس التي تتبع عنها الحركات وغير ذلك ويسعى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات وسمونه العلم الأول وهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسى التعاليم أو لها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الأطلاق إما المفصلة من حيث تكونها معدودة أو المتشيلة وهي إما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو

أَلْجِسْمُ التَّعْلِيَّيُّ يَنْتَظِرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَبْثُ ذَائِبًا أَوْ مِنْ
 حَبْثُ نِسْبَةٍ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيهَا عِلْمٌ الْأَرْتَمَاطِيَّيِّيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةٌ مَا يَعْرِضُ لِلْكَمَّ
 الْمَنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدْدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِ وَالْعَوَارِضِ الْلَّاْحِقَةِ وَثَالِثَهَا عِلْمٌ
 الْمُوسِيقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةٌ نِسْبَةُ الْأَصْوَاتِ وَالنُّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْمَعْدَدِ وَتَمَرِّثَةٌ
 مَعْرِفَةٌ تَلَاحِينِ الْفَنَاءِ وَرَايَهَا عِلْمٌ الْمَيْثَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا
 وَتَعْدُدُهَا كُلُّ كُوَّكَبٍ مِنَ السَّيَارَةِ وَالْقِيَامِ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْحَرْكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 الْمُشَاهَدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقْامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَهَذِهِ
 أَصْوَلُ الْعِلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةُ الْمَعْنَاطِقِ وَهُوَ الْمَقْدُمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ الْتَّعَالِيمُ فَالْأَرْتَمَاطِيَّيِّيُّ
 أَوْلَامُ الْمَهْنَدَسَةِ ثُمَّ الْمَيْثَةِ ثُمَّ الْمُوسِيقِيُّ ثُمَّ الْطَّبِيعِيَّاتِ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ الْطَّبِيعِيَّاتِ الْطَّبِيثُ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْمَعْدَدِ عِلْمُ الْجِسْلَبِ
 وَالْفَرَائِضِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْمَيْثَةِ الْأَزْيَاجُ وَهِيَ قَوَانِينُ الْحِسَابِ حَرَكَاتِ
 الْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَّى قُصِّدَ ذَلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظرُ فِي النُّجُومِ
 عَلَى الْأَخْكَامِ النَّجَوِيَّةِ وَتَحْنُنُ تَكَلُّمٌ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدًا إِلَى آخِرِهَا وَأَعْلَمُ
 أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عَنِيَّ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفُنَا أَخْبَارُهُمُ الْأَمْثَانُ الْعَظِيمَتَانِ فِي
 الدُّولَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسٌ وَالرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ الْعِلُومِ نَافِقَةً لِدَيْهِمُ عَلَى
 مَا بَلَغُنَا لِمَا كَانَ الْمُهْرَانُ مَوْفُورًا فِيهِمْ وَالدُّولَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصِيرُهُ لَهُمْ
 فَكَانَ لِهَذِهِ الْعِلُومِ بُحُورٌ زَانِخَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْسَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكَلْدَانِيَّينَ وَمِنْ فَبِلِهِمْ
 مِنَ السِّرْيَانِيَّينَ وَمِنْ عَاصِرِهِمْ مِنَ الْقُبْطِ عَنَيَّةٌ بِالسِّنْجَرِ وَالنِّجَامَةِ وَمَا يَتَبعُهَا مِنَ الظَّلَالِيَّمِ
 وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمُ الْأَمْمُ مِنْ فَارِسٍ وَيُونَانَ فَأَخْصُصُ بِهَا الْقُبْطُ وَطَمَّ بَحْرُهَا فِيهِمْ
 كَمَا وَقَعَ فِي الْمَتَلُوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَانَ السُّحْرَةِ وَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ
 مِنْ شَانَ الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَابَعَتِ الْمِلَلُ بِمَحْظَرِ ذَلِكَ وَتَخْرِيمِهِ فَدَرَسَتِ
 عِلْمُهُ وَبَطَّلَتِ كَانَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَائِمًا يَتَنَاقِلُهَا مُتَنَحَّلُو هَذِهِ الْمَنَائِعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصَحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُيُوفَ الْشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنَ اخْتِبَارِهَا وَأَمَّا الْفُرُسُ
 فَكَانَ شَانَ هَذِهِ الْعِلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْهُمْ عَظِيمًا وَنَطَاقُهَا مَتَسْعًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ دُولَتُهُمْ
 مِنَ الْفَصَحَّامَةِ وَأَتِصالِ الْمُلْكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعِلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكنية فاستولى على كتبهم وعلومهم مما لا يأخذة الخضر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كثيرة كتب سعد ابن أبي وفاص إلى عمر بن الخطاب ليستاذنه في شأنها وتقديمها لل المسلمين فكتب إليه عمر أن أطر حوما في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله فطر حوما في الماء أو في النار وذمت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا وأما الروم فكانت الدولة منهم اليونان أولًا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحدها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم وأخص فيها المشاهرون منهم أصحاب الرواق بطريق حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظlim من الشّمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكم في تلميذه بقراط الدن ثم إلى تلميذه أفلادون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروdisi وتأمسيطيون وغيرهم وكان أرسطو معلما للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملوكهم وانتزع الملك من اليونان وكان أرسطو في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكره ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر لقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما انتقض العيل والشرائع فيها وبقيت في صحافتها ودوايتها مخلدة باقية في خزائنهما قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفأ له وأبتهوا الروم ملوكهم فيما أبتهوا للأمم وأبتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تسبّبوا من السلطان والدولة وأخذوا الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفنوا في الصنائع والعلوم تشوّقوا إلى الأطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الآفاق والآقوس المعاهدين بعض ذر منها وبما سمعوا الله أفكار الإنسان فيها أبوجعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتاب التعليم مترجمه فبعث إليه بكتاب أوقيانوس وبعض كتب الطبيعتين فقرأها المسلمين وأط libero على ما فيها وأزادوا حرصا على الظفر بما يجيء منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت آلة في العلم رغبة بما كان ينتهي له فأنبعث لهذا العلم حرصاً وأوفد الرسل على ملك الروم

في استخراج علوم اليونانيين وانتساقها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فاعذر
 منه واستوعب وعسكف علىها النظراء من أهل الإسلام وحذفوا في قيونها وانتهت إلى
 الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول وأختصوه بالرد والقبول
 أو قوف الشهرة عنده ودعوا في ذلك المدواين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم
 وكان من أكبرهم في العلة أبو نصر الفراهي وأبو علي بن سينا بالشرق والقاضي
 أبو الوليد بن رشيد والوزير أبو بكر بن الصاغ بالأندلس إلى آخر ين بلغوا الغاية
 في هذه العلوم وأختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثيرون على اتحال العالم
 وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسيحر والطمسات ووقفت الشهرة في هذا المستحل
 على مسلمة بن أحمد التجريطي من أهل الأندلس وتلميذه ودخل على العلة من
 هذه العلوم وأهليها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنعوا إليها وقلدوا آراءها
 والذنب في ذلك لمن أرتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم إن المغرب والأندلس لما
 تركت ريح العمران بهما وتنافضت العلوم بتناقصه أضحت ذلك منها إلا قليلاً من
 رسومه تجدوها في تفاصيل من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل
 المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم محفوظة وخصوصاً في عراق العجم وما
 بعده فيما وراء النهر وانهم على بعض من العلوم العقلية لتوفيق عمرائهم وأصحابها
 الحضارة فيما وافق بمصر على تأليف متعددة لرجال من عظماء هؤلاء منبلاد
 خراسان يشير إسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان
 تشهد بأن له ملكرة راسخة في هذه العلوم وفي أشائتها ما يدل على أن له أطلاعاً على
 العلوم المكنمية وقد جاء إليه في سائر الفنون العقلية والله يوجد بتصريفه من يشاء
 كذلك بأفنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية بلاد لا فرج منها من أرض رومية وما
 إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق وإن رسومها هناك متعددة ومجالس
 تعليمها متعددة ودروابنها جامحة متوفرة وطلبتها متكتبة والله أعلم بما هناك
 وهو يخلق ما يشاء ويختار

الفصل الرابع عشر

في الملومن العددية

وأولها الأزتماطيفي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الأعداد إذا توالى متضاعفة يعدد واحد فإذا جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عددة تلك الأعداد فرداً مثل الأفراد على تواليهما والازواج على تواليهما ومثل أن الأعداد إذا توالى على نسبة واحدة تكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانية وثانية ثلث ثالثها الخ فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضربي كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوسط من اثنين فما زاد بعده فشمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والخمسات والسدسات إذا وضعت متالية في سطورها يأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضائع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضائع الذي قبله فتكون خمسة وهم بحسباً وتتوالى الأشكال على توالى الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض في عرضه الأعداد على تواليهما ثم المثلثات على تواليهما ثم المربيعات ثم الخواص الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضًا خواص غريبة استقررت منها ونقررت في دوائرهم مسائلها كذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فإن لكل منها خواص مختصة به تخصها هذا الفن ولبسست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتتها ويدخل في براهين الحساب ولحوكماء المتقدمين والمتاخرين فيه تأليف وأكثروهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجا وغيره من المتقدمين وما المتاخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه بذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية

كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وأله سبحانه وتعالى أعلم . (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) . وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالقسم والتفرق فاًضم يكُون في الأعداد بالأفراد وهو الجمجم وبالتضييف تضاعف عدداً بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفرق أيضاً يكُون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقى وهو الطرح أو تفصيل عدد بجزاء متساوية تكون عليهما محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفرق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كبراً وكذلك يكون بأفهم والتفرق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فإن تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفرق وهذه الصناعة حادثة اخترع إليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيراً وتدأولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضمنة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إن يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المبني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقاً ويعود الصدق ويلازمه مذهباً ومن أحسن التأليف المبسطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط القوانين وأعماله مفيد ثم شرحه الكتاب بهذه رفع الحجاب وهو مستغلق على المستدي بما فيه من البراهين والوثيقة المبني وهو كتاب جليل القدر أدركته المسيحية تعظمه وهو كتاب جديروه بذلك وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فدأمه وأله يهدى بدوره من يشاء وهو القوي المتيقن . (ومن فروعه الجبر والقابل) . وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفترض إذا كان ينبعها نسبة لقتضي ذلك فاصطلحوا فيما على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضييف بالضرب أو لها العدد لأن به يتعين المطلوب المجهول يا ستر أحده من نسبة المجهول إليه وثانيةها الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شيء وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضييفه

في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمر مهم وما بعد ذلك فعما نسبه الأوس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسألة فتخرج إلى معادة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها بعض ويجهرون بما فيها من الكسر حتى يصير صحيحًا ويحظون المراتب إلى أقل الأوس إن أمكن حتى يصير إلى الثالثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فإن كانت المعادة بين واحد وأحدى تعين فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادة العدد وتعين والمال وإن عادل الجذور فيتعين بعديتها وإن كانت المعادة بين واحد وأثنين آخر جهأ العمل الهندسي من طريق تفصيل الفرز في الآلين وهي مهمة فيعنى بها ذلك الفرز المفصل ولا يمكن المعادة بين آلين وأثنين وأكثر ما انتهت المعادة بينهم إلى سنت مسائل لأن المعادة بين عدد وجذر ومثال مفردة أو مركبة تجيئ سنة وأقل من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على آثره فيه وكتابه في مسائله ست من أحسن الكتب الموضوعية فيه وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد باعنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعاملات إلى أكثر من هذه السنت الآجناس وبالغها إلى فوق العشرين وأستخرج لها كلها أعمالاً وابنها بيراهين هندسيه والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى . (ومن فروعه ايضاً المعاملات) . وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في اليسارات والمساحات والرتوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات بصرف في صناعتنا ذلك الحساب في العجول والعلوم والكسر وال الصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول القرآن والدربة بشكرار العمل حتى تزمن الملكة في صناعة الحساب ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الاندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمع وابن مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة العجريطي وأمثالهم (ومن فروعه ايضاً الفرائض) . وهي صناعة حسابية في تصحيح الشهاد لذوي الفروض في الوراتات إذا تعددت وهلاك بعض الوارثين وأنكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند أجتماعها وتزاحمت على المال كله أو كان في الفريضة إقراره

وإنكاره من بعض الوراثة فتحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تتحقق وسهام الوراثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوراثتين من المال على نسبة بينهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذر ومتولمه ومجهوله وترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعلول والقرارات والإنكار والوصايا والتديير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تضييق الشهوان باعتبار الحكيم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلاث العلم وأتها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها وإنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات فإنها أقل من أن تكون في كميتهما ثلاث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأذيعوا ومن أحسن الناكم فيه على مذهب مالك رحمة الله كتاب ابن ثابت ومحضرا القاضي أبي القاسم الخوقي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم لكن الفضل للخوقي في كتابه مقدم على الجميع وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطبي كبر مشيخة فاس فأوضح وأذعنت ولا يام الحرمي فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بهيمة وكرمه لا رب سواه

الفصل الخامس عشر

في العلوم المندمية

هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط وسطح والجسم وإما المفصلة كالاعداد وفيها يعرض لها من الظواهر الذاتية مثل أن كل مثلث فرز وایاه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فائز أو ي atan المتقابلتان منهما متساويتان ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليdes ويسقى

كتاب الأصول وكتاب الأذكى وهو أبسط مما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة ياخذلاف المترجمين ففيها الحسين بن إسحاق والثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج وبشتبه على خمس عشرة مقالة أربع في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض وثلاث في العدد والعشرة في المناطق والقوى على المنطقات ومعنى الجذور وخمس في التجسمات وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن مينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزءا منها اختصارا به و بذلك ابن الصات في كتاب الاختصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بطلاق وأعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضافة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها تبين الأنظمة جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أفيستها لتربيتها وانتظامها فيبعد الفكر يعمّر سرتها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيمن وقد زعموا أنه كان مكتوبًا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلنا وكان شيوخنا رحيمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للتفكير بمعنوية الصابون للشوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات) . أما الأشكال الكروية ففيها كتابان من كتاب اليونانيين إتاودوسوس وميلاوش في سطوحها وقطعها وكتاب ثاودوسوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم المثلثة لأن براهينها متوقفة عليه فالكلام في المثلثة كله كلام في الكرة السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بسباب آخر كاتب كما نذكر فقد يتوقف على أحكام الأشكال الكروية سطوحها وقطعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطية من الأشكال والقطوع ويرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الأول وفائدةتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الأجسام مثل التجارة والبناء وكيف توضع الشعائيل الغربية والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جز الأنفال ونقل الهياكل

بـالـهـنـدـامـ وـالـمـيـخـالـ وـاـمـثـالـ ذـلـكـ وـقـدـ أـفـرـدـ بـعـضـ الـمـؤـافـينـ فـيـ هـذـاـ الـفـنـ كـتـابـاـ فـيـ الـحـيـلـ الـعـلـمـيـةـ يـتـضـمـنـ مـنـ الـصـنـاعـاتـ الـغـرـيـةـ وـالـحـيـلـ الـمـسـتـظـرـةـ كـلـ عـجـيـبـةـ وـرـبـماـ أـسـتـغـلـقـ عـلـىـ الـغـرـوـمـ اـسـعـوـبـقـ بـرـاهـيـنـ الـهـنـدـسـيـةـ وـهـوـ مـوـجـودـ بـأـيـدـيـ الـنـاسـ يـتـسـبـونـ إـلـىـ بـنـيـ شـاـكـرـ وـأـللـهـ تـعـالـىـ أـعـلـمـ (وـمـنـ فـرـوعـ الـهـنـدـسـةـ الـمـسـاحـةـ) وـهـوـ فـنـ يـعـتـاجـ الـبـهـيـ فـيـ مـسـعـ الـأـرـضـ وـمـعـنـاءـ أـسـتـخـرـاجـ مـقـدـارـ الـأـرـضـ الـمـعـلـوـمـ بـنـسـبـةـ شـبـرـ أـوـ ذـرـاعـ أـوـ غـيـرـهـمـاـ وـنـسـبـةـ أـرـضـ مـنـ أـرـضـ إـذـ قـوـيـسـتـ بـمـيـشـلـ ذـلـكـ وـيـعـتـاجـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ تـوـظـيـفـ الـخـرـاجـ عـلـىـ الـعـزـارـعـ وـالـفـدـنـ وـبـسـاتـيـنـ الـغـرـاسـةـ وـفـيـ قـسـمـةـ الـحـوـائـطـ وـالـأـرـاضـيـ بـيـنـ الـشـرـكـاءـ أـوـ الـوـرـثـةـ وـاـمـثـالـ ذـلـكـ وـلـلـنـاسـ فـيـهـاـ مـوـضـعـاتـ حـسـنـةـ وـكـثـيرـةـ وـأـللـهـ الـمـعـوـقـ لـلـصـوـابـ بـعـنـهـ وـكـرـمـهـ (الـمـنـاظـرـ مـنـ فـرـوعـ الـهـنـدـسـةـ) وـهـوـ عـلـمـ يـتـبـيـنـ بـهـ أـسـبـابـ الـفـلـطـ فيـ الـإـدـرـاكـ الـبـصـريـ يـمـعـرـفـةـ كـيـفـيـةـ وـقـوـعـهـاـ بـنـاءـ عـلـىـ أـنـ إـدـرـاكـ الـبـصـرـ يـكـوـنـ بـعـخـرـوـطـ شـعـاعـيـ رـأـسـ يـقـطـعـهـ الـبـاـصـرـ وـقـاعـدـتـهـ الـعـرـقـيـ ثـمـ بـقـعـ الـفـلـطـ كـثـيرـاـ فـيـ رـؤـيـةـ الـقـرـيبـ كـبـيرـاـ وـالـبـعـيدـ صـبـيرـاـ وـكـذـاـ رـؤـيـةـ الـأـشـبـاحـ الـصـغـيرـةـ تـحـتـ الـمـاءـ وـوـرـاءـ الـأـجـسـامـ الـشـفـافـةـ كـبـيرـةـ وـرـؤـيـةـ أـمـنـقـطـةـ الـنـازـلـةـ مـنـ الـأـمـطـرـ خـلـاـمـ مـسـتـقـيمـاـ وـالـسـاقـةـ دـائـرـةـ وـاـمـثـالـ ذـلـكـ فـيـتـبـيـنـ فـيـ هـذـاـ الـعـلـمـ أـسـبـابـ ذـلـكـ وـكـيـفـيـاتـ بـالـبـرـاهـيـنـ الـهـنـدـسـيـةـ وـيـتـبـيـنـ بـهـ أـيـضـاـ أـخـتـلـافـ الـمـنـظـرـ فـيـ الـقـمـرـ يـأـخـتـلـافـ الـعـرـوضـ الـذـيـ يـتـبـيـنـ عـلـيـهـ مـعـرـفـةـ رـؤـيـةـ الـأـهـلـةـ وـحـصـولـ الـكـسـوـفـ وـكـثـيرـ مـنـ أـمـثـالـ هـذـاـ وـقـدـ أـنـتـ فـيـ هـذـاـ الـفـنـ كـثـيرـ مـنـ أـلـيـونـانـيـنـ وـأـشـهـرـ مـنـ الـأـفـ فـيـهـ مـنـ الـإـسـلـامـيـنـ أـبـنـ الـهـيـشـمـ وـلـمـيـزـهـ أـيـضـاـ تـالـيـفـ وـهـوـ مـنـ هـذـهـ الـرـيـاضـةـ وـتـقـارـيـبـهـاـ

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وـهـوـ عـلـمـ يـنـظـرـ فـيـ حـرـكـاتـ الـكـوـاكـبـ الـثـانـيـةـ وـالـمـنـتـرـكـةـ وـالـمـتـعـاـزـةـ وـيـسـتـدـلـ مـنـ تـلـكـ الـحـرـكـاتـ عـلـىـ أـشـكـالـ وـأـوـضـاعـ لـلـأـفـلـاكـ لـزـمـتـ عـنـهـاـ إـلـهـيـهـ الـحـرـكـاتـ الـمـحـسـوـسـةـ يـطـرـقـ هـنـدـسـيـةـ كـمـاـ يـبـرـهـنـ عـلـىـ أـنـ مـرـكـرـ الـأـرـضـ مـبـاـيـنـ لـمـرـكـرـ فـلـكـ الشـمـسـ يـوـجـودـ حـرـكـةـ الـإـقـبـالـ وـالـإـدـبـارـ وـكـمـاـ يـسـتـدـلـ بـالـرـجـوـعـ وـالـاـسـتـقـامـةـ لـلـكـوـاكـبـ عـلـىـ وـجـودـ اـفـلـاكـ صـغـيرـةـ حـامـلـةـ لـهـاـ مـتـرـكـةـ دـاخـلـ فـلـكـهاـ الـأـعـظـمـ وـكـمـاـ يـبـرـهـنـ عـلـىـ وـجـودـ الـفـلـكـ الـثـانـيـنـ بـحـرـكـةـ الـكـوـاكـبـ الـثـانـيـةـ وـكـمـاـ يـبـرـهـنـ عـلـىـ تـعـدـ الـأـفـلـاكـ لـلـكـوـكـبـ

الْوَاحِدِ بِعَدَادِ الْمُبْرُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِذْرَاكُ الْمَوْجُودِ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا
 وَأَجْنَابِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا
 تَرَكِيبُ الْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالْاسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَكَانَ الْيُونَانيُّونَ
 يَعْتَنُونَ بِالرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَخَذُونَ لَهُ الْآلاتِ الَّتِي تُوَضَّعُ لِبِرْصَدِهَا حَرَكَةُ الْكَوَافِرِ
 الْمُعْيَنِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدُهُمْ ذَاتَ الْحَاقِ وَصَنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ
 حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقُعْ بِهِ عِنْيَةُ الْأَ
 فِي الْتَّقْلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَامُونِ شَيْءٌ مِّنْهُ وَصَنَعَ الْأَلَّاهُ الْمَعْرُوفَةُ لِلرَّمْدَنِ الْمُسَمَّةِ
 ذَاتَ الْحَلْقِ وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتَمْ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَمْنَهُ وَأَغْفَلَ وَأَعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ
 عَلَى الْأَزْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَّةِ الْأَخْلَافِ الْحَرَكَاتِ بِالْاتِّصالِ الْأَخْرَابِ وَأَنَّ
 مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْأَلَّاهِ لِبِرْصَدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَافِرِ إِنَّمَا هُوَ بِالْتَّقْرِيبِ وَهَذِهِ
 الْهَيَّةُ صَنَاعَةُ شَرِيفَةٍ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يَفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ
 الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَافِرِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ وَالْهَيَّاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَرِمَّتْ
 عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعْدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لَازِمًا لِمُخْتَلِفِينَ
 وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ أَسْتَدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ الْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي
 الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْتَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ الْتَّالِيفِ فِيهِ
 كِتَابُ الْمَجِسِطِيِّ مَنْسُوبٌ بِطَالِيمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُؤْلِكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَنْتَوْهُمْ بَطَالِيمُوسُ
 عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَاطُ الْكِتَابِ وَقَدْ أَخْتَصَرَهُ الْأَئِمَّةُ مِنْ حُكْمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ
 أَبْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الْسِفَاءِ وَلَخَصَهُ أَبْنُ رُوشِدٍ أَيْضًا مِنْ حُكْمَاءِ الْأَندَلسِ
 وَأَبْنُ السَّمْعَنِ وَأَبْنُ الْصِّلْتِ فِي كِتَابِ الْأَقْتَصَارِ وَلَأَبْنِ الْفَرْغَانِيِّ هَيَّةً مُلْخَصَةً قَرَبَهَا
 وَحَذَفَ بِرَاهِينَهَا الْهِنْدِسِيَّةَ وَاللهُ عَلِمُ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ . (وَمِنْ فِرْوَهِ عِلْمِ الْأَزْياجِ) . وَهِيَ صَنَاعَةُ حِسَابِيَّةٍ عَلَى قُوَّانِينَ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا
 يَعْصُمُ كُلَّ كَوْكِبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيَّةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةِ
 وَبَطْءِهِ وَأَسْتِقَامَةِ وَرُجُوعِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ الْكَوَافِرِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ
 وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قِبَلِ حِسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تَلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرِجَةِ مِنْ كِتَابِ
 الْهَيَّةِ وَلَهُنِّ الْصِنَاعَةِ قَوَانِينُ كَالْمُقْدَمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشَّهُورِ وَالْأَيَّامِ

وَالْتَّوَارِيخُ الْمَاضِيَّةُ وَأَصُولُ مُتَقَرِّرَةٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ وَالْحَضِيرِ وَالْغَيْوُلِ وَأَصْنَافِ الْحَرَكَاتِ وَاسْتِخْرَاجُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ يَصْعُونَهَا فِي جَدَّاً وَلَ حَرَبَةٍ تَسْهِي لَا عَلَى الْمُعْتَلِمِينَ وَتَسْعِي الْأَزْبَاجَ وَيُسَمِّي اسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ لِهِذِهِ الصَّنَاعَةِ تَعْدِي لَا وَتَقُوِّيْمَا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَائِلَيْنُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَّاخِرِينَ مِثْلَ الْبَشَّارِ^(١) وَابْنِ الْكَمَادِ وَقَدْ عَوَلَ الْمُتَّاخِرُونَ هَذَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى زِيَاجٍ مَتْسُوبٍ لِابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ مُجْمِعِي تُونِسَ فِي أَوَّلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَيَزَّعْمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَلَ فِيهِ عَلَى الْرَّصْدِ وَأَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ يَصْلِيَّةً مَاهِرًا فِي الْهِيَئَةِ وَالْتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عُنِيَّ بِالْرَّصْدِ وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقْعُدُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ لِلْكِلَكِ عَنْ وَالْوَثَافِيَّةِ مَبْنَاهُ عَلَى مَا يَزَّعْمُونَ وَلَخَصَّهُ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي آخِرِ مَهَامِهِ الْمَنْهَاجُ فَوَلَعَ بِهِ النَّاسُ لِمَا سَهَلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يَعْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْفَلَكِ لِتَبَيَّنِ عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ الْجِوَمِيَّةُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْأَثَارِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمُوْلَ وَالْمَوَالِيَّةِ الْبَشَّارِيَّةِ كَمَا نَبَيَّنَهُ بَعْدَ وَتَوْضِعُهُ فِيهِ أَدِلَّهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاللَّهُ الْمُوْفِقُ لِمَا يَحْبِبُهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَبْعُودٌ سِوَاهُ

الفصل السابع عشر

في علم المطلق

وَهُوَ قَوَانِينٌ يُعْرَفُ بِهَا الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ فِي الْحَدُودِ الْمُعْرَفَةِ لِلْمَاهِيَّاتِ وَالْجَمِيعِ الْمُفْيِدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ الْمَحْسُوسَاتُ بِالْمَوَاسِنِ الْخَمْسِ وَجَمِيعُ الْحَيَوانَاتِ مُشَرِّكَةً فِي هَذَا الْإِدْرَاكِ مِنَ الْأَطَاطِي وَغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ الْكَلِيلَاتِ وَهِيَ مُجْرَدَةٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَذَلِكَ بِأَنَّهُ يَحْصُلُ فِي الْخَيَالِ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَفَقَّةِ صُورَةٌ مَنْطَقِيَّةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمَحْسُوسَةِ وَهِيَ الْكَلِيلُ ثُمَّ يَنْظُرُ الْذَّهَنُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَفَقَّةِ وَآشْخَاصٌ أُخْرَى تَوَافِقُهُنَّ فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَقِيَّةٌ أَيْضًا عَلَيْهِمَا بِأَعْتِبَارِ مَا اتَّفَقُوا فِيهِ وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي الْتَّحْرِيدِ إِلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّاً أَخْرَى مَعَهُ يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذَلِكَ بَسِيطًا وَهَذَا مِثْلُ مَا يَعْرُدُ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْإِنْسَانِ صُورَةٌ تَنْوِيَّةٌ مَنْطَقِيَّةٌ عَلَيْهِمَا ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ

١ قوله البشّاري بنفتح الموحدة وتشدد المثنابة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته فييل آخر المحدثين

وَبَيْنَ الْحَيَوانِ وَمِنْهُ دُصُورَةُ الْجِنْسِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْهَا وَبَيْنَ النَّباتِ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِي إِلَى الْجِنْسِ الْعَالَمِي وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلَّيَاً يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقْفِتُ الْعَقْلُ هُنَالِكَ
عَنِ التَّجَرِيدِ ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا خَاقَ اللَّهَ لَهُ الْفِكْرُ الَّذِي يُهِ بُدُورِكُ الْعِلُومَ وَالصَّنَائِعَ
وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوِّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنِي بِهِ إِدْرَاكُ الْسَّازِجِ مِنْ غَيْرِ حُكْمِهِ مَعَهُ وَإِمَّا تَصَدِّيقًا
أَيْ حُكْمًا يُثْبُوتُ أَمْرًا لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تَجْمَعَ
تِلْكَ الْكَلِيلَاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جَهَةِ التَّالِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي الَّذِي هُنِّ كُلَّيَاً مُنْطَبِقَةٌ
عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الْذِهْنِيَّةُ مُفْدِدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ
وَإِمَّا بِأَنْ يُحَكَّمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيُثْبِتَ لَهُ وَيَكُونَ ذَلِكَ تَصَدِّيقًا وَغَایَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ
إِلَى التَّصَوُّرِ لَأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةٌ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى
الْعِلْمِ وَهَذَا السَّعْيُ مِنْ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ فَاسِدٍ
فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَميِيزَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْعِي بِهِ الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطَالِبِ الْعِلْمِيَّةِ لِيَتَمَيِّزَ
أَصْبَحَ مِنَ الْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونَ الْمَنْطَقِ وَتَكَلُّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوْلَى مَا تَكَلَّمُوا
بِهِ جَوَّلَ جَوَّلًا وَمُفْتَرِقاً وَلَمْ تَهْذِبْ طُرُوفُهُ وَلَمْ تَجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو
فَهَذِبَ مَبَاحِشُهُ وَرَأَبَ مَسَائِلُهُ وَفُصُولُهُ وَجَعَلَهُ أَوْلَى الْعِلُومِ الْحَكَمِيَّةَ وَفَاتَحَهَا وَلِذَلِكَ
يُسْعِي بِالْمَعْلِمِ الْأَوَّلِ وَكِتَابَهُ الْمُخْصُوصَ بِالْمَنْطَقِ يُسْعِي النَّصَّ وَهُوَ يَشْتَهِلُ عَلَى ثَمَانِيَّةٍ
كُتُبٌ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطَالِبِ التَّصَدِّيقِيَّةِ
عَلَى اِنْتَهَاءِهِ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطَلُوبُ فِيهِ الْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطَلُوبُ فِيهِ
الظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبِ فِيَنْتَظِرُ فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ الْمَطَلُوبُ الَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ مَقْدِمَاتُهُ بِذَلِكَ الْأَعْتَبَادِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنَ الظَّنِّ وَقَدْ
يَنْظَرُ فِي الْقِيَاسِ لَا بِاعتِبَارِ مَطَلُوبٍ مُخْصُوصٍ بِلْ مِنْ جَهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَةً وَيُقَالُ لِلنَّاظِرِ
الْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الْمَادَةِ وَتَنْتَهِي بِهِ الْمَادَةُ الْمُنْتَجَةُ لِلْمَطَلُوبِ الْمُخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ
أَوْ ظَنٍّ وَيُقَالُ لِلنَّاظِرِ الثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةِ وَإِنْتَاجُ الْقِيَاسِ عَلَى الْأَطْلَاقِ فَكَانَتْ
لِذَلِكَ كُتُبُ الْمَنْطَقِ ثَمَانِيَّةً . الْأَوَّلُ فِي الْأَجْنَاسِ الْعَالِيَّةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ
الْعَسُوسَاتِ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَبِسَعِ كِتَابِ الْمَقْوَلَاتِ . وَالثَّانِي فِي الْقِضايَا
التَّصَدِّيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ الْعِيَارَةِ . وَالثَّالِثُ فِي الْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

الآotropic ويسعى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة . ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج للبيتين وكيف يجب أن تكون مقدماته بقينية ويختص بشرط آخر لا فادة البيتين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو البيدين لوجوب المطابقة بين الحد وحدود لا تتعمّل غيرهما فلذلك اختص عند المتقدمين بهذا الكتاب . والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات وبختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشرط آخر من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر الموضع الذي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا . والسادس كتاب السفطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويعالج به المناظر صاحبة وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحدّر منه . والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد تزويج الجمهور وتحلّيم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات . والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والنشية خاصة للأقبال على الشيء أو النثرية عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيالية هذه هي كتب المنطق الشهانية عند المتقدمين ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهدّت الصناعة ورثّت رأوا أنه لا بد من الكلام في الـ *كتليات* الخمس المفيدة للتصور فاستدرّكوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسع وتُرجمت كلها في الملة الإسلامية وكانت بها فلسفه الإسلام بالشرح والتخيص كما فعله الفارابي وأبن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس ولابن سينا كتاب الشفاعة ستة عشر كتاب في علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا أصطلاح المنطق وأطلقوا بالنظر في الـ *كتليات* الخمس ثمرة وهي الكلام في الحدود والرسوم تقولوها من كتاب البرهان وحدّفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطق فيه بالعرض لا بالذات وأطلقوا في كتاب العبرة الكلام في العكس لأنّه من توابع الكلام في القضايا بعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاج المطالب على العموم لا يحسب مادة وحدّقو النظر فيه

بحسب المادّة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفطة وربما يلم بعضهم بالبسير منها تماماً وأغفلوها كان لم تكن هي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيها وضعوه من ذلك كلاماً مستباحاً ونظروا فيه من حيث إنّه فن برأسي لا من حيث إنّه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضى الدين الحويني وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأمصار وهو طويلاً واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بجماع الفن وأصوله فتدأله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وسجّرت كتب المتقدّمين وطرقهم كان لم تكن وهي مماثلة من ثمرة المنطق وفائدة كما قلنا والله ألمادي للصواب

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والشكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن وما يَكُونُ في الأرض من العيون والرلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام العامون وألف الناس على حدودها وأذعب من الف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجاح وفي كتاب الإشارات وكانه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلهما ويقول برأيه فيما وأما ابن رشيد فلخض كتب أرسطو وشرحها شيئاً لغير خالف وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لأن ابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذلك الأميدى وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فما في على أنظاره ومحوته وفوق كل ذي علم علم

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الْطَّبِيعَاتِ صِنَاعَةُ الْطِبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدْنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرَضُ وَيَصِحُّ فَيَحَاوِلُ صَاحِبُهَا حَنْظَ الْعِصَمَةِ وَبُزُّ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضُ الَّذِي يَخْصُّ كُلَّ عُضُوٍّ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدْنِ وَآسْبَابَ تِلْكَ الْأَمْرِ أَضْرِيَّ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنْ أَدْوِيَةٍ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَزْجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقُوَّاهَا وَعَلَى الْمَرَضِ بِالْعَلَامَاتِ الْمُؤْذِنَةِ يُنْضِجُهُ وَقُولُهُ الدَّوَاءُ أَوْلًا فِي السَّبَبِيَّةِ وَالْفَضَّلَاتِ وَالْتَّبَضِ مُخَادِيْنَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الْطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدِيرَةُ فِي حَالَتِي الْعِصَمَةِ وَالْمَرَضِ وَإِنَّهَا الْطَّبِيبُ يُعَاذِيْهَا وَيُعِينُهَا بِعَضِ الْأَشْيَاءِ يُحَسِّبُ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَةِ وَالْفَصْلِ وَالسِّنِّ وَيُسَمِّي الْعِلْمَ الْجَامِعَ لِهَذَا كُلَّهُ عِلْمَ الْطِبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الْأَعْضَاءِ بِالْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًا كَالْعِينِ وَعِلْلَاهَا وَكَذَلِكَ الْحَقُوا بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا الْمَنْتَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ كُلَّ عُضُوٍّ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدْنِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْطِبِّ إِلَّا أَنْهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كِتْبَهُ فِيهَا مِنَ الْأَفْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصَفَلِيَّةٍ فِي سَيِّلٍ تَغَابَ وَطَاؤَعَةً أَغْتَرَابٍ وَتَأْلِفَهُ فِيهَا هِيَ الْأَهَمَاتُ الَّتِي أَفْتَدَى بِهَا جَمِيعَ الْأَطْبَاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَئْمَةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ الْغَایَةِ مِثْلَ الرَّازِيِّ وَالْأَعْجُوشِيِّ وَابْنِ سِينَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْأَندَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمُ ابْنُ زُهْرَةِ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمَدْنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَنَّهَا نَقَصَتْ لِوقُوفِ الْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنِ الْصِنَاعَمِ الَّتِي لَا تَسْتَدِعُهَا إِلَّا الْخِفَاظَةُ وَالْتَّرَفُ كَمَا نَيَّنَهُ بَعْدَهُ وَالْبَادِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمْرَانِ طِبُّ بَيْنُونَهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجْرِيَةِ فَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَارِثًا عَنْ مَشَائِخِ الْمُجَتَّمِ وَمَجَائزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ الْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونِ طَبِيعَيِّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الْمِرَاجِ وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الْطِبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطْبَاءٌ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَبَرِهِ وَالْطِبُّ الْمَنْقُولُ فِي الْشَّرِعَيَّاتِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذِكْرُ أَخْوَالِ النَّبَيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعٍ ذِكْرُ أَخْوَالِهِ الَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِيلَةٌ لَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ الْتَّحْوِي مِنْ الْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بَعَثَ لِيَعْلَمَنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبَعِّثْ لِتَعْرِيفِ الْطَّبِيبِ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادِيَاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَانِ تَلْقِيَحٍ الْتَّخْلِي مَا وَقَعَ فَقَالَ أَتَمْ أَعْلَمُ بِأَمْوَالِ دُنْيَا كُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَ شَيْءًا مِنَ الْطَّبِيبِ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْلُلُ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا أَسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ الْبَرْكَةِ وَصِدْقِ الْعَقْدِ الْإِيمَانِ فَيَكُونُ لَهُ أَثْرٌ عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْطَّبِيبِ الْمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثارِ الْكِلَمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَّاواةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسْلِ وَاللَّهُ أَهْدَى إِلَى الصَّوَابِ لَأَرَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرَوْعَ الْطَّبِيعَاتِ وَهِيَ الْنَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَتُ وَنُشُوَّهُ بِالسَّقِيِّ وَالْعِلاَجِ وَتَعْهِدُ بِعِيشَلِ ذَلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقْدِمِينَ بِهَا عِنَادَةً كَثِيرَةً وَكَانَ الْنَّظَرُ فِيهَا عِنْدُهُمْ عَامًا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِهِ وَرُوْحَانِيَّتِهِ وَمُشَائِكِهَا رُوْحَانِيَّاتُ الْكَوَاكِبِ وَأَهْمَى كُلِّ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السِّخْرِيِّ فَعَظُمَتْ عِنَادِيَّتُهُمْ يَهْ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَتَرْجِمَ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابَ الْفِلَاحَةِ الْبَطِيَّةِ مَتَسُوْبَةً لِعِلْمِ الْعُلَمَاءِ الْبَطِيطِ مُشَتَّمَةً مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمِهِ كَبِيرٌ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السِّخْرِيِّ مَسْدُودًا وَالْنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الْكِلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَلِأَجْهِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَذَفُوا الْكِلَامَ فِي الْفَنِ الْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَأَخْتَصَرَ أَبْنُ الْعَوَامِ كِتَابَ الْفِلَاحَةِ الْبَطِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ وَبَقَى الْفَنُ الْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةً فِي كِتْبِهِ الْسِّخْرِيَّةِ أَعْمَالَ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَرَ كُرُوهُ عِنْدَ الْكِلَامِ عَلَى السِّخْرِيِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكُتُبُ الْمُنَتَّأْخِرِينَ فِي الْفِلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكِلَامَ فِي الْفِرَاسِ وَالْعِلاَجِ وَحِفْظِ النَّبَاتِ مِنْ حَوَائِجهِ وَعَوَائِقهِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فاؤلاً في الأمور العامة للجنسانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثافة والوجود والإمكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودتها إلى المبدأ وهو عندم علم شريف يزعمون أنه يوقيهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وأن ذلك عين السعادة في زغميم وسيأتي الرد عليهم وهو تالي للطبيعتين في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الأول فيه وجودة بين أيدي الناس وشخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وكذلك لخصة ابن رشيد من حكماء الأندلس ولما وضع المتأخرة في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالى ما رد منها ثم خلط المتأخرة من المتكلمين مسائل علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها قن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعتين والإلهيات وخلطوهما فـ واحداً قدموه الكلام في الأمور العامة ثم اتبعوه بالجنسانيات وتراها ثم بالروحانيات وتوابيعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشربية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطًا بمسائل الحكمة وكتبه مختشة بها كان الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو صواب لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعویل عليه يمعنى أنها لا تثبت إلا به فإن العقل معزول عن الشرع وانظاره وما تحدث فيه المشكلون من إقامة الجحج فليس بمحض عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجية عقلية تضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبهة أهل البدع عنهم الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحة بالادلة التالية كما تلقاها السلف وأعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية

فَهِيَ فَوْقَهَا وَنُحْيِطَةٌ بِهَا لِأَسْتِمْدَادِهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْأَلِهَيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونَ النَّظَرِ
 الْأَضْعَيفِ وَالْمَدَارِكِ الْحَعَاطِ بِهَا فَإِذَا هَدَانَا الشَّارِعُ إِلَى مُدَارِكٍ فَيَبْغِي أَنْ تُقْدِمَهُ عَلَى
 مَدَارِكِنَا وَتَشَقَّ بِهِ دُونَهَا وَلَا تَنْظَرَ فِي تَصْفِيَّجِهِ يَمْدَارِكِ الْعُقْلِ وَلَوْ عَارِضَهُ بَلْ نَعْتَمِدُ مَا
 أَمْرَنَا بِهِ أَعْتَادَهُ وَعَلَمَنَا وَنَكِنْتُ عَمَّا لَمْ نَتَهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَنَفْوِضُهُ إِلَى الشَّارِعِ وَنَعْزِلُ
 الْعُقْلَ عَنْهُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَلَامٌ أَهْلِ الْأَهْلَادِ فِي مُعَارَضَاتِ
 الْعَقَائِدِ السَّلْفِيَّةِ بِالْبَدْعِ النَّظَرِيَّةِ فَأَخْتَاجُوا إِلَى الْوَرَدِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ
 وَأَسْتَدِعِي ذَلِكَ الْجُمْجُعَ النَّظَرِيَّةَ وَخُوازَةَ الْعَقَائِدِ السَّلْفِيَّةِ بِهَا وَأَمَا النَّظَرُ فِي مَسَائلِ
 الْطَّبِيعَاتِ وَالْأِلَهَيَّاتِ بِالْتَّصْحِيحِ وَالْبُطْلَانِ فَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ
 أَنْظَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَآعْلَمُ ذَلِكَ اتَّهِيَّزَ بِهِ بَيْنَ الْفَنِينِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَلِطَانِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ
 فِي الْوَضْعِ وَالْتَّأْلِيفِ وَالْحَقِّ مُغَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالْمَسَائلِ وَإِنَّمَا
 جَاءَ الْأَنْتِسَاسُ مِنْ اتَّهَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْأَسْتِدْلَالِ وَصَارَ احْتِجاجُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَانَهُ
 إِنْشَاءٌ لِطَلْبِ الْأَعْتَدَادِ بِالْدَلِيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَالْمَطَلُوبُ
 مَفْرُوضٌ أَبْصِدَقُ مَعْلُومَهُ وَكَذَا جَاءَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ غُلَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ
 بِالْمَوَاجِدِ أَيْضًا فَخَلَطُوا مَسَائِلَ الْفَنِينِ بِفَنِيهِمْ وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاحِدًا فِيهَا كُلُّهَا مِثْلَ
 كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوَّاتِ وَالْأَتْحَادِ وَالْحَلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْمَدَارِكِ فِي هَذِهِ
 الْأَفْنُونِ الْثَلَاثَةِ مُتَغَايِرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَابْعُدُهَا مِنْ جِنْسِ الْفَنِونِ وَالْعِلُومِ مَدَارِكُ الْمُتَصَوِّفَةِ
 لَأَنَّهُمْ بَدَعُونَ فِيهَا الْوِجْدَانَ وَيَفِرُونَ عَنِ الدَلِيلِ وَالْوِجْدَانُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَدَارِكِ
 الْعُلْمِيَّةِ وَأَبْحَاثُهَا وَتَوَاعِيَهَا كَمَا يَبَأُهُ وَنَبِيَّهُ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ
 وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عِلُومٌ يَكِيفِيهَا أَسْتِعَدَادَاتٌ تَقْتَدِرُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ بِهَا عَلَى الْتَأْثِيرَاتِ فِي عَالَمِ
 الْعَنَاصِيرِ إِمَّا بِغَيْرِ مُعْنَى أَوْ بِمُعْنَى مِنَ الْأَمْرِ السَّمَاوَيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السُّحُورُ وَالثَّانِي هُوَ
 الْطَّلَسَمَاتُ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعِلُومُ مَهْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ وَمَا يُشَرِّطُ
 فِيهَا مِنَ الْوِجْهَةِ إِلَى غَيْرِ اللهِ مِنْ كَوْكِبٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا كَالْمَفْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ

إِلَّا مَا وُجِدَ فِي كُتُبِ الْأَمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبْلَ نُبُوَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِيِّ
وَالْكَلَدَانِيَّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَقْدَمَهُ مِنَ الْأَنْسِيَاءِ لَمْ يَشْرِعُوا الشَّرَائِعَ وَلَا جَاهُوا بِالْحُكُمِ
إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظٌ وَتَوْحِيدًا لِلَّهِ وَتَذْكِيرًا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعِلُومُ
فِي أَهْلِ بَابِ مِنَ السَّرِيَانِيَّينَ وَالْكَلَدَانِيَّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرٍ مِنَ الْقِبْطِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ
لَهُمْ فِيهَا التَّأْلِيفُ وَالْأَثَارُ وَلَمْ يُتَرَجِّمْ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلُ الْفِلَاحَةِ
الْبَطَيْهَةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِ فَأَخْذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ وَتَفَنَّوْا فِيهِ وَوُضِعَتْ بَعْدَ
ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ مِثْلُ مَصَاحِفِ الْكُوَاكِبِ الْسَّبْعَةِ وَكِتَابِ طِمْنَطِ الْهَنْدِيِّ فِي صُورِ
الْدَّرَجِ وَالْكُوَاكِبِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِالْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ كَبِيرُ الْسَّحْرَةِ فِي هَذِهِ
الْمِلَةِ فَتَصْنَعُ كُتُبَ الْقَوْمِ وَأَسْتَخْرَجُ الصِّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي زِيَّدَتِهَا وَأَسْفَرَ جَهَّاً وَوَضَعَ فِيهَا
غَيْرَهَا مِنَ التَّأْلِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صَنَاعَةِ الْسَّيْمِيَّاءِ لِأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لِأَنَّ
إِحَالَةَ الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةِ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصِّنَاعَةِ
الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبْلِ الْسَّحْرِ كَمَا نَذَرَ كُرُوهُ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ جَاءَ مُسْلِمَةُ بْنُ أَخْمَدَ
الْمَعْجَرِ يَطِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي الْتَّعَالِيمِ وَالْسَّحْرِيَّاتِ فَلَخَصَ جَمِيعَ تَلْكَ كُتُبِ
وَهَذِهِهَا وَجَمِيعَ طُرُوفَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمِّيَ عَيْنَةُ الْحَكَمِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي هَذَا
الْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلَنَقْدِمْ هُنَّا مُقْدَمَةً يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ الْسَّحْرِ وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ
وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِي مُخْتَلَفَةٌ بِالْخَوَاصِ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صَنْفٍ مُخْتَصٌ
بِخَاصَيْهِ وَاحِدَةٌ بِالنَّوْعِ لَا تُوجَدُ فِي الصَّنْفِ الْآخَرِ وَصَارَتْ تَلْكَ الْخَوَاصُ فِطْرَةً وَجِيلَةً
لَصَنْفِهَا فَنُفُوسُ الْأَنْسِيَاءِ عَلَيْهِمُ الْأَصْلَةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصَيْهُ تَسْتَعِدُ بِهَا لِلْمَعْرُوفَةِ الْبَيَانِيَّةِ
وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ وَمَا يَتَسْعَ فِي ذَلِكَ
مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَأَسْتَعْلَمُ رُوحَانِيَّةِ الْكُوَاكِبِ لِلتَّصْرِيفِ فِيهَا التَّأْثِيرُ
بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ فَإِنَّمَا تَأْثِيرُ الْأَنْسِيَاءِ فَمَدِدٌ إِلَيْهِ وَخَاصَيْهُ رَبَانِيَّةٌ وَنُفُوسُ
الْكَمَنَةِ لَهَا خَاصَيْهُ الْأَطْلَاعُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ يَقُوَّى شَيْطَانِيَّةً وَهَذِهِ كُلُّ صَنْفٍ
مُخْتَصٌ بِخَاصَيْهِ لَا تُوجَدُ فِي الْآخَرِ وَالنُّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَوَانِتِ ثَلَاثٍ بِأَنَّهُ شَرِحُهَا
فَأَوْلَاهَا الْمُؤْثِرَةُ بِالْهُمَّةِ فَقَطَّ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْفَلَاسِفَةُ
الْسَّاحِرُ وَالثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مِزَاجِ الْأَفْلَاكِ أَوِ الْعَنَادِيرِ أَوْ خَوَاصِ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ

الظَّلَمَاتِ وَهُوَ أَضَفُّ رُتبَةً مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَابِرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَغَيِّلَةِ يَعْمَدُ صَاحِبُ
 هَذَا الْتَّابِرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَغَيِّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا
 مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْحُمَاكَاتِ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْزِلُهَا إِلَى الْحَسْنِ مِنَ الْرَّائِينَ
 يَقُوَّةً تَقْسِيَهُ الْمُؤْمِنَةَ فِيهِ فَيَنْظُرُ إِلَّا وَهُنَّ كَانُوهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنُّكُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا
 يُعْكِسُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرِي الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنُّكُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَيُسَمِّي
 هَذَا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ الشَّعْوَذَةَ أَوَ الشَّعْبَدَةَ . هَذَا تَقْصِيلُ مَرَاتِيهِ ثُمَّ هُذُو أَخْتَاصِيَّةُ تَكُونُ
 فِي السَّاحِرِ بِالْفُوْقَةِ شَانَ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةَ كُلُّهَا وَإِنَّمَا تَغْرِي بِإِلَيْهِ الْفِعْلِ يَلْرِيَاضَةً وَرِيَاضَةً
 الْسَّيْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالْتَّوْجِهِ إِلَى الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَافِرِ وَالْعَوَالِمِ الْعَلَوِيَّةِ وَالشَّيَاطِينِ
 بِإِنْوَاعِ الْتَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالْتَّذَلِلِ فِي ذَلِكَ وِجْهَهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَمُجْهُودُ
 لَهُ وَالْتَّوْجِهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفُرٌ فَلِهُذَا كَانَ السَّيْرُ كُفْرًا وَالْمَكْفُرُ مِنْ مَوَادِهِ وَأَمْبَابِهِ
 كَمَا رَأَيْتَ وَلِهُذَا أَخْتَلَفَ الْفُقَاهَةُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ لِكُفْرِهِ السَّابِقُ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِتَصَرُّفِهِ
 بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَا عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْمَكَلِ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتْ
 الْمَرْتَبَاتِانِ الْأَوَّلَيَّانِ مِنَ السَّيْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ الْآخِيرَةُ الْثَالِثَةُ لَا حَقِيقَةَ
 لَهَا أَخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَسْتَهْرٍ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَغْيِيلٌ فَالْقَاتِلُونَ بِأَنَّهُ حَقِيقَةَ
 نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتِيْنِ الْأَوَّلَيَّيْنِ وَالْقَاتِلُونَ بِأَنَّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الْثَالِثَةِ
 الْآخِيرَةِ فَلَيْسَ بِيَهُمْ أَخْتِلَافٌ فِي تَقْسِيسِ الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ أَشْتَبَاهِهِ هُذُو
 الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ وُجُودَ السَّيْرِ لَا مُرْبَةٌ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ الْتَّابِرِ
 الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكُمُ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ
 النَّاسَ السَّيْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَالَكَيْنِ بِيَابِلَ هَارُوتَ وَمَا يُعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ
 حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَغْرِبُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءَ وَزَوْجِهِ
 وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَسُحْرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى
 كَانَ يُغْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعُلُ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعُلُهُ وَجَعَلَ سِحْرَهُ فِي مِسْطِي وَمُشَاقَّةٍ وَجَعَلَ طَلْعَةَ
 قَدْفِنَ فِي بَثَرِ ذِرْ وَانَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمُعْوَذَتِيْنِ وَمِنْ شَرِّ الْفَنَادِيْتِ فِي
 الْعُقْدِ قَالَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقْدِ الَّتِي سُحْرَ فِيهَا
 إِلَّا أَنْحَلَتْ وَمَا وُجُودُ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمُ الْكَلَدَانِيُّونَ مِنَ النَّبَطِ وَالسِّرِّيَّانِيُّونَ

فَكَيْفَ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلسِّحْرِ فِي بَابِ وَمِصْرِ أَزْمَانَ بَعْدَهُ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَاقُ نَافِقَةٍ وَلِهُذَا كَانَتْ مُعْجِزَةً مُوسَى مِنْ جِنْسِ مَا يَدْعُونَ وَبَتَّاغُونَ
 فِيهِ وَبَقَيَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَارِيِّ بِصَعْدَيِّ مِصْرَ شَوَاهِدُ دَالَّةٍ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعَيْنِ
 مِنْ بُصُورٍ صُورَةً اَلْمَشْحُورِ بِخَوَاصِ اَشْيَاءٍ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مَوْجُودٌ فِي
 بِالْمَسْحُورِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ أَمْيَاءٍ وَصَنَافَاتٍ فِي النَّالِيفِ وَالتَّفَرِيقِ تَكَلَّمُ
 عَلَى ذَلِكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ اَشْتَهِيَّ
 بَعْدَ اَجْتِمَاعِهِ فِيهِ بَتَّكَرِيرٍ مُخَارِجٍ ذَلِكَ الْحَرُوفُ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى
 ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سَبَبِ اَعْدَهُ لِذَلِكَ تَفَاؤلًا بِالْعَقْدِ وَالْلِزَامِ وَأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَى مَنْ اَشْرَكَ
 يَهُ مِنَ الْجِنِّ فِي نَفْثِهِ فِي فَعْلِهِ ذَلِكَ اَسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزَمِ وَلِتِلْكَ الْبَنَى وَالْآمِيَاءِ
 اَسْلَيْتَهُ رُوحَ خَبِيشَةٍ مُخَرِّجٍ مِنْهُ مَعَ النَّفَرِ مُتَعَلِّقَةً بِرِيقِهِ اَخْتَارِجَ مِنْ فِيهِ بِالنَّفَثِ فَتَنْزِلُ
 عَنْهَا اَرْوَاحُ خَبِيشَةٍ وَيَقُولُ عَنْ ذَلِكَ يَاَلْمَسْحُورِ مَا يَحَاوِلُهُ اَسَاحِرُ وَشَاهَدْنَا اِنْضَامِتْ
 اَلْمُنْتَهَلِينَ لِلسِّحْرِ وَعَمِيلِهِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءِ اَوْ جِلْدِهِ وَبِهِ كَلَمٌ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ فَإِذَا
 هُوَ مَقْطُوعٌ مُخَرِّقٌ وَيُشِيرُ إِلَى بُطُونِ الْفَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيْهَا بِالْتَّغْيِيرِ فَإِذَا اَمْتَأْوَهَا سَاقِطَةً
 مِنْ بُطُونِهَا إِلَى الْاَرْضِ وَسَمِعْنَا اَنَّ بِاَرْضِ الْهِنْدِ لِهُذَا الْعَهْدِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى اِنْسَانٍ فَيَنْتَهِ
 قَلْبُهُ وَيَقْعُدُ مِيتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِي حَشَاءٍ وَيُشِيرُ إِلَى اَرْثَمَائِةٍ وَنَفْتَحُهُ فَلَا
 يُوجَدُ مِنْ حُبُوبِهَا شَيْءٌ وَكَذَلِكَ سَمِعْنَا اَنَّ بِاَرْضِ اَلْسُودَانِ وَبِاَرْضِ الْتُرْكِ مَنْ يَسْحَرُ
 اَسْحَابَ فَيُمْطِرُ اَلْاَرْضَ اَلْمُخْصُوصَةَ وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الظِّلَّسَاتِ عَجَائِبَ فِي
 اَلْاَعْدَادِ اَلْمُتَحَاكِةِ وَهِيَ رُكْرُفَدُ اَحَدِ الْعَدَدَيْنِ مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخَرُ مِائَتَانَ
 وَأَرْبَعَةُ وَتَمَائُونَ وَمَعْنَى اَلْمُتَحَاكِةِ اَنَّ اَجْزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ اَتِيَ فِيهِ مِنْ نِصْفٍ وَثُلُثٍ
 وَرُبْعٍ وَسُدُسٍ وَخُمْسٍ وَامْتَهِنَاهَا اِذَا جُمِعَ كَانَ مُتَسَاوِيًّا لِلْعَدَدِ الْآخِرِ صَاحِبِهِ فَقُسْمَى
 لِاَجْلِ ذَلِكَ اَلْمُتَحَاكِةِ وَنَقَلَ اَصْحَابُ الظِّلَّسَاتِ اَنَّ لِتِلْكَ الْاَعْدَادِ اَثْرًا فِي الْاِلْفَةِ بَيْنَ
 اَلْمُتَحَاكِيَنِ وَاجْتِمَاعِهِمَا اِذَا وُضِعَ لَهُمَا مِثَالَانِ اَحَدُهُمَا يَطَالِعُ اَلْهَرَةَ وَهِيَ فِي يَسِيْرِهَا اَذْ
 شَرَفِهَا نَاظِرَةٌ اِلَى الْقَمَرِ نَظَرٌ مَوَدَّةٌ وَقَبُولٌ وَيَجْعَلُ طَالِعَ اَثَانِي سَابِعَ الْاَوَّلِ وَيَضْعَفُ عَلَى
 اَحَدِ التَّمَثَالَيْنِ اَحَدِ الْعَدَدَيْنِ وَالْآخَرَ عَلَى الْآخَرِ وَيَقْصُدُ بِالْاَكْثَرِ الَّذِي يُرَادُ
 اَشْتِلَافُهُ اَغْنِيَ اَلْمُحْبُوبَ مَا اَدْرِي اَلْا كَثُرَ كَمِيَّةُ اَوْ اَلْا كَثُرَ اَجْزَاءٌ فَيَكُونُ لِذَلِكَ

من النّالِف العظيم بين المُتَحَلِّين مَا لا يَكَادُ يَنْكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخِرِ فَاللهُ صَاحِبُ
الْفَاتِيَة وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّاءِ وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَزِيرَةُ وَكَذَا طَابَ الْأَسْدُ وَيُسَعِ
أَيْضًا طَابَ الْحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَلْبِ هَذِهِ اصْبَعِ صُورَةً أَسْدٍ شَائِلًا ذَنْبَهُ عَانِيَةً عَلَى
حَصَاءٍ فَدَ قَسَمَهَا بِنِصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدِيهِ صُورَةُ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجَالِهِ إِلَى قُبَّالَةِ وَجْهِهِ
فَاغْرَأَهَا فِيهِ وَعَلَى ظَاهِرِهِ صُورَةُ عَقَرَبٍ تَدْبُّرٌ وَيَتَجَيَّنُ بِرَسْمِهِ حُلُولَ الشَّمْسِ يَا لَوْجِهِ
الْأَوَّلِ أَوِ الْثَّالِثِ مِنْ الْأَسْدِ يُشَرِّطُ صَلَاحَ النَّوَافِنِ وَسَلَامَتِهِمَا مِنْ النَّحُوسِ فَإِذَا
وَجَدَ ذَلِكَ وَعَنْرَ عَلَيْهِ طَبِيعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ الْمِتَقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ الْذَّهَبِ
وَغُمْسَ بَعْدُ فِي الْزَّعْفَرَانِ سَحْلَوْلًا بِمَاءِ الْوَرْدِ وَرُفْعَ فِي خِرْقَةِ حَرَيرٍ صَفَرَاءً فَإِنَّهُمْ يَزْعَمُونَ
أَنَّ لِمُسْكِكِهِ مِنَ الْعَزِّ عَلَى السَّلَاطِينِ فِي مُبَاشِرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لَا
يَبْعِرُ وَكَذِلِكَ لِلسلَاطِينِ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعَزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذَلِكَ
أَيْضًا أَهْلُ هَذَا الشَّاءِ فِي الْفَاتِيَةِ وَغَيْرُهَا وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَزِيرَةُ وَكَذِلِكَ وَفِقْ الْمُسَدَّسِ
أَنْ تُخْتَصِنَ يَا لَشَمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ فِي شَرْفِهِ وَسَلَامَتِهَا
مِنَ النَّحُوسِ وَسَلَامَةُ الْقَمَرِ بِطَالِعِ مُلُوكِيَّ يُعْتَبِرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ الْعَاشرِ لِصَاحِبِ
الظَّالِمِ نَظَرَ مَوَدَّةٍ وَقُبُولٍ وَيَصْلُحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ الْمُلُوكِ مِنْ الْأَدَلَّةِ
الشَّرِيفَةِ وَرُفْعَ فِي خِرْقَةِ حَرَيرٍ صَفَرَاءً بَعْدَ أَنْ يُغَمِّسَ فِي الْطَّيْبِ فَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ أَثْرًا فِي
صَحَابَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُبَاشِرَتِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ الْفَاتِيَةِ لِمُسَلَّمَةَ بْنِ
أَخْمَدَ الْمُجْرِيِّطِيِّ هُوَ مَدْوَنَهُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَفِيهِ أَسْتِيقَاؤُهَا وَكَمَالُ مَسَائِلَهَا وَذَكَرَ لَنَا
أَنَّ الْإِمَامَ الْفَخْرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَمَهَاهُ بِالسِّرِّ الْمَكْتُومِ وَأَنَّهُ
بِالْمَشْرِقِ يَتَدَالَّهُ أَهْلُهُ وَنَحْنُ لَمْ نَقْفَ عَيْنَهُ وَالْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّاءِ
فِيمَا نَظَنَ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ يَخْلَافُ ذَلِكَ وَبِالْمَغْرِبِ صِنْفٌ مِنْ هُولَاءِ الْمُتَحَلِّينَ لِهَذِهِ
الْأَعْمَالِ السِّحْرِيَّةِ يَعْرَفُونَ بِالْبَعَاجِينَ وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوْلَأَ أَنَّهُمْ يُشَيرُونَ إِلَى
الْكِسَاءِ أَوِ الْجَلْدِ فِيَتَخَرَّقُ وَيُشَيرُونَ إِلَى يُطْوِنِ الْفَنَمِ بِالْبَعَاجِ فَتَتَبَعَجُ وَيُسَمِّي أَحَدُهُمْ
هَذَا الْعَهْدِ بِأَنَّمِ الْبَعَاجَ لَأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَهِلُ مِنْ السِّحْرِ بَعْجُ الْأَنْعَامِ يُوَهِبُ بِذَلِكَ
أَهْلَهَا يُعْطُوهُ مِنْ فَضَالَاهَا وَهُمْ مُسْتَأْذِنُونَ بِذَلِكَ فِي الْفَاتِيَةِ خَوْفًا عَلَى أَنْقُسْهُمْ مِنْ الْحُكَّامِ
لَقِيتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً وَشَاهَدْتُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وِجْهَةً وَرِيَاضَةً

خاصةً يدعواته كفرية وإشراله الروحانيات الجن والشكواكب سُطّرت فيها صحيحةً
 عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وإنهم بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه
 الأفعال لهم وإن الناشير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحز من المتع
 والحياة وإنها فرقية ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفع في ما تمشي فيه الدراهم أي ما
 يملكون ويساع ويستتر من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فأخبرني
 به وإنما أفعالهم ظاهرة موجودة وقفت على الشكير منها وعابتها من غير ريبة في
 ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وأثارهما في العالم فاما الفلسفه ففرقوا بين
 السحر والطلسمات بعد أن اثبتوا أنهم جميعاً أثراً للنفس الإنسانية وأسئلوا على
 وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه
 الجسمانية بل آثار عارضة من كفيفات الأرواح تارة كالشخونة الحادثة عن الفرح
 والسرور ومن جهة النصوات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فإن
 الماشي على حرف حائط أو على جبل منه صب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا
 شك وهذا تجده كثيراً من الناس يعودون أنفسهم بذلك حتى يذهب عنهم هذا التوهم
 فتجدهم يمشون على حرف الحائط وأجلب المتصب ولا يخالفون السقوط فثبت أن
 ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل التوهم وإذا كان ذلك
 أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها
 مثل هذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من الناشير
 واحدة لأنها غير حالة في البدن ولا منطورة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام
 وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى
 معيين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الشكواكب وأسرار الأعداد وخواص
 الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم الغايات كما يقوله المتعجبون ويقولون
 السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعنى ذلك أنهم يربط الطائع
 العلوية السمائية بالطائع السفلية والطائع العلوية هي روحانيات الشكواكب
 ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالتجاة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره
 بل هو مقتطع عندهم على تلك الجهة المختصة بذلك النوع من الناشير والفرق عندهم

بين المُعجزة والسحر أن المُعجزة قوَّةٌ هبَّةٌ تبعثُ على النَّفَسِ ذلكَ النَّاثِرِ فهوَ مُؤيدٌ
 بِرُوحِ اللهِ عَلَى فِعلِهِ ذلكَ الساحِرُ إنَّمَا يَفعُلُ ذلكَ من لَدُنِ نَفْسِهِ وَيَقوِيهِ النَّفَاسِيَّةُ
 وبِإِمْدادِ الشَّيَاطِينِ في بعض الْأَحوالِ فِيهِمَا الفَرقُ فِي الْمُقْوِلَيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ
 فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ مُخْنَعًا عَلَى التَّفْرِيقِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ الْمُعْجِزَةِ
 لصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ الْمُتَّهِجَّةِ لِلْخَيْرِ وَالْتَّعْدِيَّ بِهَا عَلَى دَعْوَى
 النَّبُوَّةِ وَالسُّهْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنْ الْتَّفْرِيقِ بَيْنَ
 الْأَزْوَاجِينِ وَمُثَرِّ الْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلِلنُّفُوسِ الْمُتَّهِجَّةِ لِلشَّرِّ . هَذَا هُوَ الْفَرقُ يَسِّهُمَا
 عِنْدَ الْحُكْمِ كَمَا أَلَّا يَهْيَنَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبعضِ الْمُتَّصَوِّفَةِ وَاصْحَابِ الْكَرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا
 فِي أَخْوَالِ الْعَالَمِ وَلَيَسَ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ السُّهْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِإِمْدادِ الْأَلَّاهِيِّ لَأَنَّ طَرِيقَهُمْ
 وَمُغْلَظَتِهِمْ مِنْ آثارِ النَّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَآهُمْ فِي الْمَدَدِ الْأَلَّاهِيِّ حِفْظٌ عَلَى قَدَرِ حَامِلِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ
 وَتَسْكِيْمِهِمْ بِكَلِمَاتِ اللهِ وَإِذَا أَفْتَدَ أَحَدَهُمْ عَلَى أَفْعَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لَآنَهُ مُتَقِيدٌ فِيمَا
 يَأْتِيهِ بِذَرَّةٍ لِلْأَمْرِ الْأَلَّاهِيِّ فَمَا لَا يَقْعُدُ لَهُ فِي الْإِذْنِ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهٍ وَمَنْ أَنَّهُ مِنْهُمْ فَقَدْ
 عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَةً وَلَمَّا كَانَتِ الْمُعْجِزَةُ بِإِمْدادِ رُوحِ اللهِ وَالْقُوَّى
 الْأَلَّاهِيَّةِ فَلِذَلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنْ السُّهْرِ وَأَنْظُرْ شَأْنَ سَحْرَةَ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي
 مُعْجِزَةِ الْعَصَمَى كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَا فِيكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَأَخْتَلَ كُلُّ مَا يَكُونُ
 وَكَذَلِكَ لَمَّا أُنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُعْوَذَتَيْنِ وَمَنْ شَرَّ النَّفَاثَاتِ فِي
 الْعُقْدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةِ مِنَ الْعُقْدِ الَّتِي سُحْرَ فِيهَا
 إِلَّا آتَهَا فَالسِّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ أَسْمَ اللهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤْرِخُونَ أَنَّ زَرْ كَشَّ
 كَاوِيَانَ وَهِيَ رَأْيَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا الْوَقْتُ الْمُشَبِّثُ الْعَدَدِيُّ مُنسُجًا بِالْذَّهَبِ فِي أَوْضَاعِ
 فَلَكِيَّةِ رُصِدَتْ لِذَلِكَ الْوَقْتِ وَوُجِدتِ الرَّأْيَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسُمُ الْقَادِيسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى
 الْأَرْضِ بَعْدَ انتِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَّاهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزَعَّمُ أَهْلُ الطِّلَسمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ
 مُغْصُوصٌ بِالْقَلْبِ فِي الْمُغْرُوبِ وَأَنَّ الرَّأْيَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا
 أَنْ هَذِهِ عَارِضَهَا الْمَدَدُ الْأَلَّاهِيُّ مِنْ إِيمَانِ اصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَتَسْكِيْمِهِمْ بِكَلِمَةِ اللهِ فَأَنْتَلُ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَفْرُقْ بَيْنَ السِّحْرِ وَالْطِّلَسمَاتِ وَجَعَلَتْ كُلُّ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لأنَّ الْأَفْعَالَ إِنَّمَا أَبَاحَ لَنَا الشَّارِعُ مِنْهَا مَا يُهْمِنُنَا فِي دِينِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ آخِرُنَا
 أَوْ فِي مَعَاشِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ دِينِنَا وَمَا لَا يُهْمِنُنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ
 أَوْ نَوْعٌ ضَرَرٌ كَالسِّحْرِ الْمُحَاصلِ ضَرَرٌ بِالْوُقُوعِ وَيُلْحِقُ بِهِ الظِّلْسَمَاتُ لَأَنَّ أَثْرَهُمَا وَاحِدٌ
 وَكَالنِّجَامَةِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ ضَرَرٌ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فَتَفْسُدُ الْعِقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِرِدَّ الْأَمْرِ
 إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَبَكُونُ حِينَئِذٍ ذَلِكَ الْفَعْلُ مُخْطُورًا عَلَى نِسَابِهِ فِي الْفَسَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا
 عَلَيْنَا وَلَا فِيهِ ضَرَرٌ فَلَا أَقْلَ منْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَإِنْ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكَهُ
 مَا لَا يَعْنِيهِ بِجَمِيلِ الْشَّرِيعَةِ بَابَ السِّحْرِ وَالظِّلْسَمَاتِ وَالشَّعُوذَةِ بَابًا وَاحِدًا لِمَا فِيهَا مِنْ
 الْفَسَرِ وَخَصَّتُهُ بِالْحَذْرِ وَالتَّحْرِيمِ وَأَمَّا الْفَرقُ عِنْهُمْ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ فَالَّذِي
 ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحْدِيدِ وَهُوَ دَعْوَى وَقُوَّعَهَا عَلَى وَقْتِ مَا أَدْعَاهُ
 قَالُوا وَالسَّاحِرُ مَصْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّحْدِيدِ فَلَا يَقْعُدُ مِنْهُ وَوَقْعُ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَقْتِ
 دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرِ مَقْدُورٍ لَأَنَّ دَلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الْأَعْدِقِ عَقْلِيَّةً لَأَنَّ صَفَةَ نَفْسِهَا
 الْتَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكَاذِبِ لَا سُنْحَالَ الصَّادِقُ كَاذِبًا وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذَا لَا تَقْعُدُ
 الْمُعْجِزَةُ مَعَ الْكَاذِبِ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا الْحُكْمَاءُ فَالْفَرقُ بَيْنَهُمَا عِنْهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
 فَرَقٌ مَا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نِهايَةِ الْطَّرَفَيْنِ فَالسَّاحِرُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ أَخْيَرُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ
 فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَصَاحِبُ الْمُعْجِزَةِ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الْشَّرِّ
 وَكَانُهُمَا عَلَى طَرَقِ النَّقِيضِ فِي أَصْلِ فَطْرَتِهِمَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ لِرَبِّ سِوَاءٍ وَمَنْ قَبِيلُ هَذِهِ التَّأْثِيرَاتِ الْنَّفْسِيَّةِ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ وَهُوَ تَأْثِيرُ
 مِنْ نَفْسِ الْمُعْيَانِ عِنْهُمَا يَسْتَخِسِنُ بِعِينِهِ مُدْرَكًا مِنَ الْذَّوَاتِ أَوِ الْأَحْوَالِ وَيُنْفِرُ طَبِّيَّ
 أَسْتِخْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْأَسْتِخْسَانِ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَرُؤُمُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّا
 أَنْصَفَ بِهِ فَيُؤْثِرُ فَسَادُهُ وَهُوَ جِلْهٌ فِطْرِيَّةٌ أَغْنِيَ هَذِهِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ وَالْفَرقُ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَ التَّأْثِيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يُكَسِّبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى أَخْتِيارِ فَاعِلِهَا
 وَالْفِطْرِيَّ مِنْهَا قُوَّةٌ صُدُورُهَا وَلِهَذَا قَالُوا الْقَاتِلُ بِالسِّحْرِ أَوْ بِالْكُرْأَمَةِ يُقتلُ وَالْقَاتِلُ
 بِالْعَيْنِ لَا يُقتلُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ بَرَزَ كُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُرٌ
 فِي صُدُورِهِ عَنْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْغَيْبِ وَمُطْلِعٌ عَلَى مَا فِي السَّرَّاَتِ

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصنّعون المُسكونات كلها بعد معرفة أجزتها وقوامها عليهم يعترفون على المادة المستعدة لذلك حتى من العضلات الحيوانية كالنظام وألياف والبيض والعدّارات فضلاً عن المعادن ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزاءها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وتجدد الأذائب منها بالتكلبس وإهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمر بالنار فيعود ذهبًا إبريزًا ويكون عن ذلك الإكسير إذا أفرزوا في أصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد فشرح هذه الأصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يكتفون فيها قديماً وحديثاً وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها وإنما العذونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر والله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطفراء من حكماء المشيقي المتأخرين له فيها دوافين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة العجريطي من حكماء الاندلس كتابة الذي سماه رتبة الحكم وجعله قرينا لكتابه الآخر في السحر والطيسات الذي تهأه غابة الحكم ورغم أن هاتين الصناعتين هما تيجتان للحكمة وشجرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأكيفهم هي الغاز يتعذر فهمها على من لم يعاشر أصطلاحاتهم في ذلك ونحن نذكر سبب عدم لهم إلى هذه الرموز والألغاز ولابن المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء

في الشِّعْرِ مَلْفُوزَةً كُلُّهَا لُغْزُ الْأَحْجَارِ وَالْمُعَايَاةِ فَلَا تَكَادُ تُفْهِمُ وَقَدْ يَنْسِبُونَ لِلْفَرَازِيِّ
 رَحْمَةً أَللَّهُ بَعْصَ النَّاكِفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لَأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالَمَةُ
 لَتَقَفَّتْ عَنْ خَطِئِهِ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَحَلَّهُ وَرُبَّمَا نَسِيُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقوالِ
 فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ رَبِيبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيْنُ أَنَّ خَالِدًا
 مِنَ الْجَيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِداوَةِ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ
 لَهُ بِصَنَاعَةٍ غَرِيبَةً أَلْمَنْحَى مَبْنِيَّةً عَلَى مَعْرِفَةٍ طَبَائِعِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَمْرِجَتِهَا وَكُنْبُ الْنَّاظِرِينَ
 فِي ذَلِكَ مِنَ الْطَّبَيِّعَاتِ وَالْطَّبِيبِ لَمْ تَظْهِرْ بَعْدُ وَلَمْ تُرْجِمْ أَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدًا بْنَ
 يَزِيدَ أَخْرَى مِنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الْصَّنَاعَةِ تَشَبَّهَ بِأَسْمِهِ فَمُنْكَرُونَ . وَإِنَّا أَنْقُلُ لَكَ هُنَا
 رِسَالَةً أَبِي بَكْرِ بْنِ يَشْرُونَ لِأَبِي الْسَّمْعِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَلَامُهُ مِنْ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ
 قَيْسَتَدَلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَانِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ سَقْهُ مِنْ التَّأْمِلِ قَالَ
 أَبْنُ يَشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِ مِنَ الرِّسَالَةِ خَارِجٌ عَنِ الْفَرْضِ وَالْمُقْدَمَاتِ الَّتِي لَهُنِّيَ الْصَّنَاعَةُ
 الْكَرِيمَةُ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوْلُونَ وَاقْتَصَرَ جَمِيعُهَا أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةٍ تَكُونُونَ
 الْمَعَادِينَ وَتَخْلُقُ الْأَحْجَارَ وَالْجُوَاهِيرَ وَطَبَائِعَ الْبِقَاعِ وَالْأَمَاكِنِ فَمَنْعَنَا أَشْتَهَارُهَا مِنْ
 ذِكْرِهَا وَلِكِنَّ أَبْيَنَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا يُعْتَاجُ إِلَيْهِ فَبَدَا بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا يَسْبِغُ
 لِطَلَابَ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلَأَ ثَلَاثَ خَصَالٍ أَوْلَاهَا هَلْ تَكُونُ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ
 تَكُونُ وَالثَّالِثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفَ تَكُونُ فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الْثَلَاثَةَ وَأَخْكَمَهَا فَقَدْ ظَفَرَ
 بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نِهايَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالْأَسْتِدَلَالُ عَنْ تَكُونِهَا
 فَقَدْ كَفَيْنَا كَهُ بِمَا بَعْثَنَا يَهُ إِلَيْكَ مِنَ الْإِكْسِيرِ وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ
 بِذَلِكَ الْبَحْثَ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي يُمْكِنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوْجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الْطَّبَائِعِ الْأَزِيَّعِ مِنْهَا تَرَكَتْ أَبْتِدَاءَ وَالْيَهَا تَرَجَّعُ أَنْتِهَا وَلِكِنَّ مِنَ
 الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهَا بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَقْصِيلُهَا تَعَالَجُ
 وَتُدْبَرُ وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَقْصِيلُهَا لَا تَعَالَجُ وَلَا
 تُدْبَرُ لِأَنَّهَا فِيهَا بِالْقُوَّةِ فَقَطْ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنْ تَقْصِيلُهَا لِاسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضِ
 وَفَضْلِ قُوَّةِ الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ فَيَسْبِغُ لَكَ وَفَقَكَ أَللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ
 الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يُدْبَرُ مِنْ الْمُلْلِ وَالْعَقْدِ

والتَّنْسِيَةُ وَالتَّكْلِيسُ وَالتَّنْشِيفُ وَالتَّقْلِيبُ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأُصُولَ أَتَيَ بِهِ
 عِمَادَ هَذِهِ الصَّنْعَةِ لَمْ يَجْعَلْ وَلَمْ يَظْفِرْ بِخَيْرِ أَبْدَا وَبِسَيْفِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ
 يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يُمْكِنُنَّ يَدِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْأَبْدَاءِ أَوْ شَارِكَهُ غَيْرُهُ
 فَصَارَ فِي الْتَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَسُنِيَ حَبْرًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كِيفِيَةَ عَمَلِهِ وَكِيمِيَةَ أَوْزَانِهِ
 وَأَزْمَانِهِ وَكِيفَ تَرَكِيبُ الْأَرْوَحِ فِيهِ وَإِذْخَالُ النَّفْسِ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا
 مِنْهُ بَعْدَ تَرَكِيبِهَا فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلَأْيَةُ عَلَيْهِ وَمَا السَّبَبُ الْمُوجِبُ لِذَلِكَ فَإِنْ هَذَا هُوَ
 الْمَطْلُوبُ فَأَنْتُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ كُلُّهُمْ مَدَحَتْ النَّفْسَ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ لِجَسْدِي
 وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالْمَدَافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ
 وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحُرْكَةِ وَالْأَمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا
 ذَكَرْتُ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لَأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتُ شَيْءَةٌ يَمْسِدُ الْإِنْسَانَ الَّذِي تَرَكِيبُهُ عَلَى
 الْغَذَاءِ وَالْمَشَاءِ وَقَوَامِهِ وَتَنَاهِهِ إِلَيْهِ الْحَيَاةُ الْنُورَانِيَّةُ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْعَطَائِمَ وَالْأَشْيَاءَ
 الْمُتَكَالِلةُ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا أَنْفَعَ الْإِنْسَانَ لِالْخِلَافِ
 تَرَكِيبُ طَبَائِعِهِ وَلَوْ أَنْفَقْتُ طَبَائِعَهُ لَسَلِمَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالثَّضَادِ وَلَمْ تَقْدِرْ النَّفْسُ عَلَى
 الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا يَأْتِي فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْطَبَائِعَ
 الَّتِي يَتَعَدُّ عَنْهَا هَذَا الْعَمَلُ كِيفِيَةً دَافِعَةً فِي الْأَبْدَاءِ فِي ضِيَّةٍ مُعْتَاجَةً إِلَى الْأَنْتَهَاءِ وَلَيْسَ
 لَهَا إِذَا حَارَتْ فِي هَذَا الْحُدُّرِ أَنْ تَسْتَعِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَتْ كَمَا قُلْنَاهُ أَنَّهَا فِي الْإِنْسَانِ
 لَأَنَّ طَبَائِعَ هَذَا الْجُوْمَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَيْئًا بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا
 وَفَعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرَكِيبِهِ وَمَجْسِتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ طَبَائِعَ مُفَرَّدَةً بِإِعْيَانِهَا فَيَا عَجَباً مِنِ
 أَفَاعِيلِ الْطَبَائِعِ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلْعَصِيفِ الَّذِي يَقْوِي عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرَكِيبِهَا وَتَنَاهِيَهَا وَتَنَاهِيَهَا
 فَلِذَلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرَكِيبِ الْأَوَّلِ لِلْخِلَافِ
 وَعِدَمِ ذَلِكَ فِي الثَّانِي لِلْإِتِفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأُولِيَّنَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا
 الْعَمَلِ حَيَاةُ وَبَقَاةُ وَالْتَّرَكِيبُ مَوْتٌ وَفَنَاهُ وَهَذَا الْكَلَامُ دَقِيقُ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْحُكْمَ
 ارْتَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةً وَبِقَاءً وَخُروجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لِأَنَّ مَا دَأَمَ عَلَى تَرَكِيبِهِ الْأَوَّلِ
 فَهُوَ فَانٍ لَا حَالَةَ فَإِذَا رَكِيبَ الْتَّرَكِيبُ الثَّانِي عَدِمَ الْفَنَاءُ وَالْتَّرَكِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا
 بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذَا التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ خَاصَّةٌ فَإِذَا بَقَى الْجَسَدُ

الْمَحْلُولُ أَنْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ الْصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْجَسَدِ يُمْتَزِلُّهُ النَّفْسُ الَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَارَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَتَبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلاَطَ الْأَطْيَفِ بِالْأَطْيَفِ أَهُونُ مِنَ اخْتِلاَطِ الْفَلَيْظِ بِالْفَلَيْظِ وَإِنَّمَا أَرِيدَ بِذَلِكَ النَّشَائِكُلُّ فِي الْأَزْوَاجِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَنْصِلُ بِاَشْكَالِهَا وَذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ اتَّعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَقُ وَأَيْسَرُ مِنَ الطَّبَابِعِ الْأَطَافِلِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْفَلَيْظَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَقَدْ يَتَصَوَّرُ فِي الْعُقْلِ أَنَّ الْأَجْمَارَ أَفْوَى وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَزْوَاجِ كَمَا تَرَى الْذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنَّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْكَبِيرِيَّتِ وَالْأَزْبَقَ وَغَيْرِهِ مِمَّا مِنَ الْأَزْوَاجِ فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي بَدَنَهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرَثُ الْكِيَانِ قَلَّبَهَا أَجْسَادًا زَرْجَةً غَلِيظَةً فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِيَّا لِأَفْرَاطِ غَلَظَهَا وَتَلَزِّجَهَا فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقَهَا وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ الْأَطْيَفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا النَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَتَبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَصَيَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ أَجْلُ مَا تَعْرِفُهُ . أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ لَا شَعْرَالِهَا وَلَا طَافَتِهَا وَإِنَّمَا أَشْتَعَّتْ لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ تَعْلَقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَكِّلُ النَّارَ وَلَا تَرَالُ تَفَنِّي بِهَا إِلَى أَنْ تَفَنَّى وَكَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِبُوْصُولِ النَّارِ إِلَيْهَا أَقْلَةً تَلَزِّجَهَا وَغَلَظَهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابَرَ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفَةً مُتَحَدِّهٌ كَشِيفَهُ لِطُولِ الْطَّبَعِ الَّتِينَ مَازَجَ لِلْأَشْيَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفَهُ مِنْ كَشِيفَهُ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْمِيلِ وَالْمُوَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ الْأَنْضِمامُ وَالْتَّدَاخُلُ مُجَاوِرَةً لَا مُمَازِجَةً فَسَهَلَ بِذَلِكَ افْتِرَاقُهُمَا كَالْمَاءِ وَالدَّهْنِ وَمَا أَشْبَهُهُمَا وَإِنَّمَا وَصَنَّتْ ذَلِكَ لِتَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى نَزَكَبِ الْطَّبَابِعِ وَتَقَابِلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ عِلْمًا شَافِيًّا فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَكَ مِنْهَا وَيَتَبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِي طَبَابِعُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مُوَافِقَةٌ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ مُفْصَلَةٌ مِنْ جَوْهَرِهِ وَاحِدٌ يَجْمِعُهُمَا تِطَامٌ وَاحِدٌ بَتَدِيرٌ وَاحِدٌ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجَزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلُّ كَمَا قَالَ الْفِيْلُوسُوفُ أَنَّكَ إِذَا أَخْكَمْتَ تَدَبِّيرَ الْطَّبَابِعِ وَتَأَلِيفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيبًا فَقَدْ أَخْكَمْتَ مَا أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقِوَامَهُ إِذِ الْطَّبَيْعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبٌ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيبًا

فقد زاغ عنها وقع في الخلط، وأعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائتها على ما ينبع في الحال حتى يساكلها في الرقة واللطافة أنسنت فيه وجرت معه حيشه جرس لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تنزوج وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح فاقهم هداك الله عن القول وأعلم هداك الله أن هذا الحال في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يتضليل ولا ينفع وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها الوانا وزهارا عجيبة وليس كل جسد يحمل خلاف هذا هو الحال العام لأن مخالف للحياة وإنما حلها بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تقلب من الطافة والغلظ فإذا بلغت الأجساد بهايتها من التعليل والتلطيف ظهرت لها بذلك قوة تمسك وتغوص وقلب وتفند وشكل عمل لا يرى له مصدق في أوله فلا خير فيه وأعلم أن البارد من الطبائع هو ليس بالأشياء ويعد رطبتها والحرارة منها يظهر رطوبتها ويعد بسماه وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاء لأن والرطوبة والبس منهيا لأن وعلى انفعال كل واحد منها لصاحبه تحدث الأجسام وتشكون وإن كان الحر أكثر فولا في ذلك من البرد لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا يحوسها وأخر هو علة الحرارة ومم ضفت عليه الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما أنه إذا افريطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد آخر منه وأهلكته فمن أجل هذه العلة أختبر إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضوء على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحضر الفلسفه أكبر شيء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها وهي آفاتها وأذساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبرهم فائنا عالمهم إنما هو مع النار أولا وإليها يصير أخيرا فلذلك قالوا ياكم والنيران المحرقات وإنما أرادوا بذلك تقي الآفات التي معها فتجتمع على الجسد افتئن فتكون أمرع لهلاكه وكذلك كل شيء وإنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واحتلاقه فيتوسط بين شيئا فلما يجده ما يقويه وبعنه الأفقراته الآفة وأهلكته وأعلم أن الحكماء كلها ذكرت تزداد الأرواح على الأجساد مرارا ليكون الزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الآلفة يعني بذلك النار العنصرية فاعلمه ولنقل آلان على العجيز الذي

يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد أختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومتى ظهرت أهلها عليها لأن الكلام بطول جدا وقد قلت فيما تقدم إن العمل يكون في كل شيء بباقة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فتريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بأقacea والفعل فتقصد إلى ما قاله الحراني إن الصبغ كله أحد صبغين إما صبغ جسم شكل الزغفران في التوب الآتيض حتى يتحول فيه وهو مضخح متنقض البركيب والصبغ الثاني تقلب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره وتونه تقلب الشجر بل التراب إلى نفسه وتأتى الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب بناها والنبات حيوانا ولا يكون إلا بالروح التي والكتاب الفاعل الذي له توليه الأجرام وقامب الأعيان فإذا كان هذا كذلك فنقول إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وثماما فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوه ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الأستعمالات الثلاث ونهايتها وذلك أن المعادن يستعمل بناها والنبات يستعمل حيوانا والحيوان لا يستعمل إلى شيء هو الطرف منه إلا أن يتعكس راجعا إلى النظر وأنه أيضا لا يوجد في العالم شيء لا تهلك فيه الروح الحية غيره والروح الطرف ما في العالم ولم يتعلى الروح بالحيوان إلا يمسا كلته ايها فاما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستقرة كامنة فيه لغاظتها وغالظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغاظته وغالظ روحه والروح المتحركة الطرف من الروح الكامنة كثيرا وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا يجري إذا اقيمت بالروح ألمية إلا كالارض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فيبني العاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا وأعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الأمهات التي هي الطبائع والحقيقة التي هي المعاليد وهذا معروف متيسرا الفهم فلذلك قسمت

الْحُكْمَ كَمَا الْعَنَاصِرَ وَالْمَوَالِيدَ أَفْسَامًا حَيَّةً وَأَفْسَامًا مَيَّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فَاعِلاً
حَيَاً وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولاً مَيَّتاً وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الْمَائِبَةِ
وَفِي الْعَقَافِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَعِلُ حَيَاً وَمَا كَانَ
عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيَّتاً فَأَمَا الْحَيْوَانُ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا أَنْفَصَ مِنْهُمَا طَبَائِعَ أَرْبَعَةَ
حَيَاً وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَوْهُ مَيَّتاً ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَفْسَامِ الْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لِوَفْقِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ مَا يَنْفَصِلْ فُصُولًا أَرْبَعَةَ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ الْجَبَرِ الَّذِي يَبْعَثُ فِي
الْحَيْوَانِ فِيهِ بَحْثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخْذُوهُ وَدَبَرُوهُ فَتَسْكَيَّتْ لَهُمْ مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا
وَقَدْ يَسْكَيَّتْ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَافِيرِ وَخَلْطَهَا ثُمَّ أَنْفَصَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأَمَا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفَصِلْ بِعِضٍ هَذِهِ الْفُصُولُ مِثْلَ الْأَشْنَانِ وَأَمَا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا
أَجْسَادٌ وَأَرْقَابٌ وَأَنفَاسٌ إِذَا مُزَجَتْ وَدَبَرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَرْنَا كُلَّ
ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيْوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعَ وَتَدَبِّرُهُ أَسْهَلُ وَإِنْسَرَ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ
الْجَبَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيْوَانِ وَطَرِيقُ وُجُودِهِ إِنَّا يَبْيَنُ أَنَّ الْحَيْوَانَ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا
مَا تَرَكَبَ مِنْهُ فَهُوَ الْطَفُّ مِنْهُ كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ الْطَفُّ مِنَ الْأَرْضِ
لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهِهِ وَأَصَافِي وَجَسِيدِهِ الْلَّطَيفِ فَوَجَبَ لَهُ بِذَلِكَ الْلَّطَافَةُ وَالرِّقَّةُ وَكَذَا
هَذَا الْجَبَرُ الْحَيَّوَانِيُّ يَمْنَزِلُهُ النَّبَاتُ فِي التُّرَابِ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيْوَانِ شَيْءٌ
يَنْفَصِلُ طَبَائِعَ أَرْبَعَهُ غَيْرُهُ فَأَقْهَمَ هَذَا الْقَوْلَ فَإِنَّهُ لَا يَكُادُ يَخْفِي إِلَّا عَلَى جَاهِلِ بَيْنَ أَجْمَعِ الْأَئِمَّةِ
وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَاهِيَّةَ هَذَا الْجَبَرِ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَإِنَّا أَبَيْنَا لَكَ
وُجُوهَ نَدَابِرِهِ حَتَّى يَكُنْمُلَ الَّذِي شَرَطَنَا عَلَى أَنفُسِنَا مِنَ الْإِنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

(التدبر على بركة الله) خُذِ الْجَبَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْسِقَ وَفَصِيلَ
طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصِّبَغُ إِذَا عَزَّلَتْ
الْمَاءَ عَنِ الْتُرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَأَرْفَعَ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَّةٍ وَخُذِ الْمَهَايِطَ
أَسْفَلَ الْأَرْتَانَ وَهُوَ الشُّفُلُ فَأَغْسِلُهُ بِالنَّارِ الْحَارَةِ حَتَّى تُذَهِّبَ النَّارُ عَنْهُ سَوَادَهُ وَيَزُولَ
غَلَظَهُ وَجَفَاؤُهُ وَيَضْهُرَ بَيْضَهُ بَيْضًا مُخْكَمًا وَطَبَرَ عَنْهُ فُضُولَ الْرُّطُوبَاتِ الْمُسْتَجْنَةِ فِيهِ فَإِنَّهُ
بَصِيرٌ عِنْدَ ذَلِكَ مَا هُوَ أَيْضًا لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسْعٌ وَلَا تَضَادٌ ثُمَّ أَعْمَدَ إِلَى تِلْكَ الْطَبَائِعِ
الْأَوَّلِ الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهَرَهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِ وَكَرِزَ عَلَيْهَا الْغَنْلَ وَالنَّضِيدَ

حتى تلتفت وتترقى وتصفو فإذا فقلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدا يا انز كib الذي
 عليه مدار العمل وذلك أن انز كib لا يكون إلا بالتزويج والتعفين فاما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسبح حتى يختلط بعضه
 ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساكه اللطيف وأنقوى النفس على الفوض في الأجساد والديب
 فيها وإنما وجد ذلك بعد انز كib لأن الجسد المحلول لها أذدوج بالروح مازجه
 جميع أجزائه ودخل بعضها في بعض إنشاكها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك
 أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت وما يعرض للجسد لموضع
 الامتزاج وكذلك النفس إذا امتصقت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت
 أجزاءها بجميع أجزاء الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً
 لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائمه وأتفقت أجزاءه فإذا
 أنت هذا المركب الجسد المحلول وأنت عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه
 ذابت في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فإذا أرادت
 النار التعلق بها منعها من الاتصال بالنفس معازجة الماء لها فإن النار لا تتعذر بالدهن
 حتى يكون خالصاً وكذلك الماء من شأنه التفوال من السار فإذا احتلت عليه النار وأرادت
 تعبيره حسنة الجسد الياس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فشكك الجسد
 علة لإمساك الماء والماء عليه لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة
 لظهور الدهن وإظهار الدهنية في الأشياء المغلبة التي لا نور لها ولا حيارة فيها فهذا
 هو الجسد المستقيم وهو كذلك يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي
 سئلتها الحكمة بيسة وياها يعني لا يضة الدجاج وأعلم أن الحكماء لم يسموها
 بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها وأقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري
 فقلت له أيتها الحكيم الفاصل أخبرني لأي شيء سئل الحكمة مركب الحيوان
 بيسة اختياراً منهم لذلك أم لمعنى داعهم إليه فقال بل لمعنى غاين قلت أيتها
 الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها
 وسموها بيسة فقال ليشبهها وقربتها من المركب فشكك فيه فإنه سيظهر ذلك معناه

فَيَقِيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنْكِرًا لَا أَقِدُّ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفَكْرِ
 وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخْذَ بِعَضْدِي وَهَزَّنِي هَزَّةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي يَا أَبَا بَكْرَ ذَلِكَ
 لِلنِّسَيَةِ الَّتِي يَسْتَهِمُوا فِي كَمِيَّةِ الْأَلوَانِ عِنْدَ امْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَالِيفِهَا فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَنْجَلَتْ
 عَنِي الظُّلْمَةُ وَأَضَاءَ لِي نُورٌ قَلِيلٌ وَقَوِيٌّ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَنَهَضَتْ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى
 مَنْزِلِي وَأَقْمَتْ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا هَنْدَسِيًّا يُبَرِّهُنِّي عَلَى صَحَّةِ مَا قَالَهُ مَسَامَةً وَأَنَا وَاضِعُهُ
 لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَكَّبَ إِذَا تَمَّ وَكَمْلَ كَنْ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ
 طَبَيْعَةِ الْمَوَاءِ كَنِسْبَةً مَا فِي الْمُرَكَّبِ مِنْ طَبَيْعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ طَبَيْعَةِ النَّارِ
 وَكَذَلِكَ الْطَّبَيْعَاتِ الْأُخْرَى يَانِ الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْئَينِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هُذِهِ
 الصَّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ هَرُوجَ فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا
 نَأْخُذُ أَقْلَ طَبَائِعَ الْمُرَكَّبِ وَهِيَ طَبَيْعَةُ الْبَيْوَسَةِ وَنُضِيفُ إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبَيْعَةِ الْرُّطُوبَةِ
 وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تُنْشِفَ طَبَيْعَةُ الْبَيْوَسَةِ طَبَيْعَةَ الْرُّطُوبَةِ وَتُقْبَلَ قُوَّتَهَا وَكَانَ فِي هَذَا
 الْكَلَامِ رَمْزًا وَلِحَكِيمَةٍ لَا يَغْفِي عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جِيمًا مِثْلَهِمَا مِنَ الرُّوحِ
 وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةُ أَمْثَالٍ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّدْبِيرِ مَثَلًا مِنْ
 طَبَيْعَةِ الْمَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةُ أَمْثَالِ الْبَيْوَسَةِ
 بِالْقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَعْتَ كلَّ ضَلَاعَيْنِ مِنَ الْمُرَكَّبِ الَّذِي طَبَيْعَتُهُ خُيُوطَةٌ بِسَطْحِ الْمُرَكَّبِ
 طَبَيْعَتَيْنِ قَبْعَلُ أَوْ لَا يَضْلَعَنِ الْحُبَيْطَانِ بِسَطْحِهِ طَبَيْعَةُ الْمَاءِ وَطَبَيْعَةُ الْمَوَاءِ وَهُمَا ضَلَاعَانِ
 احْدَ وَسَطْحِ ابْجَدِ وَكَذَلِكَ الْفَضِّلَانُ الْمُحِيطَانُ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ الْأَذَانُ هُمَا الْمَاءُ وَالْمَوَاءُ
 فَلِلَّهَا هَرُوجٌ فَأَقُولُ إِنَّ سَطْحَ ابْجَدِ يُشَبِّهُ سَطْحَ هَرُوجٍ طَبَيْعَةُ الْمَوَاءِ الَّتِي تُسَمِّي نَفْسًا وَكَذَلِكَ
 بِجِمِيعِ الْمُرَكَّبِ وَالْحُكَمَاءُ لَمْ تُسَمِّ شَبَشَا بِاَسْمِ شَيْءٍ إِلَّا يُشَبِّهُ بِهِ وَالْكَلِمَاتُ
 الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرِحِهَا الْأَرْضُ الْمَقْدَسَةُ وَهِيَ الْمُنْعَقِدَةُ مِنَ الْطَّبَائِعِ الْعَلَوِيَّةِ وَالسُّنْلِيَّةِ
 وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ سَوَادَهُ وَفُطِعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حَرَرَ بِالْأَزَاجِ حَتَّى صَارَ
 نُحَاسِيَا وَالْمَغْنِيَّيَا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَحْمِلُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتَخْرِجُهُ الْطَّبَيْعَةُ الْعَلَوِيَّةُ الَّتِي
 تَسْتَعِنُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتُقَابِلَ عَلَيْهَا النَّارُ وَالْفَرَنَرَةُ لَوْنٌ أَخْرَى قَانِ يُحَدِّثُهُ الْكَيْكَانُ
 وَأَرْصَاصُ حَجَرٍ لَهُ ثَلَاثُ قُوَّى مُخْتَلَفَةُ الشُّخُوصِ وَأَسْكَنَهَا مُتَشَاكِلَةً وَمُتَجَانِسَةً
 فَالْأَوْحَادَةُ رُوحَانِيَّةٌ نِيرَةٌ صَافِيَّةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَّةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَانَةٌ

غير أنها أغلظ من الأولى ومرتكبها دون مرتكب الأولى والثالثة قوّة أرضية حاسة قابضة متعكسة إلى مرتكب الأرض لشقاها وهي الماسكة الروحانية والننسانية جيماً والمحيط بهما وأما سائر الباقية فمبتدة ومتفرعة إلباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها . فهذا جميع ما سأله عن وقد بعثت به إليك مفسراً ونرجو توفيق الله أن تبلغ أملاك السلام أنتهى كلام ابن يسرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المغربي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيارة والسحر في القرن الثالث وما بعده وانت ترى كيف صرخ الفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز واللغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يضد الواقع أنها من حسن آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس ضريرة فالحاجة فاما الكرامة ظاهرة وأما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه بتلبي الأعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها العخصوصة بها كما وقع لسرقة فرعون في الجناب والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسخرون الجلو للأمطار وغير ذلك . ولما كانت هذه تخليقا للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمعتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحو هذا المعني ولهذا كان كلامهم فيه الفارا حذرا عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع إلى الضمانة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى تحقيق في ذلك وأنظر كيف سئ مسلمة كتابة فيها رتبة الحكيم وسمى كتابة في السحر والطلبات غابة الحكيم إشارة إلى عموم موضوع النهاية وخصوص موضوع هذه لأن النهاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغابة وشاركتها في الموضوعات ومن كلامه في الفتن يتبع ما قلناه ونخن بين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منهجها

هذا الفصل وما بعده مهيم لأن هذه المعلوم عارضة في القرآن كثيرة في المدن وضررها في الذين كثير فوجب أن يُصدِّعَ يشأنها ويُكشفَ عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قوماً من عقلاً النوع الإنساني زعموا أن الوجود دله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله ياسبأها وعلمها بالآثار الفكرية والأقوس العقائية وأن تصريح العقائد الإيمانية من قبل الأنوار لأن جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل وهو لا يُسمون فلاستة جمع فیلسوف وهو بالisan اليوناني تحب الحكمة وبعثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً يهدى به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق وتحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعانى المترتبة إن الموجودات الشخصية فيعود منها أو لا صور منطقية على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع وهذه مجردة من المحسوسات تسمى المقولات الأولى ثم مجردة من تلك المعانى الكلية إذا كانت مشتركة مع مكان آخر وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معانٍ آخرٍ وهي التي أشتهرت بها ثم تجرد ثانية إن شاركتها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعانى البسيطة الكلية المنطقية على جميع المعانى والأشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها سمي المقولات الثانية فإذا نظر الفلك في هذه المقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض وتفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلي البقيني ليحصل تصور الوجود بصورة صحيحة مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذي هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في الهايات والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لأن التصور النام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي وإنما

التَّصْدِيقُ وَسِيلَةُ لَهُ وَمَا تَسْمَعُ فِي كُتُبِ الْمَنْطَقِيْنَ مِنْ تَقْدِيمِ التَّصْوِيرِ وَتَوْفِيقِ
 التَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَيَمْعَنُ الشُّعُورُ لَا يَمْعَنُ الْعِلْمُ أَنَّا هُوَ مَذَهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرْسَطُوا
 ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْخَيْرِ وَمَا وَرَاهُ الْخَيْرُ
 بِهِذَا النَّظَرِ وَتِلْكَ الْبَرَاهِينُ وَحَاصِلُ مَدَارِكَهُمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا آتَتِهِ وَهُوَ الَّذِي
 فَرَّعَ عَوْالِيهِ قَضَايَا اِنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوْلَى عَلَى الْجَسْمِ الْسَّفْلِيِّ بِحِكْمَ الشَّهُودِ وَالْخَيْرِ ثُمَّ تَرَقَى
 إِدْرَاكُهُمْ قَلِيلًا فَشَعَرُوا بِوُجُودِ الْنَّفْسِ مِنْ قَبْلِ الْحَرْكَةِ وَالْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ أَنَّا هُوَ مِنْ
 قُوَّى الْنَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعُقْلِ وَوَقَنَتْ إِدْرَاكُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجَسْمِ الْعَالَى السَّمَاوِيِّ بِتَحْوِيمِ الْقَضَاءِ
 عَلَى أَمْرِ النَّذَاتِ الْإِنْفَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدُهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكِ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ
 أَنْهُوا ذَلِكَ نَهَايَةً عَدَدَ الْأَحَادِ وَفِي الْعَشْرِ تَسْعُ مُفْصَلَةً ذَوَاتِهَا جُمْلَةً وَوَاحِدَةً أَوْلُ مَغْرِدٍ
 وَهُوَ الْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا الْتَّخْوِيْنَ مِنْ الْقَضَاءِ مَعَ
 تَهْذِيبِ الْنَّفْسِ وَتَخْلِقِهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ لِلِّإِنْسَانِ وَلَوْلَمْ يَرِدْ شَرُعٌ لِشَمِيزِهِ
 بَيْنَ الْفَضْيَلَةِ وَالْمَذَبَّلَةِ مِنْ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِيلَهِ إِلَى الْعَهْمُودِ مِنْهَا
 وَأَجْتَنَابِهِ لِلْمَدْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلتْ لَهَا الْبَهْجَةُ وَالْمَذَةُ وَأَنَّ
 الْجَهْلُ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدُهُمْ هُوَ مَعْنَى النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى
 خَبْطِهِمْ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الَّذِي حَصَلَ
 مَسَائِلَهَا وَدَوَنَ عِلْمَهَا وَسَطَرَ حُجُجَهَا فِيهَا بَلَغَنَا فِي هَذِهِ الْأَخْقَابِ هُوَ أَرْسَطُوا الْمَقْدُونِيُّ مِنْ
 أَهْلِ مَقْدُونِيَّةِ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونَ وَهُوَ مُعْلِمُ الْإِسْكَنْدَرِ وَيُسْمِونُهُ
 الْمُعْلِمُ الْأَوَّلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعْلِمَ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ إِذَا لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْذَبَهُ
 وَهُوَ أَوْلُ مَنْ رَتَبَ قَانُونَهَا وَأَسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ
 مَا شَاءَ لَوْ تَحْكَمَ لَهُ يَقْضِيهِمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ أَخْدَى
 بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذَّرَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ وَذَلِكَ أَنَّ كُتُبَ
 أُولَئِكَ الْمُتَقْدِمِينَ لَمَّا تَرَجَّمَهَا الْخَلْفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَاسِ مِنْ الْإِسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى الْإِسَانِ
 الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحُهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَلَةِ وَأَخْدَى مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مِنْ أَضْلَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُنْتَهِيِ
 الْعُلُومِ وَجَادَ لَوْا عَنْهَا وَأَخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيْعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ
 فِي الْمِائَةِ الْأَرْبَعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدُّولَةِ وَأَبُو عَلَيِّ بْنِ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظامِ

الملائِكَ مِنْ بَنِي بُوئْيَهْ يَأْصِبَهُنَّ وَغَيْرُهُمَا. وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَرْأَيُ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ
 بِجُمِيعِ وُجُوهِهِ فَإِنَّمَا إِسْنَادُهُمُ الْمَوْجُودَاتِ كُلُّهَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَأَكْتَفَاهُمْ بِهِ فِي
 الْتَّرَقِيِّ إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَأَهُ ذَلِكَ مِنْ رَتَبِ خَالقِ اللَّهِ فَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نَطَاقًا
 مِنْ ذَلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَانُوكُمْ فِي أَقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطْ وَالْفَقْلَةُ عَمَّا
 وَرَأَهُ بِمَثَابَةِ الْطَّبِيعَيْنِ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الدُّعْرِضِينَ عَنِ النَّقْلِ
 وَالْعَقْلِ الْمُتَقْدِرِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ شَيْءٌ وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا
 عَلَى مُدَعِّيَّاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرُضُونَهَا عَلَى مِعْيَارِ الْمَنْطَقِ وَقَانُونِهِ فِيهِ قَانِيَّةٌ وَغَيْرُهُ
 وَافِيَّةٌ بِالْفَرْضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَبِسُمْوَنَهُ الْعِلْمِ الْطَّبِيعِيِّ فَوَجَدَهُ
 قَصْوَرِهِ أَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تَلَكَ النَّتَائِجِ الْذِهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرِجُ بِالْحَدُودِ وَالْأَفْسَسِ كَمَا
 فِي زَعْنِيمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ غَيْرُ بَقِيَّتِي لَأَنَّ تَلَكَ أَحْكَامَ ذَهْنِيَّةٍ كَالْيَةٍ عَامَّةٍ
 وَالْمَوْجُودَاتُ الْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخِّصَةٌ بِمَوَادِهَا وَلَعَلَّ فِي الْمَوَادِ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ الْذِهْنِيِّ
 الْكُلِّيِّ الْخَارِجِيِّ الْشَّخْصِيِّ الْهُمُّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْحَسْنُ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ
 لَا تَلَكَ الْبَرَاهِينُ فَإِنَّ الْيَقِينَ الَّذِي يَعْدُونَهُ فِيهَا وَرَبِّمَا يَكُونُ تَصْرِفُ الْذِهْنِ فِي أَيْضًا
 فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ الْمُطَابَقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِالصُّورِ الْخَيْلَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ الْفَوَافِيِّيِّ
 الَّتِي تَعْرِيدُهَا فِي الْأَرْثَيْنِ الْثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ حِيَائِنِيَّ بَقِيَّتِيَا بِمَثَابَةِ الْحَسْنُوسَاتِ إِذَا
 الْمَعْقُولَاتُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْخَارِجِ الْكَمَالِ الْأَنْطِبَاقِ فِيهَا فَتَسْلِمُ لَهُمْ حِيَائِنِيَّ
 دَعَاوِيهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا الْإِغْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ
 لَمَّا لَا يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الْطَّبِيعَيَّاتِ لَا تَهْمَمُنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجَبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .
 وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَرَأَهُ الْحَسْنُ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَبِسُمْوَنَهُ الْعِلْمِ
 الْإِلَهِيِّ وَعِلْمِ مَا تَعْدُ الْطَّبِيعَةُ فَإِنَّ ذَوَاتَهَا تَجْهُلُهُ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا
 الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَعْرِيدَ الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الْشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ
 مُمْكِنٌ فِيهَا هُوَ مُدْرَكُ لَنَا وَنَخْنَنُ لَا نُدْرَكُ الْذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى تَجْرِي مِنْهَا مَاهِيَّاتُ
 أُخْرَى بِحِجَابِ الْحَسْنِ يَتَنَاهَا وَيَنْهَا فَلَا يَتَنَاهَا لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرَكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ
 وَجُودِهَا عَلَى الْجَمْعَلَةِ إِلَّا مَا نَجَدْهُ بَيْنَ جَنْدِنَا مِنْ أَمْرِ النَّسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا
 وَخُصُوصِهَا فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وِجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَأَهُ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَيِّلٌ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَخَ بِذَلِكَ مُحْقِقُوهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ
 مَا لَا مَادَةَ لَهُ لَا يُمْكِنُ الْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدَّمَاتَ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ تَكُونَ ذاتِيَّةً
 وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفْلَاطُونُ إِنَّ الْإِلَهَاتِ لَا يُوصَلُ فِيهَا إِلَى أَيْتَنِ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْأَخْلَقِ
 وَالْأَفْلَى يَعْنِي الظُّنُونَ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ عَلَى الظُّنُونِ فَقَطْ فِيَّ كَفِينا
 الظُّنُونُ الَّذِي كَانَ أَوْلَى فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهُذِهِ الْعُلُومِ وَالْأَشْتِغَالُ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَابِتَنَا بِتَحْصِيلِ
 الْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ الْحَسْنِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ
 وَأَمَا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِذْرَاكَ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِشَكٍ الْبَرَاهِينَ فَقَوْلُهُمْ
 مُزِيفٌ مَرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرْكَبٌ مِنْ جُزُّيْنَ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيَّةً وَالْآخَرُ
 رُوحَانِيَّةً مُمْتَزِجٌ بِهِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجُزُّيْنِ مَدَارِكٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَالْمُدْرَكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ
 وَهُوَ الْجُزُّ الْرُّوْحَانِيُّ يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ
 الْمَدَارِكَ الْرُّوْحَانِيَّةَ يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ آلَاتِ
 الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ وَالْحُوَاسِ وَكُلُّ مُدْرَكٍ فَلَهُ أَبْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ وَأَعْتِبَرُهُ بِمَحَالِ الصَّيْنِيِّ
 فِي أَوْلِ مَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةِ كَيْنَتْ يَتَّهِجُ بِمَا يُبَصِّرُهُ مِنَ الْفَصُوَّرِ وَبِمَا
 يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَ أَنَّ الْأَبْتِهَاجَ بِالْإِذْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا يُغَيِّرُ
 وَاسِطَةً يَكُونُ أَشَدَّ وَالَّذِي فَالنَّفْسُ الْرُّوْحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِذْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ
 ذَاتِهَا يُغَيِّرُ وَاسِطَةً حَصَلَ لَهَا أَبْتِهَاجٌ وَلَذَّةٌ لَا يَعْبُرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِذْرَاكُ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلَا
 عَلِمَهُ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسْنِ وَنِسْيَانِ الْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ وَالْمُتَصَوَّفَةِ
 كَثِيرًا مَا يُعْنُونَ بِحَصُولِهِذَا الْإِذْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحَصُولِهِذِهِ الْسُّلْجُونَ فَيُحَاوِلُونَ بِالْأَرْيَاضَةِ
 إِمَانَةَ الْقُوَّى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرُ مِنَ الدِّمَاغِ وَلَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِذْرَاكِهَا الَّذِي
 لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَّاغِبِ وَالْمَوَانِعِ الْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِجَةٌ وَلَذَّةٌ لَا يَعْبُرُ
 عَنْهُمَا وَهَذَا الَّذِي زَعْمَوْهُ بِتَقْدِيرِ صَحَّتِهِ مُسْلِمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَافِ بِمَقْصُودِهِمْ فَإِنَّمَا
 قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدَلَّةَ الْعُقْلِيَّةَ تَحْصَلُهُ لَهُذَا النُّوعِ مِنَ الْإِذْرَاكِ وَالْأَبْتِهَاجِ عِنْدَ فَيَأْتِي
 كَمَا رَأَيْتَهُ إِذَ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدَلَّةَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ لَا نَهَا بِالْقُوَّى الْدِمَاغِيَّةِ
 مِنَ الْخِيَالِ وَالْفِكْرِ وَالْذِكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوْلَ شَيْءًا نُعْنِي بِهِ فِي تَحْصِيلِهِذَا الْإِذْرَاكِ
 إِمَانَةُ هَذِهِ الْقُوَّى الْدِمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لَا نَهَا مُنَازِعَةً لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجَدُّدُ الْمَاهِرِ مِنْهُمْ عَالِكِفَا

عَلَى كِتَابِ الشِّنَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنَّجَاءِ وَتَلَاخِصُهُ أَبْنُ رُشْدِ لِلْقَصْرِ مِنْ تَأْلِيفِ أَرْسَطُو
وَغَيْرِهِ يُعْتَرِفُ بِأَوْرَاقِهَا وَيَتَوَثِّقُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هَذَا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا
يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَنْدُهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ
أَرْسَطُو وَالْفَارَابِيِّ وَأَبْنِ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعُقْلِ الْفَعَالِ وَأَنْتَصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ
فَقَدْ حَصَلَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَالْعُقْلُ الْفَعَالُ عِنْهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتبَةٍ يَنْكُشِفُ
عَنْهَا الْحُسْنُ مِنْ رَتَبِ الرُّؤْحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتَّصَالَ بِالْعُقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ
وَقَدْ رَأَيْتَ فَسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرْسَطُو وَاصْحَابَهُ بِذَلِكَ الْإِتَّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكَ النَّفْسِ
الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسْطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا يَكْشِفُ حِجَابَ الْمُحِسِّنِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
إِنَّ الْبَهْجَةَ الْمَأْشِيَّةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعِدُ بِهَا فَبَاطَلَ أَيْضًا لِأَنَّا
إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحُسْنِ مُدْرَكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ وَأَنَّهَا تَتَّهِيجُ
بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ أَبْتِهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يُعِينُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ
بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَادَذِ الَّتِي لَتَّلَكَ السَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِهِ هَذِهِ
الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مُبْنَىٰ عَلَى مَا كَانَ قَدْمَنَاهُ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ
الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرَكٍ مُنْخَصِّرٍ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَا فَسَادَ
ذَلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ إِنْ يَحْاطَ بِهِ أَفَ يُسْتَوْقَ إِدْرَاكَهُ بِحُمْلَتِهِ رُؤْحَانِيًّا وَجَسْمَانِيًّا
وَالَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّؤْحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَىِ
الْجَسْمَانِيَّةَ إِدْرَاكًا إِدْرَاكًا دَائِيًّا لَهُ مُخْتَصًا بِصَنْفِ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي
يَحْاطُ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامِ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلُّهَا إِذَا لَمْ تَنْخَصِّرْ وَأَنَّهُ يَتَّهِيجُ
بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْإِدْرَاكِ أَبْتِهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَتَّهِيجُ الْصَّيْرُ بِمَدَارِكِهِ الْجَسْمَانِيَّةِ فِي أَوَّلِ
نُشُوعٍ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِهِ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ يَحْصُلُ السَّعَادَةُ الَّتِي وَعَدَنَا
بِهَا الْشَّارِعُ إِنَّ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هِيَهَا مَا تُوعِدُونَ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقْلٌ
بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمِلَابَسَةِ الْعَمَودِ مِنَ الْخُلُقِ وَمُجَاهَبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمَّا مُبْنَىٰ عَلَى
أَنَّ أَبْتِهَاجَ لِلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعِدُ بِهَا لِأَنَّ
الرَّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجَسْمَانِيَّةِ
وَالْوَانِهَا وَقَدْ يَبَيَّنَ أَنَّ أَثْرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقاوةِ مِنْ وَرَاءِ إِدْرَاكَاتِ الْجَسْمَانِيَّةِ وَالرُّؤْحَانِيَّةِ

فَهَذَا النَّهْدِيُّ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِنَّمَا تَقْعُدُ فِي الْبَهْجَةِ الْنَّاשِيَّةِ عَنِ الْإِدْرَاكِ الْرُّوْحَانِيَّةِ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَابِدِهِ وَقَوَاعِدِهِ وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدَنَا بِهَا الشَّارِعُ عَلَى أَمْتِيشَالِ مَا أَمْرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ فَأَمْرٌ لَا يُجِيبُ بِهِ مَدَارِكُ الْمُدْرِكِينَ وَقَدْ تَبَرَّهُ الدِّلْكُ زَعِيمُهُمْ أَبُو عَلَيْهِ أَبْنُ سِينَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمُبْدَأِ وَالْمَعَادِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ الْمَعَادَ الْرُّوْحَانِيُّ وَأَخْرَاهُ هُوَ مَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعُقْلَيَّةُ وَالْمَقَابِسُ لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعَتِهِ مُعْنَوْذٌ وَوَتِيزٌ وَاحِدَةٌ فَلَمَّا فَلَّا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةٌ وَأَمَّا الْمَعَادُ الْجُسْمَانِيُّ وَأَخْرَاهُ فَلَا يُكَيِّنُ إِذَا كُهُ بِالْبَرَهَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ وَقَدْ بَسَطَتْهُ لَنَا الْأَشْرِيقَةُ الْحَقَّةُ الْمُحْمَدِيَّةُ فَلَيُنْظَرُ فِيهَا وَلَيُرْجَعَ فِي أَخْرَاهِ إِلَيْهَا فَهَذَا الْعِلْمُ كَمَا رَأَيْتُهُ غَيْرُ وَافِيْقَاصِرِهِمُ الَّتِي حَوَّمُوا عَلَيْهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَظَوَاهِرِهَا وَلَيَسَ لَهُ فِيمَا عَلِمْنَا إِلَّا ثَمَرَةً وَاحِدَةً وَهِيَ شَحْذُ الْذِهْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَدَلَّةِ وَالْحُجَّ لِتَحْسِيلِ مَلَكَةِ الْجُودَةِ وَالصَّوَابِ فِي الْبَرَاهِينِ وَذَلِكَ أَنَّ نَظَمَ الْمَقَابِسَ وَتَزَكَّيْهَا عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ وَالْإِنْتَهَانِ هُوَ كَمَا شَرَطُوهُ فِي صَنَاعَتِهِمُ الْمَنْتَقِيَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِذَلِكِ فِي عُلُومِ الْطَّبِيعَةِ وَهُمْ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي عُلُومِهِمُ الْحَسَكَيَّةِ مِنْ الْطَّبِيعَاتِ وَالْعَالَمِ وَمَا بَعْدَهَا فِيَسْتَوِي الْنَّاظِرُ فِيهَا بِسَكَرَةٍ أَسْتَعْمَلُ الْبَرَاهِينِ بِشُرُوبِهَا عَلَى مَلَكَةِ الْإِنْقَانِ وَالصَّوَابِ فِي الْحُجَّ وَالْإِسْتِدَلَالَاتِ لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ وَافِيَّةً بِهَذِهِ صُورِهِمْ فَهِيَ أَصْحَحُ مَا عَلِمْنَا مِنْهُ فَوَانِينِ الْأَنْظَارِ هَذِهِ ثَمَرَةُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَعَ الْأَطْلَاعِ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَآرَائِهِمْ وَمَضَارِهِمَا مَا عَلِمْتَ فَلَيُكُنْ النَّاظِرُ فِيهَا مُتَحَرِّزًا جُهْدَهُ مِنْ مَعَاطِبِهَا وَلَيُكُنْ نَظَرُهُ مِنْ يَنْظَرُ فِيهَا بَعْدَ الْأَمْتَلَادِ مِنَ الشَّرَعِيَّاتِ وَالْأَطْلَاعِ عَلَى الْتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَلَا يُكَيِّنُ أَحَدَ عَلَيْهَا وَهُوَ خُلُقُ مِنْ عُلُومِ الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنَّ يَسْلَمَ لِذَلِكَ مِنْ مَعَاطِبِهَا وَأَنَّهُ الْمُوْقِقُ لِلصَّوَابِ وَالْحَقِّ وَالْهَادِيِّ إِلَيْهِ وَمَا كَانَ النَّهْدِيُّ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفداد غايتها

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ يَزْعُمُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فِي عَالَمِ الْعَنَادِرِ قَبْلَ حُدُوثِهَا مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ قُوَّى الْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرِهَا فِي الْمُوَلَّدَاتِ الْعَنْصُرِيَّةِ مُفَرَّدَةً وَمُجْمَعَةً فَتَكَوُنُ لِذَلِكَ أَوْضَاعُ الْأَذْلَالِ وَالْكَوَاكِبِ دَالَّةٌ عَلَى مَا سَيَحْلُثُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ

السَّكَائِنَاتُ الْكَلِيَّةُ وَالْأَشْخَصِيَّةُ فَالْمُتَقْدِرُونَ مِنْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى الْكَوَاكِبِ
 وَتَأْثِيرَتِهَا بِالْتَّجْرِبَةِ وَهُوَ أَمْرٌ أَقْصَرُ الْأَعْمَارُ كُلُّهَا لَوْ أَجْتَمَعَتْ عَنْ تَحْصِيلِهِ إِذْ الْتَّجْرِبَةُ
 إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي الْمَرَّاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ بِالْتَّسْكِرَارِ لِيَعْصُلَ عَنْهَا الْعِلْمُ أَوَ الظَّنُّ وَادْوَارُ
 الْكَوَاكِبِ مِنْهَا مَا هُوَ طَوِيلُ الْزَّمْنِ فَيَخْتَاجُ تَكْرِرُهُ إِلَى أَمَادٍ وَاحْتَاجَ مُتَطَاوِلَةٍ
 يَتَقَاسِرُ عَنْهَا مَا هُوَ طَوِيلٌ مِنْ أَعْمَارِ الْعَالَمِ وَرَبَّمَا ذَهَبَ ضُعْفًا مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ
 قُوَى الْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَتِهَا كَانَتْ بِالْوَحْيِ وَعُوْرَائِيَّةٍ فَائِلٌ وَقَدْ كَفَوْنَا مَؤْنَةً إِبْطَالِهِ
 وَمِنْ أَوْضَعِ الْأَدَلَّةِ فِيهِ أَنَّ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبْعَدُ النَّاسَ عَنِ
 الصَّنَاعَةِ وَأَنْهُمْ لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلِّإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يَكُونُ عَنِ اللَّهِ فَكَيْفَ
 يَدْعُونَ أَسْتِبْاطَهُ بِالصَّنَاعَةِ وَيُشَرِّعُونَ بِذَلِكَ لِتَابِعِيهِمْ مِنَ الْخَلْقِ وَأَمَّا بَطْلِيمُوسُ وَمَنْ
 قَبَعَ مِنَ الْمُتَأْخِرِينَ فَيَرَوْنَ أَنَّ دَلَالَةَ الْكَوَاكِبِ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ طَبَيعِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ مِزَاجِ
 يَعْصُلُ الْكَوَاكِبِ فِي السَّكَائِنَاتِ الْعَنْصُرِيَّةِ قَالَ لَأَنَّ فِعْلَ النَّدِيرَيْنِ وَأَثْرَهُمَا فِي الْعَنْصُرِيَّاتِ
 ظَاهِرٌ لَا يَسْعُ أَحَدًا جَحَدُهُ مِثْلَ فِعْلِ الشَّسَسِ فِي تَبَدِيلِ الْفُصُولِ وَأَمْرِ جَهَنَّمَ وَنُضُجُ الْشِّمارِ
 وَالْزَّرْعِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَفَعْلُ الْقَمَرِ فِي الْرُّطُوبَاتِ وَالْمَاءِ وَإِنْضَاجِ الْمَوَادِ الْمُتَعَفِّنةِ
 وَفَوَّاكِهِ الْقِنَاءِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ ثُمَّ قَالَ وَلَنَا فِيهَا بَعْدَهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ طَرِيقَانِ الْأُولَى الْنَّقْلِيدُ
 لِمَنْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ أَئِمَّةِ الصَّنَاعَةِ إِلَّا أَنَّهُ شَيْءٌ مُقْنَعٌ لِلنَّفْسِ الْثَّانِيَةِ الْحَدْسُ وَالْتَّجْرِبَةُ
 يَقِيَّاسٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى النَّدِيرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي عَرَفْنَا طَبَيعَتَهُ وَأَثْرَهُ مَعْرِفَةً ظَاهِرَةً
 فَنَظَرُ هَلْ يَزِيدُ ذَلِكَ الْكَوَكَبُ عِنْدَ الْقُرْآنِ فِي قُوَّتِهِ وَمِزَاجِهِ فَتَعْرَفُ مُوَافِقَتُهُ لَهُ فِي
 الطَّبَيعَةِ وَيَنْقُصُ عَنْهَا فَتَعْرَفُ مُضَادَّهُ ثُمَّ إِذَا عَرَفْنَا قُوَّاهَا مُفْرَدَةً عَرَفْنَا هَا مُرْكَبَةً وَذَلِكَ
 عِنْدَ تَنَاظُرِهَا يَا شَكَالِ الْشَّلِيلِ وَالرَّزِيعِ وَغَيْرِهِمَا وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ طَبَائِعِ
 الْبَرُوجِ يَا الْقِيَاسِ أَيْضًا إِلَى النَّدِيرِ الْأَعْظَمِ وَإِذَا عَرَفْنَا قُوَى الْكَوَاكِبِ كُلُّهَا فِيهِ
 مُؤْثِرَةٌ فِي الْهُوَاءِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ وَالْمِزَاجُ الَّذِي يَعْصُلُ مِنْهَا لِلْهُوَاءِ يَعْصُلُ لِمَا تَحْتَهُ مِنْ
 الْمُوَلَّدَاتِ وَتَنَخَّلُقُ بِهِ الْنُّطْفُ وَالْبَرُوزُ فَتَحْسِبُ حَالًا لِلْبَدَنِ الْمُتَكَوِّنِ عَنْهَا وَالنَّفْسِ
 الْمُتَعَلِّقةِ بِهِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهِ الْمُكْتَسِبَةِ لِمَا لَهَا مِنْهُ وَلِمَا يَتَبعُ النَّفْسَ وَالْبَدَنَ مِنَ الْأَخْوَالِ
 لَانَ كَيْفِيَّاتِ الْبَزَرَةِ وَالنُّطْفَةِ كَيْفِيَّاتٌ لِمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا وَيَنْشَا مِنْهُمَا قَالَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ
 ظَنَّيِ وَلَيْسَ هُوَ أَيْضًا مِنَ الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ يَعْنِي الْقَدَرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ

الطبيعية للسائل والقضاء الالهي سابق على كل شيء هنا يحصل كلام بطليس
 وأصحابه وهو منصوص في كتابه الرابع وغيره ومنه يتبين ضعف مذكر هذه الصناعة
 وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل
 والقابل والصورة والغاية على ما يتبع في موضعه والقوى النجومية على ما قررها
 إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل
 بمحملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب
 والنوع الذي في النطفة وقوى الاتخاذ التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى
 النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب
 الفاعلة للسائل ثم أنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين
 وحيائنة يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره
 وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت
 أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم
 تغرضه آفة وهذا ممزوج لما فيه من معرفة حستانات الكواكب في سيرها لتشعر
 به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومذكر بطليس في
 إثبات القوى للكتاب الخامسة بقياسها إلى الشمس مذكر ضعيف لأن قوة الشمس
 غالبة لجميع القوى من الكتاب ومسئوليته عليها فقل أن يشعر بالزبادة فيها أو
 التقى بها عند المقارنة كما قال وهذه كلها فادحة في تعريف الكائنات الواقعه
 في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم إن تأثير الكتاب فيما تحتها باطل إذ قد تبين
 في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلالي كما رأيته وأحتاج له أهل
 علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسمايات مجھول
 السيفية والعقل منهم على ما يقسى به فيما يظهر بادىء الرأي من تأثير فلعل
 أسنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما
 ربطت جميع الكائنات علوها وسفلاً سيماماً والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله
 تعالى ويزراها سوى ذلك والنبوات أيضاً من بكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقرارها
 الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا يخسنان لموت أحد ولا

لِحَيَاةٍ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا يَفْضُلُ اللَّهَ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوَّاكبِ وَأَمَا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا يَنْوَعُ كَذَّا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوَّاكبِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بُطْلَانُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ الْشَّرْعِ وَضُعْفِ مَدَارِكِهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعُقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنْ الْمَضَارِ فِي الْعُمُرَانَ الْإِنْسَانِيِّ إِنَّمَا تَبَعَّثُ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا أَتَقَرَّ أَصْدِقُ مِنْ أَخْكَامِهَا فِي يَضْنِ الْأَحَدَيْنِ أَتَقَافَا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعَالَى وَلَا تَحْقِيقٌ فَيَلْهُجُ بِذَلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظْنُ أَطْرَادَ الْصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَخْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَيَقُولُ فِي رَدِ الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا ثُمَّ مَا يَنْشأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّولَةِ مِنْ تَوْقُعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوْقُعُ مِنْ تَلْكُلُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتَرَبِّصِينَ بِالْدُّولَةِ إِلَى الْفَتْكِ وَالثَّوْرَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فَيَتَبَغِي أَنْ تُخْطَرَ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِمَا يَنْشأُ عَنْهَا مِنْ الْمَضَارِ فِي الْدِينِ وَالْدُّولِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ وُجُودِهَا طَبِيعَيَا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ الْبَكَالِيفُ بِاسْبَابِ حُصُولِهِمَا فِي تَعْيِينِ السَّعْيِ فِي الْكِتَابِ الْخَيْرِ بِاسْبَابِهِ وَدَفْعِ اسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِ هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَهُ وَلِيَعْمَلُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمِلَةِ تَحْصِيلُ عِلْمِهَا وَلَا مَلْكَتِهَا إِلَّا إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَاظِرٌ وَظَلَّ الْإِحْاطَةُ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُعُورِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتِ النَّظَرَ فِيهَا فُقِدَ الْأَجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ إِقْرَاءَهَا وَالْتَّحْلِيقُ لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمُوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمُ الْأَقْلَ وَأَفْلَ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يُطَالَعُ كِتَبَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِيَّتِهِ مُتَسَارًا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ دِرْبَقَةِ الْجُمُهُورِ مَعَ تَشَبُّهِ الصِّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَاعْتِيَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَتَحْنُّ مَحْدُ الْفِقْهِ الَّذِي عَمِّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَّلَتْ مَا حَذَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَكَفَ الْجُمُهُورُ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ الْتَّحْقِيقِ وَالْجَمِيعِ وَطُولِ الْمَدَارِسَةِ وَكَثْرَةِ الْمُجَالِسِ وَتَعَدُّهَا إِنَّمَا يَحْدُقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ فَكَيْفَ يُعْلَمُ مَهْجُورُ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سَدُّ الْمُطَهَّرِ وَالشَّرِيفِ مَسْكُوتُمْ عَنِ الْجُمُهُورِ صَعْبُ الْمَاخِذِي مُعْتَاجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالْتَّحْصِيلِ لِاصْرُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدَسٍ وَتَخْمِينٍ

يَكْتَفِي فَانِيهِ مِنَ النَّاظِرِ فَأَنِينَ التَّحْصِيلُ وَالْجِدْرُ فِيهِ مَعْهُذِهِ كُلِّهَا وَمُدَعِّي ذَلِكَ مِنَ
النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُولُ بِذَلِكَ لِغَرَابَةِ الْفَنِ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَةِ وَقُلَّهُ
حَمَلَهُ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِتَبَيْنَ لَكَ صَحَّةً مَا ذَهَبَنَا إِلَيْهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى عَيْنِهِ
اَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ اَصْحَابِنَا مِنْ اَهْلِ الْعَصْرِ عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ
عَسَاكِرُ السُّلْطَانِ اَبِي الْخَسْنَ وَحَاصِرُوهُ بِالْقِيرَوانِ وَكَثُرَ اِزْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ اَلْأُولَيْنَ
وَالْآءِدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ اَبُو القَاسِمِ الرُّوْسِيُّ مِنْ شُعُرَاءِ اَهْلِ تُونِسَ

قَدْ ذَهَبَ اَعْيُشُ وَاهْنَاءُ

وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
يَخْدِشُهَا الْمُرْجُ وَالْوَبَاءُ
وَمَا عَسَى يَنْفَعُ اَلْمَرْأَهُ
حَلَّ بِهِ الْهُلاَكُ وَالْتَّوَاءُ
بِهِ اِيَّكُمْ صَبَّا رَخَاءَ
يَقْضِي لِعَبْدِنِهِ مَا يَشَاءُ
مَا فَعَلْتَ هَذِهِ اَلْسَهَاءُ
اَنْتُمُ اَلْيَوْمَ اَمْلَيَاهُ
وَجَاءَ سَبْتُ وَازْبَاءُ
وَتَالِثُ ضَمَّهُ الْقَضَاءُ
اَذَاكَ جَهَلُ اُمِّ اَزْدَرَاءُ
اَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفعُ الْقَضَاءُ
حَسْبُكُمُ الْبَدْرُ اَوْذُكُمُ
إِلَّا عَبَادِيدُ اُوْ اِمَامُهُ
وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى اَقْتِضَاءُ
مَا شَانَهُ الْجُرمُ وَالْفَنَاءُ
يَخْدِشُهُ اَلْمَسَاءُ وَالْمُوَاءُ
تَغْدُوُهُ تُرْبَهُ وَمَاهُ

اَسْتَغْفِرُ اللهُ كُلَّ حِينٍ

اَصْبَحَ فِي تُونِسِ وَامْسِيَ
اَلْخُوفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنَاءُ
وَالنَّاسُ فِي مِرْيَةٍ وَحَرْبٍ
فَاحْمَدِي يَرْسَى عَلَيْا
وَآخَرَهُ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي
وَاللهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا
يَا رَاصِدَ الْخَنْسِ اَلْجَوَارِيُّ
مَطَّلَّتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ
مَرَّ خَمِيسٌ عَلَى خَمِيسٍ
وَنِصْفُ شَهْرٍ وَعُشْرُ ثَانٍ
وَلَا نَرَى غَيْرَ ذُورٍ قَوْلٍ
إِنَّا إِلَى اللهِ قَدْ عَلِمْنَا
رَضِيتُ بِاللهِ لِي اِلَهًا
مَا هَذِهِ الْأَبْحَجُمُ اَلْسَوَارِيُّ
يُقْضِي عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي
ضَلَّتْ عُقُولُهُ تُرَى قَدِيمًا
وَحَكَمَتْ فِي الْوُجُودِ طَبَعًا
لَمْ تَرَ حُلُوًا اِزَاءَ مُرِّ

مَا أَنْجُوهُ أَفْرَدُ وَأَنْجَلَاهُ
 مَا لِي عَنْ صُورَةِ عَرَاءِ
 وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا آنْتِفَاءِ
 مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشَّرَاءِ
 مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلَاهُ
 وَلَا جَدَالُ وَلَا رِيَاءِ
 يَا حَبْدَا كَانَ الْاِقْتِفَاءِ
 وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْهَذَاءِ
 أَشْعَرَنِي الصَّبَفُ وَالشِّتَاءُ
 وَأَنْثِيرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءِ
 فَلَسْتُ أَغْصَى وَلِي رَجَاءِ
 أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالشَّرَاءِ
 أَتَاهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءِ
 لَهُ إِلَى رَأْيِهِ آنْتِفَاءِ
 لَقَالَ أَخْبِرُهُ يَا نِي مِمَّا يَقُولُونَ بَرَاءِ

أَللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَذْرِي
 وَلَا أَهْبُولَى الَّتِي تَنَادِي
 وَلَا وُجُودٌ وَلَا آنْعِدَامٌ
 وَالْكَسْبُ لَمْ أَذْرِفْهُ إِلَّا
 وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي
 إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أَصُولٌ
 مَا تَبَعَ الصَّدَرَ وَآفْتَقَنَا
 كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ
 يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي
 لَمْ أُجِزَ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرِّ
 وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا
 وَإِنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارِ
 لَيْسَ أَنْصَارُكُمْ وَلَكِنْ
 لَوْ حُدِّثَ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ
 لَقَالَ أَخْبِرُهُ يَا نِي

الفصل السادس والعشرون

في انكار غرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتهاها

إِعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى أَنْتِحَالِ هُذِهِ
 الصَّنَائِعِ وَيَرْفَعُ أَنْهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ أَفْتَنَاهُ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
 وَامْتَهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرَى تَكَبُّونَ فِيهَا مِنَ الْمَنَاعِبِ وَالْمَشَاقِ وَمَعَانِيَ الْصَّعَابِ وَعَسْفِ
 الْحُكَّامِ وَخِسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي الْنَفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى الْنَيْلِ مِنْ عَرَضِهِ وَالْعَطَبِ آخِرًا
 إِذَا ظَهَرَ عَلَى خَبِيرَةِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْعَمُهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَاهُ أَنَّ
 الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ الْمَادَدِ الْمُشْتَرِكِ فَيَعَاوَلُونَ بِالْمَلَاجِ
 صِيرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مَمْكِنَاتِ عَالَمِ
 الْطِبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفةٌ لِاِخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي الْتَدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي الْمَادَةِ الْمُوَضُوعَةِ عَنْهُمْ لِلِّعَلَاجِ الْمُسَمَّأَةِ عَنْهُمْ بِالْجَرَحِ الْكَرَمِ هَلْ هِيَ
الْعَدْرَةُ أَوَ الدَّمُ أَوَ الشَّعْرُ أَوِ الْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مَمَّا سَوَى ذَلِكَ وَجُمِلَةُ النَّدِيرِ
عَنْهُمْ بَعْدَ تَعْثِينِ الْمَادَةِ أَنْ تُمْهَى بِالْفَهْرِ عَلَى جَرَحٍ صَلِدٍ أَمْ لَسَ وَتُسْقَى أَنْتَهَا إِمْهَا نَهَا
بِالْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا يَنْعَبِبُ الْفَصَدَ مِنْهَا وَبُوْثُرُ فِي
أَنْقَلَابِهَا إِلَى الْمَعْدِنِ الْمَطَلُوبِ ثُمَّ يُجْفَفُ بِالشَّسْسِ مِنْ بَعْدِ السُّفِيِّ أَوْ تُنْطَبَخُ بِاللَّارِ أَوْ
تُصَدَّأُ أَوْ تُكَلِّسُ لِإِسْتَغْرَاجِ مَائِهَا أَوْ تُرَاهِبَهَا فَإِذَا رَدَيْتِ بِذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ عَلَاجِهَا وَتَمَّ
نَدِيرُهُ عَلَى مَا أَقْضَتْهُ أَصْوَلُ صَنْعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلَّهُ تَرَابٌ أَوْ مَائِعٌ يَسْمُونُهُ
الْإِكْسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْفِضَّةِ الْمُحْمَأَةِ بِالنَّارِ عَادَتْ ذَبَابًا أَوْ النَّحَاسِ
الْمُحْمَأَ بِالنَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلَى مَا قُصِّدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ الْمُحْقِقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ
الْإِكْسِيرُ مَادَةٌ مُرَكَّبةٌ مِنَ الْعَانِيرِ الْأَزْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَلِكَ الْعَلَاجُ الْمُخَاصِّ وَالنَّدِيرُ
مِزَاجٌ ذُو قُوَّى طَبَيْعِيَّةٍ تَصْرِيفٌ مَا حَصَلَ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِيَّهُ إِلَى صُورَتِهَا وَمِنْ أَجْرِهَا وَتَبَثُّ
فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ الْسَّكَيْفَيَّاتِ وَالْقُوَّى كَالْخَمِيرَةِ لِلْخَبْزِ لَقْلِبِ الْقَبَيْنِ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ
فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْفِسَاشِ وَالْهَشَاشِ لِيَحْسُنَ هَبْسُهُ فِي الْمَعَدَةِ وَبِسَعْيِهِ سَرِيعًا
إِلَى الْفِدَاءِ وَكَذَا إِكْسِيرُ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِيهَا يَعْصُلُ فِيهِ مِنَ الْمَعَادِنِ بَصَرِيفَهُ إِلَيْهَا
وَيَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهِمْ مَا هَذَا حُصُلُ زَعْنَاهِمْ عَلَى الْجَمْلَةِ فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَذَا الْعَلَاجِ
يَتَعَوَّنُ الْرِّزْقُ وَالْمَعَاشُ فِيهِ وَيَتَنَافَلُونَ أَحْكَامَهُ وَفَوْاعِدَهُ مِنْ كُتُبِ لِائِمَةِ الْصِنَاعَةِ
مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَاوِلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاظِرُونَ فِي قَهْمِ لَفْوزِهَا وَكَشْفُ أَسْرَارِهِمَا إِذَا هِيَ فِي
الْأَكْثَرِ تُشَيَّهُ الْمُعْنَى كَتَالِيفُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانِ فِي رَسَائِلِهِ السَّبْعِينِ وَمَسَامِةُ الْمَجْرِيِّ يَطْبِقُ
فِي كِتَابِهِ رِثْبَةُ الْمُكَيْمِ وَالْمُطَغَّرِيِّ وَالْمُغَيْرِيِّ فِي قَصَائِدِهِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِجادَةِ النَّظَمِ
وَأَمْثَالِهَا وَلَا يَعْلَمُونَ مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلَّهُ يَطَالِلُونَهَا . فَفَوَاضَتْ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا الْبَرَّ كَاتِ
الْتَّلْفِيقِيِّ كَبِيرَ مَشِيخَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَوَقْتَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَنَّاَلِفِ فِيهَا فَتَصَفَّحَهُ
طَوِيلًا ثُمَّ رَدَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لِي وَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيَّ يَسْتَهِي إِلَى الْأَبَاحِيَّةِ ثُمَّ مِنْهُمْ
مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَلِكَ عَلَى الدَّلَسَةِ فَقَطْ إِمَّا الظَّاهِرَةِ كَتَمْوِيَّهِ الْفِضَّةِ بِالْذَّهَبِ أَوِ النَّحَاسِ
بِالْفِضَّةِ أَوْ خَلْطُهَا عَلَى نَسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْءَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَوْ أَلْخَفْيَةِ كَالْقَاءِ الشَّيْءِ بَيْنَ
الْمَعَادِنِ بِالصِّنَاعَةِ مِثْلَ تَبَيْضِ النَّحَاسِ وَتَلَيْسِهِ بِالْأَرْزُوقِ الْمُصَدِّدِ نَيْعِيُّ جِسْمًا مَعْدِنِيَا

شيئاً يَا فِضَّةٌ وَيَخْفَى إِلَّا عَلَى النَّقَادِ الْمُهَرَّةِ فَيُقْدَرُ أَصْحَابُ هَذِهِ الدُّلُسِ مَعَ دُلُسِهِمْ
 هَذِهِ سِكَّةٌ يَسِّرُ بُونَهَا فِي النَّاسِ وَيَطِيعُونَهَا بِطَاعَةِ السُّلْطَانِ تَمُوِّهًا عَلَى الْجَمْهُورِ بِالْخَلَاصِ
 وَهُوَ لَأَنَّ أَخْسَرَ النَّاسَ حِرْفَةٌ وَأَمْوَاهُمْ عَافِيَةٌ لِتَبَسِّمِهِمْ بِسَرْقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَ
 هَذِهِ الدُّلُسَةِ إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نُحَاسًا فِي الْفِضَّةِ وَفِضَّةٌ فِي الْذَّهَبِ لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ
 سَارِقٌ أَوْ شَرِّيْمٌ أَسَارِقَ وَمُهَظِّمٌ هَذَا الصِّنْفِ لَدِينَا بِالْمَغْرِبِ مِنْ طَلَبَةِ الْبَرِّ الْمُتَبَذِّبِينَ
 بِأَطْرَافِ الْقِيَاعِ وَمَسَاكِنِ الْأَغْمَارِ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ وَبِمَوْهُونَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ
 يَنْهَمُ بِأَنَّ بِأَيْدِيهِمْ صَنَاعَةُ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّفُوسُ مُوَاهَةٌ بِجُبْنِهِمَا وَالْأَسْتَهْلَاكِ فِي
 طَلَبِهَا فَيَحْصُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَقْتَلُونَ ذَلِكَ عَنْهُمْ تَحْتَ الْخَوْفِ وَالرَّقَبَةِ إِلَى
 أَنْ يَظْهُرَ الْعَجْزُ وَتَقْعُدَ الْفِضِّيَّةُ فَيَفِرُّونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُونَ حَلَالًا أُخْرَى فِي
 أَسْتِهْلَاكِ بَعْضِ أَهْلِ الدِّينِ بِأَطْمَاعِهِمْ فِيمَا لَدِيهِمْ وَلَا يَرَوْنَ كَذَلِكَ فِي أَبْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ
 وَهَذَا الصِّنْفُ لَا كَلَامٌ مَعْهُمْ لَا نَهْمٌ بَلْغُوا الْغَایَةَ فِي الْجَهْلِ وَالرَّدَاءَةِ وَالْأَخْرَافِ بِالسَّرْقَةِ
 وَلَا حَاسِمٌ لِعَلَيْهِمْ إِلَّا أَشْتَدَادُ الْحُكَّامِ عَلَيْهِمْ وَتَنَازُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطْعُ أَيْدِيهِمْ
 مَتَّى ظَهَرُوا عَلَى شَانِهِمْ لَأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِسِكَّةِ الْتَّيْمَ عَمَّ بِهَا الْبَلْوَى وَهِيَ مَتَّمُولُ النَّاسِ
 كَافَّةٌ وَالسُّلْطَانُ مُكْلَفٌ بِإِصْلَاحِهَا وَالْأَخْتِيَاطِ عَلَيْهَا وَالْأَشْتَدَادُ عَلَى مُفْسِدِيهَا وَأَمَا
 مِنْ أَنْتَهَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَمْ يَرْضِ بِحِمَالِ الدُّلُسَةِ بِلِ أَسْتَكْفَ عَنْهَا وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اِفْسَادِ
 سِكَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَقْدُهُمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالَةَ الْفِضَّةِ لِلْذَّهَبِ وَالرَّصَاصِ وَالنُّحَاسِ
 وَالْقَصَدِيرِ إِلَى الْفِضَّةِ بِذَلِكَ التَّحْوِي مِنَ الْعَلَاجِ وَبِالْأَكْسِيرِ الْخَاصِلِ عَنْهُ فَلَنَا مَعَ هُوَ لَأَنَّ
 مُكْلَمٌ وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ مَعَ أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ يَمْلِمُ لَهُ هَذَا
 الْفَرَضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَّبُ أَعْمَارُهُمْ فِي الْتَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ وَالصَّلَابَةِ
 وَالْتَّصْعِيدِ وَالْتَّكْلِيسِ وَأَعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ يَجْمِعُ الْعَاقَافِيرِ وَالْبَحْثُ عَنْهَا وَيَتَنَاقِلُونَ فِي ذَلِكَ
 حِكَمَاتٍ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْفَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْأُوْصُولِ يَقْنِعُونَ بِأَسْتِمَاعِهَا
 وَالْمُفَاؤَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَانَ الْكَلِفَيْنِ الْمُغَرَّمِينَ بِوَسَائِسِ
 الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمَعَايِنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا
 تَمَّعِنَا وَلَمْ نَرَ هَذِهِ شَانِهِمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ أَنْتَهَى هَذِهِ الصَّنْعَةِ قَدِيمٌ
 فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقْدِمِينَ وَالْمُتَّاخِرِينَ فَلَنْتَقُلْ مَذَاهِبِهِمْ فِي ذَلِكَ

ثم نتلوه بما يظهر فيهما من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكم ما على حال المعادن السبعة المترفة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والذهب والخاتم هل هي مختلفات بالفصل وكلها أنواع قائمة بذاتها أو إنها مختلفة بمحواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو النصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة والبوسية والابن والصلبة والألوان من الصفرة والبياض والسوداد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق إنها مختلفة بالفصل وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بذاته متحقق بحقيقة بحقiqته فصل وحسن شأن سائر أنواع وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لا إمكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجهما بالصنعة فـ هذا الزوج كانت صناعة الكيفيات عنده ممكنة مهللة المأخذ وبني أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقها خالق الأشياء ومقدراها وهو الله عز وجل والحصول بجهولة الحقائق رأساً بالتصور فكيفية يحاول أنقلابها بالصنعة وغلطة الطغراي من أكبر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإن داعيه وإنما هو في إعداد المادة لقوتها خاصة والفصل يأتي من بعد الإعداد من الدين خالقه وبأثره كما ينيض الذر على الأجسام بالصفل والإيماء ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوّره ومعرفته قال وإذا كان قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكون النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الأظافر وتصييره سكراما يخشوا القررون بالعمل بين يدي ذلك الفرع للقررون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتشهد مادة تصييرها للتدارك بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيما الاستعداد ليقول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهو

الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكنه لنا في الرد على أهل هذه الصناعة
 مأخذًا آخر يتبعه منه استحالة وجودها وبطلاً بزعمهم. أجدعهن لا الطغائي ولا ابن
 سينا وذلك أن حاصل على جهيم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد
 الأول يجعلونها موضوعاً ويعاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني
 حتى أحالة ذهبًا أو فضةً ويعاذون القوى الفاعلة والمنعلة ليتم في زمان أقصر
 لأنه تبين في موضوعه أن مضاعنة فوق الفاعل تنقص من زمن فعله وتبيّن أن الذهب
 إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبئري فإذا
 تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على
 ما قلناه أو يتحققون بعلاجهم ذلك حصول صوره مراجحة لتلك المادة تصار لها
 كالميره فتتعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في حالته وذلك هو الإكسير
 على ما تقدم. وأعلم أن كل متكون من المولادات المنصرية فلا بد فيه من اجتماع
 العناصر الازمة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متساوية في النسبة لما تم أمتزاجها
 فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل مترادج من المولادات من
 حرارة غريبة هي الفاعله لكونه الحافظه لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد
 من اختلاف اطواره وانتقاله في زمن الكونين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى
 غايته وأنظر شأن الإنسان في طور النطفه ثم العلاقة ثم المرض ثم التصوير ثم الجنين
 ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها
 وكيفياتها وإلكان الطور الأول يعني هو الآخر وكذا حرارة الغريبة في كل
 طور مخالفه لها في الطور الآخر فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من
 الأطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكتبه ياء
 إلى أن يساوي فعل الطبيعة في المعدن ويعاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ومن
 شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد إليه بالصناعة فمن الأمثل السائرة للحكماء أول
 العمل آخر الفكرة وأخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب
 في أحواله المتعددة ونسبيها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريب عند
 اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم

مقامه حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة في المعدين أو تُعد بعض المواد صورة مزاجية كصورة الخمير للخاز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقوها ومقاديرها وهذه كلها إنما يحصرها العلم، التحفيظ والعلوم البشرية فاصلة عن ذلك وإنما حال من يدعى حسوله على الذهب بهذه الصنعة يماثل من يدعى بالصنعة تخليق إنسان من العين وتحتاج إذا سلمنا له الإحاطة بأجزاءه وبنسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعَالَمَ ذلك عَلَمَ مُحْسِلاً بِتَفاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشَدَّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ سَلَمَنَا لَهُ تَخْلِيقَ هَذَا الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ ذَلِكَ وَلَنْقُرِبَ هَذَا الْبَرْهَانَ بِالْأَخْصَارِ لِيَسْهُلَ فَهْمُهُ فَنَقُولُ . حَاسِلٌ صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبیر أنه مساواة الطبيعة المعدينية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعديني أو تخليق مادة بقوى وافعال وصورة مزاجية تفعّل في الجسم فلا طبيعياً فتصيره وتفعله إلى صورتها والفعل الصناعي مسبق بتصورات أحوال الطبيعة المعدينية التي يقصد مساوتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصوراً مفعلاً واحداً بعد آخر و تلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو يماثل من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو اوثق ما علمناه ولبسَ الاستحالَة فيه من جهة الفضول كما رأيته ولا من الطبيعة إنما هو من تعدد الإحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا يعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالَة من جهة غايته وذلك أن حكمَة الله في الحجرين وندورهما إنما قيم لمكاسب الناس ومتسللاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمَة الله في ذلك وكثير وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتناهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالَة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وتترك أقرب الأغوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معديتها أو أفل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقيها وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالقرب والتحل والتجية وتخليقيها مما منه صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال متحلثوها يحيطون

فِيهَا عَشْوَاهُ إِلَى هَلْمٍ جَرَّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْمُكَابَاتِ الْكَادِيَةِ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
 مِنْهُمْ لَخَفْظَةُ عَنْهُ أَوْ لَادَهُ أَوْ تَلْمِيْنُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنْوِيلَ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَغَمْنَ تَصْدِيقَةُ صَحَّةِ
 الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ الْبَنَآ وَإِلَى غَيْرِنَا وَأَمَا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِكْسِيرَ بِهِ شَابَةٌ
 الْخَمِيرَةُ وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يُجَيلُ مَا يَعْصُلُ فِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمَ أَنَّ الْغَمِيرَةَ إِنَّمَا
 تَقْلِبُ الْعَجَينَ وَتَعْدِهُ لِلْهَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِ سَهْلٌ يَقْعُدُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ
 الْأَفْعَالِ وَالْطَّبَائِعِ وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدَنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى
 فَهُوَ تَكْنُونَ وَصَلَاحٌ وَالْتَّكْوِينُ أَصْبَحَ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يُقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ
 وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وَجُودُهَا كَمَا تَزَعَّمُ الْحُكْمَاءُ الْمُكَلَّمُونَ
 فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلِمَةَ بْنِ أَخْمَدَ الْجَعْرِيِّيِّيِّ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ
 الصَّنَائِعِ الْطَّبَائِعِ وَلَا تَمِمُ بِأَمْرِ صَنَاعَيِّ وَلَبِسِ كَلَامِهِمْ فِيهَا مِنْ مَنْعِنَيِّ الْطَّبَيعَيَّاتِ إِنَّمَا
 هُوَ مِنْ مَنْعِنَيِّ كَلَامِهِمْ فِي الْأَمْوَارِ الْسُّخْرِيَّةِ وَسَائرِ الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْحَلاَجِ
 وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلِمَةُ فِي كِتَابِ النَّايَةِ مَا يُشِيدُهُ ذَلِكَ وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ زَنْبَةِ
 الْحَكَمِ مِنْ هَذَا الْمَنْعِنَيِّ وَهَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رَهَائِلِهِ وَنَحْوُ كَلَامِهِ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا
 حَاجَةَ يَنْتَهِي إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجِمْلَةِ فَأَبْرُدُمَا عِنْهُمْ مِنْ كَلِّيَاتِ الْمَوَادِ الْخَارِجَةِ عَنْ حُكْمِ
 الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيْوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشَبًا أَوْ حَيْوَانًا
 فِيمَا نَدَأْتُمْ بِتَحْلِيقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبُهُ مِنْ مَادَةِ الْذَهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا
 يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا يَأْرِفَادُ مَا وَرَاهُ عَالَمُ الْطَّبَائِعِ وَعَمَلُ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مِنْ
 طَلَبِ الْكِيمِيَاءِ طَلَبًا صَنَاعَيَا ضَيْعَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لَهُذَا النَّذِيرُ الْصِنَاعَيِّ الْنَّذِيرُ
 الْعَقِيمُ لَآنَ نَيْلَهُ إِنْ كَانَ صَحِحًا فَهُوَ وَاقِعٌ مَمَّا وَرَاهُ الْطَّبَائِعُ وَالصَّنَائِعُ كَالْمَشْيَى عَلَى
 الْمَاءِ وَامْتِنَاطِهِ الْهَوَاءِ وَالنُّفُوذِ فِي كَثَافَ الْأَجْسَادِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلَيَاءِ
 الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَحْلِيقِ الْعَيْرِ وَفَعْوَهَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى وَإِذْ تَخَاقُ
 مِنَ الْعَيْنِ كَهِيَّةً الْطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْتَفِعُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَعَلَى ذَلِكَ فَسَيِّلُ تَبَسِيرَهَا
 مُخْتَلَفُ بِحَسْبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا فَرَبِّمَا أَوْتَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتَهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ مَعَارَةً
 وَرُبَّمَا أَوْتَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلُكُ إِيَّاهَا فَلَا تَمِمُ فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَكُونُ
 عَمَلُهَا سِعِيرًا يَقْدِمُ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقْعُدُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ إِنَّمَا مُغْبِرَةً أَوْ

سِرْجَارًا وَلَهُذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكْمَاءِ كُلُّهُمْ فِيهَا إِلَفَازًا لَا يَظْفَرُ بِمَعْنَى قَوْتِهِ إِلَّا مِنْ خَاصَّ لَبَّةِ
مِنْ عِلْمٍ أَسْتَخِرُ وَأَطْلَعُ عَلَى تَصْرِفَاتِ النَّفْسِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَأَمُورِ خَرْقِ الْعَادَةِ غَيْرُ
مُخَصَّصَةٍ وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَّا تَحْصِيلَهَا وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى
الْتِسَاسِ هُذِّي الصِّنَاعَةِ وَأَنْتَهَا هُوَ كَمَا قُلْنَاهُ الْعَجْزُ عَنِ الْطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ
وَأَبْتَغَاهُ مِنْ غَيْرِ وُجُوهِهِ الطَّبِيعِيِّةِ كَالْفِلَاحَةِ وَالْتِجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ فَيَسْتَصْبِطُ الْعَاجِزُ
أَبْتِغَاهُ مِنْ هَذِهِ وَمِنْهُ أَحَدٌ عَلَى الْحُكْمِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةِ
مِنَ الْكِيمِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَأَكْثَرُ مَنْ يُعْنِي بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمْرَانِ حَتَّىٰ فِي الْحُكْمَاءِ
الْمُتَكَلَّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا وَأَسْتَهْلَكَتْهَا فَإِنَّ أَبْنَ سِنِّنَ الْقَائِلَ يَأْسِتُهَا كَانَ عَلَيْهَا الْوَزَرَاءُ
فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْغَنَىٰ وَالثَّرَوَةِ وَالْفَارَابِيُّ الْقَائِلُ يُمْكِنُهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعْوِذُهُمْ
أَدْنَى بِلُغَةِ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهَذِهِ تُهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي اِنْظَارِ النُّفُوسِ الْمُولَعَةِ بِطَرْقِهَا
وَأَنْتَهَا إِلَيْهَا وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيِّنُ لِرَبِّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التأليف في العلوم عائقه عن التحصيل

إِعْلَمُ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْأُقْرَافُ عَلَى غَایَاتِهِ كَثْرَةُ الْتَّأْلِيفِ
وَأَخْتِلَافُ الْأَصْطَلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعْدُدُ طُرُقِهَا ثُمَّ مُطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالْتَّلَمِيذِ بِاِسْتِخْضَارِ
ذَلِكَ وَجِينَيَّثَيْرُ يُسَامُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيَجْتَنَّ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهِ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا
وَمُرَايَا طُرُقِهَا وَلَا يَنِي عُمْرَهُ بِمَا كُتِبَ فِي صَنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقْعُدُ الْقُصُورُ وَلَا
بَدْ دُونَ رُتبَةِ التَّحْصِيلِ وَيُعَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأنِ الْفِقْهِ فِي الْمَذَهَبِ الْمَالِكِيِّ يَا الْكُتُبِ
الْمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفِقِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ أَبْنِ يُونَسَ وَالْخَنْجَنِيِّ
وَأَبْنِ بَشِيرِ وَالْتَّبَّاجِيَّاتِ وَالْمُقْدَمَاتِ وَالْبَيَانِ وَالْتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتِيقَةِ وَكَذِلِكَ كِتَابُ أَبْنِ
الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يَجْتَنَّ إِلَى تَمَيِيزِ الْطَّرِيقَةِ الْقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقُرْطَبِيَّةِ
وَالْبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطَرِيقِ الْمُتَّاخِرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحْاطَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَجِينَيَّثَيْرُ يُسَامُ
لَهُ مَنْصِبُ الْفُتُّوْحَ وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرَّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالَبٌ بِاِسْتِخْضَارِ حِمْسَهَا
وَتَمَيِيزِ مَا يَنْهَا وَالْمُعْرِفَةِ بِنَفْضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوْ أَفْتَصَرَ الْمُعْلِمُونَ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى
الْمَسَائِلِ الْمَذَهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكُلُّ الْأَمْرِ دُونَ ذَلِكَ يُكَثِّيرُ وَكَانَ الْتَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَا خَذَهُ

قرِيباً ولَكِنَّهُ دَائِرٌ لَا يَرْتَفَعُ لِأَسْتِقْرَارِ الْعَوَادِيَّةِ فَصَارَتْ كَالْطَّبِيعَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ
نَقْلُهَا وَلَا تَحْوِيلُهَا وَيُمْثَلُ أَيْضًا عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سَيِّدِوْيِهِ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ
وَطُرُقُ الْبَصَرِيَّينَ وَالْكُوفِيَّينَ وَالْبَغْدَادِيَّينَ وَالْأَنْدَلُسِيَّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطُرُقُ الْمُتَقْدِمِينَ
وَالْمُتَأْخِرِينَ مِثْلُ أَبْنِ الْحَاجِبِ وَأَبْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ كَيْفَ يُطَالِبُ
بِهِ الْمُتَعَلِّمُ وَبِنَقْضِي عُمْرِهِ دُونَهُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي الْفَاتِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ الْنَّادِرِ مِثْلِ
مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْمُهَمِّ مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ
مَصْرَ يُعْرَفُ بِإِيمَانِهِ شَاهِيْمَ ظَاهِرَ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا أَنَّهُ أَسْتَوْلَى عَلَى غَایَةِ مِنْ مَلَكَةِ تِلْكَ
الصِّنَاعَةِ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِسَيِّدِوْيِهِ وَأَبْنِ جَنِيْ وَأَهْلِ طَبَقَتِهِمَا لِعَظَمِ مَالَكَتِهِ وَمَا أَحَاطَ
بِهِ مِنْ أُصُولِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَفَارِيُّهِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَيْسَ مُنْحَصِّراً
فِي الْمُتَقْدِمِينَ سِيمَا مَعَ مَا قَدَّمَنَا مِنْ كَثْرَةِ الشَّوَّاغِبِ بِتَعْدُدِ الْمَذَاهِبِ وَالْطُّرُقِ
وَالْتَّأْلِيفِ وَلَكِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهَذَا نَادِرٌ مِنْ نَوَادِرِ الْوُجُودِ وَلَا فَلَظَاهِرٌ
أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمْرَهُ فِي هَذَا كُلُّهُ فَلَا يَفِي لَهُ بِتَعْصِيلِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مَثَلًاَ الَّذِي
هُوَ اللَّهُ مِنَ الْأَلَاتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي الْمَقْصُودِ الَّذِي هُوَ الشَّرَّةُ وَلَكِنَّ
اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم
ذهب كثيرون من المتأخرین إلى اختصار الطرق والانحراف في العلوم يُولَّون بها
ويُدوِّنون منها يزدَانُجَا مُختصرًا في كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَصْرِ مَسَائِلِهِ وَأَدْلِسِهَا بِالختصار
في الالفاظ وَحَشُوا الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ وَصَارَ ذَلِكَ مُخْلِلاً
بِالْبَلَاغَةِ وَعَسِيرًا عَلَى الْفَهْمِ وَرُبَّمَا عَمَدُوا إِلَى الْكِتَابِ الْأَمْهَاتِ الْمُطَوَّلَةِ فِي الْفُنُونِ
للتفسير والبيان فاختصر وها نَقْرِيبًا المخفي كما فعله أَبْنُ الْحَاجِبِ في الفقه وأَبْنُ مَالِكٍ
فِي الْعَرَبِيَّةِ وَأَنْجُونِجِي في الْمَنْطِقِ وَأَمْتَالِهِمْ وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِالْتَّعْصِيلِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ تَخْلِيَّةً عَلَى الْمُبْتَدِي وَبِالنَّقَاءِ الْفَاسِدَاتِ مِنْ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدْ
لِقَبْوِهَا بَعْدَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ الْتَّعْلِيمِ كَمَا سَيَّا تِيْمَ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ
يَتَبَقَّعُ فِي الْفَاظِ الْأَخْتَصَارِ الْعَوْبِضَةِ لِلْفَهْمِ يَتَزَاحِمُ الْمَعَانِي عَلَيْهَا وَصُعُوبَةُ اسْتِخْراجِ الْمَسَائِلِ

من يئنها لأن الفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عوبصة فينقطع في فهمها حظ صالح عن الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الملاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة وهي ملكة فاصرة عن الملكات التي تحصل من الم الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة بما يقع في تلك من التكرار والإحالة المنفيدين لحصول الملكة التامة وإذا اقتصر على التكرار فصرت الملكة لقلتها كثاف هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاز بكم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات التامة وتمكنها ومن يهد الله فلا مغل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقل لا قليلا لا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده القبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملقة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هي أنها لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيزفنه في التلقين عن تلك الرثبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويمخرج عن الإجمال وبذكرا له ما هناك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحة وفتح له مقلة فيخلص من الفن وقد أستوى على ملكته هذا وجة التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاثة تكرارات وقد يحصل المبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويسير عليه وقد شاهدنا كثيرا من المتعلمين لهذا العلم الذي أدركتا يجهلون طرق التعليم وأفاداته ويخضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقللة من العلم ويطالعون بإحضار ذهنها في حلها ويخسرون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه وبكلفونه رغبي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقوه له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات

ليتهيء نشأ تدريجياً ويبكون المتعلماً أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل
 وعلى سبيل التقرير والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه
 بتدريج قليلاً قليلاً بمخالفته مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ثم في
 انتهي إلى وبعده هو بمسائل الفن وإذا أقيمت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ
 عاجزاً عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من
 صعوبة العلم في نفسه فكاسل عنه وأنحرف عن قبوله وتمادي في هجرانه وإنما أقى
 ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكبر
 على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو متقدماً ولا يخلط
 مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه
 على ملكتها بها يتفقد في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكته ما في علم من العلوم
 استعد بها لقبول ما يجيء وحصل له نشاط في طلب المزيد والنہوض إلى ما فوق حتى
 يستولي على غايات العلم وإذا خاطط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه السلال
 فانطمس فكره ويسوس من الشعور والعلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك
 ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق العجاليس وقطع ما
 ينتها لأنها ذرعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيسر حصول
 الملكتة بتفريقيها وإذا كانت أوائل العلم وأخره حادثة عند الفكرة بجانبة
 النسيان كانت الملكتة أيسر حصولاً وأخلكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات
 إنما تحصل بتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكتة الناشئة عنه
 والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواحية في
 التعليم أن لا يخلط على المتعلم علماً فائناً حينئذ قل أن يظفر بواحد منها لاما
 فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منها إلى فهم الآخر فبستخلاف ما
 ويستصعبان ويعود منها بالثانية وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتضراً عليه
 فربما كان ذلك أخذراً لبعضه والله سبحانه وتعالى أولاً وفق الصواب وأعلم أيها المتعلم
 أني أتحفوك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت
 بكثير عظيمه وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهها وذلك أن الفكر

الأنسانيَّ طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدئاته وهو جنآن حرفة للنفس في البطن الأذى من الدماغ تارة يكون مبدأ للافعال الإنسانية على نظام وترتيب وتأدة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلاً بان يتوجه إلى المطلوب وقد يصور طرفية يرؤم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أمران من لمح البصر إن كان واحداً أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعددًا وبصيراً إلى الظفر بمعطوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكريَّة التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كافية في هذه الطبيعة الفكريَّة النظرية تصفه لتعلم سداده من خطأه وإنما وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتها من أشياء المهمات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذا أمر صناعي مسوق للطبيعة الفكريَّة ومنطبق على صورة فيها وإن كانته أمراً صناعيَاً استفني عنه في الأكثري ولذلك تجد كثيراً من قوالي النظرار في الخلاقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكين بالطبيعة الفكريَّة على سدادها فيضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلائلها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أنها المنهى عن مجاوزتك هذه التجربة كلها إلى الفكرة في مطلبك فإذا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقوله وهي آخرها ثم دلالة الألفاظ المقوله على المعاني المطلوبه ثم القرآن في ترتيب المعاني لاستدلال في قوله المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشتراطياً يقتضى بها المطلوب بالطبيعة الفكريَّة بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه التجربة في التعليم بمسؤولية كل ربما وقف الزهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو غيرها في أشتراك الأدلة تشغب الجدال وال شبكات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكدر بتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً معن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك أرباك في فهمك أو

تشغيب بالشبهات في ذهنك فما طرح ذلك وانتبه حجب الالفاظ وعوائق الشبهات
 وانزلك الامر الصناعي جملة وأخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه
 وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرأتك منه واضعا لها حيث وضعها
 أكباد النظار قبلك مستعرضًا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنيهم من تحنته
 وعلهم ما لم يكُنوا يعلمون فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله
 بالظفر بطلوبك وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر
 ونظره عليه كما قلناه وحيثئذ فاز برجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها
 ووقف حقه من القانون الصناعي ثم أكسه صور الالفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب
 والمشافهة وثيق العرى صحيح البيان. وأما إن وقفت عند المناقشة والشبهة في الأدلة
 الصناعية وتمخض صوابها من خطائها وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها
 المتعددة وتشابة لأجل الوضع والأصطلاح فلا تميز جهة الحق منها إذ جهة
 الحق إنما تستثنى إذا كانت بالطبع فيستلزم ما حصل من الشك والازتاب وسدل
 العجب على المطلوب وتقعد بالتأثر عن تحصيله وهذا شأن الآثارتين من النظار
 والمتاخرين سيماما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شبه
 بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع فيقع في
 الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذرعية إلى إدراك الحق
 بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه إذا جرد عن جميع الأوهام وعارض الناظر
 فيه إلى رحمة الله تعالى وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقة
 في الآثار فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أغوزك فهم المسائل
 تشرق عليك أنواره يا لإلهام إلى الصواب والله الهدى إلى رحنته وما العلم إلا
 من عند الله

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الاطية لا توسع فيها الانظار ولا تنفع المسائل
 اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صفين علوم مقصودة بالذات
 كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والعلوم الإلهيات

من الفلسفة وعلوم هي وسيلة آلة لذو العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات كالمنطق للفلسفة وربما كان الله أعلم الكلام ولا صول الفقه على طريقة المتأخرین فاما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسيعة الكلام فيها وتفريع المسائل وأستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمهلا في ملكته وإيضاً مما يعانيها المقصودة وما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يُوسع فيها الكلام ولا توسيع المسائل لأن ذلك يخرج لها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مافيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطيولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم وأعمى يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة التخو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاصيل والأستدللات بما أخرجوها عن كونها آلة وصيغتها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لا حاجة لها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضره بال المتعلمين على الإطلاق لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فتعذر يظفرون بالمقاصد فلهذا يصعب على المتعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستحرروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عند قعن ثرعت به همة بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليترى له ما شاء من الأمراض صعباً أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل العلم ودرجوه عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض مشون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه

كما يحصل بعد من الممالك وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوحاً وهو أصل لما بعده لأن الساق الأول للقلوب كأساس للممالك وعلى حسب الأسماء وأساييه يكون حال من يتبين عليه وأختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان وأخلاقهم يا اعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الممالك فاما أهل المغرب قمذهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة يالرسم ومسائله وأختلف حملة القرآن فيه لا يخلطون بذلك بسواد في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يتحقق فيه أو ينقطع دونه فيكون اقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الأندلس بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمّ المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا أحد البلوغ إلى الشبيهة وكذا في الكبير إذا رجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أفهم على رسم القرآن وحفظه من سواده وأما أهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يرعاونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأساسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أساساً في التعليم فلا يقتصرون بذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويده أخططاً والكتاب ولا تختص عنائهم فيه بالخط أكثروا من تجعيها إلى أن يخرج الولد من عمر الملوغ إلى الشبيهة وقد شد بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لون كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عن ذلك لأنقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بذلك إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم وأما أهل أفريقيا فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحدث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنائهم بالقرآن واستئثار الولدان إياها ووقفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما يرواه وعنائهم بالخط تبع بذلك وبالجملة قطر لهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الاندلس واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا

وَلَا أَذْرِي بِمَا عَنَّا يَتَّهِمُ بِهِ وَالَّذِي يُنَقِّلُ لَنَا أَنَّ عِنَادِيَّتَهُمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُنْفُ الْعِلْمِ
وَقَوَاعِدِهِ فِي زَمَنِ الشَّجَرَةِ وَلَا يَخْلُطُونَ بِتَعْلِيمٍ أَخْطَرٍ بِلِ التَّعْلِيمِ أَخْطَرٍ عِنْهُمْ فَإِنَّمَا
وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى أَنْفُسِهِ كَمَا تَعْلَمُ سَائِرُ الصَّنَاعَمِ وَلَا يَتَدَأَوْلُونَهَا فِي مَكَانِ الْمِيَانِ وَإِذَا
كَتَبُوا لِهِمُ الْأَلْوَاحَ فَبَخْطٌ فَاصِرٌ عَنِ الْإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعْلِمَ أَخْطَرٍ فَعَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَحِنُ
لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْهِمَةِ فِي طَلَبِهِ وَيَتَغَيِّرُ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ
فَأَفَادُهُمُ الْأَقْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورُ عَنْ مَلَكَةِ الْلِسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا
يَنْشَا عَنْهُ فِي الْفَالِبِ مَلَكَةً إِمَّا أَنَّ الْبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ الْإِنْتِيَانِ بِمَثِيلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُونَ
لِذَلِكَ عَنِ الْأَسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيهِ وَالْأَحْتِذَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةً فِي غَيْرِ أَسَالِيهِ
فَلَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةً فِي الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحَظَّهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ
فِي الْكَلَامِ وَزَبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخْفَى مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلُطُونَ
فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعِلُومِ فِي قَوَاعِدِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ
الْأَعْرَافِ وَمُحَاجَاهَةِ الْمُشَكِّلِ بِالْمِثْلِ إِلَّا أَنْ مَكَّنُوهُمْ فِي ذَلِكَ فَاهِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا
سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفَادُهُمُ التَّفَنُّ فِي الْتَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ دَوَابَةِ الشِّعْرِ
وَالْتَّرَشُلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوْلَى الْعُمُرِ حُصُولَ مَلَكَةَ صَارُوا بِهَا أَغْرَى فِي
الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصَرُوا فِي سَائِرِ الْعِلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ
أَصْلُ الْعِلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍ وَآدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقْصِرٍ عَلَى حَسْبِ مَا
يَكُونُ الْتَّعْلِيمُ الْثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الْصَّيْنِ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَافِيُّ أَبُو بَكْرُ بْنُ الْعَرَبِيُّ فِي
كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةِ غَرْبَةِ فِي وَجْهِ الْتَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَابْدَا وَقَدَمَ الْتَّعْلِيمَ
الْعَرَبِيَّةَ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعِلُومِ كَمَا هُوَ مَذَهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ
الْعَرَبِ وَيَدْعُ عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْتَّعْلِيمِ ضَرُورَةُ فَسَادِ الْأَلْغَةِ ثُمَّ يَتَتَّفِلُ مِنْهُ
إِلَى الْحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَاعِيدِ ثُمَّ يَتَشَقَّلُ إِلَى دَرْسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَبَسِّرُ
عَلَيْكَ بِهِذِهِ الْمُقْدَمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفَلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الْصَّيْنِ يَكِتَابُ اللَّهِ فِي
أَوْامِرِهِ يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصِبُ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِ أَهْمَمُ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ
الْمَدِينِ ثُمَّ أُصُولِ الْفِقَهِ ثُمَّ الْجَدِيلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُطَ فِي الْتَّعْلِيمِ
عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ فَإِبْلًا لِذَلِكَ يَحْمُودَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَافِيُّ

ابو بكر رحمة الله و هو لعمرى مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاخوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إشاراً للبروك والشواب وخشية ما يعرض للوليد في جنون الصبي من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنه مادام في الحجر منقاد للحكم فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشديدة فاقيته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن إنما يذهب خلو منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقوله التعليم لكن هذا المذهب الذي ذكره الفارسي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمسريق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضر بهم

وذلك أن إزهاق الحمد بالتعليم مضر بالتعلم بينما في أصغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعنف والقهر من المتعلمين أو المعاياك أو الخدم سطأ به القهر وضيق عن النفس في انساطها وذهب بنشاطها وداعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبيث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انساط الآيدي بالقهر عليه وعلمه المكر وآخذته لذلك وصارت له هذه عادة وخلقها وفسدت معانى الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومتراه وصار عياً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فاز تكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حملت في قبضة القهر وتال منها العنف وأعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استفراط وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلقسوء حتى إنهم يوصون في كل أفق وعصر بالخرج ومعناه في الأصطلاح المشهور التخاذل والكيد وسببه ما قلناه فيبني للجعلم في متعمليه والوليد في قوله أن لا يستبدَا عليهما في التأديب وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المتعلمين والمتعمليين لا ينبغي لمودي باليهيان أن يزيد في ضررهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً ومن

كَلَامٌ عَمَرَ رَخِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤْدِ بِهِ الشَّرْعُ لَا أَدْبَهُ اللَّهُ حِرْصًا عَلَى صَوْنِ النَّفوسِ عَنْ مَذَلَّةِ النَّادِيبِ وَعِلْمًا يَأْنَى الْمَقْدَارُ الَّذِي عَيْنَهُ الشَّرْعُ لِذَلِكَ أَمْلَكَ لَهُ فَانِهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِهِ وَمِنْ أَحْسَنِ مَذاهِبِ الْعِلْمِ مَا تَقْدَمَ بِهِ الْأَرْشِيدُ لِمَعْلَمٍ وَالْمَدِيْنَ حَمْدَهُ الْأَمِينِ ذَقَالَ يَا أَخْمَرُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ الْبَلْكَ مُهِجَّةً نَفْسِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ فَصَرِّزَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ مُبْسُطَةً وَطَاعَتْهُ لَكَ وَاجِبَةً وَكُنْ لَهُ بِحِيثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَفْرَانَهُ الْقُرْآنَ وَعَرَفَهُ الْأَخْيَارَ وَرَوَهُ الْأَشْعَارَ وَعَلَمَهُ الْسُّنَّانَ وَبَصِّرَهُ بِمَوْاْفِعِ الْكَلَامِ وَبِهِدَيَهُ وَأَمْنَعَهُ مِنَ الْفَحَلِكَ إِلَّا فِي أَوْفَانِهِ وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفِعُ مَجَالِسِ الْقُوَّادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَةً وَلَا تَمْرُنَ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مُغْتَسِّبٌ فَائِدَةً تُقْبِلُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْرِنَهُ فَتُمْسِّكَ ذَهْنَهُ وَلَا تَمْعَنَ فِي مُسَاحَتِهِ فَبِسْتَجْلِيَ الْفَرَاغَ وَبِاللهِ وَقْوَمَهُ مَا أَسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمُلَابَنَةِ فَإِنْ أَبَاهَا فَعَلَيْكَ بِالشِّدَّةِ وَالْفِلَاظَةِ انتَهِي

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيعة مزيد كمال في التعلم
 والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهـم وأخلاقـهم وما يتعلـلون بهـ منـ
 المذاهـبـ والفضـائلـ تـارـةـ عـلـمـاـ وـتـعلـيمـاـ وـإـلـقاـءـ وـتـارـةـ شـعـاكـاـةـ وـتـأـقـيـنـاـ بـالـمـبـاـشـرـةـ إـلـاـ إـنـ
 حـصـولـ الـمـلـكـاتـ عـنـ الـمـبـاـشـرـةـ وـالـتـقـيـنـ أـشـدـ أـسـتـحـكـاـمـ وـأـقـوـيـ رـسـوـخـاـ فـعـلـيـ قـدـرـ
 كـثـرـةـ الشـيوـخـ يـكـونـ حـصـولـ الـمـلـكـاتـ وـرـسـوـخـاـ وـالـأـصـطـلـاحـاتـ أـيـضاـ فـيـ تـعـاـيمـ
 الـعـلـومـ مـخـلـطـةـ عـلـىـ الـمـعـلـمـ حـتـىـ لـقـدـ يـظـنـ كـثـيرـ مـنـهـمـ أـنـهـ جـزـءـ مـنـ الـعـلـمـ وـلـاـ يـدـفـعـ عـنـهـ
 ذـلـكـ إـلـاـ مـبـاـشـرـةـ لـأـخـتـلـافـ طـرـقـ فـيـهاـ مـنـ الـمـعـلـمـيـنـ فـلـقـاءـهـاـ هـلـ الـعـلـومـ وـتـعـدـ الـمـشـاـيخـ
 يـقـيـدـهـ تـقـيـيـزـ الـأـصـطـلـاحـاتـ بـمـاـ يـرـأـهـ مـنـ أـخـتـلـافـ طـرـقـهـ فـيـهاـ فـيـجـرـدـ الـعـلـمـ عـنـهـ وـيـعـلـمـ
 أـنـهـاـ أـنـجـاءـ تـعـلـيمـ وـطـرـقـ تـوـصـلـ وـتـهـبـ قـوـاهـ إـلـىـ الرـسـوـخـ وـالـأـسـتـحـكـاـمـ فـيـ الـمـكـانـ
 وـتـصـحـحـ مـعـارـفـهـ وـتـمـيـزـهـ عـنـ سـوـاهـاـ مـعـ تـقـوـيـةـ مـلـكـاتـهـ بـالـمـبـاـشـرـةـ وـالـتـقـيـنـ وـكـثـرـتـهـاـ
 مـنـ الـمـشـيـخـةـ عـنـدـ تـعـدـهـ وـتـنـوـعـهـمـ وـهـذـاـ لـمـرـ يـسـرـ اللـهـ عـلـيـهـ طـرـقـ الـعـلـمـ وـالـهـدـاـيـةـ
 فـاـلـرـحلـةـ لـأـبـدـ مـنـهـاـ فـيـ طـلـبـ الـعـلـمـ لـأـكـتـسـابـ الـفـوـائدـ وـالـكـمـاـلـ بـلـقـاءـ الـمـشـاـيخـ وـمـبـاـشـرـةـ
 الـرـجـالـ وـالـلـهـ يـهـدـيـ مـنـ يـشـأـهـ إـلـىـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك انهم معتادون بالغوص على المعانى والغوص على المعانى واقتراحها من المحسوسات وتجريدها في الذهن اموراً كثيرة عامة ليحكم عليها بما من العموم لا يخصص مادة ولا شخص ولا جيل ولا امة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلى على الخارجيات وأيضاً يقيسون الامور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة إلى المطابقة وإنما يتفرع ما في الخارج عملاً في الذهن من ذلك كالأحكام الشرعية فإنها فروع عملاً في الحفظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الانظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج فهم متعددون في سائر انظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يغرون سواها والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يتحققها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلهاها بشيء أو مثال وبناء في الكلى الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقياس شيئاً من أحوال العمران على الآخر كما أشتبها في أمر واحد فالمطلوب أخذها في أمور فتسكون العلماء لأجل ما تعودون من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض فإذا نظروا في السياسة افرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استند للأقوال في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم وبذلك يهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بثواب ذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعانى والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعامي السليم الطبيع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتماده إياه يقتصر بكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الأحوال وألا يخصص على ما يخص به ولا يعني الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظرو المواد المحسوسة ولا يتجاوزها في ذهنه كالسابع لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر

فلا توغلن إذا ما سبجت م فإن السلامه في الساحل

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمًا النَّظَرِ فِي مُعَالَةِ أَبْنَاءِ جِنِّيهِ فَيَجْعَلُ
مَعَاشَهُ وَتَنَدَّعَ اَفَاتُهُ وَمَضَارَهُ بِاَسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ
أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةِ الْغَلْطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْاِتْزَاعِ وَبَعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ
فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ اَثْوَانِي وَلَعَلَّ الْمَوَادَ فِيهَا مَا يُمَانِعُ تِلْكَ الْاِحْكَامَ وَبِنَافِيَهَا
عِنْدَ رِعَايَةِ التَّطَبِيقِ الْيَقِينِيِّ وَمَا النَّظَرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ اَلْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَعْرِيدُهَا قَرْبَتُ
فَلَبِسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ الْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤْذِنَةٌ بِتَصْدِيقِ الْأَنْطِيقِ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثُرُهم العجم
من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية اكثُرُهم العجم لا من
العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في
نسبته فهو عجمي في لغته ومرباءه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي
والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ليقتضي أحوال
السَّدَاجَةِ وَالْبَدَأَةِ وَإِنَّمَا أَخْكَامُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ وَنَوْاهِيهِ كَانَ إِلَرِجَالٍ
يَنْقُلوُنَّهَا فِي صُدُورِهِمْ وَفَدَ عَرَفُوا مَا خَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ بِمَا تَلَقَوهُ مِنْ صَاحِبِ
الشَّرِيعَةِ وَاصْحَابِهِ وَالْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّعْلِيمِ وَالنَّاُلِفِ وَالنَّدُوِينِ وَلَا
دُفِعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعْتُمُهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةً وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ الْمَعْحَابَةِ وَالْتَّائِبِينَ وَكَانُوا
يُسْكُونَ الْمُخْتَصِّينَ بِمَحْمَلِ ذَلِكَ وَتَقْلِيلِهِ إِلَى الْقُرْءَانِيِّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أَمِينِينَ
لَاَنَّ الْأَمْمَةَ يَوْمَئِذٍ صَنَّةٌ عَامَةٌ فِي الْمَعْحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحِمَالَةِ الْقُرْآنِ يَوْمَئِذٍ فَرَأَتُهُ
إِشَارَةً إِلَى هَذَا فَهُمْ قُرْآنٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنْنَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا
الْأَخْكَامَ الْشَّرِيعَةِ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَقْسِيرٌ لَهُ وَشَرْحٌ
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيمُكُمْ أَمْرِيْنِ لَنْ تَضَلُّوا مَا تَمَسَّكُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ
وَمُسْنَى فَلَمَّا بَعْدَ النَّقْلِ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ الْرَّاشِدِيْنَ فَمَا بَعْدُ أَخْتَيَّرَتْ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيِّةِ
وَتَقْسِيرِ الْحَدِيثِ بِمَخَافَةِ ضَيَاعِهِ ثُمَّ أَخْتَيَّرَتْ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيْدِ وَتَعْدِيلِ النَّاقِلِينَ لِلتَّسْبِيحِ
بَيْنَ الْصَّحِيحِ مِنَ الْأَسَانِيْدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ أَسْتَغْرِيْجُ الْأَخْكَامِ الْوَافِعَاتِ مِنْ

الكتاب والسنّة وفسد مع ذلك الالسان فاختىج إلى وضع القوانيين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملوكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس وأحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثره البدع والإلحاد فصارت هذه العلوم كلها عوناً ذات ملوكات تحتاج إلى التعليم فأندرجت في جملة الصنائع وقد كذا قدمنا أن الصنائع من منتعل الحضير وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم بذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر بذلك العبر لهم الأعجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل المعاشر الذين هم يومئذ يسعون للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوام على ذلك الحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعدهما والزجاج من بعديهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في الالسان العربي فاكتسبوه بالمربي ومغالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستخدمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يُعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأباء والأئمة وظهر مصدق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بما كناف السماء لتأله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البدأ فشغلاهم الرئاسة في الدولة وحميتها وأولى سياستها مع ما يحتمل من الآفة عن انتقال العلم حيث ذهب ما صار من جملة الصنائع وأثره ومساره أبداً يستثنون عن الصنائع والمهن وما يجري إليها ودفعوا بذلك إلى من قام به من العجم والموالدين وما زالوا يرثون لهم حق القيام به فإنهم دينهم وعلومهم ولا يعتقدون حملتها كل الاختصار حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للمعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هي عليه من بعد عن إسلامها وأمتهم حملتها بما يرثون أنهم بعدهم مشغلين بما لا يعني ولا يجيء عليهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشرعية أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في العلة إلا بعد أن

تَمْيِيز حَمْلَة الْعِلْم وَمُؤْلِفُوهُ وَأَسْتَقْرَأُ الْعِلْم كُلُّهُ صِنَاعَةٌ فَأَخْتَصَتْ بِالْعِجْم وَتَرَكَنَّهَا الْعَرَبُ وَأَنْصَرُوا عَنِ اِنْتَهَا فَلَم يَحْمِلُنَا إِلَّا الْمُعَرِّبُونَ مِنَ الْعِجْم شَانَ الصَّنَاعَة كَمَا قُلْنَاهُ أَوْلَى فَلَم يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ مَا دَامَتِ الْخِضَارَةُ فِي الْعِجْم وَبِالْأَدَمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ فَلَمَّا خَرَبَتْ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْخِضَارَةُ الَّتِي هِيَ يَسِيرُ اللَّهُ فِي حُصُولِ الْعِلْم وَالصَّنَاعَة ذَهَبَ الْعِلْم مِنَ الْعِجْم جُمْلَةً لِمَا شَهَدُوهُمْ مِنَ الْبَدَاوِةِ وَأَخْتَصَّ الْعِلْم بِالْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْخِضَارَةِ وَلَا أَوْفَرَ الْيَوْمَ فِي الْخِضَارَةِ مِنْ مِصْبَرٍ فَهِيَ أُمُّ الْعَالَمِ وَإِيَّوْانُ الْإِسْلَامِ وَيَنْبُوُعُ الْعِلْم وَالصَّنَاعَة وَيَقِيَّ بَعْضُ الْخِضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ النَّهْرِ لِمَا هُنَاكَ مِنَ الْخِضَارَةِ بِالْدُّوَلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَمُّ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعِلُومِ وَالصَّنَاعَةِ لَا تُنْسَكُ وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامًا بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَأْلِيفٍ وَصَلَّتْ إِلَيْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ سَعْدُ الْمَدِينِ التَّفَازَانِيُّ وَأَمَا غَيْرُهُ مِنَ الْعِجْم فَلَمْ تَرَاهُمْ مِنْ بَعْدِ الْأَعْمَامِ أَبْنَى الْخَطَّيْبُ وَتَصَيِّرُ الْمَدِينِ الْطَّوْسِيَّ كَلَامًا يُعَوَّلُ عَلَى نِهَايَتِهِ فِي الْإِصَابَةِ فَأَعْتَبَرُ ذَلِكَ وَتَأْمِلُهُ تَرَعِيْجَهُ فِي أَحْوَالِ الْخَلَقَةِ وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسِبَنَا اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أَزْكَانُهُ أَزْبَعَةٌ وَهِيَ الْلُّغَةُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ الشَّرِيعَةِ إِذْ مَا يَخْذُلُ الْأَحْكَامُ الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَهِيَ يَاغِيَّ الْعَرَبِ وَنَقْلُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرِخُ مُشَنْكَ لِإِلَيْهَا مِنْ لُغَاهِمُ فَلَا بُدُّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعِلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا الْلِّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ وَتَنَافَوْتُ فِي الْأَنْوَافِ كِيدَ بِتَفَاؤْتِ مَرَاتِبِهَا فِي الْتَّوْفِيقَةِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ حَسِبَمَا يَتَبَيَّنُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنَا وَالَّذِي يَتَحَصَّلُ أَنَّ الْأَهْمَمَ الْمَقْدِمُ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تَبَيَّنُ اصْوُلُ الْمَقَاصِدِ بِالسَّلَالَةِ فَيُعْرَفُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَا مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَاهُ لَجَهَلَ أَصْلُ الْإِفَادَةِ وَكَلَّ مِنْ حَقِّ عِلْمِ الْلُّغَةِ الْتَّقْدِيمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ بَاقِيَّةٌ فِي مَوْضُوعَاتِهَا لَمْ تَغِيرْ بِخِلَافِ الْإِعْرَابِ الْهَدَالِ عَلَى الْإِسْنَادِ وَالْمُسْتَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغِيرُ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَقِنْ لَهُ أَثْرٌ فَلَذِكَ كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهْمَمَ مِنَ الْلُّغَةِ إِذْ فِي جَهَلِهِ الْإِخْلَالُ بِالْتَّفَاهِمِ جُمْلَةً وَلَيْسَ كَذَلِكَ

اللَّهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ فِي الْمُتَعَارِفِ فِي عِبَارَةِ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِيْلِسَافِيْ قَلَّا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرَّرَةً فِي الْعُضُوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ الْإِسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يَحْسَبُ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْخَاصَّةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْسَعَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِدَلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي مِنَ الْجَمِيعِ وَأَعْنَى الْمُفَاصَفَ وَمِثْلَ الْعُرُوفِ الَّتِي تُفْغَى بِالْأَفْعَالِ إِلَى الْذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ مَكْلُوبِ الْفَاظِ أُخْرَى وَلَيْسَ بُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ تَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَاظِ تَخَصُّهُ بِالْدَّلَالَةِ وَلَذِلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْجَمِيعِ مِنْ تَخَاطِبِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقْدِرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمَاتِ وَأَخْتُصَرَ لِي الْكَلَامُ أَخْتِصَارًا فَصَارَ لِلْعُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ وَأَخْرَجَ كَانَ وَالْمُيَنَاتِ أَيِّ الْأَوْضَاعِ أَعْتَبَارًا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرِ مُتَكَلَّفِينَ فِيْلِسَافَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي الْأَسْتِئْمِ يَا خُذُهَا أَلَّا يَرُونَ أَوْلَى كَمَا تَأْخُذُ صِنْيَانَا لِهَذَا الْعَهْدِ لِغَانِيَا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْمَجَازَ لِطَابَ الْمُلَكُ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَّةِ وَالْدُّولِ وَخَالَطُوا الْجَمِيعَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا الَّتِي أَلْسَنَتُ مِنَ الْمَخَالَفَاتِ الَّتِي لِمُشَعِّرِيْنَ وَالْمُعْمَمِيْنَ أَبُو الْمَكَاتِ الْأَسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا الَّتِي إِلَيْهَا مِمَّا يُنَاهِيْهَا لِجَنُوحِنَا إِلَيْهِ يَا عَتِيَادِ الْسَّمْعِ وَخَشِيَ أَهْلُ الْعِلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةَ رَأْسًا وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغُلُقُ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَأَسْتَبَطُوا مِنْ بَحَارِيِّ كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَرِّدَةً شِبَهَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلِمَاتِ وَيَلْعَقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولُ مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَأَصْنَلُهُوا عَلَى تَسْمِيَّةِ إِغْرَابِيَا وَتَسْمِيَّةِ الْمُوْجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَأَمْثَالَ ذَلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا أَصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فَقَيَّدوْهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً وَأَصْنَلُهُوا عَلَى تَسْمِيَّتها بِسِلمِ النَّحْوِ وَأَوْلُ مِنْ كَثِيرٍ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدُ الدُّوْلِيُّ مِنْ بَنِي كَيَانَةَ وَيُقَالُ بِإِشَاقَةِ عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهِ فَغَزَعَ إِلَى

ضَبَطْهَا بِالْقَوَانِينَ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنْ اَنْتَهَتْ إِلَى
 الْخَلِيلِ بْنِ أَخْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ أَخْرَجُ إِلَيْهِ الْذَّهَابَ تِلْكَ الْمَلَكَةَ
 مِنَ الْعَرَبِ فَهَذِبَ الصِّنَاعَةَ وَكَمَلَ أَبُو ابْهَاؤْ أَخْذَهَا عَنْهُ سَيْبَوَيْهَ فَكَمَلَ تَفَارِبَهَا وَأَسْتَكَرَ
 مِنْ أَدْلِتَهَا وَشَوَّهَهَا وَوَضَعَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمُشْهُورَ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا
 مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلَيِّ الْفَارَسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الْزَّجَاجُ كِتَابًا مُختَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخْذُونَ
 فِيهَا حَذْوَ الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ ثُمَّ طَالَ الْكَدَمُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَحَدَثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا
 فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمُصْرَنِينَ الْقَدِيمَيْنَ لِلْعَرَبِ وَكَثُرَتِ الْأَدَلةُ وَالْعِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَيَّنَتْ
 الْطُّرُقُ فِي الْأَعْلَمِ وَكَثُرَ الْأَخْلَافُ فِي الْغَرَبِ كَثِيرٌ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ يَا خِلَافَهُمْ فِي
 تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَاءَ الْمُتَاَخِرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي الْأَخْتِصارِ
 فَأَخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ أَسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَّ كَمَا فَعَلَهُ أَبْنُ مَالِكٍ فِي
 كِتَابِ الْتَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوْ أَقْصَارِهِمْ عَلَى الْمُبَادِيِّ وَالْمُتَعَلِّمِينَ كَمَا فَعَلَهُ الْزَّمَشَرِيُّ
 فِي الْمَقْصِلِ وَأَبْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقْدَمَةِ لَهُ وَرَبِّمَا نَظَمَوْا ذَلِكَ نَظَمًا مُثْلَ أَبْنِ مَالِكٍ فِي
 الْأَزْجُوزَتِينِ الْكَبْرَى وَالصَّغِرَى وَأَبْنِ مُعْطَبٍ فِي الْأَزْجُوزَةِ الْأَنْفِيَةِ وَبِالْجَمْلَةِ فَالْأَنَّالِيفُ
 فِي هَذَا الْقَنْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَخْصِي أَوْ يَحْاطَ بِهَا وَطُرُقُ التَّعَلِيمِ فِيهَا مُخْتَلَفَةٌ فَطَرِيقَةٌ
 الْمُشَقَّدَمِينَ مُغَایِرَةٌ لِطَرِيقَةِ الْمُتَاَخِرِينَ وَالْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ
 وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلَفَةٌ طُرُقُهُمْ كَذَلِكَ وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ تُؤْذَنُ بِالْذَّهَابِ لِمَا
 رَأَيْنَا مِنَ النَّقصِ فِي سَائِرِ الْهُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَافُصِ الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ
 طَهِيدُ الْعُصُورِ دِيَوَانٌ مِنْ مَصْرَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هَشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا أَسْتَوْفَيَ
 فِيهِ أَحْكَامَ الْأَغْرَابِ بِجَمِيلَةِ وَمَفَاصِلِهِ وَتَكَامَ عَلَى الْمَرْوُفِ وَالْمُفَرَّدَاتِ وَالْجُمَلِ
 وَحَذَفَ مَا فِي الصِّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَجَرَّرِ فِي أَكْثَرِ أَبُو ابْهَاءِ وَسَاهَ بِالْدُّخْنِيِّ فِي الْأَغْرَابِ
 وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ كَتَبَ الْأَغْرَابِ الْقُرْآنَ كُلُّهَا وَضَبَطْهَا بِأَبُو ابْهَاءِ وَفُصُولِ وَفَوَاعِدِ أَنْتَظَمَ
 سَائِرُهَا فَوَقَفْنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمِ جَمَ بِشَهَدٍ يَعْلُو قَدْرُهِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَوُفُورِ بِشَاعِرِهِ
 مِنْهَا وَكَانَهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْجَاهَ أَهْلِ الْمَوْصَلِ الَّذِينَ أَقْتَلُوا أَثْرَ أَبْنِ جَنِيِّ وَأَتَبَعُوا
 مُضْطَلَّعَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ يَشَّيِّهِ عَجَيبِ دَالِ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَأَطْلَاعِهِ وَاللهُ
 يَزِيدُ فِي الْخَلَاقِ مَا يَشَاءُ

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسّرت ملائكة اللسان العربي في آخر كات المسمى عند أهل التحوي بالإغرب واستنبطت القرآن لحفظها كما فعلناه ثم أشمر ذلك الفساد بملابسية التجمّع وخالفتهم حتى تأدي الفساد إلى موضوعات الألفاظ فما نتعلّم كثير من كلام العرب في غير موضوع عندهم ميلاً مع هجنة المستعر بين في أصطلاحاتهم الخالفة لصريح العربية فاختيّر إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتذوين خيبة الدروس وما ينشأ عنها من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدوادر وكان سابق التجربة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المجمع كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو عاية ما ينتهي إليه التراكيب في اللسان العربي وتأتي له حصر ذلك بوجوه عديدة حاذقة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المجمع يواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع السنّة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً ف تكون كلها أعداداً على توالٍ من واحد إلى سبعة وعشرين فتُجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التراكيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفًا ف تكون ثلاثة ف تكون الثنائي بما زلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالٍ العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مجموعات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع راكيتها من حروف المجمع وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المجمع بالترتيب المتعارف وأعتمد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعدة من حروف الحنك ثم الآخرين ثم

الشَّفَةِ وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعَلَةِ آخِرًا وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوَايِّةُ وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْحَكْمِ بِالْعَيْنِ
 لِأَنَّهُ الْأَقْصَرُ مِنْهَا فَلَذِلِكَ سُمِّيَ كِتَابَهُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذَهَّبُونَ فِي تَسْمِيَّةِ
 دَوَارِيْنِهِمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَهُوَ تَسْمِيَّةُ بِأَوَّلِ مَا يَقْعُدُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفاظِ ثُمَّ
 بَيْنَ الْمُهْمَلِ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ وَكَانُ الْمُهْمَلُ فِي الرِّبَاعِيِّ وَالْخَمَامِيِّ اكْثَرَ أَقْلَمَهُ
 أَسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لَهُ لِشَفَلِهِ وَلِحَقِّ بِهِ الْثَّنَائِيِّ لِقَلَّةِ دَوَارَانِهِ وَكَانَ الْأَسْتِعْمَالُ فِي الْثَّلَاثِيِّ
 أَغْلَبَ فَكَانَتْ أَوْضَاعُهُ أَكْثَرَ لِدَوَارَانِهِ وَضَمَّنَ الْخَلِيلُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ
 وَاسْتَوْعَبَهُ أَخْسَنَ أَسْتِعْمَابٍ وَأَوْفَاهُ وَجَاءَ أَبُوبَكْرُ الْزَّيْدِيُّ وَكَفَ لِهِشَامِ الْمُؤَيدِ
 بِالْأَنْدَلُسِ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَأَخْتَصَرَهُ مَعَ الْمُحَاوَفَةِ عَلَى الْأَسْتِعْمَابِ وَحَذَفَ مِنْهُ الْمُهْمَلَ
 كُلُّهُ وَكَثِيرًا مِنْ شَوَّاهِدِ الْمُسْتَعْمَلِ وَلِخَصَّهُ لِلْحِفْظِ أَخْسَنَ تَلْخِيصِهِ وَالْفَ الْجَزَوِرِيُّ
 مِنَ الْمَشَارِقِ كِتَابَ الصَّحَاحِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِفِ لِحُرُوفِ الْمُكْتَبِ فَجَعَلَ الْبَدَاهَةَ مِنْهَا
 بِالْهَمَزَةِ وَجَعَلَ التَّرْجِمَةَ بِالْحُرُوفِ عَلَى الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنَ الْكَلِمَةِ لِأَضْطَرِ إِلَيْهِ النَّاسِ فِي
 الْأَكْثَرِ إِلَيْهِ أَوْخِرِ الْكَلِمَ وَحَصْرِ الْلُّغَةِ أَقْتَدَاهُ بِمَحْضِ الْخَلِيلِ ثُمَّ أَلْفَ فِيهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ أَبْنَ
 سِيدَهُ مِنْ أَهْلِ دَانِيَّةِ فِي دُولَةِ عَلَيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابَ الْمُحْكَمِ عَلَى ذَلِكَ الْمُعْتَنَى مِنَ الْأَسْتِعْمَابِ
 وَعَلَى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ وَزَادَ فِيهِ التَّعَرُضُ لِاَشْتِقَاقَاتِ الْكَلِمِ وَنَصَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ
 أَخْسَنِ الدَّوَارِيْنِ وَلِخَصَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْحُسْنِ صَاحِبُ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدُّوَلَةِ الْخَفَصِيَّةِ
 بِتُونِسِ وَقَلَبَ تَرْتِيبَهُ إِلَى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصَّحَاحِ فِي أَعْتِيَارِ أَوْخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ
 عَلَيْهَا فَكَانَا تَوَآمِي رَحِيمٌ وَسَلِيلِي أُبُوهُهُذِهِ أَصُولُ كِتَبِ الْلُّغَةِ فِيهَا عَلِمْنَاهُ وَهُنَاكَ
 مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفِ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعَبَةٌ لِبَعْضِ الْأَبْوَابِ أَوْ لِكُلِّهَا إِلَّا
 أَنَّ وَجْهَ الْحَصْرِ فِيهَا خَفِيٌّ وَوَجْهَ الْحَصْرِ فِي تِلْكَ جَلِّي مِنْ قِبَلِ الْتَّرَاكِيبِ كَمَا رَأَيْتَ وَمِنْ
 الْكِتَبِ الْمُوَضُوعَةِ أَيْضًا فِي الْلُّغَةِ كِتَابُ الْزَّمْخَشَرِيِّ فِي الْجَمَازِ بَيْنَ فِيهِ كُلُّ مَا تَجْوَزَتْ
 بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الْأَلْفاظِ وَفِيهَا تَجْوَزَتْ بِهِ مِنَ الْمَدُولَاتِ وَهُوَ كِتَابُ شَرِيفٍ إِلَيْفَادَةِ
 ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْعَرَبُ تَضَعَ الْشَّيْءُ عَلَى الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمَلُ فِي الْأَمْوَارِ الْخَاصَّةِ الْفَاطِلَةِ
 أُخْرَى خَاصَّةٌ بِهَا فَوْقَ ذَلِكَ عِنْدَنَا بَيْنَ الْوَضْعِ وَالْأَسْتِعْمَالِ وَأَحْتَاجَ إِلَى فِقْهٍ فِي الْلُّغَةِ
 عَزِيزٌ الْمَأْخَذُ كَمَا وُضِعَ الْأَيْضُ بِالْوَضْعِ الْعَامِ لِكُلِّ مَا فِيهِ يَكْافِ ثُمَّ أَخْتُصُّ مَا فِيهِ
 يَكْافِ مِنَ الْخَلِيلِ بِالْأَشْهَبِ وَمِنَ الْإِنْسَانِ بِالْأَزْهَرِ وَمِنَ الْفَنَرِ بِالْأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ أَسْتِعْمَالُ

الإيضاح في هذه كُلِّها لخنا وَخُروجاً عن لسان العرب وأختص بالتألُّف في هذا المعنى
التعلّقي وَأُفوده في كتاب له سماه فِيقه الْلُّغَةِ وهو من أكثَر ما يأخذ به الأغويق نفَسَه
أن يُعرِّف أَسْتِعْمَالَ الْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَلَبِسَ مَعْرِفَةَ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي التَّرْتِيبِ
حَتَّى يَشَهَّدَ لَهُ أَسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ وَأَكْثَرُ مَا يَتَعَاجِلُ إِلَى ذَلِكَ الْأَدِيبُ فِي فَنِي
تَظْعِيمِ وَتَزْوِيجِ حَذَرًا مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لَحْنُهُ فِي الْمَوْضِعَاتِ الْلُّغَوِيَّةِ فِي مُفَرِّدَاتِهَا وَتَرَاكِيهَا
وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْلَّهُنَّ فِي الْأَيْغُرَابِ وَأَقْبَشُ وَكَذَلِكَ الْفَتَّ بَعْضُ الْمُتَّاخِرِينَ فِي الْأَلْفَاظِ
الْمُشْتَرِكَةِ وَتَكَفَّلَ بِحَصْرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى النِّهَايَةِ فِي ذَلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلْأَكْثَرِ
وَأَمَّا الْمُخْتَصَرَاتُ الْمُوَجَّهَةُ فِي هَذَا الْفَنِ الْمُخْصُوصَةُ بِالْمُتَّدَاوِلِ مِنَ الْلُّغَةِ الْكَثِيرِ
الْأَسْتِعْمَالِ تَسْهِيلًا لِلْحَفْظِهَا عَلَى الطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلُ الْأَلْفَاظِ لِابْنِ السَّكِيْتِ وَالْفَصِيحِ
الْمُعَلَّبِ وَغَيْرِهَا وَبَعْضُهَا أَقْلُ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لِاِخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ فِي الْأَمْمَ عَلَى الطَّالِبِ
لِلْحِفْظِ وَاللَّهُ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ لَأَرَبَّ سِوَاهُ

علم البيان

هَذَا الْعِلْمُ حَادِثٌ فِي الْمُلْمَةِ بَعْدَ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْلُّغَةِ وَهُوَ مِنَ الْعِلُومِ الْأَسَانِيَّةِ لِأَنَّهُ
مُشْعَلِقٌ بِالْأَلْفَاظِ وَمَا تُفِيدُهُ وَيُقْصَدُ بِهَا الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْوَارَ الَّتِي
يَقْصِدُ الْمُتَّكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ إِمَّا تَصْوُرُ مُفَرِّدَاتٍ تُسْنِدُ وَيُسَنِّدُ
إِلَيْهَا وَيُفْعِلُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَالدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ هِيَ الْمُفَرِّدَاتُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ
وَالْعُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزُ الْمُسَنَّدَاتِ مِنَ الْمُسَنَّدِ إِلَيْهَا وَالْأَزْمِنَةِ وَيُدَلِّ عَلَيْهَا بِتَغْيِيرِ الْحُرْكَاتِ
مِنَ الْأَيْغُرَابِ وَأَبْنِيَةِ الْكَلِمَاتِ وَهَذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ النَّحْوِ وَيَبْقَى مِنَ الْأَمْوَارِ
الْمُكْتَسِفَةِ بِالْوَاقِعَاتِ الْمُخْتَاجَةِ لِلْدَّلَالَةِ أَخْوَالُ الْمُتَغَاطِبِينَ أَوِ الْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ
هَذَا الْفِعْلُ وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَّلتُ لِلْمُتَّكَلِّمِ
فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ وَإِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَبِسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ
الْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يُخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ الْأَيْغُرَابِ
وَإِذَا لَبِيَةً الْأَتَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ زَيْدٌ جَاءَ فِي مُخَايِرٍ لِقَوْلِهِمْ جَاءَ فِي زَيْدٍ مِنْ قَبْلِ أَنَّ
الْمُتَقدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ الْأَمْمَعُونَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ جَاءَ فِي زَيْدٍ أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ
بِالْعَجَيْبِ قَبْلَ الشَّخْصِ الْمُسْتَنَدِ إِلَيْهِ وَمَنْ قَالَ زَيْدٌ جَاءَ فِي أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالشَّخْصِ

قبل المُحْجِيِّ والمُسْتَدِّ وكذا التَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ
 مُبْهِمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَّا تَأْكِيدُ الْإِسْنَادَ عَلَى الْجُمْلَةِ كَعَوْلِيمٍ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ
 وَإِنْ زَيْدًا لَقَائِمٌ مُتَغَيِّرٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ أَسْتَوْتُ مِنْ طَرِيقِ الْإِعْرَابِ فَإِنْ
 الْأَوَّلُ الْعَارِيُّ عَنِ النَّاْكِدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَالِيُّ الَّذِيْنَ وَالثَّانِيُّ الْمُوَكَّدُ بِإِبْرَاهِيمٍ يُفِيدُ
 الْمُتَرَدِّدُ وَالثَّالِثُ يُفِيدُ الْمُنْكَرُ فَعِيْنَ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَّلِكَ تَقُولُ جَاءَ فِي الرَّجُلِ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَةُ
 يَعْيَنُهُ جَاءَ فِي رَجُلٍ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ الشَّكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَإِنْ رَجُلٌ لَا يُعَادُهُ أَحَدٌ مِنْ
 الرِّجَالِ ثُمَّ الْجُمْلَةُ الْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرَيْهِ وَهِيَ الَّتِي أَهْمَى خَارِجَ تُطَابِقُهُ أَوْ لَا وَإِنْ شَائِئَهُ
 وَهِيَ الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَالْطَّلْبُ وَأَنْواعُهُ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ إِذَا
 كَانَ لِالثَّانِيَّةِ مَحَلٌ مِنْ الْإِعْرَابِ فَيُشَرِّكُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ النَّاجِعِ الْمُفَرَّدِ نَعْتَا وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا
 بِلَا عَطْفٍ أَوْ بِتَعْيِنِ الْعَطْفِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِالثَّانِيَّةِ مَحَلٌ مِنْ الْإِعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي الْعَهْلُ
 الْإِطْنَابُ وَالْإِيجَازُ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يُدْلِلُ بِالْلَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقَهُ
 وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفَرَّدًا كَمَا تَقُولُ زَيْدًا أَسْدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ الْأَسْدِ الْمَنْطُوقَةَ
 وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ الْأَلَازِمَةَ وَتُسِّنُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمِّي هَذِهِ اسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِالْلَّفْظِ
 الْمُرَكَّبُ الْدَّلَالَةَ عَلَى مَكْرُومَهِ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرًا الرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَمْ يَرِمْ ذَلِكَ عَنْهُ
 مِنَ الْجُودِ وَفِرْسِيِّ الْفَيْفِ لَاَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا
 دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَنْفَاظِ مِنَ الْمُفَرَّدِ وَالْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيَّاتٌ وَأَخْوَالٌ الْوَاقِعَاتِ
 جُعِلَتْ لِدَلَالَةِ عَلَيْهَا أَخْوَالٌ وَهَيَّاتٌ فِي الْأَنْفَاظِ كُلُّهُ بِحَسْبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقْلَمُهُ فَأَشْتَمَلَ
 هَذَا الْعِلْمُ الْمُسْتَبَّنِ بِالْبَيَانِ عَلَى الْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ الْدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيَّاتِ وَالْأَخْوَالِ
 وَالْمَقَامَاتِ وَجَعَلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافِ الْصِنْفِ الْأَوَّلِ يُبَحَّثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْمَهَيَّاتِ
 وَالْأَخْوَالِ الَّتِي تُطَابِقُ بِالْلَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضَيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمِّي عِلْمَ الْبَلَاغَةِ وَالصِنْفِ
 الْثَّانِي يُبَحَّثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَلَازِمِ الْلَّفْظِيِّ وَمَكْرُومَهِ وَهِيَ اسْتِعَارَةُ وَالْكِتَابَةُ كَمَا
 قُلْنَاهُ وَيُسَمِّي عِلْمَ الْبَيَانِ وَالْحَقُوا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزَيِّنِ الْكَلَامِ وَتَخْسِينِهِ
 بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ الْفَاظِهِ أَوْ تَزْسِعَ يَقْطَعُ
 أَوْ تَوْرِيَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيَّاهُمْ مَعْنَى آخَرٍ مِنْهُ لِاشْتِراكِ الْلَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ
 ذَلِكَ وَيُسَمِّي عِنْهُمْ عِلْمَ الْبَدِيعِ وَأَطْلَقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الْثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحْدِثِينَ أَسْمَمُ

البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلحقت مسائل
 أفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى وأبا حاتم وقدامة وأمثالهم ملءات
 غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن نص حسن السكاكى زبدته
 وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسما
 بالفتح في النحو والتصريف والبيان يجعل هذا الفن من بعض أجزاءه وأخذه
 المتأخرون من كتابه وخصوصاً منه أمهاط هي المتداولة لهذا العهد كافلة السكاكى
 في كتاب التبيان وأبن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب
 الإيضاح والتفصيص وهو أصغر شيئاً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل
 المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وباجملة فالمشارفة على هذا
 الفن أقوام من المغاربة وسبية والله أعلم وأنه كمال في العلوم اللسانية والصناع
 الكنالية توجد في القرآن والمشرق وأفرد عمراناً من المغرب كما ذكرناه أو
 يقول لعنابة العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على
 هذا الفن وهو أصله وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة
 وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً
 وزعموا أنهم أحصواها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك التلوع بتزبين الآلاظ
 وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم ما خذل البلاغة والبيان لدقة انتظارهما
 وغموض معانيهما فتجادلوا عنهما وممن ألف في البديع من أهل أفريقيا ابن رشيق
 وكتاب العمدة له مشهور وجراي كثير من أهل أفريقيا والأندلس على منحاه وأعلم
 أن شمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة
 منه بجمع مقتضيات الأحوال منطقية ومفهومه وهي أعلى مراتب الكلام مع
 الكمال فيما يختص بالآلاظ في انتقامتها وجودة رصفها وترتكيبيها وهذا هو الإعجاز
 الذي تقصره الأفهام عن إدراكه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق
 بمحالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت
 مدارك العرب الذين سمعوا من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرسان الكلام
 وجهها بذلك والذوق عندهم موجود بأوفر ما يمكن وأصحه وأحوج ما يكون إلى هذا

الفن المفسرون وأكثرو تفاسير المعتقد مبنية على ظهر حارث الله الرغشري وضع كتابه في التفسير وتبين آيات القرآن بأحكام هذا الفن بما يُبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع تفاسير لولا أنه يُؤيد عقائد أهل البدع عند افتراضها من القرآن بوجوه البلاغة ولأجل هذا بخماماً كثيراً من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فإنه يتبع عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلمة من البدع والأهواء والله الهادي من بشاء إلى سواء السبيل

علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له يُنظر في إثبات عوارضه أو تقديره وإنما المقصود منه عند أهل اللسان شرطه وهي الإجاده في فن المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومن ألحاحهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساهم تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقه وسجع متساو في الإجاده ومسائل من اللغة والنحو مشوشه أثناء ذلك مفترقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المؤممن من الآنساب الشهيرة والأخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يختفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناجي باللغتهم إذا تصفحة لأن لا تحصل الملة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم إنهم إذا أرادوا حذف هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم يطرفي يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كفهم بصناعة البدع من التزوير في أشعارهم وترسلهم بالاضطلاعات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها وسماعها من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواعين وهي أدب الكتاب لأبن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ

وَكِتَابُ النَّوَادِرِ لِابْنِ عَلَيِّ الْقَالِي الْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَزْيَعَةِ فَشَعَّ لَهَا وَفُرُوعٌ
عَنْهَا وَكُتُبُ الْمُخْدِثِينَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ الْفَنَاءُ فِي الصَّدْرِ الْأُولِيِّ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا
الْفَنِ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذَا الْفَنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينَةٌ وَكَانَ الْكِتَابُ وَالْفَضَّلَاءُ مِنْ
أَخْلَوَامِ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ بَاخْدُونَ أَنفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَعْصِيلِ أَسَالِيبِ الشِّعْرِ
وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنْ اِنْتَهَاءً قَادِحًا فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرْوَةِ وَقَدْ أَلْفَ الْقَافِيِّيْ أَبُو الْفَرَجِ
الْأَصْبَاهَيِّيُّ كِتَابَهُ فِي الْأَغْنَانِ جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ
وَدُولَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْفَنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْنًا إِلَيْهِ أَخْتَارَهَا الْمُفْتُونَ لِرَشِيدٍ فَأَسْتَوْعَبَ
فِيهِ ذَلِكَ أَتَمْ أَسْتِعَابٍ وَأَوْفَاهُ وَلَعْنَرِي إِنَّهُ دِيوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاكِ الْحَمَاسِينِ
الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍ مِنْ فُنُونِ الشِّعْرِ وَالتَّارِيخِ وَالْفَنَاءِ وَسَائرِ الْأَحْوَالِ وَلَا
يُعَدَّ بِهِ كِتَابٌ فِي ذَلِكَ فِيهَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ الْغَایَةُ الَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا الْأَدِيبُ وَيَقِفُ عَنْهَا
وَإِنِّي لَهُ بِهَا وَنَحْنُ أَلَّا نَرْجِعُ بِالْتَّحْقِيقِ عَلَى الْإِجْمَالِ فِيهَا تَكَلَّمُنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ
الْلِّسَانِ وَأَللَّهُ أَمْدَدِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمُ أَنَّ الْلُّغَاتَ كُلُّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصِّنَاعَةِ إِذَا هِيَ مَلَكَاتٌ فِي الْلِّسَانِ
الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعَانِي وَجُودَتِهَا وَقُصُورُهَا بِمَحْسَبِ تَعَامِلِ الْمَلَكَةِ أَوْ تُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِالنَّظَرِ إِلَى الْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَكِيبِ فَإِذَا حَصَّتِ الْمَلَكَةُ الْتَّامَةُ
فِي تَرَكِيبِ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاهِ الْتَّأْلِيفِ الَّذِي
يُطَبِّقُ الْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ بِلَغَةِ الْمُتَكَلِّمِ حِينَئِذِ الْغَایَةُ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ
لِلْسَّامِعِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلَاغَةِ وَالْمَلَكَاتُ لَا تَخْفِي إِلَّا بِشَكْرَارِ الْأَفْعَالِ لَأَنَّ الْفِعْلَ
يَقُوِّي أَوْلَأَ وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةً ثُمَّ تَسْكُرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ
غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّسْكُرُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً فَالْمُتَكَلِّمُ مِنْ
الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتُهُ الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
وَأَسَالِيهِمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنِ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الْصَّيْرُ أَسْتِعمالَ
الْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا أَوْ لَا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَكِيبَ بَعْدَهَا فَيَلْقَنُهَا كَذِلِكَ ثُمَّ لَا يَرْأَلُ

سَيَأْعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُشَكِّلَةٍ وَأَسْنَعَمَالُهُ بَسْكَرُ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصَفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَاحِدُهُمْ هُكْدًا تَصَيَّرَتِ الْأَلْسُنُ وَالْلُّغَاتُ
مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعْلَمُهَا الْجُمُعُومُ وَالْأَطْفَالُ وَهُذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ الْعَامَةُ مِنْ أَنَّ
الْلُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالظَّبِيعِ أَيْ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخْدَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ
ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُفْرِزِ بِعْلَالِطَلَبِهِمُ الْأَعْاجِمَ وَسَبَبَ فَسادَهَا أَنَّ الْأَثَاثِيَّ
مِنْ أَجْلِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَاتُ الْأَخْرَى غَيْرِ الْكَيْفِيَاتِ الَّتِي
كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكُثْرَةِ الْخَانِطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ
كَيْفِيَاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَأَخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخْدَى مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَأَسْتَعْدَثُ مَلَكَةَ
وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى وَهُذَا مَعْنَى فَسادِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرْيَاشِ
أَفْصَحَ الْلُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا بِعُدُّهُمْ عَنِ الْبَلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جَهَانِهِمْ ثُمَّ مَنْ
أَكْتَسَهُمُ مِنْ ثَقِيفٍ وَمُهْبَلٍ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسْدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا
مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَانَ وَإِيَادِ وَفَضَاعَةَ وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ
لَا مَمَّ الْفُرْسِ وَالْرُّومِ وَالْجَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لِفَتْحِهِمْ تَامَةَ الْمَلَكَةُ بِبِعْلَالِطَلَبِ الْأَعْاجِمِ
وَعَلَى نِسْبَةٍ بَعْدِهِمْ مِنْ قُرْيَاشَ كَانَ الْأَحْتِجاجُ بِأَغْنَاهُمْ فِي الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الْصِنَاعَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة معايرة للغة مصر ومحبر
وذلك أننا نجدها في بيان المقاصد والتوفاء بالدلالة على سُنَنِ الْلِسَانِ الْمُضَرِّيِّ
ولم يفقد منها إلا دلالة آخر كات على تعين الفاء من المفعول فاعتراضوا منها بالتقدير
والتأخير وبقراءتين تدل على خصوصيات المقاصد إلا أنَّ البيان والبلاغة في الْلِسَانِ
الْمُضَرِّيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِآنَ الْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَةٌ عَلَى الْمَعْنَانِ بِأَعْيَانِهَا وَبَقَى مَا
نَقْتَضِيهِ الْأَخْوَالُ وَيُسَمِّي بِسَاطَ الْأَحْالِ مُخْتَاجًا إِلَى مَا يَدْلُلُ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنَى لَابِدُ وَأَنْ
تَكْتَسِفَهُ الْأَخْوَالُ بِخَصَّةٍ فَيَجِبُ أَنْ تُتَبَرَّ نِلَكَ الْأَخْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأنَّهَا صِفَاتُهُ
وَتِلْكَ الْأَخْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسُنِ أَكْثَرُ مَا يَدْلُلُ عَلَيْهَا بِالْأَلْفَاظِ مُخْصَّها بِالْوَضْعِ وَأَمَّا فِي
الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدْلُلُ عَلَيْهَا بِالْأَخْوَالِ وَكَيْفِيَاتِهِ فِي تَرَاكِيبِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديمه أو تأخير أو حذف آخر كأغراض وقد يدخل عليها بالمحروف غير المستقلة ولذلك تفاوت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الحكيميات كما قدمناه فكان الكلام العربي بذلك أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أتيت جوامع الكلم وأختصر في الكلام اختصاراً وأعتبر ذلك بما ينبع كي عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض الشعاء التي أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيداً قائم وإن زيداً لقائمه والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لا إفادته أخلاقياً الترهن من فيهم زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالاصرار على إنسكاره فاختلت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان دين العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تختلف في ذلك إلى خرق شرعة النجاة اهل صناعة الإعراب القاصمة مدار كهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأثر اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوله وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفشلتهم وإلا فتحن شعبد اليم الشهير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والغير عن المقاصد والتعاون فيه يتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصنوع في مخالفتهم وبجماعتهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حرارات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مصر طريقة واحدة وهمها معروفاً وهو الإعراب وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بسان مصر لما فسد بمخالفتهم الآلاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولًا فانقلب لغة أخرى وكان القرآن متولاً به وأحاديث النبي منقولاً بلغتها وهما أصلاً الدين وأمللة فخشى تناسيعها وأنغلقاً الأفهام عنها بفقدان اللسان الذي نولاً به فاحتياج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه وأستنباطه وصار على ما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماء أهل علم النحو وصناعة

الْعَرَبِيَّةَ فَأَصْبَحَ فَنًا مَخْفُوظًا وَعِنْمًا مَكْتُوبًا وَسَلَمًا إِلَيْهِمْ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنْنَةُ رَسُولِهِ
 وَافِيَا وَلَعَلَّنَا لَوْ أَعْتَدْنَا بِهَذَا الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ هَذَا الْعَهْدُ وَأَسْتَقْرِبُنَا أَحْكَامُهُ نَعْتَاضُ
 عَنِ الْحَرْكَاتِ الْإِغْرَائِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِاُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَافِيرُ
 تَخْصِّصِهَا وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوْآخِرِهِ عَلَى غَيْرِ الْمِنَاهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةِ مُضَرٍّ فَلَيَسْتِ الْلِغَاتُ
 وَمَلَكُ كَانُهَا مَجَانًا وَلَقَدْ كَانَ الْلِسَانُ الْمُهْرِيُّ مَعَ الْلِسَانِ الْحِمِيرِيِّ بِهَذِهِ الْمِنَابَةِ وَتَغْيِيرِ
 عَنْهُ مُضَرٌّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْلِسَانِ الْحِمِيرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلْمَاتِهِ تَشَبَّهُ بِذَلِكَ
 الْأَنْقَالُ الْمَوْجُودَةُ لَدَنَا خَلَافًا لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْفَصُورُ عَلَى أَنْهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِلَيْهَا جَرَاءُ
 الْلُّغَةِ الْحِمِيرِيَّةِ عَلَى مَقَابِيسِ الْمُضَرِّيَّةِ وَقَوَافِيرِهَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ فِي أَشْتِقَاقِ
 الْقَلِيلِ فِي الْلِسَانِ الْحِمِيرِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ
 وَلُغَةُ حِمِيرٍ لُغَةُ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحْرَكَاتِ
 إِعْرَابِهَا كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ الْعِنَابَةَ يَلْسَانُ مُضَرَّ مِنْ أَجْلِ
 الْشَّرِيعَةِ كَمَا قَلَنَا حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى الْأَسْتِبْكَاطِ وَالْأَسْتِرْكَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا هَذَا الْعَهْدُ مَا
 يَحْمِلُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ هَذِهِ الْعَهْدُ حَيْثُ
 كَانُوا مِنْ الْأَفْطَارِ شَانُهُمْ فِي الْنُّطُقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطَقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ
 عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذَكُورٌ فِي كِتْبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَفْصَى الْلِسَانِ وَمَا فَوْقَهُ
 مِنْ الْحَنْكِ الْأَعْلَى وَمَا يَنْطَقُونَ بِهَا إِيْضًا مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ
 الْقَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ الْحَنْكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَجِئُونَ بِهَا مَنْتَوْسَطًا بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ
 وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ الْأَجْمَعِ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَربِ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَمَةً عَلَيْهِمْ
 مِنْ بَيْنِ الْأَمْمَ وَالْأَجْيَالِ مُخْتَصًا بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ بِهَا غَيْرُهُمْ حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقْرُبَ
 وَالْأَنْتَسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالْدُخُولَ فِيهِ يُعَاكِبُهُمْ فِي الْنُّطُقِ بِهَا وَعِنْهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ
 الْعَرَبِيُّ الصَّرِيعُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعَرْوَيَةِ وَالْمُخْسِريِّ بِالْنُّطُقِ بِهَذِهِ الْقَافِ وَيَظْهُرُ بِذَلِكَ
 أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرٍّ يَعْيَنُهَا فَإِنْ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤُسَاؤُهُمْ شَرْقاً وَغَربَاً فِي وَلَدِ
 مَنْصُورِ بْنِ عَكْرَمَةَ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمَ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرٍ
 أَبْنَى صَعْصَعَةَ بْنَ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ بْنَ هَوَازِنَ بْنَ مَنْصُورٍ وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأَمْمَ
 فِي الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مِنْهُمْ فِي الْنُّطُقِ بِهَذِهِ الْقَافِ

أَسْوَةٌ وَهُدُوٌ اللَّغَةُ لَمْ يَتَدِعَهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارَةٌ فِيهِمْ مُتَعَاقِبَةً وَيَظْهِرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لَغَةُ مُضَرِّ الْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لَغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِيهَا قَدِ ادْعَى ذَلِكَ فُقَهَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمَّ الْقُرْآنِ إِهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَغْيِرُ الْقَافِ الَّتِي لَهَا هَذَا الْجِيلُ فَقَدْ لَعَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَنَّ جَاءَ هَذَا فَإِنَّ لَغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَخْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَافَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرِّ لَمَّا نَزَلَوا أَلَامِصَارَ مِنْ لَدُنِ الْفَتْحِ وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَخْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ خَالَطَةِ الْأَعَابِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَهَذَا يُرَجِّعُ فِيمَا يُوجَدُ مِنْ الْلَّغَةِ لِدِيَهُمْ أَنَّهُ مِنْ لَغَةِ سَلَفِهِمْ هَذَا مَعَ اِتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً وَغَرْبًا فِي الْنُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصَيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الْجَهَنِ وَالْمَحْضِرِيَّةِ فَتَفَمَّ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَمَادِي الْمُؤْمِنِ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل المغفر والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مصر

أَعْلَمُ أَنْ عُرْفَ الْخَاطُبِ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْخَضْرِ لَيْسَ يُلْغَيُ مُضَرِّ الْقَدِيمَةِ وَلَا يُلْغَيُ أَهْلُ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لَغَةُ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الْلَّغَةِ مُضَرِّ وَعَنِ الْلَّغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لَعَهَدَنَا وَهِيَ عَنِ الْلَّغَةِ مُضَرِّ أَبْعَدُ فَمَا إِنَّهَا لَغَةٌ فَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشَهِدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنْ تَغَيِّيرٍ الَّذِي يُعْدُ عِنْدَ صَنَاعَةِ أَهْلِ النَّحْوِ لَهُنَا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ يَا خِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي أَصْطَلَاحَاهُمْ فَلَعْنَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضِ الشَّيْءِ لِلْلَّغَةِ أَهْلِ الْعَرَبِ وَكَذَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعْهُمَا وَكُلُّ مِنْهُمْ مُشَوَّصٌ يُلْفَتُهُ إِلَى تَأْدِيبِ مَقْصُودِهِ وَالْأَبْيَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهَذَا مَعْنَى الْلِسَانِ وَالْلَّغَةِ وَفِقْدَانُ الْأَإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَاهُ فِي لَغَةِ الْعَرَبِ لِهَا الْعَهْدُ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ الْلِسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لَغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلَيْلَةُ الْبَعْدِ عَنِ الْلِسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِخَالَطَةِ الْجُمْعَةِ فَمَنْ خَالَطَ الْعَجَمَ أَكْثَرُ كَانَ لَغَتُهُ عَرَبًا ذَلِكَ الْلِسَانُ الْأَصْلِيُّ أَبْعَدُ لَيْلَةً الْمَلَكَةَ أَنَّمَا تَحْصُلُ بِالْعِلْمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُدُوِّ الْمَلَكَةِ الْأَوَّلِ الَّتِي كَانَ لِلْعَرَبِ وَمِنَ الْمَلَكَةِ الْثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ فَعَلَى مَقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ الْعِجَمِ وَيَرْبَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَةِ الْأَوَّلِ وَأَعْتَبُرُ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ خَالَطَتِ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنَ الْعِجَمِ يَوْمُوْرِ عُمْرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَغْلُو عَنْهُمْ مُضَرِّ

وَلَا يَجِدُ فَقْلَبَ الْجُمْهُورَ فِيهَا عَلَى الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لِغَةً أُخْرَى
مُمْتَزَّجَةً وَالْجُمْهُورَ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَادَ كَرْنَاهُ فَعَيَّ عَنِ الْلِسَانِ الْأَوَّلِ أَبْعَدَ وَكَذَا الْمَشْرِقُ
لَمَّا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أُمَّةٍ مِّنْ فَارِسَ وَالْتُّرْكِ بِحَالَطُومِ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لِغَافِهِمْ فِي
الْأَكْرَمِ وَالْفَلَاحِينَ وَالسَّبِيلِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ خَوْلًا وَدَابِياتَ وَأَظَارًا وَمَرَاضِعَ قَسَّتْ
مُسْرِهِمْ بِفَسَادِ الْمَلَكَةِ حَتَّى أَنْقَلَبَتْ لِغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلَالِقَةِ
وَالْأَفْرِنجِيَّةِ وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلَ لِغَةً أُخْرَى مُخْصُوصَةِهِمْ
تَخَالِفُ لِغَةُ مُصَرَّ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَّكُرُهُ وَكَانَهُ لِغَةً أُخْرَى لِاستِحْكَامِ
مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقْدِرُ

الفصل الاربعون

في تعليم اللسان المفدي

إِعْلَمُ أَنَّ مَلَكَةَ الْلِسَانِ الْمُفْرِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلِغَةُ أَهْلِ الْجَلِيلِ
كُلُّهُمْ مُغَايِرَةٌ لِلْلِغَةِ مُصَرَّ الَّتِي نُزِّلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لِغَةً أُخْرَى مِنْ أَمْتَازَاجِ الْجُمْهُورِ
بِهَا كَمَا قَدَّمْنَا إِلَّا أَنَّ الْلُّغَاتَ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعْلَمُهَا مُمْكِنًا
شَانَ سَائِرُ الْمَلَكَاتِ وَوَجْهُ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَتَسْعَى هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيَرِدُونَ تَعْصِيلَهَا أَنْ
يَأْخُذَ تَقْسِيَةً بِمَحْفَظَةِ كَلَامِهِمْ الْقَدِيرِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ
السَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي اسْتِجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُوَلَّدِينِ أَيْضًا فِي
سَائِرِ فَنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِنْظَهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمُشَوَّرِ مُتَزَّلَّةً مِنْ نَشَأَ
بِهِمْ وَلَقِنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي مُهِمَّهِ
عَلَى حَسْبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأَلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحْفِظَهُ مِنْ أَسَالِيْبِهِمْ وَتَرْتِيبِ الْفَاظِهِمْ.
فَتَحَصُّلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالْأَسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخًا وَقُوَّةً
وَيَتَحَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الْطَّبِيعِ وَالتَّفَهُمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيْبِهِمْ فِي
الْتَّرَاكِيبِ وَمُرَاءَاتِ الْتَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْضَيَاتِ الْأَخْوَالِ وَالنَّفَقِ يَشَهِدُ بِذَلِكَ وَهُوَ
يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَالْطَّبِيعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذَّكُرُ وَعَلَى قَدْرِ الْمُحْفُوظِ
وَكَثْرَةِ الْأَسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقْوُلِ الْمَصْنُوعِ نَظَمًا وَتَثْرَا وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ
الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لِغَةِ مُصَرَّ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَمَكَذَّا يَتَسْعَى

أَنْ يَكُونَ تَعَلِّمُهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرْمِهِ

الفصل الحادي والأربعون

في ان ملحة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستحبة عنها في التعليم

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَابِيسِهَا خَاصَّةٌ فَهُوَ عِلْمٌ بِيَكِيفِيَّةِ لِاَنْفُسِ كَيْفِيَّةِ فَلَبِسَتْ نَفْسَ الْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةَ مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلاً مِثْلًا مِثْلًا أَنْ يَقُولَ بَصِيرًا بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْواعِهَا الْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يُدْخِلَ أَنْجِيَطُ فِي خَرْتِ الْإِبْرَةِ ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لِفْقَيِّ الشَّوْبِ بِجَمِيعِهِنِّ وَيُغَرِّجُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرْدُهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَداَتْ وَيُغَرِّجُهَا قَدَامَ مَنْفِدَهَا الْأَوَّلِ يَمْطَرَحُ مَا بَيْنَ الثَّقَبَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتَسَمَّدَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبْكِ وَالْتَّثْبِيتِ وَالْتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْواعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طَوَّلَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ يَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَبَّيْنَا وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالنِّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشْبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ الْخَشْبِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ قِبَالَتَكَ مُمْسِكٌ بِطَرَفِهِ الْآخَرِ وَتَعَاقِبَاهُ بِيَنْكَعُّ وَأَطْرَافُهُ الْمُضَرَّةُ الْمُحَدَّدةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَّةً إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ إِلَى آخِرِ الْخَشْبِ وَهُوَ لَوْ طَوَّلَ بِهَذَا الْعَمَلِ أُذْنِيَّهُ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمْهُ وَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَانِينِ الْإِغْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي تَفْسِيرِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَانِينِ الْإِغْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِيَكِيفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلِنِلَكَ تَجَدُّدُ كَثِيرًا مِنْ جَهَابِذَةِ الْحَمَّةِ وَالْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُجِيَطِينَ عَلَمًا بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوْدَتِهِ أَوْ شَكُونِي ظَلَامَةً أَوْ قَصْدِي مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ الْلَّغْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَكَذَا تَجَدُّدُ كَثِيرًا مِنْ يُخْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجْبِدُ الْفَنِينَ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَشْوُرِ وَهُوَ لَا يُخْسِنُ إِغْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَفْعُولِ مِنَ الْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَمِنْ هَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِنَّمَا مُسْتَحْبَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ تَجَدُّدُ بَعْضُ الْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِغْرَابِ بَصِيرًا بِمَحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقٌ وَأَكْثَرُ مَا يَقْعُدُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابٍ سَيِّبَوْبَهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْإِغْرَابِ فَقَطْ

بِلْ مَلَّا كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزُّهُ صَالِحٌ
مِنْ تَعْلِيمٍ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فَتَجُودُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظِّهِ مِنْ كَلَامِ
الْعَرَبِ وَأَنْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَهَفَاقِيلِ حَاجَاتِهِ وَتَبَهَّ بِهِ لِسَانُ الْمَلَكَةِ فَأَسْتَوْقَنَ
تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَبْلَغَ فِي الْإِفَادَةِ وَمِنْ هُولَاءِ الْمُخَالَطِينَ لِكِتَابِ سِبَيْوَنِهِ مَنْ يَغْفِلُ عَنِ
الْتَّفَطِنِ لِهِدَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ الْلِسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً وَأَمَا الْمُخَالَطُونَ
لِكِتَابِ الْمُتَّا خِرِينَ الْعَدْيَةَ عَنِ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ مُجْرَدَةً عَنِ أَشْعَارِ
الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشَعُرُونَ لِذَلِكَ يَا مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَهُونَ لِسَانِهَا فَتَجُودُهُمْ
يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُتبَةِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ
الْعَرَبِيَّةِ يَا لِلْأَنْدَلُسِ وَمُعْلِمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمَهَا مِنْ سِوَاهُمْ
لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالْتَّفَقُهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ تَرَاكِيبِ فِي مُجَالِسِ
تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبُقُ إِلَى الْمُبْتَدِيِّ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءِ التَّعْلِيمِ فَتَنْقُطُعُ النَّفْسُ لَهَا
وَتَسْتَعِدُ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا وَأَمَا مَنْ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْزَرُوا
صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بِعِشَّا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُهِ فِي تَرَاكِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ
إِلَّا إِنْ أَغْرَبُوا شَاهِدِهَا أَوْ رَجَحُوا مَذَهِبَهَا مِنْ جِهَةِ الْاِقْتِضَاءِ الْذِهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ سَخَافَةِ
الْأَسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ فَاصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَانَهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ الْمَنْطَقِيِّ الْعُقْلَيَّةِ أَوِ
الْجَدَلِ وَبَعْدَتْ عَنِ مَنَاحِي الْأَسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعَدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي
شَوَاهِدِ الْأَسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ الْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ
أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ الْمَلَكَةُ فِي الْأَسَانِ وَتِلْكَ الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ الْتَّعْلِيمِ لِتَكْتِيمِ
أَبْرُوزَهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِّدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْتَانًا وَبَعْدُوا عَنِ شَعَرِهَا وَتَعْلِمُ مِمَّا فَرَزَنَاهُ
فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ حُصُولَ مَلَكَةَ الْأَسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكُثْرَةِ الْحِنْظُورِ مِنْ كَلَامِ
الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ الْمِنْوَالُ الَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَاكِيبِهِمْ فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ
وَيَنْزَلُ بِذَلِكَ مِنْزَلَةَ مَنْ نَشَأَ مَعْهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلتْ لَهُ
الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقْرَةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلَى تَحْوِي كَلَامِهِمْ وَاللَّهُ مُقْدِرُ الْأَمْرِ كُلِّهَا
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقَيْمَبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير النحو في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يصل
للمستغربين من الجم

اعلم أن لغة النحو يتداولها المعتبرون يفدون البيان ومعناها حصول ملكة
البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام المعنى من جميع وجوهه
بخواص تقع للتراكيب في إفادتها ذلك فالمتكلم يلسان العرب والبلغ فيه يتعرى
الميئات المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنواع مخاطبائهم وتنظيم الكلام على ذلك
الوجه جهده فإذا اتصلت مقاماته بمحالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم
الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التراكيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منجي
البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيبا غير جار على ذلك المعنى بعده ونبأ عنه سمعه
يادني فكري بل ويشير فكري إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة فإن الملكات
إذا استقرت ورمت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك العمل ولذلك يظن
كثير من المغفلين ميئا لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم
غيرها وببلاغة أمر طبيعي و يقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي
ملكه لسانية في نظم الكلام تحصلت ورمت فظهرت في باديء الرأي أنها
جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بعمارة كلام العرب وملكه
على السنم والتقطن بخواص تراكيبه وليس تحصل بمعروفة القوانين العلمية في ذلك
التي تستبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ولا
تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك وإذا تقرر ذلك فملكه البلاغة
في اللسان تهدي البلوغ إلى وجود النظم وحسن التراكيب الموافق للتراكيب العرب
في لغتهم ونظم كلامهم ولو راج صاحب هذه الملكة حيث عن هذه السبل المعينة
قال التراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأن لا يعاده ولا تهديه
إليه ملكته الرائحة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب
وباللغتهم في نظم كلامهم أغرض عنه وجهه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين
مارس كلامهم وربما يغزو عن الأنجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية

وَالْبَيَانِيَّةُ فَإِنْ ذَلِكَ أَسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُفَادَةِ بِالْأَسْتِغْرَاءِ وَهَذَا أَمْرٌ
وَجَدَانِي حَاصِلٌ بِعِمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمَثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا
صَيْباً مِنْ صِيَابِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيَعْنَكُمْ شَانَ الْأَعْوَابِ
وَالْبَلَاغَةُ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوِي عَلَى غَائِبِهَا وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ
بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذِلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ
الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطُوبِهِمْ وَالْمُدَاؤَمَةُ عَلَى ذَلِكَ بِحِيثُ يَعْصِلُ الْمَلَكَةَ
وَبَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَالْقَوَانِينِ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا
وَأَسْتَعِيرُ لِهَذِهِ الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقْرُ أَسْمُ الْذَّوقِ الَّذِي أَصْنَطَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ
صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ الْطَّعُومِ لِكُنْ لَمَّا كَانَ مَحْلُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ
فِي الْلِسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحْلٌ لِإِدْرَاكِ الْطَّعُومِ أَسْتَعِيرُ لَهَا أَسْمَهُ
وَأَيْضًا فَهُوَ وَجَدَانِي الْلِسَانِ كَمَا أَنَّ الْطَّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ ذَوقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ
ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعْلَامَ الْدَّاخِلِينَ فِي الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ
إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَالْفُرْسِ وَالْزُّومِ وَالْزَّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْزِيرِ بِالْمَغْرِبِ
فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الْذَّوقُ لِقُصُورِ حَظَّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي فَرَزَنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْمَرِ وَسَبَقِ مَلَكَةٍ أُخْرَى إِلَى الْلِسَانِ وَهِيَ لِفَاتِهِمْ أَنْ يَعْتَنُوا
بِمَا يَتَدَأَوْلُهُ أَهْلُ مِضْرِيَّهِمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفَرَّدٍ وَمَرْكَبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ
وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ دَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعْدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي
ذَلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَبَسَتْ هِيَ مَلَكَةُ الْلِسَانِ الْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلِكَ الْمَلَكَةَ
مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسْطَرَّةِ فِي الْكِتَابِ فَلَيْسَ مِنْ تَعْصِيلِ الْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَلَ
أَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْعِمَارَسَةِ وَالْأَعْتِيادِ وَالْتَّكَرِرِ
لِكَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْهَعُهُ مِنْ أَنْ سِيَّبَيْهُ وَالْفَارِسِيَّ وَالْزَّخَشَرِيَّ وَأَمْثَالَمِ
مِنْ فُرَسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ فَاعْلَمُ أَنَّ أَوْلَئِكَ
الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا الْمَرْبِيُّ وَالنَّشَّاَةُ فَكَانَتْ
بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعْلَمَهَا مِنْهُمْ فَأَسْتَوْلُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ
عَلَى غَایَةِ لَا شَيْءٍ وَرَاءَهَا وَكَانُوهُمْ فِي أَوْلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ الْلُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عِجَمًا فِي النَّسَبِ فَلَبِسُوا بِأَعْجَامِ
فِي الْلُّغَةِ وَالْكَلَامِ لَأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمِلْكَةَ فِي عُنْفَوَانِهَا وَالْلُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذَهَّبْ
آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ
الْعَرَبِ حَتَّى أَسْتَوْلُوا عَلَى غَابَتِهِ وَالْبَيْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ الْلِسَانِ
الْعَرَبِيِّ بِالْأَمْصَارِ قَاتِلَ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ مُعْتَجِيَّةً
آثَارَ وَيَجِدُ مَلَكَتُهُمْ أَخْلَاصَهُمْ مَلَكَةُ أُخْرَى مُخَالَطَةُ مَلَكَةِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ
ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَفْيَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحَفْظِ
بِسْتَفِيدْ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَعْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ
أُخْرَى فِي الْعَهْلِ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقَصَةً مَخْدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعْجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلَمَ
مِنْ مُخَالَطَةِ الْلِسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعْلُمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْمُدَارَسَةِ
فَرَبِّمَا يَعْصُلُ لَهُ ذَلِكَ لَكِنْهُ مِنَ الدُّورِ بِعِيْثُ لَا يَخْفِي عَلَيْكَ بِمَا تَقْرَأُ وَرَبِّمَا يَدْعِي كَثِيرٌ
مِنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَافِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هَذَا الذَّوقِ لَهُ بِهَا وَمُوْغَلَطُ أَوْ مُغَالَطَةً وَإِنَّمَا
حَصَلتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلتْ فِي تِلْكَ الْقَوَافِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَبَسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي
هَذِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق فاصرون في تحصيل هذه الملكة
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم بعد عن
اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبُقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةِ مُنَافِيَّةِ الْمَلَكَةِ الْمَطلُوبَةِ
بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ الْلِسَانِ الْحُضْرَيِّ الَّذِي أَفَادَهُ الْعِجمَةُ حَتَّى نَزَّلَ بِهَا الْلِسَانُ عَنْ
مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةِ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْحُضْرَيِّ هَذَا الْعَهْدُ وَلَهُذَا نَجَدُ الْمُعْلَمِينَ
يَذَهَّبُونَ إِلَى الْمُسَابِقَةِ يَتَعَلَّمُونَ الْلِسَانَ لِلْوَلَدَانِ وَتَعْقِدُ الْنَّجَاهُ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابِقَةُ
بِصَنَاعَتِهِمْ وَلَبَسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ الْلِسَانِ وَكَلَامِ
الْعَرَبِ نَعَمْ صَنَاعَةُ النَّجَاهِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَعْرَقَ
فِي الْعِجمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ لِسَانِ مُضَرَّ قَصْرٌ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعْلُمِ الْلُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ

ملَكَتْهَا التَّمَكُّنِ الْمُنَافَاةُ حِينَئِذٍ وَأَعْتَرَذَ لِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَأَهْلُ الْفِرِيقَةِ وَالْمَغْرِبِ
 لَمَّا كَانُوا أَعْزَقَ فِي الْجُمْهُورَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ الْلِسَانِ الْأَوَّلَ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌ فِي تَحْصِيلِ
 ملَكَتِهِ بِالْتَّعْلِيمِ وَأَقْدَمَ نَقْلَ أَبْنُ الْرِّفِيقِيِّ أَنَّ بَعْضَ كُتُبِ الْقِيرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ
 لَهُ يَا أَخِي وَمَنْ لَا عَدِمَتْ فَقْدَهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ
 تَكُونُ مَعَ الْمُذِينَ تَائِي وَعَافَنَا الْيَوْمُ فَلَمْ يَشْهِدَا لَنَا الْخُروجُ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكَلَابُ مِنْ
 أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَبُوا هَذَا بَاطِلًا لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا وَكَتَبَ إِلَيْكَ وَإِنَّا مُشْتَاقُونَ
 إِلَيْكَ أَنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَذَا كَانَ ملَكَتْهُمْ فِي الْلِسَانِ الْمُضَرِّيِّ شَيْهُ بِمَا ذَكَرْنَا
 وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الْطَّبِقَةِ وَلَمْ تَزُلْ كَذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ يَا فِرِيقَةَ مِنْ مَشَاهِيرِ الشِّعْرَاءِ إِلَّا أَبْنُ رَشِيقٍ وَأَبْنُ شَرْفٍ وَأَكْثَرَ
 مَا يَكُونُ فِيهَا شِعْرًا طَارَ ثَيْنَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزُلْ طَبِقَتْهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةً إِلَى
 الْقُصُورِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكُثْرَةِ مَعَانِيهِمْ
 وَأَمْتَلَانِهِمْ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ الْلُّغَوِيَّةِ نَظِمًا وَثَرًا وَكَانَ فِيهِمْ أَبْنُ حَيَانَ الْمُؤْرِخُ إِمامٌ
 أَهْلُ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّأْيِ لَهُمْ فِيهَا وَأَبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلَيِّ
 وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شِعَرَاءِ مُلُوكِ الْطَّوَافِ لِمَا ذَرْتَ فِيهَا بِحَارُ الْلِسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَوَّلَ
 ذَلِكَ فِيهِمْ مَئِينَ مِنَ السَّيْنِ حَتَّى كَانَ الْأَنْفِضَاضُ وَالْجَلَادُ أَيَّامَ تَغلُبِ النَّصَرَانِيَّةِ وَشُغُلُوا
 عَنْ تَعْلِمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمَرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَانُ الصَّنَاعَةِ كُلُّهَا فَقَصَرَتِ الْمَلَكَةُ
 فِيهِمْ عَنْ شَانِهَا حَتَّى بَلَغَتِ الْخَضِيضَ وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ
 مُرْحَلِ مِنْ تَلَامِيذِ الْطَّبِقَةِ الْأَإِشْبِيَّيْنِ بِسَبَبَتِهِ وَكُتُبِ دَوْلَةِ أَبْنِ الْأَخْمَرِ فِي أَوْلِهَا
 وَأَلْقَتِ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا مِنْ أَهْلِ ثَلَاثَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَادِ إِلَى الْعُدُوَّةِ لِعُدُوَّةِ
 الْأَإِشْبِيَّةِ إِلَى سَبَبَتِهِ وَمِنْ شَرِفِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْفِرِيقَةِ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِلَيْهَا أَنْقَضُوا وَأَنْقَطُوا
 سَنَدَ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبْولِ الْعُدُوَّةِ لَهَا وَصَعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ يَعْوِجُ الْسِتَّهُمْ
 وَرُسُوخِهِمْ فِي الْجُمْهُورَةِ الْبَرْبِرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قُلْنَاهُ ثُمَّ عَادَتِ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَ وَنَجَمَ بِهَا أَبْنُ بَشْرِينَ وَأَبْنُ جَابِرٍ وَأَبْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتْهُمْ ثُمَّ
 إِبْرَاهِيمُ الْسَّاحِلِيُّ الْطَّرِيجِيُّ وَطَبَقَتْهُ وَقَفَاهُ أَبْنُ الْخَطَبِيُّ مِنْ بَعْدِهِمِ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ
 شَهِيدًا يَسِعَايَةً أَعْذَانِهِ وَكَانَ لَهُ فِي الْلِسَانِ مَلَكَةً لِلْأَنْدَلُسِ وَأَتَبَعَ أَثْرَهُ تَلْمِيذهُ وَبِالْجُمْلَةِ

فَشَانُ هُذِهِ الْمَلَكَةُ بِالأنْدَلُسِ أَكْثَرَ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَنْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مُهْنَدِي
 الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ مُعَايَاهُ عُلُومُ الْإِسَانِ وَمَحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ
 تَعْلِيمِهِمْ وَلَأَنَّ أَهْلَ الْإِسَانِ اتَّجَمَعُوا إِذْنَهُمْ تَفْسِدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ
 عِبْدُهُمْ أَصْلًا لِلْغُلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْبَرْبَرِ فِي هُذِهِ الْعُدُوَّةِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا
 إِلَّا فِي الْأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُتَنَمِّسُونَ فِي بَحْرِ عِجْمَشَتِهِمْ وَرَطَاطَتِهِمْ الْبَرْبَرِيَّةُ فَيَصْبُرُ
 عَلَيْهِمْ تَعْصِيلُ الْمَلَكَةِ الْلَّسَانِيَّةِ بِالْتَّعْلِيمِ بِخَلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَعْتَبِرُ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ لِعَهْدِ الْمَوْلَةِ الْأَمْوَابِيَّةِ وَالْعَبَاسِيَّةِ فَكَانَ شَانُهُمْ شَانُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ
 هُذِهِ الْمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا بِلَعْدِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الْأَعْاجِمِ وَمَخَالِطَتِهِمْ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ
 فَكَانَ أَمْرُ هُذِهِ الْمَلَكَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشِّعْرَاءِ وَالْكِتَابِ أَوْفَرَ
 لِتَوْفِيرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَأَنْظَرَ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِيِّ مِنْ نَظْمِهِمْ
 وَتَزَرِّهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيْوَانُهُمْ وَفِيهِ لِغَتِهِمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ
 وَمِلَتِهِمْ الْعَرَبِيَّةُ وَسِيرَتِهِمْ وَآثَارُ خُلُفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغَنَّاوهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ
 لَهُ فَلَا كِتَابٌ أَوْعَبُ مِنْهُ لِأَخْوَالِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هُذِهِ الْمَلَكَةِ مُسْتَخْكِكًا فِي الْمَشْرِقِ
 فِي الدُّوَلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغَ مِنْ سِوَاهُمْ مِمْنَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذَرَ كُرُودُهُ
 بَعْدُ حَتَّى تَلَاشَى أَمْرُ الْعَرَبِ وَدَرَسَتْ لِغَتِهِمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَأَنْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوَلَتِهِمْ
 وَصَارَ أَمْرُ الْأَمْرِ لِلْأَعْاجِمِ وَالْمَلَكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَالْتَّغلُبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الدَّيْلِمِ وَالسِّلْجُوقِيَّةِ
 وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ
 مُتَعْلِمُهُمْ مِنْهُمْ مُقَصِّرًا عَنِ تَعْصِيلِهِمْ وَعَلَى ذَلِكَ تَجَدُ لِسَانُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي فَنِي الْمَنْظُومِ
 وَالْمَشْتُورِ وَإِنْ كَانُوا مُسْكِنِيْرِينَ مِنْهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاللَّهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الرابع والأربعون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روبي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يستعمل على فنون ومذاهير

في آل الكلام فاما الشِّعر فنه المدح والهجاء وأما النَّثر فنه السُّجع الذي يُؤتى به قطعاً ويلتزم في كل لفْتَتين منه قافية واحدة يُسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه آل الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وتزويج الجمور وترهيبهم وأما القرآن وإن كان من المنشور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات يتبع إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويشتمل من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً مشابهاً مثلثي المتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليس أنسجاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت باسم القرآن للغلبة فيها كالنجم للشريعة ولهذا سميت السجع المثاني وأنظر هنا مع ما قاله المفسرون في تعليم تسميتها بالثنائي يشهد لك الحق بمحاجة ما فعلناه . وأعلم أن لكل واحد من هذين الفنون أساليب مختص بها عند أهلها ولا تصلح لفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الأنسجاع والتزام التقافية وتقديم النسب بين يدي الأغراض وصار هذا المنشور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترا إلا في الوزن وأستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كلها على هذا الفن الذي ازتفوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخوضوا أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جاري على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقدمة الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا القرآن المنشور المعمقى دخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزع المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تناويفها اللوذعية وخلط الجدر بالمزبل والإطناب في

الآوصاف وضربي الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب والتزام التفعية أيضاً من الأوزعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمود عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبنيانه وال محمود في الخطابات السلطانية الرسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تشريع إلا في الأقل النادر وحيث ترسالة الملكة إرسالاً من غير تكليف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من اطناب أو إيجاز أو حذف أو ثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة وأما إجراء الخطابات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساسه الشعر فمتهم وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاه العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام العرسلي بعد أمد في البلاغة وأنفسوا خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصتهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويعبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجتماع والألقاب البدية ويفعلون عمّا سوي ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيد أو مطابقة لا يخشى معها فيرجعون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإغراب ويفسدون بنية الكلمة عسماً تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك لتفت على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بعينه وكرمه والله تعالى أعلم

الفصل الخامس والاربعون

في أنه لا تفق الإجادة في فني المنظوم والمشور معًا إلا للأقل والسبب في ذلك أنه كما ينأى ملائكة في اللسان فإذا تسببت إلى تحمله ملائكة أخرى قصرت بالتحلل عن تمام الملكة لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر وإذا تقدمتها ملائكة أخرى كانت منازعة لها في العادة القابلة وعائقه عن سرعة القبول فوقعت المنافة وتعذر تمام في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق وقد برهنا علىه في موضعه ينبعو من هذا

البرهان فاعثِرْ مِثْلَهُ فِي الْلُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَكَانُ الْلِسَانِ وَهِيَ بِعِنْدِهِ الصَّنَاعَةُ وَأَنْظُرْ مَنْ تَقْدَمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْجُمْهُرِ كَيْفَ يَكُونُ فَاسِرًا فِي الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَالْأَجْمَعِيُّ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ الْلُّغَةُ الْفَارَسِيَّةُ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَلَكَةِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ فَاسِرًا فِيهِ وَلَوْ تَعْلَمَهُ وَعَلَمَهُ وَكَذَا الْبَرْبَرِيُّ وَالْرُّوْمِيُّ وَالْإِفْرَنجِيُّ قَلَّ أَنْ يُجْدِي أَحَدًا مِنْهُمْ مُخْكِمًا لِمَلَكَةِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا سَبَقَ إِلَى اسْتِئْنَافِهِ مِنْ مَلَكَةِ الْلِسَانِ الْآخِرِ حَتَّى إِنْ طَالِبَ الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ الْلِسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقْصِرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَایِةِ وَالْتَّعْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ الْلِسَانِ وَقَدْ تَقْدَمَ لَكَ مَنْ قَبْلُ أَنْ الْأَلْسُنَ وَالْلُّغَاتِ شَبِيهَهُ بِالصَّنَاعَةِ وَقَدْ تَقْدَمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَاعَةَ وَمَكَانَهَا لَا تَزَدَّ حِمْ وَأَنْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةً فِي صَنَاعَةِ فَقَلَّ أَنْ يُجْدِي فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوِي فِيهَا عَلَى الْغَایِةِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه نعنه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجده في سائر اللغات إلا أنها الآن إنما تتكلم في الشعر الذي للعرب فإن أمكن أن يجده فيه أهل اللسان الأخرى مقصودهم من كلامهم وإنما فليكل لسان آخركم في البلاغة شخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المتنبي إذ هو كلام مفصل فطعا قطعا متساوية في الوزن متعددة في الحرف الأخير من كل قطعة من هذه القطعات عندهم ينتها ويسمي الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويا وقاية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبيه حتى كانه كلام وحده مستقل عمما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تماما في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرصن الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود يان يوطى المقصود الأول ومعاناته إلى أن تناسب المقصود الثاني ويعد الكلام عن التنافس كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف اليادة والطلول إلى وصف الزكاب أو الخليل أو الطيف ومن وصف المندوح إلى وصف

قَوْمٍ وَعَسَاكِرٍ وَمِنَ الْتَّفْجِعِ وَالْعَزَاءِ فِي الْرَّثَاءِ إِلَى النَّاثِرِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُرَا عِبِي فِيهِ
 اِتِّفَاقَ الْقَصِيدَةِ كُلُّهَا فِي الْوَزْنِ الْوَاحِدِ حَذَرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الْطَّبِيعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ
 وَزْنِ إِلَى وَزْنِ يُقَارِبُهُ فَقَدْ يَخْفِي ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِهُذِهِ
 الْمَوَازِينِ شُرُوطٌ وَآخْرَكَامٌ تَضَمِّنُهَا عِلْمُ الْمَرْوُضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَفَقَّدُ فِي الْطَّبِيعِ
 أَسْتَعْمَلَتُهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مُخْصُوصَةٌ تُسَهِّلُهَا أَهْلُ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ
 الْجُوْرُ وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنْ
 الْمَوَازِينِ الْطَّبِيعِيَّةِ نَظِمًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ فِنَّ الشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ
 الْعَرَبِ وَلِذِكْرِهِ جَعَلُوهُ دِيوَانَ عُلُومِهِمْ وَآخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطَائِهِمْ وَأَصْلَادَ
 يَوْجُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكْمَهِمْ وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَانَ
 الْمَلَكَاتِ كُلُّهَا وَالْمَلَكَاتُ الْلِسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكَتَّبُ بِالصِّنَاعَةِ وَالْأَزْتِيَاضِ
 فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شَيْءٌ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ وَالشِّعْرُ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ صَعبُ الْمَأْخُذِ
 عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِالصِّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَّاخِرِينَ لِاِسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ
 بِإِيمَانِهِ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْنَعُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا مِنَاهُ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى
 تَوْعِيَّةٍ تَلَطُّفٍ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرِغَ الْكَلَامَ الْشِّعْرِيَّ فِي قَوَالِيَّةِ الَّتِي عَرَفَتُ
 لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَنْتَهَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُبَرِّزُهُ مُسْتَقْلًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ أَخْرَى
 كَذَلِكَ ثُمَّ يَبْيَتُ وَيَسْتَكْمِلُ الْفَنُونُ الْوَافِيَّةُ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يَنْتَسِبُ بَيْنَ الْبَيْوتِ فِي
 مُوَالَةٍ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسْبِ اِخْتِلَافِ الْفَنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ
 وَغَرَابَةِ فِنِيهِ كَانَ مَحْكَمًا لِلْقَرَائِبِ فِي أَسْتَجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَحْدِ الْأَفْكَارِ فِي
 تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوَالِيَّةِ وَلَا يَكْنِي فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيَّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِلَنْ
 يَحْتَاجُ بِمَخْصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمَحَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي أَخْتَصَّتْهُ الْعَرَبُ بِهَا وَأَسْتَعْنَاهُ
 وَلَنَذَكُرْ هُنَّا سُلُوكَ الْأَسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَمَا يُرِيدُونَ بِهَا فِي إِطْلَاقِهِمْ
 أَعْلَمُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْهُمْ عَنِ الْمِنْوَالِ الَّذِي يَتَسَجُّلُ فِيهِ التَّرَاكِيبُ أَوَ الْفَالَبُ الَّذِي يُفْرَغُ
 بِهِ وَلَا يُرْجِعُ إِلَى الْكَلَامِ بِأَعْتِبَارٍ إِفَادَتِهِ أَصْلَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْإِعْرَابِ
 لَا بِأَعْتِبَارٍ إِفَادَتِهِ كَمَالَ الْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِ التَّرَاكِيبِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ
 لَا بِأَعْتِبَارٍ الْوَزْنِ كَمَا أَسْتَعْمَلُهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْمَرْوُضِ فَهَذِهِ الْعُلُومُ

القلادة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراث كليب المُستلقة كليّة بأعتبر أنطباقها على تراكيب خاصٍ وتلك الصورة ينتزعاها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيّرها في الخيال كالتالي أو المثال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب بأعتبر الأعراب والبيان فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المثال حتى يتسع القالب بمحصول التراكيب التالية مقصود الكلام ويعتمد على الصورة الصحيحة بأعتبر ملامة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب مخصوص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله بدار مية بالعلمية فاستد ويكون باستدعاء العشب لوقوف والسؤال كقوله فنا نسأل الدار التي تحف أهلها أو باستد كلاد العشب على الطلول كقوله فنا نبك من ذكري حبيب ومنزل أو بالاستد اه عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله لم تسأل فتخبرك الرسوم ومثل تجاهة الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله حي الديار يجايب الغزال أو بالدعاء لها

باستد كقوله

أنسي طلولم أجي هزيم وعَدْتُ عَلَيْهِمْ نُفَرَّةً وَنَعِيمُ
أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله
يا برق طالع متزلا بالبرق وأخذ السحاب لها حداه الآتي
أو مثل التفجع في الجزع باستد البكاء كقوله
كذا فليجعل الخطب وليندح الأمر وليس لعيت لم يغفر ما وعها عذر
أو باستد اه المحدث كقوله أرأيت من حملوا على الأعواد أو بالتسجيل على
الآنون يا المصيبة لنقدوه كقوله
منابت العشب لا حام ولا زاع مضى الردى بتويل الرفع والباء
أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقوله أخارجه
أيا شجر أخابور مالك مورقا كذلك لم يجزع على ابن طريف
او ينهي فربقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله
القى الرماح ربعة بن نزار أودى الردى بفريقل المغوار

وأمثال ذلك كثيرة من سائر فنون الكلام ومذاهيه وتشظيم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية إسمية وفعلية مشقة وغير مشقة مقصولة وموصلة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعبر ذلك فيه ما تستفيده بالازدواج في أشعار العرب من القالب الكلبي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي يتحقق ذلك القالب على جميعها فأن مؤلف الكلام هو كابناء أو النساء والصورة التعبيرية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في تسجيجه كان فاسداً ولا تقول إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك لأننا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القرآن الأعربي وهذه الأساليب التي تحرر نقرها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئه ترسخ في النفس من نوع التراكيب في شعر العرب لجز بيتها على اللسان حتى تتحقق صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والأختداء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمها بوجوه وليس كل ما يصح في قياس الكلام العربي وقوانينه العلمية استعملوه وإنما المستعمل عندم من ذلك أنهم معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فإذا نظر في شعر العرب على هذا التحري بهذه الأساليب التعبيرية التي تصدر كالقوالب كل نظر في المستعمل من تركيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا إن المحصل لهذا القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المشتهر فإن العرب استعملوا كلامهم في كل الفنون وجاهموا به مفصلًا في النوعين في الشعر بانقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المشتهر يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالاسجاع وقد يُرسلونه وكل واحد من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندم هو الذي يعني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجزأ في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية

قالَتْ كُلُّ مُطْلَقٍ يَحْذُو حَذْوَهُ سِيَّرَةِ التَّالِيفِ كَمَا يَخْلُو الْبَنَاءُ عَلَى الْفَالِبِ وَالسَّاجِعِ عَلَى الْمِنْوَالِ فَلَمْ يَكُنْ كَانَ مِنْ تَالِيفِ الْكَلَامِ مُنْفَرِدًا عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالْبَيَانِيِّ وَالْعَرُوفِيِّ فَمَمَّا إِنْ مُرْأَاهُ قَوَابِنِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتَمَّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَعَصَّلَتْ هَذِهِ الصِّنَافُ كَلِّهَا فِي الْكَلَامِ أَخْتُصُّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لطِيفٍ فِي هَذِهِ الْقَوَابِبِ الَّتِي يُسَهِّلُ وَهُنَّا أَسَالِيبٌ وَلَا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظَمًا وَنَثَرًا وَإِذَا تَفَرَّقَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلَنْذُكْرُ بَعْدَهُ حَدَّاً أَوْ رَبَّنَا لِلشِّعْرِ بِهِ تَفَهُّمٌ حَقِيقَتُهُ عَلَى صُعُوبَهُ هَذَا الْفَرَضِ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لَأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقْدِرِينَ فِيهَا رَأَيْنَا وَقَوْلُ الْعَرُوفِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى لَيْسَ بِمُحَمَّدٍ لِهَذَا الشِّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَرِهِ وَلَا رَسْمٌ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشِّعْرِ بِأَغْبَارٍ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوَزْنِ وَالْقَوَابِبِ الْخَاصَّةِ فَلَا جَرَمَ إِنْ حَدَّهُمْ ذَلِكَ لَا يَصَاحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْوِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْجِنِّيَّةِ فَنَقُولُ أَشِعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِيجُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأَسْتِعْمَارَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمُفْصَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَفَقَّةٍ فِي الْوَزْنِ وَالْرَّوْيِّ مُسْتَقْلٌ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِيِّ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الْكَلَامُ الْبَلِيجُ حِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأَسْتِعْمَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْفَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَقَوْلُنَا الْمُفْصَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَفَقَّةِ الْوَزْنِ وَالْرَّوْيِّ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَنْشُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ عَنِ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقْلٌ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بِيَكَانُ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشِّعْرَ لَا تَكُونُ أَيْمَانَهُ إِلَّا كَذَلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الْجَارِيِّ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ وَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشِّعْرَ لَهُ أَسَالِيبٌ مُخْصَّةٌ لَا تَكُونُ لِلْمَنْشُورِ وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَنْشُورِ لَا تَكُونُ لِلشِّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ أَسَالِيبٍ فَلَا يَكُونُ شِعْرًا وَبِهَا أَلْأَعْتِبارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيوُخِنَا فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الْأَدَيْةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظَمَ الْمَتَنِيِّ وَالْمَعَرِيِّ لَيْسَ هُوَ مِنَ الشِّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَتَغَيَّرَا عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمْمَ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشِّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِ فَلَا يَتَحَاجِجُ إِلَهُ ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانُهُ الْجَارِيِّ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ وَإِذَا قَدْ فَرَغْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشِّعْرِ فَلَنْزِجَ

لِ الْكَلَامِ فِي كُتُبِهِ عَمَلَهُ فَنَقُولُ . اِعْلَمُ أَنَّ لِعَمَلِ الشِّعْرِ وَإِخْرَاجِهِ شُرُوطًا
 أَوْلَاهَا الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجِعُ
 عَلَى مِنْوَاهَا وَيُتَحِيرُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْعَرَبِ الْنَّقِيِّ الْكَثِيرُ الْأَسَالِبُ وَهَذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ
 أَفْلَ مَا يَكْنِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْقُوْلِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ أَبْنَى أَبِي رَيْعَةَ وَكُثِيرٍ
 وَذِي الرَّهْمَةِ وَجَرِيرٍ وَأَبْنَى نُوَامِ وَحَبِيبٍ وَالْجَنْتَرِيِّ وَالْرَّضِيِّ وَأَبْنَى فَرَاسٍ وَأَكْثَرَهُ
 شِعْرٌ كِتَابٌ الْأَغَانِيِّ لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرًا أَهْلَ الْطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلُّهُ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ
 الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًّا مِنَ الْمَحْفُوظِ فَنَظَمَهُ قَاصِرٌ رَدِّيٌّ وَلَا يُعْطِيهِ الرَّوْنَقَ وَالْخَلَاؤَةَ
 إِلَّا كَثْرَةُ الْمَحْفُوظِ فَمَنْ قَلَ حِفْظُهُ أَوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظَمٌ سَاقِطٌ
 وَأَجْتَنَابٌ الْشِّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ الْأَمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَحْذِ الْقَرِيمَةِ
 لِلنَّسْجِ عَلَى الْمِنْوَالِ يُقْبِلُ عَلَى النَّظَمِ وَبِالْأَكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَخِكُمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسَخُ
 وَرُبُّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظِ لِشَعْرِيِّ رُسُومَهُ الْحَزَفِيَّةُ الظَّاهِرَةُ إِذَا
 هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بِعِينِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَبَّرَتِ الْأَنْفُسُ بِهَا اتَّقِشُ الْأَسْلُوبُ
 فِيهَا كَانَهُ مِنْوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسْجِ عَلَيْهِ بِاِمْتِالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ لَآبْدَهُ
 مِنَ الْخَلَوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمُنْتَظَرِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا الْمَسْمُوعُ
 لِاسْتِنَاطَرَةِ الْقَرِيمَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَشْبِيهِهَا بِمِلَادِ السُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ
 يَكُونَ عَلَى جَهَامٍ وَتَشَاطِئِ ذَلِكَ أَجْمَعُ لَهُ وَأَنْسَطُ لِلْقَرِيمَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمِنْوَالِ
 الَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكَرِ عِنْدَ الْهُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ
 وَفَرَاغِ الْمَعْدَةِ وَتَشَاطِئِ الْفِكْرِ وَفِي هُوَلَاءِ الْجَمَامِ وَرُبُّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ الْعِشْقُ
 وَالْأَنْتِشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ أَبْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْعُمَدةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِذِهِ
 الصِّنَاعَةِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكُنْتُ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلُهُ قَالُوا فَإِنِّي أَسْتَصْبَبُ
 عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلَبِرُكُهُ إِلَى وَقْتِ آخَرٍ وَلَا يُكْنِرُهُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ وَلَيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ
 عَلَى الْقَافِيَّةِ مِنْ أَوْلَ صَوْغِهِ وَتَسْعِيَهُ بَعْضَهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ
 عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَّةِ صَبَّ عَلَيْهِ وَضَعَهَا فِي مَحْلِهَا فَرَبِّمَا تَجْعِي نَافِرَةً قَلْقَةً وَإِذَا تَمَعَّ
 الْمُكَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَنْأِيَ الَّذِي عِنْدَهُ فَلَبِرُكُهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلُّ
 بَيْتٍ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا مُنْسَبَةً فَلَيَتَحِيرُ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلَيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

الأخلاق منه بالتنقيح والنقد ولا يضمن به على الترتك إذا لم يتلّغ الإجاده فما
الإنسان مفتون يشعره إذ هو بناه فكري وآخراع فسيحيه ولا يستعمل فيه من
الكلام إلا الأفصح من التراكيب وأخالص من الفروعات الإنسانية فليتجرّها فانها
تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان المولدين ازتكاب
الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلثة من الملكة ويعتبر
أيضاً المعدّ من التراكيب جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسايق الفاظه إلى
الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما
الاختصار منه ما كانت الفاظه طبقاً على معانيه أو أدق فإن كانت المعاني كثيرة
كان حشوأ واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من
البلاغة ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسايق الفاظه إلى الذهن ولهذا
كان شيوخنا رحيمهم الله يعيّبون شعر أبي بكر^(١) بن خفاجة شاعر الاندلس لكثره
معانيه وأخذ حاماها في البيت الواحد كما كانوا يعيّبون شعر المتنبي والمعربي بعدم
النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة
الشعر واللحاء كم بذلك هو الذوق ويعتبر الشاعر أيضاً الحوشى من الأنفاظ والمقصّر
وكذلك الشوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه يتزل بالكلام عن طبقة
البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفاده كقولهم النار حارة والسماء فوقنا
وبقدر ما يقرب من طبقة عدم الإفاده يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفاً ولهذا
كان الشعر في الرثبات والنبويات قليل الإجاده في الغائب ولا يتحقق فيه إلا
التفهول وفي القليل على العسر لأن معانيها متداولة بين الجمورو فتصير مبتذلة لذلك وإذا
بعد الشعر بعد هذا كلّه فليس أوضه ويعاوده فإن القريمه مثل الفرع يدر بالامتناع
ويجيئ بالترتك والإهمال وبالجملة بهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب الممدة
لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه
ذلك الكتاب فيه البغيه من ذلك وهذه بذلة كافية والله المعين وقد نظم الناس
في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يحب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظن أنه لابن رشيق

(١) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي الحجاج المخ

لَعْنَ اللَّهِ صَنْعَةَ الشِّعْرِ مَاذَا
 مِنْ صُنُوفِ الْجَهَالِ مِنْهُ لَقِينَا
 يُؤْتِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا
 كَانَ سَهْلًا لِلسَّاعِينَ مُبِينًا
 وَيَرَوْنَ الْمُحَكَّمَ مَعْنَى صَحِيحًا
 وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَبَّاشًا ثَمِينًا
 يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْرِمُونَ
 فَهُمْ عِنْدَمَنْ سِوانَا بِلَامُومَ نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْدَرُونَا
 إِنَّمَا أَشِعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النَّظَمِ مَ وَإِنْ كَانَ فِي الْصِّفَاتِ فَنُونَا
 فَأَقَى بَعْضُهُ يُشَاهِدُ كُلُّ بَعْضًا
 كُلُّ مَعْنَى أَنَّاكَ مِنْهُ عَلَى مَا
 فَتَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ
 فَكَانَ الْأَلْفَاظَ مِنْهُ وُجُوهُهُ
 إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسْبُ الْأَمَانِيِّ
 فَإِذَا مَا مَدَحْتَ يَا شِعْرِ حُرَّا
 بَعَثْتَ النَّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا
 وَتَنَكَّبَتَ مَا يُهْجِنُ فِي السَّمْعِ مَ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزِونًا
 وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ بِهَجَاءٍ
 بَعْثَتَ النَّصْرِيْحَ مِنْهُ دَوَاهُ
 وَجَعَلْتَ التَّعْرِيْضَ دَاهِ دَفِينًا
 وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْعَامِ دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْتِ وَالظَّاعِنِينَا
 حَلَّتْ دُونَ الْأَمَى وَذَلَّتْ مَا كَامَ نَ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعَيْوَنِ مَصُونًا
 ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَائِبًا جَثَ بِالْوَعْدِ وَعِيدًا وَبِالصُّوبَةِ يَبِينَا
 فَتَرَكَتَ الْذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ حَذِيرًا آمَنَ عَزِيزًا مَهِينَا
 وَأَصَحَّ الْقَرِيبَ مَا فَارَبَ النَّظَمِ مَ وَإِنْ كَانَ وَاضْحَى مُسْتِينًا
 فَإِذَا فَيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طَرَّا وَإِذَا رَيمَ أَعْجَزَ الْمُغْزِيَنَا

وَمِنْ ذَلِكَ أَبْضَا قَوْلَ بَعْضِهِمْ

الشِّعْرُ مَا قَوَمْتَ رَبْعَ صُدُورِهِ
 وَرَأَيْتَ يَا لِإِطْنَابِ شِعْبَ صُدُورِهِ
 وَفَتَحْتَ يَا لِإِيجَازِ عُورَ عَيْوَنِهِ

وَجَمِعْتَ بَيْتَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ وَجَمِعْتَ بَيْنَ نُحْمِيْهِ وَمَعْنِيْهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا
وَقَضَيْتَ بِالشَّكْرِ حَقَ دِيْوَنِهِ
أَصْفَيْتَ بِتَفْلِيشِ وَرَضْبَةِ
فِيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقِ صُنْوَفِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الْدِبَارَ وَاهْلَهَا
أَجْرَيْتَ لِلْمُغَزُونَ مَاءَ شُوْبَونِهِ
بَايَتَ بَيْتَ ظَهُورِهِ وَبُطُونِهِ
جَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ بِيَقِينِهِ
بِشُبُونِهِ وَظُنُونِهِ شُكُوكَهُ بِيَقِينِهِ

الفصل السابع والأربعون

في ان صناعة النظم والثر انا هي في الالفاظ لا في المعاني

اعلم أن صناعة الكلام تنسماً وثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما
المعاني تبع لها وهي أصل فاصانع الذي يحاول ملائكة الكلام في النظم والثر
إنما يحاولوها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكتثر استعماله وجزيءه
على لسانه حتى تستقر له الملائكة في لسان مضر ويتخاص من التجهم التي ربي عليهما
في جيله ويفرض نفسه مثل وآيد نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها
الصيحي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك أنا قدمنا أن للسان ملائكة
من الملائكة في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي
في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الصيائر وأيضا فالمعنى
موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكري منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج
إلى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو الحتاج للصناعة كما قلناه وهو بثابة
القوالب المعاني فكمما أن الأواني التي يفترض بها الماء من التجربة آنية النسب
والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه ومتختلف الجودة في الأواني
المملوكة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبالغتها في
الاستعمال مختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد
والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملائكة
اللسان إذا حاول العبارة عن معنوياته ولم يحسن بثابة المقدى الذي يروم النهوض

وَلَا يَسْتَطِعُهُ لِنِقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يُعْلِمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والأربعون

في ان حصول هذه الملاكة بكثرة الحفظ وجردتها بمحنة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يريد تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرة من قلته تكون جودة الملاكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان عفوفه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعز أو ابن هاني أو الشريفي الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل ابن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملائكة أجواد وأعلى مقاماً وزنة في البلاغة فمن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرین أو ابن النبیه أو ترشیل البیسانی أو العماد الأصبهانی لنزول طبقة هؤلاء عن أولئک يظهر ذلك للبصر النافذ صاحب الذوق وعلى مقدار جودة الحفظ أو المستموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجاده الملاكة من بعديها فيما زقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملاكة الحاصلة لأن الطبيع إنما ينسج على منوالها وتندمقوى الملاكة يتغذى بها وذلك أن النفس وإن كانت في جملتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات وأختلافها إنما هو بأختلاف ما يريد عليها من الإدراكات والملائكة والألوان التي تُشكّلها من خارج قبدها يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها والملائكة التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملاكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ومملكة الكتابة بحفظ الأشعار والتزليل والعلمية بخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار والنفيحة بخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخریج الفروع على الأصول والتوصيفية الربانية بآلمادات والأذكار وتطويل المحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له مملكة الرجوع إلى حسي الباطن وروحه وينقلب ربانياً وكذا سائرها ولنفس في كل واحد منها لون تشكيف به وعلى حسب ما نشأت الملاكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملاكة في نفسها فملائكة البلاغة العالمية الطبيعة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم فاصرين في البلاغة وما ذلك إلا لـ

يَسْبُقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفِقِيرَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ
أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الْطَّبِيقَةِ لَاَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعِلْمَوْمِ لَاَحْظَى لَهَا فِي
الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظَ إِلَى النِّسْكَرِ وَكُثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ الْمَلَكَةُ
النَّاشرَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَأَنْحرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنِ اسْـالِيـبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِ وَهُكْـمـاً
مَجِدُ شِعْرِ الْفَقِهَاءِ وَأَنْتِعَـةِ وَالْمُتَـكَلِـمـينِ وَالنُّظَارِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ لَمْ يَمْتَلِئُ مِنْ حِفْظِ الْنَّفِيـ
الْمُـحـرـزـ مـنـ كـلـامـ الـعـرـبـ . أـخـبـرـ فـي صـاحـبـناـ الـفـاضـلـ أـبـوـ الـقـاسـمـ بـنـ رـضـوانـ كـاتـبـ الـعـلـامـةـ
بـالـدـوـلـةـ الـمـرـيـنـيـةـ قـالـ ذـكـرـتـ يـوـمـاً صـاحـبـناـ أـبـاـ الـمـعـاـسـ بـنـ شـعـيبـ كـاتـبـ الـسـلـطـانـ
أـبـيـ الـحـسـنـ وـكـانـ الـمـقـدـمـ فـيـ الـبـصـرـ بـالـلـسـانـ لـعـهـدـهـ فـاـنـشـدـهـ مـطـلـعـ قـصـيدـةـ أـبـنـ الـنـحـويـ
وـلـمـ أـنـسـبـهـ لـهـ وـهـوـ هـذـاـ

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ . مَا الْفَرْقُ بَيْنَ حَدِيدَهَا وَالْبَالِيِّ
فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيهَةِ هَذَا شِعْرٌ فَقِيهٌ فَقُلْتُ لَهُ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ فَقَالَ مِنْ قَوْلِهِ مَا
الْفَرْقُ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفَقِهَاءِ وَلَبَسَتْ مِنْ اسْـالِيـبِ كـلـامـ الـعـرـبـ فـقـلـتـ لـهـ تـلـهـ أـبـوـكـ
إـنـهـ أـبـنـ الـنـحـويـ . وـأـمـاـ الـسـكـتـابـ وـالـشـعـرـاـ فـلـبـسـواـ كـذـلـكـ لـتـحـيـرـهـ فـيـ مـحـفـظـهـمـ
وـمـخـالـطـتـهـمـ كـلـامـ الـعـرـبـ وـاسـالـيـبـمـ فـيـ الـرـشـلـ وـأـنـتـقـائـهـمـ لـهـمـ الـجـيدـ مـنـ الـكـلـامـ .
ذـاـكـرـتـ يـوـمـاً صـاحـبـناـ أـبـاـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ الـخـطـيـبـ وـزـيـرـ الـعـلـوـكـ بـالـأـنـدـلـسـ مـنـ بـنـيـ
الـأـخـمـرـ وـكـانـ الصـدـرـ الـمـقـدـمـ فـيـ الشـفـرـ وـالـسـكـتـابـ فـقـلـتـ لـهـ أـجـدـ اـسـتـعـابـاـ عـلـيـ فـيـ
نـظـمـ الـشـعـرـ مـتـىـ رـمـتـهـ مـعـ بـصـرـيـ بـهـ وـحـنـظـيـ لـلـجـيدـ مـنـ الـكـلـامـ مـنـ الـقـرـآنـ وـالـحـدـيـثـ وـقـنـونـ
مـنـ كـلـامـ الـعـرـبـ وـإـنـ كـانـ مـحـفـظـيـ قـلـيلـاـ وـإـلـمـاـ أـتـيـتـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ مـنـ قـبـلـ مـاـ حـصـلـ فـيـ
حـنـظـيـ مـنـ الـأـشـعـارـ الـعـلـمـيـةـ وـالـقـوـانـينـ الـنـاـيـفـيـةـ فـإـنـيـ حـفـظـتـ قـصـيدـتـيـ الشـاطـيـيـ الـكـبـرـيـ
وـالـصـغـرـيـ فـيـ الـقـرـاءـاتـ وـتـدـارـسـتـ كـتـابـيـ أـبـنـ الـحـاجـبـ فـيـ الـفـقـهـ وـالـأـصـولـ وـجـعـلـ
الـخـوـبـجـيـ فـيـ الـمـنـطـقـ وـبـعـضـ كـتـابـ الـسـهـيـلـ وـكـثـيرـاـ مـنـ قـوـانـينـ الـتـعـلـيمـ فـيـ الـمـجـالـسـ
فـاـمـتـلـاـ مـحـفـظـيـ مـنـ ذـلـكـ وـخـدـشـ وـجـهـ الـمـلـكـةـ الـتـيـ أـسـعـدـتـ لـهـ بـالـحـفـظـ الـجـيدـ مـنـ
الـقـرـآنـ وـالـحـدـيـثـ وـكـلـامـ الـعـرـبـ تـعـاقـ الـقـرـيـحـةـ عـنـ بـلـوغـهـاـ فـنـظـرـ إـلـيـ سـاعـةـ مـغـيـثـاـ ثـمـ قـالـ
قـهـ أـنـتـ وـهـلـ يـقـولـ هـذـاـ إـلـاـ مـثـلـكـ . وـبـظـهـرـ لـكـ مـنـ هـذـاـ الـفـصـلـ وـمـاـ نـقـرـرـ فـيـ سـرـ آخـرـ
وـهـوـ إـعـطاـهـ الـسـبـبـ فـيـ أـنـ كـلـامـ الـإـسـلـامـيـنـ مـنـ الـعـرـبـ أـعـلـىـ طـبـقـةـ فـيـ الـبـلـاغـةـ وـأـذـوـقـهـاـ

من كلام الجاهليَّة في منشورِهم ومنظومِهم فـإنا نجد شعرَ حسانَ بن ثابت وعمرَ بن أبي ربيعة والخطيئَة وجَرير والفرزدق ونصبُ وغَلَان ذي الرشمة والأخوص وبشار ثم كلامُ السلفِ من العربِ في الدولةِ الاموية وصدرًا من الدولةِ العباسية في خطبِهم وترسيلِهم ومحاوراتِهم للملوكِ أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهليَّة في منشورِهم ومحاوراتِهم والطبعُ السليمُ والذوقُ الصحيحُ شاهدان بذلك للنادي البصیر بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن وأحاديثَ الذين عجزَ البشر عن الإتيان بِمثيلِهَا لكونِها واجت في قلوبِهم ونشأت على أساليبِها تفوسهم فنهضت طباعهم وأزقت مكالمتهم في البلاغة على ملوكَ من قبلهم من أهلِ الجاهليَّة مِنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطبقةَ وَلَا نَشَأْ عَلَيْهَا فكان كلامُهم في تظاهرِهم وتربيتهم أحسن ديناجة وأصنفَ رونقاً من أولئك وأزصفَ مبنيًّا وأعدل تشقيقًا بما استفادوه من الكلام العالميِّ للطبقة وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنتَ من أهل الذوق والبصر بالبلاغة ولقد سالت يومًا شيخنا الشريفي أبا القاسم فأخي غرناطة لمهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين وأستاجر في علم اللسان وجاء من وراء الفایة فيه فسألته يومًا ما بال العرب الآسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستذكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما أدرى فقلت أعرض عليك شيئاً ظهرَ لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتب فسكت متعجبًا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقيه أن يكتب بالذهب وكان من بعديها يُؤثر محلي وبصريح في مجالس التعليم إلى قوله ويشهد لي بالتأهله في العلوم والله خلق آلا إنسانَ وعلمه البيانَ

الفصل التاسع والأربعون

في ترفع اهل المراتب عن انتقال الشعر

اعلم أنَّ الشعرَ كان دِيَوانَةً للعربِ فيه علومُهم وأخبارُهم وحِكمُهم وكان روًساً لهُمْ العربُ منافسينَ فيه وكانوا يَقْفُونَ بِسوقِ عُكاظِ لإنشادِه وَعَرَضِ كُلِّ واحدٍ منهم

دِيْنَاجَتَهُ عَلَى فَحْولِ الشَّأْنِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ حَتَّى أَنْتَهُوا إِلَى الْمُنَافَقَةِ فِي تَعْلِيقِ
 شِعَارِهِ يَا زَ كَانَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ مَوْضِعُ جَهُومٍ وَيَسِّتُ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ أَمْرُ الْقَيْسِ
 أَبْنُ حَجَرٍ وَالنَّابِغَةُ الْذِيَافِيُّ وَزَهَارُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَ وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَارِفَةُ بْنُ الْعَبْدِ
 وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ وَالْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْلَقَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ
 إِلَى تَعْلِيقِ الشِّعْرِ بِهَا مِنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبَيْهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرِّ عَلَى
 مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ بِالْمُعْلَقَاتِ ثُمَّ اتَّصَرَّفَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ أَوْلَى الْإِسْلَامِ بِمَا
 شَفَّلُهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أَسْلُوبِ الْفَرَآتِ وَتَنَظِيمِهِ
 فَأُخْرِسُوا عَنْ ذَلِكَ وَسَكَنُوا عَنِ الْخُوضِ فِي الْفَنَمِ وَالثَّرْ قَمَانَا ثُمَّ أَسْتَرَّ ذَلِكَ وَأَوْنَسَ
 الْرُّشْدَ مِنَ الْمِلَةِ وَلَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ فِي تَعْرِيفِ الشِّعْرِ وَحْفَارِهِ وَسَمِعَةُ الْبَيْهِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَأَنَّابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دَيْنِنِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ كَبِيرٌ
 وَرَيْشَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالَيَّةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفَعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرُضُ شِعْرَةٌ عَلَى
 أَبْنِ عَبَّاسٍ فَيَقُولُ لِأَسْتَاءِ مُهْجِبَا يَهُ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْمُلَكُ وَالْمَوْلَةُ الْعَزِيزَةُ
 وَأَقْرَبَ إِلَيْهِمُ الْعَرَبُ يَا شَعَارِهِ يَعْتَدِلُونَهُمْ بِهَا وَيُحِبِّهُمُ الْخَلْفَاءُ بِأَعْظَمِ الْجُمُوْنِ عَلَى
 نِسْبَةِ الْجُودَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَغْرِصُونَ عَلَى أَسْتِهَنَاءِ أَشْعَارِهِمْ بَطَّلِمُونَ
 مِنْهَا عَلَى الْأَثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَغْفَةِ وَشَرْفِ الْأَسَانِ وَالْعَرَبِ يُطَالِبُونَ وَلَدَهُمْ يَحْفَظُهَا وَلَمْ
 يَرِزَّلْ هَذَا الْشَّأْنُ أَيَّامَ بَنِي أَمِيَّةَ وَصَدَرَّا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي عَبَّاسٍ وَأَنْظَرُوا مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ الْعِقْدِ
 فِي مُسَامِرَةِ الرَّشِيدِ لِلْأَصْمَعِيِّ فِي بَابِ الشِّعْرِ وَالشِّعْرَاءِ تَجَدُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ مِنَ
 الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ وَالرُّشُوخِ فِيهِ وَالْعِنَایَةِ بِالنَّحَالِهِ وَالْبَصَرِ يَحْمِدُ الْكَلَامَ وَرَدِيَّهُ وَكَثْرَةُ
 مَحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقُ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنْ الْأَسَانُ لِسَانُهُمْ مِنْ أَجْلِ الْتَّعْجِيَةِ وَالْقَصِيرِهَا
 بِالْأَسَانِ وَإِنَّمَا تَعْلَمُهُ صِنَاعَةُ ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أَمْرَاءُ الْعِجمِ الَّذِينَ لَيْسَ الْأَسَانُ لَهُمْ
 طَالِبِينَ مَعْرُوفِهِمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَغْرِاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبُ وَالْبَحْرَيُّ وَالْمَشْبِيُّ
 وَابْنُ هَانِيُّ وَمَنْ بَعْدُهُمْ وَهُمْ جَرَأُوا فَصَارَ غَيْضُ الشِّعْرِ فِي الْفَالِبِ إِنَّمَا هُوَ الْكِتَابُ
 وَالْأَسْتِعْدَاءُ لِهَذَا بِالْمَنَافِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ الْأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّفَا وَأَنْفَتْ مِنْهُ لِذَلِكَ
 أَهْلُ الْأَعْمَمِ وَالْمَرَاثِبِ مِنَ الْمُنَاخِرِينَ وَتَغْيِيرُ الْحَالِ وَأَصْبَحَ تَعَااطِيهِ هُجْنَةً فِي الْرِّئَاسَةِ
 وَمَذْمَمَةً لِأَمْلِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ وَاللَّهُ مُقَابِلُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسلوا في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثني عليه وكان في حمير أيضا شعراء متقدموه ولما فسد لسان مصر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانينها غراها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة فكانت تحيط بالعرب باتفاقهم لغة خالفت لغة سلفهم من مصر في الإغريق بجدلها وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضرة أهل الامصار نشأت ثبات فيهم لغة أخرى خالفت لسان مصر في الإغريق وأكثر الأوضاع والتصاريف خالفت أيضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد وأختلفت هي في تقسيمها بحسب أصنف الأحداث أهل الآفاق فلأهل الشرق وأهل لغة غير لغة أهل المغرب وأهل المغاربة وتناقلهما أيضا لغة أهل الأندلس وأهل مصاربه ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان لأن الموارين على نسبة واحدة في أغداد المترددة والسوakan وتقابلهما موجودة في طبائع البشر فلم يغير الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مصر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخلائق بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستحبفين والمحضر أهل الامصار يتبعون منه ما يطاؤهم في انتقامه ورصف بنائه على مبيع كلامهم فاما العرب أهل هذا الجيل المستحبفين عن لغة سلفهم من مصر فيفرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعريض على ما كان عليه سلفهم المستربون وباتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسبي والمدح والثناء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام وزوريا هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر أبتدائهم في قصائدتهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاعجميات نسبة إلى الاعجمي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وزوريا يلغون فيه أحاجانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم

يُغثونَ به وَيُسمونَ الْفَنَاءَ بِهِ بِاَسْمِ الْحُورَانِيِّ نِسْبَةً إِلَى حُورَانَ مِنْ اَطْرَافِ الْعَرَاقِ
وَالشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَّةِ وَمَا كَبِّهُمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ. وَلَئِنْ فَنَّ اخْرُجَ كَثِيرٌ
الْتَّدَأُولُ فِي نَظَمِهِمْ يَجِيئُونَ بِهِ مُعَصِّبًا عَلَى اَزْبَعَةِ اَجْزَاءِ يُخَالِفُ اَخْرُجَهَا اَثْلَاثَةَ فِي رَوْيَةِ
وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَّةَ اَرْبَاعَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ إِلَى اَخْرِيِّ الْقَصِيدَةِ شَبِيهَهَا بِالْمُرَبِّعِ وَالْمُخْمَسِ
الَّذِي اَحْدَثَهُ الْمُتَّاخِرُونَ مِنْ الْمُوَلَّدِينَ وَلِهُواءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الشِّعْرِ بِلَاغَةً فَائِقةً
وَفِيهِمْ اَنْفُولُ وَالْمُتَّاخِرُونَ وَالْكَثِيرُ مِنْ اَمْتَنِحِلِينَ لِلْعُلُومِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَخُصُوصَاتِ اَعْلَمِ
اللِّسَانِ يَسْتَنْكِرُ صَاحِبِهَا هَذِهِ الْفَنَاءَ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوهَا وَيَمْعِنُ نَظَمُهُمْ اِذَا اُنْسِدَ وَيَعْتَقِدُ
اَنَّ ذَوْقَهُ اِنْمَا بَأَنَّهَا عَنْهَا لِاَسْتِهْجَانِهَا وَفِقْدَانِ الْاِعْرَابِ مِنْهَا وَهَذَا اِنْمَا اَقِيَّ مِنْ فِقْدَانِ
الْمَلَكَةِ فِي لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلتَ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبُعَهُ وَذَوْقُهُ بِلَاغَتِهَا
اِنْ كَانَ سَلِيمًا مِنَ الْاَفَاتِ فِي فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَاَلْاَفَالْاِعْرَابُ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْبَلَاغَةِ
اِنْمَا الْبَلَاغَةُ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَقْصُودِ وَلِمُقْتَضَى الْحَالِ مِنَ الْوُجُودِ فِيهِ سَوَادٌ كَانَ
اَرْفَعُ دَالًا عَلَى الْفَاعِلِ وَالنَّصْبُ دَالًا عَلَى الْمَفْعُولِ اَوْ بِالْعَكْسِ وَإِنْمَا بَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ كَمَا هُوَ فِي لُغَتِهِمْ هَذِهِ فَالدَّلَالَةُ بِحَسْبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ اَهْلُ الْمَلَكَةِ
فَإِذَا عُرِفَ اَصْطِلَاحُهُ فِي مَلَكَةِ وَاشْتَهَرَ صِحَّهُ الدَّلَالَةُ وَإِذَا طَبَقَتْ تِلْكَ الدَّلَالَةُ
الْمَقْصُودُ وَمُقْتَضَى الْحَالِ صَحَّتِ الْبَلَاغَةُ وَلَا عِبْرَةَ بِقَوَاعِنِ النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ وَاسَالِبُ الشِّعْرِ
وَفُونَهُ مَوْجُودَةٌ فِي اَشْعَارِهِمْ هَذِهِ مَا عَدَ حَرَكَاتِ الْاِعْرَابِ فِي اَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ فَلَئِنْ
غَالَبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْقِفَةُ الْاَخْرِيِّ وَيَتَمَيَّزُ عِنْهُمْ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْاخْبُرِ
بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ لَا بِعِرَكَاتِ الْاِعْرَابِ

(الموشحات والازجال للأندلس)

وَامَّا اَهْلُ الْاَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشِّعْرُ فِي قُطْرِهِمْ وَتَهَذَّبَتْ مَنَاجِيَهُ وَفُونَهُ وَبَلَغَ
الْتَّنْمِيقُ فِيهِ الْقَافِيَّةَ اَسْتَحْدَثُ الْمُتَّاخِرُونَ مِنْهُمْ فَنَّا مِنْهُ مَمْتُوْهُ بِالْمَوْشِحِ يَنْظِمُونَهُ اَمْبَاطًا
اَمْبَاطًا وَأَغْصَانًا اَغْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعْارِيفِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيُسْمِنُ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا يَسْتَأْنِسُ
وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَهُ قَوَافِي تِلْكَ الْاَغْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتَنَالِيَا فِيهَا بَعْدُ إِلَى اَخْرِيِّ الْقِطْعَةِ
وَأَكْثَرَ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ اِيَّاتٍ وَبَشْتَمِيلٌ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى اَغْصَانِهَا عَدَدُهَا
يَحْسَبُ الْاَفْرَاسِ وَالْمَدَاهِبِ وَيَتَسَبِّبُونَ فِيهَا وَبَمَدْحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ وَتَجَارَ وَا

في ذلك إلى الغاية واستطرافه الناس جملة أخلاقه والكافرة لسهولة تناوله وقرب طرifice وكان المختار لها يحيى بن عبد الله الأندلسى مقدم بن معاشر الفريجى من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرزاوى وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد رببه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرین ذكره وكسرت مؤشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القرضاوى شاعر المعتصم ابن همادح صاحب العزيمة

بدرت تم . شمس ضحا غصن نقا . مسلك شم
ما اتم . ما اوضحا محا اورقا . ما انم
لا جرم . من لمحا قد عشقا . قد حرم

وزعموا أنهم لم يسبقه وشاع من معاصريه الذين كانوا في زمان الطوائف
وذكر غير واحد من المشائخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة
من الوشاحين أجهشوا في مجلس باشيلية وكان كل واحد منهم أصطنع مؤشحة
وتافق فيها فتقدم الأعلم الطالبي للإشهاد فلما افتتح مؤشحته المشهورة يقوله
ضالوك عن جهان . سافر عن دار ضاق عن الزمان . وحواء صدرى
صرف ابن يقى مؤشحته وتبعه الآباء وذكر الأعلم البطليومي أنه سمع ابن زهير يقول
ما حسدت قط وشاما على قول إلا ابن يقى حين وقع له

أما نرى أخمد . في مجده العالى لا يتحقق أطلعه الغرب . فارنا مثله يا مشرق
وكان في عصرهما من المؤشحين الطبوعين أبو بكر الأبيض وكان في عصرهما أيضا
الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاعين المعروفة ومن الحكيمات المشهورة
أنه حضر مجلساً مخدوماً ابن تيفلوبى صاحب سرقسطة فلقي على بعض قيئاته مؤشحته
جزر الدليل أياها جز وصل الشكر منك يا شكر

فطرب المندوخ بذلك لما ختنها يقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلعين سمع ابن تيفلوبى صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما
احسن ما بدأت وخذلت وخلفت بالآيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا
على الذنب فغاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعليه ومشى عليه

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَابِ بْنُ زُهْرَةَ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زُهْرَةَ ذِكْرًا بَعْدَ بَكْرًا لَا يَنْهَا
 الْوَشَاحَ الْمُتَقَدِّمِ الَّذِي كَرِرَ فَقَصَّ مِنْهُ بَعْضُ الْمُحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَقْصُّ مِنْهُ بَقُولُ
 مَا لَدَنِي شَرَابٌ رَاجِعٌ عَلَى رِيَاضِ الْأَقْدَامِ لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَاحِ إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصْبَابِ أَضَعُّ يَقُولُ مَا لِلْسَّعْدِ لَعْمَتْ خَدَّيْهِ
 وَلِلشَّعَالِ هَبَّتْ فَمَالِي غُصْنُ أَعْنَدَالِ ضَعْفُ بُرُودِهِ
 مِنْ أَبَادَ الْقُلُوبَا يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيَا الشَّنَبِيَا
 بَرَدٌ عَلِيلٌ صَبَّ عَلِيلٌ لَا يَسْتَحِيلٌ فِيدَ عَنْ عَهْدِي
 وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ يَرْجُو الْوَصَالَ وَهُوَ فِي الصَّدَّ
 وَأَشْتَهِرَ بَعْدَ هُوَلَاءِ فِي صَدَرِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرْفِ فَكَلَّ
 الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْأَفْتِشَاحِ

شَمْسُ قَارِبَتْ بَدْرًا رَاجِعٌ وَنَدِيمٌ

وَابْنُ بَهْرَوْدِيَ الَّذِي لَهُ يَالِلَّهِ الْوَصْلُ وَالسَّعْدُ يَا لَهُ عَوْدِي
 وَابْنُ مُؤْهَلِ الَّذِي لَهُ مَا أَمْيَرَ فِي حُلَّةٍ وَطَاقِ وَثَمَمٍ وَطِيبٍ وَإِنَّمَا الْعِيدُ فِي النَّلَاقِيِ معَ الْحَمِيبِ
 وَأَبُو إِسْحَاقَ الْرَّوَيْنِيِ قَالَ أَبْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى
 أَبْنِ زُهْرَةَ وَقَدْ أَسَنَ وَعَلَيْهِ زَيْدُ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحُصْنِ سَبَاتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ
 فَجَلَسَ حَيْثُ أَنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَتِ الْمُحَاخَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوْسَمَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ الدَّجَى يَعْجَرِيِ مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ

وَمَعْصَمُ النَّهَرِ فِي حُلَّلِ خُضْرِيِ مِنْ الْبَطَاطِحِ

فَتَحَرَّكَ أَبْنُ زُهْرَةَ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ أَخْبَرَ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَفَهُ فَقَالَ أَرْشَفَ
 فَوَأْلَهُ مَا عَرَفْتَ قَالَ أَبْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ هُوَلَاءَ أَبُو بَكْرٍ بْنِ زُهْرَةِ
 وَقَدْ شَرَقَتْ مُوْسَمَةُ وَغَرَبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ
 زُهْرَةِ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي التَّوْشِيعِ قَالَ كُنْتَ أَقُولُ

مَا لِلْمُوْلَاهِ مِنْ سَكِرْمَلَا يُفِيقُ يَالَّهُ سَكْرَانُ مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ مَا لِلْكَثِيبِ الْمُشْوَقِ يَنْدِبُ الْأَوْطَانَ

هَلْ تَسْتَعِدُ أَيَّامُنَا بِالْخَلْبِيَعِ . وَلِسَالِنَا

أَوْ نَسْتَفَادُ مِنْ النَّسِيمِ الْأَرْبِيعِ . مِسْكَدَارِنَا

واد يكاد حسن المكان بالبيج . ان يجيئنا

نهر اظله . دفع عليه أنيق . مورق قيكان . والملام يجري . وعائم وغريق . من جنى الريحان
ومن محاسن الموئلات للهدا خرين . موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبة من
بعليها فعنها قوله

قلب صبة حلة عن مكتسي
فهو في نار وحني مثل ما
لقيت ريح الصبا بالقبس
وقد سمع على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الأندلس
والمغرب لمصر وقد مر ذكره فقال

بازمان الوهل يا الأندلس
في الكرى أو خلسة العخلس
ينقل الخطو على ما يرسم
مثل ما يدعوا الوفود المؤس
فغور الزغر فيه ترسم
كيف يروي مالك عن أنس
يزدي منه يابعه ملبس
بالدجى لولا شموس الغرر
مستقيم السير سعد الآخر
أنه مر كلنخ البصر
هجم الصبح هجوم الخرس
أثرت فيما عيون الترجس
فيكون الروض قد مسكن فيه
آمنت من مكره ما نظره
وخلاء كل خليل يأخذه
يكتسي من غبطه ما يكتسي
يسرق الدمع ياذني فرس

هل دري ظبي الحمى أن هذ حمى
 فهو في نار وحني مثل ما

جادك الغيث إذا الغيث هى
لم يكن وصالك إلا حلما
إذا يقود الدهر أشتاب المعنى
زمرا بيت فرادى وتنا
وألحيا قد جلل الروض سنى
وروى النعمان عن ما وآل السما
مكساه الحسن ثوابا معلما
في ليال كنت سير الهوى
مال نجم الكناس فيها وهوى
وطرا ما فيه من عيب مسوى
 حين لذ النوم هنا أو كما
غارت الشهبينا أو ربما
أيش شيء لامری قد خلما
تنبه الأزهار فيه الفرحا
فإذا العاه ينادي والحسا
تعصر الورد غيرها بما
وترى الآس لبيها فهمها

يَا أَهْيَلَ الْجَنَاحِ مِنْ وَادِي الْفَضَا
 ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفَضَا
 فَأَعْيَدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى
 وَأَنْقَوا اللَّهَ وَأَجْبَوا مُغْرِمًا
 حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
 وَبِقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبٌ
 قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
 قَدْ تَساوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبٌ
 سَاحِرُ الْمُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّهِي
 سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى
 إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَخَابَ الْأَمَلُ
 فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوْلُ
 أَمْرُهُ مُعْتَمِلٌ مُمْتَلِّ
 حَكْمَ الْحَظْرِ بِهَا فَأَخْتَكَمَا
 يُنْصِفُ الْمَظْلومَ مِنْ ظَلَمَا
 مَا إِقْلِي كُلَّمَا هَبَتْ صَبَا
 كَانَ فِي الْلَّوْحِ لَهُ مُكْتَبَا
 جَلَبَ أَهْمَمَ لَهُ وَالْوَصَبَا
 لَأَعْجَمَ فِي أَضْلَاعِي قَدْ أَضْرَمَا
 لَمْ يَدْعُ مِنْ مُفْجِعِي إِلَّا الدِّمَا
 سَلِمِي بِأَنْفُسِي فِي حُكْمِ الْفَضَا
 وَأَتَرْكِي ذَكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى
 وَأَصْرِي فِي القَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الْرِضَى
 الْكَرِيمُ الْمُنْتَهَى وَالْمُنْتَهَى
 يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا

وَبِقَلْبِي مَسْكِنٌ أَنْشَمْ بِهِ
 لَا أَبْكِي شَرْقَةَ مِنْ غَزِيزِهِ
 ثَنَقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَزِيزِهِ
 يَتَلاشَى نَفَسًا فِي نَفْسِ
 أَفْتَرَضَنَ خَرَابَ الْجَبَسِ
 يَا حَادِيثُ الْمُنْتَهَى وَهُوَ بَعِيدٌ
 شَقْوَةَ الْمُغْرِبِ بِهِ وَهُوَ سَعِيدٌ
 فِي هَوَاءِ بَيْتٍ وَغَدِي وَوَعِيدٌ
 جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
 بِفُؤَادِي نَبَلَةَ الْمُفْتَرِسِ
 وَفُؤَادَ الصَّبِرِ بِالشَّوْقِ يَذَوَّبُ
 لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِحَبِيبٍ ذُنُوبٍ
 فِي ضُلُوعِي قَدْ بَرَاهِمَا وَقُلُوبٍ
 لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضَعَافِ الْأَنْفُسِ
 وَيَجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسِيِّ
 عَادَهُ عِيدُ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدٌ
 قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ
 فَهُوَ لِلأشْجَانِ فِي جُهْدٍ جَهِيدٌ
 فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْبَيْسِ
 كَبْقَاءَ الصَّبَحِ بَعْدَ الْغَلَسِ
 وَأَعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْبِي وَمَتَابِ
 بَيْنَ عَتَّبِي قَدْ ثَقَضَتْ وَعْتَابِ
 مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
 أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدِيرِ الْمَجَلسِ
 يَنْزِلُ الْوَحْيُ يَرْوِحُ الْقُدُسِ

وَاعْلَمُ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كَالَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ الْأَلْفَةَ وَكَثُرَ أَسْتَعْنُهَا لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحَصِّلَ مَا كَنَّهَا كَمَا قُلْنَاهُ فِي الْأَلْفَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَلَا الْأَنْدَلُسِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْمَغْرِبِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّ أَلْسَانَ الْمَغْرِبِيِّ وَأَلْسَانَ الْمَشْرِقِيِّ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبِلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَاقَ لِحَامِينَ الْشِعْرَ مِنْ أَهْلِ جِلْدِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَسْنَاتِكُمْ وَأَزْوَانِكُمْ آيَاتٍ وَقَدْ كَدَّنَا نَفْرَجَ عَنِ الْغَرَضِ وَإِذْلِكَ عَزَّ مَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ القَوْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ الْمُرْمَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدْ أَسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مِنْ يَا قِيَ بَعْدَمَا يَعْنِي يُؤْيِدُهُ اللَّهُ يَفْكِرُ بِتَحْبِيجٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْدِطِ الْفَنِ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْبِينُ مَوْضِعِ الْعِلْمِ وَتَنْوِيْعُ فُصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمُتَأْخِرُونَ يُلْعِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَائِئًا فَشَائِئًا إِلَى أَنْ يَكُمُّوا وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عني الله عنه اتمت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التتفيم والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعينا ثم انفتحت بعد ذلك وعذبه والحقت به توارييخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطه وما العلم الا من عند

الله العزيز الحكيم



فهرست الكتاب

صحيفة	صحيفة
١٣٠ يكون الا للقبائل اهل العصبية . فصل في اختلاط الانساب كيف يقع .	٩ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه واللامع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من أسبابها .
١٣١ فصل في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية .	٤١ المقدمة الاولى في ان الاجتماع الانساني ضروري .
١٣٢ فصل في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم	٤٤ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة إلى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم .
١٣٦ فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء .	٥٢ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا .
١٣٨ فصل في ان الام الوحشية اقدر على التغلب من سواها .	٨٢ المقدمة الثالثة في المتبدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من حوالهم .
١٣٩ فصل في ان الغابة التي تجري اليها العصبية هي الملك .	٨٦ المقدمة الرابعة في اثر الهواء في اخلاق البشر .
١٤٥ فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملوكها اوسع .	١٢٠ فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية .
١٤٩ فصل في ان العرب لا يتغلبون - الا على البساط .	١٢١ فصل في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي .
١٥١ فصل في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك .	١٢٣ فصل في ان اهل البدو اقرب إلى الخير من اهل الحضر .
١٥٤ فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبية .	١٢٥ فصل في ان اهل البدو اقرب إلى الشجاعة من اهل الحضر .
١٥٦ فصل في انه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية .	١٢٧ فصل في ان سكنى البدو لا
١٥٩ فصل في ان الدعوة من غير عصبية لا تتم .	

صحيفة .

- ٢٣٥ فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابهما .
- ٢٤٣ ديوان الاعمال والجبائيات .
- ٢٤٦ ديوان الرسائل والكتابة .
- ٢٥٢ قيادة الاساطيل .
- ٢٥٧ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول .
- ٢٦٠ السرير والمنبر والتحت والكرسي .
- ٢٦١ السكة .
- ٢٦٤ الخاتم .
- ٢٦٦ الطراز .
- ٢٦٧ الفساطيط والسياج .
- ٢٦٩ المقصورة للصلة والدعاء في الخطبة .
- ٢٧٠ فصل الحروب ومذاهب الام في ترتيبها .
- ٢٧٢ فصل ومن مذاهب اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصف وراء عسكرهم الغ .
- ٢٧٩ فصل في الجباية وسبب قتلتها وكثرتها .
- ٢٨٠ فصل في ضرب المكوس او اخر الدولة .
- ٢٨٢ فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة .
- ٢٨٦ فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية .
- ٢٨٦ فصل في ان الظلم مؤذن بخراب العمran .
- ٢٨٩ فصل ومن اشد الظلاميات واعظمها في فساد العمran تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق .
- ٢٩٠ فصل في الحجاب كيف يقع في

- ١٦١ فصل في ان كل دولة لها حصة من المالك والوطن لا تزيد عليها .
- ١٦٦ فصل في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجده .
- ١٦٧ فصل في ان من طبيعة الملك الترف .
- ١٧٠ فصل في ان الدولة لها اعماد طبيعية كما للأشخاص .
- ١٧٢ فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .
- ١٧٧ فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها .
- ١٨٤ فصل في احوال المسوالي والمصطنعين في الدول .
- ١٨٥ فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه .
- ١٨٦ فصل في ان المقربين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك .
- ١٨٧ فصل في حقيقة الملك واصنافه
- ١٨٨ فصل في ان ارهاف الحد مضر بالملك وفسد له في الاكثر
- ١٩٠ فصل في معنى الخلافة والامامة .
- ١٩١ فصل في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه .
- ١٩٦ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة .
- ٢٠٢ فصل في انقلاب الخلافة الى الملك .
- ٢٠٩ فصل في معنى البيعة .
- ٢١٠ فصل في ولادة العهد .
- ٢١٨ فصل في الخطط الدينية الخلافية .

صحيفة	صحيفة
٣٧٧ فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض .	الدول وانه يعظم عند الهرم .
٣٧٩ فصل في لغات اهل الامصار .	٢٩٢ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين .
٣٨٢ فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه .	٢٩٣ فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع .
٣٨٣ فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي .	٢٩٤ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة .
٣٨٩ فصل في ان الجاه مفید للعمال .	٢٩٨ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع .
(٣٩٤) فصل في معنى التجارة ومذاهبتها واصنافها .	٣٠١ فصل في وفور العمran آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات .
٣٩٦ فصل في نقل التاجر للسلع .	٣٠٢ فصل في ان العمran البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره .
٣٩٧ فصل في الاحتکار .	٣١١ فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك .
٣٩٩ فصل في ان الصنائع لا بد لها من المعلم .	٣٣٠ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر .
٤٠٣ فصل في ان الصنائع انما تستجاذ وتکثر اذا کثر طالبها .	٣٤٤ فصل في ان الملك يدعوا الى نزول الامصار .
٤٠٤ فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع .	٣٤٦ فصل في ان الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة .
٤٠٥ فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة نقل ان يجید بعدها ملكة اخرى .	٣٤٩ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم .
٤٠٥ فصل في الاشارة الى امهات الصنائع .	٣٥٧ فصل في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة .
٤٠٦ فصل في صناعة الفلاحة .	٣٥٩ فصل في مبادي الخراب في الامصار .
٤٠٦ فصل في صناعة البناء .	٣٦٢ فصل في اسعار المدن .
٤١٠ فصل في صناعة التجارة .	٣٧٦ فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض .
٤١١ فصل في صناعة الحياكة والخياطة .	
٤١٢ فصل في صناعة التوليد .	
٤١٥ فصل في صناعة الطب وانها تحتاج اليها في الحاضر والامصار دون البدایة .	
٤١٧ فصل في ان الخط والكتابية من عداد الصنائع الانسانية .	
٤٢١ فصل في صناعة الوراقه .	

صحيفة

- ٤٣٣ التفسيرية الاصابة بالعين .
- ٤٣٤ علم الكيمياء .
- ٤٣٤ فصل في ابسطال الفلسفه وقساد منتحلها .
- ٤٣١ فصل في ان كثرة التاليف في العلوم عائقه عن التحصل .
- ٤٣٣ فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته .
- ٤٣٤ فصل واعلم ايها المتعلم الخ .
- ٤٣٥ فصل في ان الشدة على المتعلمين مضره بهم .
- ٤٣٣ فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثراهم العجم .
- ٤٣٥ فصل في علوم اللسان العربي.
- ٤٣٦ علم النحو .
- ٤٣٨ علم اللغة .
- ٤٣٠ علم البيان .
- ٤٣٣ علم الادب .
- ٤٣٤ فصل في ان اللغة ملكة صناعية .
- ٤٣٩ فصل في تعليم اللسان المضري.
- ٤٣٦ فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستفنيه عنها في التغليم .
- ٤٣٦ فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنشر .
- ٤٣٩ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه .
- ٤٧٨ فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .
- ٤٨٠ فصل في ترفع اهل المراتب عن انتقال الشعر .
- ٤٨٢ فصل في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد (وفيه اشعار الهلالية والزناتية) .
- ٤٨٣ المؤشحات والازجال للاندلس .

صحيفة

- ٤٢٣ فصل في صناعة الغناء .
- ٤٢٨ فصل في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب .
- ٤٣٠ فصل في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع .
- ٤٣٥ فصل في اصناف العلوم الواقعه في العمran لهذا العهد .
- ٤٣٧ علوم القرآن من التفسير والقراءات .
- ٤٤٠ علوم الحديث .
- ٤٤٤ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض .
- ٤٤١ علم الفرائض .
- ٤٥٢ اصوات، الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات .
- ٤٥٨ علم الكلام .
- ٤٦٧ علم التصوف .
- ٤٧٥ تعبير الرؤيا .
- ٤٧٨ العلوم العقلية واصنافها .
- ٤٨٢ العلوم العددية .
- ٤٨٣ ومن فروع علم العدد صناعة الحساب .
- ٤٨٣ ومن فروعه الجبر والمقابلة .
- ٤٨٤ ومن فروعه ايضا العاملات .
- ٤٨٥ العلوم الهندسية .
- ٤٨٧ ومن فروع الهندسة المساحة .
- ٤٨٧ علم الهيئة .
- ٤٨٨ ومن فروعه علم الازياج .
- ٤٨٩ علم المنطق .
- ٤٩٢ الطبيعيات .
- ٤٩٣ علم الطب .
- ٤٩٤ الفلاحة .
- ٤٩٥ علم الالهيات .
- ٤٩٦ علوم السحر والطلسمات .
- ٥٠٣ فصل ومن قبيل هذه التأثيرات